

تاريخ المسلمين وأناهم في الأندلس

(من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة)

دكتور
السيد عبد العزيز بن سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والمضارعة للإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤسسة شبابية الجامعة
بيروت - الدكتور محمد علي مشرف
٢٠١٢ - ٢٠١٣

مطبعة الانتصار
غلاف
ELENGOR PRESS
١٠ ش الوردى كوم الدكة - ت : ٤٩١٦٥٩٧

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس

من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

استاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

١٩٩٧

مؤسسة شباب الجامعة

د. ش. الدكتور مصطفى مشرفة

ت ٤١٣٩٤٧٢ - الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حظي تاريخ المشرق الإسلامي بجانب كبير من عناية المؤرخين المحدثين ، باعتباره الموطن الأصلي للجنس العربي : فقيه قام الإسلام كدين ودولة ، وفيه نبئت بذور الحضارة الإسلامية ، وفيه نمت وترعرعت . أما المغرب الإسلامي ، فلم يلق من هذه العناية إلا حظاً يسيراً ، فكان في الموضع الثاني من الأهمية ، لأنه دخل في الدولة العربية كأي قطر مفتوح ، فتطعمت حضارته بالتقاليد المشرقية التي كانت تتدفق عليه في موجات متتابة ، بفضل وفود العلماء المشاركة إليه ، من أدباء وعلماء لغة وفلاسفة ورجال فن ، ثم إنه نكب بضياح الأندلس نهائياً سنة ١٤٩٢ م ، ورزى بالحروب والغزوات التي توالى عليه بعد الاسترداد المسيحي للأندلس إذ انتقلت إلى أرضه الإفريقية الحرب المقدسة التي كان يقوم بها الإسبان والبرتغاليون في الأندلس ، وعلى هذا النحو تعرضت بلاد المغرب للأطماع الاستعمارية لهاتين الدولتين ، ثم فرضت فرنسا حمايتها على سائر أجزائه بقوة السلاح ، وكانت تستعمر حتى عهد قريب جزءاً هاماً من أجزائه هو المغرب الأوسط (الجزائر) .

وهكذا لم يظفر التاريخ والحضارة الإسلامية في المغرب عامة والأندلس على وجه خاص بما يستحقانه من عناية الباحثين ، وساعد على ذلك ما كان يعرفه العالم الإسلامي والأوربي حتى طليعة القرن التاسع عشر عن تاريخ الإسلام وحضارته في الأندلس ، وكانت معرفتهم به لا تعدو صورة باهتة شاحبة ، لا تمثل حقيقة بحال من الأحوال ، وكان جل من كتب في تاريخ الأندلس من الفرنسيين أو الإسبان رجالاً متعصبين لدينهم ، لم ينصفوا الإسلام في الأندلس دوره الرائع

الذى قام به فى العصر الوسيط ، أما من بحث منهم فى التراث الفنى الذى خلفه المسلمون فى هذه البلاد ، وأقصد به ما تبقى لهم من آثار سواء كانت آثاراً معمارية أم زخرفية ، فقد نسبوا معظمها إلى الرومان أو القوط الغربيين ، من أمثال هؤلاء رودريجو كارو ، والمؤرخ الإشبيلي الونسو مورجادو ، وبايستروس ، وقد أنكر هؤلاء نسبة معظم هذه الروائع إلى المسلمين ، وكأنهم استكثروا عليهم أن يبدعوا مثل هذه الروائع الفنية . ثم إن معظم هذه الكتابات كانت تختلط فيها الحقيقة بالخيال ، إذ كانت تعتمد على القصص والروايات التى توارثها القوم ، وتواترت على ألسنة الناس جيلاً بعد جيل ، بل إن الآثار الإسلامية الباقية فى الأندلس بما تتسم به من جمال فنى ، وما يحيط بها من أسرار وغموض ، كانت تساعد على تأليف موضوعات شبيهة لمثل هذه القصص والأساطير .

ثم بدأت خيوط من أضواء التاريخ تبتدئ شيئاً فشيئاً ذلك الظلام الخالك الذى أحاط بتاريخ المسلمين فى الأندلس ، وتكشفت حقائق كانت خافية بفضل جهود كثير من المستشرقين^(١) . وبدأ العالم الأوروبى ، وقد بهرته هذه الاكتشافات يهتم بتاريخ الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، بعد أن وضع له تفوقها على حضارته ، وتبين فضلها عليها ، فقد كان الأندلس فى الحقى مركز الاتصال بين آسيا وإفريقيا

(١) كان كل اعتماد الأبحاث العربية الأندلسية على نقل النصوص والروايات الواردة فى الكتب المعروفة وقتئذ مثل كتاب نفح الطيب للمقرئ ، وكتاب العبر لابن خلدون ، دون مقارنة النصوص بعضها ببعض أو نقدها والتعليق عليها ، فلما ظهر فهرس المخطوطات الأندلسية بمكتبة الإسكوريال الذى أصدره المتأسبن العربى غزيرى Gasiri عام ١٧٧٠ ، ساعدت النصوص العربية التى عرز بها غزيرى فهرسه ، عن تاريخ الأندلس ، على قيام الأبحاث العلمية فى هذا التاريخ ، وبدأت هذه الأبحاث تسلك اتجاهات علمية سليمة ، فقد أعان هذا الفهرس الباحثين فى التاريخ الإسلامى بالأندلس على الاطلاع على المصادر العربية المخطوطة والإفادة منها فى كتاباتهم . وعلى هذا النحو ظهر كتاب « التاريخ النقدى لإسبانيا والحضارة الإسبانية » للمؤرخ الإسباني ماسدى ، وخلفه المؤرخ الإسباني خوسى كندى صاحب كتاب « تاريخ دولة العرب فى إسبانيا » ، وإن كان هذا المؤلف قد نقل كثيراً من النصوص دون دراستها الدراسة اللائقة ، وبذلك وقع فى كثير من الأخطاء التاريخية التى أخذها عليه دوزى . ثم ظهر دوزى الهولندى ، أول مؤرخ متأسبن استطاع أن يكتب تاريخاً منهجياً قيمياً عن « تاريخ المسلمين فى إسبانيا حتى عصر المرابطين » استغل فيه المصادر العربية أحسن استغلال . وما زال هذا الكتاب رغم قدمه من أعظم المصادر الأوروبية فى تاريخ الأندلس . ثم أصدر دوزى كتابه الثانى عن « أبحاث فى تاريخ أسبانيا وآدابها فى العصور الوسطى » ، ثم نشر عدة كتب فى هذا التاريخ أهمها البيان المغرب لابن عذارى ، وجزء من الحلة السراء ، ووصف الأندلس من كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسى ، وكتاب نفح الطيب .

من جهة وبين أوروبا من جهة أخرى ، أو البحر الذي عبرت منه تأثيرات الحضارة الإسلامية المتفوقة إلى القارة الأوروبية : فمنه انطلقت أشعة هذه الحضارة ، فغمرت جنوبي فرنسا وإيطاليا ، وأدركت أضواؤها شمالي أوروبا ، في الوقت الذي كانت فيه هذه القارة مغمورة في ظلمات الجهل والانحطاط . وهنا عرف الأوروبيون عظم ما تدين به حضارتهم للإسلام في الأندلس ، فأقبلوا على دراسة هذه الحضارة الأندلسية ، وزيارة آثارها التي أصبحت تؤلف أعظم مراكز السياحة في العالم ، ونتج عن هذا الاهتمام آثار هامة ، إذ نشطت الدراسات الأندلسية والمغربية ، وتقدمت تقدماً هائلاً على نحو لم يكن في الحسبان ، خاصة بعد أن أخذ كثير من المستشرقين يقومون بنشر كثير من المصادر العربية الأندلسية ، وأهم ما صدر في هذا السبيل ، الأجزاء العشرة التي تتألف منها المكتبة الأندلسية ، وغيرها . ومن أشهر المستشرقين الإسبان الذين ظهروا منذ سنة ١٨٨٠ كوديرة ، ولافونتي القنطرة ، ونوليان ريبيرو ، وبونس بويجس ، وسيمونيت ، وآسين بلاثيوس ، وجثالث بلنسية ، وإيسيلرو دي لاس كاخيغاس ، وغرسيه جومث ، وانطونيا ملشر ، وإويثي ميراندا ، وسانشث البرنس . أما المتأسبين من الفرنسيين فنخص بالذكر منهم ليثي برفنسال رئيسهم على الإطلاق فإن ما كتبه وما حققه عن تاريخ المغرب والأندلس يعتبر أعظم ما قام به مستشرق حتى الآن .

ولم يكن العرب بعلمين عن هذه الحركة العلمية الأندلسية ، فقد أسهموا بقسط محدود في تلك الدراسات ، ثم ازداد اهتمام العرب بالمغرب الإسلامي ، بعد أن نضج الوعي القومي العربي ، وشمل بلاداً تمتد من الخليج العربي حتى المحيط الأطلسي . فبدأوا يوجهون اهتمامهم لدراسة التراث الإسلامي في الأندلس . وكان قيام معهد الدراسات الإسلامية بمديرية سنة ١٩٥٠ خطوة موفقة في هذا السبيل . ومنذ ذلك الحين ظهرت بعض التواليف والترجمات التي تعرض صوراً من هذا التاريخ الأندلسي^(١) . وكان للنجاح الكبير الذي صادفته الدراسات الأندلسية

(١) من هذه التواليف : تاريخ إسبانيا الإسلامية للأستاذ عبد الله عنان ، وفجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، وسقوط الخلافة الأموية لنفس المؤلف ، وتاريخ الأدب الأندلسي للدكتور أحمد هيكال ، والمساجد والقصور في الأندلس لصاحب هذا الكتاب ، وغيرها مما لا يتسع المجال لحصره . أما عن تعريب بعض الكتب الأوروبية الهامة ، فنخص بالذكر منها على سبيل المثال : كتاب الإسلام في المغرب

أثر عظيم في تشجيعنا على المساهمة في كشف النقاب عما خفى من تاريخ حضارة المسلمين في الأندلس ، وتزويد مكتبتنا العربية بتفاصيل شيقة عن جانب من أهم جوانب الحضارة الإسلامية ، نعتز به كل الاعتزاز ، ونفخر بأصالة كل الفخر ، والله نسأله التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

سوالأندلس ليش بروقتال وقتت بترجمته بالاشتراك مع الأستاذ صلاح حلى ، وكتاب الفن الإسلامى فى إسبانيا تأليف جومث مورينو وترجمة الدكتور لطفى عبد البديع بالاشتراك معى ، وتاريخ الفكر الأندلسى تأليف جونثالث بلنسية وترجمة دكتور حسين مؤنس إلى غير ذلك من الترجمات . كذلك قام عدد كبير من الأساتذة المصريين بنشر كثير من المصادر العربية الأندلسية مثل كتاب المغرب فى حل المغرب لابن سعيد المغربى قام بنشره الدكتور شوق ضيف ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ، نشره الأستاذ عبد الله عنان ، وبعض مؤلفات لسان الدين بن الخطيب نشرها الدكتور مختار العبادى ، وجزء من فرحة الأنفس لأبن غالب الأندلسى نشره الدكتور لطفى عبد البديع وغير ذلك من المصادر .

الباب الأول

التاريخ السياسي

للمسلمين في الأندلس

الفصل الأول

فتح العرب لبلاد المغرب

١ — جغرافية بلاد المغرب

٢ — سكان المغرب

٣ — بلاد المغرب قبيل الفتح العربي

٤ — مراحل الفتح العربي للمغرب :

المرحلة الأولى : ٢٠ هـ — ٢٨ هـ (٦٤١ — ٦٤٨ م)

المرحلة الثانية : ٢٨ هـ — ٤٨ هـ (٦٤٨ — ٦٦٨ م)

المرحلة الثالثة : ٤٩ هـ — ٥٥ هـ (٦٦٩ — ٦٧٥ م)

المرحلة الرابعة : ٦٠ هـ — ٦٤ هـ (٦٨٠ — ٦٨٤ م)

المرحلة الخامسة : ٦٩ هـ — ٧١ هـ (٦٨٧ — ٦٨٩ م)

المرحلة السادسة : ٨١ هـ — ٨٥ هـ (٧٠٠ — ٧٠٥ م)

المرحلة السابعة : ٨٦ هـ — ٩٠ هـ (٧٠٧ — ٧١١ م)

الفصل الأول

فتح العرب لبلاد المغرب

١

جغرافية بلاد المغرب

تؤلف بلاد المغرب بأقسامها السياسية الثلاثة وحدة جغرافية واثنولوجية مستقلة عن غيرها ، فقد كانت وما تزال ترتبط جميعاً بروابط طبيعية وسياسية وثيقة ، وكان يسكنها منذ أقدم العصور التاريخية عنصر واحد من السكان^(١) ، ولذلك كان للمغرب طابعه الخاص به ، وكانت حضارته حضارة منعزلة منطوية على نفسها ، محافظة على أصولها^(٢) ، ونلاحظ أن هذه العزلة التي فرضتها طبيعة البلاد ، أثرت تأثيراً عميقاً في اللغة والدين ، فللمغرب لغته الخاصة بجانب اللغة العربية ، وللمغرب مذهبه المالكى الذى حافظ عليه على مر السنين .

والواقع أن ارتباط بلاد المغرب جغرافياً واثنولوجياً يرجع قبل كل شيء إلى امتداد جبال أطلس من المجموعة الألبية في قلب الغرب من أقصاه المغربى إلى أقصاه الشرقى في سلسلتين : إحداهما شمالية ، وهى جبال الريف الممتدة بحذاء ساحل العدو ، من طنجة إلى مليلة ثم جبال أطلس التل ، والثانية جنوبية تمتد في الصحراء الداخلية من جنوب وادى سوس عبر الصحراء إلى جبال أوراس وجبال زغوان جنوبى تونس^(٣) . فالسلسلة الأولى وهى جبال أطلس الشمالية تنقسم إلى مجموعتين :

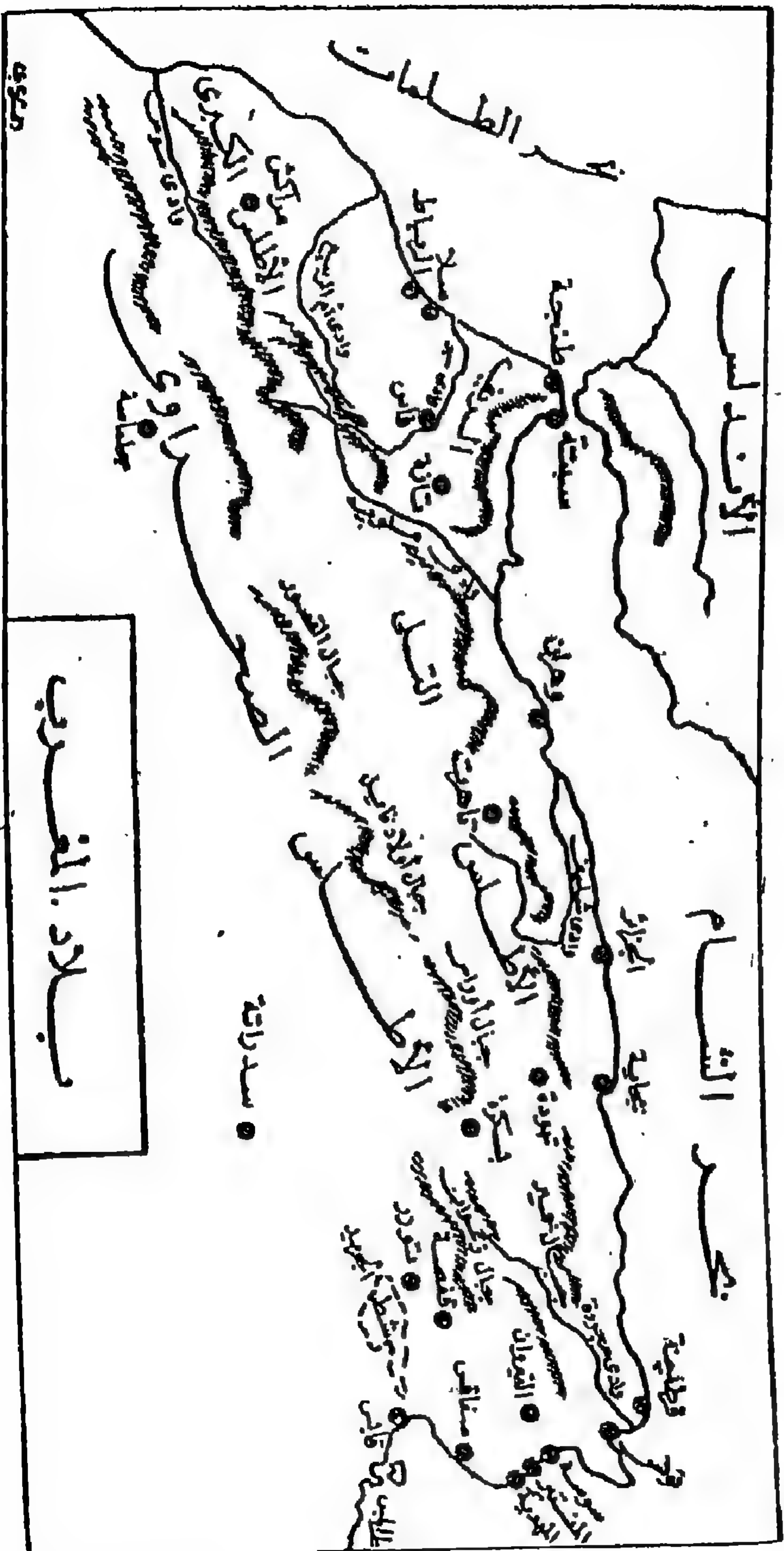
(١) ذكر ابن خلدون أن « المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار » انظر كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط . بولاق ١٢٨٤ هـ ، ج ٦ ص ٩٨ ،

Terrasse (H.) : Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, t. I, p. 17.

André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1951, p. 49. (٢)

(٣) André Julien, op. cit. p. 16-21. محمد محي الدين المشرقي : إفريقيا الشمالية ،

الرباط ١٩٥٠ ، ص ١١ - محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد : ملامح المغرب العربى ، الإسكندرية ١٩٥٩ ص ٩ .



(أ) جبال الريف أو جبال أطلس الشمالية الغربية ، وتشتمل على جبال أطلس الساحلي المتاخمة للنهاية الجنوبية الغربية لجبال سيراثقادا الإسبانية (جبل شلير) ، وهي جبال متوسطة الارتفاع ، أكثرها ارتفاعاً جبل بنى حسن الذى يبلغ ارتفاعه ما يقرب من ألفى متر . وتتخذ هذه الجبال شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من سبتة إلى مليلة تاركاً سهلاً ساحلياً ضيقاً في هذه المنطقة ^(١) .

(ب) جبال أطلس التلى ، وهي سلسلة جبلية تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى استمراراً لجبال الريف الساحلية . وتمتاز هذه السلسلة بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية ، ونحو الأحواض الجنوبية المنعزلة بين أطلس التلى وأطلس المتوسط ، وعلى الأخص في القسم الغربى من المغرب الأوسط ^(٢) . أما الجزء الشرقى فأقل ارتفاعاً وأكثر تقطعاً . وتستمر جبال أطلس التلى في الامتداد شرقاً حتى تنتهى بجبال خمير في المغرب الأدنى (تونس) .

والسلسلة الثانية هي جبال أطلس الجنوبية أو أطلس الصحراوى ^(٣) ، وتبتدى من المغرب الأقصى حيث تحمل اسم جبال أطلس الكبرى ، وهي أكثر جبال أطلس ارتفاعاً ، ولا توجد بها ممرات يسهل المرور منها ، ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير في عزلة المغرب الأقصى عن سائر بلاد المغرب ، وفيها جبل العياشى الذى يتراوح ارتفاعه بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف متر . وتستمر جبال أطلس الكبرى ممتدة في المغرب الأوسط ، وتشتمل على جبال القصور ، وجبال العمور ، وجبال أولاد نايل ، وجبال الزاب ، وجبال أوراس ، وتنتهى بجبال زغوان في المغرب الأدنى . وأغلب هذه الجبال تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج . وتنحصر بين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب أو سهول مرتفعة يشغل فيها السكان برعى الماشية ، وأغلب هذه الهضاب تقع ما بين جبال أطلس التلى وأطلس الصحراوى في المغرب الأوسط ^(٤) . وإلى شمال سلسلة جبال أطلس الكبرى ، تقع سلسلة جبال أطلس الوسطى ، ويسمونها أحياناً أطلس الصغرى ، ويغلب عليها طابع الهضاب ،

(١) المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) نفس المرجع ، p. ١٨. André Julien, op. cit.

(٣) يسميها ابن خلدون جبال درن (انظر البرج ٦ ص ١٠٠) .

(٤) André Julien, op. cit. p. ١٨-١٩. - تاريخ أفريقيا الشمالية ص ١٢ .

خاصة في الجنوب الغربي منها ، وتبدو حدودها الجنوبية الغربية واضحة المعالم حيث تشرف على سهل تادلا ، وكذلك حدودها الشرقية حيث يجري وادي ملوية ، وفي الشمال حيث يقع ممر تازة ، المدخل الوحيد إلى المغرب الأقصى ^(١) . أما الحدود الجنوبية فمن الصعب تمييزها نظراً لاقترابها من جبال أطلس الكبرى للدرجة الالتصاق . وجبال أطلس الوسطى تعتبر المصدر الدائم لمياه الأنهار والعيون ^(٢) . وتمتد الهضاب المغربية بين جبال أطلس الكبرى والوسطى حتى المحيط الأطلسي ، ففي المغرب الأقصى توجد هضبة المزيتا ، وفي المغرب الأوسط تمتد هضبة الشطوط التي تتميز ببحيراتها ، وبينهما يقع ممر تازة .

أما السهول فتقع غالباً على ساحل المحيط الأطلسي وساحل العدة والبحر الأبيض المتوسط ، وأشهرها سهل شاوية ودكالة وعبدية بالمغرب الأقصى ؛ أما السهول الساحلية في المغرب الأدنى فتكاد لا تذكر لضيقها ، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل التونسي . وهناك سهول تكوّنت حول وديان صغيرة تجري فيها الأنهار ، منها سهل مأكنة وسهل زيتي بوهران ، وسهل وادي شليف في المغرب الأوسط ، وسهل وادي مجردة في المغرب الأدنى ، وسهلا فاس ومكناس الثنيتين في المغرب الأقصى ، وكلا هذين السهلين مرتفع . كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية : الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت إلى وادي ملوية ، ويشتمل على السهل المطل على المحيط ، وسهول سبو ، وممر تازة وسهول ملوية الدنيا التي تؤلف الطريق الطبيعي ما بين جبال أطلس والمغرب الأوسط ، والأخرى تشتمل على سهل الحوز ^(٣) الذي يخترقه نهر تنسيفت ثم منخفض تادلا . أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الراحات ^(٤) .

(١) هو ممر ضيق مرتفع يفصل بين مرتفعات الريف وأطلس الوسطى .

(٢) ملامح المغرب العربي ، ص ١٦ .

(٣) André Julien, op. cit. p. ١٨ .

(٤) تشتمل هذه السهول على منطقة إلمريد جنوب المغرب الأدنى ، وهي نفطة وتوزر ونفصة

وتسمى جميعاً بلاد قسطيلة . أما الراحات فتوجد جنوب إقليم طرابلس في منطقة فزان وودان (ابن بطون) ؛ المبرج ج ٦ ص ١٠١ .

سكان المغرب

عرفت إفريقيا الشمالية منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الإغريق يسمون الجزء الشمالى منها الذى يسكنه العنصر الأبيض باسم لیبو أو ليبيا ، بينما كانوا يسمون الصحراء ببلاد الأحباش السود^(١) . أما لفظ أفريقيا Africa ، فقد أطلقه الرومان على الإقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالى الشرقى من جمهورية تونس ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نوميديا ، وكان يعرف بولاية إفريقية القنصلية Africa Proconsularis ، وهو الاسم الذى عرّب فيما بعد إلى إفريقية ، وأطلقه العرب بادئ ذي بدء على كل بلاد المغرب باستثناء طرابلس وبرقة ، ثم اقتصر اسم إفريقية بعد ذلك على كل ما يلى مصر غرباً حتى بجاية وأطلق اسم المغرب على كل ما يلى بجاية غرباً حتى المحيط الأطلسي^(٢) .

وأصل لفظ إفريقية مشتق من كلمة أفري Aphri التى أطلقها الفينيقيون على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم Utica وعاصمتهم قرطاجنة ، ثم عممه اليونان على سكان البلاد الذين يسكنون المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط^(٣) .

(١) André Julien, op. cit. p. 9.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح إفريقية والأندلس نشره البيروني في الجزائر سنة ١٩٤٧ ص ٣٤ - ٤٢ . ويحدد البكري إفريقية طولا من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً (انظر أبو عبيد الله البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دي سلان Se Slane بالجزائر في سنة ١٩١١ ص ٢١) . ويحدد ابن عذارى المراكشي المغرب من تاهرت إلى سلا ، ويسميه بلاد طنجة ، ويدخل الأندلس في هذا الإقليم (راجع ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، نشره كولان وليث بروثنسال ، لندن ١٩٤٨ ج ١ ص ٥) . أما عبد الواحد المراكشي فيحدد إفريقية من انطابلس شرقاً إلى قسطنطينة غرباً ، والمغرب من قسطنطينة إلى مدينة طنجة (انظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد الريان ، ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٣٤٧ - ٣٥٧) ويحدد السلاوي المغرب من برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً بما في ذلك إقليم طرابلس (انظر أحمد بن خالد الناصري السلاوي : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٣١٠ هـ ج ١ ص ٣٣) .

(٣) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ ص ١ وما يليها .

ولقد أجمع مؤرخو وجغرافيو العرب على أن بلاد المغرب تمتد من إطرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وأن ما يلي إطرابلس إلى الشرق لا يدخل في المغرب . وعلى هذا النحو ينقسم المغرب إلى ثلاثة أقسام :

١ - إفريقية ، وسماها العرب المغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز والشام ، وتمتد من إطرابلس شرقاً حتى بجاية أو تاهرت غرباً .

٢ - المغرب الأوسط ، ويمتد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبال تازة غرباً .

٣ - المغرب الأقصى ، ويمتد من وادي ملوية شرقاً حتى المحيط الأطلسي^(١) وكان يسكن بلاد المغرب قبل الفتح العربي ثلاث طوائف من السكان :
(أ) الروم ، وهم البيزنطيون (ب) الأفارق أو الأفارقة ، وهم بقايا الشعب القرطاجي وأخلط من المستعمرين اللاتين ، والوطنيون الذين تأثروا بالحضارة البيزنطية ، وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لسادتهم البيزنطيين ، ويشغلون لهم بالزراعة والصناعة^(٢) .

(ج) البربر ، وهم سواد السكان .

والبربر من Barbari ، وهو اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم ، فسموهم بربر ، وعربها المسلمون إلى بربر وبرابر^(٣) . كما أطلق الرومان على سكان إقليم مورطانية (منطقة طنجة)^(٤) اسم مور Maures ، وما لبث هذا الاسم أن أطلق على سائر السكان البربر^(٥) ، وذكروا في سبب تسمية شعب المغرب بالبربر أن أفريقش بن قيس بن صبيح لما فتح المغرب ، وسمع رطانة البربر قال : ما أكثر بربرتهم ، فسموا البربر ،

(١) السلاوي : الاستقصا ج ١ ص ٢٤ .

(٢) يقول ابن عبد الحكم عن الأفارق : « وأقام الأفارق وكانوا خدماً للروم ، على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم » فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٤ . وقد يكون الأفارقة من كلمة أفري الذي أطلقه الفينيقيون على مكانه البلاد .

(٣) André Julien, op. cit. p. 10.

(٤) البكري : المغرب ص ٢١ .

(٥) André Julien, op. cit. p. 10.

والبربرة في لغة العرب اختلاط الأصوات غير المفهومة^(١) .

وينقسم البربر عامة إلى طائفتين : (أ) البربر الحضر الذين يسكنون المناطق الخصبة ، ويشغلون بالزراعة والصناعة . (ب) والبربر الرحل الذين يسكنون الصحارى ، ويعيشون على الرعى ، وعلى ما يسلبونه من غاراتهم على ما يجاورهم من عمران^(٢) .

فلما فتح العرب بلاد المغرب ، وفطنوا إلى التشابه الكبير بينهم وبين البربر في انقسامهم إلى قبائل وبعطون ، وفي صفاتهم كالشجاعة ، والحشونة ، وحب القتال ، وحدة الخلق ، تأثروا بتقسيمهم هم — أى العرب — إلى شعبين كبيرين : القحطانيين والعبدانيين ، فقسموا قبائل البربر إلى جذمين عظيمين : قسم ينتسب إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر ، فسموا البتر ، وقسم ينتسب إلى برنس بن بر فسموا البرانس^(٣) .

أما تقسيم البربر إلى قسمين : قسم يسكن المدن ويتحضر بالحضارة اللاتينية ويسمون بالبرانس ، وقسم متباعد يسكن البادية ويسمون بالبتر ، فهو تقسيم لا يمكن الأخذ به ، لأن قبيلة زناتة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون ، أكثر قبائل البربر حضارة وعمراناً^(٤) ، ولذلك يجعلها فرعاً مستقلاً عن سائر البربر . ثم أن المنحضرين من البربر كانوا قلة ضئيلة بالنسبة للمتبلدين الذين يؤلفون السواد الأعظم من سكان البلاد . وأما تفسير البتر بأنهم العارون من الثياب ، والبرانس بأنهم المتدثرون بالبرنس^(٥) ، فهو تفسير لغوى لا يقوم على أساس متين ، فليس لزماً على البترى أن يكون عارياً من البرانس ، وليس شرطاً أن يكون البرانمى مرتدياً له .

(١) ابن خلدون : كتاب البر ج ٦ ص ٨٩ وما يليها — السلاوى : كتاب الاستقصا ج ١ ص ٢٩ .

(٢) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٦ وما يليها .

(٣) ابن خلدون : كتاب البر ج ٦ ص ٨٩ السلاوى : كتاب الاستقصا ج ١ ص ٣١ —

حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٨ — ٢١ Terrasse, op. cit., p. 21 —

(٤) ابن خلدون : كتاب البر ج ٦ ص ٨٩ .

(٥) René Basset, Encyclopédie de l'Islam .

عبد الحميد المبادى : المجلد في تاريخ الأندلس ، العدد الأول من سلسلة المكتبة التاريخية ، القاهرة

وينقسم بربر البرانس إلى سبع قبائل هي : أوربة ، وصنهاجة ، وكثامة ، ومصمودة ، وعجيسة ، وأورينة ، وأزداجة . وقيل عشرة هي السبعة السابقة يضاف إليها لمطة ، وهسكورة ، وجزولة^(١) . وتعتبر صنهاجة أكبر قبائل البربر ، حتى لقد زعموا أنها مقدار الثلث منهم ، وكان منهم بنو زيري بن مناد ، والملمثون (المرابطون) . وقد غلب على صنهاجة طابع التبني ، ففرقت صنهاجة في كثير من أنحاء المغرب ، وكانت أكبر فروع صنهاجة في المغرب وهي قبيلة زناجة تعيش على جبال أطلس المتوسط ، جنوبي تازة ، حتى منطقة بني ملال . واحتلت بعض قبائل صنهاجة جزءاً هاماً من إقليم الريف ، واختصت قبائل أخرى من صنهاجة بمنطقة آزمور^(٢) .

أما كثامة ، فقد لعبت دوراً هاماً في قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب . وتعتبر مصمودة من أهم قبائل بربر البرانس ، حتى إن بعض المؤرخين يجعلها فرعاً قائماً بذاته . ومن المصامدة غمارة التي تحتل منطقة العدو من الريف ، وبرغواطة أهل تامسنا ، وأهل جبل درن ، وكانوا يعيشون فيما بين بورجرج وأم الربيع . ومن المصامدة المستقرين في السهول ، دكالة ، جنوبي وادي أم الربيع ، ورجاجة على وادي تنسيفت . وجميع المصامدة متحضرون ، قد تعودوا حياة الاستقرار في المدن^(٣) .

أما بربر البتر ، فينقسمون إلى أربع قبائل هي : خريسة ، ونفوسة ، وأداسة ، وبنو لوأي أو لواتة . وتنقسم خريسة إلى مكناسة وزناتة ، ويعتبر ابن خلدون قبيلة زناتة فرعاً من البربر قائماً بذاته . ومن زناتة جراوة ، ومغراوة ، وبنو يفرن ، وبنو زيان ، وبنو مرين .

وينقسم البربر من حيث الجنس إلى نوعين مختلفين : الأول وهو يؤلف أغلبية سكان البلاد يتميز بلونه الأسمر ، وشعره الأسود ، ورأسه المستدير وخديه البارزين ، وأنفه القصير وجبهته المقوسة ، وهي نفس الصفات التي تتوفر في سكان جنوبي

(١) ابن خلدون : كتاب المبرج ٦ ص ٩٠ - الاستصاح ١ ص ٢١ .

(٢) Terrasse, op. cit. p. 23.

(٣) Terrasse, op. cit. p. 22.

إسبانيا وإيطاليا وفرنسا . والثاني ويقتصر على سكان الريف والشلوح في المغرب الأقصى وسكان جبال جرجرة في المغرب الأوسط ، يتميز بشقرة لون الشعر ، وزرقة العينين ، واستطالة الرأس ودقة الأنف ، ورقة الشفتين وتسطح الجبهة^(١) . ولعلهم الأفارقة الذين ذكرهم المؤرخون واعتبروهم من بقايا الشعب القرطاجي .

(١) André Julien, op. cit. p. 50-53 — Terrasse, op. cit. p. ١7 محمد محي الدين المشرف :

بلاد المغرب قبيل الفتح العربي

كانت بلاد المغرب تخضع قبيل الفتح العربي للدولة البيزنطية ، وكان الإمبراطور البيزنطي يتخذ منها مزرعة تمتد عاصمته بالغال ، فكان يولى عليها حاكماً عاماً يقوم في قرطاجنة له السلطة المطلقة على سائر الشؤون الإدارية والمالية والقضائية . وكان يعينه في مباشرة أعماله عدد كبير من المستشارين والموظفين لتحصيل الضرائب . ولسهولة حكم البلاد قسمها الإمبراطور إلى سبع مناطق : الثلاثة الأولى يحكم كلاً منها قنصل ، والأربعة الباقية يحكم كلاً منها رئيس Praeside^(١) :

١ - المنطقة الشمالية وتعرف باسم زييجيتان Zeugitane ، وكانت تشمل على الجزء الشمالى من المغرب الأدنى ، ومركزها قرطاجنة ، ولذلك سميت باسم Proconsularis Carthago .

٢ - المنطقة الجنوبية أو الداخلية ، وكانت تعرف باسم بيزانسين Byzancène

٣ - إطرابلس Tripolitaine ، وتقع غربى برقة

٤ - نوميديا Numidie ، وتقع شرق إقليم قسطنطينية .

٥ - مورطانية الأولى Maurétanie Première ، ومركزها سطيف بالجزائر .

٦ - مورطانية الثانية Maurétanie Seconde ، وكانت تعرف باسم

مورطانية القيصرية ، ومركزها شرشال Geserca . ويشتمل هذا الإقليم أيضاً

على مورطانية الطنجية Maurétanie Tingitane ، وقاعدته إذ ذاك مدينة

سبتة ، وكان هذا الإقليم يدخل قبيل الفتح العربى فى فلك دولة القوط الغربيين

فى شبه جزيرة أيبيريا .

(١) كانت هذه الوظائف تباع أثمان مرتفعة للغاية ، لذلك كان الحاكم الذى يظفر بوظيفته يعمل ما وسعه الجهد على استثمارها وتعويض ما دفعه للظفر بها ، لذلك كثرت الضرائب والمغارم الفادحة على السكان .

٧ - جزيرة سردينية La Sardaigne (١).

وكان النفوذ البيزنطي في المغرب الأقصى ضئيلاً ، إذ كان لا يمتد إلا إلى المنطقة الشمالية منه ، وعلى الأخص منطقة سبتة . ولقد عمل البيزنطيون على إبقاء البلاد تحت سلطانهم ، فجعلوا بالمغرب جيشاً مرابطاً ، يتألف من ثلاثة عناصر أساسية ، هي : البيزنطيون ، ومنهم الفرسان والمشاة ، ثم البربر ، ثم الجنود المرتزقة . وكان يتولى رئاسة هذا الجيش قائد أعلى بيزنطي ، يقيم في قرطاجنة يعرف باسم Magister Militum ، يعاونه قائد للمشاة Magister Peditum وآخر للفرسان . وكان القائد الأعلى Magister Militum يتولى أحياناً منصب الحاكم العام مثل سولومون الذي تولى الحكومة فيما بين ٥٣٤ - ٥٣٦ م ، ٥٣٩ - ٥٤٣ م ، وفي هذه الحالة فإنه يجمع لديه جميع سلطات الإمبراطور ، ويصبح إمبراطوراً مصغراً (٢) ومبالغة منهم في دفع خطر الأعداء الذين يتربصون السوء بالإمبراطورية ، أقام البيزنطيون ، خاصة في عهد سولومون Solomon ، على سواحل المغرب ، سلسلة من الحصون والمخارس تمتد من إطرابلس شرقاً حتى المحيط غرباً ، وتفصل بين المناطق الخاضعة للبيزنطيين ، والمناطق الصحراوية ، وتعرف هذه باسم Limes . غير أن هذه الحصون لم يراع في بنائها الوثاقة والإحكام ، لسرعة إقامتها ، ولقلة موارد الدولة المالية (٣) . كذلك قسم البيزنطيون البلاد إلى أربع مناطق حربية (٤) على كل منها دوق (٥) .

وعلى هذا النحو عمل البيزنطيون على تقوية النظام الدفاعي في بلاد المغرب ، غير أن ذلك لم يمنع من قيام البربر بالثورات عليهم مرات عديدة ، مما كان سبباً

(١) André Julien, op. cit. p. 260. - أفريقيا الشمالية ص ١٥٥ وما يليها - فتح العرب

لمغرب ص ١٥ .

(٢) André Julien, op. cit. p. 261.

(٣) Ibid. p. 262. ، فتح العرب للمغرب ص ١٩ .

(٤) هذه المناطق هي : لبة Leptis Magna في إطرابلس ، وقفصة Thelepte في Byzancene

وسيرت Cirta في نوميديا ، وشرشال في مورطانية . وكانت مهمة هؤلاء الأدواق قيادة الجيش العامل ومواجهة النقاط التي تتعرض للأخطار .

(٥) André Julien, op. cit. p. 261.

في كثرة وجود القلاقل والاضطرابات^(١) وتوسل الحكام البيزنطيون بالقوة والعنف في سبيل قمع هذه الحركات الثورية ، ثم اتبعوا سياسة تقوم على نشر بذور الشقاق والتفرقة بين عنصرى السكان : البرانس والبيزنطيين ، ففرضوا بعضهم ببعض ، وضمنوا لأنفسهم السيادة على جميع البلاد ، فعمت الفوضى جميع أنحاء البلاد ، وتدهورت الثروة الأهلية ، وأصبح الناس لا يأمنون على أموالهم وعلى أرواحهم ، كما انقسم الناس من الناحية الدينية ، فخرج كثيرون عن مذهب الإمبراطور أو المذهب الدوفيزيتي ، واعتنقوا المذهب المونوفيزيتي ، وكان هذا الخصام المذهبي من الأسباب الرئيسية في اضمحلال البلاد ، وانتشار عقد الدولة البيزنطية في بلاد المغرب ، وعلى هذا النحو نفر الشعب المغربي من حكامه ، وكره استبدادهم ، وتعسفهم معه . وعلى هذه الحال السيئة ، من ثورات داخلية ، وانقسامات مذهبية ، واضطرابات اجتماعية واقتصادية ، لقي العرب هذه البلاد عند شروعه في فتحها ، ووجد السكان في فتح العرب لبلادهم مخرجاً لهم من سوء حالتهم^(٢) ، فأسرع بعض أهالي برقة وإطرابلس يعرضون طاعتهم على المسلمين ، راضين بحكمهم ، إذ وجدوا في العرب حليفاً قوياً يعترفون به على الروم^(٣) .

(١) قامت الثورة الأولى في عهد الحاكم المستبد سوليمون ، إذ التفت الأهالي حول أحد زعمائهم وهو ستوزاس الذي قاد صفوفهم إلى قرطاجنة وأشعل فيها النيران ، وأرغم سوليمون على الفرار . كذلك ثار بربر اطرابلس على سوليمون .

(٢) André Julien, op. cit. p. 275 et la suivante.

(٣) فتح العرب للمغرب ص ٥٢ .

مراحل الفتح العربى للمغرب

تاريخ الفتح العربى للمغرب، كما ترويه المصادر العربية، يقوم على مجموع من الأخبار التى تنقصها الدقة فى أغلب الأحيان، ويكتنفها الغموض، بسبب ما يحيط بها من روايات ذات طابع أسطورى، أغلبها منقولة، وأقدمها يرجع إلى عصر متأخر كثيراً عن الفتح. ثم هى لا تقدم لنا إلا قدرًا ضئيلاً من المعلومات الإيجابية، وحتى هذه المعلومات رغم قلتها، متقاربة فى كثير من الأحيان، بحيث يتكلف المؤرخ لهذا الفتح مشقة كبيرة فى تتبع مراحله المتتابعة. على أننا نستدل مما كتبه مؤرخو العرب على أن الفتح العربى لبلاد المغرب استغرق مدة طويلة تكاد تقرب من سبعين عامًا، ورغم استعداد سكان البلاد لتقبل النقلة، واشتراكهم مع العرب فى كثير من الخصائص والصفات. ويبدو أن استغراق فتح العرب للمغرب لهذه المدة الطويلة يرجع إلى صعوبة البلاد طبيعيًا، واشتداد حركة المقاومة البربرية بعد انقضاء ما يزيد على ثلاثين سنة من شروع العرب فى الفتح، وتدخل بعض العناصر الأجنبية - كالروم مثلاً - فى مقاتلة العرب الفاتحين. فلا شك أن طبيعة بلاد المغرب الجبلية ووعورتها، كانت من جهة عاملاً هاماً فى إبطاء الفتح العربى، ثم أن هذه الوعورة من جهة أخرى أثرت فى أبدان البربر فأكسبتها النحولة والضمور مع القدرة على احتمال المشاق. وقد كان لهذا أثره عند خروج البربر على العرب فى أوائل النصف الثانى من القرن الأول الهجرى، ويرجع سبب انتفاض البربر على العرب بعد خضوعهم لهم فى بداية الفتح، إلى إساءة رؤساء العرب إلى زعماء البربر، كما فعل عقبة بن نافع الفهري، كسيلة البترى، وبقدر ما كان يصطنعهم الفاتحون العرب، ويحسنون معاملتهم، بقدر ما نراهم يقبلون على مساعدة العرب فى فتح البلاد ومساندتهم لهم فى كل أمور الدولة.

ومكلاً كان فتح العرب للمغرب بين مد وجزر، لأن سرعة الفتح أو إبطاءه كانا يتوقفان على سياسة العرب إزاء البربر وعلى الأحداث الجارية فى المشرق

الإسلامي كذلك . وإذا تتبعنا أدوار الفتح العربي للمغرب نجد أنه قد مرّ بعدة مراحل نلخصها فيما يلي :

المرحلة الأولى : ٢٠ هـ - ٢٨ هـ (٦٤١ - ٦٤٨ م)

شرع العرب في فتح بلاد المغرب منذ سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) في ولاية عمرو ابن العاص الأولى على مصر ، وذلك إتماماً لفتح مصر لأن برقة كانت جزءاً متمماً لها ، أو تأميناً لحدود مصر الغربية التي قد تتعرض لغزو بيزنطى من برقة ، أو تطبيقاً لسياسة الاستمرار في الفتح نحو الغرب ، وهو أمر يدل عليه خط سير الفتوحات العربية في الشام ومصر وبرقة وإفريقية والمغرب والأندلس ، وقد تكون محاولة عمرو بن العاص غزو برقة وإفريقية راجعة لهذه الأسباب مجتمعة .

لم ينتظر عمرو حتى ينتهى من فتح مصر ، ويتفرغ لفتح برقة ، فراه يبادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة . ويذكر ابن عذارى أن عمرو « استفتح مصر سنة ٢٠ من الهجرة ووجه منها عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية وإفريقية فافتتحهما ^(١) » . ويؤيد ابن أبي دينار القيرواني هذه الرواية في كتابه المؤنس ^(٢) . ويبدو أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة ابن نافع عن بلاد برقة ، فعجل بتسيير جيوشه لفتحها . وسار عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه غرباً حتى قدم برقة ، وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية . وكانت الصحراء الممتدة ما بين مصر وبرقة تسكنها قبيلة لواتة البرية ، وهي من أكبر قبائل البربر شأنًا وأشدّها بأسًا ، ويبدو أن هؤلاء البربر أسرعوا بتقديم قروض ولأهم للجيش الغازي ، فاستسلموا للعرب مختارين ، فصالحهم عمرو نظير جزية يؤدونها إليه : وهي دينار على كل حالم ^(٣) .

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ١ ص ٨ .

(٢) ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، طبعة تونس سنة ١٢٨٦ هـ ج ١

ص ٢٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٨ .

يذكر مؤرخو العرب أنه صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية ، على أن يبيعوا من أجوا من أبنائهم في جزيئهم (انظر : ابن الحكم : فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٤ - البلاذري : فتوح البلدان -

وضمن عمرو بمعاهده مع لواته أن يكسبهم إلى جانب المسلمين ، ونجح في إدخال بعضهم إلى الإسلام^(١) .

ولما أتم عمرو فتح برقة شرع في فتح إطرابلس تمهيداً لدخوله إفريقية ، وكان لزاماً عليه أن يفتحها من الساحل والجوف ، أما فيما يختص بالجوف : فقد بعث عمرو قائده عقبة بن نافع إلى فزان ، حتى بلغ زويلة^(٢) ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين^(٣) . وعلى هذا النحو ضمن عمرو بن العاص إخضاع هذه الواحات الداخلية التي كانت تهدد سلطان العرب على مدن الساحل . وفي نفس الوقت الذي كان عقبة يفتح فيه فزان ، كان عمرو يغزو مدينة إطرابلس وما يجاورها من المدن الساحلية مثل صبرة . ففي سنة ٢٢ هـ ، غزا عمرو إطرابلس ، وحاصر أسوارها شهراً ، فلم يظفر بها ، ثم فاجأ الروم من جهة الساحل ، حيث انحسرت عنها مياه البحر ، واستولى على المدينة^(٤) . وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم : « فأقبل بجيشه حتى دخل ما يهيم ، فلم تغلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان في المدينة »^(٥) . وقبل أن ينتهي عمرو من فتح إطرابلس بعث جيشه إلى سبرت أو صبرة Sabrata ، وكان من سبرت متحصنين منذ أن بلغهم محاصرة عمرو لمدينة إطرابلس ، فلما ظفر عمرو بمدينة إطرابلس ، « جرد خيلاً كثيفة من ليلته ، وأمرهم بمرعة السير ، فصبحت خيله مائة سبرت وقد غفلوا ، وقد فتحو أبوابهم لتصرح ماشيتهم ، فدخلوها ، فلم يُنج منهم أحد ،

القسم الأول نشره صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٦٤ - أبو عبيد الله البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٤ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ ج ٣ ص ١١ (هذا ويدور أن بيع الأبناء للوفاء بالجزية كان أمراً شائعاً عند البربر في ذلك الحين) ارجع إلى فتح العرب للمغرب ص ٥٦ .

(١) فتح العرب للمغرب ص ٥٤ وما يليها .

(٢) زويلة من إطرابلس كانت مشهورة بتجارة الرقيق (البكري : المغرب ص ١١) .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٦ - البلاذري ، فتوح البلدان ، القسم

الأول ص ٢٦٦ - البكري ٢ المغرب ص ١٠ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٣٦ - البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦١ -

أثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١١ - السلاوي ، الاستقصاء ج ١ ص ٣٤ .

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٣٨ - ويدكر البكري أن فتح عمرو لإطرابلس حدث =

واحتوى عمرو على ما فيها»^(١) وكان عمرو قد بعث ، وهو محاصر لإطرابلس ، أحد قواده وهو بسر بن أرطاة إلى ودان ، فافتتحها ستة ثلاث وعشرين من الهجرة^(٢) وهكذا تم لعمرو الاستيلاء على برقة والجزء الشرقي من إطرابلس ، وكان جميع ما يلي سبرت من بلدان مثل قابس وحصن جرجس تابعاً لجريجوريوس (جرجير في المصادر العربية) حاكم المغرب ، ويبدو أن أخبار الانتصارات التي أحرزها المسلمون في برقة وإطرابلس وفزان وودان ، قد وصلت إلى مسامع جريجوريوس ، فاحتاط لذلك ، وتأهب لملاقاة العرب ، فبادر بتحسين بلاده ، وإقامة الحاميات فيما يلي صبرة .

ويبدو أن عمرو بن العاص قد لاحظ صعوبة فتح إفريقية ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في فتحها ، ويغلب على الظن أنه طلب منه مدداً لذلك الغرض ، وذكر له بين ما ذكره : « إن الله قد فتح علينا أطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل »^(٣) . وتدل الأحداث التالية على أن الخليفة عمر كان على علم بالأحوال السياسية لإفريقية ، وبثورات أهلها وغدرهم ، فأثر أن يقف المسلمون إلى هذا الحد من الفتوحات ، وكتب إلى عمرو قائلاً : « لا ، إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة ، غادرة ، مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت »^(٤) . فاكثني عمرو بما أصابه من غزو برقة ، واضطر إلى الانصراف عن إفريقية مرغماً ، وكان في مقدوره أن يستمر في فتح إقليم أطرابلس ، فقد كانت بعض مدنه ممتنعة على

سنة ٢٣ هـ ، فيقول : « غزا مدينة أطرابلس ستة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة التي على الشرف من شرقها ، ثم دخلها رجل من مدالج من ناحية الكنيسة ففر الروم إلى سفنهم » المغرب ص ٨ وما يليها .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٣٨ - ابن الأثير ، الكامل ج ٣ ص ١١ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٦٠ - البكري ، المغرب ص ١٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٠ - البلاذري ص ٢٦٦ .

يقول ابن عذاري : « وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح ، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية ، وملوكها كثير ، وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركنهم الخيل » (البيان ج ١ ص ٨) وهذا يدل على أن عمرو بن العاص قد لمس استعداداً من العدو لمقاومة العرب ، وكان هذا هو السبب فيما أمره به عمر بن الخطاب من الانصراف عن هذه المغامرة .

(٤) نفس المرجع السابق .

العرب ، ولكن رفض عمر الاستمرار في الفتح كان رفضاً قاطعاً ، وكان يعنى
ألا مزيد من القوات العربية ، ولذلك عاد عمرو إلى مصر ، بعد أن أقام قائده
عقبة بن نافع على هذه البلاد الصحراوية ، يدعو للإسلام، ونجح عقبة في كسب
كثير من أهالى البلاد من قبائل لواتة وثقوسة وتغزاة فدخلوا في الإسلام^(١)

• • •

ثم استشهد عمر بن الخطاب ، وتولى عثمان بن عفان الخلافة ، فعزل عمرو بن
العاص عن ولاية مصر وأسندها إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٤ هـ .
ومنذ ذلك الحين بدأت الأنظار تتجه من جديد نحو بلاد المغرب ، فكان عبد الله
ابن سعد يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو ، فيصيبون
من أطراف إفريقية ويقتمون^(٢) . ويغلب على الظن أن عثمان بن عفان كان يميل
إلى إجابة أخيه في الرضاع لفتح إفريقية ، ليكسبه بذلك مجداً يزيد من هيئته ،
ويعزز مكانته ، ولكنه كان متردداً في إجابته بسبب رفض عمر بن الخطاب
المضى فيه من قبل . ولكنه صمم في النهاية على غزوها بعد أن استشار الصحابة
في هذا الأمر^(٣) . ويذكر ابن عبد الحكم أن عبد الله بن سعد كتب إلى عثمان
« وأخبره بقربها من حرز المسلمين ، واستأذنه في غزوها »^(٤) ، فاجتمع عثمان
في المدينة بوجوه الصحابة وذوى الرأي سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) ، واستشارهم في أمر
الفتح ، فوافقوه عليه ، فكتب إلى عبد الله بن سعد في سنة ٢٧ هـ ويقال في سنة
ثمان وعشرين ويقال في سنة تسع وعشرين يأمره بغزوها ، وأمره بجيش عظيم فيه
معبد بن العباس بن عبد المطلب ، ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، والحارث
ابن الحكم أخوه ، وعبد الله بن الزبير بن العوام ، والمسور بن مخرمة بن نوفل بن أهب

(١) يرى الدكتور حسين مؤنس أن عقبة أقام في برقة ، وأن برقة ظلت على طاعة المسلمين حتى سنة
٢٧ هـ وهو الوقت الذي يقرم فيه عبد الله بن سعد بالإغارة على إفريقية . أما طرابلس وما يليها فيرجع
الدكتور مؤنس ارتدادها عن طاعة العرب عقب انصرافهم عنها ، بدليل أنها استعصت بعد ذلك على عبد الله
ابن سعد في غزوته على إفريقية ، انظر : فتح العرب للمغرب ص ٧٧ وما يليها .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٤٢ - البلاذري ، فتوح البلدان قسم أول ص ٢٦٧ .

(٣) يذكر البلاذري أن عثمان بن عفان كان متوقفاً عن غزوها أول الأمر ثم هزم بعد ذلك على

الاستشارة في هذا الأمر (انظر فتوح البلدان ص ٢٦٧) .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٤٢ .

ابن عبد مناف ، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعاصم بن عمر ، وعبيد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وبسر بن أرطاة بن عويمر العامري ، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهزلي الشاعر ، وبها توفي ، فقام بأمره ابن الزبير حتى واراها في لحده ، وخرج في هذه الغزاة ممن حول المدينة من العرب خلق كثير ^(١) . وذكر ابن عذارى أن عثمان أعان المسلمين في هذه السنة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس ، وأنه فتح بيوت السلاح التي كانت للمسلمين ، وخطب فيهم قائلاً : « وقد عهدت إلى عبد الله بن سعد أن يحسن صحبتكم ويرفق بكم ، وقد استعملت عليكم الحارث ابن الحكم ، إلى أن تقدموا على ابن أبي سرح فيكون الأمر له ^(٢) . فلما وبهل هذا الجيش إلى مصر أعد ابن أبي سرح جيوشه ، وخرج على رأس هذه الجيوش في أوائل سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) لغزو إفريقية بعد أن استخلف حقة بن عامر الجهني على مصر . ويذكر ابن عذارى أنه خرج من مصر في عشرين ألفاً إلى إفريقية ، وصاحبها بطريق يقال له جرجير ^(٣) ، وكان سلطانه من طرابلس إلى طنجة ، فبعث عبد الله السرايا في آفاق إفريقية ، فغنموا في كل وجه ، والتقى ابن أبي سرح مع جرجير بالقرب من سبيطلة ^(٤) Sufetula ، « وكان جرجير في مائة وعشرين ألف مقاتل ، فضاق المسلمون في أمرهم واختلفوا على ابن سعد في الرأي ، فدخل فسطاطه مفكراً في الأمر ^(٥) ، وتسلسل عبد الله بن الزبير إلى معسكر الروم هو وثلاثون من العرب وقتل جرجير . فلما شاهد المسلمون

(١) البلاذري ، فتوح البلدان قسم ١ ص ٢٦٧ .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٩ .

(٣) هر جريجوريوس حاكم إفريقية من قبل الإمبراطور هرقل ، ثم قسطنطين الثاني من بعده ، وعهد جريجوريوس إلى الانفصال عن الدولة البيزنطية سنة ٦٤٧ م ونقل عاصمته من قرطاجنة إلى سبيطلة في سنة ٦٤٨ م وهر العام الذي غلبه فيه عبد الله بن سعد ، وقد أشار المؤرخ ابن عبد الحكم إلى أن جريجوريوس هذا ، « كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانه ما بين طرابلس إلى طنجة » انظر فتوح إفريقية ص ٤٢ .

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١٠ - نص عبيد الله بن صالح ، نشره ليثي بروفنهال في مجلة المعهد

المصري للدراسات الإسلامية بمديرية سنة ١٩٥٤ ص ٢١٥ .

ما فعله ابن الزبير حملوا على أهدأهم حملة واحدة ، فهزموهم هزيمة نكراء ، واستولوا على حصن سبيطلة^(١) ، وفرت جيوش الروم في جوف البلاد ، فبث ابن أبي سرح السرايا وفرقها ، فأصاب غنائم كثيرة ، ونزلت جيوش ابن أبي سرح حصن الأجم فحاصرت ثم دخلته^(٢) ، فلما رأى رؤساء المدن في إفريقية ذلك ، طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ، ويعود من حيث أتى ، ففعل^(٣) ، وعاد إلى مصر محملاً بالغنائم دون أن يتخذ بالمغرب قيرواناً ، ويستغل هذا النصر العظيم في إقامة قاعدة للمسلمين في إفريقية . ويعلق الدكتور حسين مؤنس على موقعة سبيطلة بأنها لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس بل جزءاً محدوداً منه يحدده الخط الممتد من سبيطلة نفسها إلى سوسة من الشمال ، ثم من سبيطلة إلى قفصة جهة الشرق ، وشريط ساحلي ضيق فيما بين قابس وشط الجريد من الجنوب^(٤) . ويعلل الأستاذ أندريه جوايان عودة ابن سعد إلى مصر دون أن يحتل ولاية بيزانسين بخوفه من أن يقوم الروم بشن هجوم مضاد عليه من القلاع الشمالية التي لم ينجح في محاصرتها^(٥) .

المرحلة الثانية : ٢٨ هـ - ٤٨ م (٦٤٨ - ٦٦٨ م)

شغل المسلمون بفتنة عثمان وما تبع ذلك من اضطرابات ، ولم يقوموا بعمل حاسم لفتح إفريقية منذ سنة ٢٨ هـ حتى سنة ٣٥ هـ (٦٥٤ م) ، وهي السنة التي قتل فيها عثمان بن عفان ، واستخلفه على بن أبي طالب . فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وإلى الشام في عهد عثمان ، أعاد عمرو بن العاص على ولاية مصر للمرة الثانية ، فاستأنف عمرو غزواته السابقة على برقة وطرابلس ، فكان يبعث إليها جنداً يغنمون من أراضيها ما شاء لهم ذلك ، ويعودون من حيث

(١) ذكر البلاذري أن الموقعة حدثت في موضع اسمه عقوبة (فتوح البلدان ص ٢٦٧) .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ٣٧ - السلاوي ، الاستقصا ج ١ ص ٣٦ - فتح العرب للمغرب ص ٩٧ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦٨ .

(٤) فتح العرب للمغرب ص ٩٩ .

(٥) André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, depuis la conquête arabe, Paris (٥)

أتوا ، دون الاشتباك مع الروم في مواقع حاسمة^(١) . فلما توفي عمرو بن العاص سنة ٤٤ هـ (٦٦٥ م) ، رأى معاوية أن يفصل المغرب عن ولاية مصر ، ويجمع ولاية تتبع الخلافة الأموية مباشرة . وكان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني قد بلغه أن أرسل إفريقية صالحوا المسلمين أيام عبد الله بن سعد علي ٣٠٠ قنطار ذهب ، فغضب وأرسل إليهم بطريقاً من قبله يقال له أوليمة (ولعله أوليمبوس) ، وأمره أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب على نحو ما فعلوه مع عبد الله بن سعد . فنزل قرطاجنة ، وأخبرهم بذلك ، فأبوا عليه ، وقالوا : « إن الذي كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب ، وأما الملك فهو سيدنا ، فيأخذ عادته منا » . وكان القائم بأمرهم بعد مقتل جرجير رجلاً يقال له حباجبة^(٢) ، فطرده البطريق . بعد فتن طويلة فسار إلى معاوية بالشام . ثم تمكن أهل إفريقية من طرد أوليمة ، وقدموا على أنفسهم رجلاً اسمه الأطريون . أما حباجبة الرومي فقد قدم على معاوية وسأله أن يبعث معه جيشاً إلى إفريقية ، وعندئذ أقام معاوية على إفريقية أحد كبار أتباعه المقربين إليه ، ممن ساعدوه على الظفر بالخلافة هو معاوية بن حديج الكندي^(٣) ، فخرج معاوية في جيش كثيف عدته عشرة آلاف مقاتل . وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، ويحيى بن الحكم بن العاص ، وغيرهم من أشرف قريش ، ووصل معاوية إلى إفريقية « وقد صارت ناراً تضطرم » ، ونزل جيشه جنوبى قرطاجنة في موضع يعرف بقمونية أو قونية ويقال جبل القرن . ولما علم الإمبراطور البيزنطي نبأ وصول جيش معاوية ، بعث إلى إفريقية بطريقاً يقال له نجفور (لعله نجفور) في ثلاثين ألف مقاتل ، فأخرج معاوية بن حديج عبد الله بن الزبير في خيل كثيفة ، فسار حتى نزل في موضع غير بعيد من سوسة ، فتراجع جيش الروم إلى سوسة ، ثم أقلع نجفور ورجاله في البحر منهزمين دون قتال ،

(١) ذكر ابن عذارى أن معاوية بن حديج غزا إفريقية سنة ٤١ هـ ، وأن عقبة بن نافع غزا المغرب سنة ٤٢ هـ ، فافتتح غدامس (انظر البيان المغرب ص ١٥) .

(٢) وقيل جناحه ، ويسميه أندريه جوليان جناديوس Gennadius (انظر

André Julien, Hist. de l'Afrique du N. depuis la conquête arabe, p. ١5)

(٣) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥ - ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧ - السلاوى ج ١ ص ٣٦ .

ودخل المسلمون سوسة^(١) . كذلك استطاعت فرقة أخرى من ألف رجل بقيادة عبد الملك بن مروان الاستيلاء على مدينة جلولا Gouloulis^(٢) .

ثم وجه ابن حديج أسطوله في البحر إلى صقلية سنة ٤٦ هـ (٦٦٧ م) فأقام بها شهراً ، وغنم غنائم كثيرة من بينها رقيق وتماثيل مرصعة بالجوهر ثم عاد إلى إفريقية^(٣) ، ويمضي معاوية في فتوحاته غرباً فيفتح ثغر بنزرت^(٤) ، ويفتح جزيرة جربة^(٥) .

ولم يتح لمعاوية بن حديج أن يتم فتح إفريقية ، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٨ هـ (٦٦٩ م) وقيل سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ، وولى على إفريقية عقبة بن نافع الفهري . وبتولية عقبة على إفريقية يبدأ طور الفتح المنظم .

المرحلة الثالثة : ٤٩ هـ - ٥٥ هـ (٦٦٩ - ٦٧٥ م)

يعتبر عقبة بن نافع الفهري من أكابر التابعين وأفاضلهم ، فقد ولد قبل وفاة الرسول بعام واحد ، وكان أعرف الناس بأحوال بلاد المغرب ، إذ كان قوى الإيمان بدينه ، شديد الحماس لنشره ، فكان يتخذ من الفتوحات وسيلة لنشر الإسلام ، وكان بالإضافة إلى ذلك قائداً قديراً ، ساهم في فتوحات عمرو بن العاص الأولى بإفريقية^(٦) ، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن سعد . وكان عقبة

(١) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ١٦ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٥٨ - البكري ، المغرب ص ٣٢ - ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ١٧٤، ١٦٧ . وفي فتح سوسة ذكر ابن الحكم والبكري أن عبد الملك حاصرها عدة أيام دون أن يتمكن من افتتاحها ، فلما يش انصرف عائداً ، فلم يمض في سيره إلا يسيراً حتى « رأى في ساقية الناس عياراً شديداً ، فظن أن العدو يتبعهم ، فكر جماعة من الناس لذلك ، وبق من بقى على مصانهم ، فإذا مدينة جلولا قد تساقط من مورها حائط فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها . » انظر فتح إفريقية ص ٥٨ ، والمغرب ص ٣٢ .

أما ابن عذاري فيذكر رواية أخرى قال فيها إن عبد الملك « لما انصرف ذات يوم نسي قوساً له معلقة بشجرة فانصرف إليها فإذا بجانب من سور المدينة قد أهمل » البيان ج ١ ص ١٧ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٨ - ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٨ .

(٤) في فتح بنزرت انظر البكري في المغرب ص ٥٨ والسلاوي في الاستقصا ج ١ ص ٣٦ .

(٥) البكري ، المغرب ص ١٩ .

(٦) كان عمرو بن العاص قد وجه قائده عقبة بن نافع في جيش بلغ به مدينة زويلة سنة ٢٠ هـ

يرى أن الفتح لا يمكن أن يتحقق ما لم يتخذ المسلمون لهم قاعدة ارتكاز في قلب البلاد ، يوجهون منها حملاتهم إلى إفريقية ، ويجعلونها مركزاً لإمداد القوات الإسلامية الفاتحة . وقدر له أن يحقق هذا الهدف بينائه القيروان عام ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ، فكانت القيروان حصناً منيعاً أمام البيزنطيين الذين كانوا يستخدمون مدن الساحل مركزاً لشن الهجمات ، كذلك كانت حصناً أمام البربر الذين أصبحوا يمثلون منذ ذلك الحين أقوى خصوم للعرب ، وكانت القيروان بالإضافة إلى ذلك مركزاً يحمي الطريق من مصر ، ويواجه في الوقت نفسه جبال أوراس وكر المقاومة^(١) .

ما كاد عقبة يتولى إمارة إفريقية سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) حتى خرج إلى المغرب ومعه من قواد العرب بمر بن أرطاة وشريك بن سحيم المرادي ، فتزل ببغدامس من أرض سرت ، وترك فرقة من جيشه هناك على رأسها زهير بن قيس البلوى ، وتابع هو السير على رأس فرقة مؤلفة من ٤٠٠ فارس حتى وصل إلى ودان فافتتحها ، ثم افتتح جزمة^(٢) ، ومضى منها إلى قصور فزان ، فافتتحها قصراً قصراً ، ثم افتتح قصور كوار ، واستولى على قصر جاوان ، ومن هناك انصرف عائداً إلى ذويلة ، ومنها إلى قفصة ، فسقطت في يده ، وأتبعها بقسطنطينية . واختتم غزوته بموضع القيروان الذي كان قد أقامه معاوية بن حديج ، فلم ينل إعجابه ، وانتقل منه إلى موضع المدينة الكبرى التي ستعرف منذ ذلك الحين بالقيروان^(٣) ، وذلك جنوبي قرطاجنة . وعمل عقبة على أن يكون تخطيط معسكره هذا في الصحراء ، بعيداً عن الساحل حتى لا تتعرض مدينته وقاعدته إفريقية لتهديد أساطيل الروم . فلما قال له جنده : « تقرب من البحر ليم لنا الجهاد والرباط » ، قال عقبة : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر ، وقد علم به »^(٤) . وبالفعل شرع عقبة

(١) André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, de la conquête arabe à 1830, p. 16.

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٦٢ - البكري ، المغرب ص ١٢ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ١ ص ١٩ .

يبدو أن هذه كانت السياسة التي اتبعها العرب بادئ ذي بدء في تخطيط مدنها ، فقد كانوا يخشون -

سنة ٥٠ هـ^(١) وقيل سنة ٥١ هـ^(٢) في تأسيس مدينة حربية ، أشبه شيء بمعسكر حربي ، وكان موضعها غياض لا ترام لكثرة مباحها وحياتها ، فدعا عقبة ومن معه من الصحابة والتابعين أن ترحل هذه السباع والحيات ، فرحلت^(٣) ، فاختلفت عقبة دار الإمارة ، وأقام معه الناس الدور والمساكن ، ثم أتى بعد ذلك إلى موضع المسجد الأعظم ، فاخطه ، ولم يحدث فيه بناء . ويذكر ابن عذارى المراكشي أنه كان يصلي فيه وهو كذلك ، « فاختلف الناس عليه في القبلة ، وقالوا : إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد ، فاجهد نفسك في تقويمها . فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارك الشمس ، فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغموماً ، فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه ، فأتاه آت في منامه فقال له : إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك ، واجعله على عنقك ، فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضى الله لك أمر هذا المعسكر ، وهذا المسجد ، وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويذل بها من كفر به . فاستيقظ من منامه وهو جزع ، فتوضأ للصلاة وأخذ يصلي ، وهو في المسجد ومعه أشرف الناس . فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين ، إذ بالتكبير بين يديه ، فقال لمن حواه : « أسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا ، فلم أن الأمر من عند الله ، فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب ، فانقطع التكبير ، فركز لواءه ، وقال : هذا محرابكم . فاقتدى به سائر مساجد المدينة »^(٤) . ثم أخذ الناس في تشييد دورهم ومساكنهم ومساجدهم بالقيروان ، وعمرت المدينة بمختلف أنواع الأبنية والمنشآت ، وشاء الناس إليها الرحال ، واتسعت بالأسواق والمرافق ، وأصبحت القيروان مركزاً توجه منه

تخطيط عوامهم بقرب البحر . (انظر كتابنا : تاريخ الإسكندرية وخضارتها في العصر الإسلامي الإسكندرية ١٩٦١ ص ٤٠ - ٤٥) .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٦٦ - البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦٨ - الاستقصا ج ١ ص ٢٧ . (٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٦٤ - البلاذري ص ٢٦٩ - ابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠ وما يليها - الدباغ : معالم الإيمان في معرفة القيروان ، تونس .

١٩٠١ ج ١ ص ٩ .

الغزوات على جبال أوراس المواجهة لها^(١) . واجتذبت هذه المدينة عدداً كبيراً من البربر الذين اعتنقوا الإسلام ، وكان ذلك أول خطوة في نقلة البربر واستعراهم . ولم تطل ولاية عقبة على إفريقية أكثر من خمسة أعوام ، فقد عزله معاوية ابن أبي سفيان سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) نتيجة لسعايات مسلمة بن مخلد الأنصاري وإلى مصر ، الذي كان يحسد عقبة على انتصاراته المتتالية . وذكر الأستاذ هنري تراس أن معاوية عزل عقبة خوفاً من أن يستقل بالمغرب عن الخلافة . وأقام مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر دينار ، وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة في رفق ، وأن يحسن معاملته ، ويبدو أن أبا المهاجر دينار لم يفعل ما أوصاه به مسلمة ، بل إنه على الضد من ذلك أساء إلى عقبة بن نافع إساءة لم يغفرها له ، وذكر ابن عبد الحكم ، « أنه سجنه وأوقره حديداً حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه »^(٢) . أما ابن عذارى فلم يذكر هذه الإساءة وإنما أكد إساءة أبي المهاجر عزله عقبة ، وأضاف قائلاً إن أبا المهاجر نزل في موضع غير القيروان التي أسسها عقبة ، وكره أن يتزل في هذا الموضع الذي اختطه ، وإنما اختار موضعاً يبعد عن القيروان بميلين ، ويقرب من تونس الحالية ، فاخطت في هذا الموضع مدينة ، وأمر الناس أن يحرقوا القيروان ويعمروا مدينته^(٣) . ولا نستبعد ما ذكره هذان المؤرخان ، فقد كانت ثمة عداوة بينهما بسبب ولاية إفريقية . توجه عقبة بعد عزله إلى المشرق ، وقدم على معاوية وشكا له قائلاً : « فتحت البلاد ودانت لي ، وبنيت المنازل ، واتخذت مسجداً للجماعة ، وسكنت الناس ، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي^(٤) » فاعتذر له معاوية ووعد به برده إلى عمله ، ولكنه لم يف بما وعده به . وكان أبو المهاجر يتميز عن سلفه بالدهاء وحسن السياسة ، وكان يرى أن يضائع بربر أوربة ، وكانوا أقوى بربر البراندس ، فيكتسب مودتهم ويضمن انضواءهم تحت لوائه ، أو عدم انحيازهم على الأقل إلى الروم . وركز

(١) Terrasse, Histoire du Maroc t. I, p. 80. - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة

١٩٥٩ ص ٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٦٨ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٢٢ .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٧٠ - ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٢٢ .

أبو المهاجر قواه لمواجهة الروم ، فزحف من القيروان إلى المغرب الأوسط وغزا مواقع أوربة في جبال أوراس ، واستطاع بحسن سياسته أن يضم إليه أكبر زعماء بربر هذه القبيلة من البرانس ، ويعرف بكسيلة بن لمزم ، وكان نصرانياً فاعتنق الإسلام ، وأسلم معه كثير من بني قومه ، ونجح أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة له في الاستيلاء على تلمسان^(١) ، (بوماريا) ، وشن على قرطاجنة هجوماً كبيراً سنة ٥٩ هـ (٦٧٩ م) ، ثم تركها بعد أن تخلى له الروم نظير ذلك عن الجزء الواقع جنوبى إقليم قرطاجنة^(٢) .

المرحلة الرابعة : ٦٠ هـ - ٦٤ هـ (٦٨٠ - ٦٨٤ م)

ظل أبو المهاجر على ولاية إفريقية حتى مات معاوية سنة ٦٠ هـ ، وأفضت الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد بن معاوية ، وكان يزيد مقتنعاً بفضل عقبة على الإسلام وحسن بلائه في غزو إفريقية ، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن غنم ، وإلى مصر ، وعزل أبا المهاجر دينار ، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية . وكان عقبة ما يزال حاقداً على أبي المهاجر لإساءته إليه ، فما كاد يتولى إفريقية حتى قبض على أبي المهاجر وأوثقه في الحديد^(٣) ، وعاد هذه المرة إلى القيروان وهو أشد عزيمة في الفتح من المرة الأولى ، حيث إنه قال لقومه : « إني قد بعث نفسي من الله تعالى ، وعزمت على من كفر به حتى أقتل فيه ، وألحق به . ولست أدري أتروني بعد يومى هذا أم لا ، لأن أمل الموت في سبيل الله »^(٤) . ومضى حتى وصل إلى إفريقية ، وأمر بتخريب المدينة التي بناها أبو المهاجر وأعاد الناس إلى القيروان . ثم عزم على الغزو ، وترك بالقيروان جنداً من المسلمين استخلف عليهم زهير بن قيس البلوى ، وقيل إنه أغزى أبا المهاجر معه إلى السوس وهو مكبل بالأغلال^(٥) . وخرج عقبة في غزوته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط الأطلسي ، ومعه جموع من بربر أوربة ، عليها كسيلة . وما زال في سيره يخترق

(١) ابن خلدون ، كتاب البرج ٦ - السلاوى ، الاستقماج ١ ص ٣٧ .

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ١٧٠ - ١٧٦ - فجر الأندلس ص ٤٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ص ٧٠ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٥ .

(٤) ابن هداري ج ١ ص ٢٤ .

(٥) ابن عبد الحكم ، فخر إفريقية ص ٧٠ .

بلاد إفريقية حتى وصل إلى مادية بأغاية وقرطاجنة ، فهزم الروم والبربر واستولى على المدينتين ، ثم حاصر المنستير وكانت من أعظم مدن إفريقية واستولى عليها ، ودخل الزاب ، وقاتل الروم وحلفاءهم من البربر على وادي المسيلة ، فهزمهم ، فاجتمع الروم في تاهرت ، وآزهم فيها بربر لمواتة وهوارة وزواغة وزناتة ومكناسة ومطماطة ، فقاتلهم عقبة قتالا عنيفاً حتى هزمهم ، وقضى على كل مقاومة لهم في المغرب الأوسط^(١) ، ويبدو أنه أساء إلى كسيلة زعيم بربر أوربة ، وأهانته إهانة بالغة ، فخرج هو وأصحابه من البربر عن طاعته^(٢) ، وسرى كيف انتقم كسيلة لنفسه من عقبة .

ثم انطلق عقبة بجيشه مكتسحاً شمال إفريقيا كله ، هازماً من يعترضه من الروم ، حتى دخل المغرب الأقصى سنة ٦٢ هـ (٦٨٢ م) ، ويعتبر عقبة أول من دخله من المسلمين ، واقترب عقبة من طنجة ، وكان يحكمها أمير اسمه يليان ، أو إليان ، فأرسل يليان مهادياً عقبة ومهادناً له ، وسأله المسألة والتزول على حكمه ، فسأله عقبة . وما زال يندفع بجيشه غازياً حتى وصلت جيوشه إلى ولاية Volubilis على مقربة من الموضع الذي أقام فيه إدريس بن عبد الله بن الحسن مدينة فاس ، وقاتل جموع البربر من المصامدة حتى هزمهم ، وطاردهم حتى درعة^(٣) . واستمر في مغامرته الكبرى حتى وطئت جيوشه أرض السوس الأقصى وانتهى إلى مدينة إيغيران بطوف Cap Guir ، وتقع على ساحل المحيط الأطلسي^(٤) ، وافتتح في طريقه إليها مدينة أغمات وريكة ، وتسكنها قبائل هسكورة ، ونزل

(١) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٢٤ - ابن الأثير ج ٤ ص ٤٦ - نص عبيد الله عن فتوح المغرب ، نشره ليث بروثنسال في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ص ٢١٩ .

(٢) يرى الدكتور حسين مؤنس أن صداقة كسيلة لأبي المهاجر كانت من أسباب غضبه على كسيلة ، فقبض على كسيلة ، كما قبض على أبي المهاجر وأخذها معه في حملته الكبرى . ولم تكن الرقابة على كسيلة شديدة ، فهرب من معسكر عقبة واتصل بأنصاره من البربر والروم (انظر تعليق الدكتور حسين مؤنس على نص عبيد الله ، ص ٣٧) .

(٣) ليث بروثنسال : نص جديد في فتح العرب للمغرب بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ص ٢٠٧ .

(٤) نفس المرجع ، اعتماداً على نص عبيد الله بن صالح ص ٢١٩ - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤١ .

منها على وادي نفيس ، ثم إنجلي قرب دركالة ، وأطاعته سائر قبائل البربر مثل
 هسكورة وجزولة ورجرجة وصودة^(١) . ويذكر ابن عذارى أنه عند ما وصلت
 جيوشه مدينة ماسة الواقعة على المحيط ، أدخل فرسه في البحر حتى وصل الماء إلى
 تلايبه ، وقال ابن أبي الفياض : « وسار حتى بلغ البحر المحيط ، فدخل فيه
 حتى بلغ الماء بطن فرسه ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : يا رب لولا أن البحر
 منعي ، لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك ، مقاتلاً من
 كفر بك^(٢) » ويبدو أن أخباراً مقلقة من إفريقية قد بلغته ، فعجل بالعودة إلى
 القيروان ، ماراً بباغيران يطوف ، وتارنا ، ومنها إلى رباط شاكر ، ودخل إقليم
 دكالة ، حتى بلغ طنجة ، ومنها اتجه نحو المغرب الأوسط . فلما بلغ مدينة
 طنبه ، أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر ، ولم يستبق معه سوى خمسة
 آلاف ، وسار هو إلى مدينة تهودة ليستولى عليها ، ويجعل منها قاعدة حربية
 لقواته في منطقة أوراس ، ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لزيم
 الأوربي البرانسي بجموع هائلة من بربر البرانس ، يتجاوز عددهم خمسين ألفاً
 وفقاً لرواية ابن عذارى ، وقطع كسيلة على عقبة خط الرجعة ، وأحس عقبة
 أمام هذه الحشود المتجمعة من البربر باقتراب نهايته ، فأراد أن يبعث أبا المهاجر
 مع من تبعه من المسلمين إلى القيروان ، ويبقى هو لقتال البربر ، فأبى أبو المهاجر
 إلا أن يغتنم الشهادة معه ، فنزل المسلمون عن دوابهم ، وكسروا أغصان سيوفهم ،
 ودارت الموقعة عند تهودة سنة ٦٣ هـ^(٣) ، فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما
 في أيديهما ، واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين ، وأسر الباقون ، فقدهم
 صاحب قصبة ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس^(٤) .

ودوى خبر مقتل عقبة في إفريقية والمغرب ، وكان له أثر عميق في نفوس

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢٦ وما يليها - وليث بروثسال ، المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٢٧ .

(٣) يرى الدكتور حين مؤنس أن موقعة تهودة حدثت سنة ٦٤ هـ وأن زهير بن قيس قرر
 الانسحاب إلى برقة سنة ٦٥ هـ . (انظر تعليق الدكتور مؤنس على مقال ليث بروثسال الخاص بنص
 عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٦) .

(٤) انظر تفاصيل هذه الموقعة في نص عبيد الله بن صالح ص ٢٢٠ وما يليها ، وابن عبد الحكم في
 فتوح إفريقية ص ٧٠ - ٧٤ وابن عذارى في البيان ج ١ ص ٢٨ - ٣٠ .

المسلمين ، فقرر زهير بن قيس أن ينسحب بجميع المسلمين إلى برقة قبل أن يفاجأه كسيلة ، وقيل أنه أراد الانصراف إلى مصر ، فقيل له : « الهزيمة بالمسلمين من إفريقية إلى مصر ؟ » فعزم على القتال ، وزحف كسيلة إلى القيروان ، وعظم البلاء على المسلمين ، فخطب فيهم زهير بالقيروان وقال « يا معشر المسلمين ، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد من الله عليكم بالشهادة ، فاسألكوا سبيلهم ، ويفتح الله لكم دون ذلك ، فقال له حنش الصنعاني التابعي : لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا ولاية ، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم » ثم قال : « يا معشر المسلمين ، من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبني ، فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ، فنهض في أثره ولحق بقصره ببرقة » (١) .

وهكذا قرر زهير أن ينسحب إلى برقة ، وأقبل كسيلة بعسكره فاستولى على القيروان سنة ٦٤ هـ ، بينما أقام زهير ببرقة مرابطاً حتى أيام عبد الملك بن مروان . وأسفر ذلك عن خروج إفريقية من أيدي المسلمين ، وضاعت بذلك جهود أربعين عاماً قضاهما المسلمون في غزو وفتح . ولكن العرب لم يفقدوا كل شيء ، فقد تركوا بإفريقية عدداً كبيراً من البربر تحولوا إلى الإسلام (٢) ، وقد خضع هؤلاء لكسيلة ، ولكنهم ما لبثوا أن تنازعوا معه ، فعم الاضطراب صفوفه ، واختلت أحواله ، وسرى بعد قليل أن هؤلاء البربر سينضمون طائعين إلى جيوش المسلمين (٣) .

المرحلة الخامسة : ٦٩ - ٧١ هـ (٦٨٧ - ٦٨٩ م)

توفي يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ (٦٨٢ م) وبويع لمروان بن الحكم ، ولكن عهده لم يطل ، إذ توفي بعد عام واحد من خلافته ، وخلفه ابنه عبد الملك . وعز على عبد الملك ، وكان رجلاً مجاهداً قد شارك في فتوح المغرب أيام معاوية بن حديج ، أن يضيق المغرب على الإسلام ضياعاً نهائياً ، فبعث زهير بن قيس

(١) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣١ - السلاوي ، الاستقصا ج ١ ص ٣٩ .

(٢) ليث بروفسال : فتح العرب للمغرب ، بمجلة المعهد المصري بمطبعة ص ٢٠١ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٠٧ .

باعتباره صاحب عقبة الشهيد ، في حملة لاسترجاع القيروان ، وكان كسيلة قد استبد بالأمر فيها ، واكنه كان يخشى من الحزب الإسلامي في المدينة^(١) ، ويعمل له حساباً كبيراً . أما الروم فقد تحصنوا في قرطاجنة وثبتوا أقدامهم على الساحل التونسي ، فسار زهير على رأس جيش كبير من جنود الشام سنة ٦٩ هـ (٦٨٧ م) ، فلما بلغ كسيلة قدومه إليه ، رحل من القيروان بجموع هائلة من البربر والروم إلى موضع يعرف بساقية ممتش Mamma^(٢) ، يقع بين القيروان وتبسا ، ويبدو أنه انتقل إلى هذا الموضع لحصانه ومناعة موقعه ، إذ تقع ساقية ممس هذه على مرتفع من هضبة تتصل ببحال أوراس ، وكان كسيلة يزعم التحصن بالجبل إذا دارت عليه الدائرة . أما قوات المسلمين ، فقد نزلت بظاهر القيروان وأقامت هناك ثلاثة أيام ، ولم تدخل المدينة حتى لا تفاجئها جيوش كسيلة . ثم زحف زهير بجيوشه إلى حيث تحصن كسيلة ، وبدأ بمهادنة الروم حتى يتفرغ لقتال كسيلة ، ثم دار القتال بين جيشيهما على وادي ممس^(٣) ، فانتصر جيش زهير انتصاراً ساحقاً ، وقتل كسيلة ، ومضى المسلمون في طلب البربر فقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وطاردهم حتى وادي ملوية . ثم عاد زهير إلى القيروان ، فأقام بها بعض الوقت ، ثم تركها بعد أن نظم إدارتها وأقام عليها كثيراً من أصحابه ، وشرع في القبول إلى برقة . وفي أثناء عودته قطع عليه الروم الطريق ، ودارت بينه وبينهم معركة في درنة بالقرب من طبرق لقي فيها زهير حتفه سنة ٨٦٩ هـ^(٤) .

ولا استشهد زهير ببرقة اضطربت بلاد المغرب من بعده واضطربت بها

(١) ذكر ابن عذارى أن كسيلة دعا أشراف البربر إليه عند ما أبلغوه بحملة زهير وقال لهم : إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة ، فإن بها قوماً من المسلمين لهم علينا عهد ، ونحن نخاف إن أخذنا القتال منهم أن يكونوا علينا ، ولكن نزل على موضع ممس وهي على الماء . . . » انظر البيان المغرب ج ١ ص ٢٢ .

(٢) البكري ، المغرب ص ١٤٦ .

(٣) انظر نص عبيد الله بن صالح بمجلة المعهد المصري بمدريد ص ٢٢١ . يذكر صاحب النص أن المعركة دارت في سميس . وتعتبر هذه المعركة من أهم المواقع الحاسمة في تاريخ فتح العرب للمغرب ويعلق السلاوي عليها بقوله : « في هذه الواقعة ذل البربر وفتيت فرسانهم ورجالهم ، وخضعت شوكتهم وإضعف أمر الفرنجة فلم يعد ، وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً فلجئوا إلى القلاع والحصون ركزت شركة أوربة من بينهم » انظر الاستقصا ج ١ ص ٤٢ .

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ٢٢ - نص عبيد الله بن صالح ص ٢٢١ .

نار الفتن ، وافترق أمر البربر ، وتعدد سلطانهم في رؤسائهم ، وكان من أعظم هؤلاء الرؤساء وقتئذ الكاهنة الزناتية الجراوية ، صاحبة جبل اوراس التي ستحدث عنها بعد قليل . وانقضت بعد ذلك أربعة سنوات توقف فيها الفتح ، لانشغال عبد الملك بن مروان بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير . ولم يتردد عبد الملك بن مروان في إعادة الكرة مرة أخرى في إفريقية بعد أن قضى على ثورة ابن الزبير في جمادى الآخرة سنة ٥٧١ هـ (٦٩٠ م) ، وتفرغ لفتح بلاد المغرب . كان عبد الملك يعتقد تماماً أن إفريقية لا يمكن أن تفتح فتحاً منظماً ثابتاً إلا إذا أعد لذلك جيشاً كبيراً مسلحاً بكل أنواع الأسلحة والمعدات . ويذكر المؤرخون أنه جهز لهذا الغرض جيشاً كثيفاً بلغت عدته نحو أربعين ألف مقاتل^(١) ، وجعل على رأس هذا الجيش قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغساني . وقد اختلف المؤرخون في ذكر تاريخ سير الحملة إلى أفريقية ، فابن عبد الحكم يحدد لها عام ٥٧٣ هـ^(٢) ، وابن الأثير عام ٥٧٥ هـ^(٣) ، ويؤيده في ذلك ابن خلدون^(٤) . أما ابن عذاري^(٥) فقد حدد لهذه الحملة عام ٥٧٨ هـ ، ولعل السبب في كل هذا الاختلاف أن المؤرخين العرب يخلطون بين تاريخي حملتين قام بهما حسان ابن النعمان : إحداهما في ٧٣ أو في ٧٤ هـ والثانية في ٧٨ أو ٥٧٩ هـ وسرى بعد قليل كيف تمت هاتان الحملتان .

اتبع حسان سياسة أبي المهاجر دينار ، وهي سياسة تقوم على اصطناع البربر واستمالتهم ضد الروم ، وآتت هذه السياسة الحكيمة ثمرتها ، إذ انضم إليه بربر البرانس ، فزحف بهم ويحيشه العربي على أفريقية ، فلما وصل القيروان ، سأل عن أي ملك عظمت شوكته في المغرب الأوسط ف قيل له ملك قرطاجنة ، فصمم على قتاله^(٦) ، ورسم حسان خطة جديدة في محاربة الروم ، وهي القضاء

(١) نفس المرجع ص ٣٤ .

(٢) ابن الحكم ، فتوح إفريقية ص ٧٦ .

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٠ هـ ج ٤ ص ١١٣ .

(٤) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١٨٧ .

(٥) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٣٤ .

(٦) نفس المرجع ص ٣٤ - السلاوي ، الامتصاص ج ١ ص ٤٢ .

أولا على وكرهم قرطاجنة ، ونجحت خطته على نحو لم يكن في الحسبان ، فقد طوقها ، ودخلها بالسيف وخربها ، وقضى على عمرانها وهدمها بعد أن أخلاها الروم ومضوا في مراكبهم إلى صقلية والأندلس ، فأصبحت قرطاجنة أثرا بعد عين . ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في صطقورة وبتزرت ، فحاربهم حتى هزمهم ، ولم يترك من بلادهم موضعا إلا وطأه ، فلبأ الروم إلى باجة حيث تحصنوا ، أما البربر ففروا إلى إقليم بونة^(١) . وما كاد حسان يفرغ من الروم حتى واجهته مشكلة البربر البتر الذين اجتمعوا حول زعيمة لهم تعرف بالكاهنة ويقال لها داهية بنت ماتيية بن تيغان ماكة جبل أوراس . فزحف حسان قرب باغاية ، وسبقته الكاهنة إلى هناك ، فهدمت المدينة بعد أن أخرجت منها الروم^(٢) . ثم اشتبك الجيشان في موضع يسمى نهر البلاء^(٣) ، فانهزم حسان بن النعمان هزيمة نكراء ، وأسرت الكاهنة من رجاله ثمانين وطاردت فلول المسلمين في منطقة الجريد حتى قابس ، وتراجع الجيش العربي إلى برقة ، وهكذا خرجت إفريقية من أيدي العرب للمرة الثانية . ولم تكتف الكاهنة بذلك بل عمدت إلى القضاء على كل مظاهر العمران بإفريقية حتى تمحى كل آثار الفتوحات العربية^(٤) ، إلا أن ذلك أضر بالكاهنة ، فقد انقض عنها كثير من أنصارها ، من النصاري والأفارقة ، وهرعوا إلى حسان يستنصرونه عليها ، وانهز الروم في عهد ليونتيوس هذه الفرصة فأغاروا سنة ٥٧٨ م (٦٩٧ م) على من كان معسكراً من المسلمين في قرطاجنة ، فقتلوا من بها وسلبوا وغنموا^(٥) .

١ (١) نفس المرجع ص ٣٥ - ابن الأثير ، أسد الغابة ج ٤ ص ١١٣ - السلاوي ، الاستقصا ج ١ ص ٤٢ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٦ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٧٦ . ويسميه ابن الأثير نهر نيني (انظر أسد الغابة ج ٤ ص ١٤٤) . ويسميه ابن عذارى وادي مسكيانة (البيان المغرب ج ١ ص ٣٦) . وذكر البكري أن قرية مسكيانة تقع على نهر بالقرب من باغاية . (المغرب ص ٥٠) . ويتفق ابن خلدون مع ابن عذارى على هذا الاسم . أما عبيد الله بن صالح فيسميه وادي ترضى (نص عبيد الله بمجلة المعهد المصري بمدريد ، ص ٢٢٢) . ويعود ابن عذارى إلى تسمية موضع الموقعة باسم وادي العذارى (البيان ج ١ ص ٣٦) . (٤) يعلل ابن عذارى تهديم الكاهنة للعمران وتخريبها للزروع بأنها كانت تعتقد أن العرب يعمرون على المغرب إلا سعيأ وراه الذهب والفضة في المدن والمزارع . (البيان ج ١ ص ٣٦) . (٥) البكري ، المغرب ص ٣٨ .

المرحلة السادسة : ٥٨١ - ٥٨٥ (٧٠٠ - ٧٠٥ م)

أقام حسان بن النعمان بيرة ما يقرب من أربعة سنوات يترب النجدة التي وعد بها عبد الملك بن مروان ، وأقام هناك قصوراً كانت تسمى في القرن الثاني عشر الميلادي باسم قصور حسان . فلما كانت سنة ٥٨١ ، وصلته الإمدادات وتوافت عليه فرسان العرب ورجالها ، من قبل عبد الملك بن مروان ، وزحف حسان بكامل قواته لمقاتلة الكاهنة ، وتكاثف جيشه بمن انضم إليه من البربر الموالين له ، فأخذت الكاهنة تراجع موعلة في جبال أوراس ، وبعث ابنها إلى حسان ليطلب الأمان لنفسيهما ، فأمنهما ، أما هي فقررت أن تحارب حتى الموت ، وما زال حسان يطاردها حتى التقى بجيشها سنة ٥٨٢ (٧٠١ م) عند بئر الكاهنة ^(١) ، وقيل عند طبرقة ، فهزمها هزيمة شنعاء ، وسحق جيشها ، وقتلها ، وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة في المغرب الأدنى . واستقامت بلاد إفريقية لحسان . فاتجه إلى قرطاجنة للمرة الثانية لتطهيرها من الحامية البيزنطية ، التي اضطرت إلى الفرار بجزراً ^(٢) ، واسترد حسان المدينة ^(٣) . ولكنه كان يخشى أن يفاجأ الروم من البحر مرة أخرى ، فرأى أن يقيم تجاه قرطاجنة مدينة إسلامية تقع على البحر وتشرف على مدخل قرطاجنة ، فبنى تونس على بعد ١٢ ميلاً شرق قرطاجنة ، وكان يصلها بها طريق روماني قديم . وتونس هذه هي تونس القديمة ، ولم تكن تعدو عند بنائها قرية صغيرة ^(٤) ، فحولها حسان إلى قاعدة بحرية تطلع منها الأساطيل ، وأنشأ بها داراً لصناعة الأسطول ^(٥) ، كما شيد فيها مسجداً جامعاً ، وداراً للإمارة وثكنات

(١) نص عبيد الله بن صالح ص ٢٢٣ .

(٢) ذكر البكري أن أهلها كانت عندهم سفن معدة من ناحية باب النساء ، فحملوا فيها أموالهم وأرلادهم وهربوا ليلاً ولم يبق فيها غير مرناق صاحبها (المغرب ص ٢٧) .

(٣) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٢٦٠ .

(٤) ذكر البكري أن تونس كانت تسمى قديماً ترشيش ويقال لبحرها بحر راد ، وكذلك يسمى مرساها مرسى رادس (المغرب ص ٢٧) .

(٥) أرسل عبد العزيز بن مروان إل حسان ألف قبلى بأهله وولده إلى ترشيش ، وأمره بأن يبنى لهم دار صناعة ، يصنع فيها المراكب ويجهز الروم في البر والبحر ، وأن يفار منها على ساحل الروم فيشغلهم ذلك عن مهاجمة القيروان (انظر البكري ، المغرب ص ٢٨) .

للجند ، وقدر لهذه المدينة الصغيرة أو المحرس البحري أن تكون أعظم ثغور إفريقية بعد ذلك بثلاثين عاماً على يدى عبد الله بن الحبحاب ، فقد نمت ، واتسع عمرانها ، وأقبل إليها الناس يستوطنونها ، وأقيم فيها أعظم جامع بالمغرب الأدنى وهو جامع الزيتونة الذى سعى كذلك نسبة إلى القديسة زيتونة التى عاشت أيام الوندال . وبعد أن فرغ حسان من استرداد إفريقية والقضاء على مقاومة البربر والروم ، أخذ يوجه عنايته لتنظيم البلاد إدارياً على نحو ما فعله العرب فى مصر والشام ، فدون الدواوين ونظم الخراج ، وبعث العمال على سائر بلاد المغرب ، وعمل على نشر الدين الإسلامى بين البربر ، فوزع الفقهاء إلى سائر أنحاء البلاد لتعليمهم قواعد الدين الإسلامى ، ونشر اللغة العربية لغة القرآن ، فاقبل البربر على الإسلام فى حماس منقطع النظير ، وأخلصوا له ، وجند حسان منهم أجناده ، حتى أصبح أكثر جيشه من البربر ، ثم ولى زعماءهم بعض المناصب الكبرى فى المغرب . وهكذا فتح حسان بلاد المغرب حربيّاً ومعنويّاً فى آن واحد ، واستطاع أن يحول إفريقية إلى ولاية إسلامية قلباً وقالباً^(١). ويبدو أن نزاعاً حدث بينه وبين عبد العزيز بن مروان ، ولى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك ، فأخذ عبد العزيز يضيق عليه ، ويحد من سلطته ، ويكف يده عن إتمام ما شرع فيه من إصلاحات ، ثم عزله عن ولاية إفريقية فى أوائل سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) .

المرحلة السابعة : ٨٦ هـ - ٩٠ هـ (٧٠٧ - ٧١١ م) .

لما عزل حسان بن النعمان ، تولى موسى بن نصير على إفريقية بأمر عبد العزيز ابن مروان ، وكان موسى هذا من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وأخلصهم لها ، وكان أبوه نصير قائماً فى حرس معاوية بن أبى سفيان ، وقيل إنه كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، وأصبح موسى مولى لعبد العزيز . وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملاً على العراق مع بشر بن مروان ، ولكن الخليفة أخذ عليه بعض مأخذ ، وأراد قتله ، فافتداه منه عبد العزيز بن مروان

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٢٨ .

السلارى ، الاستقصا ج ١ ص ٤٣ .

عامل مصر بمال ، وأجاره ، ثم ولاه على إفريقية^(١) . وذكر ابن عذارى أنه افتتح ولايته بفتح قلعة زغران^(٢) . وكان المغرب الإسلامي قد فتح أغلبه عند ولاية موسى ، ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى ، فخرج موسى غازياً من إفريقية إلى طنجة ، فوجد البربر قد فروا إلى أقصى الغرب خوفاً من بطش العرب بهم ، فتتبعهم موسى على رأس جيش مؤلف من وجوه العرب ومن اتصف من البربر بالقوة والجلد ، فقتل من بربر هذه المنطقة عدداً كبيراً وسي منهم سبياً كثيراً^(٣) . وكان موسى بهم في حروبه بما يجنيه من مغاتم وسبايا ، ولم يكن يحفل بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الغزوات في نفوس الوطنيين من سوء الظن والحقد والكراهية للعرب . والواقع أن سياسة موسى نحو البربر أدت إلى غرس عوامل الحقد في نفوسهم ، حتى لقد أصبح من العسير انتزاع هذا الشعور من نفوسهم ، وقد أفضى ذلك مع مرور الزمن إلى إقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر ، وإلى انحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية انقلابية ، من خارجية وصفرية وشيعية^(٤) .

وقد يكون سبب إصراف موسى في غزوه لقبائل البربر (هواره ، وزنانة ، وكنامة) رغبته في إرضاء عبد الملك بن مروان عنه بعد أن أساء به الظن ، فأخذ يقاتل البربر ، ويفتح مدائنهم ، وبلادهم ، ويذرع البلاد من شرقها إلى غربها ، ويبعث بغنائمه إلى عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك ، حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه في نفسه من ضغائن وأحقاد^(٥) ، فلما توفى عبد الملك سنة ٨٦ هـ ، ولي الخلافة بعده ابنه الوليد ، وبلغه ماتم من فتوح في المغرب على يدى موسى ابن نصير ، فعظمت منزلة موسى عنده ، واشتد عجبه به . وقد أحدثت غزواته رجة كبرى بين قبائل البربر وسببت لهم الهلع والخوف ، فتسابقوا إلى الخضوع له ، والدخول في الإسلام والانضواء في سلك الجيش العربي ، الأمر الذي أتاح لموسى أن يعمضى في غزوه في المغرب الأقصى حتى بلغ طنجة ، قافتحتها ، وترك عليها ،

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٨٤ - ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٣٩ وما يليها .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٤٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٢ - نص عبيد الله ص ٢٢٤ .

(٤) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٧ وما يليها .

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٨٦ .

حامية كبرى ، على رأسها مولاة طارق بن زياد ، وقد ذكر ابن عذارى أن عدد جنود هذه الحامية كان يتجاوز تسع وعشرين ألفاً ، وأوصى موسى العرب أن يعلموا البربر القرآن وأصول الدين^(١). واجتاز جيش موسى نهر درعة لأول مرة في تاريخ المغرب ، ثم قام بإرسال حملة تأديبية إلى مدينة سجوجما وعلى رأسها عياض وعثمان وأبو عبدة من أبناء عقبة بن نافع ، وكان يسكنها طوائف البربر الذين اشتركوا في قتل عقبة وأصحابه في تهوده ، فانتقموا لأبيهم من أهل هذه البلدة شر انتقام ، وقضوا عليها قضاء مبرما^(٢). وهكذا نجح موسى بن نصير في إخضاع بلاد المغرب للإسلام ، ولم تستعص عليه غير مدينة سبتة لمناعتها ، ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قبل القوط في إسبانيا^(٣) خاكم اسمه خوليان Julian ويسميه العرب يليان أو إليان^(٤)، قد اختلفت المصادر في شخصية يليان ، فبعضها يذكر أنه قوطي^(٥) ، وبعضها يزعم أنه رومي^(٦) ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة^(٧). والواقع أن يليان كان حاكماً عاماً على إقليم مورطانية الطنجية ، وكانت تابعة لمورطانية القيصرية ، إحدى الولايات السبعة الخاضعة للدولة البيزنطية . فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، ولت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية^(٨). ويغاب على الظن أن يليان المذكور بدأ

(١) نفس المرجع ص ٨٨ - ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٤٢ . ويذكر عبيد الله بن صالح أن موسى ترك مع طارق مائة عشر رجلاً من العرب يعلمون أهل المغرب الأقصى الإسلام الصحيح وذلك فيما يقرب من سنة ٩٠ هـ . (انظر عبيد الله بن صالح ص ٢٢٤) .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ ، وابن عذارى ج ١ ص ٤٢ .

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار إلى مدين تقع على شاطئ البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس على رأسها سبتة (انظر أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، نشره E. Lafuente Alcántara ، مدريد ١٨٦٧ ص ٤) .

(٤) البكري ، المغرب ص ١٠٤

Edouardo Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en España, Madrid 1892, p.48.

Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. 1, p. 13

(٥) ابن عذارى ج ١ ص ٢٠٣ .

(٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١١٧ .

(٧) السلاوي ، الاستقصاء ج ١ ص ٤٤ .

(٨) ذكر الحميري أن يليان هذا كان عامل للريق على سبتة ، (انظر ابن عبد المنعم الحميري ، -

ولايته لهذا الإقليم في سن مبكرة ، وأنه أقام مدة طويلة في أرض المغرب حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له حتى أصبح يعد نفسه واحدا منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس ، فظنوه بربرياً ، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى بربر غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا ، فمرجعه أنه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة لبعده مدينته عن بيزنطة واضطراب أمور بيزنطة في تلك الآونة . وقد لعب يليان دوراً هاماً في فتح الأندلس وستحدث عن كل ذلك في حينه .

الفصل الثانى

فتح المسلمين للأندلس

١ - إسبانيا قبل الفتح الإسلامى

- (أ) تاريخ دولة القوط الغربيين
- (ب) مظاهر الاضطراب فى أواخر عصر الدولة القوطية .
- (ح) المجتمع الإشباني فى ظل القوط

٢ - حملة طارق بن زياد

- (أ) مقدمات الفتح
- (ب) انتصار طارق فى موقعة وادى لكّة
- (ح) زحف طارق إلى طليطلة عاصمة القوط
- (د) فتح قرطبة

٣ - حملة موسى بن نصير

- (أ) افتتاح جنوب الأندلس وغربه
- (ب) موقعة السواقي ومقتل للنريق
- (ح) فتح شمال إسبانيا

٤ - عبد العزيز بن موسى واستكمال فتح الأندلس

الفصل الثاني

فتح المسلمين للأندلس

١

إسبانيا قبل الفتح الإسلامي

١ - دولة القوط الغربيين :

تاريخ إسبانيا قديم للغاية ، فأصل السكان مزيج من الكلت والأيبيريين ، وفي القرن العاشر قبل الميلاد ، أسس الفينيقيون على سواحل إسبانيا عدة مستعمرات لهم ، كما أسس الإغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد بعض مراكز استعمارية في شبه الجزيرة وأطلقوا على سواحلها اسم أيبريا^(١) ، وما لبث هذا الاسم أن أطلق على شبه الجزيرة كلها . ثم خضعت شبه الجزيرة للقرطاجنيين منذ القرن الخامس ق . م . ، وازدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة في عهدهم (كرتاجونوثا) واتخذوها حاضرة لهم . وهكذا تلقت شبه جزيرة أيبريا منذ سنة ٥٣٥ ق . م حتى سنة ٢٠٥ ق . م تأثيرين هامين : أحدهما أوربي وهو التأثير الكلتى واليونانى ، والآخر أسيوى إفريقى أو سامى هو التأثير القرطاجنى ، ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتينى أوربى عقب الغزو الرومانى عام ٢٠٥ ق . م ، إذ أصبحت إيبارية حسب التسمية العربية إقليما رومانياً نشروا فيه الحضارة الرومانية والقانون الرومانى والفن الرومانى ، وقضوا على نفوذ القرطاجنيين . وأسس الرومان مدينة طالقة Italica ، وجعلوها من أهم مراكزهم العمرانية في جنوب إيبارية . وخضع الإسبان لسلطان الرومان بادية ذى بدء ، ثم ساروا على نهج نظمهم ، وأقبلوا عليها إقبالا شديداً ، وانتهى بهم الأمر إلى تعلمها ، واصطبغوا من الوجهة الاجتماعية بالصبغة الرومانية . إلا أن اندماج إسبانيا في الجسم الرومانى لم يتم إلا بفضل المسيحية على نحو لم يكن في

(١) يسميها الحميرى « إيبارية » انظر الروض المطار ص ٢ .

الحسبان^(١) : ثم ضعفت الدولة الرومانية الغربية ، واجتاحتها قبائل جرمانية في موجات متتابعة^(٢) ، حتى استقر بها القوط الغربيون في أواخر القرن الرابع الميلادي وهم أعظم فروع جرمان الشرقيين ، واستطاع القوط الغربيون بقيادة ألابريك Alarico السيطرة على القسم الغربي من الدولة الرومانية ، في عهد الإمبراطور الروماني تيودوسيوس . فلما توفي الإمبراطور سنة ٣٩٥ م ، أصبحت لألابريك الرئاسة على القوط الغربيين ، فاستولى على اليونان عام ٣٩٦ ، ثم دخل إيطاليا وحاصر رومة سنة ٤٠٩ م ، واستجاب السناتو لشروطه ، وتقضى بعزل الإمبراطور هونوريوس وتولية الإمبراطور برسكوس أتالوس . ولما تولى الإمبراطور الجديد وافق على تنصيب ألابريك قائداً عاماً للجيش الرومانية وتعيين آطاوولف أخى زوجة ألابريك قائداً للحرس الإمبراطوري^(٣) . ولم يلبث ألابريك أن اختلف مع أتالوس وعزله سنة ٤١٠ م ، ثم توجه إلى رومة ودخلها عنوة في ٢٤ أغسطس ، ونثر فيها الدمار بعد أن نهبتها جيوشه وجردتها من روائعها^(٤) . ولما توفي ألابريك سنة ٤١٠ خلفه على زعامة القوط الغربيين صهره آطاوولف Ataulfo (٤١٠ - ٤١٥) ، وكان يتطلع إلى الأجزاء الغربية للدولة الرومانية وهي غالة وإسبانيا ، ونجح آطاوولف في الحصول سنة ٤١٢ على اعتراف من هونوريوس بمنحه منطقتي أربونه وطركونه^(٥) من أراضي شبه جزيرة أيبيريا ، ولم تلبث هاتان المنطقتان أن أصبحتا نواة لدولة القوط الغربيين ، التي اتسعت جنوب غالة وشمال إسبانيا . وكان آطاوولف يطمح في أن يكون إمبراطوراً للدولة الرومانية ، فتزوج من جالابلاسيديا أخت الإمبراطور سنة ٤١٤^(٦) .

(١) انظر مقال : « الأندلس » في دائرة معارف الشعب عدد ٦١ القاهرة ١٩٥٩ ص ٣ - ٥ .
 (٢) يعمل الدكتور إبراهيم طرخان تحركات الجرمان وغزواتهم إلى زيادة عدد السكان ، وقلة الإنتاج الزراعي أمام ازدياد عدد السكان ، ويضيف إلى ذلك سبباً آخر هو أن المدنية الرومانية كانت من الأسباب التي دفعتهم إلى الهجرة : راجع إبراهيم على طرخان ، دولة القوط الغربيين القاهرة ١٩٥٨ ص ٢١ وما يليها .

(٣) المرجع السابق ص ٧٧ .

(٤) Aguado Bleye, Manuel de l'Histoire de Espana, t. I, Madrid 1947, p. 337 .

(٥) طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٨٢ .

(٦) Aguado Bleye, op. cit. p. 338 ، المرجع السابق ص ٨٢ .

وكانت إسبانيا تعاني وقتئذ آثار الغزوات الجرمانية المدمرة، التي تدفقت عليها منذ عام ٤٠٩ م ، فقد اجتاحتها عناصر الألان بقيادة رسيبارديال Respardial ، والسويث بقيادة ملكهم هرما نريك Hermanerico والوندال بقيادة ملكهم جنصريك Genserico . وكان الوندال أشد هذه العناصر تخريباً وتدميراً ووحشية^(١) . واقتسمت هذه العناصر الغازية إسبانيا فيما بينها سنة ٤١١ ، فاستقر السويث وقسم من الوندال في الأطراف الشمالية الغربية أي في جليقية Galicia ، واشتوريش Asturias أما الألان فقد أقاموا في لشدانية Lusitania (البرتغال حالياً) ، وأقام القسم الأعظم من الوندال في إقليم باطقة Bactica ، وجزء من شرق الأندلس . وعلى هذه الحالة السيئة ظهر آطاوولف على مسرح إسبانيا السياسي ، ولم يلبث أن انترع برشلونة من الوندال سنة ٤١٤ ، واتخذها مقراً له ، ومنها أخذ يتوغل في قلب إسبانيا ، بينما ارتد الوندال إلى الجنوب ، وأخذوا يقضون أثناء ارتدادهم على معالم الحضارة الرومانية ، ويخربون معظم ما وجدوه من عمران في باطقة . واضطر جنصريك زعيم الوندال ، إزاء ضغط القوط الغربيين إلى العبور إلى المغرب سنة ٤٢٩ م . في ثمانين ألف شخص ، بفضل مساعدات بربر المغرب له ، إذ كان يجمعهما عداء مشترك للمسيحية الكاثوليكية ، وبفضل جهود الكونت بونيفاس والى إفريقية من قبل رومة . ولقد قام الوندال في المغرب بأبشع أنواع الجرائم من قتل وتشريد وتدمير وتخريب وسلب ونهب ، فندم بونيفاس على ما أجرمه ، وقام بمحاربة جنصريك ، ولكنه انهزم في عنابة سنة ٤٣٠ م ، والتجأ إلى رومة^(٢) . ولم يقف خطر الوندال إلى حد احتلال المغرب ، فلقد أغاروا على جزر البليار وسردينية وكورسيكة وصقلية ، كما هاجموا رومة نفسها سنة ٤٥٥^(٣) . وهكذا تمكن جنصريك من تأسيس إمبراطورية لم تلبث أن تفككت بعد وفاته سنة ٤٧٧ م ، إذ تمكن القائد الروماني بليزاريوس من القضاء على نفوذ الوندال في المغرب .

أما إقليم باطقة ، فقد تركه الوندال أثراً بعد عين ، وخربوا فيه مدائنه الكبار ،

(١) طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٨٦ .

(٢) Aguado Bleye, op. cit. p. 339.

(٣) سيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا في العصور الوسطى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦١ ص ٧٢ .

أمثال هسباليس Hispalis (إشبيلية) ، وكرناجونوفا Cartagonova (قرطاجنة الجديدة) ، وجادس Gades (قادس) ، وكردوبا Corduba (قرطبة) ^(١) .
وتبع ذلك اختفاء اسم باطقة ، وحل محله اسم قندالوشيا ، نسبة إلى قبائل الوندال الخربة الذين يسميهم ابن عبد المنعم الحميري بالأندليش ^(٢) .

وهكذا استقر القوط الغربيون في إسبانيا ، واتسع ملكهم خاصة في عهد تيودوريد Teodoredo (٤٢٠ - ٤٥١) فقد تحالف مع الرومان ، وتكاتف معهم في صد هجوم قبائل الهون التي تدفقت على غالة سنة ٤٥٠ ، ونجح تيودوريد والرومان في هزيمتهم في موقعة شالون سيرمارن Chalon-Sur-Marne سنة ٤٥١ ، ولكن تيودوريد لقي حتفه في هذه الموقعة ^(٣) . وظل مصير دولة القوط متأرجحاً منذ تولي توريسمند Turismundo سنة ٤٥١ حتى بداية عهد الملك إيوريك Eurico أصغر أبناء تيودوريد الأول سنة ٤٦٦ . ويعتبر إيوريك المؤسس الحقيقي لدولة القوط الغربيين في إيبيرية وغالة ، ففي إيبيرية ، تمكن من مد نفوذه على إقليم لشدانية الذي كان يحتله الألان ، وبذلك خضعت له كل إيبيرية فيما عدا الجزء الذي كان يحتله السويف في جليقية ^(٤) ، كما تمكن من بسط نفوذه جنوب غالة ، باستيلائه على آول ومرسيليا وكليرو وبوردو . وكانت أملاكه بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية على يد إدواكر سنة ٤٧٦ تمتد من عدوة الأندلس جنوباً حتى اللوار شمالاً ، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى جبال الألب شرقاً . إلا أن هذه الحدود لم يقدر لها أن تثبت طويلاً على ما وصلت إليه ، فلقد انحسر نفوذ القوط الغربيين عن أراضي غالة واقتصرت أملاكهم على إسبانيا ، بعد أن هزمهم كلوفيس زعيم الفرنجة ^(٥) في موقعة فوييه Vouillé سنة ٥٠٧ م ، وفيها قتل الملك آلاريك

(١) حين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤ .

(٢) ابن عبد المنعم الحميري ، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المغطار في خبر الأقطار ص ٢ ، وراجع بحث الأندلس في

(Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xe. siècle, Paris 1932 p. 5-6.

في بحث عن الأندلس للمؤلف بدائرة معارف الشعب .

(٣) Joaquín Guichot, Historia General de Andalucia, Madrid, 1869, t. I, p. 238.

(٤) J. Guichot, op. cit. p. 239 — Julian Ma. Rubio : Historia de Espana, t. II,

La Espana Visigoda, Barcelona, 1935 p. 15 — Aguado Bleye, op. cit. p. 343.

(٥) يعتبر كلوفيس المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة البحريين ، وقد اعتنق كلوفيس المسيحية على =

الثاني^(١) ومع ذلك فقد ظل القوط الغربيون محتفظين بإقليم سبتمانيا المتاخم لجبال البرت من الشمال، ويمتد شرقاً حتى وادي الرون . ولم يستمر احتفاظ القوط بهذا الإقليم عهداً طويلاً بعد أن طردهم الفرنجة منه عام ٥٣١ . وأصبحت أملاك دولة القوط الغربيين ، منذ تولى الملك تيوديس Teudis عرش القوط (٥٣١-٥٤٨) تقتصر على اسبانيا فحسب . وهكذا أخذت إسبانيا تظهر منذ أوائل القرن السادس الميلادي كدولة موحدة ، ثم اختار القوط لهم عاصمة داخلية يتمكنون فيها من بسط نفوذهم على سائر أنحاء البلاد ، فاختاروا ماردة بادي^(٢) ذي بدء في عهد الملك أخيلا Agila (٥٤٩ - ٥٥٥) ، ولكن ذلك لم يمد نفعا ، إذ ثار أهل قرطبة الكاثوليك وهزموا جيشه ، وثار نبلاء القوط على أخيلا بسبب هزيمته ، واستعان أحدهم ويسى أتاناخيلد Atanagildo بالإمبراطور البيزنطي جستنيان الذي أمدّه بجيش استولى بمساعدته على جنوب شرقي الأندلس (إقليم باطقة وجزء من إقليم قرطاجنة) . ففر أخيلا إلى عاصمته ماردة حيث قتله أحد أتباعه سنة ٥٥٤ ، وتولى أتاناخيلد العرش الذي دفع ثمنه غالبا باستقدامه البيزنطيين ، واحتلهم إقليم باطقة . وهنا فكر أتاناخيلد في نقل عاصمته من الجنوب إلى الشمال ، فاختار لهذا الغرض مدينة طليطلة قاعدة إقليم كاربثانيا Carpetania^(٣) ، لما كانت تتماربه من موقع جغرافي واستراتيجي هام . وارتفعت طليطلة في عهد أتاناخيلد إلى الذروة ، وزودها ملوك القوط من بعده بآثارهم الجليلة، وسموها المدينة الملكية Ciudad Regia . ولم يلبث تاريخ إسبانيا القوطية منذ نبذ الملك ريكاريد^(٤) Recaredo (٥٨٦-٦٠١ م المذهب

= المذهب الأثناسيوسى ، مخالفاً بذلك بقية الشعوب الجرمانية ، التي تعتق المذهب الآريوسى ، وبذلك أمكنه إيجاد نوع من الترابط بين الفرنجة والرومان (انظر سعيد عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ج ١ ص ٧٨ - ٨٣) .

(١) Guichot, op. cit. p. 241 — Julian Ma. Rubio, op. cit. p. 18 — A. Bleye, op. cit. p. 347.

(٢) El Vizconde de Palazuelos, Guia Artistico-práctico de Toledo, Toledo, 1890, p. 9.

وانظر مقال عن طليطلة في دائرة معارف الشعب عدد ٦١

(٣) كان ريكاريد على نقيض أبيه ليوفيجلد Leovigildo (٥٦٧ - ٥٨٦) الذي قضى حياته يحارب الكاثوليك في جليقية وجنوبي إسبانيا ، كان محباً للسلام ، لذلك أراد وضع حد لمظاهر الاضطراب التي سادت البلاد في عهد أبيه (انظر Aguado Bleye, op. cit. p. 351)

الآريوسى فى المجمع الدينى الثالث بطليطلة سنة ٥٨٧ م ، واعتنق الكاثوليكية^(١) أن أصبح جزءاً لا يتجزأ من تاريخ طليطلة عاصمة البلاد ، وهكذا نبذ القوط مذهبهم الآريوسى ومثلوا صاغرين أمام المحافل الكنسية ، واعتبروا اللاتينية لغة البلاد الرسمية . وكانت علاقته الودية بالبابوية^(٢) سبباً فى وفود كثير من القساوسة الكاثوليك إلى عاصمته ، وأصبحت طليطلة على هذا النحو مركزاً أسقفياً هاماً ، يمثل سلطان البابا فى روما . وبذلك كان الاعتراف بالكاثوليكية الخطوة الحاسمة لمزج القوط بالشعب الأيبيرى الرومانى^(٣) .

وخلف ريكايرد عدد من ملوك القوط أهمهم خمسة :

١ - ششبرت Sisbuto (٦١٢ - ٦٢١ م) : حارب البيزنطيين وأجلاهم عن بعض أملاكهم فى السواحل الجنوبية ، ويعتبر ششبرت أول من أقر مبدأ اضطهاد اليهود^(٤) .

٢ - سونتيلة Suintila (٦٢١ - ٦٣١) : أخضع البشكنس وسكان قنطابرية كما طهر إسبانيا نهائياً من الاحتلال البيزنطى سنة ٦٢٤ م^(٥) . ويبدو أنه استبد بالبلاد فى أواخر أيامه فعزل سنة ٦٣١ ، وأقيم سيسناند Sisenando على العرش (٦٣١ - ٦٣٦) ، وفى عهده انعقد المجمع الدينى الرابع بطليطلة فى كنيسة سانتا لوكاديا سنة ٦٣٣ ، وقرر أن الملكية يجب أن تكون انتخابية فى أيدي النبلاء والقساوسة^(٦) .

٣ - شنداسفنت Chindaswinto (٦٤٩ - ٦٥٣) : كان قائداً قديراً ، تمكن من القضاء على روح الفوضى التى نشرها نبلاء القوط فى البلاد .

(١) جاء فى قرار التحول الذى اتخذته مجلس طليطلة : « باسم الله المقدس » ، إن كنيسة القديس مارى قد جعلت بطريركية كاثوليكية فى أبريل من السنة الأولى من حكم الملك المنصور فلافوس ريكايرد ، وعمد ريكايرد على الطريقة الكاثوليكية بالزيت المقدس (راجع إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربيين ص ١٦٢)

(٢) نفس المرجع ص ١٠٦ .

(٣) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٠ .

(٤) Guichot, op. cit. p. 270 .

(٥) نفس المرجع ص ٢٧٠ - وإبراهيم طرخان ، المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٦) إبراهيم طرخان : المرجع السابق .

- ٤ — رسفنت Receswinto (٦٥٣ — ٦٧٢) : أهم ما قام به إعلان عدم التفرقة العنصرية في إسبانيا ، وإباحة الانصهار بين العنصرين القوطي والروماني^(١)
- ٥ — وامبا Wamba (٦٧٢ — ٦٨٠ م) : افتتح عهده بمحاربة البشكنس وقضائه على ثورة باولس في سبتمانيا .

* * *

ب — مظاهر الاضطراب في أواخر عصر الدولة القوطية :

تبع عصر وامبا عهد مظلم مشحون بالفوضى والاضطراب ، استمر حتى سقوط دولة القوط على أيدي العرب الفاتحين ، أي مدة ثلاثين عاماً ، وفي ذلك يقول المستشرق والمتأصب الفرنسي الأستاذ ليثي بروغنسال : « إن الثلاثين سنة التي سبقت الغزو الإسلامي ، وهي السنوات العجاف بالنسبة لما نعرفه عن تاريخ إسبانيا القوطية ، تبدو لنا في الواقع غاية في الفوضى والاضطراب رغم قلة ما أمدتنا به المصادر الإخبارية . هذه الفترة القصيرة التي تبدأ منذ اعتزال الملك وامبا العرش سنة ٦٨٠ م مشحونة كلها بالتزاع والصراع المثير للقلاقل ، فمن منافسات دوية بين المرشحين للعرش ، ومن ثورات محلية ، ومن دسائس يقوم بها النبلاء وكبار القساوسة الذين كانوا يسعون إلى زيادة التغلغل في الشؤون السياسية للدولة أكثر مما كانوا يفعلونه من قبل . كل ذلك كان أكثر من دليل لا يخب ، إنما يشير بوضوح إلى أن البلاد الأيبيرية كانت تقدم نفسها في طليعة القرن الثامن الميلادي فريسة سهلة لأي غاز سواء كان هذا الغازي من الشمال أو من الجنوب . »^(٢)

والواقع أن الصورة التي تمثل هذا العصر الأخير صورة مظلمة قائمة ، ففيه كثرت المشاكل التي تعانيها الدولة من مؤامرات ومصادمات حول العرش ، وصراع بين

(١) ورد في « Fuero Juzgo » وهو مجموعة القوانين التي أصدرها رسفنت سنة ٦٥٤ وسماه

« Liber Judiciorum » نص هذا القانون . وما جاء فيه الفقرة التالية : (Que la mugier romana pueda Casar con omne godo, e la mugier Goda pueda Casar con omne romano)

« المرأة الرومانية في إمكانها أن تتزوج رجلاً قوطياً والمرأة القوطية في إمكانها أن تتزوج رجلاً رومانياً »

انظر Guichot, op. cit. p. 272.

(٢) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, La conquête et l'Emirat

Hispano-Umayyade, Paris - Leiden, 1950, p. 3.

العناصر الخاضعة للقوط ، ولم يكن علاج هذه المشكلات متوفراً لضعف الملوك وتجردهم من مظاهر القوة والسلطان ، وضعف الروح الحربية عند القوط ، بعد أن تخلوا عن خشونتهم القديمة التي جعلت منهم رجال حرب ، واستغرقوا في حياة الترف ، في الوقت الذي نمت فيه السلطات الكنسية ، وأصبح الأساقفة يسيطرون الدولة ويستبدون بشؤونها .

وعند ما تولى غيطشه Witiza عرش البلاد في نوفمبر سنة ٧٠٠ م بعد وفاة أبيه إخيكا Egica كانت أحوال البلاد قد بلغت غاية السوء ، وحاول غيطشة أن يصلح من حال البلاد ، وبالفعل كان القسم الأول من عصره يتسم بالهدوء والإصلاح ، فقد طبق العدل في أحكامه ، وأفرج عن المسجونين ، وسمح للمنفين بالعودة إلى ديارهم ، وتعويضهم عن أملاكهم المصادرة ^(١) . وذكر عدد من المؤرخين أنه لم يمض على ولايته سبع سنوات حتى عدل عن سياسته التي كانت سيئاً في محبة الشعب الإسباني له ، فقد رخص للقساوسة بالزواج ، وقتل فاقلة Favila ، ونفى ابنه بلاي Pelayo الذي لعب دوراً هاماً في تأسيس مملكة اشتوريش في بداية عصر الولاة المسلمين ، كذلك سمل غيطشة عيني تيودوفريد Teodofredo ، وكان ابناً للملك خندسفت ^(٢) Khindasvinto (٦٤٢ - ٦٤٩) ، كما أمر غيطشة بهدم أغلب حصون وأسوار إسبانيا ، وسمح لليهود بالعودة إلى إسبانيا وممارسة شعائرهم الدينية دون تقييد ، بعد أن كانوا موضع اضطهاد أبيه إخيكا ^(٣) وأخيراً خرج غيطشة على البابا قسطنطين ^(٤) .

(١) Guichot, op. cit. p. 276.

Saavedra, op. cit. p. 26.

(٢) كان تيودوفريد مقيماً في قرطبة ، فاتمه الملك غيطشة بالتآمر على العرش ، فعاقبه بسمل عينيه ، فتقاعد تيودوفريد في قصره بقرطبة ، وقيل إن ابنه لذريق هو نفسه الذي انتزع العرش من صاحبه الشرعي وقلة ابن غيطشة « انظر Aguado Bleye, op. cit. p. 255.

(٣) كان إخيكا قد اتهم اليهود بالتآمر مع « قوم ما وراء البحر » لحمايتهم من استبداد القوط بهم ، فبالغ إخيكا وابنه غيطشة في اضطهادهم . ولعل ذلك كان سبب مؤازرتهم للعرب ومساعدتهم لهم عند الفتح . انظر Levi-Provençal, Histoire, t. I, p. 6 - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ١٤ - إبراهيم طرخان

ص ١١٩ .

(٤) Guichot, op. cit. p. 276.

وورد في مدونة إيزيدور الباجي أن غيطشة خلع من العرش على أثر ثورة قام بها. نفر من أنصار لذريق Rodrigo ، ويرجع دون وخواكين جيشوت اشتراك العناصر القوطية الرومانية في هذه الحركة ، لأن لذريق المذكور كان من سلالة الملك ريسفنت Receswinto (٦٥٣ - ٦٧٢) الذي نشر العدل في البلاد ، وأزال التفرقة بين مختلف الأجناس المؤلفة للشعب الإسباني^(١) . ويغلب على الظن أن مجلس طليطلة قد أقي بجلع غيطشة عند ما أقدم على تولية ابنه الطفل وقلة Achila^(٢) العهد من بعده ، وتنصيبه حاكماً على ولايتي أربونة وطركونة ، تحت وصاية رخشندش Rechesindo أخى غيطشة^(٣) . فكان هذا التصرف سبباً في إثارة الطامعين في العرش من قواد الجيش ، وكبار النبلاء ، لاستصغارهم لأبناء غيطشة الثلاثة^(٤) . ويبدو أن قرار مجلس طليطلة، اتفق صدوره قبل وفاة غيطشة مباشرة ، وأحدث انقساماً بين طبقات الشعب ، فقامت الثورات في كل أنحاء البلاد ، ومات غيطشة تاركاً إبارية على فوهة بركان : فقد اختار الحزب المعارض لأولاد غيطشة ،

(١) Guichot, op. cit. p. 278. وأعله رخشندش الذي ورد ذكره في كتاب نفج الطيب بأنه « كان من صميم أعاضهم (أى أعاضهم قومه) وخير من تنصر من ملوكهم ، وأجمعوا على أنه لم يكن فيهم عدل منه حكماً ولا أرشد رأياً ولا أحسن سيرة ولا أجود تدبيراً ، فكان الذي أصل النصرانية في مملكته ، ومضى أهلها على سته إلى اليوم » . انظر المقرئ : نفج الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ج ١ ص ١٣٥ . ويبدو أن ابن عذارى خلط بين شخصية هذا الملك وبين شخصية أخى الملك غيطشة واسمه Rechesindo الذي كان وصياً على وقلة Achila ابن غيطشة ، فقد جعل ابن عذارى من رخشندش هذا آخر ملوك القوط في الأندلس ، وذكر أن لذريق وثب عليه وقتله ، كما ذكر في نفس الوقت أنه لم يكن في النصرانية أحكم منه ولا أحسن إصابة لسنهم . (ابن عذارى ج ٢ ط . بيروت ١٩٥٠) والواقع أن اسمي الشخصيتين متشابهان كل الشبه بحيث يصبح من السهل الخلط بينهما . وإذا بحثنا الموضوع وجدنا أن لذريق قتل بالفعل الوصى على وقلة وكان اسمه Rechesindo ولكن هذا الوصى لم يكن ملكاً ، والملك المشار إليه إذن شخصية أخرى ، وهو الذي سميته ريسفنت Receswinto وهو اسم مقارب في النطق لاسم الوصى ، ثم إنه هو بالفعل الملك الذي سن القانون الخاص بإزالة التفرقة للعنصرية بين أفراد شعبه ونشر العدل في البلاد .

(٢) يسميه ابن القوطية « رمله Romulo » وصوابه وقلة .

(٣) Saavedra, op. cit. p. 27. — Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 7.

(٤) ذكر صاحب أخبار جموعة في تاريخ الأندلس أن غيطشة كان له ولدان هما أبه وشبهت (ص ٥) ، والحقيقة أن من ذكرهم ليس إلا اثنين من إخوته الثلاثة ، أما أولاده فكانوا ثلاثة أيضاً ذكرهم ابن القوطية القرطبي بقوله : « إن آخر ملوك القوط بالأندلس ، غيطشة ، توفى عن ثلاثة أولاد ، أكبرهم المند ، ثم رمله ، ثم ارباس وكانوا صغاراً عند وفاة أبيهم » انظر ابن القوطية القرطبي ، تاريخ انتاح الأندلس ، =

لذريق Rodrigo ، دوق باطقة وحاكمها بقرطبة^(١) . ملكاً على البلاد . وأثار اغتصاب لذريق (أو رذريق) للعرش نقمة أنصار غيطشة وأبنائه ، فهبوا ضد هذا المغتصب المتسور ، الذي انتزع الملك من البيت الشرعى لنفسه ، وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ، ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس ، واشتعلت نيران الثورات في طليطلة وغيرها ، وتعذر على وقلة Achila أن يتوجه إلى العاصمة بعد وفاة أبيه ، واضطرت أمه التي أرادت أن تضبط عليه ملك أبيه إلى الفرار هي وأخويه أرتباس Artavasdes والمند Olmundo ، وعمه أبة Oppa أسقف إشبيلية ، والتجأ الجميع إلى جليقية^(٢) . وحاول وقلة أن يسترد عرشه ، فأعد جيشاً بقيادة عمه ووصيه رخشندش ، فأسرع لذريق بالسبر على رأس جيش كبير للملاقاة رخشندش والقضاء عليه ، وهزمه في واقعة كبرى قتل فيها الوصى وتفرق أتباعه^(٣) .

ويغلب على الظن أن وقلة فر إلى إفريقية بعد ذلك ، وأقام عند يليان حاكم

نشره Julian Ribera بمدرسته ١٩٢٦ ص ٢ - انظر أيضاً المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٠ . (١) Aguado Bleye, op. cit. p. 355. ذكر ابن حيان في المقتبس ، أن لذريق « قال الملك من طريق النصب والتسور عند ما مات غيطشة ، الملك الذي كان قبله ، وكان أثيراً لديه مكيناً ، فاستصغر أولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال مالوا إليه ، فانتزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دبروا عليه - فيما ذكر - عند ما لقي رجال العرب المفتحين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الزقاق ، وغلهم طارق بن زياد مول موسى بن نصير ، طاعة منهم في أن يردى ويخلص إليهم ملك أبيهم . » انظر المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٢ .

وما ذكره ابن حيان صحيح ، لأن الفاتحين العرب منحوا أبناء غيطشة الثلاثة إقطاعات ضخمة في الأندلس بلغت ثلاثة آلاف ضيعة سنود ذكرها عما قليل . وذكر المقرئ نصاً نقله عن الكتاب الخزائى جاء فيه : « هلك غيطشة ملك الأندلس ، وترك أولاداً لم يرضهم أهلها للملك ، فاضطرب حبل أهل الأندلس ثم تراضوا بعليج من كبارهم يقال له لذريق مجرب ، شجاع ، بطل ، ليس من أهل الملك إلا أنه من قوادهم فولوه أمرهم . . . » المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) Lévi - Provençal, Histoire, op. cit. t. I, p. 7.

(٣) يشير ابن عذارى إلى هذه الواقعة بقوله : « وقالوا إن لذريق الذى دخلت عليه العرب والبربر وثب على رخشندش هذا وقتله ، وغلب على ملك الأندلس ، ودانت له طليطلة . وفي كتب العجم أن رذريق هذا لم يكن من بيت الملكة وإنما كان زعيماً ، وكان من عمال الملك بقرطبة ، وقتل رخشندش . . . » . انظر البيان المغرب ج ٢ ص ٣ وما يليها .

سبته^(١) ، وكان ما يزال على ولائه للملك غيطشة وأولاده ، بينما استبقى لذريق ولدى غيطشة الآخرين ، وهما أرطباس والمند^(٢) إلى جواره حتى يستوثق من إخلاصهما له ، ويقضى بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والموالية لبيت غيطشة . وساءت حال البلاد في عهد لذريق ، إذ أزهق شعبه بالضرائب الفادحة لحاجته إلى المال لمواجهة أعدائه ، ويبدو أنه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطية ونفائسها ، التي كانت محفوظة في غرفتين مغلفتين بكنيستي سان بيدرو وسان بابلو بطليطلة ، وكانتا مجاورتين لقصر الملك وامبا ، ونصححه القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك ، فلم يصنع لنصحهم ، ومن هنا جاءت الأسطورة التي رواها مؤرخو العرب ، وهي أسطورة بيت الحكمة^(٣) .

* * *

Saavedra, op. cit. p. 54. (١) .

يستند سافدرا إلى نص من كتاب عيسى بن محمد ، ورد في البيان لابن عذارى جاء فيه « إن طارقاً كان والياً لموسى على طنجة ، وكان يوماً جالساً ، إذ نظر إلى مراكب قد طلعت في البحر ، فلما أرست خرجوا إليها ، فنزعوا أرجلها ، وأنزلوا أهلها . فقالوا : إليكم جثتا عامدين ، وعظيمهم معهم يقال له يليان . فقال طارق : ماذا جاء بك . فقال له : إن أبي مات ، فوثب على مملكته وملكتنا بطريق يقال له لذريق ، فأهانتني وأذلتني ، وبلغني أمركم ، فجئت إليكم أدعوكم إلى الأندلس وأكون دليلاً لكم . » (انظر البيان المغرب ج ٢ ص ٩) ويؤكد سافدرا أن يليان المذكور لم يكن حاكماً على الجزيرة الخضراء كما زعم عريب بن سعد والواقدي ، ويرى أن وقلة هو الذي قدم في صحبة يليان حاكم سبته ، وبعض أنصاره من القوط .

(٢) هما اللذان ولاهما لذريق على مينة الجيش وميسرته عند لقائه للعرب في موقعة وادي لكّة ، وليسا شہرت وأبه اللذين ذكرهما صاحب أخبار مجموعة (ص ٤) والحميري (ص ١٠) على أنهما ولدا غيطشة .

Saavedra, op. cit. p. 40 — Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 7. (٣)

وخلاصة هذه القصة أنه كان بطليطلة ، دار ملك القوط ، بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط ، وكانت المادة أنه إذا تولى من القوط ملك ، زاد على البيت قفلاً ، فلما تولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما بداخل هذا البيت ، فأعظم ذلك أكابره ، وتضرعوا إليه أن يكف عن ذلك ، فأبى وظن أنه بيت مال ، ففرض الأقفال عنه ، ودخله ، فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا المائدة التي كانت تعرف بمائدة سليمان ، وتابوت عليه قفل . فأمر بفتحه ، فألفاء فارغاً ، ليس فيه إلا شقة مدرجة ، قد صورت فيها صور العرب على الخيول ، وعليهم العمام ، مثقلدى السيوف ، مشكبي القسي ، رافعي الرايات على الرماح ، وفي أعلاها كتابة بالعجمية ، فقرئت ، فإذا هي : إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت ، وفتح التابوت ، فظهر ما فيه من هذه الصور ، فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها . (انظر تفاصيل هذه =

ج - المجتمع الإسباني في ظل القوط :

كان عصر القوط عصراً مشحوناً بالفوضى والاضطرابات ، وأصاب المدن اضمحلال عام نتيجة لاضطراب أمور الدولة ، وعدم الإحساس بالأمن ، وأخذت بعض مدن الأندلس الكبرى تضمحل وتتحول إلى مدن صغيرة ، بل إن بعضها تحول إلى قرى وحصون ، واختفى بعضها الآخر اختفاء تاماً ، ويرجع السبب في شمول البلاد بالفوضى والاضطراب إلى فساد المجتمع الإسباني وقيامه على الطبقات المتحاجة فيما بينها ، والواقع أن القوط عند ما فتحوا إسبانيا لم يغيروا كثيراً من نظم المجتمع التي كانت سائدة في العصر الروماني ، فظلت طبقة النبلاء القديمة على ما كانت عليه من غنى وتقوُّذ ، وظلت طبقة التجار والزراع وصغار الملاك تعيش تحت رحمة الأغنياء^(١) ، واستمر العبيد والأرقاء يفلحون الأرض للأغنياء ويدخلون في مجموع ما يقتنيه هؤلاء من ممتلكات ، وعلى هذا النحو يمكننا أن نميز في إسبانيا القوطية بين طبقتين : طبقة الأحرار وطبقة العبيد ، وهما طبقتان متحاضرتان ، لا يمكن الربط بينهما حتى عن طريق الزواج^(٢) .

وكانت إسبانيا القوطية تنقسم إلى عدة أقاليم *Provinciae* ، يحكم كل إقليم منها دوق *Dux* ، وكل إقليم يشتمل على عدد من المدن *Civitates* ، يحكم كل مدينة منها قومس *Comes* (كونت) . واستعان هؤلاء الحكام بطائفة من الموظفين يقومون بكل ما تحتاج إليه الحكومة الإقطاعية في الشؤون المالية والقضائية والحربية^(٣) . وكان الملك يستبد بحكمه ، يفعل في دولته ما يشاء ، فيصدر القوانين ، وينفذها كما يريد ، على الرغم من وجود مجلس للنبلاء ، وأقدم مجموعة قوانين أصدرها

القصة في المصادر الآتية : ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ - نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود علي مكي في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرية ، المجلد الخامس ١٩٥٧ ، ص ٢٢٥ - ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤ - ابن عبد المنعم الحميري ، وصف جزيرة الأندلس ص ٦ ، ٧ ، ١٣٠ ، ١٧١ - المقرئ ، كتاب نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٣١ (٢٢٢ ، ٢٣٥) .

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) Julian Ma. Rubio , Histoire de España, t. II, p. 15 — Aguado Bleye, op. cit. p. 361

(٣) Aguado Bleye, Ibid. ، حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٢ .

ملوك القوط هي مجموعة إيبوريك المسماة Codex Eurici ، وطبقها على القوط ، في حين ترك الرومان يطبقون قوانينهم الخاصة بهم ، وأضاف خلفاؤه إلى هذه القوانين مجموعات قانونية أخرى^(١) .

وكان مجلس النبلاء يقوم باختيار الملك من بين طبقة النبلاء ، إذ كان النبلاء لا يعترفون بنظام وراثة العرش أو الوصاية به لشخص معين ، وكانوا يشترطون في اختيار الملك أن يكون قائداً شجاعاً^(٢) . وعيب هذا النظام أن الظافر بالعرش لا بد أن يتولاه بحد سيفه . وقد كان لذلك نتائج سيئة ، إذ أثار كثيراً من المشاكل والقلق بسبب الدسائس التي كان يحكيها النبلاء طمعاً في العرش . لذلك كان انتقال العرش من ملك إلى ملك يقترن في كثير من الأحيان بمؤامرات دامية^(٣) ، ويتكون مجلس طليطلة من النبلاء والأساقفة ، ولا يجتمع المجلس إلا إذا دعاه الملك للانعقاد ، وكانت قرارات المجلس تؤلف القانون المدني لدولة القوط .

وإذ تحدثنا عن الطبقات التي يتألف منها المجتمع القوطي نجد أنها كانت تقسم المجتمع إلى وحدات غير متماسكة بسبب تحاجزها ، وأهم هذه الطبقات كما سبق أن ذكرت طبقة النبلاء المكونة من الأرستقراطية القوطية ، وطبقة رجال الدين . فطبقة النبلاء كانت تضم سلالة القوط الفاتحين ، مثل أسرة البلتوس Balthos أو الشجعان ، ويسمون السادة Seniores ، هذا بالإضافة إلى طبقة النبلاء الرومان .

(١) مثل المجموعة المنسوبة إلى الملك ألابريك المعروفة باسم Breviarum Alaricianum ، وقد أصدرها للتوفيق بين الرعايا القوط والرومان ، حتى يؤلف بذلك جبهة قوية أمام خطر الفرنجة (انظر Aguado Bleye, op. cit. P. 368 ، إبراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ص ١٤٤) . ثم أصدر ليفيخلد مجموعة قانونية مكملة للمجموعة السابقة ، وأهم القوانين التي أصدرها ملوك القوط المجموعة الكبرى التي أشرنا إليها من قبل والمعروفة باسم Liber Judiciorum ، التي أصدرها شندسنت ٦٤٢ - ٦٥٣ (الذي سميها رينشندش) وبها تم انصهار التشريعين القوطي والروماني . وتألف من مجموع القوانين التي أصدرها ملوك القوط اثني عشر مجلداً ، أمر فرناندو الثالث أو القديس بترجمتها تحت عنوان Fuero Juzgo

(٢) إبراهيم طرخان ، دولة القوط الغربيين ص ١٣٤ .

(٣) Aguado Bleye, op. cit. p. 367 .

نلاحظ أن نظام المالك في مصر يشبه إلى حد ما هذا النظام القوطي من حيث عدم ارتباطهم بالنظام الوراثي والوصول إلى كرسي السلطنة عن طريق التسور والتغلب ، وكثيراً ما كانت شوارع القاهرة مياديناً لمعاركهم وحروبهم عند ما يستضعفون سلطاناً أو عند ما تقع المنافسة بين أميرين من عظماء أمراءهم طمعاً في سلطنة ، وقد أحاط هذا كله عصر المالك بسلسلة طويلة من الفوضى .

وبينما كانت الأرستقراطية الرومانية تعتبر أرستقراطية بلوتقراطية وبيروقراطية ، فإن الأرستقراطية القوطية كانت تتبع من أصول حربية ، وتقوم على الشخصيات البارزة ، وتتقوى هذه الأرستقراطية بالإقطاعيات الكبرى^(١) . أما رجال الكنيسة فقد أصبح لهم شأن كبير بعد أن تكثرت القوط ، ونفذوا الأريوسية ، وكونوا طبقة كبيرة غنية وقوية . كبيرة لتغلغلها في المجتمع الإسباني ، وغنية لأنها كانت تملك كثيراً من الأراضي المعفاة من الضرائب ، كما كان للكنائس والأديرة أوقافاً وحجوساً تستغلها ، وقوية لأنها كانت تسيطر روحياً على نفوس الناس ، فكثرة عددية ، وثروة مادية ، وسلطان روحي على الشعب ، كل ذلك كان كفيلاً بأن يؤلف قوة هائلة لا تتمتع بها أي طبقة أخرى . وكان رجال الكنيسة لا يعنون إلا بما يخص مصالحهم الذاتية ، فلم يعملوا شيئاً لتحسين حال الناس ، ولم يحاول أحد منهم الاعتراض على تصرفات الأغنياء من استبداد بالضعفاء ، والاستكثار من العبيد والأرقاء^(٢) . وقد تألف من كبار القساوسة الكاثوليك مجلس كانوا يعتقدونه في طليطلة للنظر بادی الأمر في أمور الكنيسة ، ثم تحول هذا المجلس إلى مجلس سياسي ديني ، وانتهى به الأمر أن أصبح مجلساً أعلى للدولة بعد أن انضم إليه مجلس النبلاء .

وننتقل بعد ذلك إلى طبقة التجار والزراع وصغار الملاك ، وهي الطبقة المعروفة بطبقة الأحرار غير المميزين ، فقد اغتصب القوط من الزراع الأحرار أراضيهم واستقروا فيها ، وأجبروهم على زراعتها ، فلجأ بعض متوسطي الزراع إلى الملاك الأغنياء يلتمسون حمايتهم نظير تنازلهم لهم عن بعض أراضيهم ، وكان على هؤلاء أن يدفعوا ضرائب باهظة ، ويقوموا بحفر الترع ، وإنشاء القناطر ، وتعبيد الطرق . وهكذا كان يقع على عاتقهم عبء كبير من الالتزامات^(٣) .

(١) Pablo Alvarez Rubiano, organizacion y cultura de la Espana Visigoda, en

"Historia de Espana", t. II, p. 51.

(٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٦ .

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. I, p. 265 et la suivante, Aguado

Bleye, op. cit. p. 362.

أما طبقة العبيد فقد كان عددهم كبيراً للغاية . إذ كان الأغنياء والنبلاء يقتنون منهم الآلاف ، ويسئون معاملتهم كما لو كانوا جزءاً من ممتلكاتهم ، ولم يكن للعبيد حقوق يمكنهم المطالبة بها ، وقد يش هؤلاء العبيد من حالتهم ، وأخذوا يترقبون الفرصة المواتية للخروج مما هم فيه من ضيق ^(١) .

ونختم هذا الموضوع بطبقة اليهود ، وهي طبقة كبيرة من حيث العدد ، وكان اليهود يسيطرون في إسبانيا القوطية على الحياة الاقتصادية ، وقد أخذ ملوك القوط سواء في عهدهم الآريوسي أو الكاثوليكي يضطهدون هذه الطبقة ^(٢) ، وأيدهم في ذلك رجال الكنيسة من المتعصبين للكاثوليكية . واتهموا اليهود بتآمرهم على سلامة الدولة ، فزاد ذلك من اضطهاد القوط لهم ، مما دعا هؤلاء إلى التفكير في التخلص من نير القوط .

(١) Dozy, Ibid. p. 265.

(٢) أصدر ملوك القوط كثيراً من التشريعات ضد اليهود منذ أيام ألاريك الثاني ، فقد حرم عليهم هذا الملك الزواج من المسيحيات ، أو اقتناء عبيد مسيحيين ، وجعل لهم قوانين خاصة بهم ، وفي عهد ريكايد ، قرر مجلس طليطلة التعسف مع اليهود ، وبالغ شجرت في سياسة الاضطهاد ، فأمر جميع اليهود في إسبانيا باعتناق المسيحية خلال عام واحد .

حملة طارق بن زياد

١ - مقدمات الفتح :

بعد أن اغتصب لذريق عرش الأندلس من وقلة Achila ، وقتل رخشندش أمعن في مطاردة بيت غيطشة ، وتبع أنصاره بالأذى ، ففروا من إسبانيا ، واتمسوا سبل النجاة إلى أقصى الشمال ، أو إلى سبتة التي كان يقوم يليان النصراني بولايتها ، وبمساعده نجحوا في الاتصال بالعرب ، وحثوهم على فتح الأندلس^(١) . وتجمع

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٥٥ . يعتمد الدكتور حسين مؤنس على رواية للمؤرخ الإسباني سبتيان الشلمقي ، ولكنه لا يوافق على الرأي القائل بأن أبناء غيطشة اتصلوا بالعرب قبل الفتح ، ويعتقد أنهم لم يحرضوا العرب على فتح الأندلس (انظر المرجع السابق ص ٥٦) . ولكن الدكتور مؤنس يناقض نفسه ، إذ يعود إلى ترجيح اتصال أبناء غيطشة بالعرب في بلاد المغرب (انظر المرجع نفسه ص ٦٤) . أما نحن فنرجح - بعد دراسة هذا الموضوع - اتصال أبناء غيطشة أو أنصاره على الأقل ، بالعرب في بلاد المغرب ، وذلك قبل عبور جيش طارق إلى الأندلس بفترة طويلة ، إذ أنهم لم يخذلوا لذريق في الموقعة الفاصلة إلا بعد اتفاق سابق مع العرب ، ينحازون بمقتضاء إلى جانب جيش المسلمين . ويبدو أن هذا الاتفاق قد تم بعد اتصال يليان بطارق بن زياد في طنجة . ونرجح أن يليان ، ترك بعض رهائنه عند طارق ، ومنهم أبتيه (انظر ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٠) ، وأن موسى بن ميث يستشير الخليفة الوليد في الأمر بعد أن قابل يليان ، فأشار عليه الخليفة بأن يخوضها أولاً بالسرايا ، ففعل موسى ، وكانت حملة طريف دليلاً صريحاً على صدق نيات يليان وحلفائه ، ولم يتردد موسى وطارق في أن يشقا به . ولولا أن طارق بن زياد كان واثقاً من انضمام أنصار غيطشة إلى جيشه ، وخذلانهم للملك لذريق ، لما كان موسى قد وافق على عبوره إلى الأندلس في سبعة آلاف من المسلمين ، ليقابل جيوش لذريق الكثيفة التي بالغ المؤرخون في ذكر عددها ؛ وتوكيداً للاتفاق المبرم بين طارق وبين يليان وأنصار غيطشة ، أرسل أبناء غيطشة إلى طارق قبل الموقعة « يعلمونه أن لذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم ، فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه ، وأنهم غير تاركين حقهم لديه ، ويسألونه الأمان على أن يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتهمهم ، وأن يسلم إليهم إذا ظفر ، ضياع والدهم بالأندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة ، وهي التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، فأجابهم إلى ذلك ، وعاقدهم عليه » ابن القوطية ، تاريخ انتجاع الأندلس ص ٣ - المقرئ نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٢ .

المصادر العربية، والقشتالية ، على أن أولاد غيطشة وأقرباءه تأمروا على لذريق ، وانضموا للعرب في الموقعة الحاسمة^(١) . ويبدو أن يليان حاكم سبته كان من أنصار الملك ، وأنه كان يدين له بالطاعة والولاء، منذ أن خرج يليان على بيزنطة^(٢) واستقل بإقليم مورطانية الطنجية . فلما انتزع لذريق عرش إسبانيا من أصحابه الشرعيين ، واتصل به وقلة وأنصاره ، عمد إلى استرجاع ملكهم مستعينا في ذلك بالعرب ، فاتصل بطارق بن زياد، حاكم طنجة ، وكان ذلك الخطوة الأولى في الفتح ، ويذكر المؤرخ الإسباني إدواردو سافدرا ، أن يليان كان يمت بصلة القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة^(٣) .

ويبدو أن أقرباء غيطشة اتصلوا سرًا بيليان ، واتمسوا منه أن يتصل بالعرب ، ويطلب منهم فتح الأندلس ، اعتقاداً منهم بأن العرب الطارقون للأندلس ، لا حاجة لهم في استيطانه بعد فتحه ، وأن مرادهم ملاً أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنها لأصحابها^(٤) . وفي أثناء ذلك زعموا أن حادثاً وقع وقتئذ عجل بالفتح ، وكان عاملاً في إقدام يليان على طلب العون من العرب في حماس غريب ، وعلى تحريضهم على فتح الأندلس . فلقد كانت ليليان ابنة على حظ كبير من الجمال اسمها فلورندا ، وكان قد بعثها - شأنها في ذلك شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء - إلى بلاد الملك بطليطلة للتأديب بآداب الملوك ، فوقعت موقعاً حسناً في عيني الملك ، ويقال أنه استكرهها على نفسها ، واحتالت الفتاة على إبلاغ أبيها سرًا بما أصابها ، فغضب يليان ، وعزم على الانتقام ، ورأى ألا عقوبة له إلا إذا أدخل عليه

(١) أخبار مجموعة ، ص ٦ - ٨ - ابن القوطية ، ص ٣ - الحميري ، ص ١٠ - المقرئ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٤١ . يقول المقرئ : « وكان لذريق ولي ميمته أحد ابني غيطشة وميسرته الآخر ، فكانا رأس الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما إلى ذلك طمع رجوع ملك والدهما إليهما . وقيل : لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على النذر بلذريق » .

(٢) ورد في فتح الطيب نقلاً عن كتاب الخزائني أن يليان صاحب سبته ، « قاتله موسى ، فألفاه في نجدة رقة وعدة ، فلم يطلقه ، فرجع إلى مدينة طنجة فأقام بمن معه ، وأخذ في الغارات على ما حولهم ، والتضييق عليهم ، والسفن تختلف إليهم بالميرة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة » (ح ١ ص ٢٣٤ ، أخبار مجموعة ص ٤) .

(٣) E. Saavedra, op. cit. p. 53.

(٤) أخبار مجموعة ص ٧ - فتح الطيب ج ١ ص ٢٤١ .

العرب ، قبعث إلى طارق قائلاً : « إني مدخلك الأندلس »^(١) . وقد تكون هذه الرواية صحيحة ، ولكننا لا نرجح صحتها ، وأغلب الظن أنها مختلفة من ابتكار القصاص والأخباريين ، بدليل أن يليان لم يكن على علاقة طيبة بلذريق حتى يبعث إليه بابتته ، وبدليل أن كلمة Cava التي ينسبونها إلى ابنة يليان تتضمن في الإسبانية معان أخرى غير هذا المعنى الذي زعم مؤرخو إسبانيا أنها ترجمة للكلمة العربية « قحباء » ، وحتى إذا افترضنا أن هذه التسمية صحيحة وتنطبق على الكلمة العربية ، فإنها مع ذلك لا تصدق على ابنة يليان التي كانت ضحية للذريق الذي اعتدى عليها دون استجابة منها إليه ، وأياً كانت أسباب مودة يليان على للذريق ، فالذي لاشك فيه أن يليان هو الذي سعى عند طارق لفتح

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٠ . وذكر صاحب أخبار مجموعة أنه قال : « ودين المسيح لأزولين ملكه ولأحفرون تحت قدميه » (راجع أخبار مجموعة ص ٥ - المقرئ ، نفع الطيب ص ٢٣٦) وأضاف المقرئ نقلاً عن كتاب الخزانة أنه ركب بحر الزقاق من سبتة في أصعب الأوقات في صبر (ديسمبر) قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل إلى الملك في قصره بطليطلة ، فأكرمه عليه قومه في مثل هذا الوقت وسأله عن سبب ذلك ، فتعلل بمرض زوجته وشدة شوقها إلى رؤية ابنتها فلورندا وتلفها على لقائها قبل أن تموت ، فاستجاب للذريق إلى رغبة يليان ، ورد إليه ابنته بعد أن توثق منها بالكتمان عليه ، وأجزل العطاء على يليان . وقيل إنه لما ودعه قال له للذريق : « إذا قدمت علينا فامتنعه لنا من الشذائقات التي لم تزل تطرفنا بها ، فإنها آثر جوارحنا لدينا » فقال له : « أيها الملك وحق المسيح ، لنن بقيت لأدخلن عليك شذائقات ما دخل عليك مثلها قط . » (المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٦) ، وكان يومئذ ذلك إلى عزمه على إدخال العرب في الأندلس . ونلاحظ أن اسم فلورندا المذكور لم يرد في المدونات العربية أو المسيحية ، ولكنه ظهر مكانه اسم « القحباء la Cava » في مدونة بدر دى كورال Pedro del Corral المسماة Cronica del Rey bon Rodrigo ، وترجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، فقها ينسب المؤرخ اسم la Cava إلى ابنة يليان . وكان ميغل دى لونا أول من ناقش الترجمة العربية لكلمة Cava سنة ١٥٨٩ في بحثه Historia Verdadera del Rey D. Rodrigo ، وذكر فيه أن هذه الفتاة فلورندا ، أطلق عليها العرب اسم القحباء la Cava وتعني المرأة السيئة . ومن ثم ورد اسم فلورندا في عدد كبير من الروايات الإسبانية المتأخرة ، كما ورد في أشعار الرومانسيرو ، وجاء في بعض هذه الأشعار ، أن للذريق شاهد فلورندا تستحم يوماً في وادي تاجه بطليطلة ، فأطلق على هذا الحمام منذ ذلك الحين اسم « حمام القحباء » Bano de la Cava . ويبدو أن المؤرخين الإسبان كانوا يحملون في هذه التسمية حل ابنة يليان لاعتقادهم الراسخ في أنها السبب في دخول العرب أرض إسبانيا . انظر

Saavedra, op. cit. p. 60 — Aguads Bleye, op. cit. p. 357 — Lévi-Provençal, Histoire, t. I,

وقد وردت قصة ابنة يليان في المصادر العربية الآتية : ابن القوطية القرطبي ، ص ٨ — أخبار مجموعة ص ٥ —

ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩ وما يليها — ابن عبد المنعم الحميري ، ص ٧ .

الأندلس ، وأنه ذل للمسلمين كل الصعوبات ، وهو الذي ضمن للعرب تنحياز أنصار غيطشة إليهم ، وهو ما حدث بالفعل عند افتتاح الأندلس ، فقد مالا آل غيطشة العرب ، ودبروا الغدر بلذريق ، وانتمقوا على خذله في المعركة الحاسمة . ويدل على ذلك أن المسلمين كافأوهم برد جزء كبير من ضياع غيطشة إليهم^(١) . وتجمع المصادر العربية للفتح على أن يليان توجه بنفسه للقاء طارق ، وكان طارق يتوقع كل شيء ما عدا قدوم يليان بنفسه إليه ، يعرض عليه أن يساعده في دخول الأندلس ، ولم يتردد طارق بن زياد في الاتصال فوراً بموسى بن نصير ، وكان مقبلاً في القيروان ، فأبلغه ما كان من أمر يليان ، ورحب موسى بما عرضه عليه يليان^(٢) ، فقد كان يطمح في شرف الجهاد والفتح . وبرغم تلهفه على افتتاح الأندلس ، لم يشأ أن يقحم المسلمين في مغامرة لا يعلم نتائجها إلا الله ، فلم يكن قد وثق بعد بيليان ، ثم إنه كان لا يمكن أن يتصرف في هذا المشروع الخطير وحده دون أن يستأذن الخليفة أو يستشير فيما هو مقبل عليه . فكتب من فوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بفتوحه في المغرب ، وضمن رسالته ما ذكره يليان من تدليل الأمور وتهوينها على المسلمين ، وتردد الوليد ، وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه في أراض مجهولة ، يفصل بينها وبين أراضى المسلمين بحر الزقاق ، فكتب إلى موسى بأمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها ، وأمره ألا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال^(٣) . وعمل موسى بنصيحة الخليفة ، واختار

(١) يقول ابن القوطية في كتابه تاريخ افتتاح الأندلس : « لما تقابلت الفتيان ، أجمع المند وأخواه على الغدر بلذريق ، وأوصوا في ليلتهم تلك على طارق يعلمونه أن لو ذريقاً إنما كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ، ويسلونه الأمان على أن يخرجوا إليه بالصباح وأن يمضى لم ضياع أبيهم بالأندلس ، وكانت ثلاث آلاف ضيعة ، سميت بعد ذلك صفايا الملك . » (ص ٤) . ويذكر ابن القوطية في موضع آخر أن المند بن غيطشة أنجب ابنة له هي سارة القوطية وولدين أصغر من أحدهما المطران ياشيلية ، والثاني عباس المتوفى بجليقية ، وتزوجت سارة من عيسى بن مزاحم وهو جد محمد بن القوطية القرطبي المؤرخ المذكور ، أما اربطاس فقد أنجب ولداً اسمه أبو سعيد القومس ، ومن نسل وقلة حفص بن البر قاضي العجم بطليطلة . (انظر نفس المرجع ص ٤ - ٧) .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية ص ٩٠ - ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨ - أخبار مجمية ص ٥ - ابن عذاري للمراكشي ، البيان المغرب ج ٢ ص ٦ وما يليها - الحميري ، وجمود جزيرة الأندلس ص ٨ - فتح البسيط ج ١ ص ١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٧ .

(٣) أخبار مجمية ص ٦ - الحميري ص ٨ - فتح البسيط ج ١ ص ٢٣١

أحد كبار قواده اسمه طريف بن مالك المعافري^(١) ، ويكنى أبا زرعة . ويبدو أن طريف هذا كان عربى الأصل^(٢) ، وأنه كان قائداً بارعاً فى فنون الحرب والقتال ، فجعله موسى على رأس سرية مؤلفة من ٥٠٠ مقاتل ، منهم أربعمائة من المشاة ، ومائة من الفرسان ، وأعد لهم يليان سفنه الأربعة لعبور الزقاق ، ونزل طريف بفرقة فى جزيرة تعرف باسم لاس بالوماس Isla de Las Palomas^(٣) . وتقع على مقربة من مدينة طريف الحالية ، التى سميت باسمه لتزوله فيها ، وذلك فى رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو سنة ٧١٠ م) . ومن هذا الموضع شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبى للأندلس ، المقابل لساحل سبتة ، فيما بين طريف والجزيرة الخضراء . وعاد طريف بفرقة سالماً يجر وراءه الغنائم الكثيرة . فأنس موسى إلى يليان ، ووثق فيه ، واطمأنت نفسه إليه ، واشتد عزمه على الفتح ، وتلهفه على السير فى هذه المغامرة ، ثم استدعى مولاة طارقاً^(٤) ، وأمره على سبعة آلاف رجل جلهم بربر^(٥) .

ب - انتصار طارق فى موقعة وادى لكّة :

اختار موسى على الحملة التى أعدها لفتح الأندلس قائداً من قواده المشهورين

(١) بسميه الحميرى : طريف بن ملوك المعافري ، ويسميه الرازى : طريف بن مالك المعافري ، ويسميه بن خلدون طريف بن مالك النخعى .

(٢) وإن كان مؤرخو العرب يعدونه من البربر فالحميرى (ص ٨) يقول « فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البربر اسمه طريف بن ملوك المعافري ويكنى أبا زرعة » كذلك يقول المقرئ نقلاً عن الحجارى (ج ١ ص ٢١٤) ونقلاً عن الكتاب الخزانى (ص ٢٣٧) ، وصاحب الامم كما نرى يتسبب إلى معافر أو نخع اليمنية ، ثم إنه من المستبعد أن يبعث موسى الطليعة الكشفية الأولى تحت قيادة رجل غير عربى .

(٣) Saavedra, op. cit. p. 64.

(٤) فيما يختص بترجمة طارق بن زياد ، أرجع إلى مقالى عنه فى دائرة معارف الشعب العدد ٦٧

ص ٢٣٧ - ٢٤٣ .

(٥) ذكر صاحب أخبار مجموعة (نقلاً عن ابن حيان) أن موسى بعث فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر والموالى ، وليس فيهم عرب إلا قليل (انظر أخبار مجموعة ص ٦ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٨) . وذكر المقرئ نقلاً عن ابن بشكوال أن طارق دخل الأندلس فى ١٢ ألفاً غير اثنى عشر رجلاً من البربر ، ولم يكن فيهم من العرب إلا عدد يسير (المقرئ ، ج ١ ص ٢١٦) . أما ابن خلدون فيحدد عدد الجيش بعشرة آلاف من البربر و ٣٠٠ من العرب ، وينتلب على الظن أن جيش طارق عند عبوره كانت عدته زهاء سبعة آلاف رجل ، وأن موسى أمد طارقاً بعد ذلك بخمسة آلاف آخرين قبيل المعركة الحاسمة ، فأكمل جيشه اثنى عشر ألفاً (انظر المقرئ ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٤١) .

بحسن القيادة والبلاء ، هو مولاة طارق بن زياد^(١) ، وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله ، فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسياً همدانيّاً^(٢) ، وذهب فريق آخر إلى أنه كان بربرياً من قفزة^(٣) وذهب فريق ثالث إلى أنه كان عربياً من صدف^(٤) وأصبح الآراء لدينا الرأي القائل بأنه كان بربرياً ، إذ ذكروا أنه كان طويل ، القامة ضخمة الهامة ، أشقر اللون^(٥) ، وهى صفات تتوفر في شعب البربر ، ثم إنه كان من المنطقى أن يتولى بربرى قيادة جيش كله من البربر ، ويبدو أن موسى كان يثق بطارق كل الثقة بدليل أنه آثره في قيادة هذه الحملة الكبرى على أعظم قواده العرب أمثال طريف بن مالك ، وعياش بن أخيل ، وزرعة بن أبى مدرك ، والمغيرة بن أبى بردة العدرى ، ومن الغريب أن يكون الجيش الذى أعده للحملة مكوناً كله من البربر باستثناء ثلثائة من العرب ، وهذه هى المرة الأولى في تاريخ الفتوح العربية يتولى فيها جيش كامل من المغلوين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس ، ويدل هذا على أن بربر المغرب قد أسلموا ، وحسن إسلامهم ، وأصبحوا حلى هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التى اعتمد عليها موسى بن نصير في فتح الأندلس عسكرياً . ويبدو أن البربر كانوا أكثر معرفة من العرب ببلاد الأندلس ، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية في آن واحد ، وقديماً عبر هانيبال المجاز إلى إسبانيا مع جيوشه البربرية ، يضاف إلى هذا أن البربر كانوا أشد حماسة من العرب في سبيل الجهاد ونصرة الدين الإسلامى . وقد يكون موسى قد خاف على جيشه العربى من هذه المغامرة فأثر أن يجعل الطليعة الأولى من البربر . فلما استوثق من نجاح الفتح عبر المجاز بدوره على رأس جيش

(١) ذكر ابن عذارى نقلاً عن صالح بن أبى صالح أنه طارق بن زياد بن عبد الله بن رفه بن رفقوم بن ينزغاسن بن وهامى بن يطوفت بن نقران (ابن عذارى ج ٢ ص ٧) . وذكر ابن عبد الحكم أنه طارق بن عمرو (فتوح إفريقية ص ٨٨) .

(٢) أخبار مجموعة ص ٦ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) ابن عذارى ، ص ٧ - الحميرى ، الروض المطار ص ٩ - المقرئ ج ١ ص ٢٣٨ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٢٦ . الحميرى ، الروض المطار ص ٩ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص

٢٣٨ .

(٥) نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود على مكى بمجلة الدراسات الإسلامية بمصر

١٩٥٧ ص ٢٢١ .

كثيف جله من العرب ، وكان جيش طارق يتألف من سبعة آلاف مقاتل منهم ما يقرب من ثلاثمائة من العرب على رأسهم رجال سيكون لهم شأن كبير فيما بعد ، منهم : عبد الملك بن أبي عامر المعافري ، ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، وعلقمة اللخمي . وأبحرت الحملة من ميناء طنجة في ٥ رجب سنة ٩٢ هـ (إبريل ٧١١ م) في السفن الأربعة التي كانت ملكاً ليليان ووضعها في خدمة العرب^(١) . ولا شك أن موسى استعان ببعض قطع من أسطوله الإسلامي الذي أنتجته دار الصناعة بتونس^(٢) ، واختلقت السفن بالرجال والحيل بين شاطئ الزقاق تنقل الجنود « إلى جبل على شط البحر منيع »^(٣) .

وذكر ابن عذارى أن يليان كان يحمل « أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر أهل الإندلس بذلك ويظنون أن المراكب تختلف بالتجارة ، فحمل الناس فوجاً بعد فوج إلى الأندلس »^(٤) ، وتجمع المسلمون عند جبل كالي Calpe^(٥) الذي عرف منذ ذلك الحين بجبل طارق أو جبل الفتح ، وكان نزول الحملة الإسلامية في ذلك الوقت مناسباً للغاية ، إذ أن لذريق كان مشغولاً إذ ذاك بإخماد ثورة قام بها البشكنس في بنبلونه^(٦) ، كما اتفق وصول جيش طارق في الوقت الذي كان كثير من سكان الأندلس ساخطين على حكم لذريق الجائر ، فوقفوا موقفاً سلبياً من الغزو الإسلامي^(٧) .

(١) أخبار مجموعة ص ٦ .

(٢) هي دار الصناعة التي أقامها حسان بن النعمان لصناعة السفن اللازمة لمداغة الروم في البر والبحر والإغارة على بلادهم ، واستخدم حسان بعض الأقباط المصريين في بناء السفن (ارجع إلى البكري ، المغرب ص ٣٨ ، ٣٩) . وبهذه السفن بعث موسى بن نصير قائده عياش بن أخيل إلى صقلية فنزاهها . (ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ص ٤٢) . وقد نسب الأستاذ عبد الله عنان هذه الدار خطأً إلى موسى ابن نصير (انظر تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة ١٩٤٧ ص ١١١) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٧ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨ .

(٥) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 18.

(٦) أخبار مجموعة ص ٧ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٩ .

(٧) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن الجيش القرطبي كان ساخطاً على لذريق ، فقد كانت الأندلس قد جاءت سنة ثمان وثمانين ، وستة تسع وثمانين وستة تسعين « ووبت حتى مات نصف أهلها أو أكثر » ارجع إلى أخبار مجموعة ص ٨ .

وما كادت تتوافى حشود المسلمين ، بعد أن تم نزولها أدنى الجبل ، حتى بأمر طارق بإنشاء قاعدة لجيشه ، ومرسى يصل بيته وبين سبتة ، وأقام طارق حول الجبل المسمى باسمه سوراً سمي بسور العرب^(١).

ثم بعث عبد الملك بن أبي عامر في فرقة سارت بجنداء الساحل شمالاً ، فاستولت على قرية حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة^(٢) Carteya ، وتقع جوفى خليج جبل طارق ، عند مصب نهر يسمى وادى البحر^(٣) . ثم زحف طارق غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل الجزيرة الخضراء ، وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد^(٤) .

وعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند بمهمة حراسة هذه القاعدة ، والدفاع عنها في حالة قيام القوط بأى هجوم . وذكر بعض مؤرخى العرب أنه أحرق سفنه حتى يئأس المسلمون من العودة إلى المغرب ، فيقاتلوا أعداءهم قتال الموت^(٥) ولم يمض وقت طويل حتى اشتبك جيش طارق مع فرقة إسبانية بالقرب من الجزيرة الخضراء ، كان يقودها قائد قوطى يسميه ابن عذارى بنج^(٦) ، وتسميه المصادر الإسبانية بنشو Bancho أو بنشو Bencio^(٧) ، واستطاع المسلمون أن يقضوا على هذه الفرقة قضاء تاماً ، ولم ينج منها سوى قائد قوطى يسميه الرازى يلياسن Beliasin ، ويسميه سافدرا Wiliesindo^(٨) . وذكر ابن حبيب أن تدمير

(١) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٣ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٨ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٩ - ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٣ - وذكر سافدرا أن هذا الموضع

هو المعروف اليوم باسم برج قرطاجنة Torre Cartagena أو برج الروكا ديرو

(Saavedra, op. cit., p. 65) Rocardillo

(٣) الحميرى ، ص ١٥١ - ١٩ ، Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 19

(٤) Lévi-Provençal, Ibid. . وذكر الحميرى أن مرسى الجزيرة أيسر المراسى للجواز ، وأقربها

من برالعدة ، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة (ص ٧٤) .

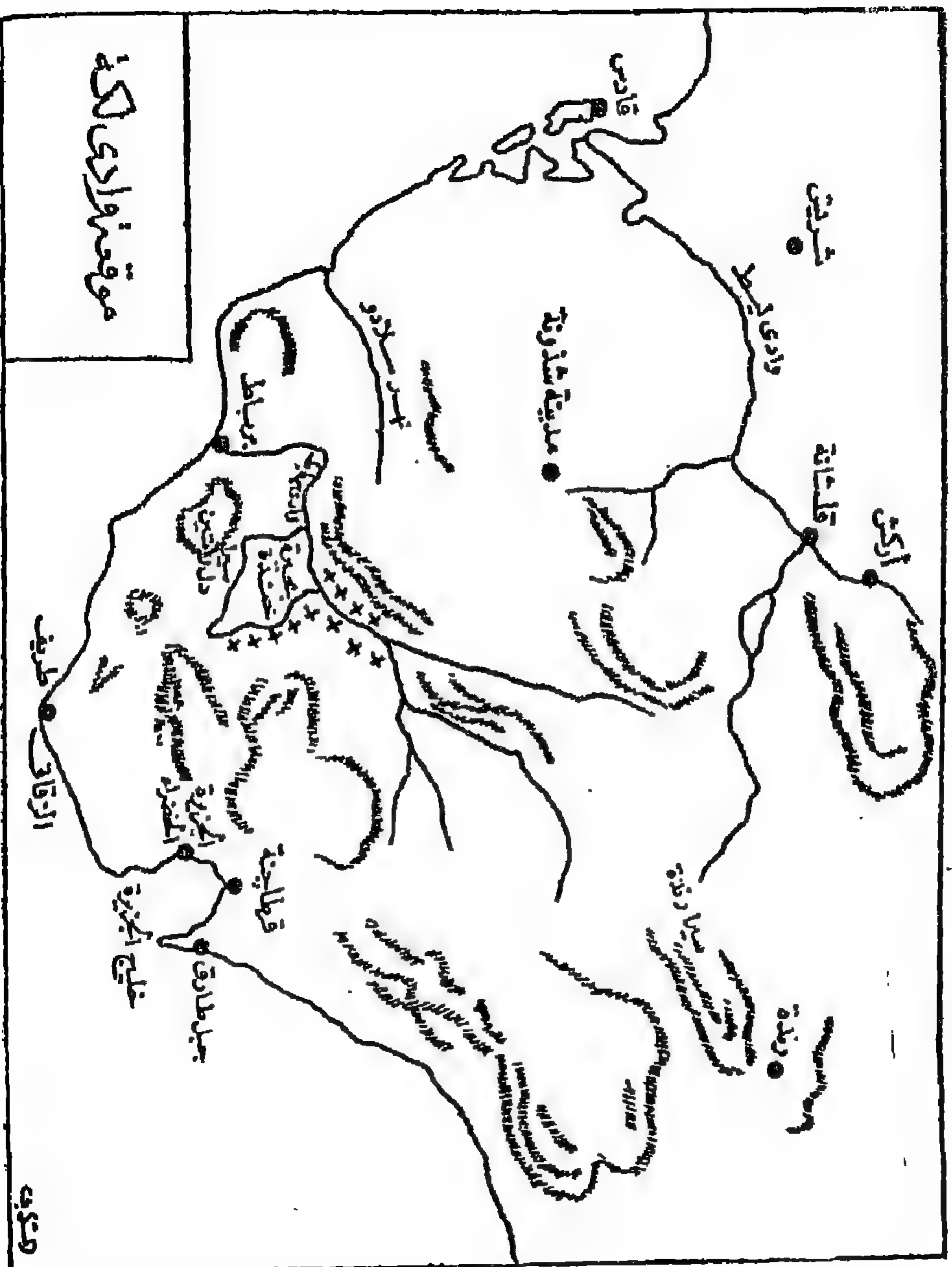
(٥) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١١ .

(٦) الحميرى ، ص ٧٥ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٢ .

(٧) Saavedra, op. cit. p. 66. - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٧٠ .

(٨) Ibid. p. 66. ويقول ابن عذارى : « قتل بنج وهزم عسكره ، فقوى المسلمون ، وركب

الرجال الخيل ، وانتشروا بناحيهم التى جازوا بها . » ج ٢ ص ١١ .



أحد ولاية لذريق في الأندلس لما بلغه نزول طارق بمن معه من المسلمين ، كتب إلى لذريق بنحبرهم^(١) ، وقيل إن علجاً من أصحاب لذريق قدم إلى معسكر طارق يتجسس عليه ، ويحزر عدد المسلمين ، ويعاين هياتهم ومراكبهم ، وأقبل هذا العلج إلى لذريق ، وقال له : « أتتلك الصور التي كشف لك عنها التابوت ، فخذ لنفسك ، فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب »^(٢) . ووقع الخبر على لذريق وقوع الصاعقة ، فأنزعج له ، وكر راجعاً إلى عاصمته ، ثم خرج منها لمواجهة المسلمين بعد أن عبأ جميع قواته ، وزحف بها نحو قرطبة ، حيث أقام في قصرها ريثما يتم وفود عسكره إليه . وذكر مؤرخو العرب أنه جمع مائة ألف مقاتل^(٣) وقيل سبعين ألف^(٤) ويجعل ابن خلدون عدد جنوده أربعين ألفاً^(٥) . فلما علم طارق بزحف هذه الحشود الهائلة إليه ، كتب إلى موسى يستمده ، ويخبره في الوقت نفسه بأنه فتح الجزيرة الخضراء ، وملك المجاز إلى الأندلس ، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة ، وأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين^(٦) ، على رأسهم طريف بن مالك ، وأغلبهم من الفرسان ، وبهم كملت عدة من مع طارق اثني عشر ألفاً^(٧) ، أقوىاء على المغام ، حراساً على اللقاء ، ومعهم يليان ورجاله^(٨) وأهل عمله ، يدلم على العورات ، ويتجسس الأخبار^(٩) .

(١) نص ابن حبيب ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرية ص ٢٢٢ .

(٢) نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٧ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٤١ . ويذكر الحميري أن لذريق جمع جيشاً قوامه ٦٠٠ ألف فارس (الروض المطار ص ١٠) وهذه مبالغة واضحة .

(٤) نص ابن حبيب ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرية ص ٢٢٢ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٥ .

(٥) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٦ .

(٦) كان موسى قد اهتم ببناء عدد كبير من السفن تمهيداً لمجازه (أخبار مجموعة ص ٧) .

(٧) أخبار مجموعة ص ٧ المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤١ .

(٨) المرجع السابق .

(٩) ذكر سائدرا أن جيش طارق أصبح يتكون من ٢٥ ألف مقاتل بعد انضمام أنصار غيطشة إليه

ثم زحفت جيوش لذريق جنوباً ، بعد أن انضم إليها أبناء غيطشة وأقرباؤه :
مكرهين ، وضرب لذريق معسكره عند مدينة شذونة Medina Sidonia ، بالقرب
من قرية فيخير ذي لافرونثيرة^(١) Vejer de la Frontera . أما طارق ، فقد سار
بعد افتتاحه طريقاً نحو الشمال قاصداً قرطبة^(٢) ، حتى اقترب من بحيرة خاندا Janda
التي تحصر بينها وبين جبال سيرا دل رتين Sierra de Retin سهلاً منفسحاً
حصيناً ، تحميه البحيرة من جهة ، والجبل من جهة أخرى ، واستمر في سيره حتى
أدرك نهر البرباط ، الذي يمتد بحيرة خاندا ، ويسميه ابن القوطية القرطبي
وادي بكة^(٣) ، أما ابن عذارى والحميري والمقرى فيسمونه وادي لكّة . وينسبه
الحميري إلى مدينة لكّة ، وهي « مدينة بالأندلس من كورة شذونة ، قديمة ،
من بنيان قيصر اكنيان ، وآثارها باقية ، ولها حمة من أشرف حمات الأندلس »^(٤) .
ويبدو أن دخول المسلمين إسبانيا قد أنعش آمال أهل الأندلس ، هذا إلى
ما قام به أنصار الملك غيطشة من دعاية كبرى للمسلمين ، وكان لذريق قد ولي
ولدى غيطشة ميمنة جيشه وميسرته بعد أن حاول استرضاءهما ، غير أنهما كانا
قد أجمعا على الانتقام من لذريق الذي اغتصب العرش من أصحابه الشرعيين ،
وحرمهما من أملاك أبيهم ، فصادروها ، فعزما على خيانتته وفقاً لما تم الاتفاق عليه
مع يليان والمسلمين ، وانتظرا الفرصة المواتية للانضمام إلى خصومه . كذلك تأمر
عدد كبير من قواد جيش لذريق عليه لإسقاطه ، اعتقاداً منهم أن المسلمين
ليسوا سوى مجرد وافدين ، مقامهم مؤقت ، وأنهم جاءوا إلى الأندلس ينشدون

(١) Saavedra, op. cit. p. 68.

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٠ .

(٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ .

ينسب سائلا أمم بكة إلى قرية قديمة كان العرب يسمونها بكة Beca ، ثم حرقها مؤرخو العرب
المحدثون أمثال ابن عذارى والمقرى إلى لكّة Leca ، وسمى الوادي باسم وادي لكّة Guadaleca ،
ومنها جاءت تسمية الأسقف دون رودريجو رادا وادي ليت Guadalete ، بعد أن خلط بين شذونة وشريش .
(Cf. Saavedra, op. cit. p. 69) وقد فسر ليث بروثسال (Hist. t. I, p. 21) اسم وادي لكّة بأنه
تحريف واضح من الكلمة الإسبانية Lago ومعناها البحيرة وهي بحيرة خاندا Janda ، وهذا في اعتقادنا
الأصوب يدلل أن بعض المؤرخين العرب يذكر موضع الالتقاء تحت اسم البحيرة .

(٤) الحميري ، ترويض المطار ص ١٠٩ - المقرئ : نفع الخليل ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٤٢ .

ملاً أيديهم من الغنائم والخيرات ثم يعودون من حيث أتوا ، فقال بعضهم لبعض
« هذا ابن الحبيثة قد غلب على سلطاننا ، وليس من أهله ، وإنما كان من سفالنا ،
وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بإيطان بلدنا ، إنما يريدون أن يملؤا أيديهم ثم يخرجون عنا ،
فانهزم بنا بابن الحبيثة إذا لقينا القوم ، فأجمعوا لذلك»^(١) . وهكذا أضمرُوا خذلان
لذريق في المعركة الفاصلة .

كذلك أجمع ألمند وأخواه ، أبناء الملك غيطشة على الغدر بلذريق ، وكان قد
وثق بهم وقلدهم ميمنة الجيش وميسرته ، فكتبوا إلى طارق « يعلمونه أن لودريقا
كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ، ويسلونه الأمان على أن يخرجوا إليه بالصباح ،
وأن يمضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس . . . فلما أصبحوا انحاسوا بمن معهم إلى
طارق»^(٢) . ويزعم بعض المؤرخين العرب أن طارقاً عند ما علم باقتراب الحرب ،
وقف في جنوده وخطب فيهم خطبته المشهورة^(٣) ، التي تعد من أروع الخطب
الحماسية وأعظمها في إلهاب المشاعر والحث على الجهاد ، بما تتضمنه من معان

(١) أخبار مجموعة ، ص ٨ - المقرئ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) ابن القوطية ص ٣ - ويذكر صاحب أخبار مجموعة ، أن الذي تول ميمنة لذريق هو
ششبرت والذي تول ميسرته هو أبه ، وكلاهما (في رأيه) من أبناء الملك غيطشة (انظر أخبار مجموعة ص ٨)
والواقع أنهما أخوا الملك المذكور ، فإذا كان يقصد أبناء الملك فليس للملك سوى أبناء ألمند وأرطباس
الذين استبقاهما لذريق بجانبه بعد خروج أخيهما وقلة عليه .

(٣) ورد خبر هذه الخطبة في تاريخ الأندلس لعبد الملك بن حبيب ، وهو الجزء الذي نشره
الدكتور محمود علي مكى في مقاله عن « مصر والتاريخ العربي الإسباني » بمجلة المعهد المصري للدراسات
الإسلامية بمطرد ، ص ٢٢١ ، كذلك ورد خبر هذه الخطبة في كتاب نفع الطيب للمقرئ (الجزء الأول
ص ٢٢٥) . وقد نقل المقرئ نص هذه الخطبة فذكر أنه « قام في أصحابه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو
أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ، ورغبهم ثم قال : أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ،
والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أصبح من الأيتام في
مأدبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا
أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن امتدت الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ،
ذهبت ريجكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم . . . » . وهي خطبة طويلة فيها تحريض
للمسلمين على الجهاد ، لقاء التمتع بالجاه والنعيم الأبدي ، في حالة الاستشهاد أو الجاه والنعيم في الراحة بعد
المعركة وجنى ثمار النصر .

(إرجع إلى النص الكامل للخطبة في كتاب نفع الطيب للمقرئ ، الجزء الأول ص ٢٢٥ وما يليها ،

أو إلى مقال عن طارق بن زياد في دائرة معارف الشعب ، العدد ٦٧ ص ٢٤٠) .

سامية وتعبيرات أدبية رفيعة ، مما يجعلنا نميل إلى عدم نسبتها إليه ، فالخطبة في اعتقادنا ليست من إنشائه ، وإنما نسبتها إليه المؤرخون المحدثون ، فقد كان طارق كما رجحنا بربريا ، ولا يعقل أن يكون هو صاحب هذه القطعة الأدبية الفريدة ، ولو أنهم نسبوها إلى موسى بن نصير لكان الأمر أقرب إلى مجال التصديق ، وإن كان هذا أيضاً ليس من الممكن الإغضاء عنه ، إذ أن أسلوب الخطبة ، من الأساليب الشائعة منذ القرن العاشر الميلادي . وقد يكون طارق بن زياد حسن الكلام ينظم ما يجوز كيبه ، كما يقول ابن بشكوال^(١) ، ولكنه لا يصل بأي حال من الأحوال إلى ارتجال خطبة أدبية رائعة ، أسلوبها من النوع المتأخر في الزمن إلى عصره ، ولنفترض جدلاً أنها من إنشائه ، فكيف يخطب بالعربية بلحش كله من البربر وهم كما نعرف حديثو عهد بالإسلام وباللغة العربية ، بل إن اللغة العربية كانت أبطأ في الانتشار بكثير من الإسلام . والواقع أن مؤرخي العرب كانوا يميلون دائماً إلى تتويج بطل الفتح بهالة من البطولة الحارقة والشجاعة النادرة ، فقد نسب مؤرخو العرب إلى عقبة بن نافع كثيراً من الأعمال الحارقة للبشر^(٢) ، كما تنبأوا لطارق بالانتصار على القوط وفتح الأندلس ، فذكروا أنه أصاب بالجزيرة الخضراء عجزاً أخبرته بأن من يفتح الأندلس رجل ضخم الهالة ، وفي كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، وكانت هذه الصفات تتوفر فيه ، فكأنهم ينسبون الفتح إليه عن طريق النبوة ، وهو أمر كان شائعاً عند مؤرخي العرب^(٣) . كذلك زعموا أنه لما ركب البحر إلى الأندلس رأى وهو نائم النبي صلى الله عليه وسلم

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) انظر ما سبق أن ذكرناه من قبل خاصاً بإنشاء مدينة القيروان .

(٣) من أمثلة هذه التنبؤات ما ذكره المؤرخون العرب خاصاً بعمر بن العاص ، فقد تنبأوا له فتح مصر عند زيارته لها المرة الأولى ، وابتكروا قصة الكرة التي سقطت من اللاعبين عليه ، فذهل القرم وقالوا إن من تسقط عليه الكرة يكون سيد البلاد (راجع البلاذري في فتوح البلدان) ، وياقوت الحموي في معجم البلدان مادة الإسكندرية ، وكتاب المواظ والاعتبار بذكر الخلط والآثار لتق الدين المقرئ ج ١ ، القسم الخاص بآثار الإسكندرية ، طبعة بولاق) كذلك تنبأ مؤرخو العرب لحسان بن النعمان بهزيمة للكاهنة ، بأنها أرسلت ولديها إليه مقدماً لوثوقها في الهزيمة ، كما تنبأوا لبدي الرحمن بن معاوية بأنه سيحيي دولة بني أمية من جديد فذكروا أن مسلمة بن عبد الملك لما رآه وهو صغير في بلاط دمشق أوصى هشاماً به خيراً وذكر له أن الدولة الأموية ستحيى على يديه ، كذلك تنبأ يهودى من المغرب كان عالماً بالحدثان بأن عبد الرحمن هذا سيكون مؤسساً لدولة . . . وأمثلة هذه التنبؤات كثيرة في التاريخ الإسلامي .

وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف ١ وتنكبوا القسي ٣ وأن الرسول كان يقول له : « يا طارق ، تقدم لشأنك ، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه » (١) . ثم إن قصة الخطبة كانت موضوعاً شائعاً في التاريخ العربي منذ أقدم العصور (٢) ، لذلك كله نستبعد نسبة الخطبة المذكورة إلى طارق بن زياد .

والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ من رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليو سنة ٧١١ م أي بعد مضي نحو ٨٣ يوماً من نزول المسلمين بجبل الفتح (٣) ، على وادي برباط أو وادي لكة (٤) ، قرب مدينة شنودة (٥) . واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام (٦) ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة ، إذ تراجع جناحا لدريق ، وفقاً للخطة المرسومة ، ونكص عدد كبير من قواد الملك ، فانكشف قلب جيشه ، وانهار خط دفاعه من أساسه ، واضطر إلى التراجع أمام دفع قوات طارق ومن انضم إليها من أصحاب يليان ، والمتأمرين على لدريق . وأذرع المسلمون في قلوب جيش

(١) نقح الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٢٨ .
(٢) لما عبر أرباط الجيش البحر إلى اليمن ورأى جيوش الدولة الحميرية كثيرة العدد والعدة ، قام في جندة خطيباً فقال : يا معشر الحبشة ، قد علمتم أنكم لن ترجعوا إلى بلادكم أبداً . . . هذا البحر بين أيديكم ، إن دخلتموه غرقتم ، وإن سلكتم البر هلكتم ، واتخذتكم العرب عبيداً ، وليس لكم إلا الصبر حتى تموتوا أو تقتلوا عدوكم (ارجع إلى جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ، ط . الهلال ص ١٤٨) . كذلك ينسبون إلى وهرز الفارسي الذي بعثه كسرى أنوشروان مع سيف بن ذي يزن إلى اليمن لتحريره من الأسياس أنه أحرق سفنه وقال لجنوده : ليس أمامكم إلا إحدى اثنتين ، إما القتال بشجاعة حتى الظفر ، وإما الاستكافة والتخاذل ، وحيثذاك يلحقكم العار والحزى العظيم . (انظر إلى الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ط . مصر ج ٢ ص ١١٩) .

(٣) ابن حبان عن المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٣ . وقيل إن اللقاء تم في ٧ ربيع الأول سنة ٩٢ هـ .
(٤) يسميه ابن عذاري كذلك وادي الطين (البيان ج ٢ ص ١٠) . ويبدو أنه سمي كذلك بسبب قلة مياهه ، وكثرة طيبته الذي قيل إن فرس لدريق ساق فيه . ويسميه ابن عبد الحكم وادي أم حكيم (فتوح إفريقية والأندلس ، ص ٩٤) .

(٥) ذكر ابن خلدون أن المعركة وقعت في فحص شريش ، والحقيقة أنها وقعت في فحص شنودة لأن شريش بعيدة عن ميدان الموقعة .

(٦) اختلف المؤرخون في تحديد المدة التي استغرقها القتال ، فن قائل إنها يومان ، ومن قائل إنها ثلاثة . ولكننا نرجح الرأي القائل بأنها دامت ثمانية أيام ، وعلى رأس أصحاب هذا الرأي الرازي (انظر المقرئ ج ١ ص ٢٤٣) ، وابن حبان (عن المقرئ ج ١ ص ٢٣٣) وابن عذاري (البيان ج ١ ص ١١) والخبيري (ص ١٦٩) ، إذ أنه لا يمكن لمثل هذه الموقعة الحاسمة أن تنتهي بمثل هذه السرعة في عصر كانت الحرب تعتمد فيه على كثرة العدد والعدة والمجالة .

القوط بالقتل ، ولم يرفع عنهم المسلمون السيف ثلاثة أيام ^(١) ، واختلفت الروايات العربية في شأن مصير لذريق ، فذكر فريق من المؤرخين بأنه قتل غريقاً في وادي لكّة ^(٢) ، بينما أكد أكثرهم بأنه رمى نفسه في وادي لكّة ، وغاب شخصه ، فلم يعثر له أحد على أثر له ، ولا يدرى أحد منهم ما آل إليه مصيره ^(٣) . ونعتقد أن لذريق استطاع النجاة بنفسه ، بعد أن تجرد من خفيه ومن ثيابه الدالة عليه ، وسرى مصداق ذلك عند حديثنا عن حملة موسى .

ويبدو أن طارقاً لم ينتزع النصر بسهولة ، فقد فقد عدداً كبيراً من رجاله يقرب من ثلاثة آلاف ^(٤) ، من بينهم ششبرت ^(٥) ، ولم يبق من جنوده سوى

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٦ - ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص

١٠ .

(٢) يذكر ابن عبد الحكم ، أن الله قتل لذريق ومن معه (فتوح إفريقية ص ٩٤ وما يليها - ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ١٠) : ويؤكد ابن حبان موت لذريق في هذه الموقعة إذ يقول : « فانهزم القوط أعظم هزيمة ، وقتل ملكهم لذريق » (المقرئ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٢٣) ويذكر المقرئ أن طارق لما رأى لذريق قال : « هذا طاغية القوم فحمل وحمل أصحابه معه فتفرقت المقاتلة من بين يدي لذريق ، فخلص إليه طارق ، فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريرته » انظر المقرئ ج ١ ص ٢٢٧ . وذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أن طارقاً اجتز رأس لذريق وبعث به إل موسى بن نصير . انظر فتح الأندلس من كتاب الإمامة والسياسة ، الوارد في كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٢٣ .

(٣) يقول ابن القوطية : « فهزم الله لذريق ، وثقل نفسه بالسلاح وتروى في وادي بكّة ، فلم يوجد » (تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧) وحرف المقرئ كلمة السلاح إلى الجراح فقال : « فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه ، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له ، ورمى لذريق نفسه في وادي لكّة وقد أثقله الجراح ، فلم يعرف له خبر ولم يوجد » . « فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٢ » . أما صاحب أخبار مجموعة فيقول : « وغاب لذريق ، فلم يدر أين وقع ، إلا أن المسلمين وجدوا قبره الأبيض ، وكان عليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا حلة من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، قد ساخ الفرس في الطين ، وفي السواخ وقع فيه ، وغرق العليج ، فلما أخرج وجله ثبت الخلف في الطين . والله أعلم ما كان من أمره ، لم يسمع له خبر ، ولا يوجد حياً ولا ميتاً » (أخبار مجموعة ص ٩ - المقرئ ، فتح الطيب ، ص ٢٤٣) . ويردد ابن عذارى نفس المعنى إذ يقول : « ولم يعرف لرذريق موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه غرق ، وقالوا إنه قتل ، والله أعلم » (البيان ج ٢ ص ١١ وما يليه) (٤) ذكر المقرئ أن طارق قسم النبل على « تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع » (المقرئ ج ١ ص ٢٤٣) ويند هذا على أن ثلاثة آلاف لقوا حشدهم في المعركة ، إذ كان عدة جيشه قبل المعركة اثني عشر ألفاً .

(٥) فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، نشره Joaquin de Gonzalez في الجزائر سنة ١٨٨٩ ص ٧٠ .

تسعة آلاف ، تتقدمهم جماعة العبيد السود التي أبلت في هذه الموقعة بلاء حسناً^(١) . أما القوط فقد ذكر الرازي أن المسلمين قتلوا منهم خلقاً عظيماً ، « أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، وكان المسلمون يتعرفون على كبار القوط بنحواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ، ويتعرفون على من دونهم بنحواتم الفضة ، ويميزون العبيد بنحواتم النحاس^(٢) » .

ح - زحف طارق إلى طليطلة عاصمة القوط :

أحدث انتصار طارق في وادي لكّة دويّاً هائلاً في المشرق والمغرب ، الأمر الذي يعزز ما كنا نعتقد في أن حملة طارق كان ينظر إليها على أنها مغامرة مصيرها الفشل قبل النجاح ، وإلا فما الداعي إلى تهافت أهل العدو من البربر والعرب على الأندلس بعد الموقعة ، وإقبالهم على الفتح بقلوب مجبورة^(٣) ، وما السبب في كثرة الروايات القائلة بمحمد موسى بن نصير لطارق ، وإصداره الأوامر له بالتوقف عن الفتح^(٤) ؟

وكان لابد لطارق أن ينجي ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكّة ، قبل أن تتجمع قلوب القوط مرة أخرى ، ويستفحل أمرهم ، فزحف طارق إلى مدينة شذونة ،

(١) نفس المرجع .

(٢) الحميري ، الروض المعمار ص ١٦٩ وما يليها - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣) في ذلك يقول الرازي : « وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغام فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال » انظر المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٤) ذكر ابن خلدون أن طارقاً كتب إلى موسى بن نصير . « بالفتح والغنائم ، فحركته الفيرة ، وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به . » وقال أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي في كتابه جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس : « وكتب إلى موسى بن نصير بخلبته على ما غلب عليه من الأندلس وفتحها ، وما حصل له من الغنائم ، فحسده على الانفراد بذلك ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه إل نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده إذا دخلها بغير إذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به » (انظر جذوة المقتبس ، حققه محمد بن تاروت الطنجي ، القاهرة ١٣٧١ هـ ص ٥) . وذكر ابن حيان أنه لما بلغ موسى ما صنع طارق وما أتيح له من الفتح حسده وتهياً للمسير إلى الأندلس ، وأنه لما وافاه باسترقّة أظهر ما بنفسه من حقد عليه ، وقيل إنه قنعه بالسوط ووجهه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه (ارجع إل نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٤ وما يليها) .

وحاصرها حصاراً شديداً ، ثم فتحتها عنوة ، وغنم منها غنائم هائلة ، ومضى بعد ذلك إلى مدور Almodovar ، ثم عطف على قرمونة Carmona ، ثم اتجه إلى إشبيلية Sevilla فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى استجة Ecija ، وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة ، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك ، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بين المسلمين^(١) ، وامتنعوا داخل مدينتهم ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بصاحب المدينة ، فأرغمه على الصلح ، وفرض عليه الجزية^(٢) . وهكذا هبت رياح النصر على المسلمين ، وقذفوا أعداءهم بالرعب ، وكانوا يظنون طارقاً « راغباً في الغنم عاملاً على القفول ، فسقط في أيديهم ، وتطايروا عن السهول إلى المعازل ، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة »^(٣) .

وكان جيش طارق قد تضخم بمن وفد إليه من أهل العدرة ، فنصح يليان طارقاً بأن يفرق جنده في بعثات جانبية ، ويمضي هو إلى طليطلة ، حيث احتشدت فلول القوط^(٤) ، فيفتحها قبل أن يتدارك القوط الأمر ، ويحكموا الدفاع عنها ، أو يستصدر وقلة قراراً من مجلس طليطلة بتنصيبه ملكاً على القوط ، فيصعب على طارق الأمر بعد ذلك .

وفعل طارق بنصيحة يليان ، ففرق جيوشه من استجة ، وبعث مغيثا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، إلى قرطبة في سبعمائة فارس ، وبعث جيشاً آخر إلى مالقة Malaga قوّد عليه قائداً ودليلاً من رجال يليان ، كما بعث جيشاً ثالثاً إلى

(١) أخبار مجموعة ص ٩ - المقرئ ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) ذكر الرازي قصة ظفر طارق بصاحب استجة ، فقال : « إلى أن ظفر طارق بالعلاج صاحبها وكان مغترأ سيئ التدبير ، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى المعسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية وخلق سبيله ، فوق بما عاهد عليه » (انظر المقرئ فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٤) .

(٣) نفس المرجع .

(٤) أشار الرازي إلى ذلك فذكر أن يليان نصح طارقاً بتفريق جيوشه في جهات البلاد وبالذهاب إلى طليطلة فقال له : « قد فضضت جيوش القرم ورعبوا ، فأصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحاب مهرة ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد ، وأعد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم » أخبار مجموعة ص ١٠ - المقرئ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٤ .

البيرة Elvira . ويغلب على الظن أن هاتين المدينتين لم يتم فتحهما إلا في سنة ٩٤ هـ (٧١٢ م) . أما هو فقد سار بمعظم أجناده إلى كورة جيان^(١) في طريقه إلى طليطلة .

عبر طارق الوادي الكبير عند منجبار Menjibar ، وسار في طريق روماني قديم كان يعرف باسم طريق هاينبال ، يمر بمدينة جيان Jaen^(٢) ، ومنتيسة Mentesa ، ودخل طليطلة سنة ٩٣ هـ دون مقاومة تذكر ، فألقى طارق المدينة خالية « ليس فيها إلا اليهود في قوم قلة ، وفر علبها مع أصحابه ، ولحق بمدينة خلف الجبل ، بعد أن ضم اليهود ، وخلي معهم بعض رجاله وأصحابه بطليطلة ، وفر بنفسه مع أصحابه »^(٣) . فترك طارق فرقة من جنوده في طليطلة ، ومضى يطارد الفارين من أهل طليطلة ، فسلك إلى وادي الحجارة ، ثم استقبل جبل يسمى Cerro de San Juan del Viso^(٤) ، فاخترقه من فججسمى باسمه ، وأدرك مدينة تقع وراء هذا الجبل تسمى بمدينة المائدة ، (لعلها مدينة قلعة هنارس^(٥)) ، ذلك لأنه وجد فيها المائدة المعروفة عند مؤرخي العرب بمائدة سليمان ، وهي ليست مائدة كما يفهم ذلك من الاسم ، وإنما كانت مذبحاً لكنيسة طليطلة العظمى^(٦) ، حملها القساوسة معهم

(١) المقرئ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) Saavedra, op. cit. p. 78 حين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٧٨ .

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٧ - نفع الطيب ، ج ١ ص ٢٤٨ .

(٤) Saavedra, op. cit. p. 79

(٥) يسميها ابن عبد الحكم قلعة فراس (فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٤) وصحتها قلعة هنارس .

(٦) يصفها الحميري نقلاً عن ابن حيان بقوله : « وزعم رواة العجم أنها لم تكن لسليمان ، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم ، كان أهل الحسبة في دينهم إذا مات أحدهم أوصى بمال الكنائس ، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه آلات من الموائد والكراسي وغيرها ، من الذهب والفضة ، يحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل ، إذا أبرزت في أيام المناسك ، ويضعونها على المذابح في الأعياد للباهة بزيئها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما ضيع في هذه السبل ، وبألفت الأملاك في تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كل مطار . وكانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، لم تر العين مثلاً ، فوارج في تحسينها من أهل دار المملكة ، وأنه لا ينبغي أن يكون بموضع آلة جمال أو متاع مباحة إلا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة ، نأصاها المسلمون هناك » (الحميري ، الروض المطار ص ١٣١ وما يليها - المقرئ - نفع الطيب ج ١ ص ٢٥٤) . هذا ووصفها صاحب أخبار مجموعة بأنها من زبرجد خضراء ، منها حافاتها وأرجلها ، وأن لها ثلثمائة رجل وخمس وسبعين رجلاً (أخبار مجموعة ص ١٥ - ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ١٧) .

عند فرارهم من طليطلة ، خشية أن تقع في أيدي المسلمين ، لنفاستها وقداستها .
وذكروا أن طارقاً بلغه عزم موسى بن نصير على اللحاق به ومعاقبته بسبب خروجه
على أمره ، فخاف طارق أن ينسب موسى الفتح إلى نفسه وينكر الدور الذي
قام به أي طارق ، فاستظهر بانتزاع رجل من أرجل هذه المائدة خبأه عنده ،
وأظهر للخليفة سليمان بعد ذلك عند ما ادعى موسى أنه ظفر بها^(١) .

كان الصيف قد انقضى وأقبل برد الحريف فأثر طارق أن يقضى الشتاء
في طليطلة ، فسار إليها ، وأصاب فيها غنائم هائلة لا يدركها الحصر ، من الذهب
والفضة والتحف والآثار النفيسة ، وذكروا أنه وجد في طليطلة حين فتحت من
الدخائر والأموال ما لا يحصى ، فن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر
مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة^(٢) ، وقيل خمسة وعشرين تاجاً مكحلة
بالدر والياقوت^(٣) ، كما وجد فيها ألف سيف ملوكي وغير ذلك من التحف والروائع
وذكر أبو شبة الصدفى أنه شاهد رجلين يحملان طنفسة منسوجة بالذهب والفضة
واللؤلؤ والياقوت ، فلما ثقلت عليهما أنزلاها ، وحملا عليها القاس فشطراها نصفين
حملاً نصفاً وتركها نصفاً ، وأنه شاهد الناس يمرون عليها لا يلتفتون إليها اشتغالا بما في
أيديهم مما هو أرفع منها^(٤) .

د - فتح قرطبة :

كان طارق قد عمل بنصيحة يليان ، ففرق جيوشه من استجه ، فولى مغنياً
الرومي على فرقة من جيشه ، ليفتح قرطبة ، ومضى هو بمعظم الجيش إلى طليطلة
ليفتحها . سار مغيث على رأس فرقة مؤلفة من سبعمائة رجل كلهم فرسان ، إذ

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ، ص ١٠٦ - المقرئ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المطار ص ١٣١ - المقرئ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) نص عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود مكى بصحيفة الممهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديره ص ٢٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٦ - المقرئ ، فتح الطيب ، ج ١ ص ٢٧٠ .

كان المسلمون قد غنموا خيل القوط ، ولم يبق فيهم راجل^(١) . وقصة فتح قرطبة في المصادر العربية تشبه قصة فتح العرب لحصن بابلون في مصر ، فلقد تسلق الزبير بن العوام سور الحصن وفتح بابه للعرب فاستولوا على المدينة عنوة^(٢) ، كما أنها تتشابه مع قصة فتح العرب لمدينة سيطة ، إذ أن ذلك تم بفضل بطولة عبد الله ابن الزبير ، فكلها تصور أعمالاً من البطولة قام بها الزبير أو ابنه عبد الله ، أو مغيث الرومي وأصحابه .

وقصة فتح قرطبة تصور لنا الفتح على أنه عمل ساهمت فيه المقادير ، فلقد سار مغيث على رأس فرقته حتى أتى قرطبة ، فكمن بقرية شقندة في غيضة أرز ، تقع بين قرية شقندة وقرية طرسيل^(٣) ، على الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير . فرأى مغيث أن يبعث بعض أدلائه من الإسبان إلى المنطقة المجاورة ، ليسترشدوا الناس عن سور المدينة ، فألفوا راعي غنم ، فأتوا به إلى مغيث وهو في الغيضة فسأله عن قرطبة ، فقال له : انتقل عنها عظماء أهلها ، ولم يبق فيها إلا بطريق في أربعمئة فارس من حماهم ، مع ضعفاء أهلها ، ثم سأله عن حصانة سورها فأخبره أنه حصين ، إلا أن فيه ثغرة فوق باب الصورة ، وهو باب القنطرة ، ووصف لهم الثغرة^(٤) ، وكان لزاماً على مغيث وأصحابه أن يعبروا الوادي سباحة ، فقد كانت القنطرة الموصلة بين مدينة قرطبة وربضها الجنوبي المعروف بشقندة ، مهدمة في ذلك الوقت^(٥) . وآثر مغيث أن يفاجئ حامية المدينة ليلاً ، فيتخذ من ظلام الليل ستاراً له ولجنوده حين يعبرون النهر ، ويبدو أنه كان يزعم مفاجأة

(١) أخبار مجموعة ص ١٠ - ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ١٤ - المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٢) ارجع إلى الكتب الآتية :

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر : طبعة ليدن ، ١٩٢٠ - البلاذري ، فتوح البلدان ، القسم الأول نشرة الدكتور صلاح المنجد - بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمه من الإنجليزية الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣ - محمود عكوش ، مصر في عهد الإسلام ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٠ - ابن عذاري ج ٢ ص ١٤ . ويذكر سافدرا أن موضع طرسيل كان

يعرف عند القوط باسم Tercios انظر Saavedra, op. cit. p. 81.

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤ - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٤ .

(٥) أخبار مجموعة ، ص ١١ .

الحامية القوطية ، ويدخل المدينة عنوة ، وهذا يفسر عبوره الوادي أثناء الليل ، مستتراً بظلامه . فلما جن الليل ، أقبل على نهر قرطبة ، وقد أغفل حرس السور حراسته من شدة البرد ، والمطر ، وأخفى سقوط المطر دقة حوافر الخيل^(١) ، مما ذلل للمسلمين عملية العبور ، فلما توافى الجند على الضفة اليمنى للنهر ، تجمعوا في الفضاء الواقع بين السور والنهر ، وكان لا يزيد على ثلاثين ذراعاً ، فراموا التعلق بالسور ، فلم يجدوا متعلقاً ، وتعذر عليهم تسلقه ، فأخذوا يدورون حوله بحثاً عن الثغرة التي أخبرهم عنها الراعي ، فلم يجدوا إلا سهوراً مرتفعاً غاية في الحصانة والثاقاة ، واضطروا إلى استحضر الراعي الإسباني ، فلطم على موضع الثغرة ، فإذا بها غير سهلة التسم ، إلا أنهم وجدوا بأسفلها شجرة تين مكنت أفنانها رجلاً من المسلمين من التعلق بها ، فصعد إلى أعلاها ، ونزع مغيث عمامته ، فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس بعضاً حتى كثروا على السور ، أما مغيث فقد ركب فرسه ، وتأهب لدخول المدينة من باب القنطرة بعد أن أمر رجاله بالهجوم على حراس باب الصورة ، وانقض المسلمون على الحراس ، فقتلوهم وكسروا الأقفال ، ثم فتحو الباب المذكور ، وعلى هذا النحو نجحت الخطة نجاحاً لم يكن في الحسبان ، وتدقق فرسان المسلمين على المدينة .

ويذكر سافدرا أن قرطبة كانت مقسمة في ذلك الوقت إلى قسمين ، يفصلهما سور حاجز أقامه الرومان لفصل الأهالي الذين يسكنون القسم الشرقي عن القسم الغربي الذي يشتمل على المؤسسات الحكومية ، مثل قصر الوالي وثكنات الجند ، وهو القسم الذي عرف في العصر الإسلامي باسم المدينة . ويضيف سافدرا ، مستنداً على ما ذكره صاحب أخبار مجموعة ، أن المسلمين حين دخلوا المدينة ، استولوا على القصر (البلاط) ، ففر الحاكم في كفاة رجاله ، وهم نحو أربعمئة ، وخرجوا من باب أشيلية (وهو الباب الغربي) ، وتحصنوا في كنيسة تقع غربي المدينة ، كانت تعرف باسم سان أسيكلو^(٢) San Asciclo ، ويسمى صاحب أخبار

(١) نفس المرجع - ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٤ - المقرئ ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢ - Saavedra, op.cit.p.83

مجموعة باسم شنت أجلاح^(١) . وتفهم من ذلك أن البلاط المذكور ، كان يقع داخل أسوار المدينة قرب السور الغربي منها . ويرى الأستاذ أوكانيه خيمينث^(٢) — ونحن نوافقه على ذلك — أن قصة فتح قرطبة وفقاً لما رواها به مؤرخو العرب غير صحيحة ، فقد كانت قرطبة عند ما فتحها المسلمون ، في أشد حالات السوء إذ كانت قنطرتها قد تهدمت ، كما كان سورها الغربي قد تثلّم في بعض أجزائه ، إذا اعتمدنا على ما ذكره صاحب أخبار مجموعة^(٣) . وأبلغ دليل على سوء حالتها عند الفتح ، أن المسلمين اتخذوا إشبيلية عاصمة للأندلس ، ولم يتخذوا قرطبة لهذا الغرض ، إلا بعد مقتل عبد العزيز بن موسى . واضطر السمع بن مالك الحولاني والي الأندلس في خلافة عمر بن عبد العزيز ، إلى إعادة بناء القنطرة من أحجار السور . ويستند أوكانيه خيمينث في ذلك على نص ورد في البيان جاء فيه : « وكان المسلمون إذ فتحوا قرطبة ، وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها ، على حنايا وناق الأركان ، من تأسيس الأمم الدائرة ، قد هدمها مدود النهر على مر الأزمان ، فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز ، عندما اتصل به خبرها ، فأمر السمع بابتنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة^(٤) . ويستقل أوكانيه خيمينث بعد ذلك قائلاً : « إذا سلمنا بأن الجانب الغربي من أسوار قرطبة كان مهتماً كذلك ، في ذلك الوقت وأن مغيث

(١) أخبار مجموعة ص ١٢ — فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، ص ٩ وما يليها .

يقول صاحب أخبار مجموعة : « فلما بلغ الملك دخولهم ، خرج في جملة أصحابه وهم أربعمائة أو خمسمائة ، ومن خرج معه ، من باب المدينة الغربي ، يقال له باب إشبيلية ، فتحصن بكنيسة في غربي المدينة حصينة ذات بنيان وتقانة ، وهي شنت أجلاح ، قد دخلها ، ودخل مغيث بلاط قرطبة فاخطفه » .

(٢) Ocana Jiménez : La Basílica de San Vicente y la gran Mezquita de Córdoba, (٢)

Al-Andalus, 1942, pp. 347-366.

(٣) يذكر صاحب أخبار مجموعة أن السمع بن مالك الحولاني ، والي الأندلس ، كتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ « يستشير ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة . فإن أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فإن قبل قوة على ذلك ، من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسراً » ص ٢٤ .

(٤) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤ .

دخل المدينة من هذا الموضع الضعيف ، فإن ربض بلاط مغيث ^(١) ، كان يقع غربى المدينة ، وليس فوق باب الجزيرة ، « وهو باب القنطرة مقابل الثلمة التى دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة » على حد قول صاحب أخبار مجموعة ^(٢) .

وعلى ضوء ما ذكره أوكانية ، نستنتج أن قصر الملك القوطى ، المذكور فيما سبق ، والذي اختاره مغيث مقراً لإقامته ، كان يقع داخل المدينة قرب بابها الغربى الذى خرج منه هذا الملك وأصحابه فراراً من المسلمين ، وهو نفس القصر الذى انتزعه موسى بن نصير من مغيث الرومى ^(٣) ، والذي اتخذهُ أمراء وخلفاء بنى أمية بعد ذلك داراً للإمارة بجوار المسجد الجامع ، أما الدار التى اعتاض بها موسى مغيثاً ، فكانت تقع غربى المدينة ^(٤) ، وليس فوق باب القنطرة كما يزعم صاحب أخبار مجموعة .

وما سبق ذكره ، نلاحظ أن فتح مغيث لقرطبة فى الحقيقة لم يقابله صعوبات ، وأن حاكم المدينة لم يعمل على مقاومة المسلمين داخل المدينة ، وإنما سارع بالتحصن فى كنيسة شنت أجلاح ، الواقعة غربى قرطبة ^(٥) ، وكانت كنيسة حصينة ذات بنيان وتقانة ^(٦) يأتىها الماء تحت الأرض من عين فى سفح جبل ^(٧) ، ولو لم تكن حصينة لما بادر حاكم قرطبة ورجاله بالتحصن فيها ، ولما طال حصار المسلمين لها إلى ثلاثة أشهر . ويبدو أن المسلمين اهتموا إلى مصدر المياه التى تمد الكنيسة ، فقطعوها وسدوا منافذها . ويذكر المؤرخون أن حاكم المدينة تسلل

(١) هذا الربض سمى بربض بلاط مغيث لأنه كان يشتمل على دار مغيث التى أعطاها له موسى عند عودته من فتح الأندلس فى طريقه إلى دمشق .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٣) لما شاهده . موسى بن نصير عند مروره بقرطبة فى طريقه إلى المشرق ، قال لمغيث : « إن هذا البلاط ليس يصلح لك ، وإنما يصلح لوالى قرطبة ، فاعتاض مكانه ، فاعتاض مغيث داراً شريفة ذات سق وزيتون وثمار يقال لها اليسانة ، كان للملك الذى أسره ، وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهى تسمى بالأندلس بلاط مغيث » أخبار مجموعة ص ٢١ .

(٤) ذكر ابن بشكوال أن ربض بلاط مغيث كان يقع غربى المدينة (انظر المقرئ ، نفح الطيب

ج ٢ ص ١٣) .

(٥) أخبار مجموعة ص ١٢ - ابن عذارى ج ٢ ص ١٥ - نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٦) أخبار مجموعة ص ١٢ .

(٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

من الكنيسة ذات يوم وحده ، وهو ينوي التحصن في جبل قرطبة ليلحق به أصحابه^(١) ، فأبصره مغيث ، فانطلق وراءه ، وأحس الحاكم بمطاردة مغيث له ، فأسرع في فراره حتى تجاوز قرية قطلبرة^(٢) Cutelobera ، ثم تعرّض فرسه فجأة فسقط على الأرض ، وأسره مغيث ، وجبسه عنده ليقدّم به على الخليفة الوليد ، ولم يؤسر من أمراء الأندلس غيره ، وعاد مغيث إلى بقية النصاري فاستترهم أسراً ، وضرب أعناقهم فسميت الكنيسة ، كنيسة الأمري^(٣) ، وذكر الرازي أن مغيث لما سد عن النصاري مجرى الماء ، أيقنوا بالهلاك ، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية فأبوا عليه ، فأوقد عليهم النار حتى أحرقهم ، فسميت كنيسة الحرق ، والنصاري تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء^(٤) . غير أن الدكتور حسين مؤنس يستبعد هذا الحادث ويستدل على ذلك بأن هذه الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زماناً طويلاً وليس فيها للنار أثر^(٥) . ولا أدري على أي مصدر اعتمد الدكتور مؤنس في دحضه للنص السابق ، فكل ما نعرفه عن هذه الكنيسة أنها هدمت زمن الفتح الإسلامي ، وظلت كذلك حتى عام ١٦٩ هـ ، حين أذن الأمير عبد الرحمن الداخل لنصاري قرطبة بإعادة بنائها نظير تخليهم عن نصيهم في كنيسة شنت بنجنت التي أقام عليها المسجد الجامع بقرطبة^(٦) .

(١) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق - نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٤ - ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ١٥ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١

ص ٢٤٦ .

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(٥) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٨٢ .

يخلط الدكتور مؤنس بين هذه الكنيسة وكنيسة أخرى داخل المدينة تعرف بشنت بنجنت التي أقيم عليها جامع قرطبة .

(٦) انظر مقال

Al-Sayyid Salem, Cronologia de la mezquita Mayor de Córdoba, al-Andalus

vol. XIX, fasc. 2, p. 399.

والمساجد والقصور في الأندلس ، سلسلة أقرأ ، عدد ١٩٠ سنة ١٩٥٨ ص ١٥ .

ثم جمع مغيث يهود قرطبة فضمهم إلى قصبته ، وثوقاً بهم دون النصارى^(١) ، وأصبح ذلك سنة للمسلمين في كل بلد يفتحونه ، أن يضموا يهوده إلى القصبته مع جماعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الجيش لغيرها « وإذا لم يجدوا يهوداً ، وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح »^(٢) .

(١) المقرئ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) نفس المرجع .

حملة موسى بن نصير

١- الفتح جنوب الأندلس وغربه :

بلغت موسى أخبار الفتح ، فغضب لعصيان طارق لأوامره ، وقيل إنه ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه ، وقرر أن ينال نصيبه هو الآخر من شرف الفتح ، ويغلب على الظن أن نزول موسى إلى الأندلس كان لسبب حربى ، هو تدعيم الفتح الذى قام به طارق ، أما ما تواتر فى كتب التاريخ العربى بصدد إساءته إلى طارق وضربه له بالسوط ، فمغالى فيه ، إذ لا يعقل أن يصدر مثل ذلك من تابعى جليل وفتح عظيم كموسى بن نصير ، ثم إن طارق بن زياد كان مولى لموسى ، يعمل بأوامره ، ويمثل لما يصدره إليه ، وكان يكتب إليه أخبار الفتح أولا بأول .

ولقد ضرب طارق المثل الأعلى فى الطاعة والنظام عند ما بعث بأبناء غيطشة إلى مولاه موسى بن نصير ، عند ما وصلوا إليه بطليطلة ، وقالوا له : أنت أمير نفسك ، أم على رأسك أمير . فقال لهم : بل على رأسى أمير ، وعلى الأمير أمير ، لذلك لا نستبعد أن تكون الروايات القائلة بحسده لطارق وإهائه له ، ملفقة مدسوسة لتبرير ما أصابه على يدى سليمان بن عبد الملك . وإذا كان طارق قد غامر باقتحام الأندلس من وسطه قبل التمكن من السيطرة على غربه وشرقه ، فإن له عذره فى ذلك كما أوضحنا من قبل ، إذ كان لازماً عليه أن يزحف مباشرة إلى طليطلة عاصمة دولة القوط الغربيين ، بعد انتصاره الساحق فى وادى لكّة ، وكانت هذه الخطوة تقضى بعبور موسى بن نصير إلى الأندلس ، لاستكمال فتح جنوب الأندلس وغربه ، ولتجنب ما قد ينجم من كوارث لو قطع خط الرجعة

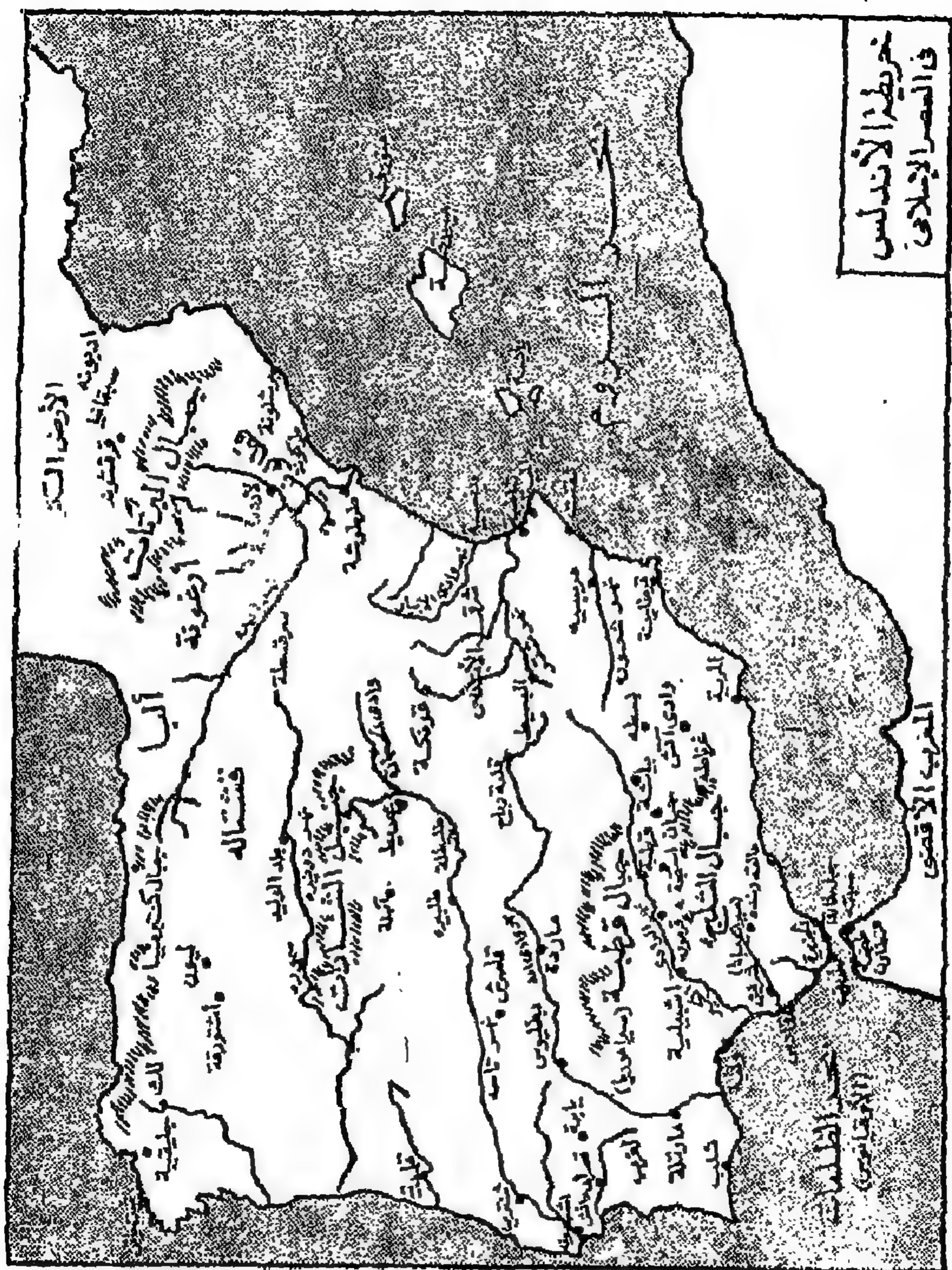
على طارق^(١) . وينتلب على الظن أن جيش طارق قد تحمل من الأعباء ما يزيد على طاقته لدرجة أجهدت الجند ، فقد اقتحم هذا الجيش أرض الأندلس ، وصادم القوط الغربيين في موقعة حاسمة ، وتوغل في قلب البلاد ، واستولى على حاضرتها قبل أن يستفيق القوط من الصدمة ، كل ذلك تم في أمد قصير ، ثم إن المقاومة القوطية بدأت تتكون في نواحي البلاد ، خاصة من جهة غرب الأندلس ، حيث تصلح المناطق الجبلية المهجورة في إقليم استرامادور لأن تكون أوكاراً لرجال المقاومة القوطية ، وهذا يفسر لنا خط سير الحملة التي قادها موسى بن نصير . ويؤيد رأينا هذا ما ذكره ابن قتيبة في كتابه « الإمامة والسياسة » من أن طارقاً كتب إلى مولاه موسى مستغيثاً ، وذكر له « إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث ، الغوث ، الغوث ، (١) ! » . ولو كان موسى بن نصير يقصد من وراء جوازه إلى الأندلس تأديب طارق لكان قد جاز إليه في رفقة عدد قليل من المسلمين ، ولأسرع للقائه ، ولكن موسى جاز الزقاق في جيش أضخم بكثير من جيش طارق ، ومضى يفتح مدن الغرب ، ويقضي على مراكز المقاومة طوال هذا العام قبل أن يلتقى بطارق ، كل ذلك إن دل على شيء . فعلى أن موسى كان ينوي إتمام فتح الأندلس رتاً لخطه رسمها هو وطارق ويليان ، ولو أن موسى كان يضرع في نفسه شراً لطارق ، مدفوعاً في ذلك بعوامل الغيرة والحسد ، لما عبر الزقاق بعد عام كامل من نزول طارق إلى الأندلس ، ولما سلك طريقاً غير الطريق الذي سلكه من قبل ، ولكان قد أسرع إلى لقائه وكف يده ، بدلاً من إضاعته وقته في افتتاح مدن الغرب القوية ، مثل اشيلية ، وماردة ، ولبله ، وباجة^(٢) .

(١) Saavedra, op. cit. p. 92.

(٢) ابن قتيبة ، نص فتح الأندلس من كتاب الإمامة والسياسة (يتضمنها كتاب ابن القوطية القرطبي) ص ١٢٤ . وذكر ابن عذارى أن موسى إنما جاز باستدعاء طارق إياه (البيان المغرب ج ٢ ص ١٩) .

(٣) ذكر صاحب أخبار مجموعة أنه لما نزل الجزيرة ، قال له الملوج الأدلاء : « نحن نذكرك على طريق هي أشرف من طريقه ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله فامتأ قلبه بذلك سروراً . » ص ١٥ . ولا شك أن موسى كان يرغب في افتتاح المدن الحصينة بغرب الأندلس ، وأنه تعمد فتحها حتى يدعم فتوح طارق ويؤمن الطريق الموصلة إلى طليطلة ، وليس بسبب رغبته في المباهاة بفتح هذه المدن .

في العصر الإسلامي
خريطة الأندلس



عبر موسى الزقاق في رمضان سنة ٩٣ هـ (١١) (٧١٢ م) على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب ووجه الناس (١٢) ، ونزل في جبل الفتح ، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام بها أياماً للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة ، فلما عزم على السير ، جمع حوله رايات العرب ووجه الكتائب ، وعددها يزيد على عشرين راية ، وتفاوض الجميع في الرأي ، وكيف يكون الدخول ، فأجمعوا على السير إلى إشبيلية ، وغزو ما بقي من غرب الأندلس حتى أكشوبة ، وذكروا أن هذا الاجتماع تم عقده في الموضع الذي أقيم فيه مسجد الرايات (١٣) . وذكر الرازي أن موسى لم يبرح موضعه ، ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذ مسجداً ، وكان يقابل بباب البحر من أبواب المدينة (١٤) .

وزحف موسى بن نصير إلى شدونة ، فافتتحها عنوة ، ومضى بعد ذلك إلى قلعة رعواق المعروفة بقلعة وادي أيرة Alcala de Guadaira ، أو قلعة جابو، فافتتحها ثم سار إلى قرمونة ، وكانت غاية في المناعة والحصانة (١٥) .

وقيل لموسى إنها لا تؤخذ إلا بالالطف والحيلة ، ففكر في خدعة ينجح بها أهل قرمونة ، وأرسل إليها جنداً من أتباع يليان على هيئة المهزمين ، ومعهم السلاح ففتح أهل قرمونة لهم الأبواب ، فلما دخلوها ، بعث موسى إليهم الخيل ليلا ، ففتحوا باب المدينة المعروف بباب قرطبة ، ووثبوا على الحراس فقتلوهم ، وبذلك دخل المسلمون قرمونة (١٦) . وعلى هذا النحو تم لموسى السيطرة على المراكز الدفاعية

(١) محمد الرازي تاريخ خروجه من إفريقية إلى الأندلس في رجب من نفس السنة (المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٩) . وذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس في جمادى الأولى (نص عبد الملك ابن حبيب ص ٢٣١) .

(٢) أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفة في الأقطار الأندلسية ص ١٩٢ ، ١٩٨ كان من بين الذين دخلوا الأندلس مع موسى واحد من أصغر الصحابة هو المنذر الإفريقي وأربعة من التابعين ، هم علي بن رباح النخعي ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن زياد الأنصاري الحلي ، وحش بن عبد الله بن عمر بن حنظلة السبائي الصنعائي ، وحيوة بن رجاء التميمي .

(٣) أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفة ص ١٩٨ .

(٤) الحميري ص ٧٥ .

(٥) وصفها صاحب أخبار مجموعة بأنه « لم يكن بالأندلس أحسن منها ولا أبعد من أن تنال بحصار أو قتال » أخبار مجموعة ص ١٦ - ابن عذاري ج ٢ ص ١٩ .

(٦) أخبار مجموعة ص ١٦ - ابن عذاري ج ٢ ص ٢٠ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٢

الأممية لمدينة إشبيلية . وتقدمت قوات موسى نحو إشبيلية ، وكانت « أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطبًا ، وأعجبها ببناءً وآثارًا ، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غلبت القوطيون حولوا السلطان إلى طليطلة ، وبقي شرف الرومانين وفقههم ودينهم ورثاستهم في دنياهم بإشبيلية » .^(١) ، فحاصرها موسى حصاراً شديداً ، ولكنها امتنعت عليه أشهراً ، ثم سقطت في أيدي المسلمين ، بفضل مساعدة الأسقف دون أبه والجالية اليهودية بها^(٢) ، وهرب رجال حاميتها إلى مدينة باجة ، فعامل موسى يهودها كما عامل مغيب يهود قرطبة من قبل ، فضمهم إلى قصبة المدينة ، وترك عليها رجالاً من قبله^(٣) . ومضى موسى بعد ذلك إلى مدينة ماردة Emerita (Merida) ، أمنع معاقل استرامادور ، مارا ببلدة لقنت Fuente de Cantos ، وسمى هذا الطريق الذي سلكه موسى بفج موسى ، ويعتمد من لقنت إلى ماردة^(٤) ، ونجح في الاستيلاء على تلك البلدة دون حرب ولذلك سمي أهل لقنت بموالي موسى^(٥) . وكانت ماردة Colonia Augusta Emerita من أعظم مدن إسبانيا في العصر الروماني ، إذ أسسها الإمبراطور أغسطس قيصر سنة ٢٥ ق . م ، وجعلها عاصمة لإقليم لشدانية Lusitania ، ولقد حملت ماردة مشعل الحضارة الرومانية في إسبانيا حتى أصبحت تعرف برومة إسبانيا^(٦) La Roma de Espana ، وقد وصفها ابن حيان بقوله : « وكانت ماردة دار

(١) أخبار مجموعة ص ١٦ - ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٠ - وانظر مقال عن « إشبيلية » في دائرة معارف الشعب عدد ٥٦ ص ٧٠ .

(٢) Simonet (Francisco Javier); Historia de los Mozárabes de Espana, Madrid, (٢)

1897, p. 25

Dozy; Histoire des Musulmans d'Espagne, t. I, pp. 274-275.

(٣) أخبار مجموعة ص ١٦ - ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٢٠ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٢ .

وذكر سافدرا أن فلول القوط بإشبيلية اتبعوا الطريق الروماني الذي يتجه من إشبيلية إلى لبله على مصب وادي آلة ، ومنها إلى أكشونية ثم إلى باجة . (Cf. Saavedra, op. cit. p. 94)

(٤) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩ .

(٥) فتح الأندلس لمؤرخ مجهول ص ١١ - الرسالة الشريفة ص ١٩٣ .

(٦) José Ramón Melida, Catálogo Monumental de Espana, Provincia de Badajoz, (٦)

كذلك ارجع إلى مقال من ماردة بدائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ٥٠ - الرسالة الشريفة ص ١٩٣ .

مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر ، وهي ذات عز ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر ، فائقة الوصف ^(١) . وكان فلول القوط بقيادة لذريق - الذي قيل إنه التجأ إلى هذه المدينة - قد احتشدوا فيها لمناعتها ، ووعورة المسالك المؤدية إليها ، فحاصرها موسى ، ولكن أهلها خرجوا لقتال المسلمين فصدتهم موسى برجاله صدمة عنيفة ارتدوا بعدها إلى مدينتهم وتحصنوا بداخل أسوارها ، فنصب موسى لهم كميناً في ثقب لأحد مقاطع الصخور ، وأكن فيه أثناء الليل عدداً كبيراً من فرسانه ، فلما أصبح ، زحف إليهم ، فخرجوا إليه كخروجهم في اليوم السابق ، وهنا اندفع فرسان المسلمين الذين كانوا بالكمين ، فانقضوا عليهم وقتلهم قتلاً ذريعاً ، وتقهقرت جموع أهل ماردة إلى المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، فحرب موسى عليهم الحصار عدة أشهر دون جدوى ، وذلك لأنها « مدينة حصينة لها سور لم يبن الناس مثله » ^(٢) ، ثم صنع المسلمون دبابة دبوا تحتها إلى برج من أبراجها ، أخذوا ينقبونه ، فلما نزعوا كسوته الحجرية أفضوا في داخله إلى الصماء التي يقال لها « اللاشة ماشة بلسان أهل الأندلس » ^(٣) . فنبت عنها معاولهم وقؤوسهم ، ويشوا منها ، وبينما كانوا يقومون بعملهم ، إذ خرج العدو عليهم على غفلة ، فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسمى ذلك البرج لذلك برج الشهداء . واستمر موسى محاصراً لماردة حتى مستهل شوال سنة ٩٤ هـ . فدخلها صلحاً ، وصالحه أهلها على أن تكون أموال جميع قتلى النصاري يوم الكمين ، وأموال الفارين منهم إلى جليقية ، وأموال الكنائس وحليها ، ملكاً للمسلمين ^(٤) .

وكان أهل الذمة بإشبيلية (هم العجم وقد سموا فيما بعد بالمستعربين بسبب استعراهم مع احتفاظهم بدينهم) قد انتهزوا فرصة انشغال موسى بحصار ماردة ، وانقضوا على الحامية المسلمة التي تركها موسى فيها ، وقتلوا من رجالها نحو ثمانين

(١) أخبار مجموعة ص ١٦ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) تسمية لاتينية معربة «Alaxa Maxa» لنوع من الملاط شديد الصلابة يسميه الإسبان اليوم

Argamasa

(٤) أخبار مجموعة ص ١٧ وما يليها - ابن عذارى ج ٢ ص ٢١ وما يليها - المقرئ ، ج ١ ص

رجلا ، وفر الباقون إلى موسى بماردة وتوافد إلى إشبيلية عدد كبير من فل جيشها ، ممن كانوا قد التجأوا إلى باجة ، فتقوى بهم أهلها ، وتحصنوا بداخلها . فانتظر موسى حتى أتم فتح ماردة ، وبعث ابنه عبد العزيز على رأس جيش لاسترجاع إشبيلية ، وإخماد الثورة ، ونجح عبد العزيز في دخول المدينة واستعادتها ، وقبض على الثوار وقتلهم ، ثم مضى إلى لبله وافتتحها ، فاستقامت الأمور فيها هنالك ، وفي إشبيلية أقام عبد العزيز بن موسى ، وستصبح هذه المدينة حاضرة الأندلس في ولايته .

ب - موقعة السواقي ومقتل لذريق :

أقام موسى في ماردة بعد افتتاحها مدة شهر طلباً للراحة بعد المعركة ، تمهيداً لمتابعة الفتح ، وتطهير الجزء الشمالي من غرب الأندلس من بقايا القوط ، وعلى رأسهم لذريق . وكان موسى قد أدرك أن مراكز المقاومة القوطية بدأت تتجمع في هذه المنطقة بالذات ، لعوق مسيره ، والقضاء على قواته قضاء مبرراً . وقد كانت محاولة فلول القوط استرداد إشبيلية خطوة كبيرة لقطع طريق الرجعة على قوات موسى ، لولا أن عبد العزيز بن موسى استطاع أن يخمّد الحركة قبل استفحائها ، كما تمكن من القضاء على مركز المقاومة في لبله . فما كادت تسقط ماردة ، حتى تراجع لذريق ، وتحصن هو وجنوده في شعاب جبال سيرا دي فرانثيا Sierra de Francia مما يلي وادي أنة إلى الشمال ، وأقاموا هناك ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على جيش المسلمين^(١) . وشم موسى رائحة كمين الأعداء له في الطريق إلى طليطلة ، فبعث موسى إلى طارق يستدعيه للحضور إليه مع جيشه ومقابله بقواته في منتصف الطريق ما بين ماردة وطليطلة . وخرج طارق بجيشه ملياً نداء مولاه ، وسار مسافة قدرها ١٥٠ كيلو متراً ، في الطريق الموصل ما بين طليطلة وطليطلة ، بجذاء واد يقال له الأروكامبو Valle del Arrocampo^(٢) ، أمام موسى ، فقد توقف بجيشه في واد قريب من الموضع الذي تم فيه لقاءه مع طارق ، حيث استعرض قواته ،

(١) Saavedra, op. cit. p. 98. - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٩٧ .

(٢) Ibid. p. 98. .

فسمى الوادى بذلك الاسم « وادى المعرض »^(١) Almaraz ، ثم تابع سيره بعد ذلك فى الطريق إلى طليطلة حيث التقى بطارق فى موضع يقال له تايد أو تايتير^(٢) ، وخرج طارق معظماً له ، ونزل بين يديه . وقيل إن موسى وبخ طارقاً على مخالفته لرأيه ، وخروجه عليه ، وهو ما أجمع عليه المؤرخون العرب ، والأرجح أنه عاتبه برفق على تسرعه فى اقتحام الأندلس من الوسط ، فاعتذر إليه طارق ، وخضع له وقال : « إنما أنا مولاك وقائد من قوادك ، ما فتحت وأصبته فلإنما هو منسوب إليك » واستلطفه حتى رضى عنه^(٣) . وذكر ابن حيان « أن موسى اصطالح مع طارق ، وأظهر الرضا عنه ، وأقره على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه ، وسار موسى خلفه فى جيوشه »^(٤) .

اتبع طارق وموسى الطريق الرومانى الممتد من ماردة إلى شلمنقة Salamanca عبر السيرا ، ثم اجتاز الموضع المسمى Puerto de Siete Carreras ، وصار فى نقطة التقاء الطريقين الموصولين من ماردة إلى شلمنقة ، ومن ألبة دى تورميس Alba de Tormes إلى ثيوداد رودريجو^(٥) Ciudad Rodrigo ، ومضى من فجج منسوب إليه^(٦) بجذاء نهر سمي منذ ذلك الحين بوادى موسى^(٧) Valmuza . ويعتقد سافدرا أن المسلمين ، لكى يتم تخريبهم للسهول المجاورة للسيرا ، أو ليقيموا فى ميروبريجا Mirobriga ، ويشلوا من هناك حركة القوط ، اتبعوا فى سيرهم الانحدارات الهائلة التى تنبع منها مياه نهر الهويبرا Huebra ، وراء القمم الشمالية لجبال سيرا دى فرانثيا^(٨) . وانتهز للزريق فرصة عبور موسى لهذا الطريق الوعر ،

(١) الرسالة الشريفة ص ١٩٣ ، يقول صاحب الرسالة الشريفة : « فلما بلغ وادى المعرض ، اعترض جيوشه ، فسمى الوادى بذلك ، فعرف من معه ، فلما قرب من طليطلة خرج إليه طارق » وفهم من هذه العبارة أن اللقاء بين موسى وطارق لم يتم فى المعرض على نحو ما ذكره سافدرا والدكتور مؤنس ، وإنما تم بعد ذلك فى الموضع الذى ذكره صاحب أخبار مجموعة .

(٢) وردت كلمة تايد فى أخبار مجموعة ص ١٨ ، بدون نقط ، ولعلها تايتير وهو اسم ذكره رديجو الطليطلى Teitar لنهر فى هذه المنطقة .

(٣) الرسالة الشريفة ص ١٩٣ . (٤) المقرئ ، ذئفج ١ ص ٢٥٥

(٥) Saavedra, op. cit. pp. 98-99.

(٦) ابن القوطية ص ١٠ المقرئ ، نفج الطيب ج ١ ص ٢٥٣

(٧) Saavedra op. cit. p. 99. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٩٨ .

(٨) Ibid. p. 100.

وانقض بقواته القوطية على جيش موسى أمام بلدة سيجويلا دي لوس كورنيخوس^(١) Segoyuela de los Cornejos ، بالقرب من بلدة تامامس Tamames ، وهناك حدثت الموقعة الفاصلة الثانية ، في سبتمبر سنة ٧١٣ م . ونظراً لأن المكان الذي وقعت فيه الموقعة كان قريباً من بحيرات تامامس ، ونهر بار بالوس Barbalos الذي ينتهي عند السواقي ، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر برباط وبحيرة خائدة وفي هذه الموقعة لقي لذرريق مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير^(٢) ، وهزم القوط هزيمة نكراء ، وقد حمل أتباع لذرريق جثته ، ودفنوها في مدينة بيزو Visco ، وجاء في حواريات الملك الفونسو العظيم Alfonso el Magno ، أنه رأى قبر لذرريق ، وقرأ عليه عبارة منقوشة في شاهد قبره نصها : "Hic requiescit Rudericus rex gothorum ومعناها : هنا يرقد لذرريق ملك القوط . ودارت حول مصرع لذرريق كثير من الملاحم الإسبانية^(٣) .

ثم دخل موسى وطارق مدينة طليطلة ، وهناك سلم إليه طارق الكنوز التي صادرها بالكنايس عند فتحه طليطلة ، وأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة ٩٤ هـ . يدبر أمرها ، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برنزية لصرف رواتب الجند وذلك في دار السكة القوطية بطليطلة^(٤) . ثم بعث موسى رسولين من قبله إلى الوليد

(١) يقابل اسم سيجويلا Segoyuela في المصادر العربية كلمة السواقي أو السواني (انظر فتح الأندلس للمؤرخ مجهول ص ٨) وذكر الرازي Seguyuc وهو لفظ قريب من لفظ السواقي (ارجع إلى Saavedra, op. cit. p. 100. — Lévi-Provençal, Hist. t. I, p. I, p. 26 — حين مؤنس فجر الأندلس ص ٩٩)

(٢) Saavedra, op. cit. p. 101. يعتمد سائداً على نص عربي ورد في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة جاء فيه على لسان موسى بن نصير : « إن ابني أتي يملك الأندلس لودريق » ص ١٥٦

(٣) Ibid. p. 102-103.

(٤) كانت هذه العملات الذهبية تحمل نقوشاً كتابية لاتينية على غرار العملات السابقة على الإسلام في إسبانيا والمغرب ، وكتابات عربية في آن واحد ، ولا تتسم هذه العملات بطابع خاص يميزها عن غيرها باستثناء العملات البرنزية التي تحمل اسم موسى وصورة وجهين ، والعملات الذهبية التي تحمل الكتابات اللاتينية وصورة تمثل سمكة . وكان وزن الدينار الذي سكّه موسى يقرب من ٤ جرامات ، وتلور حول محيط وجهه العبارة الآتية H2LDFRTINSPANG III وترجمتها باللاتينية ما يل : (Hic Solidus Feritus in Spania Anno XGIII ومعناها ضرب في اسبانيا عام ٩٢ هـ . وتتوسط ظهر الدينار نجمة من ثمانية رؤوس ، ويدور حول محيطه الكتابة الآتية : INNDINNDSD2NSDSSNDSA ، وترجمتها باللاتينية ما يل : In Nomine Domini non Deus Nisi Deus Solus Non Deus Alios ومعناها : =

يخبرانه بالفتح هما : مغيث الرومي^(١) ، وعلى بن رباح التابعي^(٢) . وذكروا أنه لما دخل وفد موسى إلى الوليد في دمشق ، قال على بن رباح للخليفة : « تركته بالأندلس ، وقد أظهره الله ، ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على أحد مما لا قدرة له ، وقد وفدتني إلى أمير المؤمنين في فقر من وجوه من معه بفتح من فتوحه فدفع إليه الكتاب من عند موسى ، فقرأه الخليفة ، فلما أتى الوليد على آخره خر ساجداً »^(٣) .

ح - فتح شمال إسبانيا :

لما انقضى فصل الشتاء عزم موسى على متابعة الفتح ، فجمع جيوشه بقيادة طارق ، وزحف بها نحو سرقسطة الواقعة على الضفة اليمنى من نهر ابرة^(٤) ، فارتى نحو الثغر الأعلى ، وصحبت الفتح هذه المرة موجة عاتية من التدمير والتخريب ،

= الله واحد والله عالم والله ليس له كفواً ، وهي اختصار من الآية الكريمة : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) . وهناك دينارات عليها نقوش كتابية تجمع بين العربية واللاتينية ، ووجه هذه العملات تقرأ في وسطه عبارة (محمد رسول الله) ، وفي محيطه (بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة . . .) . وظهر هذه العملات عليه كتابات لاتينية تدور حول محيطه . وتكمل هذه المجموعة عملات ذهبية صغيرة هي النصف (١,٩٨ جرام) والثلاث (١,٣٠ جرام) ، وتتميز بأن أوجهها تحمل في وسطها صورة تمثل كرة قائمة على عمود فوق خطين ، أو شكل حرف على خط أفقي ، ثم الكتابات اللاتينية على الوجهين .

Cf. Casto Maria del Rivero, La Moneda Arabigo-espanola, Madrid, 1933, p. 4. sq. —

Saavedra, op. cit. p. 106 sq.

(١) ابن عبد الحكم ص ١٠٢ .

(٢) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ص ١٢٦ .

(٣) نقين المرجع . وذكر الدكتور حسين مؤنس أن مغيث الرومي كان ناقماً عليه ، إذ ساءه أن ينسب الفتح إلى نفسه ، فشوه سمعة موسى عند الخليفة بما كان له أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد (انظر فجر الأندلس ص ١٠١) . والواقع أن مغيثاً لم يكن ساخطاً على موسى في هذه المرة ، وإنما نقم عليه عند عودتهم جميعاً إلى المشرق بعد أن استدعاهم الخليفة .

(٤) سرقسطة تعريب للاسم الروماني قيصر أجستا Caesaraugusta ، لأن أغسطس قيصر هو الذي أسسها سنة ٢٣ ق . م على أطلال المدينة الأيبيرية القديمة التي كانت تعرف عند الأيبيريين باسم Salduba

(Francisco Abbad Rios, Zaragoza, Coleccion de guias Artisticas de Espana,)

(وانظر مقالاً عن « سرقسطة » بدائرة معارف الشعب العدد ٦١ ص ٥٤ ٥٥ Barcelona, 1952, p. 5)

ونهب البلاد وإحراقها ، وبث الرعب في نفوس سكانها ^(١) . وقد أحدث ذلك التصرف من جانب موسى أثره السيئ في نفس الخليفة ، فلم يمض عهد قصير حتى استدعاه إلى المشرق ^(٢) . ولما اقترب موسى من سرقسطة ، جمع الأسقف بنثيو Bencio ما استطاع جمعه هو وجماعة الرهبان ، من كتب مقدسة ، وآثار للقدسين ، وعزم على الرحيل خوفاً من جيوش المسلمين . ولكن موسى أرسل رسولا يؤمنهم ، ويعطيهم عهده ، فهدأت نفوسهم ، وعدلوا عن مغادرة المدينة ، وفتحت المدينة البيضاء (سرقسطة) أبوابها للقاتحين سنة ٩٤ هـ ، وأسرع حنش بن عبد الله الصنعاني التابعي بتأسيس مسجد سرقسطة الجامع وتركيز قبلته ^(٣) . وأوغل موسى في البلاد ، وغنم غنائم هائلة ، ثم اتجه إلى لاردة وطركونة مارا بوشقة ، وكانت أغلب المناطق التي سار فيها الجيش أرضاً جرداء ، يتحدث أهلها بلاتينية لا يفهمها الإسبان الآخرون الملازمون لموسى (وهم أدلاء يليان) ، فزهد المسلمون في هذه البلاد ، التي يسكنها قوم على حد قول ابن عذارى « كالبهاثم » ^(٤) . وقيل إن موسى لما أوغل ، وجاوز سرقسطة اشتد ذلك على الناس ، وقالوا أين تذهب بنا ، حسبنا ما في أيدينا ، فوقف حنش الصنعاني في وجهه وقال : « أين تذهب ، تريد أن تخرج من الدنيا أو تلمس أكثر وأعظم مما أعطاك الله ، وأعرض مما فتح الله عليك ودوخ لك ، إني سمعت من الناس ما لا تسمع ، وقد ملوا أيديهم ، وأحبوا الدعة » فضحك موسى ، وانصرف حنش عنه إلى سرقسطة ^(٥) . وسرعان ما استرد الجند نشاطهم وحماسهم في الفتح ، زينا كان موسى يعد العدة للدخول في بلاد جليقية ، إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك ، يأمره بالخروج من

(١) يقول ابن حيان : « وقد أتى الله الرعب في قلوب الكفرة ، فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح وموسى يحى على أثر طارق في ذلك كله ، ويكل ابتداءه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه » المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) ذكر صاحب الرسالة الشريفة ، أنه اتصل بالوليد بن عبد الملك تلوم الأمير موسى بن نصير بالمسلمين في الأندلس ، وتقحمه بهم أرض العدو من غير مؤامرة ، فألقاه ذلك ، وبعث مولاة مغيثا إليه وأمره أن يعتقه ويقفله إلى إفريقية » ص ٢٠٤ .

(٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، المجلد الأول مدريد ١٨٩١ ص ١١١ - الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ص ٩٧ - المقرئ ، نفح الطيب ج ٤ ص ٦ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٢٤ - ابن قتيبة ، السياسة والإمامة ص ١٢٣ .

(٥) ابن قتيبة ، المرجع السابق ص ١٢٧ .

الأندلس ، والكف عن التوسع في البلاد ، ويأخذه بالقفل إلى دمشق ، « فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها^(١) . فلما جاءه مغيث الرومي وأبلغه ما أمره به الخليفة ، تحايل على البقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح جليقية ، فلاطف مغيثاً وسأله إمهاله ، « إلى أن ينفذ عزمه في الدخول إليها ، والمسير معه في البلاد أياماً ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة^(٢) » ، وذكر صاحب الرسالة الشريفة أن موسى وهب مغيثاً « الموضع الذي ينسب إليه في عهد المسلمين ، وهو بلاط مغيث بجميع أرضه من أرض الخمس^(٣) » ، نظير إمهاله بعض الوقت ، ومصاحبته في غزو جليقية^(٤) ، وقبل مغيث هذه الشروط ، فلما اطمأن موسى إلى ذلك ، بادر بالسير شمالاً بقصد الاستيلاء على قشتالة القديمة *Castilla la Vieja* تأميناً للحدود الشمالية لإقليم طليطلة^(٥) ، وكان يتفرع من سرقسطة طريقان رومانيان يتجهان من الشرق إلى الغرب ، الأول يذهب بحذاء نهر إبرة حتى هارو Haro ، ومن هناك يتبع برفيسكا Briviesca ثم أماية ، ثم ليون واسترقة ، والثاني يتفصل من الطريق الأول عند بدايته ويتجه إلى قلونية وبلنسية ، ويلتقي بالطريق الممتد من ماردة إلى استرقة في مدينة بناقنى . وكان لابد لموسى من السير في كل من هذين الطريقين ، فقسم جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، والآخر بقيادة طارق

واختار موسى الطريق الثاني ، وعهد إلى طارق بالسير في الطريق الأول أدنى سفوح سلسلة جبال قنطابرية . وشرع طارق في مهاجمة البشكنس على يسار نهري إبرة واضطر فرتون ، زعيم إقليم شية Ejea إلى الدخول في طاعة المسلمين ، بل واعتنق

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٥٨ . (٢) نفس المرجع .

(٣) الرسالة الشريفة في الأقطار الأندلسية ص ٢٠٤ .

(٤) كان مغيث الرومي غساني الأصل ، فهو مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني ، سبي من الروم بالمشرق وهو صغير فأدبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد ، (انظر المقرئ ، نفح الطيب ج ٤ ص ١١) ، ولا شك أنه كان لديه إلمام بلغة البيزنطيين وهي اللاتينية ، بحكم أصله الرومي كما أنه كان شجاعاً في مضايق الحروب ، مشهوراً بحسن الرأي ، وقد شاهدناه في فتح قرطبة بطلا شجاعاً حسن الرأي ، فلا عجب أن يتمسك به موسى .

(٥) Saavedra, op. cit. p. 114

الإسلام ، ولذلك أعفيت شية من التخمين^(١) ، وإليه يتنسب بنوقسي أصحاب الثغر الأعلى ، وفي هذه الحملة استولى طارق على أماية واسترقة اللتين ذكرهما مؤرخو العرب خطأ في حملته سنة ٩٢ هـ (٧١١ م)^(٢) . أما موسى ، فقد سار بجذاء الضفة اليمنى لنهر إبرة ، وافتتح حصن بارو Villabaruz ، ثم انحرف شمالاً ودخل أشتوريش حتى وصل إلى قلعة لك ، Santa Maria de Lugo باشتوريش واستولى عليها ، « فأقام هناك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر^(٣) ، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ، ولا ناقوس إلا كسر ، وطاعت الأعاجم ، فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز ، وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسونه ، حطوا به ونزلوه قاطنين »^(٤) . ولما استولى موسى على قلعة لك ، فرأه لها إلى منطقة جبلية وعرة تسمى Los Picos de Europa . واستمر موسى في سيره حتى أدرك خيخون ، فاستولى عليها ، وجعلها قاعدة لهذه المنطقة ، وأقام عليها قائداً بربرياً من قواته هو مونوسة ، وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط ، ولكنه أراد أن يفتح جليقية ، ويبدو أنه استولى على مدينة لك الجليقية Lugo إذ أن رسولا آخر من الخليفة الوليد يكنى أبا نصر بعثه إلى موسى عند ما استبطأه في القفول ، أنه هو في مدينة لك بجليقية^(٥) . وهنا نلاحظ

(١) الرسالة الشريفة ص ٢٠٠ - Saavedra, op. cit. p. 114.

(٢) يقول ابن القوطية ص ٩ ، في فتح هذه المنطقة على يد طارق : « ثم تقدم إلى أشجة وإلى قرطبة ثم إلى طليطلة ثم إلى الفج المعروف بابفج طارق الذي دخل منه جليقية ، فخرق جليقية حتى انتهى إلى استرقة » ويقول صاحب أخبار مجموعة ص ١٥ : « ثم مضى إلى المدينة أماية فأصاب بها حلياً ومالا ، ثم رجع إلى طليطلة سنة ثلاث وتسعين ، » ويقول المقرئ ج ١ ص ٢٤٩ « وقيل إنه لم يرجع (إلى طليطلة) بل اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى إلى مدينة استرقة فدوخ الجهة وأنصرف إلى طليطلة والله أعلم . »

(٣) هو المحيط الأطلنسى وكان يسمى أيضاً الأقيانوس وبحر الظلمات .

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٨ .

(٥) المرجع السابق . يستبعد الدكتور مؤنس أن يكون الوليد قد أُرِدَ مفياً بأبي نصر ، إذ لا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال المدة القصيرة ما بين وصول مفيث وأبي نصر وهي ثلاثة شهور ، ويظن أن أبا نصر كنية لمفيث (فجر الأندلس ص ١٠٦) . ولكننا لا نوافق الدكتور مؤنس فيما ذهب إليه ، فلماذا نستبعد قدوم الرسول الآخر الذي أرسله الوليد إلى موسى ، عند ما وصلت أنباء تفيد بأن موسى يطعم في فتح غالة والوصول إلى رومة ؟ (انظر ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ص ١٣٨) ، بل الوصول إلى بلاد الشام عن طريق إفرنجة (المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٩) في الوقت الذي سُمّ المسلمون فيه الفتح ، وأظهروا رغبتهم في العودة إلى قرطبة ؟ ثم إننا نعلم كما بينا من قبل أن الوليد كان حريصاً على سلامة المسلمين =

أن هناك موضعين بهذا الاسم ، واحد ذكره المقرئ باسم قلعة لك ، وهي حصن باشتوريش قرب أوييدو Oviedo ، والثاني ذكره باسم مدينة لك بجليقية ، وهي مدينة من أهم مدن هذا الإقليم^(١).

ولم يجد موسى بداً من العودة ، فخرج على الفج المعروف باسمه (فج موسى) ، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى .

وهناك بعض المؤرخين أمثال ابن حيان ، يذكرون أن موسى بن نصير بعد أن افتتح سرقسطة ، بعث بعثته وسراياه إلى قطالونية ، فاستولت على برشلونة ، ومن هناك اخترقت جبال البربات (البرانس) ، وتوغلت في بلاد غالة فاستولت على أربونة Narbonne ، وصخرة إنيون Avignon ، وحصن لودون على وادي ريدونة^(٢) (وادي الرون) . ولا نستبعد أن تكون بعض قوات موسى قد افتتحت برشلونة ولاردة Evora وجزء من إقليم قطالونية ، وأنها وصلت إلى جبال البربات واجتازتها إلى قرشونة^(٣) ، فهو نفس الطريق الذي اتبعه السمع بن مالك بعد ذلك بسنوات ومن هنا ذكرت المصادر العربية رواية خرافية ورد فيها أنه « انتهى إلى مفازة

مناورس منذ البداية على إقحامهم في بحر شديد الأحوال . فلما نعى إليه ما شرع فيه موسى من فتح غالة ، اشتد قلقه ، وأرسل أبا نصر رسولاً ثانياً إلى موسى ، يستعجله القبول إلى دمشق . لذلك نعتقد تماماً أن أبا نصر شخص آخر غير مغيث الرومي ، فقد نص المقرئ على ذلك صراحة بقوله : « وتقل معهم (أي مع موسى وطارق ومن آثر العودة من المسلمين) الرسولان مغيث وأبو نصر » (المقرئ ج ١ ص ٢٥٨) . ولا يعقل أن يكون مغيث قد قفل إلى المشرق للمرة الثانية ثم عاد إلى الأندلس ، كل ذلك في مدة لا تزيد على ثلاثة شهور ، في الوقت الذي أجمعت المصادر العربية فيه على أن مغيثاً كان مصاحباً لموسى في حملته بأرغونة وأشتوريش .

(١) Gonzalez Palencia, Historia de la España Musulmana, C. Labor, Madrid

1945: p. 11

(٢) المقرئ، ج ١ ص ٢٥٦ -

Francisco Codera : Limites probables de la conquista arabe en la Cordillera Pirenaica, (pp. 97-235), en Estudios Criticos de Historia arabe espanola, VIII, Madrid, 1917, p. 107.

(٣) ذكر المقرئ أنه انتهى إلى حصن من حصون العدو يقال له قرشونة ، كما ذكر أن المسافة بين قرشونة وبين برشلونة خمسة وعشرين يوماً (نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ - شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر ١٣٩٢ هـ ص ١٤) .

ويذكر ابن خلدون أن موسى توغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف (المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٨) .

كبيرة ، وأرض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية ، مكتوباً فيه بالنقر كتابة غريبة ، قرئت ، فإذا هي : يا بني إسماعيل انتبهم فارجعوا ، فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا إلا لمعنى كبير ، فشاوَر أصحابه في الإعراض عنه ، وجوازه إلى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم ، وانصرف بالناس ^(١) . ومع أن هذه الرواية تبدو لنا خيالية ، إلا أنها تتضمن حقيقة لاشك فيها ، وهي أنه عدل عن متابعة السير في فتوحه إلى إفرنجة ، بدليل أنه عندما اضطر للقفول إلى الشرق ، أسف على ما لحقه من إزعاج ، وكان « يؤمل أن يمترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة ، حتى يتصل بالناس إلى الشام ، مؤملاً أن يتخذ محترقه بتلك الأرض طريقاً مهيئاً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً » ^(٢) . ولا نستبعد أن من موسى هذا الحاطر الجريء ، الذي نما إلى الوليد ، فاشتد قلقه على المسلمين ، وقد رأيناه حريصاً على سلامتهم عند فتح الأندلس ، ورأى أن ما هم به موسى فيه غرر بالمسلمين ، فاستدعاه لذلك إلى دمشق . أما استيلاء موسى على أربونة وصخرة إبنين وغير ذلك ، وارتياح قارلة ملك الفرنجة بالأرض الكبيرة (إفرنجة أوغالة) ، وانزعاجه لانبساط المسلمين ، وقيامه بمهاجمتهم ثم هزيمته لهم ، فأمر بعيد عن الحقيقة ، فإن شارل مارتل لم يكن قد ظهر بعد ^(٣) ، كما أنه لا يعقل أن يقوم موسى بكل هذه الفتوحات في فترة قصيرة للغاية لا تتجاوز ثلاثة شهور ، وعلى هذا فإننا نستنتج بأن ما ذكره ابن حيان بشأن اقتحام موسى لإفرنجة ، واكتساحه أراضيها حتى ليون ، فأمر لا يقبل حتى مجرد الاحتمال ، وكل ما في الأمر — على ما نعتقد — أنه خلط بين أعمال موسى من فتح قطالونية ، ووصول عسكره إلى قرشونة ، وبين أعمال عنبسة بن سحيم الكلبي ، وعدرة ابن عبد الله وغيرهم من ولاة الأندلس .

بأمر موسى وطارق ورسولا الخليفة بالعودة إلى جنوب الأندلس ، مع من آثار من جنود المسلمين الاستقرار في المواضع التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، فوصلوا إلى طليطلة ، ومنها اتجهوا إلى قرطبة فأشبيلية . وفي هذه المدينة الأخيرة ،

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ — المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٥٩ .

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٩ . (٣) Codera, op. cit. p. 108 .

استخلف موسى: ابنه عبد العزيز في ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، بعد أن اختارها له عاصمة للأندلس ^(١) ، وترك معه حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع وزيراً له ومعيناً ^(٢) . وعبر القائدان الزقاق إلى إفريقية يحملان معهما الغنائم ويجران خلفهما موكباً طويلاً من قواد المسلمين ، ورؤساء القوط المغلوبين . واستخلف موسى ابنه الأكبر عبد الله على إفريقية ، وابنه مروان على طنجة والوسوس . ثم مضى إلى دمشق ماراً بمصر ومعه مائة رجل من أشرف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب ومواليها ، منهم عياض بن عقبة ، وأبو عبيدة وعبد الجبار ابن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، والمغيرة بن أبي بردة ، وزرعة بن أبي مدرك ، وسليمان بن بحر ، كما خرج معه من البربر مائة رجل ، منهم أبناء كسيلة وملك السوس الأقصى ، وملك قلعة أوساف ، وملك ميورقة ومنورقة ^(٣) . وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان مريضاً ، فكتب أخوه سليمان إلى موسى يأمره بالإبطاء رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى ، فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم ، فيعظم بذلك مقامه عند الناس ، فأبى موسى أن يفعل ذلك ، وجد في السير حتى قدم دمشق والوليد حي ، فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد إلا يسيراً بعد قدوم موسى ثم توفي ، وأفضت الخلافة إلى سليمان ، فحقد على موسى ، وصب عليه جام غضبه ^(٤) . وقيل إن موسى وصل بعد وفاة الوليد ، فقدم على سليمان حين استخلف ، وكان منهجراً عليه ، إذ كان طارق ومغيث قد سبقاه إليه ، ورمياه بالحياة عند سليمان ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة ، فعزله سليمان عن أعماله ، وأقصاه ، وحبسه وأغرمه غرمًا عظيماً ^(٥) . ولكننا نستبعد صحة هاتين الروایتين ، ولا يمكننا أن نصدق أن

(١) ابن القوطية ص ١٠ - أخبار مجموعة ص ١٩ - ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٣٠ . وفي أسباب اختيار موسى لمدينة إشبيلية ، يقول صاحب أخبار مجموعة : « وهي مدينة على نهر عظيم لا يخاض ، فأراد أن تكون فيه سفن المسلمين ، وتكون باب الأندلس » . ويقول المقرئ : « وأقره بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر ، نظراً لقربه من مكاره الحجاز » نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠ .

(٣) نص ابن قتيبة من كتاب الامامة والسياسة ص ١٤١ - ١٤٣ .

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٢ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٢٠ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٢ .

يعاقب سليمان تابعياً جليلاً كوسي بن نصير، أسس ملكاً من علمه ، وقضى سني حياته مجاهداً في سبيل الله ، لمجرد قالة ظالمة أو وشاية في حقه ، ولو كان سليمان قد فعل ذلك ، لكان أولى به أن يعاقبه بعزل أبنائه الثلاثة عن المغرب والأندلس ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . حقيقة أن عبد العزيز موسى لقي مصرعه بإشبيلية على أيدي كبار الجند ، ولكن لم يكن لسليمان يد في مقتله ، على الرغم مما زعمه المؤرخون من أنه كان المتسبب في قتل عبد العزيز ، وأنه أمر بطرح رأسه أمام موسى ابن نصير ^(١) ، ذلك لأن سليمان غضب لمقتل عبد العزيز وأرسل إلى الأندلس عاملاً من قبله للتحقيق في مقتل عبد العزيز بن موسى والقبض على قتلته وإرسالهم إليه ^(٢) .

ونعتقد أن سليمان أخذ على موسى بعض الهفوات ، وأنه كان حانقاً عليه إما لأن مغيثاً الرومي قد شكاه إليه ^(٣) أو لأنه قد بلغه سعي موسى لفصل المغرب والأندلس عن الخلافة بعد أن ولي أولاده الثلاثة عليهما ، وضرب عملة باسمه ، وأياً كانت أسباب حنقه عليه ، فلم يكن ذلك شبيهاً في مفاقته له العقاب الشنيع الذي يتحدث عنه المؤرخون ، والواقع أن سليمان عفا عن موسى بفضل وساطة عمر ابن عبد العزيز ، واستبقاه إلى جواره رحمة بشيخوخته ، إذ كان موسى قد قارب الثمانين ، بدليل أنه كان يخرج معه في تزهاته ^(٤) ، وأنه حجج معه إلى مكة سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) حيث توفي موسى هناك ^(٥) . وكيفما كان الجزاء الذي لقيه

(١) ابن قتيبة ص ١٧٤ .

(٢) يقول صاحب أخبار مجموعة: « ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه فولد إفريقية عبد الله بن يزيد لقريش ، وإلى وإلى إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية ، وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة ، وزباد بن النابغة من قتل عبد العزيز بأن يتشدد في ذلك وأن يقفلهما إليه ، ومن شاركهما في قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فصرح عبد الله بن يزيد وإلى إفريقية على الأندلس ، الحر بن عبد الله الثقي ، وأمره بالنظر في شأن قتل عبد العزيز » انظر أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) لا شك أن خلافاً حدث بين موسى ومغيث عند عودتهما إلى المشرق لأسباب ، منها أن موسى كان يعمل على إحاطة نفسه بهالة من المجد ، باعتباره بطل المغرب والأندلس ، وأنه أخرج مغيثاً من بلاط قرطبة ووجهه داراً أخرى بغربي المدينة ، وأن مغيثاً كان يطمح في ولاية الأندلس أو العودة إليها على الأقل ، وقد نجح في العودة إليها وأنزل بقرطبة بني مغيث (انظر المقرئ ج ٤ ص ١١ وما يليها) .

(٤) ابن قتيبة ص ١٧٨ . (٥) نفس المرجع ص ١٨٤ .

موسى على يدى سليمان ، فلقد ظلمه الخليفة بإهماله له ، وعدم وفائه له بقدر
ما يستحقه من مكافأة ، فقد أثبت موسى بفتوحاته فى المغرب والأندلس أنه من
أعظم قواد المسلمين ، وإليه يرجع الفضل فى نشر بدور الإسلام فى العالم الأوروبى
الوسيط .

عبد العزيز بن موسى واستكمال فتح الأندلس

لم يفتح المسلمون جميع أنحاء شبه الجزيرة، فقد بقيت في البلاد مناطق لم تصل إليها جيوش الإسلام بعد، كما تألفت في بعض الأقاليم مراكز للمقاومة القوطية ضد المسلمين، الذين أخذوا يقدون إلى الأندلس من بلاد المغرب والمشرق، واقتضى الأمر إخضاع هذه المراكز وإنعام فتح الأندلس. وأخذ عبد العزيز على عاتقه هذا العبء. ولقد ورث عبد العزيز عن أبيه صفات العزم والقوة، وكان مثل أبيه قائداً مظفراً، شارك في فتح الأندلس، وقام باسترداد أشبيلية بعد أن انتفض فيها أهلها ومن انضم إليهم من بقايا جيش القوط القادمين من باجة وأكشونة ولبلة.

وما كاد عبد العزيز يتولى إمارة الأندلس في ذي القعدة سنة ٩٥ هـ (سبتمبر سنة ٧١٤ م)، حتى قام بحملة لاستكمال فتح بلاد غرب الأندلس (البرتغال حالياً). إلا أن المصادر العربية لم تزودنا بمعلومات عن هذه الحملة^(١). ولكن سافداً يرجح أن عبد العزيز قام بهذه الحملة قبل رحيل أبيه إلى دمشق، ويقول: «يبدو لي - حسب ما أعتقد - أنه بينما كان موسى وطارق يفتحان البلاد من سرقسطة عبر قشتالة القديمة، لم يكن عبد العزيز الذي كان قد وصل إلى باجة سنة ٧١٣ عطلا، إذ أنه شغل عام ٧١٤ بالزحف نحو يابرة Evora، وشنترين Santarem، وقلمريه Coimbra، وظل متجهاً إلى أقصى الغرب بقصد ملاقاته

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 30. فيما يختص بأقوال المؤرخين العرب عن هذه الحملة فهو قليل لا يفيدنا شيئاً، فكل ما قاله ابن القوطية أن عبد العزيز «أقام يفتح ما بقى عليه من مداين الأندلس» ص ١٠ أما صاحب أخبار مجموعة فأشار إلى أنه «افتتح في ولايته مداين كثيرة» ص ٢١. وقال المقرئ: «فضبط سلطانها، وضم نشرها، وسد ثغورها»، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقى على أبيه موسى منها» ج ١ ص ٢٦٣.

يذكر ابن قتيبة: أن عبد العزيز بن موسى غزا بالناس حتى بلغوا أرض القوطيين «ص ١٣٨

الفرق الإسلامية الأخرى في استرقة Astorga «^(١) ويستند سافدرا في رأيه هذا على عبارة وردت في الرسالة الشريفة ، ونصها : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيا فهم ، وتصيرت ملكاً لهم إلا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها ، إلا ثلاثة بلاد وهي شنترين وقلنبرية في الغرب وشية في الشرق ، وسائر البلاد خمس وقسمت بمحض التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير »^(٢) . ومعنى هذا أن عبد العزيز افتتح شنترين وقلنبرية صلحاً وذلك أثناء وجود أبيه بالأندلس . ثم وجه عبد العزيز نظره بعد ذلك إلى جنوب شرق الأندلس ، وهو من المناطق التي أفلتت من موجات الفتح الإسلامي ، فطارق دق إسفيناً في البلاد من الوسط ، وموسى افتتح غرب الأندلس وشماله ، أما شرق الأندلس وجنوبه الشرقي فكان من نصيب عبد العزيز بن موسى . فبادر عبد العزيز بافتتاح مالقة وغرناطة عنوة ، وضم يهودها إلى القصبه^(٣) . ومن هناك اتجه عبد العزيز نحو شرق الأندلس ، فدخل كورة تدمير (إقليم مرسية) وحاضرتة أوريولة Orihuela ، وسميت هذه الكورة كذلك ، نسبة لملكها تدمير ابن عبدوش Teodomiro B. Ergobado . وقصة فتح عبد العزيز لتدمير قصة شيقة يرويها مؤرخو العرب ، فلقد سار عبد العزيز بقواته إلى فحس أوريولة ، وهزم تدمير وأصحابه في قرطاجنة^(٤) ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، يقتلونهم كيف شاءوا ، حتى نجا تدمير في شرذمة من قلال أصحابه إلى حصن أوريولة ، حاضرة الكورة ، وكانت مدينة غاية في المنعة والتحصين وكان تدمير مجرباً بصيراً ذا هبة ، فلما رأى قلة أصحابه ، أمر النساء فنشرن شعورهن ، وأمسكن القصب بأيديهن ، وظهرن على السور في زى القتال ، متشبهات بالرجال ، « وتصدر قدامهن في بقية أصحابه ، يغالط المسلمين في قوته

(١) Saavedra, op. cit. p. 127.

(٢) الرسالة الشريفة إلى الأقطار الأندلسية ص ٢٠٠ .

(٣) ينسب الرازي فتح مالقة وغرناطة إلى جيش وجه طارق بن زياد (المقرى ج ١ ص ٢٤٧) ، بينما يذكر المقرى أن موسى هو الذى أرسل ابنه عبد الأعلى إلى غرناطة ومالقة وكورة رية وتدمير ، فافتتحها جميعاً (المقرى ج ١ ص ٢٥٧) . غير أننا لا نرى هذا الرأى ، فقد ثبت أن عبد العزيز بن موسى هو الذى سار إلى تلك المنطقة وافتتحها ، وقد حفظ لنا نص معاهدته مع ملك تدمير .

(٤) الحبيرى ، صفة جزيرة الأندلس ص ١٥١ .

على الدناغ عن نفسه ، فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور^(١) .
ثم هبط من السور ، وتنكر في زي رسول ، فاستأمن ، فأمن ، ثم فاوض
عبد العزيز في الصلح ، فعقده له ولأهل بلده على ما أحب ، وفتحت تدمير
صلحاً . فلما انتهى من عقد الصلح ، أدخل المسلمين المدينة ، فلم يروا فيها جيشاً
للدفاع ، فندموا على تسرعهم . ونص معاهدة الصلح ، يتضمن اعترافاً من جانب
المسلمين باستقلال تدمير في مدائنه السبعة ، التي وردت في كتاب الصلح ،
ما دام يحافظ على حقوق المسلمين ويدفع لهم الجزية . ويبدو أن شروط الصلح
كانت تسري فقط في حياة الأمير ، إذ لم يرد في كتاب الصلح نص يشير إلى
استمرارها على أولاده من بعده ، ويستبعد الدكتور مؤنس أن يكون تاريخ
عقد كتاب الصلح في رجب سنة ٩٤ هـ (أبريل سنة ٧١٣ م) ويعتقد أنه
حدث في أوائل سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) ، لأن موسى لم يغادر الأندلس إلا في
ذي القعدة من سنة ٩٥ هـ^(٢) (٧١٤ م) ، وهو في ذلك يتفق مع ما ذكره سافدرا^(٣) .
لم تقتصر فتوحات عبد العزيز بن موسى على هذا الحد ، فقد ذكر دون
فرنسكو كوديرة ، أنه طالع مخطوطاً عربياً^(٤) جاء فيه أن عبد العزيز خرج مع
الناس في حملة حتى بلغ أربونة . ويرى الأستاذ المذكور أن هذه هي أول مرة
يُرد فيها خبر صريح عن وصول المسلمين حتى أربونة ، وهو خبر له دلالة ، إذ أنه
قبل أن تصل الجيوش إلى أربونة ، لابد من افتراض سقوط برشلونة وجرنده Gerona
بدون مقاومة ، أو بعد مقاومة ضعيفة ، ويضيف دون فرنسكو أن صاحب هذا
الخبر لا يحدد تاريخاً ولكنه - أي دون فرنسكو - يعتقد أن سقوط جرنده وبرشلونة
حدث بين عامي ٩٥ ، ٩٧ هـ (٧١٣ - ٧١٦ م)^(٥) . وذكر سافدرا ، مستنداً

(١) انظر نص الرازي في نقح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ - أخبار مجموعة ص ١٣ - ابن عذاري

ج ٢ ص ١٦ - الحبيرى ، ص ١٥٢ .

(٢) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ١١٧ .

(٣) Saavedra, op. cit. p. 192.

(٤) هذا المخطوط في مكتبة الجزائر رقم ١٨٣٦ ، ورقة ١٦٢ ظ .

(٥) Francisco Codera; Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominación Musul-

mana, en Estudios Criticos de la Historia Arabe, p. 293.

على ابن القرضى ، أن نعمان بن عبد الله بن العمان الحضرمي ، ومحمد بن حبيب المعافري عاداً من الأندلس إلى دمشق ، فسألها سليمان بن عبد الملك عن حوائجها ، فسأله المعافري حوائج فقضيت ، وقال النعمان : حاجتي أن تردني إلى ثغرلي ، ولا تسلي عن شيء ، فاستشهد في أقصى ثغور الأندلس . ويضيف ابن القرضى ، أنه خرج إلى الأندلس غازياً وقتله الروم بأرض الأندلس^(١) ، ونستنتج من ذلك أن النعمان المذكور حارب في أقصى شمال إسبانيا بعد أن أذن له الخليفة سليمان بالعودة للجهاد ، ولا بد أن يكون ذلك قد تم بعد عودة موسى من الأندلس وذلك في ولاية عبد العزيز ابن موسى ، مما يدل قطعاً على أن المسلمين استأنفوا القتال مع البشكنس . ويستند سافدرا كذلك على نص ورد في كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن القرضى ، بأنه وجدت شهادة على بن رباح ، وحش بن عبد الله الصنعاني في عهد بنبلونة^(٢) . ولا كانت بنبلونة Pampluna قد سقطت في أيدي المسلمين قبل عام ٧١٨ م^(٣) وهو عام وفاة حش ، فيحتمل أن يكون فتحها قد تم في عهد عبد العزيز ، لأن موسى كان قد أوغل في بلاد البشكنس «حتى أتى قوماً كالبهاثم»^(٤) ، وذلك لأنهم كما يقول الحميري «يتكلمون بالبشقية لا يفهمون»^(٥) ويقصد بهم الحميري أهل بنبلونة.

• • •

وهكذا استكمل عبد العزيز بن موسى فتح الأندلس ، واتجه إلى تنظيم البلاد ، وإدارة شئونها ، واستقر في جانب من كنيسة يقال لها ريينة^(٦) أو رفينة^(٧)

(١) ابن القرضى : كتاب تاريخ علماء الأندلس ، نشره كوديره ، مدريد سنة ١٨٩١ - ١٨٩٢

ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٩ ، ٢٥٦ .

(٣) توفي حش الصنعاني سنة ١٠٠ هـ (أى ٧١٨ م) . انظر جذوة المقتبس ، ص ١٩١ - ابن

القرضى ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٢٤ - الإمامة والسياسة ، ص ١٣٣ .

(٥) الحميري ، وصف جزيرة الأندلس ص ٥٦ .

(٦) ابن القوطية ص ١١ . يقول ابن القوطية : « . . . وكان ذلك بمسجد ريينة المشرف على

مرج إشبيلية ، إذ كان ساكناً في كنيسة ريينة وإذ كان فكح امرأة من القوط تسمى أم عاصم ، كان يسكن معها في هذه الكنيسة ، وكان قد ابتنى على بابها المسجد الذي قتل فيه ، وكان دمه فيه على عهد قريب . . . »

(٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣١ .

Santa Rufina ، وأقام في جانب آخر من هذه الكنيسة مسجداً هو مسجد رفينة^(١) ، وهو نفس المسجد الذي سمي فيما بعد باسم مسجد رابطة عتبر أو رابطة باب عتبر^(٢) . ويبدو أن العلاقة بين الأمير عبد العزيز وبين كبار رجال الجيش كانت سيئة للغاية ، لأشياء نقموها عليه^(٣) ، فلقد ذكروا أن عبد العزيز بن موسى تزوج أم عاصم ، أرملة لذريق ، وكانت تسمى أيلة^(٤) Egilona ، وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباعت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن تزوجت الأمير عبد العزيز^(٥) ، ويبدو أنها كانت على درجة كبيرة من الجمال والذكاء بحيث استطاعت أن تفنن زوجها ، وتملك زمامه ، ولعلها كانت تهدف من وراء ذلك إلى استرجاع مكانتها القديمة كملكة للأندلس بعد أن قتل الفاتحون زوجها لذريق ، وفي هذه الحالة يمكننا أن نفترض أنها حرصت زوجها عبد العزيز على الاستقلال بالأندلس ، وتأسيس دولة يكون هو ملكها . وقد تكون قد نجحت فيما سعت إليه ، ولقيت من عبد العزيز تجاوباً خاصة بعد أن بلغته الأنباء بما تعرض له أبوه من سوء معاملة الخليفة سليمان بن عبد الملك له ، وهذا يفسر ما تردد في كتب التاريخ بما عزم عليه عبد العزيز من خلع دعوة بني مروان ، واستبداده بأمره ، لما بلغه ما نزل بأبيه^(٦) . وهناك روايات تشير إلى أن زوجة عبد العزيز أقنعت بوضع التاج على رأسه تشبهاً بالملوك ، وأنها دفعته إلى التحايل على إرغام الناس على الانحناء له بطريق غير مباشر ، فاتهمه

(١) ابن القوطية ، ص ١١ - فتح الأندلس لأورخ مجهول ص ٢٢ .

(٢) ابن الزبير ، كتاب صلة الصلة ، نشره ليث بروثنسال ، باريس ١٩٣٨ ص ٣٩ - ابن الأبار ، التكلة ، ملحق نشره جنثال بلنيس إلى طبعة كوديرة ، في Miscelanea ، مدريد ١٩١٥ ص ٤٢٢ .

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣١ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٠ - المقرئ نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٦٣ .

(٥) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٣ .

(٦) ابن عذاري ج ١ ص ٤٧ ، ج ٢ ص ٣١ . وذكر ابن قتيبة في كتابه الإمامة والسياسة ، أنه « لما بلغ عبد العزيز ما فعل سليمان بموسى ، تكلم بكلام خفيف حملته عليه حمية لما صنع بموسى على بلاته ، فتميت إلى سليمان ، فخاف أن يخلع » . ص ١٧٠ .

الناس بالتنصر وقتلوه^(١) . وأغلب الظن أنها ملفقة ، وضعت خصيصاً لتبرير مقتل عبد العزيز ، ولكنها تتضمن معنى لا يمكن أن نغفله ، وهو ادعاء عبد العزيز الملك ، والتظاهر به ، وسواء كانت هذه الروايات صحيحة أو ملفقة ، فإنها تعكس أمراً واحداً ، وهو أن الناس بدأوا يشكون في نوايا عبد العزيز نحو الخلافة الأموية ، وإن كان الاتهام الذي وجه إلى عبد العزيز في هذه الروايات ، يصطبغ في الظاهر بصبغة دينية هي التنصر .

ولابد أن عبد العزيز بن موسى قد أظهر أمام أحد قواده شيئاً من الامتناع على تصرف الخليفة سليمان نحو أبيه ، أو أنه اضطر رغماً عنه إلى التنفيس عن نفسه « بكلام خفيف^(٢) » أساء إلى الخليفة ، فتناقل الناس هذا الكلام محرراً مشوهاً ، فوصل إلى رؤساء الجند وعلى رأسهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ، الذي كان موسى قد أقامه وزيراً لابنه ، وأيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ، وزيايد بن عذرة البلوي ، وغيرهم . فأجمعوا على قتله غيرة على الخلافة الأموية^(٣) ، ثم أبلغوا الخليفة بمقتله بسبب خروجه عليه ، بعد أن أقاموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي مؤقناً حتى أرسل إليهم عبد الله بن يزيد ،

(١) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن زوجة عبد العزيز قالت له : « إن الملوك إذا لم يتوسلوا فلا ملك لهم . فهل لك أن أعمل لك مما بقى عندي من الجوهر والذهب تاجاً . فقال لها : ليس هذا في ديننا . فقالت له : من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه في خلوتك ، فلم تزل به حتى فعل . فبينما هو يوماً جالس معها ، والتاج عليه ، إذا دخلت امرأة كان قد تزوجها زياد بن النابغة الحميري ، من بنات ملوكهم ، قرأت التاج على رأسه ، وقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً . فقال : ليس في ديننا استحلال لباسه ، فقالت فودين المسيح إنه لعل إمامكم ، فأعلم بذلك زياد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ثم تحدثا به على خيار الجند ، فلم تكن له همة إلا كشف ذلك حتى رآه عياناً ، ورآه أهله صدقاً ، فقالوا تنصر ، ثم هجموا عليه فقتلوه في عقب ثمان وتسعين . » (أخبار مجموعة ص ٢٠ - ابن عذاري ج ٢ ص ٣١) . وذكر المقرئ أنها قالت له : « لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق أهل مملكته ، فقال لها : إن هذا حرام في ديننا ، فلم تقنع به بذلك ، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك مما يزرى بقدره عندها ، فاتخذ باباً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليه الناس فينحتون ، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له ، فرضيت بذلك ، فبنى الخبر إلى الجند » المقرئ ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ص ١٧٠ .

(٣) وقد يكونوا قد قتلوه بدافع من النيرة والحسد لما صار إليه أولاد موسى من تفوق وارتفاع مكانة ، فقتلوه واختلقوا هذه الروايات كذباً ، وقد حقق سليمان في قضية عبد العزيز فوجد أنه بريء مما نسبوه إليه « فألقى ذلك بالآلة » وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة « ابن قتيبة ، ص ١٧٦ .

والى إفريقية ، والياً من قبله هو الحر بن عبد الرحمن الثقفى سنة ٩٩ هـ . أما ما قيل من أن سليمان هو الذى دبر قتله ، وهو الذى دس عليه من قتله ^(١) وقدم برأسه عليه فأمر بعيد الاحتمال ، فلو كان سليمان هو المدبر لهذه الجريمة ، لكان قد قد بادر بتنصيب وال مكانه ، ولما مكث أهل الأندلس شهوراً لا يجمعهم وال ، حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمى ^(٢) ، ولما شق على الخليفة نبأ مقتله ، فأمر والى إفريقية عبد الله بن يزيد بالتحقيق فى مقتله ، والقبض على قتلته وهم حبيب بن أبى عبدة ، وزيد بن النابغة ، ومن شاركهما فى قتله ^(٣) ، ولما أسف على قتله بعد أن ثبت له براءته مما اتهم به ^(٤) .

* * *

وعلى الرغم من قصر عهد عبد العزيز بن موسى ، فقد كان من أعظم ولاية الأندلس ، فقد كان له الفضل الأعظم فى تثبيت دعائم السيادة الإسلامية فى شبه جزيرة أيبيريا ، واستكمال فتحها . كما كان مصلحاً ، استطاع أن يضبط سلطان الأندلس ويقضى على الثورات فيها . وهو أول من نظم البلاد من الناحية الإدارية ، ومهد لنقله الإسبان إلى الاستعراب ، وضرب المثل الأول على ذلك بزواجه من قوطية هى أم عاصم ، أرملة للذريق .

(١) ابن القوطية ، ص ١١ - ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ - ابن قتيبة ، ص ١٧٠ - ١٧٣ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ .

ويقول ابن القوطية : « وكان قتله فى آخر سنة ثمان وتسعين ، ومكثوا سنين لا يجمعهم وال ، إلا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمى (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ١١ وما يليها) .

ويقول صاحب أخبار مجموعة : « ثم اجتمع أهل الأندلس بعد أن أقاموا سنين لا يجمعهم وال ، على ابن حبيب اللخمى وكان رجلاً صالحاً يؤمهم لصدقاتهم ، فلما أطال بهم ولوه أمرهم ، وحولوا السلطان إلى قرطبة فى أول سنة تسع وتسعين ، وكان مقتل عبد العزيز بن موسى فى عقب ثمان وتسعين » . ص ٢١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٤) ابن قتيبة ، ص ١٧٦ .

ملحق - نص كتاب الصلح الذي صالح المسلمون عليه تدمير

(من كتاب « وصف جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار

في خبر الأقطار » لابن عبد المنعم الحميري^(١) . ص ٦٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير ،
لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح ، وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله
عليه وسلم ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ، ولا يتزع من ملكه ، وأنهم
لا يقتلون ولا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهوا على
دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ولا يتزع عن كنائسه ما يعبد ، وذلك ما أدى
الذي اشترطنا عليه ، وأنه صالح على سبع مدائن :

أوريولة (Orihuela) وبلتنة (Baltana) ولقنت (Alicante) ومولة (Mula) وبلانة
(Villena) ولورقة (Lorca) وأله (Ello) ، لا يأوى لنا أبقاً ، ولا يأوى لنا عدواً ،
ولا يخيف لنا آمناً ، ولا يكتم خبر عدو علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل
سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسطي
عسل ، وقسطي زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . وكتب في رجب سنة ٩٤ من
الهجرة .

(١) وردت هذه الوثيقة في بنية الملتنس في تاريخ رجال الأندلس للضبي ، ص ٢٥٩ وفيها بعض

التحريف .

الفصل الثالث

عصر الولاة

- ١ - عناصر السكان : أ - المسلمون (العرب والبربر والموالي والمسالمة والمولدون)
ب - العجم أو المستعربون .
ج - اليهود .
- ٢ - عصر الولاة والتوسع الإسلامي فيما وراء البرتات .
- ٣ - النزاع بين العرب والبربر .
- ٤ - تحول النزاع بين البلديين والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمانية .
- ٥ - بدء حركة الاسترداد المسيحي .

الفصل الثالث

عصر الولاة

١

عناصر السكان

تم فتح المسلمين للأندلس ، واستقرت أقدامهم في أرضها ، فتوزعوا مناطق سكناها فيما بينهم ، وشهدت الأندلس في هذا العصر الذي تبع الفتح الإسلامي مباشرة تنوعاً في العناصر التي ضمتها إسبانيا الإسلامية من حيث الجنس والعقيدة والثقافة ، فلقد ضمت الأندلس مع العرب الفاتحين (البلديون) ، والعرب الوافدين (الداخلون) ، جماعة من الإسبان المسالمة ، أي الذين دخلوا في الإسلام ، والعجم الذميين أو المستعربين ، وهم الذين بقوا على دينهم في ظل الحكم الإسلامي ثم طائفة المولدين ، وهم نتاج التزاوج بين رجال العرب ونساء الإسبان ، ثم البربر الذين دخلوا مع طارق أو الذين هاجروا من بلاد المغرب ^(١) ، إما بحثاً وراء المغنم ، أو سعياً للاستقرار ، ثم طائفة اليهود .

أولاً - المسلمون :

١ - العرب :

دخلوا الأندلس على موجات متتابعة أو طوالع ، بالإضافة إلى من هاجر إليها من أهل الشام وغيرهم من العرب على أثر انتصار طارق على القوط في موقعة وادي

(١) ما كادت أنباء الانتصار الذي أحرزه جيش المسلمين في وادي لكّة ، والمغنم التي ظفروا بها تصل إلى مسامع أهل بر العدة ، حتى أقبلوا إلى الأندلس من كل وجه « وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر » . انظر المقرئ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

لكة ، وبعد أن استقرت أقدام المسلمين في الأندلس ، وتام فتحها على يدى موسى بن نصير وولده عبد العزيز ^(١) .

وأول هذه الطوابع طالعة موسى بن نصير (في رجب سنة ٩٣ هـ) ، وكانت تتألف من ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر ^(٢) ، وأغلبهم من قريش والعرب ووجوه الناس ، ^(٣) ثم طالعة الحر بن عبد الرحمن الثقفي (في ذى الحجة سنة ٩٧ هـ) ، إذ قدم والياً على الأندلس ومعه « أربعمئة رجل من إفريقية ، فمنهم أول طوابع الأندلس المعدودين » ^(٤) . وكان أغلب عرب هاتين الطالعتين من إيمانيين ، وسموا بالبلديين أو أهل البلد ^(٥) ، لأنهم استقروا في بلاد الأندلس ، واعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها

ثم تأتي طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري في سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) ، وأغلبهم من العرب القيسيين ، ممن تحصنوا بسبته بعد هزيمة البربر لهم في واقعة الإشراف ، واضطر والى الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري إلى الاستعانة بهم ، على إخماد ثورة البربر في الأندلس ، فعبروا إلى الأندلس . ويذكر ابن القوطية أن عدد جنود هذه الطالعة كان يقرب من عشرة آلاف ، منهم ألفان من الموالى ، وثمانية آلاف من العرب ^(٦) ، وقد سمي عرب هذه الطالعة بالشاميين تمييزاً لهم عن البلديين . ولقد بدأ النزاع ينشب بين الشاميين والبلديين منذ أن أتم الشاميون مهمتهم في الأندلس ، وأرادوا الاستقرار فيها . ثم تحول هذا النزاع إلى صراع بين العصبية اليمنية والعصبية القيسية ، على نحو ما ستراه فيما بعد .

١ ثم وفدت على الأندلس الطالعة الثانية من الشاميين ، وهم ثلاثون رجلاً ، في صحبة أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي ^(٧) .

(١) المرجع السابق ص ٢٧١ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ص ٩٦ - الحميري ، جذرة المقتبس ص ٥ - ابن خلطون عن المقرئ ج ١ ص ٢١٨ .

(٣) الرسالة الشريفة ص ١٩٢ .

(٤) الرازي عن المقرئ ، ج ٤ ص ١٣ - فتح الأندلس لمؤرخ مجهول ص ٢٢ .

(٥) ابن القوطية ، ص ١٩ وما يليها - أخبار مجموعة ص ٤٤ ، ٤٦ .

(٦) ابن القوطية ، ص ١٥ .

(٧) ابن القوطية القرطبي ص ١٩ .

وهكذا أخذت الأندلس تموج بمن وفد عليها من العرب ، واستقر هؤلاء في المناطق الحصينة التي تفيض بالخيرات ، وكونوا مراكز قوية للعروبة ، وهي نواة الأرستقراطية العربية ، التي ظلت غالبية على الأندلس حتى نهاية دولة الإسلام ، وكانوا ينزلون في عمائر وقبائل وبطون وأفخاذ ، حتى قطع المنصور بن أبي عامر ذلك بقصد تشييتهم ، « وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء »^(١).

وكانت جماعات البغمية تفوق جماعات العدنانية في الأندلس عددا وقوة ، فقد ذكر المقرئ أنهم « الأكثر بالأندلس ، والملك فيهم أرسخ ، إلا ما كان من خلفاء بني أمية »^(٢) . ونستطيع أن نستنتج مما ذكره ابن غالب الأندلسي في « فرحة الأنفس »^(٣) ، وابن حزم في « جمهرة أنساب العرب »^(٤) ، أن المنازل التي نزلها العرب في سائر أنحاء الأندلس كانت تتميز بأنها أخصب مناطق البلاد ، وأطيبها ، فقد نزلوا في مدن السهول ، وعلى الأخص في سهول وديان نهر الوادي الكبير مثل فحص إشبيلية وقرطبة واستجة ، وفي الفحوص الخضراء لوادي شنيل ووادي تاجة ، ووادي إبرة ، وفي مروج شرق الأندلس^(٥) ، وفي السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية ، ففي طليطلة استقر الوقشيون الكثانيون والأنصار ، وفي إشبيلية استقر بنو زهرة وبنو قيس بن عيلان وبنو عباد والباقي اللخميون ، وبنو هوازن ابن عكرمة ، والبلويون من قضاعة ، والحضرميون من حضرموت ، وفي أوريولة بنو هذيل بن مدركة ، وفي بلنسية بنو بكر بن هوازن ، وفي وادي آش بنو أسد ابن ربيعة ، وفي غرناطة بنو عطية بن ربيعة ، وبنو عبد السلام من خولان ، وبنو أضحى من همدان ، وبنو جودي من هوازن ، وبنو القليعي من أزم ، وبنو الأحمر من سعد بن عبادة ، وفي قرطبة بنو حمديس من تغلب ، وبنو سراج من مذحج ، وبنو الأصبح من كهلان ، وبنو جهور من تغلب ، والحضرميون ، وفي أوبنة ، وشلطيش بنو بكر بن وائل ، وفي سرقسطة بنو عذرة وبنو الخزرج ، وفي شقورة

(١) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٧٤ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٧١ - ٢٧٩ .

(٤) أبو محمد علي بن حزم القرطبي ، جمهرة أنساب العرب ، نشره ليثي بروثسال ، القاهرة ١٩٤٨

(٥) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 84. (٥)

بنو خافق . . . إلى آخره .

وكان العرب يعيشون كالسادة الرومان والقوط ، إذ كانوا يمتلكون إقطاعيات كبيرة ، يكلون أمر زراعتها ورعايتها إلى الفلاحين الإسبان أو المولدين من العامة ، بينما يقيمون في ضيعاتهم أو مجاشرهم أو منياتهم بالقرب من المدن ، ولذلك كانوا يتمتعون بحياة الترف والنعم ، وكان عرب بلد الأندلس « أشبه بالملوك »^(١) في حياتهم عند ما قدم عليهم عرب الشام لمساعدتهم في إخضاع بربر الأندلس . كذلك اتخذ العرب الذين استقروا في المناطق الزراعية بعيداً عن المدن حصوناً أو أبراجاً للاحتماء فيها ، مثل حصن مراد الواقع بين إشبيلية وقرطبة ، وقلعة بني سعيد المعروفة بقلعة يحصب وتقع في إقليم غرناطة ، ومثل قلعة خولان الواقعة بين الجزيرة الخضراء وإشبيلية ، وقلعة جابر التي تقع شمال إشبيلية ، وقلعة أيوب التي أقامها أيوب بن حبيب اللخمى في الثغر الأعلى ، وقلعة رباح الواقعة بين قرطبة وطليطلة ، كما أن بعض العرب أقاموا لأنفسهم ضياعاً سميت بأسمائهم ، مثل منزل همدان ، بالقرب من غرناطة ، ومنزل طيء قبل مرسية ، ودار بلي شمال قرطبة .

ب - البربر :

لعب البربر دوراً هاماً في فتح الأندلس ، فقد كان الجيش الذي قاده طارق يتألف كله من البربر ، وما كادت أنباء النصر الذي أحرزه طارق على القوط تصل إلى المغرب ، حتى هرع إلى الأندلس عدد هائل منهم بغية التماس الغنائم أو الاستقرار في هذه البلاد الغنية . وظلت بلاد المغرب مصدراً للهجرات البربرية إلى الأندلس حتى قيام دولة بني أمية ، بل إننا سنرى بعد ذلك كيف أن بعض خلفاء بني مروان يستكثرون من بربر العدو ، ويعتمدون عليهم في جيوشهم ، وقد زودنا ابن خلدون بأسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق ، الذي دخل الأندلس ، وهي مطغرة ، ومديونة ، ومكناسة ، وهوارة ، وكلها متفرعة من زناتة^(٢) ، ثم يضيف ابن حزم في الجمهرة قائمة بقبائل أخرى

(١) أخبار مجموعة ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ١٠٦ وما يليها .

وفدت إلى الأندلس ، وهي مغيلة ، وملزوزة ، وتقرة ، وأوربة ، ومصمودة^(١) .
ويذكر ابن حزم أن بربر بنو رزين (من مديونة) استقروا في السهلة^(٢) ، وبنى
غزلون (من تيروال) في شاطبة ، وبنى ذى النون (من هواره) في وبدة ، وبنى
الفرج (من مصمودة) في وادي الحجارة . . . إلخ . ويؤكد الأستاذ ليثي بروثنسال
أن هؤلاء البربر استقروا بلا استثناء تقريباً في المناطق الجبلية التي لا يتدر وجودها
في شبه جزيرة أيبيريا ، ويعمل ذلك بأنه لم يكن لديهم الخيار ، لأن العرب
اقتصروا لأنفسهم بأكثر الجهات خصباً ، مثل فحوص الأندلس ، والمنيات
الشرقية ، ولما كان البربر قد قدموا من بلاد جبلية ، فقد كان في مقدورهم التكيف
باستقرارهم خارج المناطق السهلة ، وذلك بشغل الأراضي المرتفعة في هضبة الميزيتا
الوسطى ، وسفوح جبال السيرا ، حيث قاموا بتربية الماشية ، وغرس الأشجار ،
ونعموا بحياة استقلالية ، لا يخضعون فيها للسلادة العرب^(٣) .

غير أن الدكتور حسين مؤنس لا يعتقد أن العرب لم يقتصروا أنفسهم دون البربر
بأحسن الأراضي ، ويرجع أسباب ثورة البربر إلى سوء معاملة العرب لهم ، ويعزز
رأيه بأن العرب الأوائل ، الذين نزلوا الأندلس مع موسى ، تحالفوا مع البربر
الذين دخلوا الأندلس مع طارق وتسموا جميعاً بالبلديين ، ونقر هؤلاء البلديون من
العرب الشاميين ، أتباع بلج ، عند ما أرادوا مشاركتهم في أراضي الأندلس . ويؤكد
الدكتور حسين مؤنس « أن المسلمين الأول الذين دخلوا البلاد ، عرباً وبربراً ،
استقروا حيث نزلوا أو ساروا ، وبلحاً فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحي ،
فأما العرب ، فكانوا يفضلون دائماً البسائط والمنخفضات والنواحي الدفيئة والقليلة
المطر ، في الجنوب والشرق والغرب ، وناحية سرقسطة ، وأما البربر فكانوا في بلادهم
يعيشون في بلاد جبلية عالية ، فآلفوا مثل هذه البلاد في الأندلس ، فاستقروا
فيها باختيارهم^(٤) » .

حقيقة أن بربر الأندلس تحالفوا مع عربها أي البلديين ضد الشاميين ،

(١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ص ٤٦١ - ٤٦٧ .

(٢) نلاحظ أن الاسم الإسباني الحال للسهلة (البرازين Albarracin) محرف من بني رزين .

(٣) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 87.

(٤) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٣٨٨ .

وتعصبوا لعبد الملك بن قطن الفهري وقالوا لأهل الشام : « بلدنا يضيق بنا ، فأخرجوا عنا »^(١) . ولكنهم تحالفوا مع العرب البلديين رغبة في أن تتاح لهم الفرصة لينالوا ثأرهم من الشاميين الذين مزقوا ثورتهم في الأندلس ، « فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى »^(٢) . وحقيقة أن بربر الأندلس ثاروا على العرب في شمال الأندلس وفي جنوبه لسوء معاملتهم لهم ، رغم تفوق البربر على العرب في العدد . ولكن يبدو أن أسباب الخلاف بين العرب والبربر ترجع إلى استئثار العرب بالأراضي الحصينة دون البربر ، وكان البربر لذلك كله يضررون للعرب السوء ، ويتنظرون فرصة مواتية فيثبون عليهم ، « فلما بلغهم ظهور بربر العدو على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا في أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمدائن التي خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس ، إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم ، فإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهجم عليهم البربر »^(٣) . فالثورة البربرية قامت بالذات في المناطق الشمالية من الأندلس حيث كان يقيم العدد الأعظم من البربر ، وقام بها البربر لطرد العرب الذين قادوهم لفتح هذه البلاد الغنية ، وقد كان أبو الخطار عادلا في توزيع جنود الشام على أموال أهل الذمة من العجم وبقى البلديون والبربر على غنائمهم^(٤) . وإذا كان ابن حزم قد ذكر قبائل بربرية في مناطق الأندلس الجنوبية ، فإن هذا لم يحدث إلا في عهد متأخر لأن حركة الاسترداد الإسباني دفعت البربر الذين كانوا يقطنون المناطق الشمالية إلى الهجرة جنوباً ، وترك مناطق الثغور ، فاستقرت جماعات من البربر منذ عصر بني أمية في الغرب وإسترامادور ، وفي المناطق الجبلية التي تمتد بين هاتين المنطقتين نحو الشمال الشرقي حتى جبال وادي رامة ، كذلك كانت المناطق الأندلسية التي أقام بها البربر مناطق مرتفعة مثل مرتفعات قرمونة ، ومدينة شدونة ، وشعاب رندة ، ومالقة ، وسفوح جبل

(١) ابن القوطية ص ١٦ وما يليها - أخبار مجموعة ، ص ٤٢ ، ٤٥ - المقرئ ج ٤ ص ٢٠ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٣ - المقرئ ، ج ٤ ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٨ - ابن عذاري ج ٢ ص ٤٣ .

(٤) ابن القوطية ص ٢٠ .

شليح بغرناطة^(١) . وقد اشتهر من البربر بنو البرزالي الذين نزلوا بقرمونة ،
وبنو اليفرنى برندة ، ، وبنو هرزون في شريش ، وبنو ذى النون بوبلة ، وبنو
رزين بالسهلة وبنو عميرة بشاطبة ، وبنو فرقرن بماردة ومدلين ، وبنو إلياس
بشدونة ، كما نزل آخرون في الثغور أمثال بنو سالم بمدينة سالم ، وبنو عوسجة ،
وبنو صبرون بن شبيب ، وبنو وهب بن عامر ، وبنو عزون ، وبنو نعمان ،
في المنطقة التي تحيط بمدينة سالم ، والتي تضم شتيرية ، والسهلة ، ووادي
الحجارة ، وتمتد هذه الكتلة شرقاً فتشمل تيروال والبونت ، ثم تمتد غرباً فتشمل
مناطق طلييرة وماردة وقورية حتى المحيط عند قلنيرة^(٢) ، كما أن عدداً كبيراً من
البربر كان يسكن مناطق ما وراء الدروب أى شمالى نهر التاجة والدويرة^(٣) .

ولقد لعب البربر دوراً هاماً في تاريخ الأندلس ، إذ يرجع إليهم الفضل
الأعظم في نشر الإسلام والجهاد في سبيله ، كما أنهم اختلطوا بأهل البلاد اختلاطاً
وثيقاً ، وكانوا للعرب أعواناً في تغلغل الإسلام في سائر أنحاء البلاد ، الأمر
الذي يجعل الطابع البربرى ظاهرة واضحة في جنوب الأندلس حتى الوقت الحاضر^(٤) .

٢- الموالى :

دخل عدد كبير من موالى بنى أمية الأندلس في طالعة بلج . إذ كان جيشه
يتألف من ألى مولى وثمانية آلاف من العرب^(٥) ، ومنذ ذلك الحين أصبحوا

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 88.

(٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٨٤ وما يليها - لطفى عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ،
القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٢ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٢٨ . كذلك نفهم ذلك من قوله : « وكانت قد رأت البربر بالأندلس
على أنفسهم ابن . . . وحشدوا من جليقية واستورقة وماردة وقورية وطلبييرة فأقبلوا في شيء لا يحصىه عدد حتى
أجازوا نهراً يقال له تاجة » ص ٣٩ وما يليها .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 88. - حسين مؤنس ، المرجع السابق ص ٣٩٠ .

(٥) ابن القوطية ص ١٥ . وذكر ابن القوطية أن الجيش الذى قدم به كلثوم بن عياض إلى
إفريقية كان يتألف من ثلاثين ألفاً منهم عشرة (ألفاً من . .) بنى أمية ، وعشرون ألفاً من بيوتات
العرب . وظن دون خوليان ريبيرا أن هذه اللفظة الناقصة يمكن ملؤها بكلمة الموالى ، وفسر الدكتور مؤنس
ذلك بأن المراد بنى أمية هؤلاء مواليتهم . رأ هل الشام أو العراق وقارس (انظر فجر الأندلس ص ٣٩٨) .
والواقع أن هذا النص الذى أورده ابن القوطية منقول عن ابن القطان الذى نقل عنه أيضاً ابن عذارى إذ يقول =

يؤلفون حزباً هاماً انضم إليه من لمكان في الأندلس من موالى بنى أمية . وأغلب هؤلاء الموالى من أهل المغرب الذين دخلوا في ولاء بنى أمية أو عمالهم ، ومنهم بنو الخليج وبنو وائسوس ، وبقية الموالى من المشرق ، فمنهم دمشقيون ، وأردنيون ، وقنصريون ، وعراقيون ، وفرس .

وازداد عدد الموالى في الأندلس بعد دخول بلج الأندلس وأصبحوا يؤلفون طائفة قوية تعرف بالأمويين^(١) ، وازداد الأمويون في الأندلس قوة بعد سقوط دولة بنى أمية في المشرق وفرار عدد هائل منهم إلى إفريقيا والأندلس ، بحيث صاروا بدخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ومخالفته لليمنية^(٢) قوة كبرى غلبت قوة أهل الشام والمضمية كلها ، وقد نجح موالى بنى أمية في تأسيس دولة بنى أمية في الأندلس ، وذلك لاتحادهم والتفافهم حول عبد الرحمن بن معاوية^(٣) . كذلك دخل في جمهرة الموالى بالأندلس عدد كبير من الإسبان الذين دخلوا في ولاء بنى أمية بعد الفتح الإسلامي ، أمثال بنو قسي ، وبنو بارون ، وبنو غومس ابن قارلة ، وبنو مرتين^(٤) ، وأصبحوا موالى اصطناع التماساً لحماية بنى أمية^(٥) . وقد لعب الموالى دوراً هاماً في تاريخ الأندلس في العصر الإسلامي ، إذ اعتمد عليهم بنو أمية ، وقلدوهم أهم مناصب الدولة ، لتفانيهم في الإخلاص لها^(٦) ، فكان منهم الوزراء ، والكتاب ، والقواد ، والقضاة . ونجح الموالى في كورة البيرة في تأسيس دولة لهم على رأسها عبد الوهاب بن جرج^(٧) أيام الفتنة الأولى .

= « فيهم عشرة آلاف من صلب بنى أمية ، وعشرون ألفاً من مائر العرب » البيان ج ١ ص ٥٥ ، ج ٢ ص ٤٢ .

(١) ورد اسم الأمويين عند خروج بلج من قرطبة لمقاولة جيوش عبد الرحمن بن علقمة ومن معه من أعداء الشامين ، وكان مع بلج « عشرة آلاف من الأمويين والشامين » ابن القوطية ص ٨٦ .
(٢) أخبار مجموعة ص ٨٣ .

(٣) حنين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤٠٣ .

(٤) حنين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤٠٤ .

(٥) نفس المرجع ص ٤٠٧ .

(٦) ازدادت مكانة الصقالبة في عهد عبد الرحمن الناصر ، فأصبحوا يلقبون بالفتيان الأبناء

(Lévi-Provençal, L'Espagne Musulmane au Xe siècle, p. 106, Note 10) — ويسمى

ابن القوطية أبناء نعم الخلفاء (تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣) .

(٧) ابن حيان ، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، نشره منشور انطونية ، باريس ١٩٣٧

ص ٣٢ .

د- المسألة :

والى جانب العناصر الإسلامية السابقة ، من عرب وموالى وبربر ، كانت جماعة الإسبان الذين دخلوا الإسلام ، ويسمى بهم مؤرخو العرب المسألة ، وقد كان لسياسة التسامح الحكيمة التى سار عليها الفاتحون العرب عقب الفتح ، أثر كبير فى إسلام عدد هائل من الإسبان ، وبالتدريج نبذ كثير من أهل الذمة دينهم المسيحى ، واعتنقوا الإسلام ، إما بحثاً وراء مصلحة شخصية ، أو إيماناً صادقاً بهذا الدين الذى ضمن للمسألة الوقوف مع العرب على قدم المساواة . والواقع أن الفاتحين العرب لم يتعرضوا لأهل الذمة بضر ، ولم يفرضوا عليهم الدين الإسلامى . قهراً^(١) جرياً على سياسة لا إكراه فى الدين ، ثم إنهم كانوا يعتبرونهم من أهل الكتاب^(٢) ، وقد دخل كثير من هؤلاء الإسلام بمحض إرادتهم ، لأن الذى إذا أسلم ، كان ينتقل إلى وضع المسلم دون تفریق أو تمييز ، وهو على نقيض ما كان يحدث فى المشرق الإسلامى^(٣) . وعلى هذا النحو دخل كثير من أهل الأندلس الإسلام ، وأصبحوا فى عداد المجموعة الإسلامية ، وتلاشى كل شىء يتصل بأصلهم^(٤) . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن أغلبية الجماعات الأولى

(١) Lévi-Provençal, L'Espagne Mus., p. 32

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 73.

(٣) يقول قلهوزن : « لم يكن العرب ينظرون إلى الموالى فى المشرق نظرهم إلى أنفسهم ، فإذا كان الموالى فى الجيش ، فإنهم كانوا يحاربون مترجلين ، لا على الخيل ، وكانوا إذا برزوا ينظر إليهم بشئ من الريبة ، وهم وإن كانوا يتقاضون رزقاً ويأخذون نصيباً فى الفينة ، فإنهم لم تكن لهم أعطيات ثابتة ، فلم يكونوا مقيدين فى الديوان ، أعنى فى سجل المقاتلة ، الذين تفرض لهم الأعطيات . ومع أنهم كانوا قد اندمجوا فى القبائل العربية ، فإنهم كانوا يسمون أهل القرى تمييزاً لهم عن أهل القبائل ، ومع أنهم كانوا مسلمين ، فإنهم لم تسقط عنهم الجزية . . . ولو أن العرب عاملوا من دخل فى الإسلام من الأعاجم معاملة المساوين لهم لكان من الممكن أن يتحقق مزج بين الأمتين ، ولكن العرب بما صنعوه ربوا فى أحضانهم أعداء لأنفسهم . » (يوليوس قلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبوريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٤٧٢) . وقد حاول عمر بن عبد العزيز أن يمزج الرعايا الأعاجم بالعرب عن طريق الإسلام ، ذلك بأن سوى بين الداخلين فى الإسلام وبين العرب من الناحية السياسية وبأن أسقط عنهم الجزية ، ولكن يظهر أن هذا المبدأ لم يلبث أن انقضى فى عهد خلفه . (نفس المرجع ص ٤٣٩) .

(٤) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٤٢٩ .

التي أسلمت من الإسبان ، كانت من العبيد ورقيق الأرض ، فقد كانت حالة رقيق الأرض من سوء بحيث بدا الإسلام في نظرهم كمخرج من المتاعب التي كانوا يشنون تحت ثقلها^(١) ، كذلك دخل الإسلام كثير من الزراع ، وأهل المدن على اختلاف طبقاتهم ، فتساووا جميعاً في ظل الإسلام .-

هـ - المولدون :

لما كان الفاتحون العرب والبربر قد تركوا نساءهم في بلادهم ، فقد أقبلوا على مصاهرة الإسبان ، أهل البلاد ، ومضوا على هذا النحو ، يتزوجون من الإسبانيات ما شاءوا ، وعاشروا أهل البلاد ، وجاوروهم ، وعن طريق المجاورة والمصاهرة ، انتشر الإسلام في الأندلس انتشاراً تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وهكذا امتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد ، ونشأ من ذلك جيل جديد من آباء مسلمين عرفوا بالمولدين ، وكان عبد العزيز بن موسى أول من تزوج بإسبانية ، إذ تزوج من إيجيلونا Egilona أرملة لذريق ، فحذا حلوه كثير من رجال العرب أمثال زياد بن النابغة التيمي ، الذي تزوج هو الآخر من إحدى أميرات إسبانيا^(٢) ، وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية Sarre La Gothe بنت المند بن غيطشة^(٣) .

وقد احتفظ كثير من المولدين بأسماهم القديمة ، أمثال : بنو أنجلين Angelino^(٤) وبنو شبرقة Sabarico^(٥) ، وبنو الجريج Jorge^(٦) ، وبنو لتق Longo ،

(١) نفس المرجع ص ٤٣٠ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٠ .

(٣) ابن القوطية ص ٦ . تزوجت سارة بعد وفاة زوجها عيسى سنة ١٣٨ هـ من عمير بن سعيد وولدت له حبيب بن عمير جد بني سيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حنجر الحرز ، وهؤلاء أشرف ولد عمير بإشبيلية .

(٤) ابن حيان ، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، نشره الأب ملشور م . أنطونية ، باريس

١٩٣٧ ص ٧٠ .

(٥) منهم محمد بن عمر بن خطاب بن أنجلين أحد زعماء المولدين بإشبيلية في عهد الأمير عبد الله .

(انظر المرجع السابق ص ٧٤) .

(٦) المرجع السابق ص ٧٤ - Dozy, Histoire, t. II, p. 40.

وبنو القبطنة Kabturno ،^(١) وبنو مردنيش Martinez ، وبنو غرسية Garcia ، وبنو ردلف Rodolfo^(٢) .

ومن الولاة والمولدين الذين احتفظوا بأسمائهم القديمة بنو موسى بن فرتون القسوى أصحاب تطيلة والثغر الأعلى في عهد بني أمية^(٣) ، وكان جداهم فرتون Fortun قومس Comes الثغر في عهد القوط ، ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالإسلام ، ويتخذون نوع الحياة التي يتخذها المسلمون الوافدون على الأندلس ، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم الذاتية باعتبارهم إسباني الأصل^(٤) ، ولقد تألفت من المولدين جماعات كبيرة في مدن إسبانيا الهامة مثل طليطلة التي كانت مركزاً من أهم مراكز العصبية المولدة ودعوى المولدين ، وكانت تضم أكبر طائفة منهم ، وقد ظهر ذلك في حركاتهم الثورية المتعددة ، وميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة ، وكان يتولى طليطلة أمير منهم ، ومن هؤلاء الولاة عمروس الوشقي المولد^(٥) ، ولب بن طريشة^(٦) . كذلك كانت إشبيلية معقلاً من معاقليهم ، فقد كانوا يمثلون أكبر طائفة من سكان مدينة إشبيلية ، وكانوا يعملون بالتجارة والإدارة ولذلك جنوا أرباحاً هائلة . وكانوا ينجحون إلى السلم ولذلك لم يفكروا في الثورة ضد أمراء قرطبة الذين يعتبرونهم حماة^(٧) ، إلا في أواخر عهد الأمير عبد الله وذلك لمواجهة العصبية العربية المتزايدة . وكان مولدو إشبيلية بالذات يتمتعون بعطف الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، ذلك لأن أبناء سارة القوطية وهم بنو حجاج وبنو مسلمة وبنو سيد وبنو حنجر الجزر ، كان يحيطهم برعايته ، لأنه كان قد شاهد أمهم في دمشق وهو صبي ، فحفظ لها ذلك بالأندلس ، فكانت إذا أتت إلى قرطبة أذن لها ولأولادها في دخول القصر^(٨) . ولقد تعصب المولدون لأصلهم الإسباني — مع كونهم مسلمين — وتحالفوا مع

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 76.

(٢) ابن حيان ، المرجع السابق ص ١٦ .

(٣) ابن حيان ص ١٦ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 76.

(٥) ابن القوطية ص ٤٦ .

(٦) ابن حيان ، المقتبس ص ١٨ .

(٧) Dozy, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. II, p. 40.

(٨) ابن القوطية ص ٥ ، والمصادر الآتية :

Dozy : Histoire, t. II, pp. 40-41 — Simonet, historia de los Mozarabes de España, p. 248.

Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 358 et sq.

العجم أو النصارى في الأندلس ، وسرى كيف استغل المولدون فرصة ضعف دولة بنى أمية أيام الأمير عبد الله ، وثاروا في نواحي مختلفة من الأندلس ضد السلطة المركزية ، فني ييشر غلب عمر بن حفصون ، وفي ماردة وبطليوس ثار عبد الرحمن ابن مروان المعروف بابن الحليتي ، « وكانت دعوته عصبية المولدين على العرب »^(١) ، وفي شنت مرية باشكونية ثار يحيى بن بكر بن ردالف^(٢) .

ثانياً - العجم أو المستعربون :

هم نصارى الإيبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية مع احتفاظهم بدينهم ولذلك عرفوا بالمستعربين . وكان العرب يسموهم بعجم الزمة ، أما من كان لهم عهد منهم فقد سموا بالمعاهدين ، وكان المستعربون أو العجم في الأندلس يؤلفون جمهرة سكان البلاد في السنوات الأولى التي تبعت الفتح الإسلامي ، ولكن عددهم أخذ يتناقص تدريجياً بينما أخذ عدد المسالمة يزداد يوماً بعد يوم ، وما لبث المستعربون أن أصبحوا بمرور الزمن أقلية في الأندلس بالنسبة للمسلمين والمولدين . وقد عومل هؤلاء المستعربون منذ الفتح معاملة طيبة ، فتمتعوا بحرية كبيرة في إقامة شعائر دينهم ، وأقرهم موسى بن نصير « على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزاء منها مع أداء الجزية في أرض الثرة وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم يهود خير في نخيلهم وأرضهم »^(٣) . وهكذا عاش النصارى جنباً إلى جنب مع المسلمين في أحياء خاصة لهم ، وكان لهم رئيس في كل مدينة يعرف بالقومس^(٤) ، كما كان لهم قاض نصراني يفصل في منازعاتهم يعرف بقاضي العجم^(٥) ، وإذا كان المتخاصمون مسلمين ومسيحيين ،

(١) ابن حيان ص ١٥ . (٢) نفس المرجع ص ١٦ .

(٣) الرسالة الشريفة ص ١٩٩ .

(٤) كان أرتباس أول قناسة الأندلس ، ومنصب القومس وضعه الأمير عبد الرحمن بن معاوية

(انظر ابن القوطية ص ٣٨) ، وكان قومس الأندلس القومس الأعلى في البلاد ، وكان حق تعيينه في يد الأمير الأموي ، أما القناسة المحليين فكان يتخبهم النصارى في كل مدينة .

(٥) كان القاضي حفص بن البر أول قاضي للعجم (ابن القوطية ص ٥) وكان يتبع القوانين

القوطية القديمة في أحكامه .

فإن القاضي الذي يفصل بينهم كان قاضياً مسلماً يعرف بقاضي الجند ، ثم سمي فيما بعد بقاضي الجماعة ، ^(١) وعلى هذا النحو كان على القاضي المسلم أن يكون ملماً إلاماً كبيراً بالقانون القوطي والشريعة الإسلامية ، حتى يوفق بينهما دون أن يتقيد بنص أحدهما ، وبذلك طبق المسلمون سياسة من التسامح على أهل الذمة من النصارى سواء كانت أرضهم أرض عنوة أو أرض شمل ^(٢) ، فتركوا لهم كنائسهم باستثناء الكنائس التي قسمها المسلمون بينهم وبين النصارى ، وأقاموا فيها مساجد جامعة ، مثل جامع قرطبة الذي أقيم في شطر من كنيسة شنت بنجنت San Vicente ، ومسجد رفينة الذي أقيم في كنيسة سانتا ريفينه Santa Rufina . كذلك كان للنصارى أديرتهم مثل دير أرملاط Guadimellato في الطريق من قرطبة إلى طليطلة ^(٣) ، ودير سان خوان دي لاپنيا San Juan de la Peña الذي أقامه الراهبان الأخوان Voto وفليكس في عهد عقبة بن الحجاج السلوي في شمال إسبانيا ، وكانت إشبيلية في العصر الأموي مركزاً أسقفياً هاماً ^(٤) . وكان أول من تولى أسقفية إشبيلية المطران ابن المنذر بن غيطشة ^(٥) . وهذا دليل على أن المسلمين تركوا النصارى أحراراً في إنشاء ما يريدون من الأديرة ^(٦) ، وكان للنصارى كنائسهم في أحيائهم الخاصة بهم بقرطبة وسرقطة وطليطلة وإشبيلية ، وكانوا يقرعون نواقيسهم رغم ما كان يسببه هذا من إزعاج المسلمين وإثارة بعض المتعصبين منهم عليهم . وفي قرع النواقيس دلالة واضحة على تسامح المسلمين وتركهم النصارى يمارسون شعائر دينهم في حرية تامة ، وقد نظم ابن حزم أبياتاً فيها ذكر لقرع النواقيس منها :

أتيتني وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس ^(٧)

(١) النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، المسمى المرقبة العليا ، فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ليثي بروئنسال القاهرة ١٩٤٨ ص ٢١ .

(٢) الرسالة الشريفة ص ١٩٩ .

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٣ ص ٧١ وما يليها .

(٤) Isidro de las Gargitas, los Mozarabes, t. I, p. 58. (٥)

(٥) ابن القوطية ص ٤ .

(٦) Simonet, Historia de los Mozarabes de España, p. ١٩٥ .

(٧) ابن حزم الأندلسي ، طرق الحماة في الألفة والألاف ، نشره ليون برشيه ، الجزائر ١٩٤٩

ووصف الشاعر أبو عامر بن شهيد إحدى الكنائس فقال : « وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستيناس . . . وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرح لعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحاً بالزنانير ، أبدع توشيحاً^(١) . وظل النصارى يتمتعون بحريتهم الدينية حتى حد المرابطون منها ، وأخذوا يضطهدونهم ، فقد طالب ابن عبدون في كتابه عن آداب الحسبة ، أن يمنع قرع النواقيس من الكنائس ، وأن يرتدى المسيحيون واليهود ثياباً معينة ، وألا يركب أحد منهم جواداً ، وألا يشتري مسلم رداء ارتداه مسيحي أو يهودي^(٢) . ويغلب على الظن أن هذا الاضطهاد بدأ عقب توسع الحركة الاسترداد المسيحي في قلب إسبانيا الإسلامية واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم لمصلحة الدول المسيحية في شمال إسبانيا ، وخاصة بعد حملة ألفونسو المحارب سنة ١١٢٥ م^(٣) التي اجتاحت فيها بلاد الإسلام حتى أدرك قرطبة وإشبيلية . وزاد اضطهاد الموحدين لهم فنقوهم إلى بلاد المغرب حتى يكونوا بعيدين عن مؤازرة الممالك المسيحية في الشمال ، واستطاع عدد كبير من المستعربين التسلل من الأندلس إلى هذه الممالك الشمالية . وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور أشد خلفاء الموحدين وطأة على أهل الذمة^(٤) .

وقد برز من المستعربين شخصيات لعبت دوراً هاماً في تاريخ الإسلام ، بالأندلس مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف في المدونات الإسبانية بريسيموندو Recemundo ، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم ، وأسقف قرطبة أصبغ بن عبد الله ابن نبيل ، كما نبغ منهم مترجمون قاموا بترجمة كثير من الكتب القشتالية إلى العربية بحكم إجادتهم للغة العربية واللغة اللاتينية الحديثة ، وكانوا على هذا النحو حلقة الاتصال بين الثقافة العربية والأوربية . كذلك لعب المستعربون أو العجم دوراً سياسياً هاماً بمحالفتهم للمولدين ضد العرب في عصر الأمير عبد الله ، كما سنرى فيما بعد .

(١) المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) ابن عبدون ، آداب الحسبة ، ترجمه الأستاذ ليثي بروثينال تحت عنوان Le traité de Hisba باريس ١٩٤٧ ، والنص العربي نشر في مجلة Journal Asiatique عدد أبريل-يونيو ١٩٢٤ ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides en España, pp. 13-16. (٢)

(٤) المراكشي ، المعجب ص ٣٠٥ .

ثالثاً - اليهود :

عانى اليهود كثيراً من اضطهاد القوط والرومان لهم ، وقد بلغ هذا الاضطهاد مبلغاً كبيراً إذ قرر المجمع الطليطلى الثامن ضرورة تعميدهم وحرما عليهم إقامة شعائرتهم الدينية . ثم أرغم اليهود في عهد الملك إرفيج على التنصر ، فبدأ اليهود يتآمرون سرّاً ضد القوط ، فأسرف القوط في سياسة الاضطهاد واعتبروا القوط جميعاً أرقاء يجب توزيعهم على المسيحيين ، وعملوا على فصل أولادهم عنهم وتنصيرهم . وحاول إخيكا أن يخفف عنهم هذا التعسف ولكنهم عادوا إلى التآمر على القوط بمجرد إحساسهم ببعض الحرية ، وذكروا أنهم اتصلوا بيهود المغرب وسألوهم إغراء العرب بفتح الأندلس ، وعلم الملك بهذه الخطة فعاد إلى سياسة الاضطهاد التي جرى عليها أسلافه ، ولانستبعد اتصال اليهود في الأندلس بيهود المغرب واستنجادهم بالعرب ، على الرغم من انعدام الأدلة التاريخية على ذلك ، لأن العرب عاملوا اليهود أحسن معاملة عند دخولهم الأندلس ، وكانوا يثقون فيهم ويعهدون إليهم بحراسة المدن المفتوحة مع العرب .

وتمتع اليهود بتسامح كبير من جانب العرب ، لمؤازرة اليهود لهم عند الفتح^(١) ، وكانت غرناطة تزخر بأكبر جالية يهودية ، فسميت لذلك باغرناطة اليهود^(٢) ، وقد لعب اليهود دوراً هاماً في العلوم العربية في الأندلس ، فترجموا الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية ، ونبغ منهم كثيرون في الطب والفلسفة والفلك والكيمياء أمثال حسداى بن شفروط طبيب عبد الرحمن الناصر ، وموسى بن ميمون الفيلسوف وإبراهيم بن سهل الإسرائيلي الشاعر .

وقد تجاوز نفوذ اليهود في عصر ملوك الطوائف الحد خاصة في مملكة غرناطة ، فكان لابن نغريل الإسرائيلي كل السلطان في غرناطة^(٣) .

* * *

وأمام هذا الخليط العجيب من الأجتناس تكتلت العناصر العربية وألفت نوعاً من العصبية ، وظهرت آثار ذلك في صراع العرب من جهة مع البربر ، ومن جهة أخرى مع المولدين ، وسنوضح ذلك في حينه .

(١) ابن الخطيب ، اللوحة البدرية في الدولة النصرانية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ١٦ - ابن الخطيب :

الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ طبعة القاهرة ١٩٠١ ص ١٧ .

(٢) الحميري ، الروض المعمار (-) عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ص

١٠٧ ، وكتاب الشعب رقم ٦١ مقال غرناطة ص ٩٢ .

عصر الولاة والتوسع الإسلامى فيما وراء البرتات

تم مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) بتدبير بعض رؤساء الجيش من العرب أمثال أيوب بن حبيب اللخمى ، وحبيب بن أبى عبيدة ، وزيايد بن عذرة البلوى ، وزيايد بن نابغة التميمى ، واجتمع بجند الأندلس على أيوب بن حبيب اللخمى ابن اخت موسى بن نصير ، وأول ما فعله أيوب أن نقل العاصمة إلى قرطبة . والواقع إن قرطبة كانت جديرة بالاختيار لحسن موقعها وقربها من داخل الأندلس ، على أن أيوب هذا لم يطل عهده فى الإمارة ، فعزله سليمان بن عبد الملك بعد ستة أشهر من ولايته ، وبعث محمد بن يزيد ، وإلى أفريقية عاملاً من قبله إلى الأندلس هو الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فقدم فى ذى الحجة سنة ٩٧ هـ (٧١٦ م) ، وعلى الرغم من قصر عهد أيوب بن حبيب فإنه يبدو أنه وجه جهوده نحو الشمال لتطهير البلاد تماماً من أى مقاومة قوطية ، وقد ترك اسمه على مدينة من تأسيسه هى قلعة أيوب Calatayud التى تقع إلى الشمال الشرقى من طليطلة^(١) .

ولا يذكر المؤرخون العرب شيئاً يتعلق بغزو الحر لجنوبى غالة ، ولكن كوديرة يذكر أنه غزا بلاد غالة حتى مدينة أربونة ، ويعتمد فى هذا على نص لإيزيدور الباجى^(٢) ، ولم يتجاوز عهد الحر الستين والثمانية أشهر ، إذ كان سليمان بن عبد الملك قد توفى فى صفر سنة ٩٩ هـ وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فاختار لولاية

(تابع ص ١٢٣) ١ - ابن بسام الشترينى ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول من المجلد الثانى ص ٢٦٨ - ٢٧٢ .

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢٤٤ .

(٢) Codera, Limites probables de la conquista arabe en la cordillera pirenaica,

الأندلس رجالاً فاضلاً صالحاً هو السمع بن مالك الخولاني^(١) ، وأمره أن يخصص أرضها ويخرج منها ما كان عنوة خمساً لله من أرضها وعقارها ، ويقر القرى في يدي غنائمها بعد أن يأخذ الخمس ، فقدم السمع الأندلس في رمضان سنة ١٠٠ هـ (أبريل سنة ٧١٩ م) ، وكتب إليه الخليفة عمر يسأله أن يصف له الأندلس وأتباعها ومجرها ، ويبدوا أنه كان لا يعلم شيئاً عن الإسلام في الأندلس ، وكان يرى إجلال أهل الأندلس منها ، لا تقطاعهم عن المسلمين^(٢) ، فكتب إليه السمع يعرفه بقوة الإسلام فيها وكثرة مدنها ، وشرف معاقليها^(٣) ، فلما استوثق عمر من أهمية الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيها ، أولاهها جزءاً كبيراً من عنايته ، فبعث إلى الأندلس رجالاً اسمه «جابر» لتخميس الأندلس ، أي ضبط أموالها وتنظيم خراجها ، وهو أمر لم يسبق لأحد من الخلفاء قبله العناية به ، وأمره عمر ، أن «يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخصص ما غلب عليه من أرضها وعقارها»^(٤) ، فعزل السمع ولاية الأندلس عن إفريقية وميز فيها أرض العنوة من أرض الصلح ليصبح الخمس ، وأخرجت البطحاء المعروفة بمصلى قبلي قرطبة في الخمس ، وجعلت مقبرة للمسلمين^(٥) .

وهكذا مضى السمع في سياسته الإصلاحية ، وأخذ ينظم إدارة الأندلس من الناحية المالية ، وفي الوقت نفسه كان يقوم بإخراج البعوث الإسلامية إلى بلاد غالة^(٦) ، ثم كتب إلى عمر بن عبد العزيز يعلمه أن «مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه عن الخوض الشتاء عامة ، فإن أمرني أمير المؤمنين يثيان سور المدينة فعلت ، فإن قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند وتنفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم»^(٧) ، وهكذا كان السمع يود أن يفعل شيئاً لتعمير

(١) أخبار مجموعة ص ٢٣ -

(٢) ابن القوطية ص ١٣ - أخبار مجموعة ص ٢٣ ، الرسالة الشريفة ص ٢٠١ -

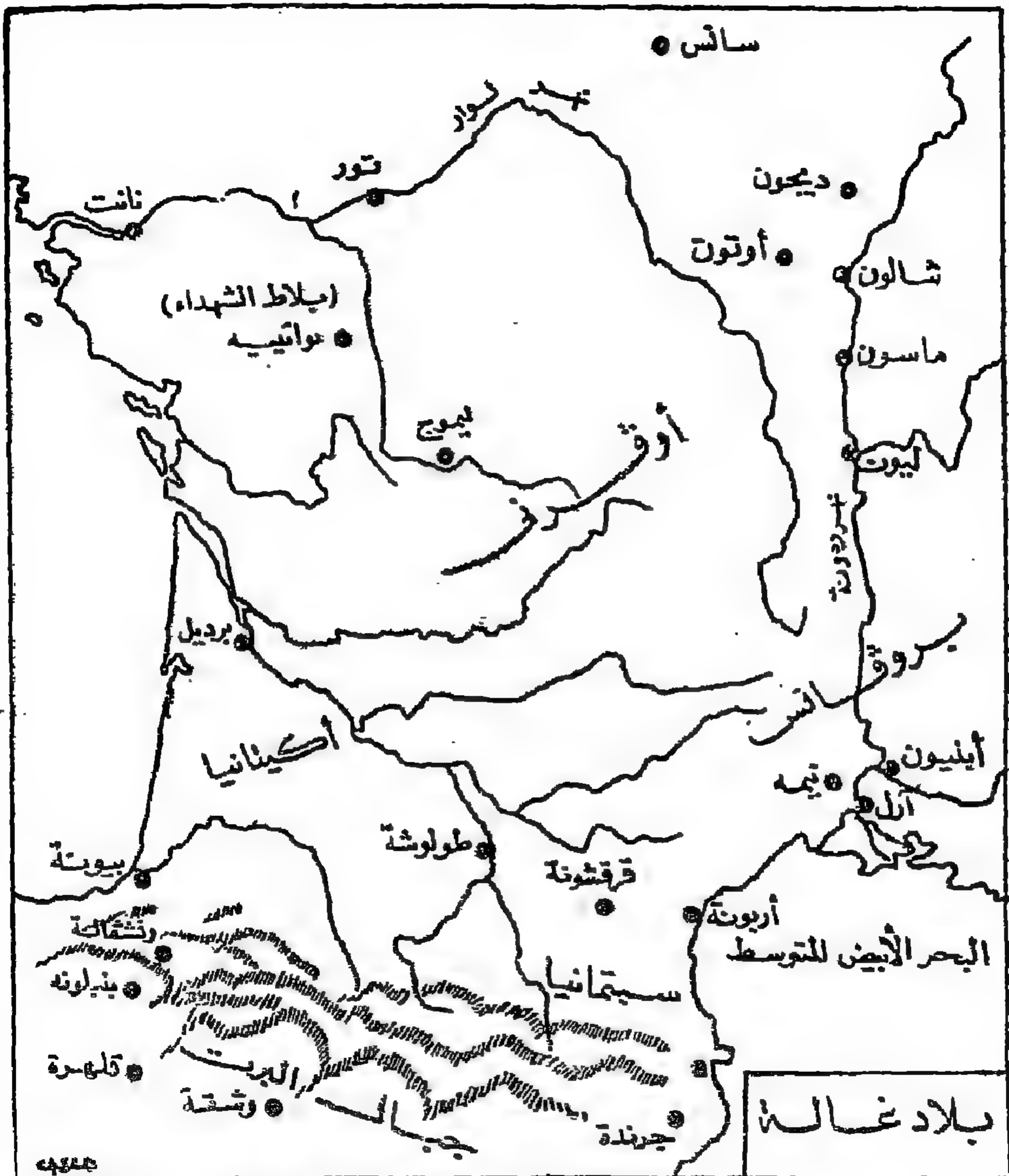
(٣) ابن القوطية ص ١٣ -

(٤) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٣٤ -

(٥) الرسالة الشريفة ص ٢٠٥ ، ٢٠٧ -

(٦) المرجع السابق -

(٧) أخبار مجموعة ص ٢٤ -



قرطبة ، إما أن يعيد بناء السور المثلم من جهة العزب فتحصن العاصمة الأندلسية ، ويصبح في الإمكان أن تقف أسوارها في وجه أى غاز ، بعد أن كانت مفتوحة للداخلين إليها والخارجين منها ، وإما أن يرمم القنطرة من حجارة السور ثم يبنى السور باللبن ، إذ كان المسلمون حديثي عهد بالأندلس لا يعرفون بعد أماكن مقاطع الصخور^(١) . فورد جواب عمر بن عبد العزيز بأن تبنى القنطرة من صخور السور ، ويجبر ما تثلم منه باللبن . واستخدم السمع الأحجار الضخمة المتخلفة من أجزاء السور الروماني المهتمة بعد ترميمه في إعادة بناء قنطرة قرطبة ، التي كانت تعد إحدى أعاجيب الدنيا ، وكانت تصل بين مدينة قرطبة وبين الربض الجنوبي المعروف بشقندة . وأنفق السمع على بنائها مما تجمع له من مال التخميس بعد عطايا الجند وتنفقات الجهاد .

ويهمنا من عهد السمع أمر له أهمية كبرى هو جهاده في غالة من أراضى إفرنجة ، وكانت غالة قد انقسمت عقب سقوط الدولة الرومانية إلى عدة ولايات منها ولاية سبانيا أى المشتمة على سبعة مدن هي : أربونة ونيمة Nimes وآجد Agde ، وبيزيه Beziers ، ولوديف Lodève ، وقرقشونة Carcassonne ، ومجلون Maguelone . وكانت أربونة هي عاصمة هذه الولاية . وإلى الشمال الغربى من ولاية سبانيا تقع دوقية أكتانيا وعاصمتها برديل Bordeaux الواقعة على مصب نهر الجارون ، وإلى الشمال الشرقى من ولاية سبانيا يقع إقليم بروقانس وعاصمته مدينة أبنون Avignon على وادى ردونة (نهر الرون) ، ويقع غربى هذا النهر إقليم برغندي ، وعاصمته مدينة لودون (ليون) . أما المنطقة الواقعة شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحاضرة ، فكانت خاضعة للدولة الميروثنجية .

بدأ السمع بالاستيلاء على أربونة^(٢) . ثم زحف إلى طرسكونة Tarascon ، فاستولى عليها ، ثم مضى في تقدمه حتى أدرك طولوشة Toulouse ، غير أن الدوق

(١) نفس المرجع . يقول صاحب الرسالة الشريفة : « فإنه كان لا يعرف يومئذ في جهة قرطبة مقطع صخر » ص ٢٠٧ .

(٢) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر سنة ١٣٥٢ هـ ص ٦٤ معتمداً على

J. Renaud, Invasion des Sarrazins

أودو ، دوق أكيثانيا تصدى للسمح ، واشتبك مع الجيش الإسلامي في موقعة بالقرب من طولوشة انهزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدد كبير ، واستشهد السمع بين من استشهد من المسلمين ، وذلك في يوم عرفة سنة ١٠٢ هـ (١) (١٠ يونيو سنة ٧٢١ م) . واجتمع المسلمون على عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، فقاد فلول الجيش الإسلامي إلى أربونة ، وكانت هذه هي ولايته الأولى ، ولم يدم فيها أكثر من أشهر ، إذ أقام يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية مكانه عنبسة بن سحيم الكلبي ، فقدم عنبسة في صفر سنة ١٠٣ هـ (٧٢٢ م) . ولما قتل يزيد بن أبي مسلم استعمل الخليفة يزيد بن عبد الملك على إفريقية بشر بن صفوان ، فأمر عنبسة على الأندلس (١٠٣ - ١٠٧ هـ) . وكانت الأندلس في اضطراب بسبب الخزيمة التي لحقت بالمسلمين في قرقشونة ، وبسبب النزاع بين العصبية العربية الذي استفحل أمره في الأندلس في ذلك الوقت . وكان العرب قد شغلوا بتصفية ثاراتهم القبلية عن القضاء على بقايا القوط في الأندلس ، وعن إتمام إخضاع البربر في إفريقية . لذلك قضى عنبسة أربع سنوات من ولايته في تنظيم أمور دولته ، وكان من الشخصيات الكبرى في عصر الولاة ، فقد سلك نفس السبيل الذي سلكه السمع من قبل ، وكان يرى مواصلة غزو بلاد إفريقية ، فما كادت أمور ولايته تستقر حتى بادر بإعداد جيوشه للسير شمالاً في بلاد غالة . وفكر بادي ذي بدء في تدعيم خط الدفاع أمام أربونة ، فافتتح مدينة قرقشونة عنوة (٢) ، ثم استولى على مدينة نيمة دون مقاومة ، وأخذ من أهلها رهائن نقلهم إلى برشلونة (٣) . وتذكر مدونة هواسياك Chronicon Moissiacense أن عنبسة واصل زحفه حتى وصل إلى وادي نهر

(١) يذكر ابن حيان أنه قتل في طرسوة من أرض الأندلس (شمال تطيلة من إقليم أرغوة) انظر ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٨٤ - ابن عشاري ج ٢ ص ٣٥ (يذكر أنه استشهد في طرسوة) . ولكننا نعرف أنه استشهد غازياً بأرض إفريقية (المغرب) ، فتح الطيب ج ١ ص ٢١٩ في بلدة طرسكوة (انظر حين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٤٦ حاشية ١) . فيما يخص هذه الولاة أرجع إلى

Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 58 — Codera; Narbona, Girona y Barcelona, p. 307

(٢) Lévi-Provençal, op. cit. p. 58 — Codera, op. cit. p. 311.

(٣) أخبار عجمرة، Chronicon Moissiacense, Appud, Appendices de Ajbar Machmûr.

No. 4, p. 165 "Carcasonam expugnat et capit, et usque Noemauso pace conquistavit, et obsides eorum Barchinona transmisit"

انظر أيضاً شكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ٧٣ .

ردونة ، وانطلق في زحفه سريعاً مصعداً في النهر دون أن يقابل معارضة جدية ، حتى تمكن من الوصول إلى نهر الساون ، وتوغل في إقليم برغنديّة الواقع شمالي شالون Châlon ، واستولى على مدينة أوتون Autun ، ثمّ نهبا جيشه في ٢٢ أغسطس سنة ٧٢٥م^(١) . وذكر بعض المؤرخين الأوربيين أن عنبة لم يقف إلى هذا الحد من الغزو ، بل اجتاحت جيوشه مدينة أوزه Uzès ، وفيفييه Viviers ، وفالانس Valence ، وتدفقت الموجة إلى ليون Lyon ، وماسون Màcon وشالون Châlon ، ومن هناك انقسمت إلى تيارين أحدهما حمل الدمار إلى ديجون Dijon وبيز Bèze ولانجر Langres ، بينما انحرف الآخر إلى أوتون ، ولم تقف هذه الموجة المدمرة إلا أمام بلدة سانس Sens وهنا توقف انطلاق المسلمين بسبب شجاعة أسقف هذه المدينة وهو الأسقف إيبن Ebbon^(٢) . عزم عنبة على العودة إلى قرطبة بعد أن وصلته أنباء بمحذوثة بعض الاضطرابات هناك . ولكن جموعاً من الفرنجة تصدت له في طريق عودته فاستشهد في إحدى المواقع سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) ، فقام بقيادة الجيش والعودة إلى أربونة عذرة بن عبد الله الفهري ، وهكذا تمت الغارة الكبرى التي اخترق فيها عنبة أرض غالة غازياً ، ونلاحظ أن عنبة بعد أن تقدم إلى قرقشونة عدل عن مهاجمة أكيثانيا إلى إقليم بروفانس وبرغنديّة ، ويرجع سبب عدوله عن التوغل في أكيثانيا إلى صداقته للدوق أودو ، الذي كان محاصراً وقتلاً لقارلة (شارل ابن بيبين ديرستال Pepin d'heristal حاجب ملوك الدولة الميروفنجية) .

وتؤكد المصادر اللاتينية . أن دوق أودو صاهر مؤنسة البربري بأن زوجه من ابنته لامبيجي Lampègie أو مينين Minine^(٣) ، وأنه ساعد عنبة في غزو برغنديّة ليعيد خطرهم عن بلاده من جهة ولأنه لم يكن وقتئذ على علاقة طيبة مع دولة الفرنجة من جهة أخرى ، ويذكر الدكتور مؤنس أن « العرب انصرفوا عن أراضيه لأنه كان حليفهم ، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيما

(١) Chronicon Moissiacense, op. cit. p. 165 .

(٢) J. Calmette, L'effondrement d'un empire et la naissance d'une Europe, Appud,

Lévi-Provençal, histoire, t. I, p. 59, note 2.

(٣) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ص ٨٨ - حسين مؤنس ص ٢٥٢ .

وفق إليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً في حملة عنبة^(١) .

وتولى عذرة بن عبد الله الفهري إمارة الأندلس بعد مصرع عنبة^(٢) ، ويسميه إيزيدور الباجي حديرة^(٣) Hodera ، ويبدو أن عذرة كان يتوى مواصلة الجهاد في بلاد غالة بعد هزيمة عنبة ومقتله ، ولكنه شغل عن ذلك بالخلافات التي نشبت بين المسلمين في الأندلس في ذلك الوقت ، وينسب إليه رينو أعمال العنف والتدمير التي أصابت كنائس إقليم ليون وبورجونى ، مثل كنيسة ثيين ولودون وأوتون وسان مارتان^(٤) ، ولكتنا نستبعد أن يكون المسلمون في عهد عذرة هم أصحاب هذه الأعمال ، فقد كانت ولاية عذرة قصيرة الأمد ، وقد تكون ثمة غارات شنها المسلمون المرابطون في أربونة ، أما الغزو الحقيقي فلم يستأنفه المسلمون إلا بقدم عبد الرحمن الغافقى ، إذ تولى الأندلس بعد أن عزل عذرة في ربيع الأول سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) عدة ولاية لم يغز أحدهم في غالة ، وهم يحيى بن سلمة الكلبي ، وحذيفة بن الأحوص الأشجعي ، وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، والهيثم بن عبيد الكنانى ، ومحمد بن عبد الله الأشجعي ، ولم تتجاوز مدة حكم كل منهم عن عدة شهور .

ثم قلم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب وإلى إفريقية ، فدخلها سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) ، وكان عبد الرحمن الغافقى من أعظم قواد المسلمين في الأندلس ، وكان معروفاً بحسن القيادة ، والشجاعة وقوة الشكيمة ، وكان قد أبلى بلاء حسناً في موقعة طولوشة التي قتل فيها السمع ، فتركت هزيمة المسلمين أثراً عميقاً في نفسه ، لذلك كان تواقاً إلى ملاقات الفرنجة ، رغباً في الانتقام منهم وجاء تقليده لولاية الأندلس في وقت انبعثت فيه الفتنة بين العرب في هذه البلاد بسبب العصبيات القبلية ، وكان عبد الرحمن إلى جانب صفاته السابقة معروفاً

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢٥٢ .

(٢) المقرئ ، ثقع الطيب ج ١ ص ٢٧٩ .

(٣) Lafuente Alcantara, Ajbar Machmua, apendice 1, p. 153.

(٤) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٢٥٨ - ٢٦٠ . ينسب الأستاذ سيد أمير على هذه الأعمال إلى الهيثم بن عبيد الكنانى (انظر مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكي ، بيروت ١٩٦١ ص ١٤٦) .

بتزاهته وحياده ، لا يتحيز لفريق على فريق ، ولا يتعصب لعنصر على عنصر آخر ، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب أهل الأندلس ، واستبشر الناس لولايته . وشرع عهده برفع المظالم عن الناس ، وكان يطوف في المدن ويحقق في شكايات الرعية ، لا يميز بين مسيحي ومسلم ، وعزل كثيراً من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية .

كان عبد الرحمن يرى أولاً ضبط البلاد ثم السير بعد ذلك للغزو ، وللأسف لم تصلنا عنه في المصادر العربية إلا أخبار قصيرة لأن صدى الهزيمة التي حلت بالمسلمين في واقعة بلاط الشهداء عند المؤرخين العرب كان أليماً ، فلم يشيروا إليها إلا إشارة عابرة .

قضى عبد الرحمن الغافقي ما يقرب من عام ، نظم خلالها شؤون البلاد ، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة ، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته ، وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف ، جلهم من البربر ، إذ أن العرب كانوا وقتئذ مشغولين بمنازعاتهم القبلية ، ويبدو أن خلافاً نشب بين عبد الرحمن الغافقي وبين أحد قواد المسلمين وهو مونوسة البربري ، وكان عاملاً على شرطانية Gerdana^(١) من جبال اليرت ، وانتهى ذلك بقتل مونوسة^(٢) ، وغضب اللوق أودو لما أصاب صهره ، وكانت جيوش المسلمين قد تدفقت على ولايته تدفق السيول ، فتناسى ما كان بينه وبين قارلة (شارل مارتيل) واستصرخه ، فزحف شارل بجيوشه وانتهى الأمر بهزيمة المسلمين في بلاط الشهداء بسبب تحالف دوق أودو وشارل مارتيل

(١) Isidoro Pacense, *Ajbar Machmua*, Apendice 2, p. 155.

(٢) كان مونوسة قد تقرب من دوق أودو صاحب أكيثانيا ، وتزوج من ابنته الجميلة لمبيجية Lampégie وأصبح حليفاً له ، بعد أن عقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمت بها من غارات العرب . فلما ورد أمر عبد الرحمن الغافقي بالسير على بلاد حميه ، راجع مونوسة الأمير عبد الرحمن ، فغضب عبد الرحمن من تردد مونوسة وتلكته ، وأرغمه على السير في هذه الغزوة ، فأبلغ مونوسة حماه سرّاً بذلك ، ونصحه بالتأهب والاستعداد ، فعلم عبد الرحمن بما فعله مونوسة ، فعمل على القبض عليه ، ولكنه فر مع بعض أعوانه في الجبال فأحاطته فرقة من جيش عبد الرحمن ، وقبض عليه ، واحتز رأسه ، وأسرت الأميرة الأكيثانية وأرسلت إلى بلاط = الخليفة الأموي بدمشق (انظر شكيب أرسلان ص ٨٨ - Isidoro Pacense, *ibid.* p. 156. - سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ص ١٤٨) .

من جهة ، وتفرق كلمة المسلمين عقب مقتل مونوسة من جهة أخرى^(١) .

خرج عبد الرحمن على رأس جيوشه من بنبلونة عاصمة ولاية ثيرة في صيف عام ١١٤ هـ (٧٣٢ م) مختاراً جبال البرت في شعاب رونشقال^(٢) ، متجهاً رأساً إلى دوقية أكيثانيا ، أعظم ولايات غالة في ذلك الوقت ، ويبدو أنه أراد أن يؤمن نفسه من الوراء أولاً قبل أن يهاجم أكيثانيا ، فبعث فرقة من رجاله إلى وادي رودنة نجحت في استرجاع مدينة آرل Arles الواقعة بالقرب من مصب نهر رودنة والتي كانت قد شقت عصا الطاعة على المسلمين ، ويعتقد بعض المؤرخين أن حملة عبد الرحمن على مدينة آرل لاتعدو أن تكون خدعة قصد منها صرف نظر الفرنجة عن الهدف الرئيسي للحملة وهو دوقية أكيثانية ومملكة الفرنجة^(٣) . وفي نفس الوقت الذي سقطت فيه آرل ، كانت جيوش عبد الرحمن تواصل زحفها نحو الشمال في قلب دوقية أكيثانيا ، إلى العاصمة برديل (Bordeau) الواقعة على مصب نهر الجارون ، وأسرع دوق أودو لصده هذا الهجوم ، واشتبكت جيوشه مع جيوش المسلمين في واقعة بالقرب من نقطة التقاء الدوردوني بالجارون ، وهناك انهزم هزيمة نكراء ، تقهقر على أثرها شمالاً ، فدخل المسلمون برديل عنوة ، وغنموا غنائم هائلة ، وجردوا الكنائس والأديرة من كنوزها ، وقتلوا من خصومهم عدداً لا يحصى إلا الله^(٤) . واتجه عبد الرحمن بجيوشه الظافرة نحو تور التي كانت تضم دير سان مارتان المشهور بنفائسه وكنوزه ، وأدرك دوق أودو عجزه عن صد المسلمين ، فاستنجد ببارلة ، ووجد بارلة أن من مصلحته مصالح أودو والاتحاد معه مؤقتاً لصد المسلمين ، لأن هدفهم التالي كان يتركز على دولة الفرنجة نفسها ، خاصة وقد غزا المسلمون بقيادة عنبسة إقلياً منها هو برغندي ، فجمع جيوشه من سائر أنحاء غالة ، وبعث يطلب جنداً من حدود الرين ، ووفد هؤلاء الجند الشماليون ، وقد زودوا بأسلحة متفوقة .

(١) كان العدد الأعظم من جيش عبد الرحمن النافق يتألف من البربر ، وقد تقم هؤلاء البربر على عبد الرحمن النافق لتخليه بزعيمهم مؤثمة ، فلم يتفق المسلمون على هذه الحملة لهذا السبب ، وكان لتفرق كلمتهم أثر عظيم في الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في بلاط الشهداء .

(٢) Lévi-Provençal, op. cit. p. 60. - حسين مؤنس ، المرجع السابق ص ٢٦٥ .

(٣) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، عن رينو ص ٩٩ .

(٤) Isidoro Pacense, Ajbar Máchmuâ, p. 156. - شكيب أرسلان ، المرجع السابق ص ٩٠ ،

١٠٠ - Lévi-Provençal, histoire, t. I, p. 61. - حسين مؤنس ، المرجع السابق ص ٢٦٦ .

على أسلحة المسلمين ، ثم إن هؤلاء المحاربون كانوا جنداً أقرباء ، لا يقلون عن العرب والبربر في قوة الشكيمة وفي الشجاعة والبطش ، وكان عبد الرحمن الغافقي يدرك تمام الإدراك أهمية المعركة القادمة في مصير غالة ، ولذلك كان يتحرق حماساً للقتال ، ولكنه كان يعلم أنه مقبل على مغامرة حربية أشد خطراً من مغامرة طارق بن زياد ، فقد كانت ظروف طارق أفضل بكثير من ظروف عبد الرحمن إذ كان التمهيد للفتح الإسلامي واضحاً ، فالبلاد منقسمة على نفسها والثورات تجتاح إسبانيا في الشمال وفي الجنوب ، وكان طارق يعتمد على حزب آل غيطشة ومواليه ممن كانوا ساخطين على لذريق ، وانضم إلى هؤلاء جماعة اليهود الذين هلّوا للمسلمين ودلّوهم على عورات البلاد وكانوا عاملاً هاماً في الفتح . أما عبد الرحمن الغافقي ، فكانت ظروفه أقل ملاءمة بكثير من ظروف طارق ، لأنه اقتحم بلاداً تختلف عن بلاد الأندلس من حيث المناخ والسكان ، كما أنه لم يكن للمسلمين فيها قواعد ثابتة يمكن أن يستمد منها عبد الرحمن ما شاء من النجديات ، ثم إن جنود المسلمين كانوا قد أوغلوا في البلاد وأثقلوا كاهلهم بالغنائم الكثيرة التي كانوا يحملونها معهم أينما توجهوا ، وكانت هذه الغنائم عبئاً ثقيلاً عليهم ، عاقبهم عن سرعة الفتح^(١) ، هذا إلى أن إمارات غالة كانت قد تكتلت جميعاً لمواجهة جيوش الإسلام وصدها إلى الجنوب ، ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق عاملاً آخر كان سبباً هاماً في ركود ريع الإسلام ببلاد غالة ، ذلك هو انقسام المسلمين على أنفسهم^(٢) . فقد كان جيش عبد الرحمن يتألف من أعداد هائلة من العرب اليمنيين ، والقيسيين الذين فرقت بينهم العنصرية القبلية ، كما أن البربر الذين يؤلفون العدد الأعظم من الجيش الإسلامي كانوا يحقدون على العرب بعد أن قتلوا زعيمهم مونوسة ، ونسى عبد الرحمن

(١) ذكر شكيب أرسلان نقلاً عن رينو الذي اعتمد بدوره على مؤرخ عربي لم يذكر اسمه ، أن عبد الرحمن كان يخشى على المسلمين من الغنائم الكثيرة التي كانوا يجربونها وراءهم أثناء زحفهم ، وأنه فكر في حملهم على تركها في أرضها لئلا تشغلهم عن القتال ، فتكون عليهم وبالاً ، ولكنه لم يشأ أن يثيرهم عليه في الوقت الذي كان يعمل فيه على توحيد صفوفهم . (انظر تاريخ غزوات العرب ص ١٠٠) .

(٢) ذكر المقرئ نقلاً عن ابن خلدون «أن عساكر المسلمين احتلوا البسائط وراء دروب الجزيرة ، وتوغلوا في بلاد الفرنجة ، وعصفت ريع الإسلام بأهم الكفر من كل جهة ، وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكثرة » ص ٢١٩ .

الغافق أن ذلك كله كان لا يمكن أن يسمح للعناصر المختلفة التي يتألف منها جيشه أن تتعاون فيما بينها ، كما أنه كان يشكل خطراً على وحدة الصف الإسلامي نتيجة لما قد يحدث من خلاف ونزاع بينها لو مات هو في المعركة ، وهو ما حدث بالفعل .

وكان المسلمون قد وصلوا إلى مدينة بواتيه Poitiers ، ودخلوها بعد أن أحرقوا دير سانت إيميليان St. Emilien وكنيسة سانت إيلير St. Hilaire^(١) . ثم واصل المسلمون زحفهم إلى الشمال نحو مدينة تور Tours ، وما كاد يخرج الجيش من بواتيه حتى علم عبد الرحمن بنأ وصول جيش هائل للفرنجة يقوده قارلة .

ثم حدثت المعركة الكبرى في سهل يقع شمالي بواتيه بالقرب من الطريق الروماني الذي يصل شاتلرو Chatellerault ببواتيه ، على بعد ٢٠ كم تقريباً إلى الشمال الشرقي من بواتيه ، وقد تكون هذه المعركة قد حدثت بالقرب من موضع يطلق عليه اليوم اسم موسيه لاباتاي Moussais la bataille^(٢) . وتضمنت المصادر العربية عن ذكر تفاصيل هذه الموقعة الفاصلة ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنها كانت كارثة على جيش المسلمين ، بحيث نفر قدامى المؤرخين من مجرد ذكرها ، فاندرجت أخبارها في زوايا النسيان .

وقع اللقاء بين الجيشين في أواخر شعبان ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢ م) ، وتذكر المصادر المسيحية أن المعركة استمرت ثمانية أيام^(٣) ، وأن المسلمين هم الذين بدءوا القتال ، وحدثت مناوشات بسيطة في اليومين الأولين ، ثم تحول القتال إلى صدام مروع ، ورجحت كفة المسلمين ، فقد أظهروا ثباتاً واستبسالاً رائعاً ، ولكنهم عند ما جاولوا اختراق صفوف الفرنجة ذهبت محاولاتهم عبثاً إذ تماسك الفرنجة ومن انضم إليهم من ألمان وسواث وسكسون ، كالأسوار المنيعه ، ولم يتركوا

(١) المرجع السابق ، عن رينو ص ١٠٠ .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 62.

(٣) شكيب أرسلان ، نقلا عن رينو ص ١٠١ .

ويذكر ليث بروفسال أن الموقعة امتدت ما بين يومى ٢٥ أكتوبر ، ٣١ منه (Hisoiret, t. I. p. 62)

للمسلمين مجالاً لاختراقها ، ويبدو أن أودوقد عرف نقطة الضعف في جيش المسلمين ، لعلاقته السابقة بهم ، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم في مؤخرة الجيش ، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته ، وبلغ هذا الهجوم المسلمين الذين يحاربون في ميمنة الجيش الإسلامي وميسرته فتراجع كثير منهم إلى المعسكر لاستخلاص الغنائم من أيدي الفرنجة ، فأخل هذا التراجع بنظام الجيش ، وحاول عبد الرحمن الغافقي عبثاً أن يعيد تنظيم صفوف جيشه ، غير أن نصيبه كان سهماً أوداه قتيلاً ، ولما رأى المسلمون قائدهم صريعاً ، اضطربت نفوسهم ، وارتبكت صفوفهم ، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان ، وراحوا يحصدونهم حصداً ، وصبر المسلمون على مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل بظلامه ، فحال بين الجيشين ، واجتمع كبار رجال الجيش ووجدوا أن صمودهم معناه القضاء على البقية الباقية من جيش المسلمين ، واختلفوا على تنصيب خلف لعبد الرحمن الغافقي ، فأجمعوا على الرجوع إلى ديار الإسلام فانهزوا فرصة ظلام الليل وتسللوا من معسكرهم تاركين خيامهم وغنائمهم التي لم يتمكنوا من حملها وراءهم إلى الجنوب الشرقي أملاً في التحصن بقاعدة المسلمين في سبمانيا وهي أربونة وذلك في أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢ م) ، وهكذا عاد فل الجيش الإسلامي إلى أربونة بعد أن دمر في طريقه ما صادفه من كنائس وأديرة مثل دير سوليتياك^(١) Solignac . أما الفرنجة ، فقد باتوا ليلتهم تلك وهم ينوون القضاء على المسلمين في صباح اليوم التالي ، فلما أدركهم الصباح ، نظروا إلى معسكر المسلمين ، فألفوه خالياً من أصحابه ، ولم يحاولوا قارلة أن يتتبع فلول المسلمين ، لأنه خاف أن يكون وراء تراجعهم كميناً نصبره لجيشه ، أو لأنه لقي صعوبة في قتاله للمسلمين ، فأثر أن يعود إلى الشمال معتزلاً بما أحرزه من انتصار على المسلمين^(٢) .

أما الموقعة فقد سماها مؤرخو العرب «ببلاط الشهداء» لكثرة من استشهد فيها

(١) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ص ١٠٢ - حيز مؤنس ، فجر الأندلس

ص ٢٧٥ .

(٢) شكيب أرسلان ص ١٠٢ .

من المسلمين^(١) ، وتعتبر هذه الموقعة من المواقع الفاصلة في التاريخ العام ، وذلك لما ترتب عليها من نتائج ، إذ أنها وضعت حداً للتوسع الإسلامي فيما وراء جبال البرت . وأصبح قادة المسلمين في الأندلس يحسبون لقوة قارلة حساباً كبيراً . أحدثت كارثة المسلمين في بلاط الشهداء دويماً هائلاً في إفريقية والأندلس ، فأُسرع وإلى إفريقية بتنصيب وال من قبله على الأندلس هو عبد الملك بن قطن الفهري . وفطن عبد الملك أول ولايته إلى الأثر السيئ الذي أحدثته هزيمة « أهل البلاط » في نفوس سكان شمالي الأندلس الجبليين (البشكنس) ، وسكان سبتانيا وما يليها من بلاد غالة . فغزا أرض الشكنس سنة ١١٥ هـ فأوقع بهم وغنم^(٢) ، ثم عبر جبال البرت إلى بلاد لانجدوك ، وعمل على تحصين المدن والمعقل التي كانت في أيدي المسلمين ، وكانت القوضى مستحكمة وقتئذ ببلاد سبتانيا وبروقانس على أثر هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ، وكان أمراؤها قد انتهزوا تفهقروا جيوش المسلمين من بروقانس إلى أربونة ، وانشغال قارلة ببسط سلطانه على برغندية وشمالي بروقانس ، وهي المناطق التي غزاها المسلمون أيام عنبسة ، ثم اضطروا إلى الجلاء عنها ، وانشغاله بعد ذلك بإخضاع الفريزون Frisons وهم أهل نهر الرين الأدنى ، ثم توزعوا البلاد فيما بينهم ، وعمد بعضهم إلى مخالفة المسلمين في أربونة لاتقاء بأس قارلة ، من أمثال هؤلاء مورونت Maurontes دوق مرسيلية الذي كان قد اقتطع لنفسه معظم إقليم بروقانس^(٣) ، وتمكن هذا الحاكم الإفريقي من الاتفاق مع حاكم أربونة المسلم وتسميه مدونة موساك باسم يوسف بن عبد الرحمن

(١) مر مؤرخو العرب مرأً سريعاً على هذه النكبة التي حلت بجيش المسلمين في غالة ، بل إن كثيراً منهم أخطأ في نسبة هذه الهزيمة إلى عبد الرحمن النافق ، ومن هؤلاء ابن حيان وابن خلدون ، ولقد سميت بلاط بسبب وقوعها بالقرب من الطريق الروماني المرصوف لأن كلمة بلاط تؤدي معاني كثيرة ، فهي تعني العصر مثل بلاط مغيث ، ولكنها لا تؤدي هنا هذا المعنى ، كما أنها تعني المسر الواقع بين صنى أعمدة وأقواس كما في أروقة المساجد ، وهو معنى بعيد أيضاً عما يقصده بـ بلاط . والمعنى الثالث لكلمة بلاط الذي ينطبق على بلاط الشهداء هو الطريق المرصوف أو الأرض المستوية أو الساحة الفسيحة المرصوفة (انظر الشريف الأدرسي : وصف المسجد الجامع بقرطبة ، نشر النص وترجمه Alfred Dessus Lamare ، الجزائر سنة ١٩٤٩ ، ملحوظة رقم ٥١ ص ٢٨ ، وانظر كذلك مقال بلاط الشهداء في Encyclopédie de l'Islam ، هذا وليس من الضروري أن الموقعة قد حدثت بالقرب من حصن أو قصر عظيم كما يذكر الدكتور حسين مؤنس (فجر الأندلس ص ٢٧١) فالمرصوف أن المواقع كانت تحدث في مواضع مستوية بعيدة عن العمران .

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٠ .

(٣) شكيب أرسلان ، ص ١٠٤ - حسين مؤنس ص ٢٧٧ .

Jusseph ibin Abderaman (١) ، وهو نفس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى آخر ولاية الأندلس من قبل الدولة الأموية ، على مهاجمة وادى ردونة (٢) بعد مضي سنتين من هزيمة بلاط الشهداء ، أى فى سنة ٧٣٤ م . فلقد أعد الحاكمان جيشاً كثيفاً عبر نهر ردونة ، واستولى على مدينة آرل ، ونهب أديرة سان أبوتر Couvents de Sts. Apôtres ، ودير العذراء ، وهدم ضريح سان سيزير St. Césaires ، ثم زحف الجيش إلى قلب بروفانس واستولى على مدينة فريتا Fretta المعروفة اليوم بسان ريمى دى بروفانس St. Rémi - de - Provence ، وأدرك صخرة أبنيون Avignon وافتتحها بعد قتال عنيف ، ووصل المسلمون بعد ذلك حتى أعالي نهر دورانس وتمكنوا من احتلال بلاد بروفانس زهاء أربع سنوات أى حتى سنة ٨٣٨ م ، ثم أرغموا قارلة بعد ذلك على العودة إلى أربونة بعد أن ضم دوقية أكتانيا إلى ممتلكاته عقب وفاة دوق أودوسنة ٧٣٥ (٣) .

وكان عبد الملك بن قطن قد عزل فى رمضان سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) عن إمارة الأندلس لظلمه وجوره (٤) ، وتولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولى من قبل عبيد الله بن الحبحاب ، وكان عقبة هذا محمود السيرة مجاهداً ، فأغار بجيشه على منطقة دوفينة Dauphiné ، وخرّب بلدة سان بول المعروفة بالقصور الثلاثة Trois Chateaux . ومدينة دونزير (٥) Donzaire ، واستولى على مدينة فالنس Valence الواقعة على نهر ردونة ، وخرّب كنائس منطقة قيين (على نهر ردونة) ، وهنا بعث قارلة أخاه شيلدبراند Childebrand على رأس جيش إلى ليون لإيقاف تقدم المسلمين وإجلائهم عن البلاد ، كما أرسل إلى لويتبراند Luitprand ملك اللومباردين يستنجد به ضد المسلمين ويسأله مهاجمتهم من الشرق ، فقدم شيلدبراند وحاصر المسلمين

(١) Chronicon Moissiacense, Apud Ajbar Machmuâ, p. ١66.

(٢) كان يوسف الفهرى عاملاً على أربونة فى عهد عبد الملك بن قطن ، وفى عهده صار رباط المسلمين على نهر ردونة (انظر فتح الطيب ج ١ ص ٢٢٠) .

(٣) شكيب أرسلان ، ص ١٠٥ - Lévi-Provençal, Histoire. t. I, p. 63. - حسين مؤنس ، ص ٢٧٨ .

(٤) المقرئ ، فتح الطيب ج ١ ص ٢٢٠ - شكيب أرسلان ص ١٠٥ .

(٥) شكيب أرسلان ص ١٠٥ - حسين مؤنس ص ٢٨٠ وما يليها .

في أبنيون، وتبعه قارلة بجيش آخر لإحكام الحصار حول أربونة، وفي الوقت نفسه أقبل لويتراند بجيشه من جهة ييمونت، فاستمات المسلمون بداخل المدينة في الدفاع عنها، ولكن الفرنجة دخلوها عنوة، واستأصلوا من بها من المسلمين. وزحف جيش الفرنجة بقيادة قارلة نحو أربونة بقصد الاستيلاء على سبتيانيا بعد أن صم بروفانس، وحاصر قارلة عاصمة الإقليم، فلما علم عقبة بأن قارلة قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشاً لنجدة أهل المدينة تحت قيادة رجل يسميه إيزيدور الباجي Amoriben Ailet^(١) ولعله عامر أو عمر بن الليث، وقدم هذا الجيش بحراً نظراً لوجود البشكنس حائلاً بين الأندلس وسبتيانيا، ويبدو أن قارلة علم برصول هذه النجدة ففاجأها على نهر برى Berre Fluvio^(٢) وأنزل بها هزيمة نكراء، وقضى على معظمها، وقتل قائدها عمر، ولم ينج من المسلمين سوى فل قليل عاد بعضهم إلى سفنهم، وفر الباقون إلى أربونة. حاول قارلة بعد ذلك أن يستولى على المدينة ولكن أهلها استبسلوا في الدفاع عنها، فاضطر أخيراً إلى رفع الحصار عنها^(٣)، خاصة عند ما بلغه قيام الثفرizon والسكسون بالثورة عليه، وقام أثناء عودته إلى الشمال بتخريب القلاع الإسلامية في سبتيانيا، مثل بيزيه Béziers، وأجدة Agde، ونيم Nimes، وماجلون Maguillon وأسير من كان بهذه المدن من المسلمين وكبار الغاليين، وقاد هؤلاء معه كرهائن حتى يرغم أهل سبتيانيا على خذلان المسلمين، إذ أن هؤلاء السكان كانوا ينظرون إلى قارلة وقومه كبرابرة من أهل الشمال، بينما يعتبرون أنفسهم أمة متحضرة ورثت مدينة الرومان^(٤).

ماكاد قارلة يعود إلى الشمال حتى ظهر مورونت دوق مارسيليا من جديد، وأخذ يحدد علاقاته مع المسلمين فخاف قارلة من نتائج ذلك، وعهد إلى القضاء على مورونت، فزحف إلى الجنوب، هو وأخوه شيلدبراند سنة ٧٣٩ م، واستوليا

(١) Chronicon Moissiacense. apud Ajbar Machmuâ, p. 166.

(٢) Ibid. p. 166.

(٣) شكيب أرسلان، عن رينر Reinaud ص ١٠٧ - حسين مؤنس، نجر الأندلس ص ٢٨٤

(٤) لم يطل العهد بأربونة إذ استولى عليها بين بن قارلة سنة ١٣٣ هـ (٧٥١ م) انظر :

Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 64, Note 1.

على مارسيليا ، وقضيا بذلك على آمال مورونت في إقامة دولة مستقلة تتعاون مع المسلمين .
ثم ابتسم الحظ للمسلمين ، إذ توفي قارلة سنة ٧٤١ م (١٢٣ هـ) ، واضطربت
أحوال الدولة الميروفنجية بعد وفاته ، وكان في مقدور المسلمين أن يستغلوا هذه
الفترة ويتوسعوا في غالة ، ولكنهم انهمكوا في القضاء على ثورة البربر ، وكان عبد الملك
ابن قطن الفهرى قد وثب سنة ١٢١ هـ هو ومن معه من البجنية على ولاية الأندلس ،
واغتصبها من عقبة بن الحجاج ^(١) ، واستبد بالبلاد ، واشتعلت على يديه نيران
الفتنة ، بين العصبيتين البجنية والمضرية في الأندلس ، إذ أنه استعان بالعرب
الشاميين الذين كان يحاصروهم البربر في سبتة لإخماد ثورة البربر البلديين في
شمال الأندلس بجليقية والدروب واسترقة وطليطلة ، ثم أراد أن يخرجهم من الأندلس
إلى حيث كانوا بسبتة ، مدفوعاً في ذلك بعصيته ضد الشاميين ، لأنه كان قد شهد
موقعة الحرة ^(٢) وهو صغير ولم ينس أهوالها ، فأخرجوه من قصره إلى داره ، كأنه
« فرخ نعامة لكبر سنه » ، وهم ينادونه « أفلت من سيوفنا يوم الحرة ، فطلبنا بثأرنا
في أكل الدواب والجلود ، ثم أردت إخراجنا إلى القتل » ، ثم قتلوه وصلبوه وصلبوا
خزيراً عن يمينه وكلباً عن شماله ^(٣) .

(١) يقول صاحب أخبار مجموعة عن عقبة ، أنه « افتتح الأرض حتى بلغ أربونة ، وافتتح جليقية
وألبة وبنبلونة ، ولم تبق بجليقية قرية لم تفتح غير الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاي ، فدخلها في
ثلاث مائة رجل ، فلم يزالوا يقاتلونه ويثأرونه حتى مات أصحابه ، وترامت طائفة منهم إلى الطاعة ، فلم
يزالوا ينقصون حتى بقى في ثلاثين رجلاً ليست معهم عشر نسوة فيما يقال إنما كان عيشهم بالعسل ، ولاذوا
بالصخرة ، فلم يزالوا يتقوتون بالعسل معهم جباح والنحل عندهم في خروق الصخرة ، احتوزوا ، وأعيى
المسلمين أمرهم فتركهم وقالوا ثلاثين علجاً ما عسى أن يكون أمرهم ، واحتقروهم . » (أخبار مجموعة ص
٢٨ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٤١) . وذكر ابن عذارى أنه « كان يجاهد المشركين في كل عام ، وينتزع
المدائن وهو الذي فتح مدينة أربونة وافتتح جليقية وبنبلونة ، وأسكنها المسلمين ، رعت فتوحاته جليقية
كلها غير الصخرة فإنه لجأ إليها . . . » (البيان المغرب ج ٢ ص ٤١) . وذكر المقرئ أنه كان
مظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة ، وصار رباطهم على نهر ودوقة . (المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص
٢٢٠) .

(٢) موقعة دارت بين الأمويين وأهل المدينة سنة ٦٢ هـ بالقرب من مكة وفيها أشفوا غليلهم بقتل
زهرة شباب أهل المدينة .

(٣) أخبار مجموعة ص ٤٢ - ابن عذارى ج ٢ ص ٤٥ .

قلما علم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب أربونة ، وقائد جيش المسلمين في غالة ، بمقتل عبد الملك بن قطن غضب غضباً شديداً وعزم على الانتقام من الشاميين ، فحشد جيشاً مؤلفاً من غالبية عساكر المسلمين في أربونة^(١) ، وأقبل به إلى الأندلس لمحاربة بلج بن بشر القشيري والشاميين ، وتضخم جيشه بمن انضم إليه من عسكر الثغر ، واشتبك جيشه مع جيش بلج في موضع يقال له أقوة برطورة Agua Bortora من إقليم ولبه Huelva ، فانهزم جيش عبد الرحمن وقتل من قواته نحو عشرة آلاف ، ولكن عبد الرحمن تمكن من قتل بلج القشيري بسهم فوقه إليه ، ثم انصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر^(٢) . والواقع أن رحيل عبد الرحمن بن علقمة إلى الأندلس مع جيوش المسلمين ، كان له أثر سيء على مركز المسلمين في غالة ، إذ أنه رحل إلى الأندلس بعد أن سحب معظم قوات المسلمين ، ونتيجة لذلك خرجت كثير من مدن سبانيا عن الحكم الإسلامي ، مثل نيم ومجلونة وأجدة ويزيه^(٣) ، كما استقلت بعض إمارات البربات مثل قنطابرية ونبرة .

ولما تولى يوسف بن عبد الرحمن القهري إمارة الأندلس أنفذ ابنه عبد الرحمن على رأس جيش إلى أربونة وما يليها لضبطها ، ويبدو أن عبد الرحمن فشل في مهمته بسبب ضعف النفوذ الإسلامي هناك ، وبسبب انقطاع الاتصال بين الأندلس وسبانيا عقب انتفاض أهل جليقية على المسلمين ، وتغلب بلاى على أشتوريش ، وانتهز بين الثاني ابن قارلة المعروف باسم Pepin Le Bref هذه الفرصة وعجل بالسير نحو أربونة قبل أن يسبقه إليها فايفر Vaifre ابن أودو ، دوق أكيثانيا . سار بين إلى اللانجدوك واستولى على نيم وأجدة ومجلونة ويزيه ، ومن هناك تقدم إلى أربونة حيث حاصرها ، وضيق عليها ، وافتتحها سنة ١٣٣ هـ (٧٥٢ م) ، وإن

(١) ذكروا أن عدد جنود جيشه بلغ مائة ألف (انظر أخبار مجموعة ص ٤٣) ويذكر ابن القوطية أن عدد قواته بلغ ٤٠ ألفاً ، وهذا العدد أقرب إلى الصواب .

(٢) ابن القوطية ، ص ١٦ وما يليها - أخبار مجموعة ص ٤٣ .

(٣) شكيب أرسلان ص ١١٢ - حنين مؤنس ص ٢٨٨ .

كان رينو يؤكد أنه لم يفتحها إلا عام ١٤١ هـ (٧٥٩ م) ^(١).

ثم أخذ نفوذ الفرنجة في أواخر أيام بين وبداية عهد ابنه شارل المعروف بشارلمان يتغلغل في شبه جزيرة أيبيريا ، ففي سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) سلمت مدينة جرندة للقوات الإفرنجية ^(٢) ، وذلك قبيل وفاة الأمير عبد الرحمن بن معاوية بزمن وجيز ، كذلك أغزى الأمير هشام بن عبد الرحمن قائده عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة إلى هذه المدينة ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها ، فرجع عنها الحصار ، واستمر في زحفه إلى سبانيا ، حتى انتهى « إلى مدينة أربونة فأوقع بها وأحرق أرباضها » ^(٣) ، وكان لويس بن شارلمان ملك أكتانيا مشغولاً في حروبه بإيطاليا ، وكان أبوه شارلمان مشغولاً بمقاتلة الآفارين ، فاضطر دوق طولوشه جين Guillen المعروف في شعر الملاحم الفرنسية باسم جيوم ذي الأنف القصيرة Guillaume au nez court إلى صد الجيش الإسلامي الذي تأهب للتقدم نحو قرقشونة ، والتقى الجيشان على ضفاف نهر أريبو Orbieu بالقرب من قرية فيلديني Ville d'aigne ، وتقع بين قرقشونة وأربونة ، وفيها انهزم جيش جيوم هزيمة نكراء ^(٤) ، وغنم المسلمون غنائم هائلة ، وحملوا معهم إلى قرطبة عدداً كبيراً من الأسرى ، ويذكر ابن عذارى أن عبد الملك بن مغيث جال في بلاد العدو شهوراً يحرق القرى ويخرب الحصون ^(٥) ، وإن كان بعض المؤرخين العرب يؤكد أن عبد الواحد بن مغيث افتتح أربونة ، وأن الأمير هشام أقام قنطرة قرطبة

(١) شكيب أرسلان ، عن رينو ص ١١٣ . ذكر رينو أن بين اضطر إلى رفع الحصار عن أربونة ، فلما كان عهد عبد الرحمن الداخل فكر في تدعيم السلطان الإسلامي في مدينة أربونة وما يليها ، وأنفذ جيشاً تحت قيادة أمير اسمه سليمان أملاً في تخفيف الضغط عليها ، ولكن النصارى هاجموا الجيش الإسلامي في شعاب الجبال وهزموه هزيمة شنعاء ، وانتهز نصارى أربونة هذه الفرصة واتفقوا مع بين سرّاً على تسليم المدينة نظير أن يتركهم أحراراً في مدينتهم ، وفاجأوا الحامية الإسلامية وقتلوا رجالها جميعاً ، وسلموا المدينة للفرنجة سنة ٧٥٩ م (انظر شكيب أرسلان ص ١١٣ - فجر الأندلس ص ٢٩١) .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 128 et sq.

(٣) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٩٥ .

(٤) Lévi-Provençal, op. cit. p. 145. - شكيب أرسلان ص ١٢٧ .

(٥) ابن عذارى ص ٩٥ .

وجامعها من خمس غنائمه (١) .

ولاشك أن المسلمين اقتصروا على الإغارة على أربونة وما يليها ، وأنهم لم يفتحوا عاصمة سبانيا بدليل أن المدونات المسيحية لم تشر إلى شيء من ذلك ، ثم إن المقرئ يعاود الحديث عن مهاجمة المسلمين لبلاد الفرنجة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقد « أغزى حاجيه عبد الكريم في العسكر إلى بلاد برشلونة فعاث نواحيها ، وأجاز الدروب التي تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة ، فدوخها قتلاً وأسراً وسبياً ، وحاصر مدينتها العظمى جرندة وعاث في نواحيها ، وقفل » (٢) ، وقد أحاط الأعداء بعساكره ليلاً عند ما عسكرت بين أربونة وشرطانية Cerdana فقاتلهم المسلمون الليل كله وهزمهم (٣) .

وعاود المسلمون غزو أربونة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، فقد ذكر بن بشكوال أن من أبواب قصر قرطبة باب بطل على السطح المشرف « وعليه باب حديد فيه حلق لاطون ، قد أثبتت في قواعدها ، وقد صورت صورة لإنسان فتح فيه ، وهي حلق باب مدينة أربونة من بلد الإفرنج ، وكان الأمير محمد قد افتتحها ، فجلب حلقها إلى هذا الباب » (٤) .

ومع كل هذه الغزوات ، فقد امتعت أربونة على المسلمين ، واستعصت عليهم ، ولم يمض عهد قصير حتى انقطعت هذه الغزوات تماماً ، بانقطاع الاتصال بين الأندلس وسبانيا .

(١) ابن القوطية ص ٤٣ . وذكر المقرئ أن مدينة أربونة الشهيرة فتحت في أيام الأمير هشام الذي « اشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صغاب شروطه انتقال عدد من أحوال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة ، وبني منه المسجد الذي قدام باب الجنان ، وفضلت من منه فضلة بقيت مكونة » (ج ١ ص ٣١٦) . وفي موضع آخر يقول إنه أزد في جامع قرطبة زيادته المشهورة من خمس في أربونة (ج ٢ ص ٩٧) . ويحدد ابن عذاري هذا القدر بنحو ٤٥ ألفاً من الذهب العين (ابن عذاري ج ٢ ص ٩٥) .

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٤ .

(٣) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٢ .

التزاع بين العرب والبربر

يبدأ هذا التزاع منذ ولاية يزيد بن أبي مسلم على أفريقية في عهد يزيد عبد الملك سنة ١٠١ هـ (٧٢١) م . وكان يزيد بن أبي مسلم كاتباً للحجاج ابن يوسف المعروف بتعصبه للعرب على الموالى واستبداده بهم ، فتشبه يزيد بالحجاج ، واستبد مع البربر ، واستخف بهم ، واشتد عليهم في جمع أموالهم ، وسبي نساءهم ، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم ، وذكروا أنهم خرجوا على ولاية المغرب وعماله لأن الخليفة وولده كانا يكتبان إلى عمال طنجة « في جلود الخرفان العسلية فتذبح مائة شاة فربما لم يوجد فيها جلد واحد »^(١) . وكان يزيد بن أبي مسلم « ظلوماً غشوماً » ، وكان البربر يحرسونه ، فقام على المنبر خطيباً ، فقال : إني رأيت أن أرسم اسم حرمي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحراسها ، فأرسم في يمين الرجل اسمه وفي يساره « حرمي » ، ليعرفوا بذلك بين سائر الناس ، فإذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به . فلما سمعوا ذلك منه اتفقوا على قتله وقالوا : جعلنا بمنزلة النصاري ، فلما خرج من داره إلى المسجد لصلاة المغرب قتلوه في مضلاه »^(٢) .

وخلفه بشر بن صفوان وكان كلياً فأقام عنبة على الأندلس وقتل عبد الله ابن موسى بن نصير ، وتبع أنصاره بالتعذيب واستصنى بقاياهم . فلما مات بشر سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧) م ولي هشام بن عبد الملك مكانه قيسياً ، هو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، وكان عبيدة رغم حسن رأيه وحزمه شديداً في معاملته للبربر ، فأسرف في غزو قبائلهم وسبي نساءهم وبالف في التعسف معهم والبحور بهم ، ثم استعنى من منصبه ، بعد أن ولي ما يقرب من أربع سنوات ونصف ، وولى الخليفة

(١) أخبار مجمعة ص ٣٢ .

(٢) ابن عذاري ، البيان ج ١ ص ٤٨ .

هشام مكانه عقبة بن قدامة في شوال سنة ١١٤ هـ، ثم خلفه عبيد الله بن الحبحاب ،
الذي قدم أفريقية في ربيع الآخر سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م) . وكان قيسياً متعصباً
لقيسيته ، كما كان متعصباً للعرب ضد البربر ، فجعل يتعسف معهم كما كان
يتعسف مع اليمانية ، وبدأ البربر يتطلعون إلى الخلاص ، وبلغ من استخفاف
عبيد الله بهم أن اعتبرهم جميعاً فيثاً للمسلمين أو عبيداً لهم ، إذ أنه أقام على طنجة
عمر بن عبد الله المرادي ، « فأساء السيرة وتعدى في الصدقات والعشر ، وأراد
تخسيس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وإنما
كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام ، فكان فعله الذميمة سبباً لنقض البلاد
ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد »^(١) . وهكذا كانت نفوس
البربر تغلي في الوقت الذي انقسم فيه العرب إلى عصبيتين ؛ القيسية واليمانية . وفي
أثناء ذلك كثرت مجيء الخوارج إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة ، وتسألوا
بين قبائل البربر ، وأخذوا يثيرون تعائيمهم بينهم ، واقتنع البربر بهذه التعاليم ، فاعتنقوها ،
وظهر لهم رئيس يعرف بميسرة المدغرى^(٢) ، نصب نفسه إماماً وتسمى بالخلافة ،
والتف حوله البربر . واقتدى خوارج البربر بالخوارج الأزارقة وأهل النهروان أصحاب
الراسبي عبد الله بن وهب ، فحلقوا الرؤوس^(٣) ، وسنحت الفرصة لميسرة للخروج
على العرب ، فقد انتهر فرصة خروج جيش العرب بقيادة حبيب بن أبي عبدة
في حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ونقضوا الطاعة لعبيد الله بن الحبحاب
بطنجة وأقائمتها ، وتداعت برابر المغرب بأسره ، فثار البربر في المغرب الأقصى
سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) ، وخرج ميسرة المدغرى ووثب على عمر بن عبد الله المرادي
بطنجة فقتله . ثم ترك ميسرة على طنجة عبد الأعلى بن حديد ، وزحف إلى إسماعيل
ابن عبيد الله ابن الحبحاب في منطقة السوس فقتله ، وهكذا تخرج موقف عبيد الله
ابن الحبحاب في بلاد المغرب ، وساء مركز العرب ، وغضب عبيد الله لمقتل ابنه
إسماعيل وعامله عمر بن عبد الله المرادي ، فكتب إلى حبيب بن أبي عبدة يأمره

(١) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٥٢ .

(٢) ميسرة المدغرى أو المطغرى ويدرف بالحقير بائع الماء بسوق القيروان (انظر ابن التوطية

ص ١٤ - البكري ، ص ١٢٤) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٣٢ .

بالرجوع من صقلية حتى يتمكن العرب من مواجهة ثورة البربر ، وأعد عبيد الله جيشاً مؤلفاً من خيار العرب ، جعل على رأسه خالد بن أبي حبيب الفهرى ، وتقدم جيش العرب قاصداً جيش ميسرة ، وعبر خالد وادى شليف بالقرب من تاهرت ، والتقى بجيش حبيب بن أبي عبدة القادم من صقلية . ومضى خالد حتى لقي ميسرة بالقرب من طنجة فاقتتل جيشاهما ، وتراجع ميسرة ، فثار عليه البربر وقتلوه ، وولوا أمرهم مكانه زعيماً من زعمائهم هو خالد بن حميد الزناتى ، فالتقى خالد بن أبي حبيب بالبربر وعلى رأسهم ابن حميد الزناتى ، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام جموعهم الهائلة ، فانهزم ، وانهزم وراءه العرب هزيمة نكراء لم يسمع بمثلها قط ، وقتل ابن أبي حبيب ومن معه ، ولم يبق من أصحابه رجل واحد ، فقتل في تلك الواقعة حماة العرب وفرسانها وكمائتها وأبطالها فسميت الغزوة غزوة الأشراف^(١) وانتقضت البلاد ، وعمت الفوضى ، وانتشر الذعر في نفوس العرب ، وبلغ أهل الأندلس ثورة البربر بالمغرب ، فوثبوا على أميرهم عقبة بن الحجاج فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن^(٢) ، فاختلفت الأمور على ابن الحبابة . ولا علم الخليفة هشام بن عبد الملك بهذه الهزيمة ، عزل عبيد الله عن أفريقية سنة ١٢٣ هـ (٧٤٠ م) وقال : « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي^(٣) . وأرسل جيشاً ضخماً عدته ٢٧ ألفاً من الشاميين^(٤) ، انضم إليهم ثلاثة آلاف من مصر ، فأصبح مجموع الجيش ثلاثين ألفاً جعل على قيادته كلثوم بن عياض القشيري الذي تولى المغرب بدلا من عبد الله بن الحبابة . وأوصاه هشام بمحاربة البربر ، وجعل الأمر من بعده إلى ابن أخيه بلج بن بشر القشيري إن هو أصيب ، وجعل الأمر بعد بلج إن أصيب إلى ثعلبة بن سلامة العاملى^(٥) ، وكلهم من غلاة القيسية على خلاف العرب الأفارقة أى الذين توطنوا

(١) ابن عذارى ، البيان ج ١ ص ٥٢ .

(٢) ابن القوطية ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) كان هذا الجيش يتألف من أجناد من الشام منها : جند أهل الأردن وعلى رأسه ثعلبة بن سلامة العاملى وجند قنسر ، بن وعدده ثلاثة آلاف ، وجند مصر وعدده ثلاثة آلاف (انظر أخبار مجموعة ص ٣١) .

(٥) ابن القوطية ص ١٤ - أخبار مجموعة ص ٣٠ .

إفريقية منذ أيام الفتح العربي للمغرب ، وأصبحوا بلدين شأنهم في ذلك شأن عرب الأندلس ، وكان معظمهم من أتيجيين وأهل الحجاز ، وكانت بين عرب الحجاز وعرب الشام ثارات وأحقاد دقينة ترجع إلى أيام وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ ، وكان الموقف يستلزم نسيان هذه الأحقاد أمام الخطر الجاثم . فاتحد العرب البلديون برئاسة حبيب بن أبي عبدة بن عقبة مع العرب الشاميين الذين أرسلهم الخليفة هشام لنجدة عرب المغرب ، وأصبح بذلك عدد الجيش سبعين ألفاً ^(١) ، وكان الخليفة قد أمر كلثوم أن يستخدم هرون القرني مولى معاوية بن هشام ومغيثاً مولى الوليد لمعرفتهما بالبلاد ، فجعل كلثوم على رجالة إفريقية مغيثاً ولجعل على خيلها هرون القرني .

ثم أقبل البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتي في جموع هائلة لا عدد لها ولا حصر ، حتى التقوا بجيش العرب على وادي سبو عند بليدة بقدورة ، وذلك سنة ١٢٤ هـ ، ونصح مغيث وهرون كلثوم بإقامة خندق بمعسكر المسلمين وقالوا له : « خندق أيها الأمير وتلوم بالكرايس ^(٢) ، وأعطنا الخيل نخالفهم إلى قراهم ودراريهم ^(٣) » ويبدو أن كلثوم قد اقتنع بوجهة رأيهما فقد هم بتمر الخندق حول المعسكر ، غير أن بلج قاطعه في ذلك ، وكان كلثوم لا يعصيه ، فقال له بلج : « لا تفعل ولا يرعك كثرة هؤلاء فإن أكثرهم عريان أعزل لا سلاح لهم » ^(٤) ، فناشبههم كلثوم القتال ، وجعل بلج ابن أخيه على قيادة الخيالة الشاميين وهرون القرني على خيالة عرب إفريقية ، ومغيثاً على رجالة عرب إفريقية بينما قاد كلثوم رجالة أهل الشام ، واشتد القتال ، ولجأ البربر إلى وسيلة مبتكرة كسبوا بها المعركة ، فقد كانوا يستقبلون خيل بلج بالجلود اليابسة المحشوة بالحجارة ، فيرغمون خيل أهل الشام على النكوص ، كما عمدوا إلى الرمك الصعبة فعلقوا في أذناها القرب والأنطاع اليابسة ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم ، فنفرت الخيل ^(٥) . عندئذ اضطر كلثوم إلى المنادة

(١) أخبار مجموعة ص ٣١ .

(٢) الكرايس : المبارزات .

(٣) أخبار مجموعة ص ٣٢ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٢ .

(٥) نفس المرجع ص ٣٣ .

بالتزول عن الخيل ، وكان هذا هو ما كان يقصده البربر ، فلم تكن لديهم خيول تكافئ خيل المسلمين ، فاعتمدوا على كثرتهم ، أما بلج فقد بقى في طائفة من خيله اثني عشر ألفاً ويقال سبعة آلاف وهو أصح العددين ، وزحف البربر وبلج يحاول أن يصدّهم دون جدوى ، وخالط البربر جيش أهل الشام وانقضوا على صفوفهم ، وحاصروا بلجاً ، فحالوا بينه وبين العودة إلى عسكره ، واشتد الأمر على جيش العرب فقتل حبيب بن أبي عبيدة القرشي ، وقتل مغيث ، وقتل هرون ، وقتل سليمان بن أبي المهاجر ، وانهمزت خيل أهل إفريقية ورجالها ، وثبت كلثوم ولكنه قتل ، وهزم جيشه هزيمة شنيعة ، وركب من نجا من العرب منهزماً إلى إفريقية ، وتبعهم البربر يقتلونهم ويأسرونهم ، حتى لقد ذكروا أن البربر قتلوا ثلث الجيش وأسروا ثلثه الثاني وطاردوا الثلث المنهزم^(١) . أما بلج فلم يجد بداً من الفرار هو ومن بقى من فرقته وعددهم عشرة آلاف فلاذ بمدينة سبتة ، وأقبل البربر يحاصرون المدينة ويهاجمونها المرة بعد المرة ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها لحصانتها ومناعتها ، فعمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها فأفقرت الأرض حول سبتة مسيرة يومين ، وبذلك قطعوا عن العرب المعاش ، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم ، وأكلوا الجلود ، وأشرفوا على الهلاك^(٢) ، واضطر بلج إلى الاستنجاد بعبد الملك بن قطن وإلى الأندلس ، واستأذنه في العبور إلى الأندلس هو وأصحابه . وذكر له ما صاروا إليه من الجهد . فتغافل بهم ابن قطن ، وسره هلاكهم وخافهم على سلطانه^(٣) ، فلما رأى عرب الأندلس إشراف إخوانهم على الهلاك في سبتة أمدّهم رجل من لحم يقال له عبد الرحمن بن زياد الأحرم بقارين قد شحهما بالشعير والأدم ، فأتاهم ذلك ولكنه لم يكفهم ، حتى أشرفوا على الهلاك فأكلوا العشب . واتفق أن ثار بربر الأندلس على عربها عند ما بلغهم ظهور بربر العدو على عرب المغرب والشام ، فأخرجوا « عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب استرقة والمدائن التي خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس »^(٤) ويبدو أن

(١) ابن القوطية ص ١٥ - أخبار مجموعة ص ٣٤ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٧ - ابن عذارى ج ٢ ص ٤٢ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٣٧ وما يليها - ابن عذارى ص ٤٢ . وذكر ابن القوطية أنه شاور أهل

الرأى عنده في استقدام العرب الشاميين إلى الأندلس فقالوا له : إن دخل عليك هذا الشام عزلك ، فلم

يجابوه « (انظر ابن القوطية ص ١٦) . (٤) أخبار مجموعة ص ٣٨ .

البربر وثبوا على العرب في المناطق البعيدة عن مركز الإمارة ، الواقعة في أطراف الأندلس ، مثل المناطق الشمالية في جليقية وأشتوريش وغرب الأندلس ، وهي المناطق التي يسكنها جمهور البربر ، حيث يؤلفون هناك أغلبية السكان ، بينما كان العرب أقلية بالنسبة إلى كثرة البربر العددية ^(١) ، ويدل على ذلك أن البربر لم يهاجموا عرب سرقسطة ونغرهم لأنهم كانوا يتفوقون في العدد على البربر . التفت بربر الأندلس حول زعيم لهم اسمه ابن هدين ^(٢) أو زقطرتق ^(٣) على نحو ما فعله بربر المغرب من مبايعتهم ليسرة ثم لابن حميد الزناتي ، ولما تخرج مركز ابن قطن بثورة البربر ، أخرج إليهم جيوشاً ، هزموها وقتلوا العرب في الآفاق ، فخاف أن يكون مصير العرب في الأندلس مصير بلج ورفاقه المحصورين في سبتة ، فاضطر إلى التعاون مع الشاميين للقضاء على العدو المشترك ، وعزم على السماح لهم بالعبور إلى الأندلس بشرط أن يارحوا الأندلس بعد انتهاء مهمتهم ، فأرسل إليهم السفن وعليها الأطعمة والأدم ، ولكنه اشترط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجون عنها إلى إفريقية ، فرضوا بذلك ، كما اشترط عليهم أيضاً أن يسلموه رهائن منهم ، أنزلهم بجزيرة أم حكيم ، ثم أذن لبلج وأصحابه بالدخول إلى الأندلس ، فدخلوا عراة لا يوارهم إلا دروعهم ، وقد بلغ بهم الجهد كل غاية ، « وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام ، فلما دخلوا كساهم عرب الأندلس على قدر أقدارهم ، فرب رجل يكسو مائة رجل ، وآخر عشرة ، وآخر واحداً إلى ما بين ذلك » ^(٤) ، وأعطاهم ابن قطن العطايا . وبدأ عرب الشام مهمتهم بمهاجمة جماعة من البربر بقيادة رجل من زناتة ، كانوا قد انتقضوا على عبد الملك بن قطن في شنونة ، فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم ، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم ، فاكتسى أصحاب بلج ، وانتعشوا ، وأصابوا المغانم ، ثم نهضوا مع عبد الملك إلى قرطبة ^(٥) ،

(١) يوضح صاحب فتح الأندلس ذلك فيقول : « وتطاولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية واسترقة والمدائن التي خلف الدروب ، وقتلوه وطردوهم لكثرتهم هناك وقلة العرب » ص ٣١

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٩ .

(٣) فتح الأندلس ص ٣١ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٣٩ .

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٣ .

ومنها اتجهوا شمالاً . أما البربر فقد أقبلوا في حشود هائلة من جليقية واسترقة وماردة وقورية وطلبيرة متجهين جنوباً نحو قرطبة ، وعبروا نهر تاجة ، والتقوا مع قوات العرب البلديين والشاميين ، في حوز طليطلة على وادي سليط ، فحلق البربر رؤوسهم اقتداءً بميسرة ، «ولكى لا ينحى أمرهم وليضربوا ولا يخلطوا»^(١) ، ثم انحط الشاميون على البربر كالبواشق حائقين ، فزقوا صفوفهم ، وأذرعوا فيهم القتل ، وأبادوهم ، فأطفأوا بذلك جمرة تقسمهم ، بحيث لم ينج من البربر إلا من فر بحياته ، وبذلك انتهت مهمة بلج ، وطالبه عبد الملك بن قطن بالخروج من الأندلس ، فسأله بلج وأصحابه أن يهيء لهم الرحيل من ساحل البيرة أو ساحل تدمير^(٢) في سفن إلى تونس ، فاعتذر عبد الملك عن ذلك بوجود السفن في الجزيرة الخضراء لكي تنقلهم إلى سبتة ، فقالوا له : «تعرضنا لبربر طنجة ، اقلد بنا في بلجة البحر أهون علينا فلما رأوا ما يريد بهم ، وثبوا عليه فأخرجوه من القصر وأدخلوه بلجا أصحابهم ، وبايعوا له ونزل ابن قطن داره وهي التي يقال لها دار أبي أيوب»^(٣) ، وتم ذلك في أول ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ . ونتيجة لذلك اختلط أمر الناس في الأندلس ، وأمسك والى الجزيرة عن إمداد الرهائن الشاميين الذين كان قد وضعهم ابن قطن في جزيرة أم حكيم بالطعام والشراب ، فمات من الرهائن رجل غساني من أشرف أهل الشام ، وأتهم عرب الشام ابن قطن بأنه السبب في موته ، وثار عرب اليمن لموت الغساني ، وطالبوا بلجا بأن يسلم لهم ابن قطن ليقتلوه مقابل الغساني ، فحاول بلج أن يردهم عن ذلك عبثاً ، إذ أتهموه بأنه يحمي مضراً ، فخاف أن تتفرق كلمتهم ، فأمر بإخراجه من داره ، فأخرجوه وهو شيخ كبير تجاوز التسعين ، وهم ينادونه : «يا قال : قلت من سيوفنا يوم الحرة ، ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرة ، ثم بيعت جند أمير المؤمنين»^(٤) ، فقتلوه عند رأس القنطرة وصلبوه .

(١) أخبار مجموعة ص ٤٠ .

(٢) ابن عذارى ص ٤٤ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٤١ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٢ .

تحول النزاع بين البلديين والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمينية

أثار مقتل عبد الملك بن قطن موجة من الغضب في الأندلس ، واتحد العرب البلديون بقيادة قطن وأمية ابني عبد الملك مع البربر الذين كانوا يتلهفون لنيل ثأرهم من أهل الشام ، وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي عامل عبد الملك في أربونة وجيوشه الإسلامية المربطة في سبانيا ، كما انضم نفر من أصحاب بلج ممن سخطوا على بلج فتك به عبد الملك مثل عبد الرحمن بن حبيب ، والتقى هذا الجيش مع جيش الشاميين في موضع يقال له أقوة برطورة ، وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين ومقتل بلج ، فتولى أمر قرطبة والشاميين والأوربيين ثعلبة بن سلامة العامل ، ولما بلغ الخليفة هشام بن عبد الملك ما أصاب اليمينية على أيدي القيسية والشامية ، شاور أخاه العباس ابن الوليد في هذا الأمر ، فنصحه بتولية أحد اليميين على الأندلس ، فقبل الخليفة منه ذلك ، واتفق في ذلك الوقت ورود أبيات كتبها أبو الخطار بن ضرار الكلبي من إفريقية يقول له فيها :

أفأتم بنى مروان قيسا دماونا	وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط	ولم تعلموا من كان تم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا	وليست لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا	وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا	بلاء وأنتم ما علمت لها فعل
فلا تجزعوا إن غضت الحرب مرة	وزلت عن المرقاة بالقدم النعل
تصرم جبل الوصل وانقطع القوى	ألا ربما يلوى فينقطع الحبل ^(١)

فلما وردته هذه الأبيات ولي حنظلة بن صفوان الكلبي على إفريقية ، وأمره أن يولي ابن عمه أبا الخطار الأندلس ، ليضع حداً للفتنة القائمة بين البلديين والبربر

وبين الشاميين ، فقدم إليها في رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣ م) ومعه سجل
الولاية من حنظلة بن صفوان ، وفي رفقته ثلاثون رجلا ، هم الطالعة الثانية من العرب
الشاميين ^(١) .

وكانت الحرب ما تزال ناشبة بين الشاميين والبلديين ، فبعد أن قتل بلج من
ضربتي علقمة ، تولى ثعلبة بن سلامة العامل ، وقام بمحاربة حشود أهل البلد العرب
والبربر في ماردة ، فقاتلهم قتالا شديدا فهزمهم وأذرع فيهم قتلا ثم سبي ذراريهم ،
وقيل إنه عاد إلى قرطبة يحمل ما يزيد على عشرة آلاف من السبي ^(٢) ، ونزل ثعلبة
في المصارة من أرباض قرطبة يبيع سبي ذراري أهل البلد ، وكان يبيع شيوخ البلديين
من العرب فيمن ينقص من الثمن ، وبالع في ذلك حتى باع أحد رجال عرب
المدينة بكلب ، وبينما كان يقوم ببيع الأسرى والسبي من عرب قرطبة ، قد شبك
في الحبال الوالد بالولد ، إذ أقبل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي واليا من قبل
حنظلة بن صفوان ومعه ثلاثون رجلا ، وكان يحمل لواء في سن ^(٣) ، فأمر
بإطلاق الأسرى والسبي ، فسمى عسكره لذلك عسكر العافية ^(٤) . واجتمع على أبي
الخطار عرب البلد وعرب الشام ، ودانت له الأندلس بعد أن جمع كلمة المسلمين
بعد الفرقة ، واجتث أصول الفتنة ، فأمر بإخراج ثعلبة بن سلامة العامل ^(٥) والوقاص
ابن عبد العزيز الكنانى ، وعثمان بن أبي نسة الخثعمي من الأندلس إلى طنجة ، هم
وعشرة من قواد الشام ، وأمن ابنى عبد الملك بن قطن فاستقامت حال الناس في
في البلاد واطمثنوا إلى معاشهم ^(٦) . ثم نظر في توزيع جند الشام عن قرطبة إلى كور
الأندلس ليقتضى على عوامل الاضطراب ، فأنزل جند دمشق بالبيرة وسماها دمشق ^(٧) ،
وأنزل جند الأردن بكورة رية ، وجند فلسطين بشدونة ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند

(١) ابن القوطية ص ١٩ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(٣) ابن القوطية ص ١٩ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٤٦ - ابن عذارى ج ٢ ص ٤٩ .

(٥) ذكر ابن خلدون أن ثعلبة مضى إلى المشرق ولحق بمروان بن محمد وحضر حروبه (المقرئ

ج ١ ص ٢٢٢) .

(٦) ابن القوطية ص ٢٠ - أخبار مجموعة ص ٤٦ - ابن عذارى ج ٢ ص ٤٨ وما يليها .

(٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ .

قنسرين بحيان، وجند مصر بياجة وتدمير، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم من أرض ونعم، ولم يمس غنائم البلديين من العرب والبربر بنقص. وهكذا بدأ أبو الخطار عهده بداية طيبة، ولكنه بالرغم مما قام به من جمع الكلمة والقضاء على الفتنة، كان يمتنح متعصباً ليمنيته، فما لبث أن انحرف عن طريق الإصلاح بالرغم منه لتعصبه لليمنية، واعتزله القيسية، وكان سبب ذلك أن أحد القيسيين قتل أحد أصحابه وهو سعد بن جواس، فكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى، وحدث أن اختلف أحد المضريين مع أحد اليمنيين، فشكاه اليمنى إلى أبي الخطار، فجار أبو الخطار في حكمه وتعصب لليمنى، فالتجأ المضري إلى الصميل بن حاتم بن شمر ويلقب بذي الجوشن، وكان زعيماً للقيسية في الأندلس، فأقبل الصميل إلى أبي الخطار للتفاهم معه فيما حدث، فسبه ولكزه أمام الجند، فخرج من حضرته وهو عازم على إثارة قومه على اليمنيين^(١)، وعاد إلى داره، وبعث إلى خيار قومه، فشكا إليهم ما لقي عند أبي الخطار^(٢)، وألهم عليه، واستعان بالمنحرفين عن أبي الخطار من اليمنية^(٣)، ويبدو أن قومه أجمعوا على نصرته وقالوا له: «نحن تبع لك^(٤)»، فقال: والله ما أحب أن أعرضكم للقضاعية ولا لليمانية، ولكني سأتلطف، وأدعو ألفة مرج راهط^(٥)، وأدعو لحما وجذاما، وتقدم رجلاً يكون له الاسم ولنا الحظ^(٥)». فكتبوا إلى ثوبة بن سلامة الجذامي من جند فلسطين بذلك، فوافق عليه وأجابته لحما وجذام. ولما علم أبو الخطار بذلك خرج لمحاربتهم فهزمه ثوبة بالقرب من نهر شذونة وأسرهم، ودخل قصر قرطبة، وأبو الخطار معه يرسف في قيوده^(٦). وتولى ثوبة إمارة الأندلس بتدبير الصميل سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ م)، وأقام عاماً واحداً ثم توفي

(١) ذكر ابن خلدون (عن المقرئ ج ١ ص ٢٢٢) أن أبا الخطار أمر جنده بضرب الصميل، فضربوه حتى مالت عمامته من على رأسه، ولما خرج سأله أحد الحراس: أصلح عمامتك يا أبا الجوشن، فرد عليه: إن كان لي قوم فيقيمونها، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب بين المضرية وبين اليمنية.

(٢) أخبار مجمرة ص ٥٦.

(٣) المقرئ ج ١ ص ٢٢٢.

(٤) أخبار مجمرة ص ٥٦ - ابن عذارى ج ٢ ص ٥٠.

(٥) هي موقعة حدثت بالقرب من دمشق في عهد مروان بن الحكم في بداية خلافته بين اليمنيين أصحاب مروان وبين الضحاك بن قيس زعيم المضريين الذي كان يؤيد عبد الله بن الزبير، وفيها قتل اليمنيون الضحاك وعدداً كبيراً من المضرية.

(٦) أخبار مجمرة ص ٥٧ - ابن عذارى ج ٢ ص ٥٠.

في سنة ١٢٩ هـ . فاجتمع أهل الأندلس على أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهري ، وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وكان طاعنا في السن ، ضعيف الإرادة ، مما سهل على الصميل تحريكه وفقا لرغباته ، وتمت تولية يوسف الفهري دون إراقة دماء . إلا أن يحيى بن حريث الجذامي من جند الأردن قد دعا إلى نفسه ، وتنافس معه في ذلك ثوبة بن عمرو ، ولكنهم اتفقوا أخيرا على ولاية يوسف على أن تترك كورة رية ليحيى بن حريث ، كذلك اجتمعت قضاة على رئاسة عبد الرحمن بن نعيم الكلبي ، فجمع مائتي رجل وأربعين فارساً ، فييت القصر بقرطبة ، وقاتل الحراس ، وهجم على السجن ، وأخرج أبا الخطار وهرب به إلى قبائل كلب ، فاكتنفوه ومنعوه^(١) ، ولكن تحرير أبي الخطار لم يؤثر في إجماع البينية والمضرية على يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، فاستقام له الأمر . ولكنه ما لبث أن غدر بابن حريث فعزله عن كورة رية ، فغضب ابن حريث وتضامن مع أبي الخطار على الصميل ويوسف الفهري ، وأصفت يمن الأندلس حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها على تقديم يحيى بن حريث ، بينما التفت مضر وربيعة حول يوسف والصميل^(٢) . وهنا اشتعلت ناز الحرب بين العصبيتين البينية والمضرية « وهي أول حرب كانت في الإسلام بهذه الدعوة ، لم تكن حرب قبل هذه الواقعة ، وهي الفتنة العظمى التي بها يخاف بوار الإسلام بالأندلس ، إلا أن يحفظه الله »^(٣) .

اصطدم الفريقان في شقندة جنوبي قرطبة ، واشتد القتال « فما تسمع إلا صهيلا وصليلا ، ولا ترى إلا قتيلًا ، حتى تكسرت الخطيات ، وتماثلت المشرفيات ، والتفت الساق بالساق ، وانضمت الأعناق إلى الأعناق ، فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين بعد » حرب الجمل وصفين^(٤) « وكانت الكفتان متعادلتين ، فرأى الصميل أن يبعث في طلب أهل السوق بقرطبة للاشتراك في القتال في الوقت الذي تعبت فيه عساكر الفريقين ، فبعث إلى غوغاء قرطبة خالد بن يزيد مولى يوسف الفهري ، فأقبل ومعه

(١) أخبار مجموعة ص ٥٨ - ابن عذاري ج ٢ ص ٥٢ .

(٢) نلاحظ أن الصميل هو الذي أقام يوسف - بناء على طلب أهل الأندلس - والياً على البلاد وذلك لانشغال مروان بن محمد عنهم بكثرة الحوارج وعظم أمر المسودة .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥٩ .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٣ .

نحراً من ٤٠٠ رجل يحملون العصي والسيوف والمزاريق ، وخرج الجزارون بسكاكينهم ، فجاءوا إلى قوم موتى ، قد أنهكهم التعب وأضناهم طول القتال ، فرجحت كفة المضربة ، وهزم ابن حريث وأبو الخطار بمن معهما من الجنية ، وأمعن أصحاب الصميل في الجنية تقتيلاً وأسراً ، وكان من بين الأسرى أبو الخطار وابن حريث ، فاستقدمهما الصميل مع جموع الأسرى إلى كنيسة شنت بنجنت بقرطبة حيث قتل سبعين منهم ، وأصبح الصميل بذلك هو الوالى الفعلى للأندلس ، فكانت له الرئاسة والتدبير أو الرسم بينما كان ليوسف الاسم .

واجتاحت الأندلس عقب هذه الفتنة مجاعة كبرى دامت ما يقرب من خمس سنوات (١٣١ - ١٣٦ هـ) . وتعرف هذه السنوات الخمسة بسنى برباط ، بسبب هجرة كثير من المسلمين عن طريق وادى برباط إلى المغرب فيقول صاحب أخبار مجموعة : « فأعقبهم الله بالجوع والقحط ، فجاعت الأندلس سنة ستين ، ثم جاء سنة ثلاث عام سعيد ، فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر عالج يقال له بلاى قد ذكرناه فى أول كتابنا ، فخرج من الصخرة وغلب على كورة اشتوريش ، ثم غزاه المسلمون من جليقية ، وغزاه أهل استورقة زمانا طويلا ، حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابه ، فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين هزمهم وأخرج عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب فى دينه ، وضعف عن الحراج ، وقتل من قتل ، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى استورقة ، حتى استحکم الجوع ، فأخرجوا أيضا المسلمين عن استورقة وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر ، وإلى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين ، واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من وادى بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فتلك السنون تسمى سنى برباط ، فخفف سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم^(١) وفى نفس المعنى يقول ابن عذارى : « وفى سنة ١٣١ أجمت الأندلس وعم المحل ، وتمادى إلى سنة ١٣٦ ، وتمادى ذلك سنة محل وسنة غيث ، وانصل المحل الشديد سنة ١٣١ أو ١٣٢ ، ثم سقى الناس سنة ١٣٣ ، وعادت إلى بعض الصلاح . وفى سنة ١٣٣

(١) أخبار مجموعة ص ٦١ وما يليها .

ثار أهل جليقية ، وترددت الغارات عليها . ثم استحكم الجوع والقحط في سنة ١٣٤ و ١٣٥ وبعض سنة ١٣٦ ، فخرج أكثر الناس إلى طنجة وزويلة وريف البحر في العدو ، وكانت إجازتهم من وادي شنونة ، وهو المعروف بوادي برباط وبه سميت السنة ^(١) . وسبب المحل المذكور يرجع إلى هجرة كثير من البربر من المناطق الشمالية عقب ثورتهم التي قاموا بها سنة ١٢٤ هـ ، ثم إلى الفتنة التي اشتعلت بين العصيتين العربيتين : الماضرية واليمنية ، وشملت جميع أنحاء الأندلس . ولم تقلت من المجاعة في الأندلس سوى مدينة سرقسطة عاصمة الثغر ، فقد كان أهله أمثل حالا ^(٢) بمزارعه وخيراته الوفيرة . وكان معظم سكان إقليم سرقسطة والثغر من اليمنيين الذين اعتزلوا الفتنة ، فعمد يوسف إلى إذلالهم بوال قيسى مشهور بعصيته ضد اليمنية ، فبعث بالصميل إلى سرقسطة واليا من قبله عليها سنة ١٣٢ هـ ، وفي نفس الوقت كان يوسف يهدف إلى التخلص من الصميل بعد ما عاينه من ازدياد سلطانه ، فقد كان يوسف يخشى من جانبه بعد أن تمكن بالدولة ، فرأى أن يعده من قرطبة . وفطن الصميل إلى خطة يوسف الفهرى ، فلم يضطهد سكانها ولم يتعصب ضدهم ، وإنما اكتسب محبتهم ، وفتح داره للنوى الحاجات يقدون إليه فيعطيه الأموال « ولم يأتهم صديق ولا عدو فحرمه » ، فازداد سؤدا ^(٣) .

أما يوسف الفهرى فانفرد بالسلطان في قرطبة بعد أن أبعد الصميل ، وكان بقرطبة قتي من بني عبد الدار يقال له عامر بن هاشم ^(٤) أخو مصعب بن هاشم صاحب لواء رسول الله يوم بدر وأحد ، وكان عامر هذا فارسا مقداما ، كما كان سخيا عاقلا ، وكان يلي الصوائف قبل ولاية يوسف ، فشرف وعلا قدره ، فحسده يوسف ^(٥) ، وأخذ يكيد له ويتآمر عليه ، وأحس عامر بذلك ، وساء ما صنع يوسف باليمنيين وما سفك من الدماء ، فبعث إلى أبي جعفر المنصور يسأله أن يبعث إليه بسجله لولاية الأندلس ، ولكنه كان يخشى على نفسه من يوسف ومكائده ،

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٣ .

(٤) إليه تنسب مقبرة عامر التي تقع غرب سور مدينة قرطبة وباب عامر المقترح في هذا السور .

(٥) أخبار مجموعة ص ٦٣ .

فبدأ يتأهب لمهاجمته قبل أن يهاجم يوسف ، فشيد سورا حول منيته المعروفة باسم منية قناة عامر ، وكانت تقع أيضا غربي قرطبة ، وهم أن يجعلها مدينة يتحصن فيها ، ومركزا يغاور منها يوسف ، وكان عامر يعتمد على أمداد البينيين وأكثرهم كان مقبلا بإشبيلية وسرقسطة ، وبينما كان عامر يتأهب لخوض المعركة المقبلة ، ويتقوى على خصمه ، كان نفوذ يوسف يضعف تدريجيا حتى كان لا يركب معه خمسون رجلا من حشمه ، وانفض الناس من حوله . وكان يوسف يدرك تماما أن السبب فيما أصابه من ضعف يرجع قبل كل شيء إلى عامر بن هاشم ، فأراد أن يقبض عليه ، ولكنه وجد حذرا ، قد عرف بما يراد به ، « وكان يوسف جبانا ، فلم يرد أن ينازعه حتى يحضره الصميل ، فكتب إلى الصميل يعلمه بما تبذل من أمر عامر ، فأجابه يشجعه على قتله ، وكان عامر لا يفتي عليه شيء من سير يوسف ، وكان سخيا لييا عاقلا أدبيا ، فأتاه آت ، فقال له انظر لنفسك ، فقد أتاه كتاب الصميل يشجعه على قتلك »^(١) ، عندئذ اضطر عامر إلى الفرار من قرطبة إلى سرقسطة حيث كان يقيم الصميل ، ولم ير لنفسه أمنع منها لكثرة البينيين فيها ، وكتب إلى الحباب بن رواحة من بني زهرة بن كلاب بسرقسطة ، واجتمع معه في بعض نواحي هذه المدينة ، فدعوا الناس إلى سجل أبي جعفر ، فأجابهما رجال من البينيين وأقوام من البربر ، فلما علم الصميل بذلك بعث إليهم فرقة من جيشه ، ولكنها هزمت وتراجعت إلى سرقسطة ، وهنا أقبل عامر والحباب يجمعون هائلة من البينيين فحاصروا الصميل بسرقسطة ، فاستنجد الصميل بيوسف الفهري ، ولكن يوسف قعد عن إغاثة ، واعتذر بشدة الأندلس في ذلك الوقت ومجاعته ، رغبة في إهلاكه ، وحربها على الراحة منه لاستحواذه واستملاكه^(٢) . وطال الحصار مدة سبعة أشهر ، ويظهر أن الصميل وجد نفسه في موقف سيء للغاية بدليل أنه بعث يستنجد قومه من القيسيين ، في جند قنسرين ودمشق وكتب «إليهم يعظم عليهم حقه ويسألهم إمداده ، ويعلمهم أنه يجتري من المدد بالقليل»^(٣) ، وهذا هو غاية التوسل والرجاء مما يدل قطعا على سوء حاله

(١) أخبار مجموعة ص ٦٤ .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٥٤ - المقرئ ج ١ ص ٢٢٣ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٦٥ .

وإشاكه على الاستتار لخصومه ، فأجابه عبيد الله بن علي الكلابي وجماعة كلاب ومحارب وسليم ونصر وهوازن كلها باستثناء بني كعب بن عامر وعقيل وقشير والحريس ، فإنهم كانوا منافسين لبني كلاب . فنهض عبيد الله بن علي الكلابي وجماعته ، ودعوا في الجند إلى نصره الصميل ، فأصيقت بنو عامر كلها على الخروج إليه وكذلك قبائل هوازن وسليم بن منصور ، وتابعهم بعد ذلك بنو غطفان بن سعد . فلما رأى سليمان ابن شهاب من جند دمشق ، والحصين بن الدجن العقيلي من جند قنسرين هذا الإجماع في نصره الصميل ، عدل عن تقاعسهما وخرجا على رأس قومهما ، وكان جميع من لبى نداء الصميل نحواً من ٣٦٠ فارساً وانضم إليهم موالى بني أمية في نحو ٣٠ فارساً على رأسهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، ويوسف ابن بخت . ولم يكن هؤلاء الموالى يفكرون في إلقاء الصميل بقدر ما كانوا يفكرون في أمر قتي من أمراء بني أمية كان مقبياً على الجانب الآخر من الزقاق ، هو الأمير عبيد الرحمن بن معاوية بن هشام .

وسار المدد حتى وصل إلى وادي أنه ، وكان يقيم هناك عقدة بن بكر بن وائل ، وبني علي ، فاستعانوهم ، فخرج معهم نحو ٤٠٠ فارس ، واستأنفوا السير نحو سرقسطة ، فلما بلغوا طليظلة علموا أن الحصار أضرب بالصميل ، وخافوا أن يستسلم إذا شئ من وصول المدد ، فعجلوا إليه رسولا يسبقهم ، وبعثوا معه حجارة وكتبوا فيها بيتي شعر هما :

تبشر بالسلامة يا جدار أتاك الغوث وانقطع الحصار
أنتك بنات أعوج ملجمات عليها الأكرهون وهم نزار^(١)

وأوصوه أن يفتح صقوف المحاصرين من بني عامر والزهرى ، ويرمى الحجارة داخل المدينة . ففعل الرسول ذلك ، وأمر الصميل بقراءة الحجارة ، فقرئت ، فقرح وتمسك بالحصن واشتد عزمه . ولما علم بنو عامر والزهرى بنجر الإمداد ، رفعوا الحصار عن سرقسطة .

(١) أخبار مجموعة ص ٦٨ - ابن عذاري المراكشي ج ٢ ص ٦٣ وما يليها .

بدء حركة الاسترداد المسيحي

رأينا فيما سبق كيف أن فتح المسلمين للأندلس كان في الحق مغامرة حربية جريئة ، تمت دون إعداد سابق أو وفقاً لخطة مرسومة ، وإنما كانت ثمة أحداث أملت الظروف السياسية في إسبانيا القوطية تمخض عنها هذا الفتح ، ورأينا أيضاً كيف أن واقعة وادي لكّة في رمضان سنة ٩٢ هـ (يوليو سنة ٧١١ م) كانت نصراً حاسماً لجيوش الإسلام الطافرة ، مهدت للمسلمين السيطرة الشاملة على سائر أنحاء شبه جزيرة إيبيرية ، باستثناء منطقة جبلية تقع في أقصى الشمال الغربي من قنطابرية على خليج بسكايّة ، كانت تعرف عند العرب باسم صحرة بلای^(١) ، فرت إليها جماعة من القوط وبقايا الأيبيريين الرومان وأقاموا بها زمناً ينتظرون أن تواتبهم الفرصة ليجمعوا شملهم ، ويستردوا وطنهم ، واستهون المسلمون أمرهم ، فتركوهم وشأنهم ، وانصرفوا هم إلى منازعاتهم الداخلية ، ولم يدر هؤلاء الفاتحون أنه من هذه المنطقة الجبلية انطلقت أولى الحركات المناهضة للإسلام في إسبانيا ، والتي كادت تهدف إلى استرداد البلاد وتحريرها من الحكم الإسلامي .

وجاءت اللحظة التي انقسم فيها المسلمون على أنفسهم ، ودبت في صفوفهم عوامل الخلاف والفرقة ، فثار البربر على العرب ، وهجروا المناطق الجبلية الباردة التي تركها لهم العرب في أقصى الشمال ، وانحدروا نحو الجنوب الذي اختص به العرب دونهم

(١) نسبة إلى بلايه Pelayo الذي كان ابناً لفاقيلا دوق قنطابرية ، كما كان الساعد الأيمن للملك القوطي لذريق . فلما فتح المسلمون الأندلس ، وقع بلايه أسيراً في أيدي المسلمين ، وزج به في سجن قرطبة ، ولكنه تمكن من الفرار في أيام الحر بن عبد الرحمن الثقف سنة ٩٨ هـ (٧١٨ م) ، وأخذ ينتقل في البلاد حتى استقر به المقام في بلدة كانتجا دي أونيس ، وهناك التفت حوله عدد كبير من القوط الهاربين من المسلمين وبعض الأيبيريين الرومان ، المقيمين في هذه الناحية ، فجمعهم بصخرة في أقصى الشمال الغربي من قنطابرية وأخذ يحثهم على الثوب بالمسلمين ، وتبع في خطه ، وساعدته الظروف على تحقيق أميته عقب مقتل مونوة البربري عامل أشتوريش وما يليها سنة ١١٣ هـ (٧٣١) انظر : حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٣٣٤ .

حيث الحصب والدفع والحياة . وهنا شرع القوط وبقايا الأيبيريين الرومان في استغلال الفرصة ، وخرجوا من كهوف الجبال ، وأخذوا يحتلون الأراضي التي تركها البربر وراءهم ، وتم ذلك على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان ، دون أن يتنبه المسلمون لحركتهم ، لانصرافهم إلى خصوماتهم القبلية ومنازعاتهم العنصرية ، وقويت بذلك شوكة نصارى إسبانيا في الشمال ، وتكاثرت أعدادهم ، وثبتت أقدامهم ، وعزموا عزيمة أكيدة على استرداد وطنهم . وهنا تنبه المسلمون إلى الخطر الجاثم ، وأعلن ولائهم الجهاد للدفاع عن النصارى ، والوقوف أمام حركتهم التي كانت ترمى إلى طرد المسلمين من الأندلس . ولكن تنبيههم جاء متأخرا ، بعد أن انتصر بلاى وأصحابه على جيوش المسلمين بقيادة ابن علقمة اللخمى في كوفادونجا Covadonga أو مغارة أونجا ، وانهزمت جيوش المسلمين هزيمة نكراء ، وقتل ابن علقمة اللخمى ، وارتد المسلمون إلى اسرقة ، وتقدمت جيوش بلاى واستردت ما كانت قد فقدته من قبل أيام عقبة بن الحجاج السلولى وإلى الأندلس ما بين عامى ١١٦ ، ١٢١ هـ (١٢) . (٧٣٤ - ٧٣٩ م) ، ويعتبر الإسبان بهذه الموقعة ، ويجعلونها بداية موقعة لحركة المقاومة المسيحية في شبه الجزيرة ، تلك الحركة التي انتهت بإعادة البلاد إلى النصرانية بعد مضي ثمانية قرون من صراع مرير .

وهكذا نجح بلاى في تأسيس مملكة أستوريش الصغيرة التي كانت إيلادا بمولد الإمارات المسيحية في شمال الأندلس ، واتسعت مملكة أستوريش الصغيرة ، وأخذت تضم إليها المناطق الشاسعة التي هجرها المسلمون منذ ثورة البربر التي أجلوا فيها العرب من جليقية واسرقة والمدن الواقعة خلف الجبال ، وانتهزوا الفتنة التي حدثت بين أبى الخطار وثوابة بن سلامة الحذامى ، وضموا المناطق التي هجرها سكانها المسلمون في ليون وسمورة وشلمنقة وشنت ماتكش وشقوية وآبله وغيرها (١٣) . وتم ذلك

(١) - حين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٣٠٨ - ٣٥٢ .

(٢) - افتتح جليقية وأبله وبنبلوة ولم تبق بجليقية قرية لم تفتح غير للصخرة التي لاذ بها بلاى (انظر أخبار مجموعة ص ٢٨) .

(٣) - يذكر صاحب أخبار مجموعة أنه « لما كان في سنة ثلاث وثلاثين هـ هزمهم وأخرج (المسلمين) من جليقية كلها وتنصر كل مذهب في ديت وضعف عن الحراج ، وقتل من قتل ، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى أسنورقة حتى استحكم الجوع فأخرجوا المسلمين عن أسنورقة وغيرها ، واقتصر الناس إلى ما وراءه »

على يدى الملك القوتس الأول (٧٣٩ — ٧٥٧) الذى يسميه العرب أذفونش بن بطرة، ويسميه لسان الدين بن الخطيب بالقاطوليقي^(١) أى الكاثوليكي، وأصبحت منطقة الثغور أى الحدود التى تفصل ملك المسلمين عن ملك النصارى قبل تأسيس دولة بنى أمية فى الأندلس تبدأ من بيلوثة فى الشمال الشرقى، وتنحدر إلى تطيلة ثم وادى الحجارة ثم هنارس ثم طليطلة ثم طلييرة ثم قورية وتنتهى عند قامرة^(٢)

== الدرب الآخرة إلى قورية بماردة فى سنة ست وثلاثين، واشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر متارين ومرتحلين « ص ٦١ - ٦٢ ..

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٧٢ .

(٢) G. Palencia, Histoire de la Espagne Musulmana, p. 15 — Aguado Bleye, (٢)

História, p. 478.

الفصل الرابع

قيام دولة بني أمية في الأندلس

- (١) الأمير المغامر : عبد الرحمن بن معاوية
- (٢) مفاوضات بدر مع موالى بني أمية لاستقدام عبد الرحمن
- (٣) دخول عبد الرحمن الأندلس وبداية الصراع مع يوسف الفهري
- (٤) ثورات عربية ومؤامرات إفريقية

الفصل الرابع

قيام دولة بني أمية في الأندلس

١

الأمير المغامر : عبد الرحمن بن معاوية

اعتمد الأمويون على العرب ، واعتبروهم مادة الإسلام ، وتعصبوا لهم على الأجناس الأخرى التي دخلت في الإسلام ، من موالى فرس ، وبربر في المغرب ، ومسالمة ومولدين في الأندلس . . . وتابع خلفاء بني أمية مع الموالى سياسة تقوم على الشدة والعسف ، إذ كانوا يرتابون فيهم ، ولا يثقون بهم ، ولذلك كانوا ينظرون إليهم نظرة السيد إلى المسود ، فنحروهم عن المناصب الكبرى ، وأبعدوهم عن أمور السلطان كلها ، واحتقروهم وامتهنوهم ، وأساءوا معاملتهم ، فضاق الموالى بذلك ، وحنقوا على الأمويين ، وأبغضوهم وأضمرُوا لهم سوء ، لترعيتهم التعصبية ، وابتعادهم عن الروح الإسلامية التي تدعو إلى المساواة بين المسلمين جميعاً . وقد توسل الموالى بكل الوسائل الممكنة في محاربتهم للأمويين وللعرب ، فاستندوا إلى مبادئ الإسلام التي تدعو إلى وحدة الجماعة ، وجعلوا هذه المبادئ أساساً لمحاربة نظام الحكم القائم ، انتصاراً للحق على الاستبداد والعسف ، وارتعوا في أحضان الأحزاب المعارضة للدولة الأموية من خوارج ومرجئة وشيعة ، وهي الأحزاب التي كانت تستنكر كل تمييز للعرب على الموالى المسلمين ، ولما نادى الشيعة بحصر الخلافة في آل بيت الرسول ، اعتنق الموالى هذه الدعوة وتشيعوا لها ، واعتمد عليهم الشيعة اعتماداً كلياً في الإطاحة بالدولة الأموية واحتضنوا قضيتهم وتبنوها ، ثم استغل العباسيون الدعوة لآل بيت الرسول لمصلحتهم الشخصية ، وأخذوا يدعون لأئمتهم سرا ، وتوالت الأحداث في سرعة مذهلة ، إذ سرعان ما اشتعلت نيران الثورة على بني أمية في خراسان ، وحمل أبو مسلم الخراساني لواءها ، وفشل قواد بني أمية أمثال ابن هيرة ونصر بن سيار في القضاء على الثورة ، وسجل انتصار

العباسيين على مروان بن محمد في موقعة الزاب في ١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، ويعتبر قيام الدولة العباسية انتصارا للموالى الفرس ، فقد انتصرت لهم الدولة ، واعتمدت عليهم اعتمادا كليا ، لأنها تدين بقيامها لهم ، « فكانت دولة أعجمية ، سقطت فيها دواوين العرب » ، وغلب عجم خراسان على الأمر ، وعاد الأمر ملكا عضوضا كسرويا^(١) .

وأخذ العباسيون يتعقبون أمراء بني أمية حيث كانوا ، ويقتلونهم أينما وجدوهم ، فقد أمر السفاح بقطع يدي أبان بن معاوية بن هشام ورجليه ، ثم طيف به في كور الشام ، ينادى على رأسه : هذا أبان بن معاوية ، فارس بني أمية ، حتى مات . كذلك قتلوا النساء والصبيان ، فقد ذبحوا عبدة بنت هشام بن عبد الملك ذبحا^(٢) . ولذلك تفرق بنو أمية في أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم من بطش العباسيين بهم ، وكان فيمن فر منهم عبد الواحد بن سليمان ، والغمر بن يزيد . فعمد بنو العباس إلى التظاهر بالأسف والندم على ما اقترفوه من آثام بأمراء البيت الأموي ، وبسطوا الأمانات لأمراء بني أمية حتى يجمعونهم ، ثم يضربوا رقابهم جميعاً ، فيقضوا بذلك عليهم أجمعين ، ووزعوا المنشورات في كور الشام بأن « أمير المؤمنين قد ندم على ما كان في بني أمية وأحب البقاء ، وقد أمرني بتأمينهم ، فتملأوا منهم فلا أعلمن أحدا يعرض لهم بمكرهه »^(٣) . فاستأن الخليفة السفاح بذلك بضعا وسبعين رجلا وقيل ثمانين ، منهم عبد الواحد بن سليمان ، والغمر بن يزيد ، والأصبغ بن محمد بن سعيد .

وعلى هذا النحو أخذ العباسيون كلما أتاهم أموي قربوه وأنزلوه معسكر صالح بن علي بالقرب من نهر أبي فطرس ، وأعطوه العهود والمواثيق ، وتسامع بذلك أمراء بني أمية الفارين في أنحاء الأرض ، فتداعوا من كل فج أملا في الظفر بالأمان . وكان يحيى بن معاوية بن هشام مقيا بالقرب من معسكر صالح بن علي ، فلم يضطرب مع من اضطرب في المعسكر من بني أمية ، ولم يتعجل الذهاب طلبا للأمان ، كما فعل غيره من بني أمية ، وآثر أن يترقب الأحداث من قريته ، حتى

(١) ابن عذاري ، نقلا عن أبي محمد بن حزم ، ص ٥٩ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٤٧ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٤٧ .

إذا ما أتم الخليفة العباسي الفصل في مصيرهم ، انضم إلى المعسكر لقربه من قريته ، ثم أنه بعث رسولا من قبله للنظر في الأمر ، فشاهد القوم يقتلون ، فعاد مسرعا وأبلغ يحيى ، فارتبك هذا ، ولم يتمكن من الهرب إذ أدركه المسودة وقتلوه . وكان أخوه عبد الرحمن بن معاوية غائبا يومئذ في الصيد ، فلما علم بما حدث أسرع بالفرار ، وكان ينوي الذهاب إلى إفريقية لتطرفها عن مركز الخلافة العباسية ، واستقلال عبد الرحمن بن حبيب بولايتها ، ولتأثره بنبوءة^(١) مسلمة بن عبد الملك له وهو صبي بأن دولة بني أمية ستحيى على يديه . ولم يكن عبد الرحمن بن معاوية أول من فكر في الذهاب إلى المغرب ، فقد سبقه إلى إفريقية ، السفيفاني الناصر ، وأبناء الوليد بن يزيد العاصي ، وموسى وحبيب بن عبد الملك بن عمرو بن الوليد ، وجزى بن عبد العزيز ابن مروان ، وعبد الملك بن عمر بن مروان . ويروى عبد الرحمن قصة هربه من مذبحه نهر أبي فطرس وذهابه إلى داره بدير حنا من كورة قنسرين لجمع ما يلزمه قبل التوجه إلى إفريقية ، فيقول : « فإني لجالس في القرية في دار كنا فيها ، ولم يبلغنا بعد إقبال المسودة ، فكنت في ظلمة البيت وأنا رمد شديد الرمد ، ومعى خرقة سوداء أمسح بها قفا عيني ، والصبي سليمان يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل من باب البيت ، فترامى في حجرى ، فدفعته لما كان بي ، ثم ترامى وجعل يقول

(١) يروى الأمير عبد الرحمن بن معاوية هذه النبوة فيقول : « وخرجت حتى صرت في قرية على الفرات ذات شجر وغياض وأنا والله ما أريد إلا المغرب ، وكنت قد بلغت رواية ، كان والدي رحمه الله قد هلك في زمن جدي رحمه الله ، وكنت صبيا إذ هلك ، فأقبل بي ويأخونى إلى الرصافة ، إلى جدي ، ومسلحة بن عبد الملك رحمه الله لم يمت بعد ، فنحن وقوف ببابه على دوابنا ، إذ سأل مسلمة عنا ، فقيل أيتام معاوية ، فاغرو رقت عيناه بالدمع ، ثم دعا بنا الاثنين فالاثنين ، فأقبل يدعو بنا حتى قدمت إليه ، فأخذني وقبلني وقال للقيم : هاته . فأنزلني عن دابتي وجعلني عن أمامه ، وجعل يقبلني ويكي بكاء شديداً ، فلم يدع يمدى من كان أصغر من إخوتي ، وشغل بي ، فلم يفارقني ، فأنا أمامه على سرجه حتى خرج جلدي ، فلما رآه قال : ما هذا يا أبا سعيد ، فقال بني لأبي المغيرة رحمه الله ، ثم دنا من جدي فقال له : تداني الأمر هو هذا ، قال أمر ، قال أى والله ، قد عرفت العلامات والإمارات بوجهه وعنته . قال ، ثم دعا القيم ، فدفعت إليه وأنا ابن عشر سنين يومئذ أو نحوها ، فكان جدي رحمه الله يؤثرنى ويتعاهدنى بالصلة والبعثة إلى كل شهر » أنظر : أخبار مجموعة ص ٥١ وما يليها .

ويضيف ابن عذارى انرا كشي على رواية عبد الرحمن بن معاوية ما يل : « حدث عبد الرحمن قال : دخلت الأندلس وأنا أضبط جليلة مسلمة بن عبد الملك ، فإنه أتى جدي هشاماً يوماً ، فوجدني عنده صبياً ، فأمر جدي بتنحيته عنه ، فقال له مسلمة : دعه يا أمير المؤمنين ، فإنه صاحب بني أمية ، ويحي دولتهم بعد زواؤها ، فلم أزل أعرف لى مزية من جدي بعد » البيان المغرب ج ٢ ص ٦١ .

ما يقول الصبيان عند الفزع . قال ، فخرجت ، فإذا أنا برايات مطلة ، فلم يرعنى إلا دخول أخى فلان فقال : يا أخى ، رأيت المسودة . وكنت لما فعل بي الصبي ما فعل قد خرجت فرأيتهم ، فلم أدرك شيئا أكثر من دنائير تناولتها ثم خرجت أنا والصبي أخى ، وأعلمت أخواتى أم الإصبغ وأمة الرحمن بمتوجهى ، وأمرتهما أن يلحقننى غلامى (يقصد مولاه بدر) بما يصلحنى إن سلمت ، فخرجت حتى اندست فى موضع ناء عن القرية ، وأقبلوا فأحاطوا بالقرية ، ثم بالدار فلم يجدوا أثرا ، ومضينا حتى لحقنى بدر ، ثم خرجت حتى أتيت رجلا على شاطئ الفرات ، وأمرته أن يتنازع لى دواب وما يصلحنى ، فأنا أقرب ذلك ، إذ خرج عبد له أو مولى ، فدل علينا العامل ، فأقبل إلينا ، فوالله ما راعنا إلا بجلبة الخيل إلينا فى القرية ، فخرجنا نشد على أرجلنا ، وأبصرتنا الخيل ، فدخلنا بين أجنة على الفرات ، واستدارت الخيل فخرجنا وقد أحاطت بالأجنة ، فتبادرنا وسبقناها إلى الفرات ، فترامينا فيه ، وأقبلت الخيل ، فصاحوا علينا : ارجعوا لا بأس عليكم ، فسبحت وسبح الغلام أخى ، فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات ، فالتفت لأرقى وأصبح عليه ليلحقنى ، فإذا هو والله لما سمع تأمينهم إياه وعجل ، خاف الفرق فهرب من الفرق إلى الموت ، فناديته : أقبل يا حبيبى إلى ، فلم يأذن الله بسماعى ، ففضى ، ومضيت حتى عبرت الفرات ، وهم بعضهم بالتجرد ليسبح فى أثرى ، ثم بدا لهم ، وأخذوا الصبي فضربت عنقه وأنا أنظر ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، رحمه الله . قال ثم مضيت ^(١) .

نجح الأمير عبد الرحمن بن معاوية فى الإفلات من أيدى العباسيين ، رغم المحاولات العديدة التى قام بها هؤلاء لاقتناصه ، واستطاع أن يصل سليما إلى كورة فلسطين ، وهناك التقى بغلامه بدر وبسالم أبى شجاع غلام شقيقته ^(٢) وكانا يحملان إليه نفقة وشيئا من جوهر ، وانطلق معهما من موضع إلى موضع متخفيا حتى وصل إلى مصر ، ثم سار منها إلى برقة ، فبقي فيها مستترا مدة ثم رحل عنها ، فأوغل

(١) أخبار مجموعة ص ٥٢ - ٥٤ .

(٢) وقيل أدركه أربعة هم بدر مولى أبيه ، وأبو شجاع وزيد وعمرو (انظر نفح الطيب ج ١

ص ٣١٢) .

في إفريقية ، وقد توافى بها عدد من أهل بيته . وكان يلي إفريقية والمغرب منذ أيام مروان بن محمد سنة ١٢٩ هـ رجل يعرف بعبد الرحمن بن حبيب الفهري ، من نسل عقبة بن نافع ، ثار بإفريقية أيام ولاية حنظلة بن صفوان ، وأسر جماعة من الأشراف الذين أرسلهم حنظلة إليه لإقناعه بالعدول عن ثورته ، فسار بهم إلى القيروان ، وهدد حنظلة بقتلهم لو هاجمه ، ولم يسع حنظلة إلا اعتزال إمارة المغرب ، فظفر بها عبد الرحمن بن حبيب . فلما قتل مروان بن محمد وسقطت الدولة الأموية ، استقل عبد الرحمن بن حبيب بولاية إفريقية والمغرب وخرج عن طاعة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور .

وكان في بلاط ابن حبيب يهودى عالم بالحدثان ، قد صحب مسلمة بن عبد الملك ، فذكر لابن حبيب أنه يغلب على الأندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ضفירתان ، فلما قدم ابن معاوية ، وكانت له ضفירתان ، هم بقتله^(١) حتى لا تتحقق النبوة . وأغلب الظن أن قصة اليهودى هذه قصة ملفقة ، وقد أشرنا إلى أمثال هذه القصص التي تنسب إلى البطل نبوءات بنجاحه تتحقق مع الأيام ، والذي لا شك فيه أن عبد الرحمن بن حبيب كان يخاف على إمارة إفريقية والمغرب من أمراء بني أمية ، أصحاب الحسب والنسب ، وسادة العرب وأشرافهم ، الذين أخذوا يفدون إلى بلاده لتطرفها عن مركز الخلافة العباسية ، فقتل ابن الوليد بن يزيد ، وصار يقتل كل من يدخل من بني أمية في بلاده ، وخاف من عبد الرحمن بن معاوية بالذات لنشاطه السياسى ، وسطوته ، وعمد إلى مطاردته ، والتخلص منه . وكان عبد الرحمن في الواقع يهدف إلى تكوين إمارة أموية في بلاد المغرب أو الأندلس تكون استمرارا للدولة الأموية التي أسقطها العباسيون في المشرق ، فقد كان شابا طموحا في العشرين من عمره ، يفيض حماسة وأملًا في إحياء هذه الدولة في المغرب ، وكان يدفعه إلى ذلك ويجدد عزمه ما زعموه من نبوءة مسلمة بن عبد الملك له وهو ابن عشر سنوات . ويبدو أن شيئا من ذلك وصل إلى أسماع عبد الرحمن بن حبيب فعزم على قتله . وعلم ابن معاوية بما يضره له عبد الرحمن بن حبيب ،

(١) أخبار مجموعة ص ٥٥ .

ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٦٠ وما يليها .

ففر من القيروان إلى موضع يقال له باري ، فترل في قبيلة مكناسة حيث ناله بعض الضيق ، وقيل إنه نزل بمغيلة عند شيخ من رؤساء البربر الموالين لعبد العزيز بن مروان يدعى وانسوس ويكنى أبا قرّة ، فاستتر عنده وقتا ، ويبدو أن وسل ابن حبيب وأعرانه اهتموا إلى مخبأه فخبثه تكفّات زوجة أبي قرّة تحت ثيابها ، وأنقذته من موت أكيد . ولم ينس ابن معاوية هذا الصنيع بعد أن أصبح أميرا على الأندلس ، فقد قصده أبو قرّة وزوجته فأكرمهما ، واستظلا بظله في الأندلس^(١) .

وقاسى هذا الشاب الطريد الشريد مرارة العيش في بلاد المغرب دون كلل ، واحتمل الآلام دون ضعف أو استسلام ، واستقر به المطاف أخيرا عند أخواله من قبيلة نفزة ، وكانت تقيم قريبا من سبتة^(٢) معبر الأندلس ، وقيل في طرابلس^(٣) وقيل بسيرة^(٤) ، إذ كانت أمه بربرية من سبي نفزة اسمها راج أو رداحا^(٥) .

وكانت الأندلس وقتئذ تترج بالفوضى والاضطراب بسبب الفتن والعصبيات القبلية ، وهنا لاحت لعبد الرحمن بن معاوية بارقة من الأمل ، فلا بد له وهو سليل خلفاء بني أمية العظام أن يجد لنفسه وسط هذا الصراع مجالا يحدد فيه دولة أجداده ، وتملكه هذا الأمل تملكا شديدا ، وشرع في استغلال هذا الموقف لمصلحته ، فبدأ من جديد محاولاته التي أنفقت في المغرب .

(١) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٢ .

(٢) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٦٦٤ .

(٣) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٧ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٥٥ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٥٥ - ابن عذارى ج ٢ ص ٦١ ، ٧١ .

مفاوضات بدر مع موالى بنى أمية لاستقدام عبد الرحمن

أقام عبد الرحمن عند أخواله الثفريين ، وبقى معه مولاة بدر ، أما أبو الشجاع سالم فقد عاد إلى مولاته أم الأصبع بالشام ، ورأى الأمير الشاب أن يبادر بالاتصال بزعماء موالى بنى أمية في الأندلس ، فبعث مولاة بدر رسولاً إلى أبي عثمان عبيد الله ابن عثمان وأبي عبد الله بن خالد زعيمى حزب موالى بنى أمية^(١) ، وأرسل إليهما كتاباً « يشكو فيه ما ابتلوا به ويعظم عليهم حقه ، ونزوعه إليهم وما صنع به ابن حبيب وبقومه بإفريقية ، ويعلمهم أنه إن دخل إلى يوسف لم يأمنه ، ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأن يمنعوه ، وإن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس ، أن يعلموه^(٢) » .

نزل بدر بقرية طرش من ساحل البيرة في آخر سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) ، وقصد أبا عثمان ، فبعث أبو عثمان في صهره عبد الله بن خالد ، فبحثا ما عرضه عليهما عبد الرحمن ، ثم بعثا إلى يوسف بن بخت ، وكان من رجالهما وأنجاهما ، ويبدو أن هذا الكتاب أحدث تأثيراً عميقاً ، في نفوسهم فتناولوا الرأى مع غيرهم من موالى المروانية ، واتضح لهم أن الأمر رغم خطورته جدير بالمحاولة ، فلم يترددوا في الموافقة على تعضيد عبد الرحمن مدفوعين في ذلك بدافع من الإخلاص والوفاء لساداتهم ، وأجمعوا الرأى على إجراء اتصالات مع زعماء البينية ، وواتهم الفرصة ، إذ كان يوسف يتأهب وقتئذ للخروج في غزوة ، وكان عليهم أن يخرجوا مع يوسف في هذه الغزوة ، وتمكنوا في هذه الغزوة من مخاطبة سادات العرب البينية ، المقيمين في غرب الأندلس مثل أبو الصباح اليحصبي ، وعلقمة بن غياث اللخمي ، وأبو علاقة الجذامي ، وزباد بن عمرو الجذامي . ثم خاطبوا رؤساء البينية في البيرة وجيان مثل جد بنى أضحى ، وبنى حسان ، وبنى عمر أصحاب وادى آش ، وميسرة ، وقحطبة الطائين بيجان ، وخاطبوا الحصين بن الدجن العقيلي للتباعد الذى كان بينه وبين الصميل ، فكان المضرى الوحيد الذى أيد عبد الرحمن بن معاوية ، فلما تم ذلك لهم

(١) كانا يتوليان لواء بنى أمية بالتعاقب . (٢) أخبار مجموعة ص ٦٧ .

طلبوا من بدر أن يبلغ عبد الرحمن بأنهم أجابوه إلى ملتصقه ، وأنهم ينتظرون مجيئه ، فعاد بدر إلى مولاة عبد الرحمن في سنة ١٣٧ هـ ، ولكن عبد الرحمن أجابه بقوله : « ليس تطيب نفسي على دخول الأندلس إلا أن يكون معي واحد منهم ^(١) » ، فانصرف بدر إليهم بجوابه .

فلما عاد بدر إلى الأندلس ، وسلم أبا عثمان إجابة ابن معاوية رأى زعماء الموالى ضرورة مشاورة الصميل إلى الأمر ، وكانوا واثقين من كتمانهم لموضوع ابن معاوية ، إن لم يجيبهم إلى طلبهم . فكان هذا سببا في خروجهم مع من خرج من القيسية لفك الحصار عن الصميل في سرقسطة ، ويبدو أن موالى بني أمية أرادوا أن يقدموا بمساهمتهم في فك الحصار عنه يداً عنده فيؤيد قضية ابن معاوية . وكان عبد الرحمن قد بعث إليهم خاتمه ليكتبوا به عنه إلى كل من رجا نصره ، فكتبوا عنه للصميل يذكر له أيادي بني أمية عنده ويعدونهم ويمنونه ^(٢) .

ثم اجتمع به الأمويون الثلاثة بعد رحيله من سرقسطة ، وكان ما يزال متأثراً بجهودهم في إنقاذه ، فأطلعه عبيد الله بن عثمان على قصة ابن معاوية ، وأعطاه الكتاب وقال له : « تقدم على » ، لا رضى ولا سخط إلا برأيك ، فإن ترض أمراً رضيناه ، وإن تسخطه سخطناه ^(٣) ، ولكن الصميل بما عرف عنه من حذره وحيطه ، لم يتعجل الإجابة ، فقد فاجأه عبيد الله بمسألة ابن معاوية ، والأمر يقتضى منه أن يتروى ويفكر ، ولا بد أنه أدرك أن ابن معاوية كان يطمع في السلطان على عكس ما يراه الدكتور مؤنس ^(٤) ، وإلا لما قال لعبيد الله عندما قابله بعد ذلك في قرطبة « فإن أحب (ابن معاوية) غير السلطان ، فله عندي أن يواسيه يوسف ويزوجه ويحبوه » ^(٥) ، وإن كان يعتقد تماماً أن مجرد وجود ابن معاوية في الأندلس يعنى القضاء على نفوذ الصميل نفسه ، لأن ابن معاوية على حد قول الصميل لأبي عثمان « من قوم لوبال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في

(١) ابن القوطية ص ٢٣ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٦٩ - ابن عذارى ج ٢ ص ٦٤ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٦٩ وما بعدها - ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٦٤ .

(٤) فجر الأندلس ص ٦٦٨ .

(٥) ابن القوطية ص ٢٤ - أخبار مجموعة ص ٧٣ وما يليها - ابن عذارى ص ٦٤ ، ٦٥ .

ثورة يوسف الفهرى على ابن معاوية وقتله هو والصميل

دخل ابن معاوية قصر الإمارة بقرطبة دون مقاومة ، فاستنجدت به زوجة يوسف الفهرى وابنتاه وقلن له : « يا ابن عمنا أحسن كما أحسن الله إليك »^(١) ، وكانت عساكره قد سبقته إلى القصر ، فأصابته ما في مطابجه من أطعمة ، وامتدت أيديهم إلى محتوياته ، فأمرهم عبد الرحمن برد ما سلبوه من أهل القصر ، ثم طردهم منه ، وكسى عرى بنات يوسف^(٢) . ثم أمر صاحب الصلاة بقرطبة ، وهو جد بنى سلمان القرائين ، وكان مولى ليوسف الفهرى ، بضم النساء إلى داره . ولكن تصرف ابن معاوية في نهيه الجنية عن النهب والسلب ، كان سببا في إغضبائهم عليه ، وساء لهم طرده لهم من القصر ، وحمائته لبنات يوسف الفهرى ، إذ كانوا يزعمون فضيحتهن ، وأخذوا يهمسون بالوثوب عليه ، فقالوا « عصب ، وكان ذلك لم يشتد على أهل العقول منهم ، وأضمرُوا إن قالوا قد أحسن ، وفي أنفسهم غير ذلك ، وقال بعضهم لبعض : ويحكم قد فرغنا من أعدائنا من مضر ، وهذا ومواليه منهم ، فضع بنا يداً عليهم فيصير لنا فتحان في يوم واحد ، فكره كاره ، ورضى راض ، وأصفت قضاة على الكراهة^(٣) » . وذكر ابن القوطية أن أبا الصباح بن يحيى اليحصبي زعيم الجنية بغرب الأندلس قال لثعلبة بن عبيد الجذامى ، من وجوه جند فلسطين عند انهزام يوسف الفهرى ، ودخول عبد الرحمن بن معاوية قصر قرطبة « يا ثعلبة ، هل لك رأى في فتحين في فتح . قال له ثعلبة : وكيف ذلك . قال أبو الصباح : قد استرحنا من يوسف فاسترح بنا من هذا ، وتكون الأندلس قحطانية^(٤) » . فقدم إلى ابن معاوية ، وأفضى إليه بما أسره إليه أبو الصباح . فاحتاط عبد الرحمن

(١) ابن القوطية القرطبي ص ٢٨ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) ابن القوطية ص ٣٠ .

في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله ، وهذا رجل (يقصد يوسف الفهرى) قد حكمنا عليه مع ما له في أعناقنا ، والله لو بلغنا بيوتكما ثم رأينا هذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع إليكما ، لئلا أغركما ، وأنا أعلمكما أن أول سيف يسل عليه فسيفى ، فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما » ثم قال : « فإن أحب غير السلطان فله عندي أن يواسيه يوسف ويروجه ويحبوه ، انطلقا راشدين ^(١) » . فانقطع رجاؤهما من مضر وربيعة بأسرها ، وعمدا إلى معاودة الاتصال بالبنية ، وكان البنية يتلهفون للثأر من المضرية ، فوجدا منهم ترحيبا بالغا واستعدادا حسنا لاستقبال الأمير الأموى وتعظيمه ، لأنهم كانوا قوما « قد وغرت صدورهم ، يتمنون شيئا يجدون به سبيلا إلى طلب ثأرهم ، ورغبوا في عقد لواء بنى أمية في الأندلس » ^(٢) .

عاد الزعمان الأمويان بعد اتصالهما بالبنية إلى جندهما ، فابتاعا مركبا وجها فيه أحد عشر رجلا يرافقون بدرا ، منهم تمام بن علقمة الثقفي وأبو فريعة الذي كان له بصر في ركوب البحر ^(٣) ، وأعطيا بدرا خمسمائة دينار للنفقة على ابن معاوية ولفدية البربر ^(٤) . وكان ابن معاوية ما يزال مقبلا عند أخواله النفرين على ساحل سبتة ، وكان يمضى نهاره متجولا على الساحل ناظرا البحر ، مرتقبا وصول بدر وأصحابه ، ومضت الأيام متاقلة وهو على تلك الحال ، حتى جاء يوم ، وبينما كان يؤدي صلاة المغرب إذ لمح مركبا « مقبلا في اللج حتى أرسى وخرج إليه بدر سابحا ، فبشره بما تم له بالأندلس ، وما خلف فيه أبا عثمان وعبد الله بن خالد وغيرهما من رجال الأندلس من الاجتماع عليه والرضاء به ^(٥) » . ثم خرج إليه تمام بن علقمة من الغراب ، « فقال له عبد الرحمن : ما اسمك ، قال : تمام ، قال : وما كنيته ؟ قال : أبو غالب ، قال : تم أمرنا وغلبنا عدونا ، فاستحجبه لذلك ، فلم يزل حاجبا في أيامه حتى مات » ^(٦) ثم سأل بدرا عن أبي فريعة ، فقال له : هذا مولاك أبو فريعة : قال « افترعنا البلد لإنشاء الله » ^(٧) . ثم ركب عبد الرحمن معهم البحر حتى أرسوا بشجر المنكب Almuncar في آخر ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) .

(١) ابن القوطية ص ٢٤ - أخبار مجموعة ص ٧٣ وما يليها - ابن عذارى ج ٢ ص ٦٤ وما يليها

(٢) أخبار مجموعة ص ٧٤ - ابن عذارى ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٧٤ .

(٤) ابن القوطية ص ٢٤ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٧٥ .

(٦) ابن القوطية ص ٢٤ .

(٧) ابن القوطية ص ٢٤ .

دخول عبد الرحمن الأندلس وبداية الصراع مع يوسف الفهرى

أقام يوسف الفهرى في طليطلة ينتظر عبثاً قدوم جند بني أمية إلى هذه المدينة ، وظل كذلك حتى وافاه الصميل واضطر إلى السير نحو سرقسطة ، وافتتحها ، وقبض على عامر القرشى وابنه وهب والحباب بن رواحة الزهرى ، وكبلهم بالحديد وأراد قتلهم ، فاستشار فيهم خيار القيسية ، فأشاروا عليه بالإبقاء عليهم ، وألح سليمان ابن شهاب في عدم قتلهم ، فاضطر يوسف إلى الرضوخ لإجماعهم ، ثم أوفد بعثاً إلى البشكنس بينبلونة^(١) ، إذ انتقضوا بنقض أهل جليقية ، وجعل على رأس هذا البعث سليمان بن شهاب وعدداً من رؤساء القرشيين ، وتعهد يوسف أن يكون هذا البعث هزيعاً ، حتى يتخلص من ابن شهاب والحصين بن الدجن وغيرهما من ذرى النفوذ ممن عارض في قتل عامر القرشى ثم قرر العودة إلى قرطبة ، فما كاد يبلغ وادى شربة Jaramara حتى أدركه الرسول بهزيمة الجيش الذى أوفده إلى جليقية ، وقتل قائده وعامة الجند ، والتجاء فله بقيادة الحصين بن الدجن إلى سرقسطة عند واليها أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف^(٢) . اغتبط يوسف لهذا النبأ ، فقد خلا له الجو بعد موت معارضييه ، وأصبح حراً في تصرفه إزاء خصومه السجناء ، ونصحه الصميل بالتخلص منهم بضرب أعناقهم ، فدعا بعامر القرشى وابنه وهب وبالزهرى وأمر بهم فضربت أعناقهم ، وبذلك قضى الصميل على أعدائه الذين حاصروه في سرقسطة زهاء سبعة شهور وكادوا يفتكون به ، وأخذ يوهم يوسف بأنه ضمن بقتلهم الاحتفاظ لنفسه ولابنه من بعده بولاية الأندلس ، فقال له : « قد قتل ابن شهاب ، وقتلت عامراً والزهرى ، وهى والله لك ولولدك ، إلى الدجال من هذا ينازعك^(٣) » .

وهدأت نفس الصميل بعد مقتل أعدائه ، فأنصرف إلى ابتتيه ليقيل ، وبقي يوسف وحده في خيمته ، « واضطجع مفكراً فيما صنع ، ووضع رجله اليمنى على

(١) أخبار مجموعة ص ٧٦ - ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٧٧ - ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٧ .

اليسرى وهو مستلق مفكر ، قال المحدث . ، فوالله ما أنزل رجله اليمنى عن اليسرى حتى صاح أهل العسكر : رسول ! رسول من قرطبة ^(١) . فما راعه إلا رسول من أم عثمان أم ولده ، يحمل إليه رقعة عليها : « ابن معاوية قد دخل ، ونزل بطرش ^(٢) » عند الناسق عبيد الله بن عثمان ، وأصفت معه بنو أمية ، وإن خليفتك على البيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه ، فهزم وضرب أصحابه ، ولم يقع قتل ، فالرأى رأيك ^(٣) .

بهت يوسف لهذا النبأ ، وأحس بعظيم ما اجترمه ، وأن الله قد أنزل نقمته عليه لما سفكه من دماء عامر القرشي وابنه والزهرى . فدعا الصميل في الحال ، فأتاه مدعوراً من نوبه ، وحدثه يوسف بما جاء به الرسول ، فقال له الصميل : « خطب جليل ، والرأى أن نقطع إليه من فورنا هذا ، بمن معنا من الناس ، فلما قتلاه ولما شردناه فهرب ، فإن هرب لم يستقلها أبداً ^(٤) . وانتشر الخبر في معسكر يوسف ، وكان الناس قد سثموا به وتبرموا منه لما صنعه بالقرشيين ، فأخذوا ينفضون من حوله ، ويتفرقون إلى كورهم ، ولم يبق مع يوسف إلا عدد قليل من قيس ومن قبائل مضر ، قفلوا عائدين معه إلى قرطبة . أراد يوسف أن يجمع الأجناد لمواجهة ابن معاوية ، فأقام بقرطبة ، فلم يأت منه من الأجناد إلا يسيراً ، إذ أقبل الناس على ابن معاوية وأيدوه وبايعوه . فنصحه الصميل بالتوسل بالخديعة للإيقاع بابن معاوية ، فهو شاب حدث لا خبرة له ، ثم هو قريب عهد بزوال النعمة ، مما يساعد على سهولة خداعه ، وعندئذ يتحكم فيه يوسف وفيمن سعى له من موالى بني أمية ، وفيمن أيده من الجنية ، أما الطريقة التي نصحه بانتهاجها فهي أن يزوجه يوسف ابنته ، ويسكنه في جند دمشق أو الأردن ، وتؤول إليه شؤون الكورتين ، فعمل يوسف بما نصحه به الصميل ، وكتب إلى ابن معاوية رسالة من إنشاء خالد بن زيد منها ما يلي : « أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الإيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها ، وكذبونا ، وبه ، جل وعلا ، نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمضوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إل

(١) أخبار مجموعة ص ٧٧ .

(٢) هي مدينة Torrox الواقعة على ساحل المنكب Almuncar

(٣) أخبار مجموعة ص ٧٧ . (٤) نفس المرجع ص ٧٨ .

النقض ، والله من ورائهم محيط ، فإن كنت تريد المال وسعة الجنب فأنا أول بك ممن
 بلحات إليه ، أكتفك وأصل رحمتك ، وأنزلك معي إن أردت ، أو بحيث تريد .
 ثم لك عهد الله وذمته بي ألا أعذرك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية
 ولا غيره . . » (١) . وأمر يوسف بتأليف وفد مكون من عبيد بن علي ، أحد شيوخ
 القيسية ، ونخالد بن زيد كاتبه ومولاه ، وعيسى بن عبد الرحمن الأموي ، وكان
 يومئذ على أرزاق الأجناد ، وحشم يوسف عارضا ، وبعث معهم بكسي وفرسين وبغلين
 ووصيفين وألف دينار (٢) . فسار الرسل حتى بلغوا أرش (بالقرب من لوشه) في
 أدنى كورة رية ، وهناك اتفق الثلاثة على أن يبقى عيسى بن عبد الرحمن بالأموال
 والهدايا ، فإذا وجدا من عبد الرحمن بن معاوية تجاوبا ورغبة في الصلح أرسلوا
 إلى عيسى رسولا لتقديم الهدايا ، وإذا لم يجدا شيئا من القبول لدى ابن معاوية ، فإن يوسف
 القهري أحق بماله ، فسار عبيد ونخالد وبقي عيسى بما معه في أرش ، حتى قدما إلى
 جماعة بني أمية .

• • •

نزل عبد الرحمن بن معاوية في ثغر المنكب في ربيع الآخر من سنة ١٣٨ هـ (٣)
 وقيل في غرة ربيع الأول (٤) (١٤ أغسطس سنة ٧٥٥ م) ، وهناك استقبله أبو عثمان
 وعبد الله بن خالد ، زعيم الروانية ، استقبالا حافلا أنساه ما عاناه من آلام أثناء
 فراره من موضع إلى موضع ، ثم انتقل من المنكب مع وفد مستقبليه إلى الفنتين
 Alfontin منزل ابن خالد ، ثم مضى منها إلى مدينة طرش Torrox بكورة البيرة
 بالقرب من Iznajar ، مركز حزب الروانية من موالي بني أمية ، ونزل منزل أبي الحجاج (٥)
 فجاءه أبو الحجاج يوسف بن بخت ، وأقبلت عليه وفود الأمويين ، وقد أعد للأمير
 ما يصلحه من المركب والمئزر والملبس ، وأقبل إليه الناس من كل مكان بعد أن أخذ
 يوسف بن بخت البيعة له من جند الأردن ، كما أخذها له كل من عبد الله بن خالد من

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٧٩ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٧٥ .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٦٦ . Lévi-Provençal, Histoire, op. cit. p. 101 .

(٥) منزل أبي عثمان وفقاً لابن القرطبة (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٤) :

جند حمص ، وتنام بن علقمة من جند فلسطين^(١) . وفيها جاءه جداد بن عمرو المذحجي من أهل رية ، فأصبح بعد ذلك قاضيه في العسكر ، كما جاءه عاصم ابن مسلم الثقفي ، وأبو عيدة حسان فاستوزره ، وجاءه كذلك أبو بكر بن الطفيل^(٢) وأقام عبد الرحمن بن معاوية في طرش بعد الخطة لمواجهة يوسف والصميل ، ويجمع الأجناد .

وبينا كان معاوية مقبياً عند أبي عثمان في طرش بين أنصاره ، إذ قدم عليه عبيد بن علي وخالد بن زيد ، وخاطباه في الألفة وفي مقابل ذلك يباهره يوسف ويحسن وفوده ، ثم جلسا فأخرج خالد كتاب يوسف وناولاه لابن معاوية ، فأخذه ابن معاوية منه وسلمه إلى أبي عثمان ، فقال اقرأه وأجب فيه بما تعلم من رأينا^(٣) ، ولقي عرض يوسف لابن معاوية استحساناً لدى عدد كبير من موالى بني أمية ، وقالوا : « ما أحسن ما عرضتما وما جاء إلا طالبا لمواريثه^(٤) » . ومع ذلك فقد كانت هناك جماعة من العرب والأمويين استنكروا ذلك وأشاروا عليه ألا يقبل ذلك منه إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه ، وقالوا له : « إنما يمكر بك ولا ينقش بشيء » لأن وزيره ومالك أمره الصميل ، وهو غير مأمون^(٥) .

ولكن وقع حادث غير الموقف تغييراً تاماً ، ففي الوقت الذي أخذ أبو عثمان عبيد الله فيه الخطاب وطالعه وتأهب لإملاء الرد ، قال له خالد بن زيد ، مولى يوسف مزهواً ، وكان هو الذي أملى خطاب يوسف إلى ابن معاوية : « يا أبا عثمان لتعرقن إبطاك قبل أن تحبر فيه جواباً » ، فرفع أبو عثمان يده وضرب بالكتاب وجه خالد^(٦) ، وسبه سبا قبيحا ، ثم أمر به فأخذ وكبل بالأغلال من ساعته ، واعتبر أنصار ابن معاوية ذلك بداية للفتح ، وحاول عبيد الله بن علي أن يقنع أبا عثمان بالإفراج عن خالد فقال لهم : « هو رسول ولا سبيل إليه » ، فقالوا له « أنت الرسول وهذا متعدي قد بدأ بالشتيمة والانتقاص ابن الخبيثة العليج^(٧) » ، ثم سرحوا عبيداً

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٨١ .

(٣) نفس المرجع ص ٨١ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٨١ .

(٥) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٦٨ .

(٦) أخبار مجموعة ص ٨١ .

(٧) كان خالد بن زيد المذكور مولى ليوسف والموالى أصلهم عجم أو علوج دخلوا في الإسلام واصطنعهم العرب فكانوا موالى لهم ، والعلج أى الأعجمي . وقد اعتبر أبو عثمان عبارة خالد التي وجهها إليه سبا وإهانة من أعجمي لمربي فكان انقلابه عليه .

وحبسوا خالداً وبلغ عيسى بن عبد الرحمن ما حدث وهو بأرش فأسرع بالعودة بكل ما كان معه ، ولم يغتفر له ابن معاوية بعد ذلك ما فعله .

كان ما فعله أبو عثمان بن خالد بمثابة إعلان الحرب على يوسف والقيسية ، وكان لابد لابن معاوية من تنظيم صفوفه لمواجهة أعدائه ، فكان لزاماً عليه أن يجند الأجناد ويحشد الحشود ، فاجتمع إليه بطرش نحو ثلاثمائة فارس من جماعة الأمويين ، وكان لابد من أن يشهر أمره بين أجناد العرب في كورة رية وشذونة وغيرها ، ويقول تمام بن علقمة : « واجتمعنا إليه ، فأتيناه في ثلاثمائة فارس من جماعة الأمويين ، ومن أقبل إليه من وجوه العرب ، ثم كاتبنا أهل قنسرين وفلسطين . فلما أقبلت رسلهم بما أردنا نهضنا إليهم ، وكنا قد وطنا على الموت ، وعزمنا على أن نقتل دونه ، وعقدنا له لواءً ، وأقمنا معه ستة أشهر نبرم له أموره ، ونكاتب له الناس ^(١) » . ثم انتقل ابن معاوية من كورة البيرة إلى كورة رية ، فدخلها في سبائة فارس ، وخرج منها في ألبي فارس ^(٢) ، ولما دخل أرشدونة Archidona يوم الفطر ، ودخل معاوية الجامع وأقبل الخطيب ، قام إليه جدار بن عمرو القيسي جد بني عقيل - وكانت له رئاسة العرب في كورة رية - فقال له : « أنخلع يوسف بن عبد الرحمن ، واخطب لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فهو أميرنا وابن أميرنا » . ثم قال : « يا أهل رية ، ما تقولون ؟ » فقالوا : « نقول ما تقول » . فخطب له ، وبايعوه عند انقضاء الصلاة ^(٣) . وأنزله جدار في منزله ، وعندما وصل خبر عبد الرحمن بن معاوية إلى بني الخليل مولى يزيد بن عبد الملك بتاكرنا Tecorona ، أقبلوا في أربعمائة فارس ^(٤) . ثم سار عبد الرحمن بن معاوية من أرشدونة إلى شذونة ^(٥) ، فلتقاه جد بني إلياس في عدد كبير من الفرسان ، فتضخم بهم جيش ابن معاوية ، وكثر عدده كثرة هائلة بمن انضم إليه من أجناد العرب شاميهم وبلديهم ، ووفد إليه أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ، وحيوة بن ملامس ، سيديا

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٦٨ . (٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) ابن القوطية ص ٢٥ . (٤) نفس المرجع .

(٥) يخلط الدكتور حسين مؤنس بين مدينة أرشدونة Archidona ومدينة شذونة Sidonia ، والواقع أنها مدينتان لا مدينة واحدة ، فأرشدونة هي حاضرة كورة رية Reio ، وكان قد نزلها جند الأردن منذ أيام أبي الخطاب ، أما شذونة فهي حاضرة كورة شذونة التي نزلها جند فلسطين (انظر فجر الأندلس ص ٦٧٩ وما يليها) .

غرب الأندلس كله ، قادمين من إشبيلية ، فتلقياه وهو في طريقه إلى إشبيلية حاضرة الغرب وبإيعاه^(١) ، ونزل بإشبيلية في شوال سنة ١٣٨ هـ (مارس ٧٥٦ م) ، وفيها أتاه أهل الغرب فبايعوه ، « وتم أمره في جميع غرب الأندلس^(٢) » .

رجع عبيد بن علي إلى قرطبة عقب مقابله للأمويين ، وأبلغ يوسف والصميل ما فعل هؤلاء بخالد ، فجن جنونهما ، وجعل الصميل يثرب على يوسف في خلافه رأيه ، إذ لم يمض لمحاربة ابن معاوية وقت أن بلغه خبره ، وهم يوسف بالخروج لمحاربة ابن معاوية ، ولكن الشتاء كان قد زحف بيرده وتليجه ، فنهه من الخروج ، فلما انتهى فصل الشتاء ، أراد يوسف أن يزحف بجيشه للقاء ابن معاوية في إشبيلية ، فسار حتى نزل حصن نيبة^(٣) ، فلما علم ابن معاوية بذلك أعد العدة لملاقاته في قرطبة^(٤) .

وزحف عبد الرحمن بن معاوية من الأجناد الثلاثة : جند فلسطين وجند الأردن وحمص وكلها يمنية ، وانضم إليه من القيسيين جابر بن العلاء بن شهاب ، وأبو بكر بن هلال العبدى ، والحصين بن الدجن ، وكانوا ينقمون على يوسف لخرده بابن شهاب^(٥) . ولم يكن لابن معاوية لواء بينا كانت الأجناد قد خرجت بألويتها ، فلما وصل جيش ابن معاوية إلى قرية بلة نوبة البحرين Villanova de los Bahriés^(٦) ، من إقليم طشانة Tocina من كورة إشبيلية ، ويسمى صاحب أخبار مجموعة قرية قالنيرة Golomera^(٧) قال شيوخ الأجناد : « إمام لا لواء له خطأ في الرأي » فعزموا على العقد له ، فأقبل أبو الصباح يحيى اليحصبي بقناة وعمامة ، والعمامة والقناة لرجل من حضرموت ، ودعوا رجلا من الأنصار تفاءلوا باسمه ونسبه ، وعقدوا اللواء لعبد الرحمن ابن معاوية بهذه القرية بين شجرتي زيتون ، وشهد ذلك أبو الفتح الصدفوري العابد المجاهد ، كما شهدته فرقة السرقسطي^(٨) .

(١) ابن القوطية ص ٢٥ . (٢) المرجع السابق .

(٣) ابن القوطية ص ٢٦ .

(٤) ابن القوطية ص ٢٦ - أخبار مجموعة ص ٨٤ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٨٤ .

(٦) ابن القوطية ص ٢٦ .

(٧) أخبار مجموعة ص ٨٤ .

(٨) ابن القوطية ص ٢٦ - أخبار مجموعة ص ٨٤ .

تقدم يوسف فتزل بمدور Almodovar ، ثم سار بجذاء الوادى الكبير لمقابلة ابن معاوية فى طشانة ، فتناوشا والنهر بينهما ، وكان النهر زائداً فى هذا الفصل من السنة ، فمنعهما من الاشتباك ، وأرغمهما على انتظار نقصه ، ليتمكننا من عبوره . وقيل لابن معاوية إن قرطبة تزخر بموالى بنى أمية ممن يؤيدونه ، فشجعه ذلك على السير إليها قبل يوسف ، وعمد إلى دهائه ، فأوقد ناراً فى معسكره حتى يوهم يوسف بأنه باق فى موضعه ، « ورحل من جوف الليل ليسبقه ويينه وبين قرطبة ٤٥ ميلا ، فلم يسر ميلا واحداً حتى أتى يوسف من يعلمه بما أراد من مخالفته إلى قرطبة ، فأصبحا كفرنسى رهان والنهر بينهما »^(١) . عندئذ عدل ابن معاوية عن خطته ، وتوقف عن المسير ، فتوقف يوسف كذلك ، ثم سار ابن معاوية ، فسار يوسف حتى نزل يوسف بالمصارة ونزل ابن معاوية ببایش Bayex ، وكان جند عبد الرحمن قد نفدت عنهم المؤونة حتى أصبحوا لا يتقوتون إلا بالقول الأخضر ، بينما كان جند يوسف ينعمون بأطايب الأقوات ، ومع ذلك فقد انضم إلى ابن معاوية من اليمنية وبنى أمية من أهل قرطبة كل من استطاع اللحاق به . ثم نقص النهر يوم الخميس ٩ ذى الحجة يوم عرفة ، « فقال عبد الرحمن : فى أى يوم نحن ، فقيل له فى الخميس وهو يوم عرفة ، فقال : يوم عرفة وغداً الأضحى والجمعة ، وأمرى مع فهرى ، أرجو أنها أخت يوم مرج راهط »^(٢) . ويبدو أن يوسف الفهرى خاطب ابن معاوية للصلح حقناً لدماء المسلمين ، فاجتمع عبد الرحمن مع قواد الجيش وقال لهم : « إنا لم نجىء للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم ، وعرض ما سمعتم ، ورأى لرأيكم تبع ، فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فأعلمونى ، وإن يكن فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلمونى »^(٣) . فأصفت أجناد اليمنية بأسرها على الحرب وكذلك أجمع موالى بنى أمية ، فتظاهر عبد الرحمن برغبته فى مفاوضة يوسف ، وانخدع يوسف بهذه الرغبة ، فكتب كتابه ، وبعث على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبي ، وعلى مشاة اليمنية بلوثة اللخمى من جند فلسطين ، وعلى رجالة بنى أمية ومن جاءهم من البربر عاصم العريان^(٤) ، وعلى خيل

(١) أخبار مجموعة ص ٨٦ . (٢) ابن القوطية ص ٢٦ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٨٧ .

(٤) سعى كذلك لتجرده من سراويله فى الحرب بين ابن معاوية ويوسف الفهرى .

بنى أمية حبيب بن عبد الملك القرشي ، وعلى خيل من صحبه من البربر إبراهيم بن شجرة الأودي . وانخدع يوسف بما أبداه عبد الرحمن بن معاوية الذي عرف بالداخل لطروقه الأندلس ودخوله لها ، من رغبته في الصلح فلم يتعرض لجيشه وتركه يجتاز النهر ، ويعسكر بجوار معسكر يوسف بالمصارة . وأقام الفريقان بقية يومهما في هدوء ، والرسل تختلف من قبل يوسف عشية الخميس ، سعيًا لعقد الصلح ، وعبد الرحمن يتظاهر بحرصه على الصلح ، وأراد يوسف أن يعبر عن صدق نيته ، فأمر بإخراج الغنم والبقر ، فذبحت ، وشغل الطباخون بإعداد الطعام لكلا المعسكرين طوال الليل ، ويات الناس وكلهم لا يشك في أن الصلح قد تم . فلما أصبح الصباح ، أفصح ابن معاوية عن نيته في الحرب ، وأعلن أنه لا يقبل المفاوضة إلا على أساس اعتراف يوسف والصميل له بالإمارة ، باعتباره وريثًا لبني أمية على الأندلس . وهكذا اشتبك الطرفان فاقتتلا قتالا شديداً ، وكان يرأس خيالة يوسف من أهل الشام ومصر عبيد بن علي ، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة الكنانى ، وجوشن بن الصميل ، وعبد الله بن يوسف الفهري ، وعلى خيل غلمانته من البربر خالد سودى ، وكان ابن معاوية يركب فرسا أشقر ، ويده قوسه ، فانتقده اليمينية ، فقال بعضهم لبعض : « غلام حدث فما يؤمتنا أن يطير على هذا الفرس ، فهلك . فبلغه ذلك حتى لفظوا به ، فنادى أبا الصباح ، فأقبل إليه ، فقال : ليس في عسكرنا بغل أوفق من بعلك . وإن هذا الفرس يلقى تحتي ، فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قوسي ، فخذ فرسي وهات بعلك ^(١) » . فاطمأنت اليمينية ، بعد أن تم تبادل الدابتين ، وسكتت الألسنة ، واشتد القتال ، وانتهى بهزيمة يوسف والصميل هزيمة شنعاء ، وقتل ولداهما وقتل عبيد الله بن علي ، وكنانة بن كنانة ، وغيرهما من وجوه القيسية . ودخل عبد الرحمن قرطبة دخول الأبطال ، واستقر بقصر مغيث وأصبح أمير الأندلس بلا منازع ، وهنا يبدأ عهد جديد في تاريخ الأندلس .

ثورة يوسف الفهرى على ابن معاوية ومقتله هو والصميل

دخل ابن معاوية قصر الإمارة بقرطبة دون مقاومة ، فاستنجدت به زوجة يوسف الفهرى وابنتاه وقلن له : « يا ابن عمنا أحسن كما أحسن الله إليك ^(١) » ، وكانت عساكره قد سبقته إلى القصر ، فأصاب ما في مطابخه من أطعمة ، وامتدت أيديهم إلى محتوياته ، فأمرهم عبد الرحمن برد ما سلبوه من أهل القصر ، ثم طردهم منه ، وكسى عرى بنات يوسف ^(٢) . ثم أمر صاحب الصلاة بقرطبة ، وهو جد بنى سلمان القرائين ، وكان مولى ليوسف الفهرى ، بضم النساء إلى داره . ولكن تصرف ابن معاوية في نهيه الجنية عن النهب والسلب ، كان سببا في إغضبائهم عليه ، وساء لهم طرده لهم من القصر ، وحمايته لبنات يوسف الفهرى ، إذ كانوا يزعمون فضيحتهن ، وأخذوا يهمسون بالوثوب عليه ، فقالوا « عصب » ، وكان ذلك لم يشتد على أهل العقول منهم ، وأضمرُوا إن قالوا قد أحسن ، وفي أنفسهم غير ذلك ، وقال بعضهم لبعض : ويحكم قد فرغنا من أعدائنا من مضر ، وهذا ومواليه منهم ، فضع بنا يداً عليهم فيصير لنا فتحان في يوم واحد ، فكره كاره ، ورضى راض ، وأصفت قضاة على الكراهة ^(٣) . وذكر ابن القوطية أن أبا الصباح بن يحيى اليحصبي زعيم الجنية بغرب الأندلس قال لثعلبة بن عبيد الجذامى ، من وجوه جند فلسطين عند انهزام يوسف الفهرى ، ودخول عبد الرحمن بن معاوية قصر قرطبة « يا ثعلبة ، هل لك رأى في فتحين في فتح . قال له ثعلبة : وكيف ذلك . قال أبو الصباح : قد استرحنا من يوسف فاسترح بنا من هذا ، وتكون الأندلس قحطانية ^(٤) » . فقدم إلى ابن معاوية ، وأقضى إليه بما أسره إليه أبو الصباح . فاحتاط عبد الرحمن

(١) ابن القوطية القرطبي ص ٢٨ .

(٢) أخبار مجموعة ص ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) ابن القوطية ص ٣٠ .

لذلك ، وولى شرطته يومئذ عبد الرحمن بن نعيم ، وضم مواليه فجعلهم أحراسه ، وانضم إليه موالى بنى أمية فى قرطبة . ولما عاين العينية من عبد الرحمن احتياطه الشديد وتحريزه منهم ، عدلوا عن خطتهم . ثم خرج ابن معاوية إلى الجامع ، فصلى بالناس صلاة الجمعة ، وأعلن نفسه أميراً على الأندلس ، ولم يكن عمره وقتئذ يتجاوز السادسة والعشرين عاماً^(١) .

وكان لابد لعبد الرحمن منذ اليوم الذى استقر فيه بدار الإمارة بقرطبة ، أن يقضى على مقاومة يوسف الفهرى والصميل ، فلم تكن هزيمتهما فى المصاراة كافية للقضاء على آمالهما فى الظفر بالإمارة ، فمضى يوسف إلى طليطلة ليحشد من بقايا مضر فيها من خف له منهم ، وقدم إليه واليها هشام بن عروة الفهرى كل ضروب التسهيلات ، أما الصميل فمضى إلى جيان ليجمع من أنصاره القيسيين جيشاً يناوئ به ابن معاوية . واجتمع جيش الفهرى مع جيش الصميل ، ثم أقبل يوسف والصميل بهذا الجيش إلى جيان ، وأرادا اجتذاب ابن معاوية إليهم ، فخرج من قرطبة ، وعندئذ يسير عبد الرحمن بن يوسف الفهرى إليها ويحتل قصر الإمارة وكان عبد الرحمن بن معاوية قد ولى جابر بن العلاء بن شهاب كورة البيرة ، فلما زحف جيش الصميل ويوسف إلى البيرة ، اضطر جابر إلى الفرار إلى بعض جبالها ، واجتمع أهل البيرة من القيسية ليوسف ، وبلغ ابن معاوية نزول يوسف والصميل بالبيرة ، فحشد أجناده و زحف إليهما بعد أن خلف على قرطبة أبا عثمان فى جماعة من يمن قرطبة وموالى بنى أمية . وكان يوسف قد اتفق مع ابنه عبد الرحمن أبى زيد الذى كان مقيماً فى ماردة^(٢) أن ينهز فرصة خروج ابن معاوية ويحتل قصر قرطبة ، وبالفعل ، ما كاد عبد الرحمن بن معاوية يسير إلى يوسف بالبيرة حتى أغار أبو زيد على قرطبة ، وحاصر أبا عثمان فى صومعة المسجد الجامع ، وكانت برجاً من أبراج القصر ، ثم استتره أبو زيد بعهد ألا يقاتله ، واكتفى بأن كبله بالأغلال . وما كاد ابن معاوية يعلم بما حدث حتى قفل عائداً إلى قرطبة ، ففر أبو زيد من القصر بأبى عثمان وجاريتين أصابهما لابن معاوية ، فقال له بعض العقلاء من أصحابه :

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 104. أمر عبد الرحمن بلمن المسودة وقطع الدعاء

لأبى جعفر المنصور (انظر ابن عذارى ج ٢ ص ٧٣) .

(٢) ابن القوطية ص ٢٩ .

« صنعت ما لم تسبق إليه ، ظفر (ابن معاوية) بأخواتك وأمهاتك فستر عورتين وكسا عريهن ، وظفرت بخادمين فأخذتهما^(١) » ، فظهر له سوء تصرفه ، وندم على أخذه الجاريتين ، وصمم على تركهما في الطريق ، فأمر بخباء فضرب في قلعة تدمين بجوف قرطبة ، على بعد ميل من المدينة ، وترك فيه الخادمتين بما كان لهما من متاع ، ومضى بأبي عثمان مكبلا حتى أتى أباه بالبيرة .

ولما عاد ابن معاوية إلى قرطبة وعان ما حدث أثناء غيابه ، أرسل في طلب عامر بن علي ، وكانت له سورة وسيادة عند الجينية ، فاستخلفه في القصر وعاد لمواجهة يوسف بالبيرة ، فلما بلغ قرية أرملة Armilla من قرى البيرة ، أرسل إليه يوسف والصميل يدعوانه إلى أن يسلما له الأمر^(٢) ، ويعترفا بإمارته على الأندلس بشرط أن يؤمنهما في أموالهما ومنازلهما ، ويؤمن الناس كلهم ، فأجابهما إلى رغبتهما . واصطالحا في سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) ، وكتب بينهما كتاب صلح ، واتفق الطرفان فيه أن يفرج ابن معاوية عن خالد بن زيد ، فيفرج يوسف عن أبي عثمان ، كما اشترط ابن معاوية على يوسف أن يرثه ابنه عبد الرحمن أبا زيد ، ومحمد أبا الأسود ، على أن يبقيا معه في قصر قرطبة حتى تهدأ الأمور ، فإذا هدأت ردهما^(٣) . ولما اصطالح معاوية مع خصميه دعاهما للتزول معه بقرطبة ، فركب يوسف عن يمينه والصميل عن يساره ، فلما دخلوا قرطبة دخل ابن معاوية القصر ، ونزل يوسف بمنزله المعروف ببلاط الحر^(٤) ، ونزل الصميل في داره بالربض^(٥) ، وكان الصميل صامتا طوال مسيره بجوار ابن معاوية من البيرة إلى قرطبة ، ما مست ركبته ركبة ابن معاوية ولا تقدم رأس بغلته رأس بغلها ، ولا استفهم في حديث ، ولا افتتح حديثا بغير أن يسأله عنه . وأقام يوسف والصميل بقرطبة في أحسن حال ،

(١) أخبار مجموعة ص ٩٣ .

(٢) ذكر ابن عذارى أن ابن معاوية حاصر يوسف الفهرى بفرقاطة ، فلما تمادى بالفهرى الحصار ، سأل الأمان فأعطاه له والصميل (البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢)

(٣) أخبار مجموعة ص ٩٤

(٤) هو بلاط الحر بن عبد الرحمن الثقفي والى الأندلس ، فيقال أن يوسف تجنى على ابن الحر فقتله وأخذ المنزل ويقال أنه اشتراه منه (أخبار مجموعة ص ٩٤) .

(٥) ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٧٢

وكانا يترددان على ابن معاوية فيستشيرهما المرة بعد المرة ، ودخل يوسف الفهري في عسكر الأمير كأحد رجاله ، فأنزله على ماله وأطلق له عياله^(١) .

وكانت سياسة التسامح والتصالح التي جرى عليها ابن معاوية ، وعفوه عن خصومه ، وجهوده التي بذلها لمحو الأحقاد ، قد أكسبته محبة أهل الأندلس له ، وقد شجعت هذه السياسة على إقبال كثير من المشاركة إلى الأندلس ، كذلك كان دوى النجاح الذي صادف ابن معاوية في الأندلس قد وصل إلى المغرب والمشرق ، فوفد إلى الأندلس سنة ١٤٠ هـ كثير من بيت أمية ومواليهم ، واستقبلهم الأمير أحسن استقبال ، وأنزلهم وأكرمهم ، وأحسن جوائزهم^(٢) ، ومن بين من دخل الأندلس من بني أمية عبد الملك بن عمر بن مروان ويقال له المرواني ، وجزى بن عبد العزيز بن مروان ، إذ دخلا ومعهما أولادهما^(٣) ، وشجع عبد الرحمن بن معاوية على وفود موالي بني أمية إلى الأندلس ، فبعث القاضي معاوية بن صالح الحضرمي فقيه أهل الشام^(٤) إلى الشام لاستقدام أخته ، فلما قدم عليهما قالتا له « إن السفر لا تؤمن آفته ، وقد أمتنا بحمد الله ، ووسعنا فضل القوم ، وحسبنا أن نكون بعافية » .

ولم يتح لهذا العهد السلمي أن يمتد أجله أكثر من عام واحد ، فقد أخذ بعض أنصار يوسف في قرطبة من موالي بني هاشم وبني فهر وقبائل قريش وغيرهم يدفعونه إلى الثورة على ابن معاوية ، إذ أزال عنهم الأمير الأموي ما كانوا يتمتعون به من رفعة ومنازل أيام يوسف الفهري فحنقوا عليه ، وأخذوا « يختلفون إلى يوسف ، ويلقون عليه التحريف ، ويندمونه على ما كان ، فلم يزلوا حتى كاتب الناس »^(٥) ، فلم يجبه أهل الأجناد إلى دعوته لمحاربة ابن معاوية ، إذ ألفوا حياة السلم والاطمئنان بعد حياة

(١) المرجع السابق ص ٧٢ .

(٢) ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٧٣ - Lévi-Provençal, Histoire, t. ١, p. ١٥٦ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٨٥ - وكان عبد الملك بن عمر مقيما بمصر منذ أيام الأمير عبد العزيز بن مروان ، فلما دخل المسودة أرض مصر ، خرج عبد الملك يؤم الأندلس في عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة ١٤٠ هـ ، فعقد له على إشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورو - (انظر المقرئ ج ١ ص ٣٠٨) .

(٤) الحشني ، تاريخ قضاة قرطبة ص ٣٢ ، وما يليها - ابن القوطية ص ٢٤ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٩٥ .

القوضى والحرب الأهلية، كذلك كره الصميل وأنصاره من القيسية ما دعا إليه يوسف، وقالوا له : « حسبنا قد قضينا الدمام ولا والله نخلعه »^(١) ، فلما يش منهم كاتب أهل البلد (وهم العرب والبربر البلديون) وأهل ماردة ولقت ، حيث كانت بناته يعشن هناك مع أزواجهن وأولادهن ، فأجابوه إلى دعوته ، فهرب يوسف الفهرى من قرطبة سنة ١٤١ هـ ، فاكثا بعهدده ، ناقضا للإيمان بعد توكيدها ، حتى نزل ماردة ، واجتمعت إليه حشود هائلة من البربر والعرب البلديين ، فلما علم ابن معاوية بهربه أتبعه الخليل ، وقبض على ابنه ، واعتقل الصميل ، إذ اتهمه بأنه هو الذى نصحه بالثورة على ابن معاوية ، فاحتج الصميل بأنه لا ذنب له ، وأنه لو كان قد دبر الأمر مع يوسف لكان قد هرب معه ، ولم يأخذ ابن معاوية باحتجاجه ، فسجنه ، أما يوسف الفهرى ، فقد غرته كثرة جموعه ، فزحف إلى لقت ، حيث انضم إليه حشد جديد ، ثم أقبل إلى إشبيلية ، حيث تابش إليه من أهل نواحيها عدد جم ، تضخم به عسكره وانتفخ حتى تجاوز العشرين ألف . فزحف إلى عبد الملك بن عمر المروانى والى إشبيلية من قبل عبد الرحمن بن معاوية ، وكان جيش عبد الملك قليل العدد ، فتحصن داخل سور إشبيلية ، وأهمل يوسف شأنه لقلة من معه من أهل الشام ، وقصد محاربة ابن معاوية بقرطبة . وزحف ابن معاوية من قرطبة بجيش كثيف حتى نزل بمحلة يقال لها برج أسامة^(٢) . وكان عبد الملك قد أرسل ابنه عبد الله عمر بمرور يأمره بالقدوم إليه لفك حصار يوسف عنه ، فأقبل عبد الله إلى عمر على رأس حشد كثيف انضم إلى جموع أبيه عبد الملك ، وزحف بها هبدا الملك وولده وراء يوسف الفهرى . وكانت الأخبار قد وصلت إلى ابن معاوية بأن يوسف فى طريقه إليه ، فزحف حتى نزل المدور ، فخاف يوسف أن يقع بين جيشي ابن معاوية وعبد الملك ، وآثر أن يتخلص أولا من المروانى وابنه ، ثم يتفرغ بعد ذلك لمقاتلة ابن معاوية . فبادر يوسف بمواجهة عبد الملك ، وبدأت المعركة بتزول أحد موالى يوسف من البربر ، معروف بالشجاعة ، لمبارزة أحد أنصار عبد الملك المروانى ، فترل مولى جيشي لعبد الله بن عبد الملك يكتى بأبي البصرى ، وتمكن هذا الجيشى من التغلب على البربرى وقطع رجليه بسيفه ، ثم

(١) أخبار مجموعة ص ٩٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٧ .

كبر القوم وحملوا حملة رجل واحد ، فانهزم يوسف من ساعته وتفرق من معه ^(١) .
 وفر يوسف القهري إلى فريش ، ومضى منها إلى فحص البلوط ، ثم سار في
 المحجة المؤدية إلى طليطلة ، بقصد الاحتماء عند ابن عروة وإلى طليطلة ، فأدركه عبد
 الله بن عمر الأنصاري قبل طليطلة بأربعة أميال ، فقتله سنة ١٤٢ هـ حتى يريح
 الناس من شره واحتز رأسه وأقبل به إلى عبد الرحمن بن معاوية ^(٢) . وكان لابد
 لعبد الرحمن من تغيير سياسة التسامح التي جرى عليها ، بعد أن ثبت له فشلها ،
 وعمل على تطبيق سياسة جديدة تقوم على الشدة والعنف في مواجهة أعدائه ، لذلك
 رأى أن يتخلص من أعدائه جملة ، فبادر بعبد الرحمن بن يوسف فأمر بإخراجه
 من سجنه ، وضرب عنقه لأنه لم ينس دخوله في قصره أثناء غيابه ، وانتهاك حرمانه ،
 كذلك عمد إلى التخلص من الصميل ، فأدخل عليه من خنقه ^(٣) ، وبذلك انتهى
 عبد الرحمن من أولى مشكلاته .

(١) أخبار مجموعة ص ٩٩ .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠١ .

ثورات عربية ، ومؤامرات إفرنجية

لم يمض عام وأربعة أشهر على مقتل يوسف والصميل ، وشروع عبد الرحمن في توطيد سلطانه ، حتى ثار بمدينة طليطلة أحد زعماء القيسية من أتباع يوسف الفهرى ، وهو هشام بن عروة الفهرى^(١) ، وانضم إليه عدد كبير من العرب أمثال حيوة بن الوليد التجيبى ، والعمري من ولد عمر بن الخطاب^(٢) ، فخرج إليه عبد الرحمن بطليطلة ، وحاصره فيها حصاراً شديداً ، أرغم هشام على طلب الصلح ، وبعث ولده إلى عبد الرحمن رهينة ، فانصرف عنه الأمير ، ولكنه نكث عهده ، فغزاه الأمير في العام التالى ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ، فقتل به وحاربه ودعاه إلى الرجوع ، فلما يش منه ، أمر بضرب عنق ابنه ، ثم أمر بقذف الرأس في المنجنيق ، فسقط في المدينة ، ورجع عنه ذلك العام ، لانشغاله بقمع ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي بياجة سنة ١٤٦ هـ ، في الغرب ، ودعوته لأبى جعفر المنصور الذى بعث إليه بسجل ولواء ، فقام العلاء ودعا إلى طاعة أبى جعفر المنصور ، وتبعه خلق كثير ، وتطلع أكثر أهل الأندلس إلى خلع عبد الرحمن^(٣) ، وعلى الأخص جماعات البهنية التى عقدت العزم على التخلص من ابن معاوية منذ اليوم الذى حال فيه بينهم وبين أعمال القرصنة عقب هزيمة يوسف النهري ، ويبدو أن العلاء اختار الوقت المناسب للقضاء على دولة عبد الرحمن الفتية ، فقد كانت الثورات تجتاح الأندلس في شماله وجنوبه وعلم الأمير عبد الرحمن بثورة العلاء ، وانضمم الثوار إليه ، فخرج من قرطبة إلى حصن قرمونة ، حيث تحصن بها مع مواليه وثقات رجاله . وقدم العلاء ونازله بقرمونة ، وحاصره بها ما يقرب من شهرين حتى ساءت حالته ونفذت مؤونته ،

(١) ثار قبل هشام بن عروة رجل اسمه رزق بن الثمان النسابى ، فقتله الأمير عبد الرحمن بن معاوية .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠١ .

(٣) ابن القوطية ص ٣٢ - أخبار مجموعة ص ١٠٢ - ابن عذارى ج ٢ ص ٧٧ .

وهبطت روح قواته المعنوية ، كذلك انخزل عن العلاء أكثر أنصاره لطول الحصار ، وأدرك عبد الرحمن أن هذه هي فرصته للاتقضاض على عسكر العلاء ، وكان لابد له أن يغامر بكل شيء ، فجمع قواته — وكانوا نحو سبعمائة — وأمر بنار فأوقدت عند باب إشبيلية من أبواب مدينة قرمونة ، ثم أمر بأغماد سيوف أصحابه فطرحت في النار ، وقال لهم : « اخرجوا معي لهذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع ^(١) » . وسل سيفه في المقدمة واندفع من باب المدينة وخلفه كماء رجاله ، واتقضوا على جيش العلاء بن مغيث فزقوه شر ممزق ، وبلغ عدد القتلى منه نحو سبعة آلاف ^(٢) ، وكان العلاء نفسه من بين القتلى . وأمر عبد الرحمن مبالغة منه في السخرية من خصمه المنصور أن يبعث رأس العلاء إليه ، فأخذ رأس العلاء وصبره ، ولفه في السجل واللواء ، وأدخله في سقف وبعث به مع رجل من أهل قرطبة في جملة الحجاج ، وأمره أن يضع السقف في مكة أمام سرادق المنصور الذي كان يحج هذا العام ، ففعل القرطبي ما أمره به ابن معاوية ، فلما نظر إليه المنصور ارتاع وقال : « إنا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان ^(٣) » .

وقد شهد له أبو جعفر المنصور بقوة الحيلة وشدة البأس وطول المراس ، فذكروا أنه قال يوماً لبعض جلسائه « أخبروني من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك ، وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : يا أمير المؤمنين فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمة . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبد الملك بيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عثرته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطدا الخلافة

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١١ .

(٣) ابن القوطية ص ٣٤ — ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٧٨ .

بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع صدقت والله يا أمير المؤمنين ^(١) .

لما قضى عبد الرحمن الداخل على ثورة العلاء بن مغيث وجه مولاة بدرأ وتماها في جيش كثيف إلى طليطلة لإخماد ثورة هشام بن عروة ، فحاصرها حصاراً طويلاً منعاً فيه دخول الأقوات إلى المدينة حتى مل أهلها الحصار ، فكاتبوا بدرأ وتماها ، وسألوهما الأمان ، على أن يسلموا لهما ابن عروة وهشام بن حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وحيوة بن الوليد التجيبي . وتم الأمر على ذلك ، فأخذهم تمام معه إلى قرطبة وأقام بدر في طليطلة منتظراً أمر عبد الرحمن ، فلما صار تمام بأوريط Oreto ، التقى بعاصم بن مسلم الثقفي رسولا من الأمير يأمره بالعودة إلى طليطلة ، ويقلده أمرها ، على أن يسلم الثوار إلى ابن مسلم كما طلب منه أن يعمل على عودة بدر إلى قرطبة ، ففعل تمام ، ومضى ابن مسلم بالثوار متجها إلى قرطبة وفي قرية حلوة أرغم الثوار على حلق رؤوسهم ولحاهم وارتياء جيب صوفية وركوب الحمير ، ودخلوا قرطبة على تلك الحال ، وأمر بهم عبد الرحمن فقتلوا وصلبوا ^(٢) .

أما المشكلة التالية التي واجهت عبد الرحمن بن معاوية فهي مشكلة البنية الذين آزروا عبد الرحمن أول الأمر رغبة في الانتقام من المضرية والتشقي منهم ، فلما أوقفهم عبد الرحمن عن ذلك عند دخوله قرطبة أضمروا له الكيد ، ولكنهم عدلوا عن خطتهم في قتله عندما تبين لهم أنه محتاط لنفسه ، ورأيانهم ينهزون الفرصة فيؤازرون العلاء بن مغيث في ثورته على ابن معاوية .

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩ .

وجاء في نفع الطيب أن أبا جعفر قال لبعض جلسائه : « لا تعجبوا لامتناد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن في أمر قتي قريش الأحوزي القذ في جميع شؤونته ، وعدمه لأهله ، ونشبهه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعده مرق همته ، ومغناه عزيمته حتى قذف نفسه في بلج الممالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندهما بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيته بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصبيهم وذل له أيهم ، فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك هو القتي كل القتي لا يكذب مادحه » المقرئ ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠٥ .

ابن عذارى ص ٧٩ .

ولم يمض عامان على مقتل هشام بن عروة وصاحبيه حتى ثار أحد زعماء البينية ، وهو سعيد اليحصبي المطري بمدينة لبلة سنة ١٤٩ هـ (٧٦٦ م) ، فانضم إليه عدد كبير من البينية ، فسار إلى إشبيلية ، واستولى عليها قسراً ، ثم نزل بقلعة رعواق المعروفة بقلعة وادي أيرة Guadaira أو قلعة جابر ، فتحصن فيها ، فسار إليه ابن معاوية وحاصره حصاراً شديداً ، فاضطر المطري إلى الخروج في جماعة من أنصاره ، فحطت عليهم عساكر ابن معاوية وقتلهم قتلاً ذريعاً ، وجيء برأس المطري إلى الأمير (١) .

وفي نفس هذا العام ثار أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ، وكان الأمير قد ولاه إشبيلية ، ثم عزله عنها بعد ثورة سعيد اليحصبي لشكه في أمره ، فنقم عليه أبو الصباح لذلك ، وألب عليه الأجناد في غرب الأندلس ، فتحايل الأمير على استقدامه إلى قرطبة بالأمان ، فقدم في أربعمئة رجل من أتباعه ، فعاتبه الأمير عبد الرحمن ، فأغلظ له أبو الصباح القول ، فأمر به عبد الرحمن فقتل ، ولما علم أتباعه بقتله تفرقوا (٢) .

ومضت ثلاث سنوات على ثورة أبي الصباح ثم ثار رجل من بربر بلعدانية Lusitania اسمه سفين بن عبد الواحد سنة ١٥٢ هـ (٧٦٩ م) ، ادعى أنه من ولد الحسن بن علي وأنه فاطمي ، فوثب على عامل ماردة وقتله وتغلب على ناحية قورية ، فخرج إليه الأمير على رأس جيش ، فهرب سفين إلى الجبال ، واستعصى على عبد الرحمن أمره ، وبينما كان مشغولاً بمطاردته ، وصله كتاب من مولاه بدر بقرطبة يخبره فيه بثورة حيوة بن ملامس الحضرمي ، ومعه عبد الغافر اليحصبي في إشبيلية ، طلبا لثأر أبي الصباح . فعاد الأمير إلى قرطبة ، ومنها سار إلى غرب الأندلس ، وهزمهم هزيمة شنعاء قتلهم فيها قتلاً ذريعاً ، وقتل حيوة ، وأفلت عبد الغافر ، فركب البحر إلى المشرق . ثم تفرغ عبد الرحمن بعد ذلك لمحاربة الفاطمي ، وامتد أمره معه حتى قتله سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م) .

• • •

(١) أخبار مجموعة ص ١٠٥ - ابن عذاري ج ٢ ص ٨٠ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٠٥ وما يليها - ابن عذاري ج ٢ ص ٨٠ .

أما أعظم المشاكل التي صادفته فهي مؤامرة كبرى دبرها له بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين للدولة عبد الرحمن بن معاوية ، وذلك سنة ١٦١ هـ (٧٧٨ م) وما يليها ، بالاتفاق مع الخليفة العباسي محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ ؛ ٧٧٥ - ٧٨٥ م) ومستعينين في ذلك بقارلة (شارلمان بن يبيان) ملك الفرنجة الذي كان على علاقة من الصداقة والمودة مع الخليفة العباسي بدافع من المصلحة المشتركة . ونلاحظ وجود تقارب بين الدولة العباسية والدولة الإفرنجية بسبب عداتهما المشترك للدولة الأموية في الأندلس ، وكذلك وجود تقارب بين الدولة الأموية بالأندلس والدولة البيزنطية بسبب عداتهما المشترك للدولة العباسية وبسبب العداوة بين البابوية والدولة البيزنطية ، وتعضيد الفرنجة للسياسة البابوية .

هؤلاء الثوار العرب هم : عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي ، أحد أصحاب يوسف الفهري ، وسمى بالصقلي لأنه كان طويلاً أشقر ، أزرق ، أمير^(١) ، وقد ثار ابن حبيب بتدمير سنة ١٦٣ هـ . كذلك ثار عليه سليمان بن يقظان الأعرابي وإلى برشلونة وثار معه بسرقسطة حسين بن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة ، وأخيراً ثار عليه الرماحس بن عبد العزيز الكتاني ، وإلى الجزيرة الخضراء ، سنة ١٦٤ هـ .

ولم يكن قارلة يزهد في امتلاك الأندلس ، فقد كان قد فرغ من حروبه في الجزء الأعظم من أوروبا ، وضم إلى ملكه لمبارديا وسكسونيا وباثير وبلاد الآفارين وامتد ملكه حتى الدانوب^(٢) . وكان قارلة يحلم بطرد المسلمين من الأندلس^(٣) ، ويطمع في ضم مملكة القوط القديمة إلى إمبراطوريته . ويبدو أن المؤامرة قد دبرت بعلم محمد المهدي العباسي وموافقة وليس أدل على ذلك من التجاء الرماحس إليه بعد أن فشلت ثورته على ابن معاوية في الجزيرة الخضراء^(٤) .

(١) أخبار مجموعة ص ١١٠ - ابن عذاري ، البيان ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 120.

(٣) في رؤيا رآها قارلة ناداه القديس جيمس قائلاً : « إن جثائه الذي لا يورقه المسلمون والمسيحيون يرقد في تلك الأرض النائية ، وأمر شارلمان بأن ينهض وأن يستخلص جليقية من يد المسلمين . » وتكرر ظهور الرؤيا ثلاث مرات ، ولم يسغ قارلة إلا أن يلبى النداء في المرة الرابعة . (انظر كارلس ديفز : شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٩٨) .

(٤) ذكر صاحب أخبار مجموعة اسم الخليفة أبي جعفر المنصور بدلاً من محمد المهدي ، ويبدو أنه خلط بين مؤامرة العلاء بن مغيث وبين مؤامرة الرماحس (ص ١١٢) .

وبدا عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي بالعبور إلى إفريقية ، ثم عاد بجيش كبير من البربر نزل به في مدينة تدمير ، التي ستصبح فيما بعد مدينة مرسية ، وكانت مهمة سليمان بن يقطان الأعرابي ، الذهاب إلى سرقسطة وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهو حسين بن يحيى الأنصارى . وكان على الرماحس أن يعلن الثورة في جنوب الأندلس في نفس الوقت . وكان لابد لعبد الرحمن بن معاوية أن يحارب هؤلاء الثوار الواحد بعد الآخر ، فبدأ بأخطارهم وهو عبد الرحمن بن حبيب ، الذي هرب وتعلق بالوعر ، وتمكن عبد الرحمن من إحراق سفن ابن حبيب الراسية بساحل البحر قرب بلنسية^(١) ، فأرسل ابن حبيب إلى سليمان بن يقطان الأعرابي ببرشلونة يدعو إلى الدخول في أمره ويسأله أن يمدّه بمعونه ، ولكن سليمان لم يجبه إلى طلبه ، فامتعض الفهري وغزاه ، ولكنه انهزم وفر إلى تدمير والتجأ عند رجل من بربر البرانس يقال له مشكار البربري^(٢) ، فصار مشكار المذكور من ثقات أصحابه واطمأن إليه ابن حبيب ، فقتله البرنسي^(٣) في أواخر سنة ١٦٢ هـ (٧٧٨ م) . ثم وجه ابن معاوية هم بعد ذلك لمقاتلة الرماحس ، فأرسل إليه وزيره عبد الله بن خالد على رأس جيش ، ففر الرماحس على مركب جاز به البحر حتى قدم إلى الخليفة العباسي . أما سليمان الأعرابي فقد ثار بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصارى ، فبعث إليهما ابن معاوية قائده ثعلبة بن عبيد الجذامى في جيش ، خير أن سليمان نجح في هزيمة هذا الجيش ، وأسر ثعلبة . وعمل على الاستفادة من أسره . فترك على سرقسطة زميله حسين بن يحيى الأنصارى ، ومضى هو وأسيره إلى إفرنجة حيث قابل قارلة وسلمه ثعلبة ، وحرّضه على غزو شمال الأندلس^(٤) . ووجد قارلة في ذلك فرصة مواتية لغزو الأندلس ، فخرج على رأس جيوشه في ربيع سنة ٧٧٨ م متجها نحو جبال البرتات ، فاجتازها إلى رنشفالة وهاجم بنبلونة واستولى

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٣ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١١١ .

(٤) يرى ليون بروثنسال أنه من المحتمل أن يكون سليمان الأعرابي قد توجه إلى إفرنجة وفي صحبته أحد الخارجين من العرب على عبد الرحمن بن معاوية وهو أبو ثور ، وكان قائداً على إقليم وشقة Huesca ويشهد في ذلك إلى فترة من الحروب الملكية لدولة الفرنجة التي تروى أن ملك الفرنجة تلقى سنة ٧٧٨ م من أبي ثور صاحب وشقة وابن الأعرابي صاحب برشلونة وجرندة بعض الرهائن (ص ١٢٣) .

عليها ، ثم استمر في زحفه نحو سرقسطة ، وهو يعتقد أنها ستفتح له أبوابها ، إذ كان ابن الأعرابي قد مهد السبيل أمامه لدخولها . ويبدو أن حسين بن يحيى طمع في الاتفراد بولاية سرقسطة ، فأغلق أبوابها أمام جيوش قارلة ، وأصم أذنيه عن عن توسلات ابن الأعرابي ، وطال حصار قارلة للمدينة عبثاً حتى يش من فتحها ، وكانت الأنباء قد وصلته بحدوث اضطرابات في بلاده ، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة ، وقفل عائداً إلى بلاده ، وقد أرغم سليمان على التراجع معه لعجزه عن تحقيق وعده لقارلة بإدخاله سرقسطة .

انسحب قارلة يمحشه نحو غالة ، ولما أدرك بنبلونة سحب حاميتها الإفرنجية وهدم أسوار المدينة . ولكن عبد الرحمن بن معاوية لم يتركه يرحل في سلام ، فقد أثار عليه قبائل البشكنس^(١) ، وكانوا يحقدون على قارلة لتخريبه بنبلونة ، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحد دروب شعاب رنسفالة ، وأمطروها وابلا من السهام وكتل الحجارة ، حتى قضوا على هذه المؤخرة قضاء مبرماً وقتل في رنشتالة عدد كبير من أعظم قواده ، نخص بالذكر منهم إيجهار Eggihard ، وأنسيلم Anselme ، كما قتل صفيه وأعظم قواده رولان Roland ،^(٢) فحزن قارلة لقتله حزناً شديداً ، وكان مصرعه موضوع أنشودة من شعر الملاحم الفرنسي تعرف بأنشودة رولان La Chanson de Roland . وفي أثناء المعركة تمكن مطروح وعيشون ولدا سليمان بن الأعرابي من تخليصه ، ورجعا به إلى سرقسطة . وهكذا انتصر الأمير عبد الرحمن على المتآمرين عليه ، واضطر قارلة إلى مهادنته حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية ، وفي ذلك يقول المقرئ : « وخاطب عبد الرحمن قارلة ملك الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، فقال معه إلى المداراة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تم المصاهرة^(٣) » ويؤيد الأستاذ ليثي بروفنسال ما ذكره المقرئ مستنداً إلى أن قارلة لم يقيم بأي مغامرة أخرى في إسبانيا الإسلامية منذ حملته الفاشلة التي قام بها سنة ٧٧٨م حتى سقوط برشلونة سنة ٨٠١م^(٤) .

(١) أشار صاحب أخبار مجموعة إلى خروج الأمير عبد الرحمن إلى بنبلونة في ذلك الوقت (انظر أخبار مجموعة ص ١١٤) .

(٢) ما زال شاهداً قبرى إيجهار ورولان قائمين . يحدلان تاريخ ١٥ أغسطس سنة ٧٧٨ .

(٣) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

(٤) Lévi-Provençal. Histoire, t. I, p. 121 .

ولقد أيقن قارلة أنه لن يتمكن من بسط نفوذه في إسبانيا الإسلامية ، طالما لا يرتكن في إسبانيا نفسها على قوى مناوئة للأمير الأموي ، كما وضع لديه استحالة تفوقه على الإسلام في إسبانيا ما لم يؤمن بلاد غالة الإفرنجية والغرب المسيحي . ولذلك عمد في نفس العام الذي عاد فيه إلى بلاده من حملته الفاشلة إلى ضم مملكة أكتانيا إلى مملكة إفرنجة بقصد مراقبة نشاط أمراء المسلمين الموالين لقرطبة أو الخارجين على طاعتها ، على تخوم البرتات ، أو الحلد من هذا النشاط . ومنح قارلة هذه المملكة الكارولنجية إلى ابنه لويس الذي سمى فيما بعد باسم لويس الثقي ، وتآلفت من هذه المملكة ومملكتي غسقونية وسبتمانيا جبهة قوية تواجه أملاك المسلمين في إسبانيا ، وقد آتت هذه السياسة الواقعية ثمرتها ، إذ أن سكان المدن الإسلامية في إسبانيا ، الواقعة بعيداً عن قرطبة ، مركز الإمارة الأندلسية ، وقريباً من الممالك الإفرنجية ، كانوا يتوجهون بالطاعة لهذه الممالك ، فقد حدث قبل وفاة عبد الرحمن الداخل بثلاث سنوات أن سلم أهالي جرنده Gerona مدينتهم سنة ٧٨٥م إلى ممثلي السلطات الإفرنجية ، وتبع ضياع جرنده سقوط مدينة برشلونة في أيدي الإفرنجية^(١) سنة ٨٠١م .

• • • • •

وبينا كان جيش قارلة يتراجع عن سرقسطة كان جيش عبد الرحمن بن معاوية يتأهب للسير نحو سرقسطة للقضاء على الثوار ، وقبل أن يصل الأمير عبد الرحمن إلى سرقسطة أوعز حسين بن يحيى الأنصارى إلى أحد أتباعه بقتل الأعرابي في المسجد الجامع سنة ١٦٤هـ (٧٨٠م) ، حتى ينفرد بحكم سرقسطة . أما عيشون بن سليمان فقد فربعد مصرع أبيه إلى أربونة ، ثم عاد إلى سرقسطة عندما بلغه قدوم الأمير عبد الرحمن إليها وافتتاحها . وتمكن أخيراً من اصطلياد قاتل أبيه وقتله ، وانضم إلى جيش الأمير وساهم في حصار حسين بن يحيى . فلما ضاق حسين بهذا الحصار ، أرسل إلى الأمير يطلب الصلح ، وأرسل إليه ابنه سعيد رهينة ، فقبل الأمير ذلك ، وفك الحصار عن سرقسطة ومضى إلى بنبلونة وقلنيرة San Miguel de Culera وكر على « البشقنس » ثم على بلاد الشريطانيس Cardaña ، ولكن سعيداً تمكن من الفرار وعاد إلى سرقسطة سنة ١٦٥ ، وهنا نكت

حسين عهده مع الأمير ، فسير إليه عبد الرحمن قائده غالب بن تمامة بن علقمة على رأس جيش حاصر به المدينة ، ثم أدركه الأمير في العام التالي ١٦٦ هـ (٧٨٢ م) وقد عزم عزما صادقا على افتتاح المدينة ، فشدد عليها الحصار ، ونصب عليها ستة وثلاثين منجنيقا من كل جانب ، فترامى القوم إليه وأسلموا إليه حسينا فقتله عبد الرحمن . وانتهت بذلك ثورة حسين بن يحيى ^(١) .

وكانت آخر حلقة من سلسلة هذه المؤامرات ، مؤامرة دبرها ابن أخت الأمير عبد الرحمن الداخل ، واسمه المغيرة بن الوليد بن معاوية ^(٢) سنة ١٦٨ هـ ، وساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم ، وكشف عبد الرحمن المؤامرة ، وقبض على المغيرة وهذيل واستنطقهما فاعترفا ، فأمر بقتلهما .

ثم كانت مؤامرة محمد بن يوسف الفهرى المعروف بأبى الأسود ، وإعلانه الثورة على الأمير عبد الرحمن بمدينة قسطلونة Cazlona بشرق الأندلس ، وهزمه عبد الرحمن في محاصرة الفتح في مستهل ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ ، ففر إلى قورية ^(٣) ، فطارده الأمير عبد الرحمن ، وأرغمه على الفرار إلى المفاز ، بأقصى شمال إسبانيا . وكان ذلك آخر ما قام به عبد الرحمن الداخل من حروب ، إذ مات في جمادى الأول سنة ١٧٢ هـ (أكتوبر ٧٨٨ م) ، ودفن بالبروضة من قصر الإمارة الذى أصبح منذ ذلك الحين بمثابة سان ديس وقصر اللوفر .

(١) أخبار مجموعة ص ١١٤ وما يليها .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٥ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١١٦ - ابن عذارى ج ٢ ص ٨٥ .

حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن

يعتبر الأمير عبد الرحمن الداخل بحق أول من نثر بذور الحضارة الإسلامية في الأندلس ، فقد عمل منذ قيام دولته في هذه البلاد على تجديد ما زال من حضارة بني أمية في المشرق ، وما انقرض من آثارها ، وكان ولاية الأندلس السابقون عليه قد أدخلوا بعض النظم الأموية في الإدارة في أرض الأندلس ولكن بنسبة محدودة ، مثل تقسيم البلاد إلى كور ، يتولى كل منها عامل يقيم في قاعدتها ، ومثل النظام الحربي للدولة ، فلما استقرت أركان دولة عبد الرحمن في الأندلس عمل على توثيق النظم الإدارية المعروفة في المشرق الإسلامي في عهد بني أمية ، وتطبيقها تطبيقاً عملياً ، وقد تم ذلك على نحو يثير الإعجاب ، وسرعان ما ارتقت الأندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة إلى مصاف الدول الكبرى المستقلة^(١) . ونجح الأمير في إنقاذ الأندلس من الحرب الأهلية ومن المؤامرات والثورات ، حتى أرغم خصمه اللدود أبا جعفر المنصور على أن يعترف له بأعجاده وبطولاته ويسميه « صقر قرطب » دون غيره من رجالات العرب .

وبرجع الفضل في نجاح سياسة ابن معاوية وتوطيد ملكه إلى أعوان له كان يخصصهم بالمجالسة وينفرد بهم للإعانة والمشاورة هم : عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله ابن خالد ، ويوسف بن بخت ، وحسان بن مالك ، ومولاه بدر ومنصور فتاه ، وتمام بن علقمة ، وعبد الكريم بن مهران ، وعبد الحميد بن معيث . وكانوا بمثابة وزراء وحجابه له .

واتبع الأمير سياسة واقعية في حكمه ، فلم يعمد إلى تلقيب نفسه بألقاب

(١) صبر ابن سعيد المغربي عن ذلك بقوله : « كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من ملاطين إفريقية واختلاف الولاة داع إلى الاضطراب وعدم تأثل الأحوال وتربية الضخامة في الدولة ، ولما صارت الأندلس لبني أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد إليهم كل أب وأطاعهم كل عصى عظمت الدولة بالأندلس وكبرت أهم وتربت الأحوال » المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ١٩٨ .

الخلافة خوفاً من تعددها واكتفى بالإمارة وسمى نفسه بإبن الخلائف واستمر أعقابُه يتلقبون من بعده بهذا اللقب « أبناء الخلائف » حتى سنة ٣١٦ هـ عندما تلقب الأمير عبد الرحمن بن محمد بلقب الخلافة ، وذلك بعد أن تضخم ملكه واتسع سلطانه ، في الوقت الذي ضعفت فيه الخلافة العباسية . كذلك تلقب الأمير في عقد معاهدة الصلح بينه وبين القشتاليين بلقب « الأمير الأكرم الملك المعظم »^(١) .

وعمل الأمير عبد الرحمن الداخل على إحاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، فأمر حاضرتَه قرطبة التي أخذت تظهر منذ ذلك الحين بمظهر العاصمة ، بروائع المنشآت والمباني ، وقامت في البلاد في عهده حركة معمارية وعمرانية^(٢) لم يسبق لها مثيل ، منذ وطئت أقدام المسلمين أرض الأندلس ، فأقام منية الرصافة في أول أيام إمارته إلى الشمال الغربي من قرطبة لترهه ومقامه ، وسماها برصافة جده هشام التي أقيمت إلى الشمال الشرقي من تدمر ، بين تدمر والفرات سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) ، والتي كان يحن إليها حيناً متواصلاً ، إلى حد أنه كان يتردد على رصافة قرطبة كثيراً ويطلق في قصرها مقامه . وكانت منية الرصافة جناحاً واسعاً نقل إليها الأمير غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه رسوله إلى الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة ، حتى نمت سريعاً بحسن التعهد والرعاية وأصبحت أشجاراً معتمة ، أثمرت بغرائب من الفواكه ، التي انتشرت في عهد قصير إلى سائر أنحاء الأندلس ، وأقام الأمير في هذه المنية قصراً أبدع في تشييده وتأنق في زخرفته وسماه قصر الدمشق ، وكان يعرف أيضاً باسم منية الرصافة أي « قصر الرصافة » . ومن أشهر فواكه هذه المنية الرمان المعروف بالسفري ، وينسب إلى سفر ابن عبيد الكلاعي من جند الأردن الذي زرعه في كورة رية ، « فأثمر وأينع ، فترع إلى عرقه وأغرب في حسنه ، فجاء به عما قليل إلى عبد الرحمن ، فإذا هو أشبه شيء بذلك الرصافي ، فسأله الأمير عنه ، فعرفه وجه حيلته^(٣) » فأعجب به

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 116.

(٢) ذكر المقرئ إنه « لما تمهد ملكه شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد معانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه » ، وأصلح مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة » المقرئ ج ٢ ص ٨٤ .

(٣) المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٥ .

الأمير وأجزل صلته ، واشتهر هذا الرمان في الأندلس .
 وذكر الرازي أن عبد الرحمن عندما نزل الرصافة لأول مرة شاهد نخلة أهاجت
 شجته ، فتذكر وطنه الشامي فقال بديهة :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
 فقلت شيبى في التغرب والنوى وطول ابتعادي عن بني وعن أهلى
 نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمتأى مثلى
 سقائك غواذى المزن من صوبها الذى يسح ويستمرى السما كين بالوبل

وفي قصر الدمشق يقول الفتح بن خاقان : « وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح
 والعمد ، وجروا في إتقانه إلى غاية وأمد ، وأبدع بناؤه ، ونمقت ساحته
 وفناؤه ، واتخذوه ميدان مراحهم ، ومضماراً لانسراحهم ، وحكوا به قصرهم
 بالمشرق ، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق^(١) . ولقد كان هذا القصر من
 القصور التي آثرها أمراء بني أمية وخلفاؤهم ، فزادوا في عمارته وانبرى وصاف
 الشعراء له ، وفيه يقول ابن عمار الشاعر :

كل قصر بعد الدمشق يذم فيه طاب الجنى ولد المشم
 منظر رائق وماء نمير وثرى عاطر وقصر أشم
 بت فيه والليل والفجر عندى عنبر أشهب ومسك أحم

وما زال اسم الرصافة Arrizafa يطلق على قرية في سفح جبل قرطبة في الموضع
 نفسه الذى كانت تقوم فيه منية الرصافة في العصر الأموي . وهناك نخلة هرومة ،
 قد قدم عليها العهد حتى تأكلت أجزاء منها ، وتداخلت فيها الحجارة وبقايا الأبنية
 القديمة ، ويطلق الناس عليها اليوم « نخلة عبد الرحمن » .

ولا شك أن عبد الرحمن كان يحن إلى وطنه ومسقط رأسه ، وقد ظهر هذا
 الحنين في أشعاره وفي أسماء قصوره وفي عناصرها المعمارية . فمن شعره قوله :

أيها الراكب الميم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
 إن جسمى كما تراه بأرض وفؤادى ومالكه بأرض
 قدر البين يبتسما فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمض

(١) المقرئ ، نفع الطيب ج ٢ ص ١٧ ، ١٩٠ .

قد قضى الله بالبعد علينا فغسى باقترابنا سوف يقضى^(١)
 وجامع قرطبة الذى أعاد عبد الرحمن بنائه سنة ١٦٩ هـ بعد أن ضم إليه كنيسة
 سنت ينجنت متبعا في ذلك ما فعله الوليد عند بنائه لجامع دمشق ، يجلو لنا تأثيرات
 فنية سورية لا سبيل إلى إنكارها سواء في زخارفه المعمارية أم في بعض عناصر بنائه ،
 وفي نظام عقودها ، ووضع مثذنته ، وكذلك تذكرنا أغلب منشآت عبد الرحمن المعمارية
 بنظائر لها في الشام مثل قصر الرصافة أو الدمشق الذى ذكرناه آنفا ، ومثل قصر الحير
 الذى ذكره الوزير ابن القبطرنة بقوله :

بالحسير ما عبت هناك غمامة إلا تضاحك اذ خرا وجليلا
 وهو حير الزجالي الواقع خارج باب اليهود بقرطبة ، وكان صحنه على حد قول
 الفتح بن خاقان « صافى البياض ، يخرقه جدول كالحية النضناض » ، وفي أسقفه
 وجدرانها يقول : « قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزرت بهما جوانبه
 وأرجأؤه^(٢) » . كذلك يذكرنا قصر الحائر من قصور الإمارة بقرطبة بقصر الحائر
 الذى أسسه هشام بن عبد الملك في بادية تدمر .

• • •

وهكذا طعم عبد الرحمن حضارة الأندلس بالطابع السورى ، وإليه يرجع
 الفضل في غرس بذور نهضة علمية زاهرة بقرطبة ، وستنمو هذه النهضة على مر
 الأيام ، حتى تصبح قرطبة في عهد أحد أحفاده عاصمة الدنيا ومركز العلم والحضارة ،
 وهو لذلك يعتبر أعظم أمراء بني أمية في الأندلس ، ولولا أن الخليفة عبد الرحمن
 الناصر سيقوم بدور مشابه لدوره ، لقلنا إنه أعظم من تولى الأندلس من بني أمية .

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٦١ .

الفصل الخامس

أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل

- ١ - عهد الأمير هشام الرضا
- ٢ - الحكم الربضي والثورات في عهده
- ٣ - ذروة عصر الإمارة أيام عبد الرحمن الأوسط
- ٤ - عصر الاضمحلال الأول أو دويلات الطوائف الأولى

الفصل الخامس

أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل

١

عهد الأمير هشام الرضا (١٧٢ - ١٨٠ هـ ، ٧٨٩ - ٧٩٦ م)

كان عبد الرحمن قد عقد العهد لابنيه هشام وسليمان ، وكان هشام عند وفاة أبيه بماردة ، بينما كان سليمان بطليطلة ، وذكروا أن عبد الرحمن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه عبد الله المعروف بالبلنسي - وكان موجوداً بالقصر وقتئذ - بأن يسلم خاتم الإمارة لمن يسبق من ولديه هشام وسليمان في الوصول إلى قرطبة ، وكان عبد الرحمن يرى أن كلاهما جدير بالإمارة ، فهشام لأن له «فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه» ، وسليمان لأن له «فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له»^(١). فلما علم هشام بوفاة أبيه أسرع في العودة إلى قرطبة فوصلها بعد ستة أيام ، قبل وصول أخيه سليمان ، فترل بالرصافة ، وخاف أن يكون أخوه عبد الله قد تمكن من الإمارة ، ولكن عبد الله نفذ وصية أبيه ، فخرج إلى هشام وسلم عليه بالخلافة ودفع إليه الخاتم وأدخله القصر^(٢).

ولا شك أن عبد الرحمن كان يفضل هشاماً على سليمان مع أن هذا الأخير كان يكبر هشاماً في السن بل كان أكبر أبناء عبد الرحمن ، وكان هشام رجلاً فاضلاً كريماً كما كان عاقلاً حسن التدبير ، بينما كان سليمان أهوجاً سيئ التصرف ، وقد أورد صاحب أخبار مجموعة مثالا لذلك^(٣) ، ولا شك أن الأمير عبد الرحمن

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) ذكر صاحب أخبار مجموعة مثلاً من أمثلة جوده وإنصافه وهو أنه أدخل عليه أحد صناعته من جيان وهو كنانى ، وسأله عن سر قدومه فأخبره أنه قدم متظلماً من أبي أيوب سليمان بن عبد الرحمن الداخل وكان والياً على جيان ، فذهب هشام إلى أبيه وطلب منه أن ينصف الكنانى فأنصفه وكتب إلى ابنه سليمان بذلك . (انظر تفاصيل القصة في أخبار مجموعة ص ١٢٢ ، والمقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣١٥)

الداخل كان يدرك ذلك حق الإدراك ، فكان يضع هشاما في المحل الأول ، وولاه ماردة موطن الثورات . وكثيراً ما كان يسأل الناس عن ابنه هشام وسليمان ليرى رأى الناس فيهما فيذكرون له ، « أن هشاما إذا حضر مجلساً امتلاً أدباً وتاريخاً وذكراً لأمر الحرب ومواقف الأبطال ، وما أشبه ذلك ، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلاً سخفاً وهذياناً » ، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان^(١) . وكانت بين هشام وسليمان جفوة ومباعدة^(٢) من أجل تفضيل عبدالرحمن لهشام . فلما دخل هشام القصر بايعه الخاصة والعامة ، فلما علم سليمان بذلك حشد الحشود وجند الأجناد وبايعه أهل طليطلة وما جاورها ، ثم زحف نحو قرطبة ، والتقى مع أخيه هشام في جيان ، بجهة بلج فانهزم سليمان^(٣) وعاد إلى طليطلة .

وكان سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى قد فر بعد مقتل أبيه في سرقسطة إلى شاغنت من إقليم طرطوشة واجتمع حوله حشد هائل من الجنين الموتورين ، وتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على مدينة طرطوشة . وكان يحكم الثغر الأعلى موسى بن فرتون القومس ، وكان قد بايع هشاما في ذلك الوقت ، فهاجم موسى سعيداً وهزمه وقتل سعيد ، واستولى موسى على سرقسطة ، ولكنه قتل بيد جحدر مولى حسين بن يحيى ، فخرج مطروح بن سليمان الأعرابي من مدينة برشلونة حيث أقام منذ مقتل أبيه ، فملك مدينة سرقسطة ووشقة والثغر الأعلى كله^(٤) ، في الوقت الذي كان هشام مشغولاً فيه بمحاربة أخيه سليمان . فتركه هشام ربثاً يفرغ من القضاء على فتنة أخيه سليمان ، ولكن أخاه عيد الله البنسى طمع هو الآخر في الإمارة بعد سبعة أشهر

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٣ . وذكر المقرئ أن عبد الرحمن قال يوماً لهشام يختبره : لمن هذا الشعر ؟

وتعرف فيه من أبيه شائلا ومن خاله أو من يزيد ومن حجر

سماحة ذا مع بر ذا ووفاء ذا ونائل ذا ، إذا صحا وإذا سكر

فقال له : يا سيدي لامرئ القيس ، وكأنه قاله في الأمير أعزه الله . فضمه إليه استحساناً بما سمع منه ، وأمر له بإحسان كثير ، وزاد في عينه ، ثم قال لسليمان على انفراد : لمن هذا الشعر ؟ وأنشده البيتين : فقال ، لعلهما لأحد أجلاف العرب . أمالي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب ؟ فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من مزية .

(٢) ابن القوطية ص ٣٥ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٢ .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٣ .

من وفاة أبيهما ، وكان هشام يبره ويرضاه ويؤثره على بقية إخوته ، ولكنه كان يريد مشاركة هشام فيها ، فخرج من قرطبة وانضم إلى أخيه الناصر بطليطلة . وقد كان هشام من سياسته اللينة إزاء أخويه الناصرين ، على الرغم من بغضه لسياسة العنف ، فخرج على رأس جيش كثيف في نفس هذا العام لاستئصال أخويه بطليطلة ، وطوق المدينة ، ولكن سليمان تسلل منها تاركاً أخاه عبد الله وابنه داخل المدينة ، واتجه نحو قرطبة ، فلما نزل بشقندة خرج إليه أهل قرطبة يحاربونه ، ووصلت الأنباء بذلك إلى هشام وهو بطليطلة فلم يكثر لذلك ، واكتفى بإرسال ابنه عبد الملك لمطاردته ، فلما اقترب عبد الملك بن هشام من قرطبة فر سليمان إلى ماردة ولكنه هزم هناك . ولما لم يجد فائدة من محاولاته ، أقام بتدمير . أما الأمير هشام فظل محاصراً لطليطلة ما يزيد على شهرين . ثم قفل إلى قرطبة . على أن عبد الله لم يجد هو الآخر فائدة من بقاءه بطليطلة ، فاتجه إلى قرطبة وأنزله الإمام هشام عند ابنه الحكم .

وتفرغ هشام لمحاربة أخيه سليمان فسير إليه جيشاً على رأسه القائدان شهيد ابن عيسى وتمام بن علقمة واضطر سليمان إلى طلب الأمان ، فاشتراط عليه الأمير الرحيل عن الأندلس ، وأعطاه ستين ألف دينار ، فقتل بأولاده وأهله ببلاد المغرب^(١) . ثم أتبعه هشام بأخيه عبد الله بعد أن عرضه مالا جزيلاً . وهكذا تخلص هشام من أولى العقبات التي صادفته في بداية إمارته . وشرع في مواجهة خصمه الآخر مطروح بن سليمان بن الأعرابي ، فبعث إليه هشام سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) قائده عبد الله بن عثمان^(٢) على رأس جيش لمحاربه ، فحاصرها عبيد الله ، حصاراً شديداً حتى ضج أهل سرقسطة لذلك ، وفي الوقت نفسه احتل عبيد الله مدينة طرطوشة ، وحالفه الحظ إذ تمكن بعض أعوان مطروح من قتله وأرسلوا رأسه إلى ابن عثمان وهو بطرطوشة فبادر بدخول سرقسطة^(٣) .

أما الثورة الثالثة التي قامت في عهده فحدثت سنة ١٧٨ هـ (٧٩٥ ؛ ٧٩٦ م) ،

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٤ .

(٢) كان عبيد الله بن عثمان الذي لعب الدور الأول في تأسيس دولة بني أمية قد كوفى على خدماته بولاية الثغر الأعلى فكان يقيم بمدينة طرسونه Tarrazona ، فقد آثرها على مدن الثغر منزلاً وكانت ترد عليه عشر مدينة أربونة وبرشلونة ، ولذلك عرف بصاحب الأرض (انظر الحميري ص ١٢٣) .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٤ .

إذ ثار عليه بربر تاكرنا من إقليم رندة ، وخرجوا عن طاعته ، وهاجموا الإقليم كله وقتلوا عدداً كبيراً من السكان العرب ، فبعث الأمير هشام إليهم جيشاً ضخماً ، أنذرهم بآدى ذى بدء فلم يجد منهم إلا إصراراً على الثورة ، فلم يسع قائد الجيش إلا أن يهاجمهم ويقضى على أكثرهم ، فانهزموا ، وفر من بقي منهم إلى طلييرة Talavera ، وترجييلة Trujillo . وأقامت تاكرنا خالية قفراً طوال سبع سنوات^(١) وكان ميل هشام إلى الورع والدين سبباً من أسباب إقباله على الخير وإيثاره له ، كما كان سبباً من أسباب قضائه سنى حكمه فى الجهاد ضد النصارى بشمال إسبانيا ، فبينما كانت أيامه كلها تتميز بالدعة والهدوء فى الداخل ، نراه من وجهة السياسة الخارجية مجاهداً من خير المجاهدين ومثاغراً من كبار المثاغرين ، ذلك أن الناس أشاعوا فى أوائل سنى حكمه بأنه لا خير فى أمير لا يحارب إلا بنى دينه من المسلمين ، فأعلن الجهاد، وعياً بجيشاً كبيراً سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م) وجعل على رأسه قائده أبا عثمان عبيد الله بن عثمان ، وسيره إلى ألبه Alava والقلاع Castilla la Vieja فحضى الجيش حتى وصل واذى إبرة ، ومضى مصعداً مع النهر حتى ألبه حيث اصطدم مع النصارى فهزمهم هزيمة شنعاء وقتل منهم نحو تسعة آلاف^(٢) . وفى هذا العام نفسه ، خرج جيش آخر من قرطبة على رأسه يوسف بن بخت وكان هدفه بلاد جليقية وأشتوريش ، والتقى هذا الجيش بجيش الملك برمود الكبير Vermudo I ملك أشتوريش على نهر بوريا Burbia^(٣) فهزمه جيش يوسف وانتهب المسلمون معسكره ، وقتل من النصارى ما يزيد على عشرة آلاف .

وفى العام التالى ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بعث هشام قائده ووزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبه والقلاع فأثخن فى نواحيها^(٤) ، وكان برمود قد مات إذ ذاك وخلفه ألفونسو العفيف Alfonso II el Casto (٧٩١ - ٨٤٢) الذى نقل حاضرتة إلى أويط Oviedo .

وفى العام التالى بعثه الأمير فى جيش كثيف إلى أربوتة وجرندة ، وكانت جرندة

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٥ .

(٣) Lévi Provençal, op. cit. p. 143 .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٩٥ - المقرئ ج ١ ص ٣١٦ .

قد سقطت في أيدي الفرنجة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) فبدأ عبد الملك بن مغيث بمحاصرة جرندة ، وثلم أسوارها بالمجانيق^(١) ، ولكنه لم ينجح في افتتاحها فمضى إلى سبمانيا ، وظل شهوراً يحرق القرى ويخرب الحصون ، حتى وصل إلى أربونة ، وكان ملك الفرنجة لويس إذ ذاك مشغولاً في حروبه في إيطاليا ، واشتبك عبد الملك مع كونت طولوشة جيوم المعروف بذي الأنف القصيرة في موقعة بين قرقشونة وأربونة انتصر فيها على الفرنجة انتصاراً رائعاً ، حتى إن خمس السبي بلغ خمسة وأربعين ألفاً من الذهب العين^(٢) . ويؤكد المقرئ أن أربونة افتتحت في أيامه وأنه اشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة ، ومنه بنى المسجد الذي يقع تجاه باب الجنان من أبواب قصر الإمارة^(٣) .

أما الصائفة التالية فقد كانت أقل توفيقاً من الصوائف السابقة ، ففي عام ١٧٨ هـ (٧٩٤ م) بعث جيشين في آن واحد ، أحدهما بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد وجهه إلى البة والقلاع ، والآخر بقيادة عبد الله بن عبد الواحد ، وكان هدفه بلاد أشتوريش ونجح عبد الكريم في التغلب على الحلافة وانتهى إلى استرقة ، أما عبد الملك فوصل إلى أبيط وخربها وأثخن في البلاد ، ولكنه فوجئ أثناء عودته بهجوم قام به نصارى أشتوريش^(٤) ، وقامت معركة في بطيحة نال فيها النصارى من جيش عبد الملك ، ولكن الجيش الإسلامى تراجع من الموقعة بعد أن تكبد بعض الخسائر^(٥) .

أحدثت هذه الهزيمة رد فعل عند المسلمين ، فأراد عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث أن ينتقم لأخيه فخرج بالصائفة سنة ١٧٩ هـ (٧٩٥ م) متجهاً نحو استرقة وانتهى إليها واستولى عليها ، فتراجع ألفونسو الثانى (أذفونش) إلى الشمال

(١) المرجع السابق ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ يرى ليثى بروئنسال أن المؤرخين يبالغون في ذكر هذه الفنائم والواقع أن ما ذكره ابن عذارى ليس فيه شيء من المبالغة ، فن هذا الخمس ابتنى الزيادة بجامع قرطبة وبني الجسر الذى تهدم وكان يوزع المال على الفقراء .

(٣) المقرئ ج ١ ص ٣١٦ .

(٤) المقرئ ج ١ ص ٣١٧ ، Lévi-Provençal, op. cit. p. 143.

(٥) ذكر ليثى بروئنسال أن المؤرخين الأسبان المحدثين والمعاصرين يسمون هذه الموقعة موقعة

لوتوس batalla de Lutos انظر المرجع السابق ص ١٤٣ ملحوظة رقم ٤ .

واستمد العون من البشكنس وغيرهم من سكان تلك النواحي ، وبلغ عبد الكريم أنه حشد عسكرياً ضخماً « ما بين حيز جليقية والصخرة »^(١) ، فاستعان عبد الكريم بأحد كبار قواده هو فرج بن كنانة ، وقدمه على رأس أربعة آلاف من الفرسان لاقتفاء أثر ملك أشتوريش ، ونجح فرج في هزيمة فرقة مسيحية بقيادة غداشة في واد يقال وادي كرتية ، وأخذ غداشة المذكور أسيراً وقتل من أصحابه عدداً كثيراً ، وتقدم بعد ذلك للملاقاة ألفونسو ، فتحصن ألفونسو في حصن على وادي نلون Nalon . وهناك قدمت جيوش عبد الكريم لمحاصرة الحصن ، ففر الملك الأشتوري إلى حصن آخر ، فاستولى عبد الكريم على الحصن المذكور ، وأرسل فرج بن كنانة في عشرة آلاف فارس خلف ألفونسو ، وهزمه واستولى على جميع معداته وذخائره^(٢) . ولم يطل العهد بهشام إذ توفي سنة ١٨٠ هـ .

* * *

وأهم ما حدث في عهد هشام في المجال الداخلي دخول المذهب المالكي في الأندلس ، فقد كان أهل الأندلس يتبعون مذهب الإمام الأوزاعي الشامي المتوفى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ، وكان تلميذه في الأندلس الفقيه صمصعة بن سلام الشامي صاحب الصلاة بقرطبة وقاضيا (ت ١٩٢ هـ) ، وهو الذي غرس صحن المسجد بالأشجار . وأول من أدخل مذهب مالك في الأندلس أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون ، وكان قد رحل إلى المشرق في بداية عهد هشام^(٣) ، بعد عام واحد من إمارته ، وذهب إلى المدينة حيث أخذ عن مالك ، وسأله مالك بن أنس عن هشام ، فأخبره عن مذاهبه وحسن سيرته ، فقال مالك : ليت الله زين مومنا بمثله .

ورحل في عصر هشام عدد آخر من رواة الحديث منهم فرغوس بن العباس ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبي هند ، فلما رجعوا إلى الأندلس وصفوا ما رأوه من فضل مالك وسعة علمه ، وجلالة قدره ، ما عظم به صيته بالأندلس فانتشر يومئذ رأيه ومذهبه في الأندلس وكان رائد الجماعة في ذلك شبطون^(٤) ، وهو أول من

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٩٦ . (٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٩٧ .

(٣) ابن القوطية ص ٤٣ .

(٤) المقرئ ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها .

أدخل موطأ مالك إلى الأندلس كاملاً ، فأخذه عنه الفقيه يحيى بن يحيى الليثي ، وكان طالبا إذ ذاك ، وأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك ما دام حيا ، ففعل وأخذ عن مالك وسمع منه الموطأ ، ولازمه ، كما سمع بمصر من الليث بن سعد وعبد الرحمن ابن القاسم وبمكة من سفيان بن عيينة^(١) .

وعندما عاد إلى الأندلس عمل على نشر المذهب المالكي في البلاد ، وتولى الرئاسة في الفقه والقضاء ، ونال مكانة سامية لدى الأمير ، وأصبح إمام عصره . وأصبح للفقهاء مكانة عظيمة في الأندلس في عهد هشام ، فقد استسلم لهم الأمير وقضى هشام حياته خاضعا لأحكامهم . وكان هشام بطبعه تقياً ورعاً فقد ذكروا أنه لما تولى إمارة الأندلس استقدم المنجم المعروف بالضبي من وطنه الجزيرة الخضراء إلى قرطبة وطلب منه أن ينأه بما ظهر له في نجمه ، ففعل الضبي ثم طلب أن يعفيه هشام من القول فما زال به هشام حتى أخبره الضبي أنه لن يعيش في ملكه أكثر من ثمانية أعوام ، ومنذ ذلك الحين انقطع هشام عن الدنيا ، وزهد فيها ، ولزم أفعال الخير والبر^(٢) ، وذهب مذهب عمر بن عبد العزيز فكان يبعث ثقات القوم إلى كور الأندلس فيسألون الناس عن سير عماله ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه ، وأنصف منه^(٣) .

وكان مصلحاً محباً لبناء المساجد^(٤) ، وتعمير المباني ذات المنافع العامة ، وهو الذي أكمل سقائف جامع قرطبة ، وأسس منارته القديمة ، وبنى الميضاة في صحنه . وكانت قنطرة قرطبة قد تهدمت في حياة عبد الرحمن الداخل بسبب السيل ، فنظر هشام في بنائها وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة وتولى بناءها بنفسه ، وكان يعطي الأجرة للعمال بنفسه^(٥) ، وذكر ابن وضاح أنه بعد أن أتم بناءها سأل يوماً أحد وزرائه عما يقوله أهل قرطبة في القنطرة ، فذكر له أنه ما بناها إلا ليحضى عليها إلى صيده رصه ، فأقسم ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة ، وأوفى بيمينه .

(١) نفس المرجع ص ٢١٧ . (٢) المقرئ ج ١ ص ٣١٤ .

(٣) ابن عذارى ص ٩٨ - المقرئ ج ١ ص ٣١٦ .

(٤) ذكر صاحب أخبار مجموعة أنه كان يصر الصرر بالأموال ويبعث بها في ليال المطر والظلمة

إلى المساجد فتعطى من وجد فيها ، يريد بذلك عمارة المساجد . (ص ١٢١) .

(٥) ابن عذارى ص ٩٨ .

الحكم الربضي والثورات في عهده ١٨٠ - ٢٠٦ (٧٩٦ - ٨٢٢ م)

بويج أبو العاصي الحكم بن هشام بعد وفاة أبيه بليلة واحدة يوم ٨ من صفر سنة ١٨٠ هـ، وهو ابن ٢٦ سنة، وكان أبوه هشام قد عهد إليه بولاية العهد، دون أكبر أبنائه عبد الملك، وبدأ الحكم عهده بمحاربة بعض أقربائه الطامعين في الإمارة، فقد كان عمه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن الداخل قد تقيا في عهد أبيه بالمغرب، فأقام سليمان بطنجة بينما كان عبد الله يمضي وقته متجولا في بلاد المغرب، فزار إبراهيم بن الأغلب بالقيروان، كما زار الإمام عبد الوهاب بن رستم الإباضي في تاهرت، وهناك علم بموت أخيه هشام وتولية ابن أخيه الحكم، فأسرع بالجواز إلى الأندلس، عله يسبق أخاه سليمان، فترز بالثغر الأعلى، إذ كان يعلم كراهية سكان هذا الثغر للأمير الجديد، ونزل بسرقسطة عند بهلول بن مرزوق الثائر على الأمير الحكم في ناحية الثغر^(١)، ولكنه لم يجد هناك من يؤيده لعزل الحكم وتولية مكانه، وباءت جهوده بالفشل، فرحل مع ولديه عبيد الله وعبد الملك لمقابلة شارلمان^(٢) في إكس لاشابل، وهناك قابله وحثه على مهاجمة الأندلس، أما سليمان، فقد دخل الأندلس من العدو في سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م)، أي في العام الثاني لولاية الحكم، واستطاع أن يجمع جيشا ليهاجم به قرطبة، وفي شوال من السنة نفسها انهزم سليمان بعد معركة شديدة بينه وبين ابن أخيه. ومع ذلك فقد عاود سليمان القتال من جديد، فاشتبك مع الأمير الحكم في بنخطة، فانهزم سليمان للمرة الثانية ثم عاد للمرة الثالثة على رأس جيش من البربر لمقاتلة الحكم، فخرج سنة ١٨٣ هـ إلى ناحية استجة ولكنه انهزم بمن كان معه، ثم التقيا للمرة الرابعة، وكان نصيبه هذه المرة أيضا مثل المرات السابقة. وفي سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) حشد سليمان جيشا من شرق الأندلس، فاستولى به على جيان ثم إلىيرة.

(١) Lévi-Provençal, op. cit. p. 152, 153.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٢.

وانضم إليه جمع من أهل المدينتين ضد الأمير ، فلما التقى جيشه مع جيش الحكم ، انهزم سليمان هزيمة شنعاء وقتل في الموقعة عدد كبير من أنصاره ، وتمكن سليمان من الفرار ، فأرسل الحكم أصبغ بن عبد الله بن وانسوس وراءه للقبض عليه ، فأسره أصبغ وأتى به إلى الحكم ، فأمر بقتله ، وبعث برأسه إلى قرطبة^(١) ، حيث طيف به على رأس رمح ، ثم أمر الحكم بدفنه في روضة القصر بالقرب من قبر عبد الرحمن بن معاوية .

أما عبد الله بن عبد الرحمن ، فقد استولى على حصن وشقة بعد عودته من إكس لا شابل سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) ، ولكن بهلول بن مرزوق لم يلبث أن أخرجه من سرقسطة ، فاتجه إلى بلنسية ، وهناك وجد تأييداً له عند أهالي بلنسية ، فأقام بها شبه مستقل عن قرطبة بعد أن عفا عنه الحكم^(٢) ، وصالحه سنة ١٨٦ هـ مقابل بقاءه طول حياته ببلنسية . وبالفعل قضى عبد الله بن عبد الرحمن الداخل بقية حياته في بلنسية ، حتى إنه عرف بعبد الله البلنسي ، وهو الذي أقام ربض الرصافة ببلنسية^(٣) . وقد استقدم الحكم ولديه فولى أحدهما وهو عبيد الله قيادة جيوشه ، فعرف لذلك بصاحب الصوائف ، ومن غزواته غزوته إلى قطلونية ومهاجته برشلونة^(٤) التي كانت قد سقطت في أيدي القطلانيين سنة ١٨٥ هـ^(٥) .

وكان الحكم أميراً شديداً الحزم ، ماضى العزيمة ، عظيم الصولة ، حسن التدبير ، وكان أفحل أمراء بني أمية ، وأشدّهم إقداماً ونجدة وصرامة وأتفة وأبهة وعزة ، وهو أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتقة ، وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم والحواشي ، وارتبط الخيول على يابه ، واتخذ المماليك وكان يسميهم الحرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكانت له عيون يطالعونه

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٥ .

(٢) كاتبه عبد الله طالباً الأمان فأمنه سنة ١٨٦ هـ ، ثم صالحه سنة ١٨٧ هـ بإجراء الأرزاق عليه وذلك ألف دينار لكل شهر ، وخرج إليه بهذا الأمان الفقيه يحيى بن يحيى الليثي وابن أبي عامر ، فعقد الصلح على ذلك ، على أن يسكن عبد الله بلنسية ، ثم بعث الحكم في ولدي عبد الله فزوج أحدهما أخته أم سلمة (انظر ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٦) .

(٣) Lévi-Provençal, op. cit. p. 136 Note 2. (٢)

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ١١٠ .

(٥) المقرئ ج ١ ص ٣١٧ .

بأحوال الناس^(١) ، وكان يشبه بأبي جعفر المنصور في شدة البأس وتوطيد الدولة وقمع الأعداء^(٢) ، ومع ذلك كله فقد كان عادلاً بين رعيته ، متخيراً لحكامه وعماله ، مثاغراً في سبيل الله ، واستطاع بفضل هذه الصفات جميعاً أن يطفى نيران الفتن بالأتدلس ، ويقضى على ثورات المولدين فيها .

وكانت للحكم ألف فرس مرتبطة بباب قصره الجنوبي المطل على نهر الوادي الكبير ، « عليها عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر ثار في أطرافه أمر ، عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر حتى يحاط به^(٣) » . وعلى هذا النحو استطاع الحكم أن يقضى على ثورتين كبيرتين كادتتا تطيحان بإمارته : الأولى هي ثورة المولدين بطليطلة التي حدثت عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ، وذلك أنهم كانوا يستخفون بولائهم ويميلون إلى الثورة على أمراء بني أمية ، والانقصال عن سلطان قرطبة ، وعرف الحكم كيف يوقع بهم^(٤) ، إذ استقدم عمروس المولد من وشقة ، واختصه وقربه إليه ، وولاه على طليطلة حتى يطمئن إليه سكانها المولدون . وأخذ عمروس هذا يتظاهر أمامهم بكراهيته للأمير ، وبغضه له حتى أنسوا إليه وأمنوا بجانبه ، فبنى قصبة بالقرب من جسر طليطلة ، وأقام فيها حفلاً دعا إليه وجوه طليطلة وزعماءها وكبار رجالها ، فحضرها وأوهمهم أنهم إذا انتهوا من تناول الطعام والشراب ، انصرفوا من باب غير الباب الذي دخلوا منه ، ووقف السيفون على شفير حفرة بداخل القصبة ، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيضربون عنقه ، حتى بلغ عدد القتلى خمسة آلاف وثلثمائة^(٥) . فلانت بعد ذلك شوكة أهل طليطلة طوال عهده وعهد ابنه من بعده^(٦) .

والثورة الثانية هي ثورة أهل الربض بقرطبة عام ٢٠٢ هـ (٨١٧ م) ، وكانت

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١٢٧ - فتح الطيب ج ١ ص ٣٢٠ .

(٢) فتح الطيب ج ١ ص ٣١٩ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٣٠ ابن عذارى ج ٢ ص ١١٨ - المقرئ ج ١ ص ٣٢٠ .

(٤) النف أهل طليطلة حول واليهم غريب الطليطلي الشاعر وكان من أهل الحكمة والدهاء ، فلم يطمع الحكم فيهم أيام غريب ، وانتهز فرصة وفاة غريب واستقدم عمروس (انظر ابن القوطية ص ٤٦) .

(٥) ابن القوطية ص ٤٨ . وقيل سبعمائة (ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٤) .

(٦) ذكر ابن عذارى أن أهل طليطلة خرجوا على الأمير الحكم سنة ١٩٩ هـ ، فهض إليهم وغافلهم

ليلاً ، ودخل المدينة وقضى على الثوار ، وأخذ الفتنة (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١١١) .

السبب في تلقيه بالحكم الربضي ، ذلك أن أباه هشاماً كان قد أحاط نفسه بالفقهاء واستسلم لهم ، وعظم بذلك شأنهم ، وتجاوزوا حدودهم ، فلما تولى الحكم الإمارة ، حاول أن يتزعزع منهم سلطتهم ، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به في عهد أبيه ، وكيف أيديهم عن التدخل في شئون دولته ، فأنقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروحي في إثارة الناس على الأمير . وحاول بعض الفقهاء أن يغدروا به سنة ١٨٩ هـ ، فأنكشف أمرهم وقبض عليهم الأمير وصلبهم ، وكانوا ٧٢ رجلاً بقرطبة ، منهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسي ، وكان قدوة في الدين والورع ، ومنهم أبو كعب بن عبد البر ، ومصرور الخادم ، وموسى بن سالم الخولاني ، وولده ، وغيرهم^(١) . وبلغ من تبرم أهل الربض بقرطبة من أعماله أنهم كانوا ينادونه ليلاً من أعلى الصوامع « الصلاة الصلاة يا مخمور » ، وامتلاً الجحور بالسخط بعد مقتل الثوار ، وأنكر الناس عليه إطلاقه يد ربيع القومس متولى المعاهدتين بالأندلس من النصاري ، وكان حظياً في رجاله ، سوغه فرض المغارم على المسلمين^(٢) . وحدث في ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس سنة ٨١٨ م) حادث بسيط أشعل — كالشرارة التي تحدث أشد الحرائق — نيران الفتنة بين سكان الربض بقرطبة . فقد قتل أحد ممالك الأمير غلاماً ، فغلت مراجل غضبهم ، وانفجرت براكين أحقادهم على الأمير ، وكأنما كانوا يرتقبون هذا الحادث ، فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا على مملوك الأمير فقتلوه ، وخرجوا يهتفون بنخلع الأمير . وأول من شهر السلاح ضده ، أهل الربض القبلي بعدوة النهر ، ثم ثار أهل المدينة والأرباض ، وتحصن الأمويون وأتباعهم في القصر ، وتولى الدفاع عن القصر الأميري قائدان عظيمان هما : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وفطيس بن سليمان ، وارتقى الحكم السطح ، وأظهر شجاعة نادرة في مثل هذا الموقف ، فقد دعا والقتال يدق أسفل قصره بقارورة من العطر ، فجاءه بها الخادم وكان اسمه يزنت ، فأفرغها على رأسه ، فلم يملك الخادم نفسه أن سأل « وأية ساعة طيب هذه ؟ فقال له الحكم « اسكت لا أم لك ، ومن أين يعرف قاتل الحكم رأسه من رأس غيره^(٣) » . وكان لابد للحكم أن يلجأ إلى ذكائه ودهائه ، فبعث رجلين

(١) ابن القوطية ص ٥٠ — ابن عذارى ج ٢ ص ١٠٦ — المقرئ ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٥ .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٢١ .

من رجاله الذين يثق بهم ، هما : صاحب الصوائف عبيد الله بن عبد الله البلسي ، وإسحق بن المنذر ، على رأس فرقة من الفرسان إلى الربض لإشعال النار في مساكن الثائرين ، وأبقى لحدايته بالقصر فرقة أخرى من جيشه . ونجح عبيد الله في عبور النهر والثوار لا يشعرون به لاشتغالهم بالقتال ، وتمكن من الالتفاف حولهم من جهة الربض ، وإشعال النار في بيوتهم . فلما شاهد الثوار ما حدث لبيوتهم ، بادروا بالعودة لإنقاذ أولادهم ونسائهم ، فأخذتهم السيوف من أمامهم ، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وتبعوا الفارين في الأزقة والطرق وتمكنوا من القبض على ٣٠٠ منهم فصلبوا على نهر الوادي الكبير صفاً واحداً من المرج إلى المصارة^(١) ، وتمكن بعض الفقهاء من مدبري الفتنة من الفرار إلى طليطلة أمثال يحيى بن يحيى ، وطالوت بن عبد الجبار . ولما كان اليوم التالي أمر الحكم بهدم الربض القبلي ودكه حتى صار مزرعة ، ولم يعمر طول مدة بني أمية ، وتبع دور الثوار بالهدم والإحراق . وبعد ثلاثة أيام أمر برفع القتل والأمان ، على أن يخرج أهل الربض من قرطبة ، فذهب فريق منهم إلى بلاد المغرب ونزلوا بمدينة فاس التي كان قد أسسها إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن ، فأقاموا بالحى المعروف اليوم بحى الأندلسيين . أما الفريق الآخر ، فقد اتجه بجرأ إلى الإسكندرية واستولى عليها . وصل أهل الربض إلى الإسكندرية في الوقت الذي كانت الفوضى مستحكمة في البلاد ، والثورات مشتعلة في كل مكان ، وكانت الإسكندرية وقتئذ عرضة لهجمات العرب من قبيلتي نخم وجذام ، واستغل الربضيون هذه الفرصة واستولوا على الإسكندرية^(٢) ، وفي هذه الأثناء قلد الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر ولاية مصر ، فاستتب له الأمر في القسطنطينية ولم يبق له سوى استرداد الإسكندرية من أيدي الربضيين ، فسار إليها في قواته في طليعة صفر سنة ٢١٢ هـ (مايو ٨٢٧ م) وضرب عليها الحصار مدة عشرة أيام ، فاضطر الربضيون إلى مصالحته ، وأرغموا على مغادرة المدينة ، فرحلوا عن الإسكندرية ، ونزلوا بجزيرة إقريطش حيث أسسوا دولة دامت نحو ١٣٥ سنة ، ونشروا فيها الإسلام ، وأسسوا المدن ، وأنشأوا قاعدة لحكمهم هي مدينة الخندق التي سميت

(١) ابن هذاري ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) صديق شيبوب: جمهورية أندلسية بالإسكندرية، مقال بمجلة الكتاب ، فبراير سنة ١٩٤٩

ص ٢٢٣ وما يليها .

فما بعد باسم قنذية، وانتهى أمر هذه الدولة بتغلب الإمبراطور رومانوس الثاني عليها في ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م^(١)) .

إلى جانب هذه الثورات السابقة، قامت ثورات أخرى في ماردة وفي الثغر الأعلى، في ماردة ثار القائد السابق اصبيغ بن عبد الله بن واندوس مدة سبع سنوات، وكان سبب ثورته أن أحد أعدائه أوقع بينه وبين الأمير، وقد تمكن الأمير من افتتاح ماردة في العام السابع بعد أن طلب الأصبيغ الأمان فأمن وعاد في مصف الحكم^(٢). وفي الثغر الأعلى قضى الحكم على ثورة بهلول بن مرزوق في سرقسطة ووشقة سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م)، وأذعنت الأندلس كلها بالطاعة له، ولم يختلف عليه فيها مخالف حاشا بنى قسى في الثغر فإنهم بقوا على عنادهم^(٣).

لقد قضى الأمير الحكم سنين طويلة في إخماد الثورات والفتن، مما أتاح الفرصة للمالك المسيحية بشمال إسبانيا، أن تعبت في ثغور المسلمين، ففي سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) استولى الفرنجة على برشلونة، ولما أرسل الأمير حملة لغزو ألبه والقلاع بقيادة أخيه معاوية بن هشام، انهزم المسلمون هزيمة نكراء على فج أرغنزون Arganzon عند التقاء وادي زادورا بوادي ابره، وقتل في هذه الموقعة عدد كبير من قواد المسلمين. ومضى وقت طويل قبل أن يبعث الحكم ابنه هشاما سنة ١٩٢ هـ (٨٠٨ م) على رأس جيش إلى جليقية، وكانت هذه الحملة موفقة، إذ جاد هشام منتصرا ظافراً. ومضت ثمان سنوات أغزى الحكم وزيره عبد الكريم إلى أشتوريش إذ أن سكان هذه البلاد انضموا إلى الملك ألفونسو الثاني، وكانت بنبلونة قد خرجت على طاعة المسلمين سنة ١٨٢ هـ، وكان أهلها قد قتلوا عامل المدينة المسلم وهو مطرف بن موسى بن قسى، وأقاموا واحداً منهم هو فلانكو Velasco، ونجح عبد الكريم في غزوته إذ اصطدم مع ألفونسو الثاني على نهر أرون Oron، وانتصر على قواته

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ - حسين مؤنس أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية في البحر المتوسط، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية، مايو سنة ١٩٥١ - إبراهيم أحمد العدوي: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة ١٩٥٨ ص ١٠٧ - ١١٠ - السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الأسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي الأسكندرية ١٩٦١ ص ٥٢.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٨.

(٣) ابن القوطية ص ٥٢.

انتصاراً حاسماً فقتل من قواد جيشه عدداً كبيراً، وكان من بين القتلى غربية بن لب خال ألفونسو الثاني، وشانجة أحد زعماء البشكنس^(١).

وأخيراً يذكر المؤرخون العرب أن لذريق بن قارلة ملك الفرنج (وهو لويس ابن شارلمان) جمع جموعه سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) وزحف بها لحصار طرطوشة، فأغزى الحكم ابنه الأمير عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمرو بن عبدون عامل الثغر بالغزو معه، فجمع أهل الثغر، وتقدم الأمير عبد الرحمن بالجيش وانضمت إليه قوات المطوعة، واشتبك المسلمون مع لويس ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً على جيش الفرنجة^(٢). وهكذا انهزمت قوات الفرنجة، ولم يعاود لويس الكرة مرة أخرى على طرطوشة. ومع ذلك فقد حاول الفرنجة بعد ذلك بسنوات الاستيلاء على وشقة، ولكن هذه المحاولات لم تأت بتييجة، ولكن الفرنجة ظلوا يعيشون في الثغور بسبب اشتغال الأمير بالخارجين عليه، مما دعا الحكم إلى الخروج بنفسه لملاقاة الفرنجة سنة ١٩٧ هـ، « فافتتح الثغور والحصون، وتخرب النواحي، وأثخن في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً^(٣) ». وفي سنة ١٩٩ هـ (٨١٥ م) أغزى الحكم ابن عمه عبد الله البلتسي الغزوة المشهورة إلى برشلونة، فانتصر على الفرنجة وهزمهم وقتل عاصمتهم وفرق جموعهم ولا انجلت الحرب نصب قناة طويلة وأمر بالرؤوس فجمعت وطرححت حول القناة حتى غابت القناة فيها^(٤).

وتوفي الحكم في آخر سنة ست ومائتين (٨٢١ م) بعد أن وطد ملك بني أمية، وقضى على أعدائه. لقد كان الحكم على عكس أبيه رجلاً شديداً البأس قوى الشكيمة، استعمل العنف والشدة في مواجهة خصومه، فقضى على عمه سليمان بالقتل، وهو الذي دبر مذبحه المولدين بطليطلة، ومذبحه الربض، وقد أجمع المؤرخون العرب على حزمه وقوته وتقواه باستثناء ابن حزم الذي قال عنه « إنه كان من المجاهرين بالمعاصي، السافكين للدماء ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء^(٥) » ومع ذلك فقد

(١) ابن عذاري ص ١١٢ - المقرئ ج ١ ص ٣١٩. Lévi-Provençal, op. cit. p. 176.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٠٩ - المقرئ ج ١ ص ٣١٨.

(٣) المقرئ ج ١ ص ٣١٨. (٤) ابن عذاري، البيان ج ٢ ص ١١١.

(٥) المقرئ ج ١ ص ٣٢٠.

ذكروا أنه أقام على القضاء بعد وفاة المصعب بن عمران قاضى أبيه ، محمداً بن بشير المعروف بحبه للعدل ، وبعده عن الجور ، وإنفاذه للحكم ، وكان الحكم بحبه ويقربه ، وكان يسلطه على نفسه وعلى ولده وخاصته^(١) وكان يتخير لأحكامه أروع من يقدر عليه وأقضاهم بالحق^(٢) ، ولذلك قلده محمد بن بشير القضاء لتوفر هذه الصفات فيه ، وكان الحكم يحب بناء المساجد ، فهو الذى جعل جارياته يقمن بإنشاء المساجد على نفقاتهن الخاصة مثل مسجد عجب الذى أمرت جاريته عجب ببنائه غربى قرطبة ، ومقبرة متعة ، والمسجد المعروف بهذا الاسم ، اللذين أنامتهما جاريته متعة .

وكان الحكم رغم فظاظته وقسوته شاعراً مطبوعاً أحاط نفسه بالشعراء المحيدين أمثال عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وإبراهيم بن سليمان الشامي الذين أصبحوا فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الشعراء المفضلين . ومن قول الحكم قصيدته التى أنشدها بعد موقعة الربيض :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا	وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل تغورى : هل بها اليوم ثغرة	أبادرها مستنضى السيف دارعا
وشافه ، على الأرض القضاء ، جماجما	كأفحاف شريان الهيبد لوامعا
تنبشك أنى لم أكن فى قبراعهم	بولن ، وأنى كنت بالسيف قارعا
وأنى إذا ما حادوا سراعا عن الردى	فما كنت ذا حيد عن الموت جازعا
حميت ذمارى فاستبحت ذمارهم	ومن لا يحامى ظل خزيان ضارعا
فهذى بلادى . . . إننى قد تركتها	مهاداً ، ولم أترك عليها منازعا

ومن شعره يتغزل فى خمس جوار تأبين عليه قوله :

قضب من البان ماست فوق كثمان	ولين عني وقد أزه من هجرانى
ناشدتهن بحتى فاعترمن	على العصيان لما خلا منهن عصيانى
ملككنى ملكاً ذلت عزائمه	للحب ذل أسير موثق عانى
من لى بمغتصبات الروح من بدنى	يغصبني فى الهوى عزى وسلطاني

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٤ .

ذروة عصر الإمارة أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط

هو الأمير أبو المطرف عبد الرحمن ، الابن الأكبر للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولد بطليطلة في شعبان سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وعنى أبوه بتعليمه وتخرجه في العلوم الحديثة والقديمة ، وعهد إليه بولاية العهد باعتباره أكبر أولاده ، ثم لأنخيه المغيرة من بعده ، فلما توفي الحكم عام ١٠٦ هـ (٨٢١ م) خلفه ابنه الأمير عبد الرحمن وهو في سن الثلاثين ، وعرف بعبد الرحمن الأوسط لأنه ثانی ثلاثة سموا بهذا الاسم ، وقاموا بأمر الأندلس . واكتسب عبد الرحمن كثيراً من صفات أبيه وجده ، ولكنه كان أكثر منهما ليلاً ورقة ، فكان وسطاً بين العنف واللين ، وقد أثرت نشأته وتربيته الأولى في تكوين شخصيته : فكان رجلاً على مستوى عال من الثقافة والعلم ، وكان عالماً متبحراً في علوم الشريعة والفلسفة^(١) ، كما كان شاعراً أديباً ذا همة عالية^(٢) ، وفناناً يقدر الفن ويرفع منزلة أصحابه ، فاحتضن العلماء ورجال الفن والأدباء ، فمن ضاق الشرق بمواهبهم فكان يرحب بهم في بلاطه ، ويحسن إليهم ويكرمهم ، ولذا كانت أيامه أيام هدوء وسكون^(٣) ، وكان عهده عهد سلم ورخاء بعد عهد الفتن والثورات الذي اتسم به عصر عبد الرحمن الداخل والحكم الربضي ، وكثرت الأموال لديه ، فاتخذ القصور والمتزهات ، وجلب إليها الماء ، وجعل له (أي لقصره) مصنعا^(٤) اتخذه الناس شريعة ، وزاد في جامع قرطبة رواقين ، ومات قبل أن يستتمه ، فأتته ابنه محمد بعده ، وبنى بالأندلس

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١٣٠ - المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣٥ . كان أخص شعرائه عبيد الله بن قزمان بن بدر الداخل ، وزرياب ، وعبد الرحمن بن الشر ويحيى النزال .

(٣) ابن خلدون ، المرجع السابق ص ١٣٠ - المقرئ ، ج ١ ص ٣٢٥ .

(٤) المصنع هو الحوض الذي يتخذ للسقيا . ويذكر ابن عذارى أنه عمل السقاية على رصيف قرطبة .

(انظر ابن عذارى ج ٢ ص ١٣٦) .

جوامع كثيرة ، ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة^(١) ، وهو الذى أسس مدينة مرسية^(٢) ، ورتب رسوم المملكة ، واتخذ للوزراء قصراً داخل قصره ، وكان يجتمع بهم متى أراد ذلك^(٣) . وعبد الرحمن أول من فخم السلطنة بالأندلس ، « وأول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة »^(٤) ، وهو أول من أحدث بقرطبة دار السكة وضرب النقود باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ افتتحها العرب ، ولذا عرفت أيامه بأيام العروس لكثرة الخيرات ، وهكذا سمت الحياة فى الأندلس وتألفت الحضارة ، وأصبحت الأندلس فى عداد الدول العظمى فى العالم الإسلامى والمسيحى على السواء ، وتحول المجتمع الأندلسى الذى كان يقوم على أخلاط بشرية غير منظمة إلى مجتمع منظم مظهره ، مصقولة صورته ، وتأثر هذا المجتمع فى عصره بالتقاليد العراقية التى أخذت تغزو الأندلس وتمتزج بالتقاليد الشامية ، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا أصيلاً تميزت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط غرناطة .

واستجلب عبد الرحمن إلى الأندلس روائع التحف التى كانت فى قصور بغداد عند قتل الأمين بن الرشيد مثل عقد الشفاء وأعلاق زبيدة بنت جعفر^(٥) .

(١) ابن خلدون ص ١٣٠ - المقرئ ج ١ ص ٢٢٥ .

(٢) يقول ابن عبد المنعم الحميرى عن مرسية : بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، واتخذت داراً للعالم وقراراً للقواد ، وكان الذى تولى بنائها ، وخرج العهد إليه فى اتخاذها جابر بن ليلى ، وكان تاريخ الكتاب يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول سنة ٢١٦ هـ ص ١٨١ . ويبدو أنه أمر ببنائها لتقوم مقام مدينة إبلو Billo وهى الحاضرة القديمة لكورة تدمير التى أمر عبد الرحمن بتهديمها بسبب الصراع الذى قام فيها بين المضرية واليمينية والذى استمر حتى ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) انظر مادة مرسية فى دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ٤٧) .

(٣) ذكر ابن القوطية ذلك فقال : « وعبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر والتكلم فى رأى على ما هو جار إلى اليوم ، وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم بعبد الكريم بن مفيث الحاجب الكاتب المتقدم ، فنهى عيسى بن شهيد ويوسف بن بخت وعبد الله بن أمية بن يزيد ، وعبد الرحمن بن رستم » ص ٦٢ .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣٦ .

(٥) يقول ابن عذارى فى هذا المعنى : « وفى أيامه دخل الأندلس نفيس الوطا وغرائب الأشياء ، وسبق ذلك إليه من بغداد وغيرها ، وعند ما قتل محمد الأمين بن هارون الرشيد ، وانتهب ملكه ، سبق إلى الأندلس كل نفيس غريب وجوهر نفيس من متاعه ، وقصد بالعقد المعروف بعقد الشبا وكان لزبيدة أم جعفر » البيان ج ٢ ص ١٣٦ ، انظر أيضاً ابن الخطيب ص ٢١ .

تمت بيعة الأمير عبد الرحمن في ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م) ، وخرج عليه في أول ولايته عم أبيه عبد الله البلنسي - وكان لم يأس بعد في الظفر بالإمارة - وسار إلى تدمير ، يريد قرطبة ، فتجهز عبد الرحمن للقائه ولكن عبد الله اضطر إلى العودة إلى بلنسية حيث مات^(١) سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٣ - ٨٢٤ م). وبموته عادت بلنسية إلى حظيرة الحكومة المركزية ، وتولى أمرها ، عامل من قبل الأمير عبد الرحمن . ولم يقطع السكون الذي كان يسود عصر عبد الرحمن سوى فتنة قامت في تدمير سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٣ م) بين المضرية واليمينية دامت سبع سنين ، حتى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ - ٨٢٩ م) ، وكان سبب هذه الفتنة أن أحد المضريين المقيمين بتدمير انتزع ورقة دالية من جنان يمانى ، فقتله اليماني^(٢) ، فقامت الحرب بين العصبيتين المضرية واليمانية . واضطر الأمير عبد الرحمن أن يتدخل في هذه الحرب ، فأغزى إلى الفريقين المتقاتلين سنة ٢٠٧ هـ (٨٣٢ م) قائده يحيى بن عبد الله بن خلف ، فالتقى معهم في موقعة تعرف بموقعة المصاراة بلورقة قتل منهم نحو ٣ آلاف ، وفي سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٥ م) ، أرسل قائده أمية بن معاوية ابن هشام إلى تدمير واشتبك مع اليمينية بقيادة أبي الشماخ محمد بن إبراهيم ، ففضى على عدد كبير منهم . ولم يكتف الأمير عبد الرحمن بذلك بل عمد إلى هدم مدينة أله حاضرة تدمير التي انبعثت منها الفتنة سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) ، وأمر ببناء مدينة مرسية فتم بناؤها سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) . كذلك ثار طوريل البربري بتاكرنا سنة ٢١١ هـ (٨٢٦ م) ، ولكن الأمير بعث إليه قائده عبد الرحمن بن معاوية بن غانم فظفر به وقطع عاديته^(٣) . وفي سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ثار هاشم الضراب^(٤) بطليطلة ، فأرسل إليه الأمير عامله على الثغر محمد بن رستم لمحاربته ، ولكنه لم يفلح في هزيمته ،

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٨ .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٤ وذكر الحميري بسبب هذه الفتنة بشيء من التفصيل فقال : « وكان السبب في ذلك أن رجلاً من اليمانية استقى من وادي لورقة قلة ، وأخذ ورقة من كرم لرجل من المضرية ، فطلى بها القلة فأذكر ذلك المضري ، وقال إنما ذلك استخفافاً بي إذا طمعت ورق كرمي » ص ١٨١ . (٣) ابن عذاري ص ١٢٤ .

(٤) سمي بالضراب لأنه كان أحد الرهائن الذين أخذهم معه الحكم من طليطلة إلى قرطبة فصار يعمل أجيراً في حارة الحدادين يضرب بالمول فعرف بالضراب . ثم عاد إلى طليطلة فألب أهل الفساد والشر وحشد منهم حشداً كبيراً وتمكن بهذا الحشد من الإغارة على العرب والبربر في أحواز طليطلة وفي شت برية .

فاستفحل أمر الضراب وتغلب على جانب من الثغر ، وفي سنة ٨٢١٤ هـ حدثت معركة بين محمد بن رستم وبين الضراب انتهت بهزيمة الضراب هزيمة شتاء ، وقتل هو وكثير من أتباعه . ومع ذلك فقد استمرت طليطلة خارجة على طاعة الأمير ، فأرسل إليها أمية بن الحكم سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) فحاصرها ، وأتلف زروعها ، وقطع ثمارها ، وترك أمية على قلعة رباح أحد القواد المسلمين وهو ميسرة الفتي لمحصنة طليطلة ، أما هو فعاد إلى قرطبة . وتشجع أهل طليطلة على مهاجمة قلعة رباح ، فلما خرجوا لمهاجمة المدينة ، أعد لهم ميسرة كميناً ، وعند ما اقتربوا منها خرج عليهم ميسرة ورجالها فأذرع فيهم القتل^(١) . ولما مات ميسرة تولى بعده أبو الشماخ البجلي ، ولم يتم فتح طليطلة إلا سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) ، وكان السبب في ذلك أن رجلاً من طليطلة اسمه ابن مهاجر خرج عنها ، وتوجه إلى قلعة رباح حيث استدعى القواد ، ونهض بهم إلى طليطلة ، فحاصروا أبوابها ، فلما قدم القائد عبد الواحد الاسكندراني الذي بعثه الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة لمحاصرتها ، وجد أهلها قد بلغ بهم الجهد مبلغاً عظيماً ، فافتتحها قهراً في شهر رجب سنة ٢٢٢ هـ .

وفي سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) ثار أحد البربر واسمه حبيب البرنسي بجبال الجزيرة الخضراء ، والتف حوله جماعة من أهل الفساد ، فأخرج إليه الأمير الأجناد ، ففرقوا جموعه وقتلوا عدداً كبيراً من رجاله .

وفي عهد عبد الرحمن ثار أهل ماردة على الأمير سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) إذ أشعل نيران الثورة فيها رجل بربري اسمه محمود بن عبد الجبار ، وانضم إليه أحد المولدين واسمه سليمان بن مرتين ويعرف باسم قعنب ، واستقل هذان الثائران بالمدينة ، وشقا عصا الطاعة على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقي . فاضطر الأمير إلى إرسال فرقة حاصرت ماردة سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) تمكنت من تدمير سهولها ، وقطع الأقوات عن المدينة . إلا أن هذه الحملة لم تأت بنتيجة تذكر . وفي سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) حاصر الأمير عبد الرحمن مدينة ماردة حصاراً شديداً أدى إلى استسلام حاكمها حارث بن بزيع . غير أن إخضاع ماردة لم يتم

إلا في عام ٢١٩ هـ (٨٣٤ م)^(١) ، وقد سجل عبد الرحمن الأوسط إخضاعه لثورة ماردة ببتائه قصبتها التي تعرف اليوم لدى العامة بالدير ، وبها نقش عربي محفوظ اليوم بمتحف القصة يحمل تاريخ سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م)^(٢) .

ولقد تألفت في عصر عبد الرحمن عدة شخصيات كان لها أثر كبير في التقدم الحضاري الذي أصابته الأندلس على يديه .

وأولى هذه الشخصيات البارزة شخصية الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي ، وأصله من بربر مضمودة ، وكان يحيى يروي الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون ، كما سمع من يحيى بن مضر القيسي الأندلسي ، ثم رحل إلى المشرق وهو في الثامنة والعشرين من عمره ، وتوجه إلى الحجاز رأساً ، فسمع من مالك بن أنس ، وأعجب به مالك وشاء عاقل الأندلس ولذلك قيل : « إن يحيى هذا عاقل الأندلس » ، وعيسى بن دينار فقيها ، وعبد الملك بن حبيب عالمها^(٣) .

ولم يكتف يحيى بذلك ، بل سمع بمكة من سفيان بن عيينة ، وتفقه بالمدينين ، كعبد الله بن وهب ، وعبد الله بن نافع ، ثم نزل بمصر عند عودته إلى الأندلس ، فسمع من الليث بن سعد ، وتفقه بفقهه ، ولما عاد إلى قرطبة ، انتهت إليه الرئاسة في الفقه والقضاء ، وروى عنه عدد كبير من الفقهاء والمحدثين ، ونال يحيى مكانة سامية عند الأمير ، وأصبح ينده تعيين القضاة في مدن الأندلس ، ويقول ابن حزم عنه إنه « كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء ، وكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ، ومن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به »^(٤) ، وهكذا نال يحيى عند هشام حظوة وقدرًا عظيمًا لم ينله أحد من أهل الأندلس قبله ، وأصبح للفقهاء مكانة عظيمة في عهد هشام ، فقد رفع منازلهم لتقواه وتدينه ، واستسلم

(١) قر عنها الثائران ، وقتل سليمان بن مرتين سنة ٢٢٠ هـ ، أما محدود فقد قتل هو الآخر سنة ٢٢٥ هـ

(٨٤٠ م) .

(٢) انظر مادة ماردة بدائرة معارف الشعب عدد ٦١ .

(٣) المقرئ ، نفع التليب ج ٢ ص ٢١٧ .

(٤) نفس المرجع ص ٢١٨ .

لهم في كل أموره . فلما كانت أيام الحكم الربضي أراد أن يجد من تفوذهم ، فائقليوا عليه على نحو ما شاهدناه ، وكان يحيى بين من أتهم بإثارة الناس على الحكم في وقعة الربض الشهيرة ، ففر إلى طليطلة ، ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أماناً وبذلك عاد إلى قرطبة^(١) . وتمكن يحيى من استعادة تفوذه في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وبرز على غيره من الفقهاء ، وكان الأمير يحمله ويأخذ بفتواه . ومن الأمثلة التي تدل على ذلك أن الأمير عبد الرحمن وقع على جارية يحبها في شهر رمضان ، ثم ندم على ذلك أشد الندم فاستدعى الفقهاء في قصره وسألمهم عن التوبة والكفارة ، فقال يحيى : « تكفر بصوم ~~بعض~~ متابعين » فلما بادر يحيى بهذه الفتيا سكبت الفقهاء حتى خرجوا ، فقال بعضهم له : « لم لم تفت بمذهب مالك بالتخير ؟ فقال : لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لثلا يعود »^(٢) . وتوفي يحيى في رجب سنة ٢٣٤ هـ . (٨٤٨ م) .

وتلى شخصية يحيى بن يحيى من حيث المكااة شخصية أخرى معروفة ، هي شخصية المغني الشهير الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب ، وكان من أعظم شخصيات هذا العصر وأجلها قدراً . قدم إلى الأندلس سنة ٢٠٦ هـ . (٨٢١ م) من العراق ، وركب الأمير عبد الرحمن بنفسه لاستقباله وتلقيه ، وبالح في إكرامه وكان زرياب مولى للمهدي العباسي ، كما كان تلميذاً للمغني والموسيق العظيم إسحق الموصلي ، رئيس الموسيقيين والمغنيين في بلاط الرشيد . وقد نبغ زرياب في فن الألحان على يد أستاذه إسحق الموصلي ، وتميز بفهم هذا الفن وصدق العقل مع طيب الصوت ، فتفوق على أستاذه إسحق دون أن يدرى هذا إلى أي درجة من الإجادة وصل تلميذه . وأثبتت الظروف لاسحق تبرز تلميذه ، فثارت به الغيرة والحسد ، فخلا بزرياب ، وهدده بالموت أو مغادرة البلاد على الفور ، فأثر زرياب أن يفر بنفسه وأولاده ، ورحل إلى المغرب . ثم كتب إلى الأمير فرحب بمقدمه وخرج بنفسه لاستقباله ، وأكرم وفادته وأنزله في دار من أعظم الدور بقرطبة ، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه ، وأجزل له العطاء ، ورتب له ولأفراد أسرته

(١) المقري ، ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٨ - ٢١٩ .

الرواتب والإقطاعات . وبدأ بمجالسته على النيبذ وسماع غنائه ، فما إن سمعه حتى كره كل غناء سواه^(١) ، وقدمه على جميع المغنين في بلاطه ، وأدنى منزلته ، وفتح له باباً خاصاً في قصره يستدعيه منه متى شاء . وأسس زرياب مدرسة في الغناء والموسيقى ، ووضع الأسس الراسخة التي قام عليها هذا الفن في الأندلس^(٢) . ولم يكن زرياب صاحب ثورة في تاريخ الموسيقى الأندلسية فحسب بل كان مجدداً اجتماعياً ، كما كان شاعراً أدبياً ، فأجاد فنون الآداب كما أجاد آداب المجالسة والمحادثة .

والشخصية الثالثة التي كان لها أثر كبير في عصر عبد الرحمن هي شخصية طروب جارية الأمير ، وأم ولده عبد الله ، الذي ولي الإمارة بعد المنذر . وكلف بها عبد الرحمن وأحبها حباً ملك عليه نفسه^(٣) . وطروب هذه واحدة من جاريات شماليات كثيرات أحبهن عبد الرحمن إذ كان كثير الميل للنساء^(٤) مثل مدثر والشفاء وقله . وكانت طروب تطمع في ولاية ابنها عبد الله الإمارة بعد أبيه بدلا من ولي عهده محمد ، وكانت من أجل ذلك تسعى إلى المال حتى تستميل الناس إليها . أما الأمير عبد الرحمن فكان يعمل على إرضائها وإكرامها ، ولكنها كانت تهجره وتصد عنه ، بل لم تتردد في تدبير مؤامرة لقتله ، مستعينة في ذلك بفتاه نصر الصقلي ، وانكشفت المؤامرة سنة ٢٣٦ هـ وقتل فيها نصر^(٥) . . . ومع معرفة

(١) ذكر ابن القوطية أنه غناه يوماً صدوتاً استحسنته فقال : يؤمر الخزان أن يدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار ، فامتنع الخزان من دفع هذا المبلغ الكبير لمخن ، وأرسلوا إلى الأمير يطلبون منه أن يدفعه من ماله . ففعل الأمير وأمر بدفع هذا المبلغ عما عنده . (ابن القوطية ص ٦٩) .

(٢) انظر بحثنا عن فن الغناء والموسيقى بالأندلس ، دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ٩٩ - ١٠٥

(٣) المقرئ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ وما يليها . (٤) نفس المرجع .

(٥) وردت تفاصيل هذه المؤامرة في كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، فذكر أن طروب أم عبد الله بن عبد الرحمن كانت تعمل على إقصاء ولاية العهد عن محمد بن عبد الرحمن وتدبيرها لابنها عبد الله ، فكانت تصطنع أهل القصر من النساء والفتيان وأكثر الخدمة طمعاً في ذلك ، وكان الفتى نصر ينفذ محمد ويميل إلى عبد الله بن طروب بينما كان عبد الرحمن يميل إلى ابنه محمد ، فشق ذلك على نصر ، واتفق مع طروب على قتل عبد الرحمن وأخذ البيعة لابنها عبد الله . فبمض نصر إلى طيب القصر واسمه الحراتي وداخله في أن يسم عبد الرحمن ، ورشاه بألف دينار ، واتفق معه على أن يمد صماً يده له في شراب الأمير ، وهذا الصم يعرف باسم بشون الملك . فتظاهر الطيب بالمرافقة وأوصى إنقاذ رماة القصر فخره بأن تبلغ الأمر إلى الأمير وتطلب منه أن يحترق من الشراب . وباكر نصر القصر ودخل على الأمير يستغفمه عن شرب الدواء فوجده بين يديه ، وقال له إن نفسي بشتة فاشربه أنت . فشربه نصر وهلك بعد شربه له . (انظر ابن القوطية ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٠) .

الأمير بما كانت تضمه له طروب من غلر ، فقد ظل يقيم بها وجداً ولا يتحمل أن تغيب عنه . وقد روى بعض المؤرخين أن الأمير أغضبها يوماً فهجرته ولزمت مقصورتها ، فأرسل إليها فامتنعت عليه وأغلقت على نفسها باب مجلسها ، فأمر بسد الباب عليها من خارجه بيدر الدراهم ، استرضاء لها واستعطافاً بوصلها ، فلما فتحت الباب تساقطت البدر من كل جانب فأخذتها ، وأكبت على رجله تقبلها^(١) ومن الأحداث الهامة في عصر عبد الرحمن غارات النورمنديين^(٢) على سواحل الأندلس الغربية والشرقية ، وكانوا يقبلون في سفن ذات أشعة سوداء ويرسون بها على الشواطئ فيقسمون رجالهم قسمين : قسم يعسكر على الشاطئ وقسم يغير على المدينة ، وينهب ما استطاع ، ويدمر كل شيء . وقد أغار النورمنديون على الأندلس أول مرة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، ففي يوم الأربعاء أول ذي الحجة (٢٠ أغسطس سنة ٨٤٤) ظهرت نحو ٥٥ سفينة نورمندية وعدد آخر من المراكب الصغيرة عند مصب نهر تاجة^(٣) ، فزلوا بثغر أشبونة Lisbonne واحتلوا بسيط هذه المدينة ، فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً وصلوهم ، وألنذر وهب الله بن حزم ، وإلى المدينة ، الأمير بقدمهم ليتخذ أمته ، ولما وجد النورمنديون استحالة تقدمهم اضطروا إلى العودة إلى سفنهم ، واتجهوا جنوباً بحثاً عن مصب وادي آخر يصعدون فيه ، فحلوا بكورة إشبيلية ونزلوا عند مصب نهر الوادي الكبير ، بينما اتجه فريق منهم نحو الجنوب بحذاء الساحل الإسباني ، ونزل هذا الفريق على ساحل كورة شدونة ، واحتل ثغر قادس . أما الفريق الأول وهو الأعظم فقد تجمع بسفنه عند مصب نهر الوادي الكبير ، ثم اتجه نحو إشبيلية . وفي ١٢ من محرم سنة ٢٣٠ هـ (٢٩ سبتمبر) احتلت هذه السفن جزيرة قبيل Captel المعروفة اليوم بالجزيرة الصغرى Isla Minor ، بينما احتلت سفن أخرى قرية قورة Coria del Rio ، ونزل النورمنديون من سفنهم وأغاروا على القرية ، فقتلوا وسبوا ونهبوا . ثم اتجه الأسطول النورمندي كله بعد ذلك بثلاثة أيام مع النهر ، فدخلوا طلياطة Tablada ، وتقدموا

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٧ - المقرئ ج ١ ص ٣٢٧ .

(٢) يسميهم مؤرخو العرب المجوس أو الأرمنانيين .

(٣) ذكر ابن عذاري مجموع سفن النورمنديين كانت ثمانين سفينة « كأنما ملأت البحر طيراً جزواً »

بعد ذلك فقابلتهم بعض سفن إشبيلية ، فانهزم المسلمون وقتل منهم عدد لا يحصى .
 وفي يوم الأربعاء ١٤ محرم سنة ٢٣٠ هـ . احتلوا إشبيلية قسراً ، إذ كانت بدون
 أسوار تحميها . وأشعلوا النار في المسجد الجامع بإشبيلية ، فكانوا يحمون سهامهم
 في النار ويرمون بها سما المسجد^(١) . وأخذ النورمنديون يهبون المدينة ، ويقتلون أهلها
 ويأسرونهم ، وأقاموا فيها سبعة أيام ، وقيل ثلاثة عشر يوماً : « وجعلوا يقتلون الرجال
 ويسبون النساء يأخذون الصبيان^(٢) » ، ثم حملت سفنهم الأسرى والغنائم وعادت
 بهم إلى قبيل ، فأنزلوهم في الجزيرة ، ورجعوا إلى إشبيلية مرة ثانية^(٣) ، وفي هذه
 المرة كانت إشبيلية قد خلت تماماً من سكانها إذ فر الناس بين أيديهم وأخلى أهل
 إشبيلية المدينة ، وفروا منها إلى قرمونة وإلى جبال إشبيلية ، ولم يجد النورمنديون من
 أهل إشبيلية يقتلونهم سوى جماعة من شيوخها قد احتموا في مسجد سمي منذ
 ذلك « مسجد الشهداء » .

وكان لا بد للنورمانيين من استخدام البرلشن الغارات في الأندلس إذ أن نهر
 الوادي الكبير صعب الملاحة ما بين إشبيلية وقرطبة ، فاستخدموا الخيل للاغارة
 على نواحي إشبيلية . ولم يكن الأمير عبد الرحمن ساكناً وقتئذ فقد قدم على الخيل
 حاجبه عيسى بن سعيد ، واشترك في قيادة الجيش الذي وجهه الأمير إلى إشبيلية
 عدد من القواد المشهورين ، منهم عبد الله بن كليب ، ومحمد بن رستم ، وعبد الواحد
 الأسكندراني ، واحتل هذا الجيش بالشرف Aljarafe من إشبيلية ، وفي نفس
 الوقت نفسه ، كتب الأمير عبد الرحمن إلى عمال الكور في استنفار الناس ، فأقبلوا من كل
 صوب إلى قرطبة ، ونفر بهم نصر الفتى ، كذلك استنفر أهل الثغر ، فقدم موسى
 ابن قسي^(٤) في عدد كثيف . وكان جيش قرطبة قد اشتبك مع النورمنديين في
 قرية طلياطة يوم الثلاثاء ٢٥ من صفر سنة ٢٣٠ هـ (١١ نوفمبر سنة ٨٤٤ م) ،
 فانهزم النورمنديون وقتل منهم عدد كبير ، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً^(٥)
 وتشقى الناس بقتلهم وعلقوا منهم عدداً كبيراً في جذوع النخل بإشبيلية ، وقتلوا
 أميرهم ، وذكر ابن القوطية أن موسى بن قسي هزم النورمنديين عند ما خرجوا من

(١) انظر ابن القوطية ص ٦٦ . (٢) ابن عذاري ص ١٢٠ .

(٣) Lévi-Provençal op. cit. p. 222 .

(٤) ابن القوطية ص ٦٣ . (٥) ابن عذاري ج ٢ ص ١٣١ وما يليها .

إشبيلية متجهين إلى مورور، وقتل منهم ١٦ ألف، ودخل جيشه إشبيلية وحرر عاملها، وكان محصوراً في قصبتها، ففر من كان فيها من النورمنديين إلى مراكبيهم، والتقوا مع رفقائهم^(١). وهكذا خرج النورمنديون من إشبيلية بعد أن احتلوها مدة ٤٢ يوماً، وخرجت كتب الأمير عبد الرحمن إلى الآفاق بنحبرهم، كما كتب الأمير «إلى من بطنجة من صنهاجة يعلمهم بما كان من صنع الله في المحروس وبما أنزل بهم من النعمة والهلكة، وبعث إليهم برأس أميرهم وبمائتي رأس من أنجادهم»^(٢).

رحل النورمنديون بعد هزيمتهم إلى لبلة، ثم توجهوا من هناك إلى أشبونة. وانقطع خبرهم بعد ذلك. ويذكر المقرئ أن المحروس أقلعوا إلى لبلة، فأغاروا على المدينة وسبوا، ثم مضوا إلى باجة بالبرتغال، ومنها إلى أشبونة ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشبونة إلى بلادهم^(٣). ومع ذلك فقد بقيت من النورمنديين بقية، ممن تفرقوا بعد الغزو النورمندي إلى جنوب شرق إشبيلية وشرقيها في نواحي قرمونة، ومورور، وقلعة الرعواق، ولقنت، فأمر الأمير عبد الرحمن قائده ابن رستم بتعقبهم واعتقالهم، ونجح ابن رستم في أسرهم، وقد اعتنق هؤلاء الإسلام. وأقاموا في الوادي الكبير الأدنى جنوب إشبيلية واشتغلوا بتربية المواشي وصناعات الألبان، ولم تلبث هذه المستعمرة النورمندية الصغيرة أن انتجت أجود أنواع الجبن وأمدت به إشبيلية^(٤).

ولقد احتاط الأمير عبد الرحمن لأي غزو محتمل أن يقوم به النورمنديون، فأمر بإنشاء دار لصناعة الأسطول بإشبيلية لبناء السفن والمراكب، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس، فألحقهم ووسع عليهم، فاستعد بالآلات والنفط^(٥). وهكذا أصبحت إشبيلية منذ ذلك الحين الميناء الأول في الأندلس، وقد كان لميلاد البحرية الأندلسية نتائج هامة، لأن الأسطول الأندلسي لم يلعب دوراً خطيراً فحسب في فتح جزر ميورقة ومنورقة وباسة سنة ٢٣٤ هـ^(٦) بل في تاريخ

(١) ابن القوطية ص ٦٤ . (٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٢ .

(٣) المقرئ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٤ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, op. cit., p. 224 .

(٥) ابن القوطية ص ٦٧ .

(٦) ابن عذارى ص ١٢٢ .

الأندلس وحوض البحر المتوسط بوجه عام ، فدور الصناعة التي أسسها الأمير عبد الرحمن الأوسط كانت مقدمة لإنشاء دور أخرى لصناعة الأسطول في العهود التالية ؛ إذ أقيمت دور للصناعة في قرمونة ، والقنت ، ومرسية ، وبلنسية . وسيكون هذا الأسطول الساعد الأيمن لحلفاء قرطبة لغزو بر العدة ومتافسة الفاطميين في شؤون البحر^(١) . ولقد استخدم أمراء بني أمية أخشاب أشجار طرطوشة الصنوبرية في صناعة السفن ، وهو خشب مشهور بجودته وعدم تعرضه للتلف الناشئ من السوس^(٢) . وذكر معاوية بن هشام القرشي الشبنيسي . في رسالته أن عبد الملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم بعد نكبة أهل إشبيلية بإغارة النورمانيين ، وعندما أثير موضوع تحصين مدينة إشبيلية ، في الوقت الذي كان الأمير مشغولا بعمل زيادته بالمسجد الجامع بقرطبة ، وذكر له عبد الملك في كتابه المذكور ، أن بنيان سور مدينة إشبيلية أوكد عليه من بنيان الزيادة في المسجد الجامع^(٣) . فعمل برأيه في بنيان هذا السور وبناء بالحجارة في سنة ٢٢٦ هـ (٨٤٠ م) ، وكان المهندس الذي أشرف على بناء السور هو عبد الله بن ستان أحد الموالى الشاميين ، وكان قريب الخاصة بعبد الرحمن وهو غلام ، فاستقدمه الأمير بعد أن تولى الإمارة ، ونقش عبد الله اسمه على أبواب إشبيلية^(٤) . وكذلك أمر عبد الرحمن بإعادة بناء جامع إشبيلية فتم ذلك في عهده^(٥) .

ونختم عهد الأمير عبد الرحمن بذكر غزواته ضد نصارى . اشتوريش وضد البشكنس . ففي ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) كانت الغزاة المعروفة بغزاة ألبه والقلاع غزاها القائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة ، فاقترح جيش عبد الرحمن ألبه من فج معروف لعبد الكريم تمام المعرفة يقال له فج جزيق ، ولعله الممر المعروف

(١) حسين مؤنس : غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ ، نشر في العدد الأول من المجلد الثاني من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٠ ص ٤١ .

(٢) الحميري ص ١٢٤ .

(٣) Lévi-Provençal, Documents : Les citations du Muqtabis d'Ibn Hayyan relatives aux agrandissements de la grande Mosquée de Cordoue, dans la revue Arabica, t. I, fasc. I, Janvier 1954, p. 90.

(٤) ابن القوطية ص ٦٥ .

(٥) الحميري ص ٢٠ - انظر مقال عن العمارة الحربية بالأندلس كتاب الشعب ٦٤ ص ١٥٤ .

اليوم باسم Guernica أو elpuerto de Herenchu-Guernu الواقع بين سيرا دي انثيا Sierra de Encia وجبال إتوريثا Iturrieta^(١).

ويذكر المؤرخ ابن عذارى أن وراء هذا الفج كان بسيط للعدو يحتفظ فيه ، بجزائنه الحرية وذخائره ، فوقع جند عبد الكريم على هذه البسائط فنهبوا ودمروا الأراضي والبقاع التي مروا عليها وأقبروها^(٢).

وفي سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) كانت غزوة الفتح التي انتصر فيها المسلمون بقيادة عبيد الله البلسي على جيوش أشتوريش في موقعة عند جبل يقال له جبل الجوس ، وفي نفس السنة تمكن جيش المسلمين بقيادة العباس بن عبد الله القرشي من مهاجمة جليقية والتوغل إلى بازو Vizeu^(٣) . كذلك غزا عبيد الله بن عبد الله البلسي بصائفة أخرى بلاد جليقية والقللاع عام ٢١١ هـ (٨٢٦ م) . كما غزا هو نفسه سنة ٢١٢ هـ بالصائفة إلى برشلونة . ويرجع الأستاذ ليثي بروفسال سبب غزوة الأمير لهذه المدينة إلى قيام أحد النبلاء من سلالة القوط ويدعى ايزون Aison بالثورة ضد الفرنجة في إقليم برشلونة سنة ٢٠٩ هـ ، واستيلائه على عدد من المدن والحصون مثل أوسونة ورودة ، واستنجاده بالأمير عبد الرحمن على الفرنجة . غير أن حاكم برشلونة واسمه برنارد بن جيوم دوق طولوشة استمات في الدفاع عن المدينة ، ولم يمكن عبيد الله من افتتاحها ، فاضطر هذا إلى رفع الحصار عنها ، واكتفى بالإغارة على نواحي برشلونة مدة ستين يوماً^(٤) . ولم يعاود الأمير مهاجمة برشلونة إلا سنة ٢٢٤ هـ (٨٤٠ م) بعد وفاة الملك لويس التثني بن شارلمان في ٢٠ يونيو سنة ٨٤٠ م .

ثم عاود الأمير عبد الرحمن الغزو إلى بلاد اشتوريش سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) فأغزى ثلاثة جيوش إسلامية إلى مملكة أشتوريش ، أجدها بقيادة عمه الوليد بن هشام ، وقد دخل جليقية عن طريق بازو Vizéu ، وخرب هذه البلاد^(٥) ، والثاني

(١) ارجع إلى Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 203 .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٣ - المقرئ ج ١ ص ٣٢٢ وما يليها .

(٣) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 204 .

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ١٢٤ .

(٥) يقول ابن عذارى أنه أغزى أخاه الوليد بن الحكم إل جليقية فدخل من باب الغرب مع قطع

من المسكر فدوخها - انظر ابن عذارى ص ١٢٧ .

تحت قيادة الأمير سعيد الخير أخ الأمير عبد الرحمن ، وقد تمكن من دخول
 البية وقشتالة القديمة ، والثالث بقيادة أخيه أمية الذي نجح في هجومه على حصن
 القرية Alqueria ولعلها القلعة Alcolea التي سقطت قبل ذلك بثلاثة عشر عاماً
 في أيدي المسلمين بقيادة مرج بن مسرة عامل جيان^(١). وفي سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م)
 بعث عبد الرحمن ابن عم أبيه عبيد الله بن البلنسي في العساكر لغزو ألبه والقلاع ،
 فسار ولقي العدو ، فهزمه وأكثر من القتل والسبي ، وفي هذا العام نفسه خرج
 لذريق ملك الجلالقة وأغار على مدينة سالم Medinaceli بالغرفسار إليه فرتون بن
 موسى وقاتله فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو ،^(٢) وفي العام التالي خرج الأمير
 عبد الرحمن بنفسه « إلى أرض جليقية ، ففتح حصونها وجمال في أرضها وطالت
 غزاته فتعب كثيراً^(٣) ». ويرجح الأستاذ لميني بروثنسال أن الأمير عبد الرحمن
 لم يلق في غزاته هذه نجاحاً ، وأن هذه الغزوة أثبتت عدم مقدرة الأمير من الناحية
 العسكرية^(٤) ، فلم يعد الأمير يكثر من الخروج للغزو بنفسه ، وسرى أنه يعهد
 بالصائفة التالية (٢٢٦ هـ) إلى ابنه مطرف. بن عبد الرحمن في صحبة القائد
 عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني^(٥) ، ثم يقل خروج المسلمين إلى بلاد جليقية
 فلا نسجل لغزواتهم في عهد الأمير عبد الرحمن سوى غزوتين ، الأولى حدثت
 سنة ٢٣١ هـ (٨٤٦ م) ، إذ قام الأمير محمد بن عبد الرحمن بالصائفة إلى
 جليقية ، فحاصر مدينة ليون ، وقذف أسوارها بالمجانيق بغية هدمها ، ولكنه
 لم يتمكن من تحقيق هدفه^(٦) ، والثانية حدثت سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٨ م) وقادها
 الأمير المنذر. أما فيما يختص بالبشكنس ، فتذكر المصادر العربية أن عبد الرحمن
 الأوسط أغزى عبيد الله بن البلنسي سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) لمحاربة البشكنس فهزمهم
 بين أربونة وشرطانية^(٧) ؛ وفي العام التالي خرج الأمير بنفسه على رأس جيش كثيف

(١) نفس المرجع ص ١٢٤ انظر Lévi-Provençal, op. cit. p. 205.

(٢) المقرئ ج ١ ص ٣٢٣ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٨ - المقرئ ج ١ ص ٣٢٣ .

(٤) Lévi-Provençal, Histoire, t. I, p. 206.

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٩ .

(٦) ابن عذاري ص ١٢٢ - المقرئ ج ١ ص ٣٢٤ .

(٧) المرجع السابق ص ١٢٩ .

وجعل على ميمنته ابنه محمد وعلى ميسرته ابنه المطرف ، وهاجم بنبلونة^(١) . ويؤكد ليثي بروفسال استناداً على رواية ابن خيان في المقتبس ، أن عبد الرحمن هاجم قوات موسى بن موسى الذي خرج على طاعة الأمير ، وقوات ملك بنبلونة بالإضافة إلى قوات أخرى شرطانية وألبية وجليقية^(٢) ، وأنه التقى مع هذه الجيوش مجتمعة في آخر شوال سنة ٢٢٨ هـ (آخر يوليو سنة ٨٤٣) وأحرز عليها انتصاراً ساحقاً ، وعاد إلى قرطبة مظفراً منصوراً . ولم يكتف الأمير بهذا الانتصار ، فخرج في العام التالي لمحاصرة موسى بن موسى عامل تطيلة المتمرد ، ودوخ بلاده ثم صالحه ، ثم تقدم إلى بنبلونة ، فكانت له بها وقعة عظيمة على المشركين فني فيها أعداء الله ، وكان معهم موسى بن موسى ، فناله ورجاله ما نالهم^(٣) .

• • •

وقبل أن نختم عصر الأمير عبدالرحمن الأوسط يجب أن نشير إشارة عابرة إلى موجة عاتية اكتسحت الأندلس في ذلك الوقت ، وكان أبطالها جماعة من غلاة المستعربين ممن كانوا ينتقمون على الإسلام سيادته على الأندلس ، فكانوا يسيبون رسول الله وينكرون عليه نبوته ثم يستخفون بالإسلام ويقذفونه بالسب ، وكانت العقوبة التي يلقاها أمثال هؤلاء هي الموت . والواقع أن طائفة النصاري بالأندلس الذين أقاموا في ظل المسلمين وتأثروا بالثقافات العربية وتعربوا تعريباً أنساهم لغتهم اللاتينية ، تمتعوا في عصر أمراء بني أمية بحرية العقيدة والتسامح التام^(٤) ، وقد أقيمت لهم الحكومة الأموية أيام عبد الرحمن الداخل وخلفائه كنائسهم وأديرتهم ، بل منحهم الحق في بناء كنائس جديدة ، واهتم هؤلاء المستعربون بدراسة التراث العربي من شعر وأدب وفلسفة ، وشارك كثير من منهم في الحياة السياسية والأدبية في البلاد . غير أن تغلغل حركة الاستعراب عند النصاري أحدث رد فعل قوى عند المتعصبين منهم ، إذ أخذوا يأسفون لانصراف اهتمام النصاري عن قراءة المصنفات الدينية المكتوبة باللاتينية إلى نظم الشعر العربي أو قراءة الكتب العربية ، وحاول هؤلاء الغلاة

(١) نفس المرجع .

(٢) Lévi-Provençal, op. cit. p. 217.

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) انظر المهارة الدينية بالأندلس « الكنائس » للمؤلف في دائرة المعارف الشعب عدد ٦١ ص ١١٨

المتعصبون عبثاً أن يوقفوا هذا التيار الجارف نحو الاستعراب، واضطروا إلى تكوين حزب مستعرب معارض في قرطبة يرأسه محرضان على الثورة هما ابولونخيو وصديقه ألفارو، وكانا يدعوان النصارى إلى سب الرسول عليه السلام والطعن في الإسلام علناً في سبيل المسيحية، وكان عقاب من يفعل ذلك الموت. واجتاج هذا التيار الجارف من الغلو الروحاني الجنوبي الأندلس، وكثر عدد الشهداء بارادتهم، وازدادت الموجة الانتحارية عنفاً على مر الأيام. وعنا تصدى لهذه الحركة فريق من المستعربين المعتدلين ممن أنكروا على الغلاة هذا الجون، فأظهروا استياءهم لتصرفاتهم، واعتبروا هذا الاستشهاد نوعاً من الانتحار الذي حرمه الدين المسيحي، ومع ذلك فقد استمرت موجة الاستشهاد في بقية عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وفي بداية عهد الأمير محمد من بعده، ولم تنطفيء نيرانها إلا عند ما استشهدا ابولونخيو المحرض في ١١ مارس سنة ٨٥٩ م^(١).

(١) ارجع إلى Simonet, Historia de los Mozarabes de Espana - Isidoro de Las Cagigas,

Los Mozarabes, t. I, p. 193-209. — Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne — Lévi-

Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, p. 225-239.

نلاحظ أن مؤرخي العرب لم يثيروا في كتاباتهم إل موجة الاستشهاد ولذلك اعتمدنا فيما ذكرناه على المراجع السابقة.

عصر الاضمحلال الأول أو دويلات الطوائف الأولى

رأينا فيما سبق كيف حافظ الثلاثة الأوائل من أمراء بني أمية في الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل على أملاك المسلمين في الأندلس ، وكيف أخمدوا الثورات والفتن الداخلية ، وأوقفوا التوسع المسيحي في قلب إسبانيا الإسلامية ، ورأينا كيف نجح هؤلاء الأمراء الثلاثة في المحافظة على التفوق السياسي والحربي الذي أحرزه الإسلام في الأندلس ، ففي الوقت الذي كانت تتسم فيه عهودهم بالهدوء والسلام ، كانوا لا يترددون في محاربة الممالك المسيحية بشمال إسبانيا ، فيخربوا القلاع والحصون المسيحية بألبه وجليقية واشتوريش ، ويتزلوا بالثوار المسلمين والمستعربين أقسى صنوف العقاب ، كما حدث للمستعربين في طليطلة وأهل الربض المسلمين بقرطبة في عهد الحكم الربضي ، وغلاة النصاري الذين استشهدوا برغبتهم وإرادتهم في عهد عبد الرحمن الأوسط . ولا شك أن يقظة هؤلاء الأمراء ، وقوة مراسهم وبعد مرقهم همهم ، كل ذلك اتاح للدولة الأندلسية فرصة الحياة والبقاء وسط العواصف المدمرة والأنواء ، فلما توفي الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وتولى الإمارة أمراء ضعاف امتد حكمهم ما يقرب من ثلثي قرن من الزمان (٢٣٨ - ٣٠٠ هـ (٨٥٢ - ٩١٢ م) ، تمزقت وحدة الأندلس ، وقام الثوار في سائر أنحاء بشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية ، واستقوا بحكم المناطق التي ثاروا فيها ، وتقلص نفوذ أمراء بني أمية وأصبح سلطانهم لا يتعدى قرطبة ونواحيها . وهكذا أحاطت الأخطار بدولة بني أمية التي كانت تجتاز وقتئذ مرحلة من أدق مراحل تاريخها السياسي ، وتفككت الوحدة السياسية ، وتعددت أجناس أمراء الطوائف أو أصحاب الدويلات المستقلة ، فمنهم من كان من أصل إسباني ، ومنهم من كان بربرياً ، ومنهم من كان عربياً ، فمن البربر موسى بن ذى النون الذي استقل في جيان ، ومن المستعربين عمر بن حفصون في بيشتر ، ومن المولدين عبد الرحمن بن مروان الجليقي في بطليوس وماردة ، ومن العرب إبراهيم بن حجاج في إشبيلية وقرمونة . ويعمل ابن الخطيب

كثرة الثوار في الأندلس بثلاثة أسباب هي :

أولاً : منعة البلاد وحصانة المعقل وبأس أهلها بمقاربتهم للنصارى في الشمال .

ثانياً : علو الحمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان منهم الأشراف الذين يأتفون الخضوع والإذعان .

ثالثاً : الاستناد عند الضيقة والأضطرار إلى ملوك النصارى الذين كانوا يحرصون على ضرب المسلمين بعضهم ببعض^(١) .

تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الإمارة في ٤ ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) وحكم ما يقرب من خمس وثلاثين سنة . وكان محمد محباً للعلم ، مؤثراً لأهل الحديث ، عارفاً بحسن السيرة ، وكان قد قوض أمور دولته لهاشم بن عبد العزيز أعظم وزرائه ، وكان هاشم هذا مغروراً بنفسه ، حقوداً لجوجاً ، أفسد الدولة ، وكان الأمير محمد يقدمه على جيوشه ، فخرج مرة إلى غرب الأندلس ليقمع ما هنالك من الثورات فأساء السيرة مع جنده ومنع بعض الثوار ، وقيل إنه أهان عبد الرحمن بن مروان الجليقي الثائر بيطليوس^(٢) في حملته التي قادها سنة ٢٦٢ هـ . ففر منه عبد الرحمن بن مروان إلى سعدون السرياني الثائر بالثغر ، واشتبك الوزير هاشم معهما فهزماه وأسراه ووقع بين يدي من صفعه ، فأحسن إليه ، ثم اقتداه الأمير محمد بمال كثير ، وأرسله الأمير محمد مرة في جيش كبير مع ابنه المنذر إلى ثغر سرقسطة ، فأساء الأدب معه حتى أحقده عليه^(٣) ، وقامت الثورات في الأندلس بسببه .

وأول هذه الثورات على الأمير محمد ثورة أهل طليطلة ، وكانت طليطلة بحكم موقعها الجغرافي وكثرة عدد سكانها المولدين موطناً للثورات ، ولقد بدأ أهل طليطلة بالثورة على الأمير في نفس عام ولايته ، وسجنوا عامل طليطلة عندهم حتى يطلق الأمير رهاثهم من دار الرهائن بقرطبة ، ففعل الأمير ، وأطلقوا عامله ، ثم تجرأوا

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٤١ .

(٢) ابن القوطية ص ٩٠ ، ٩١ - ابن عذارى ج ٢ ص ١٥٢ - ابن الخطيب ص ٢٢ . وفي هذه الإحافة يقول ابن عذارى : « قال هاشم لابن مروان الجليقي من بين الوزراء : الكلب خير منك ، وأمر بصفع قفاه واستبلغ في خزيه » .

(٣) ابن سعيد المغربي ، المغرب ص ٥٣ .

بعد ذلك على الأمير وأغاروا على قلعة رباح وأرغموا حاميتها على الانسحاب .
وعندئذ بعث أخاه الحكم على رأس جيش لغزو طليطلة سنة ٢٧٩ هـ ، فاحتل الحكم
قلعة رباح ، وأمر ببنيان سورها ، واسترجاع من فر من حاميتها^(١) . وفي نفس هذا العام
أخرج الأمير محمد إلى شندلة Jandula قائديه قاسم بن العباس وتمام بن أبي العطاف
ومعهما الحشم ، فلما اقتربا من اندوجر Andujar ، خرجت عليهم كمائن أهل طليطلة .
فانهزم قاسم وتمام هزيمة مخزية . وشجع هذا النجاح أهل طليطلة على مواصلة
العصيان ، ولكنهم كانوا يخشون مغبة عمله . فالتمسوا عون أردون بن ردميرة Ordone I b.
Ramiro I ملك أشتوريش . ولم يتردد هذا الملك في تقديم كل وسائل المساعدات
لثوار طليطلة ، إذ كانت مصلحته تقتضي إشعال نيران الحرب الأهلية في الأندلس ،
فأرسل إلى أهل طليطلة جيشاً قوياً بقيادة أحد أقاربه ويدعى غثون Gaton قومس
بيرزو Bierzo ؛ وأمام ذلك لم يقف الأمير محمد مكتوف اليدين ، فخرج بنفسه
في محرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيو في ٨٥٤ م) على رأس جيشه وسار في الطريق
الروماني الممتد ما بين قرطبة وطليطلة ، حتى وصل إلى الفحص الواقع جنوب غربي
طليطلة ، الذي يخترقه رافد لنهر التاجة وهو المعروف بوادي سليط Guazalete
وهناك علم الأمير نبأ وصول حشود النصاري الأشتوريين ، فأعمل الحيلة والكيد ، فعبا
بالجيوش ، وكمن الكمائن ، خلف التلوات البارزة من سطح الأرض في نواحي النهر ،
ومضى هو مع فرقة من جيشه قليلة العدد ، فلما رأى أهل طليطلة قلة عسكره أخبروا
النصارى ، ففرح رئيسهم غثون ، وطمع في الظفر والغنيمة ، فلما التقى الجمعان
خرجت الكمائن المنصوبة عن يمين وشمال ، فانهزم غثون وقتل من رجاله ثمانية
آلاف ، جزت رؤوسهم وجعل منها جبل ارتقاه المسلمون وأذنوا ، وكان عدد القتلى
من أهل طليطلة اثني عشر ألفاً ، وبعث الأمير محمد بأكثر رؤوس النصاري إلى
قرطبة وإلى سواحل البحر والعدوة^(٢) .

وفي سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) وجه الأمير محمد ابنه المنذر بالجيوش إلى طليطلة ،
فحاصرها وأقام عليها ينسف معاشها . وفي العام التالي خرج أهل طليطلة إلى طليطيرة

(١) ابن عذاري ص ١٤٢ أمر الأمير سنة ٢٤١ هـ بشحن قلعة رباح وطليطيرة بالحشم والفرسان وترك
فيها عاملاً هو حرث بن بزيع .

(٢) نفس المرجع ص ١٤٣ . Lévi-Provençal op. cit. p. 294.

لمهاجمتها ، فتصدى لهم قائدها مسعود بن عبد الله العريف ومن وضعهم في الكمائن فهزموا أهل طليطلة وقتلوا منهم عدداً كبيراً . وكانت هذه النكبة لا تقارن بما أصابهم في العام التالي ، فقد خرج الأمير محمد سنة ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) إلى طليطلة بعد أن قل حدهم بسبب ما نزل بهم من مصائب ، فلم تكن لهم حرب إلا على القنطرة ، فأمر محمد بقطع القنطرة ، وجمع العرفاء من البنائين والمهندسين وأداروا الحيلة لهذا الغرض دون أن يعلم بها أهل طليطلة فلما تدفقت عليها قوات طليطلة انهارت بهم ، فغرقوا في النهر عن آخرهم . وأخيراً لم يجد أهل طليطلة بداً من التسليم بالهزيمة والإذعان للأمير ، فدعوا في العام التالي إلى الأمان فعقده لهم الأمير . دخلت طليطلة في في فلك الإمارة بقرطبة ولكن ذلك لم يدم أكثر من عشر سنوات ثم ثاروا على الأمير للمرة الثانية سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٥ م) ، واضطر الأمير إلى الخروج بنفسه لوضع الأمور وضعها الصحيح ، وأرغمهم على تقديم فروض الطاعة ، فأخذ منهم رهائن وعقد لهم أمانهم للمرة الثانية ، وأغرمهم ضريبة من العشور يؤدونها إليه في كل عام . ثم اختلفت أهواؤهم عند ما عزم الأمير على تولية أخيه مطرف ابن عبد الرحمن ، إذ طلب بعضهم تولية طريشة بن ماسديه ، وأخيراً اتفق على تقسيم طليطلة وأقاليمها إلى قسمين قولي كل منهما قسماً ، ثم تنازع الواليان وأراد كل منهما الانفراد بولاية طليطلة ، ثم رجحت كفة طريشة ، فتولى المدينة ^(١) .

وتبعث ثورة أهل طليطلة ثورة أهل ماردة ، إذ ثار بها عبد الرحمن بن مروان بن يونس المعروف بابن الحليق مع جماعة من المولدين ^(٢) أمثاله ، نخص بالذكر منهم ابن شاكر ومكحول ، في ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م)

فخرج الأمير محمد إلى ماردة وقد تظاهر بتوجهه نحو طليطلة لحصارها ، فلما سار في طريق طليطلة ، انحرف إلى الطريق المؤدى إلى ماردة ، فحاصر المدينة أياماً واضطر أهل ماردة إلى التسليم ، واشترط عليهم الأمير أن يخرج من المدينة فرسانهم والمحرضين على الثورة وعلى رأسهم عبد الرحمن بن مروان وغيره ، فخرج المذكورون بأولادهم وذرائعهم ، وولى الأمير عليها سعيد بن عباس القرشي ، ثم أمر بهدم

(١) راجع ابن عذاري ج ٢ ص ١٤٢ - ١٥٢ .

(٢) اتفق عبد الرحمن بن الحليق المولد مع سعدون السرباقى على الثورة ضد الأمير والاتفاق مع ملوك النصارى انظر (ابن القوطية ص ٨٩) .

سوزها ، ولم تبق إلا قصبها باعتبارها مركز الحكومة . وظل ابن مروان في قرطبة حتى سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) ثم هرب مع أنصاره ، واستقروا بقلعة حنش Alange على بعد نحو ٢٠ ك . م جنوب شرقي ماردة . فغزاه الأمير محمد ، وحاصره مدة ثلاثة أشهر ، وقطع عنه الأقوات والمياه حتى اضطر عبد الرحمن إلى طلب الأمان ، فأمنه الأمير ، وطلب منه ابن الحليقي الرحيل إلى بطليوس والخلول بها ، وكانت يومئذ قرية ، فوافقه الأمير^(١) . فابتنى بطليوس وجعل منها حصناً يتحصن فيه ضد الأمير ، إذ كان يزعم العصيان عند ما تنهياً له الظروف . وفعلاً لم يمض عام واحد حتى عاد إلى إعلان الثورة على الأمير واستولى على بعض المدن بإقليم إشبيلية مثل طلياطة ، واكشوبة ، واحتل جبلاً يقال له منت شاعر Monte Sacro^(٢) ، عندئذ أغزى إليه الأمير ولده المنذر ، وكان قائده هذه الحملة هاشم بن عبد العزيز الذي كان السبب في هروب ابن مروان الحليقي إذ سبه وصفعه على قفاه . فلما علم ابن مروان بقدوم هاشم بن عبد العزيز لمحاربتة ، انتقل من بطليوس وحل بحصن كركر ، وكان ابن مروان قد اتفق مع زميله في العصيان سعدون السرنباقي الناصر في منت شلوط Monsalud على مكاتبة الفونسو الثالث بن أردون الأول ملك اشتوريش والتظاهر بأنه في قلة من الجند فبادر هاشم إلى مهاجمة ابن مروان الحليقي على غير أهبة أو استعداد ، إذ انخدع بقلعة عدد قواته ، فانهزم هزيمة نكراء ، وأسر ، وقتل من رجاله خمسون ، وأرسله ابن مروان الحليقي إلى ملك اشتوريش الفونسو إظهاراً لعرفانه بجميله ، فأقام بأبيط Oviedo عامين ثم اقتداه الأمير سنة ٢٦٤ هـ من الفونسو بمائة وخمسون ألف دينار^(٣) .

لم يستطع الأمير محمد أن ينتظر من ابن مروان أكثر من ذلك ، ففي سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٧ م) أرسل ابنه المنذر على رأس جيش كثيف إلى ماردة ، فلما علم ابن

(١) ذكر ابن القوطية أن عبد الرحمن بن الحليقي طلب من الأمير أن يبيع له البشرى وهي قرية من قرى غرب الأندلس يبتئها ويمدنها ويستقل بحكمها وجبايتها ، ويوضح ابن القوطية موقع البشرى فيذكر أنها تقابل بطليوس ، ويفصلها عنها نهر وادي أنه المسمى بالغور (انظر ابن القوطية ص ٩٠) . ويذكر الحميري أنه شرع في بناء جامع بطليوس فبناء بالبن والطاية وبني له صومعة بالحجر ، كما بنى أسوار المدينة الجديدة بالتراب . (الحميري ص ٤٦) .

(٢) ابن القوطية ص ٨٩ .

(٣) ابن القوطية ص ٨٩ .

مروان بذلك خرج عن بطليوس فاحتلها القائد الوليد بن غانم وخرّبها ودمر أسوارها ، واضطر ابن مروان إلى اللحاق بالقونسر الثالث ، حيث أقام في كتفه ثمان سنوات ثم عاد إلى ماردة وبطليوس سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) ، فحاربه الأمير وأرغمه إلى الهروب في المرتفعات ، ثم تحصن في جبل أشبرغوزة (Esparragosa)^(١) وحاصره المنذر ولكن حصاره له لم يأت نتيجة . وأخيراً وافق الأمير محمد على أن يستقل ابن مروان ببطليوس .

وثار سليمان بن عبدوس سنة ٢٥٥ هـ في سرية ، وعمروس الوشقي في وشقة سنة ٢٥٦ هـ ، ومطرف واسماعيل بن لب ويونس بن زباط في الثغر (تطيلة وسرقسطة) سنة ٢٥٨ هـ ، ويحيى الجزيري في جانب من كورة رية والجزيرة وتاكرنا سنة ٢٦٥ هـ ، وحارث بن حندون من بني رفاعة في مدينة الحامة من كورة رية سنة ٢٧٣ . وأعظم هذه الثورات شأناً ثورة عمر بن حفصون في بيشتر سنة ٢٦٧ هـ ، وكان والد عمر من مسالة أهل الذمة ، وكان يقيم في إقليم رندة بقرية تريثيا Torrecilla . وذكروا في سبب ثورته أن عامل رية وهو واحد من بني خالد ويعرف باسم دونكير أخذ عليه مأخذ فضربه بالسياط ، فاضطر عمر إلى العبور إلى بر العدو ولاذ بتاهرت عاصمة الرستميين وهناك اتخذته خياط أصله من رية مساعداً له ، وبينما هو جالس في حانوته إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه ، فقام إليه الخياط ووضع له كرسيّاً ، فقعده عليه ، فسمع الشيخ كلام ابن حفصون ، فأنكره عند الخياط ، فقال له : من هذا . فقال غلام من جيراني برية أتى ليخيط عندي ، فالتفت الشيخ إليه فقال له متى عهدك برية ؟ قال له : منذ أربعين يوماً . قال تعرف جبل بيشتر ، فقال له أنا ساكن عند أصله . قال له الشيخ . فيه حركة . قال : لا قد آن له ذلك . ثم قال له : هل تعرف فيما يجاوره رجلا يقال له عمر بن حفصون فدعّر من قوله ، وأحد الشيخ النظر إليه ، وكان ابن حفصون أفضم الثانية فقال له : يا منحوس تحارب الفقر بالإبرة ، ارجع إلى بلدك فأنت صاحب بني أمية ، وسيلقون منك غيا وستملك ملكاً عظيماً ، فقام من فورهِ ، وذلك خوفاً من أن ينتشر الأمر وأن يتقبض عليه بنو أبي اليقظان ، وكانوا مالكي تاهرت وولاؤهم لبني أمية ،

فأخذ خيزتين من الحجاز وألقاهما في كفه وخرج ، فأتى الأندلس^(١) ، واتصل سرّاً بعمه ، وأعلمه بقصة الشيخ ، فأمدّه بأربعين رجلاً تمكن بفضلهم من إشعال نيران الثورة في رية .

كما ثار بسببه في جبل الجزيرة رجل يقال له لب بن مندريل وآخر اسمه ابن أبي الشعرا^(٢) ، وحاول والى رية عامر بن عامر أن يجمع ثورة ابن حفصون ولكنه انهزم هزيمة مخزية ، فعزله الأمير محمد وأقام مكانه عبد العزيز بن عباس ، فهادنه ابن حفصون ثم عزل عبد العزيز ، وعاد ابن حفصون بعد عزل عبد العزيز الى مثل ما كان عليه ، انضم إليه كثير من قطاع الطرق والمفسدين في الأرض . فاضطر الأمير إلى إرسال هاشم بن عبد العزيز لمحاربة ابن حفصون سنة ٢٨٠ هـ ، وتمكن هاشم من القضاء على الفتنة فاستنزل جميع الثوار في بيشر وتاكرنا والجزيرة وقدم بهم إلى قرطبة وألحقهم في الحشم^(٣) ، وكان ابن حفصون بينهم ، ففر في هذا العام من هاشم بن عبد العزيز إلى الثغر .

وكان هاشم بعد أن هزم ابن حفصون قد أمر بينان دار حصينة في أعلى جبل بيشر وأقام فيها التجوي العريف مع فرقة من الجند .

فلما أهان صاحب المدينة بقرطبة وهو محمد بن وليد بن غانم إلى ابن حفصون خرج من قرطبة ولاذ بمحصنه القديم بيشر سنة ٢٧٢ هـ ، بعد أن طرد منه التجوي ، وأخذ جاريته المعروفة بالتجوية التي صارت أم ولده أبي سليمان ، وهنا اجتمع إليه أتباعه القدامى ، فاستفحل أمره حتى ضم إليه ما بين الجزيرة ومرسية ، وقبل وفاة الأمير محمد ، لقب ابنه المنذر سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) إلى كورة رية في جيش جيش بقيادة القائد محمد بن جمهور فقصد أولاً مدينة الحامة ، التي ثار فيها حارث بن حمدون من بني رفاعة وكان مظاهراً لابن حفصون الذي اجتمع معه في الحامة ، فنازلها الأمير المنذر وحاصرها مدة شهرين ، فلما يشأ خرجا من باب

(١) ابن القوطية ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ابن القوطية ص ٩٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٩٢ .

المدينة. متعرضين للنبال ، فأصيب ابن حمدون وانهمزم هو وأصحابه^(١) ، ودخلت جنود المنذر مدينة الحامة ، وبينما كان المنذر يحتفل بانتصاره إذ بلغه نبأ وفاة أبيه الأمير محمد في ٢٨ صفر سنة ٢٧٢ (٤ أغسطس سنة ٨٨٦ م) فعجل بالعودة إلى قرطبة ، حيث أدرك أباه قبل أن يوارى التراب في الروضة .

وعلى الرغم من التمزق السياسي الذي أصاب الأندلس على عهده ، فقد كان الأمير أحسن الناس تمييزاً ، وأبصرهم بوجه الرأي ، وكان محبوباً في جميع البلدان ، فكان الامام أبو اليقظان محمد بن أفلح الذي تولى على دولة الرستمين بتاهرت منذ سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) « لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره وكذلك بنو مدرار بسجلماسة^(٢) » ولم تكن علاقته وفقاً على أمراء المسلمين ، بل نراها تمتد إلى الدول المسيحية المجاورة ، فيعقد أواصر الصداقة مع قارله Charles le Chauve ملك افرنجه ، وكانت هذه العلاقات قد تحسنت منذ أواخر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط إذ كان يوفد إلى قارله رجلاً يعرف بالقصبي^(٣) ، ولا شك أن ابن عذارى وابن الخطيب كانا يعنيانه عند ما ذكرا اسم فردلند بدلا من اسمه^(٤) .

وبموت الأمير محمد زال ستر الحرمة ، وخرقت هيبة الإمارة ، واستقبل ابنه المنذر (٢٧٣ — ٢٧٥ هـ ٨٨٦ — ٨٨٨ م) نيران الفتنة ، فأصلته مدى حياته ، ودامت في عهد عبد الله حتى خمدت على يدي الأمير عبد الرحمن بن محمد . وما كاد الأمير المنذر يتولى زمام السلطة حتى قبض على وزير أبيه هشام بن عبد العزيز ، وزج به في السجن ، وأثقله بالحديد ، وذكره بذنوبه وآثامه ، ثم سرب عنقه ، وقيل أنه حمل عليه لأنه قال عند مواراة الأمير محمد في قبره البيتين الآتين :

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٦١ ويقول ابن الخطيب « وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت ومجلماسة » انظر أعمال الأعلام ص ٢٤ .

(٣) ابن القوطية ص ٧١ .

(٤) يقول ابن عذارى : « وكان فردلند ملك إفرنجة يسترجع عتله فيهاديه ويتحفه » ص ١٦٢ . أما ابن الخطيب فيقول : « وكان على عهده من ملوك إفرنجة أعظمها وأعظمها فردلند يهاديه ويتاحفه على تراميه بنفسه إلى الغاية التي لم يذهب إلى مثلها قومه » ص ٢٤ .

أعزى يا محمد عنك نفسى أمين الله ذا المن الجسام
 فهلا مات قدم لم يموتوا ودفع عنك لى كأس الحمام^(١)
 فظن المنذر أنه يقصده عند قوله « فهلا مات قوم لم يموتوا » ، ثم قبض عليه
 وسجنه هو وخاصته ، ثم أمر بقتله فى جمادى الأولى سنة ٢٧٣ هـ . وأثنى نفسه
 بالانتقام منه . وذكروا فى أسباب تحامل المنذر على هاشم ، أن هاشم كان يحسده
 الناس لمكانته عند الأمير محمد ، فسعوا به عند المنذر^(٢) .

وكان عمر بن حفصون قد انتهر فرصة وفاة الأمير محمد ، وعودة المنذر إلى
 قرطبة على أثر ذلك فراسل الحصون التى تمتد من بيشتر حتى الساحل ، فأجابته بالطاعة
 وأغار على باغة ، وقبرة ، وعلى قرى البيرة ، وأحواز جيان ، وانضم إليه كثير من شطار
 الناس وشرارهم . فاضطر الأمير المنذر إلى الخروج إليه بجيشه فى عام ٢٧٤ هـ ،
 فافتتح حصون ابن حفصون فى كورة رية وقبرة ، وحاصر بيشتر وضيق عليها ،
 ثم مضى إلى مدينة أرشدونة ، وكانت تابعة لابن حفصون وفيها عامل من قبله
 اسمه عيشون ، وتغلب الأمير على قصبة أرشدونة ، وأمر العامل ، وأسر معه بنى مطروح ،
 وافتتح حصونهم بجبل باغة ، وأمر بقتل بنى مطروح ومعهم عيشون فصلبوا جميعاً
 بقرطبة وصلب مع عيشون خنزير وكلب^(٣) . ولما استفحل أمر ابن حفصون وزاد
 عن الحد^(٤) ، أقسم الأمير أن يقصده ، وأن يحاصره لبشتر ولا يرحها حتى يتمكن
 من ابن حفصون ، ففضى الأمير نحو ٤٣ يوماً فى حصاره لبشتر ، ثم أصابته علة ،
 فبعث إلى أخيه عبد الله لينوب عنه ، فى الحصار ، ومات الأمير المنذر فى
 ١٥ صفر سنة ٢٧٥ هـ ، فحمل الأمير على جمل إلى قرطبة حيث دفن مع أجداده
 فى تربة الخلفاء المعروفة بالروضة بداخل القصر .

• • •

(١) أخبار مجموعة ص ١٤٩ - ابن عذارى ج ٢ ص ١٧٤ .

(٢) ابن عذارى ص ١٧٣ .

(٣) ابن عذارى ص ١٧٥ .

(٤) ذكر ابن عذارى أنه خدع الأمير إذ سأله أن يبعث إليه مائة بغل حتى يضع عليها متاعه ومتاع
 أولاده ويأتى إلى قرطبة ليعيش فى كنف الأمير ، وكان الأمير قد بعث إليه عسكرياً يحاصر بيشتر بعد أن عدم
 ابن حفصون أعوانه . فلما أرسل إليه الأمير البغال ومحب عسكريه ، استولى ابن حفصون على البغال ونكث
 وعده للأمير وعاد إلى سيرته الأولى .

وتولى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بعد وفاة أخيه في اليوم الذي مات فيه أخوه المنذر في المعسكر الإسلامي الضارب على بيشتر ، وكانت الأندلس عند ما ولى الإمارة قد مزقها الشقاق ، وتحيفها النكث ، واستولت عليها الفتنة . ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه ، إلى ابن حفصون - كبير الثوار الذي طغى وبغى واستولى على أعظم مدن الجنوب وبات يهدد قرطبة حاضرة الإمارة ، أم لابن حجاج وقد استقل بإشبيلية وقرمونة ، وعبد الرحمن بن مروان الحلبي بيطليوس ، وعبد الملك بن أبي الجواد بياجة ، وابن السليم بشذونة ، وخير بن شاكر بشوذر ، وبني هابل بن هذيل بيجان ، وسعيد بن سليمان بن جودي بغرناطة ، وسليمان بن محمد الشذوني بشرش ، ويحيى التجيبي الأتقر بسرقسطة ، وديسم بن إسحق بمرسية . ولكنه أثر أن يبدأ بابن حفصون ، فتوجه إليه في جيش كبير وهزم ابن حفصون هزيمة منكرة ، ثم صرف الأمير همه بعد ذلك إلى مهادنة ابن حجاج بإشبيلية ، وظل في صراع مع ثوار الأندلس حتى وفاته سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) على نحو ما سنوضحه في موضعه . ولقد أجمع مؤرخو العرب باستثناء ابن حزم^(١) على أن الأمير عبد الله كان تقياً ورعاً ، كثير الصلاة ، كثير الصدقات ، محباً للخير ، شديد التواضع .

وقال عيسى بن أحمد الرازي عن أبيه أحمد بن محمد أن الأمير عبد الله كان « من أصلح خلفاء بني أمية في الأندلس ، وأمثلهم طريقة ، وأتمهم معرفة ، وأمتهم ديانة ، كان يتهجد بالليل ويقوم ليالى شهر رمضان بالاشفاق مع الأئمة المرتبين لها بالمسجد الجامع بقرطبة . . . وكان قد خص قعوده للامة بيوم الجمعة ، لا يخل به ، رتب قعوده فيه لهم بمجلس له عند الباب الذي فتحه عند ركن القصر وسماه باب

(١) ذكر ابن حزم أنه كان قاتلاً تهون عليه الدماء مع ما كان يظهره من عفة ومع كثرة إقباله على الخيرات وترك المذكرات ، فإنه احتال على أخيه المنذر على إثارة له ، وواطأ عليه حجامة بأن سم له الموضع الذي قصده به ، وهو نازل بمعسكره على ابن حفصون ، ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد واحد : قتل محمداً وإله الناصر لدين الله ، وقتل أخاه المطرف ، ثم قتل أخوين له معاً أيضاً ، قتل هشاماً منها بالسيف والقاسم بالسهم . (انظر ابن القوطية ص ١٠٢ - ابن عذارى ج ٢ ص ٢٢٣ - ابن سعيد المغربي المغرب ص ٥٤ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام) . أما صاحب أخبار مجموعة فيذكر أنه لما توفي أخوه وكان الجند قد شتموا من طول المقام ، تفرقوا عن الأمير فانتقل خائفاً على نفسه من عدوه ، وقدم أخاه بين يديه وأب أن يدفنه إلا مع آبائه في قصر قرطبة (أخبار مجموعة ص ١٥٠) .

العدل ، وهو باب قبلى روجه بأن لا يأتيه منه إلا متظلم أو رافع كتاب بظلامته ، لا يصل حاجبه أحداً عنه ، نظراً للناس ، وتسهيلاً لسبيل إنصافهم^(١) .

وإذا تحدثنا عن المتزين في الأندلس في عصر الأمير عبد الله ، فالمجال لا يتسع لذكر كل شيء ، وسنكتفي بالإشارة أولاً إلى هؤلاء الثوار ومناطق نفوذهم ، ثم نتحدث عن حروب الأمير ضد خصمه العتيد عمر بن حفصون ثم ننهي إلى ذكر الفتنة بين العرب وبين المولدين والعجم في سائر أنحاء الأندلس .

أولاً : المتزون في الأندلس :

(١) الثوار المولدون :

١ - يرأس عمر بن حفصون قائمة الثوار في الأندلس فهو إمامهم وقادتهم وأعلامهم ذكراً وأشدهم سلطاناً وسنشير إلى خروج الأمير إليه في النقطة التالية .

٢ - ديسم بن إسحق الذي غلب على مدينتي لورقة ومرسية وما يليهما من كورة تدمير ، وكان له جيش يحارب به من يخالفه ، وكان محبوباً من جميع طبقات الناس ، كما كان محباً للشعراء والأدباء ، وقد مدحه الشاعر عبيد بن محمود^(٢) .

٣ - عبيد الله بن أمية بن الشالية : استولى على جبل شنتان Somontin وما يليه في كورة جيان ، وامتد ملكه إلى حصن قسطلونة Cazlona ، واستطاع أن يصطنع شجعان الرجال والقواد ، وحاول الأمير أن يقضي على حركته فأرسل إليه جيشاً بقيادة الوزير القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، فأظهر ابن الشالية الإذعان والخضوع بعد أن هزمه جيش الأمير ، فلما أرخى الأمير محنته عاد إلى غيه ، فنكت بعهدده للأمير ، واتصل بابن حفصون ، وحالفه ، وزوج ابنته من جعفر ابن عمر بن حفصون ، ونقلها إلى يشتر ، وقد لزمه الشاعر عبيد بن محمود

(١) ابن حيان : المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، نشره الأب مشور باريس ١٩٣٧ ص ٣٣ وما يليها ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن حيان : المقتبس ج ٣ ص ٩ - ابن عذارى ج ٢ ص ٢٠٥ .

وملحه^(١)، وظل عبيد الله بن أمية مستقلاً في دويلته حتى أيام الأمير عبد الرحمن ابن محمد فاستنزلته، وحمله على الإقامة بقرطبة.

٤ - سعيد بن وليد بن مستنة : يتلو ابن حفصون في التمرد وشدة الشكيمة، وكان صاحباً له، ولذلك كان زميلاً لابن حفصون في التعصب للمولدين والعجم، ولقد ثار ابن مستنة في كورة باغة واستولى على حصونها وأهمها حصن لقوبش Locubin وأقوط Luque، ونجح ابن مستنة في هزيمة القائد إبراهيم بن خمير الذي بعثه الأمير عبد الله لإخماد حركته. ودامت دولته حتى نهاية عهد عبد الله^(٢).

٥ - بنو هابل : ثار أولهم منذر بن حريز بن هابل ببعض حصون جيان، وبني لنفسه حصن مرغيطة Margarita، وشتت اشتين Santisteban del Puerto. وثار أخوته أبو كرامة هابل بن حريز، وعامر بن حريز بحصن شنت اشتين وعمر بن حريز. وقد استطاع عبد الرحمن بن محمد استئزاهم جميعاً فخدموا في جيشه، فأقام عبد الرحمن بن محمد كبيرهم هابل على حصنه مرغيطة، واستشهد عامر في موقعة شنت مانكش Simancas، المعروفة بالحنديق، وقتل عمر في غزوة الأمير إلى بطليوس سنة ٣١٧ هـ.

٦ - خير بن شاكر : قام بدعوة المولدين والعجم على العرب في حصن شوذر Jodar من كورة جيان، وقد ظاهر خير عمر بن حفصون سنة ٢٧٧ هـ. وقد هاجم خير عدداً كبيراً من حصون العرب بكورة إلبيرة فقتل خلقاً كثيراً. وقد تمكن الأمير عبد الله من قتله بإيعاز من عمر بن حفصون إذ أوقع بينه وبينه^(٣).

٧ - سعيد بن هذيل : ثار بحصن المتلون Montelén من جيان، فبنى قصبة الحصن وحصنها، فبعث إليه الأمير عبد الله القائد عبد الملك بن عبد الله بن أمية، فأذعن بالطاعة ثم نكث، وعاقب عمر بن حفصون. وقد استنزل عبد الرحمن بن معاوية وأسكنه قرطبة. وأقام على المتلون عاملاً من قبله هو أحمد بن عبد الوهاب، فثار عليه أهل المتلون وطلبوا أميرهم سعيد بن هذيل، فأقر الناصر على ولاية

(١) المرجع السابق ص ١٠، ١١.

(٢) ابن حيان ص ٢٧ - ابن عذاري ص ٢٠٦.

(٣) نفس المرجع ص ٢٤ - ابن عذاري ص ٢٠٦.

الحصن عبد الله بن سعيد ، فسكن الناس إليه .

٨ - عبد الرحمن بن مروان بن يونس المعروف بابن الجليقي : كانت ثورته تقوم على التعصب للمولدين على العرب ، وقد استقل ببطليوس وماردة .

٩ - عبد الملك بن أبي الجراد : استقل بمدينة باجة Béja ، وتحصن بحصن مرتلة Mertola بالبرتغال ، وكان قائماً بدعوة المولدين ، متحالفاً مع ابن مروان الجليقي صاحب بطليوس وابن بكر صاحب اكشونية Ocsonoba ، فكانوا إلهاً على من خالفهم ويداً على من خرج عنهم^(١) .

١٠ - بكر بن يحيى بن بكر : استقل بمدينة شنت مرية Santa Maria de Algarve من كورة اكشونية وتعرف اليوم باسم Faro^(٢) . وهو الذى حصن هذه المدينة واتخذ لها أبواباً من الحديد ملبسة وكان يتشبه في دولته بإبراهيم بن حجاج ، فكان له الوزراء والكتاب ، وكان يجتذب إليه التزال فيستضيفهم في مدينته حتى قيل أن السالك بناحيته كان كالسالك بين أهله وأقاربه^(٣) . وكان جده زدلف Zadulfo من العجم مولى لبكر بن نجاد الأوربي ، فسمى ابنه باسم مولاه ، بكر ، وتمكن ابن ابنه يحيى بن بكر المذكور من الاستقلال بمدينة شنت مرية في أواخر عهد الأمير محمد . ولما استفحل أمره وغلب على جميع كورة اكشونية اضطر الأمير إلى الاعتراف بالأمر الواقع وولاه على بلده ، فاستوطن مدينة شلب Silves وعمرها^(٤) .

١١ - محمد بن لب بن موسى بن موسى بن فرتون القسوى : ثار بالشر الأعلى ، وحاصر مدينة تطيلة ، وتمكن من أسر محمد بن طملس قائد الأمير عبد الله ققتله على باب تطيلة . وعلى الرغم من خروجه على الحكومة المركزية بقرطبة فقد كان مجاهداً ضد النصارى ، فأغار على ألبه وبنبلونة . وقد ولي ابنه لب بن محمد على طايطة ، وقد قتل محمد بن لب وهو يحاصر محمد بن عبد الرحمن التجيبي بسرقسطة ،

(١) نفس المرجع ص ١٥ - ابن عذارى ص ٢٠٥ .

(٢) Lévi-Provençal, Histoire, op. cit. p. 340 .

(٣) ابن حيان ص ١٦ - ابن عذارى ص ٢٠٧ .

(٤) ابن حيان ص ١٦ - ابن عذارى ص ٢٠٧ - Lévi-Provençal, op. cit. p. 341 .

وانتقد محمد بن عبد الرحمن المذكور رأسه إلى الأمير عبد الله بقرطبة . وتولى مكان محمد بن لب ابنه لب بن محمد ، فأعلن طاعته للأمير ، فولاه الأمير على تطيلة Tudela وطرسونة وأعمالها ، واستشهد وهو يقاتل النصاري سنة ٢٩٤ هـ .

١٢ - سعدون بن فتح السرباقي : ثار بأحد الحصون الواقعة بالقرب من مدينة قلنبرية Coimbra بالبرتغال ، وكان صديقاً لابن مروان الجليقي .

١٣ - عبد الوهاب بن جرج : ثار بحصن بكور من البيرة ، بعد أن اجتمع إليه الموالي ، ثم مات سنة ٣٠٣ هـ .

ب الثوار البربر

١٤ - أول المنترون من البربر (بنو موسى بن ذى النون) ، وأول من ثار منهم الفتح ومطرف ، فقد ثارا بكورة شنت برية واتخذاهما حاضرة لهما ، وأقاما فيها الحصون والمعازل والمنازل والقرى ، فعمرت ، وكثرت فيها المرافق . وقد استأثر يحيى بن موسى بحصن ولة أكبر حصونهم ، وابتنى الفتح حصن أقليش ومصره وعمره ، واستقل مطرف بحصن وبدة . وقد توفي الفتح بن موسى مقتولا سنة ٣٠٣ ودخل أخوه يحيى في خدمة الناصر وغزا معه سرقسطة سنة ٣٢٥ هـ . فتوفي هناك . أما مطرف فقد خدم الناصر واشترك معه في غزواته فولاه على مدينة الفرج من الثغر الأوسط (١) .

١٥ - عمر بن مضم الهثرولى المعروف بالملاحى : كان من بربر قرية الملاحة من كورة جيان ، وكان جندياً من جنود عامل جيان ، فوثب على العامل وقتله واستولى على القصبة ، ولما استفحل أمره وأخذ يعيث فيما جاوره من بلدان ، أخرج إليه الأمير عبد الله القائد أحمد بن محمد بن أبي عبده لحربه ، فتمكن ابن أبي عبده من القبض عليه وقدم به إلى قرطبة .

١٦ - خليل وسعيد ابنا مهلب : ثارا كورة البيرة . فاستولى خليل على حصن قرذيرة Torre-Cardela ، أما سعيد فتمكن بدوره من الاستيلاء على حصن اشبرغرة Esparraguera ، وعلى الرغم من ثورتها على الأمير فقد دانا بالطاعة له

فولاهما على ما بأيديهما ، وقد كان لهما فضل محاربة عمر بن حفصون وصاحبه سعيد بن مستنة ، فلما مات خليل قام أخوه سعيد بأمر الحصنين ، حتى كانت أيام الأمير عبد الرحمن بن محمد فاستنزل بين من استنزل من الثوار ^(١).

١٧ - زعال بن يعيش بن فرانك التفراوى : ثار على الأمير عبد الله في حصنه أم جعفر من ماردة ، وكان مستقلاً في هذا الحصن استقلالاً جزئياً إذ كان متمسكاً بجل الطاعة للأمير ، فلما مات خلفه ابن عمه عبد الله بن عيسى بن قوطى ، ثم استنزل أيام عبد الرحمن بن محمد .

ج - الثوار من العرب :

١٨ - محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني : وكان من أعيان العرب بكورة البيرة ، استدعاه أهل حصن نوالش Noalejo (شمال غرناطة) ، وأقام هناك متمسكاً بطاعة الأمير ، فولاه الأمير على هذا الحصن ، وظل كذلك حتى توفي الأمير عبد الله ، فأبقاه عليه عبد الرحمن بن محمد ، ثم عزله سنة ٣١٣ هـ .

١٩ - سعيد بن سليمان بن جودي : لما مات سوار بن حمدون أقام عرب غرناطة عليهم سعيد بن سليمان المذكور وبعثوا إلى الأمير يطلبون منه أن يوافق على ولايته ، ففعل ، وقد قام سعيد بمحاربة أعدائهم من المولدين وعلى رأسهم عمر ابن حفصون ، فهزمه ، وكان ابن حفصون يهابه ويعمل حسابه . ولكنه قتل سنة ٢٨٤ هـ ^(٢).

٢٠ - ابن عطاف العقيلي : هو إسحق بن إبراهيم بن صخر بن عطاف ، وكان قائداً من قواد الأمير محمد ، فلما ثارت الفتنة أيام عبد الله ، دخل إسحق حصن منتيشة Mentesa بكورة جيان ، فبناه وحصنه وامتنع فيه من ابن حفصون ، وظل قائماً فيه حتى استنزله الأمير عبد الرحمن بن محمد سنة ٣١٣ هـ ^(٣).

(١) ابن حيان ص ٣٢ - ابن عذارى ص ٢٠٨ .

(٢) ابن حيان ص ٣٠ - ابن عذارى ص ٢٠٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩ .

٢١- سوار بن حمدون : ثار بحصن منت شاقند Montejicar ، وسنذكره عند ما نتناول بالحديث الفن بين العرب والمولدين .

٢٢- إبراهيم بن حجاج : تغلب على إشبيلية وقرمونة ، وارتفع شأنه وبعد صيته ، وقد استقل بإشبيلية عند ابتداء الفتنة واتخذ لنفسه جنداً بلغ عددهم نحو ٥٠٠ فارس ، وكان موالياً للأمير فلم يجاهر بمعصية له وكان بلاطه في إشبيلية لا يقل عن بلاط بني أمية في قرطبة ، وقد ازدهرت مدينة إشبيلية في عهده ازدهاراً لم تشهده من قبل ، ثم أنه حصن مدينة قرمونة ، وجعلها مربوط خيوله ، وكان لمن شعرائه أبو عمر بن عبد ربه الشاعر ، وقد قال فيه :

ألا إن إبراهيم بلحة ساحل من الجود أرسى فوق بلحة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهى بمجده وقرمونة الغراء ذات الفضائل

ومدحه الشاعر محمد بن يحيى بن القلعة بقصيدة ، هجا فيها أهل قرطبة وأفحش في الهجاء ، فأساء إليه إبراهيم بن حجاج لذلك ، فانصرف إلى قرطبة وبدأ يهجو إبراهيم بن حجاج ، فبعث إليه إبراهيم من قال له عنه : « بالله الذي لا إله غيره ، لئن لم تكف عما أخذت فيه ، لآمرن من يأخذ رأسك وأنت فوق فراشك بقرطبة » فارتاع لذلك وكف عن هجائه^(١).

وكان إبراهيم بن حجاج يقلد أمراء بني أمية في إحاطة نفسه بهالة من العظمة والمجد ، واستقدام الشعراء والأدباء ، وتشجيع العلماء ورجال الفن ، فذكروا أنه سمع ب تجارية بغدادية اسمها قمر فأرسل الأموال لشراؤها واستقرت في بلاطه بإشبيلية^(٢) . وسنذكر بقية أبنائه عند دراستنا للفتنة بين العرب والمولدين في إشبيلية .

٢٣- بنو المهاجر التحيبيون : كان بدء أمرهم أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ، إذ اصطنعهم لمواجهة بني قسي الثاقرين عليه ، وولاهم مدينة قلعة أيوب Galatayud ، وبني لهم حصن دروكة Darroca ، وكانت سرقسطة قد دخلت في فلك الإمارة فتولاها من قبل الأمير عبد الله ، أحمد بن البراء بن ملك القرشي ، فتآمر عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله التحيبي مع ابنه أبي يحيى محمد المعروف بالأنقر

(١) ابن حيان ص ١٣ .

(٢) ابن عشاري ج ٢ ص ١٩٤ .

للاستيلاء على سرقسطة ، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بأنه هارب من أبيه واستجار بابن البراء ، فأجاره وأدخله المدينة ، فتمكن منه يوماً وقتله ، وانفرد بحكم سرقسطة ، وأظهر التمسك بطاعة الأمير عبد الله فسجل له على سرقسطة ، وظل يقوم بولايتها حتى توفي سنة ٣١٢ هـ^(١).

٢٤ — محمد بن عبد الرحمن المعروف بالشيخ الأسلمي الخزاعي : ثار بحصن قليوثة من تدمير ، ثم استسلم لعبد الرحمن بن محمد ، فأقدمه إلى قرطبة ، فتوفي بها سنة ٣٢٩ هـ .

٢٥ — منذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم : ثار بمدينة بني السليم المنسوبة إليهم من كورة نشدونة وتسمى اليوم Graza lema (بالقرب من قادس) ، وظل مستقلاً بهذه المدينة حتى قتله مملوك له اسمه غلندة Galindo . وخلفه في ولاية ابن السليم أحد أقربائه يسمى وليد بن وليد^(٢).

ثانياً : محاربة الأمير عبد الله لعمر بن حفصون :

لما تولى الأمير عبد الله الإمارة وجه قائده إبراهيم بن خمير لأخذ بيعة عمر بن حفصون وأتباعه ، فأظهر ابن حفصون الطاعة وهو يضمّر في قرارة نفسه النكث والخروج ، وعمد إلى الخيلة حتى يقنع الأمير بإذعانه ، فلا يترك للأمير الفرصة للتجهيز وإعداد الحملات لغزو بلاده ، فأرسل مع إبراهيم بن خمير ولده حفص وجماعة من أتباعه^(٣) ، فأنزلهم الأمير عبد الله أفضل منازل الوفود ، وكرمهم ، وأحسن إليهم ، ثم ردهم محفوفين بالإكرام والرعاية . وولى الأمير عبد الله عمر بن حفصون على كورة رية ، وأشرك معه في ولايته عاملاً من قبله هو عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ، فتظاهر عمر بن حفصون بالقبول مدة شهر ، ثم انتفض على الأمير وأخرج عبد الوهاب العامل من الكورة ، وأخذ يغير على قرى رية والكور المجاورة لها ، وقطع السبل

(١) ابن حيان ص ٢١ — ابن عذاري ص ٢٠٨ .

(٢) ابن حيان ص ٢٤ — ابن عذاري ص ٢٠٥ .

(٣) يبدو أن مهمة حفص كانت في عقد سلم منتظم مع الأمير على أن يتولى ابن حفصون بيشتر

على الطرع .

وأخرج قائده حفص بن المرة، وكان شديد المراس، فأضرم البلاد سعيماً، وأغار على نواحي استجة، ولم يبق بالقنباية Campina قرية إلا غشيها خيل ابن حفصون، ثم امتدت غاراته حتى أرشدونة ونواحي قرطبة، حتى هبت القرى بالإخلاء والناس بالجللاء. وضع الناس إلى الأمير مما أصابهم من جوره، فأخرج الأمير قائده عبد الملك بن مسلمة الباجي في جيش كثيف، فالتقى مع جيش حفص في موضع من كورة استجة بين حيزها وحيز أشبونة، وفي هذه الموقعة انهزم جيش الأمير عبد الله، وقتل القائد عبد الملك بن مسلمة، وهنا قويت شوكة ابن حفصون وزاد عتوه وشره، فالتأث أمر الكورة وانزعج الناس، وتفاقم الحال بين العرب وبين المولدين والعجم، وأخذت العصبيات تظهر، والفتن تستشري، وسفكت الدماء، وتحزبت المسألة مع المولدين، وانضم إليهم نصارى الذمة، فصاروا جميعاً إلباً على العرب، قائمين بدعوة عمر بن حفصون، واضطربت الأندلس ناراً. ثم امتدت يد عمر بن حفصون إلى حصن بنى خالد المسمى القمتين فنزله، فاستغاث بنو خالد بزعيمهم جعد بن الغامر عامل الأمير في كورة البيرة، فجاءهم بنفسه ورد المعتدين^(١) وفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م)، دخل ابن حفصون حصن بلاى Poley، ويقع على بعد ٥٠ كم جنوب غرب قرطبة، وكان مطلاً على قنباية قرطبة، فحصنه غاية التحصين، وأقام فيه شربند بن حجاج القومس^(٢) Servando، وعهد إليه ابن حفصون بالإغارة على أحواز قرطبة. وعندئذ شرع الأمير عبد الله في مواجهة شربند فأخرج إليه الخيل أوقعت به^(٣) وقتل شربند في كمين، واحتز رأسه وأرسل إلى قرطبة.

واشتدت شوكة عمر بن حفصون، وأقبلت إليه جموع المفسدين من سائر أنحاء الأندلس، ويبدو أنه كان يطمع في الاستيلاء على الأندلس كلها ولايتها هو وأولاده من بعده بدلاً من بنى أمية، بدليل أنه أظهر الميل إلى الدعوة العباسية،

(١) ابن حيان ص ٥٢.

(٢) يذكر ليث بروغنسال أن حجاج القومس كان عجبياً قدم في بلاط الأمير محمد فأخلص له وأن ابنه المذكور اشترك في جريمة قتل ففر من قرطبة واحتل حصن بلاى باسم ابن حفصون

Lévi-Provençal op. cit. p. 372

(٣) ابن حيان ص ٩٢.

وذكروا أنه كاتب ابن الأغلب أمير أفريقية^(١) (تونس) ، وأخبره بأنه يعمل لبني العباس ، ولاطفه بالهدايا ، فأجابه ابن الأغلب ، ورد على هديته بهدية . ويقول ابن حيان : « فامتد أمل الخيث عند ذلك ، واستعجل شره ، وألقى على قرطبة كلكله ، وتوصل لمقامه بحصن بلاى ، وجاءه الأمير عبد الله إلى إغاضته واضطهاد رعيته بأقاليم قرطبة ، وجعل يسرى من حصنه ذلك ، الليلة بعد الليلة ، فبطرق من قرى القنابية ، ويدنوا من باب قرطبة حتى انتهى إلى كدى قرية شقندة إزاء قصر الخلافة بعدوة النهر الأعظم ، ويروع أهلها ويضيم سلطانها ، فانزعج لفعله هذا الأمير عبد الله وأنف منه ، واستعزم على غزو الخيث بنفسه ، وقصده بقوته . . . »^(٢)

فأمر الأمير عبد الله لإخراج السراق الأميرية إلى فحص شقندة بعدوة النهر ، فبعث ابن حفصون فرقة من فرسانه للاستيلاء على السراق والاحاطة بقرطبة ، وكان الأمير قد أعد لها الكمائن ، فلما قدمت الفرسان دهمتها قوات الأمير من كل مكان ، فتقهقر رجال ابن حفصون ، وتحصنوا في حصن بلاى Poley ، فأعد الأمير جيشاً عدته نحو ١٤ ألف مقاتل ، وخرج في عسقل صفر ٢٧٨ هـ ، وحشد ابن حفصون جيشاً عدته نحو ٣٠ ألف مقاتل والتقى الفريقان في موضع على نهر القوشكة Carchenas يبعد عن حصن بلاى نحو ٢ ميل ، وانتهت المعركة بانهزام جيش ابن حفصون هزيمة نكراء^(٣) ، ودخل المسلمون حصن بلاى ، أما عبد الله فقد مضى إلى مدينة استجة ، فنازلها حتى استأمنه أهلها ، فأقام على المدينة عاملاً من قبله ، ثم مضى بعد ذلك إلى بيشتر ، ثم عطف إلى ارشدونة فاستعادها ، ومنها

(١) هو إبراهيم الثاني بن الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وكانت دولة الأغلبية التي أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم سنة ١٨٤ هـ موالية للدولة العباسية ، فقد عمل الرشيد على تأسيسها للوقوف أمام الإدارة والخارج الرستمين .

(٢) ابن حيان ص ٩٢ - ٩٤ .

(٣) يقول ابن عذارى : « فصله الأمير بمن معه ، فثر عقده ، وفرق جمعه ، وحملت السيوف في رقابهم ، وتبعت سيل أعقابهم ، حتى رويت الأرض من دماهم ، ودخل الأمير عبد الله القلاع الثائرة عليه ، وصارت يومئذ في يديه ، وفي ذلك يقول ابن عبد ربه :

رام ابن حفصون النجاة فلم يسر والسيف طالبه فليس ينج

(ص ٢٠١) وذكر في موضع آخر أن الأمير أمر نحو ألف من رجال ابن حفصون فقتلوا صبراً بين يديه (ص ١٨٦) .

عاد إلى قرطبة . أما ابن حفصون فأكاد يعود إلى بيشتر حتى حشد أعوانه ، وخرج بجيشه إلى البيرة ، فتغلب عليها سنة ٢٧٩ هـ ، فاضطر الأمير إلى إرسال جيش لمحاربته قود عليه ابن أبي عبدة ، ونجح جيش الأمير في هزيمة ابن حفصون^(١) واضطر هذا إلى طلب السلم ، فأجابه الأمير إلى طلبه بعد أن أخذ منه ابناً رهينة عنده ، ولكنه لم يلبث أن انتقض على الأمير سريعاً وخذ يستعيد المدن التي كان الأمير قد استرجعها ، فبدأ بأرشدونة ثم البيرة ، واستولى أخيراً على جيان ، ولم يبق أمامه سوى استجة وبلاي ، فخرج إليه المطرف بن عبد الله بالجيش سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) بقيادة الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية إلى بيشتر ، فدمر عمارتها وقضى على العمران فيما حولها ، فاضطر ابن حفصون إلى الخروج لملاقاته فانهزم وقتل قائده حفص بن المرة . ثم مضى المطرف إلى لوشة Loja ، فبنى حصنها وأبقى عليه ادريس بن عبد الله عاملاً ، وعاد إلى قرطبة^(٢) . استغل الأمير عبد الله فرصة انشغال ابن حفصون بتجميع قواته ، وبعث بعوثه إلى صغار الثوار ، وعلى الأخص ابن مستنة ، وبني حجاج ، وديسم بن إسحق . فلما كانت سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) استرجع ابن حفصون مدينة استجة ، وكان عبد الله قد بعث في هذه السنة ابنه أبان إلى مدينة لبلة Niebla في جيش بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، وذلك لمحاربة ابن خصيب الثائر في حصن منت ميور Montemor بساحل لبلة ، وبينما كان الأمير أبان مشغولاً يرمي الحصن بالمجانيق ، ورد عليه كتاب الأمير باستعجال العودة بسبب استرجاع ابن حفصون لاستجة ، فلما قدم أبان إلى قرطبة بعثه الأمير في طليعته سنة ٢٨٥ هـ لغزو ابن حفصون . ثم حدث أن ارتد عمر بن حفصون عن الإسلام سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) وأعلن عودته إلى النصرانية ، وقد أثار ذلك رد فعل شديد عند المولدين الذين كانوا يشايعونه ، إذ انفض كثير منهم عنه ، بينما هلّل المستعربون أو العجم . والواقع أن ارتداد ابن حفصون أفقده كثيراً مما كان قد كسبه ، لأن الإسلام كان قد تغلغل في نفوس المسالمة والمولدين وغيرهم ممن كانوا يؤيدون عمر بن حفصون^(١) ، فلما فعل ذلك خسر حزباً كان يؤيده بلا مقابل . وغير

(١) ابن عذاري ص ٢٠١ .

(٢) ابن عذاري ص ١٠٦ - ١٠٨ - ابن عذاري ج ٢ ص ١٨٧ .

اسمه إلى صمويل ، ولا شك أن هذا التصرف من جانب ابن حفصون يدل على ارتباطه سياسته واضطرابه ، ويؤيد ذلك أنه خاطب الفونسو الثالث ، وتودد لبني قسي في الثغر الأعلى ، وخاطب ملوك الشيعة بإفريقية وكانوا أعداء للأمويين في الأندلس فوجهوا إليه رجلين بخلعات ، وخاطبوه بالحض على التزام طاعتهم ، وإقامة دعوتهم وأقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه ، وصرفهما ووجه معهما هدية انتخبها إلى صاحبهما^(١).

وكان تحول ابن حفصون إلى النصرانية سبباً في نشاط الغزوات الأميرية ضده ، فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي ، وفي ذلك يقول ابن قلزم الشاعر لابن أبي عبدة :

في كل صيف وفي كل مشي غزاتان منك على كل حال
فتلك تبيد العدو ، وهذي تفيد الإمام بها بيت مال

وفي كل مرة كان ابن أبي عبدة القائد ، يظفر بأحد كبار رجال ابن حفصون ، ففي سنة ٢٨٧ هـ قتل ابن أبي عبدة طالب بن مولود الموروري ، كما صلب إسحق ، وكلاهما كان من أصحاب ابن حفصون . ويبدو أن هذه الغزوات المتتابعة أزعجت ابن حفصون ، حتى أنه خاطب الأمير في السلم والصلح ، فأجابه الأمير إليه سنة ٢٨٨ هـ (٩٠١ م) بعد أن قبض أربع رهائن أحدها ابن مستنة صاحب باغة . ولم يتح للهدنة أن تستمر أكثر من عام واحد إذ خرقها ابن حفصون ٢٨٩ هـ ، فتصدى له أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، وهزمه هزيمة شنعاء ، ونظراً لبدء ابن حفصون بخرق الهدنة فقد قتل عبد الله الرهائن باستثناء ابن مستنة . وعندئذ بدأت كفة الأمير ترجح ، إذ تمكن من إسترجاع جيان سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) . وفي سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) غزا أبان بن عبد الله إلى رية ، في جيش كثيف قاده

(١) كان من بين أنصاره الذين تخلوا عنه يحيى بن أناتول الذي حول سلاحه إلى محاربة ابن حفصون ومنهم عويجة بن الخليل النائر في تاكرنا الذي تبرأ من قبل ابن حفصون وبني حصن بنيته وأصبح فيه موالياً للأمير عبد الله ، محارباً لابن حفصون ، ورأى المسلمون في محاربتهم لابن حفصون نوعاً من الجهاد (انظر ابن عذاري ص ٢١٠) .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٣٦ .

ابن أبي عبده ، اجتاح به هذه الكورة فيما بين مالقة ولوشة ، وفي العام التالي انهزم ابن حفصون في وادي بلون Guadalbullon بالقرب من جيان هزيمة شنعاء ، وقد كثيراً من رجاله ، ففر في شردمة قليلة ممن بقي منهم حياً^(١) . وفي العام التالي ٢٩٣ هـ (٩٠٦ م) استعاد الأمير حصن تش Tucci من كورة جيان ، وأسر الثائر فهر بن أسد ، وعاد به إلى قرطبة حيث أمر عبد الله بصابه عند القصايين من قرطبة في ربيع الآخر سنة ٢٩٣ هـ . وفي هذا العام نفسه تمكن القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة من الاستيلاء على حصن قنيط Gañete من تاركنا ، واستنزل من كان فيه من بني الخليع .

وفي العام التالي كان خروج أبان بن عبد الله بالصائفة إلى الجزيرة فاحتلها في ٢٠ رجب سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٧ م) ، ثم مضى إلى حاضرة رية فأحرق أرباضها ، ثم تقدم إلى الساحل ، ومن هناك مضى إلى حصون البيرة ، ثم عاد إلى قرطبة وفي العام التالي خرج نفس الأمير أبان بالصائفة إلى رية ، وكان يقود الخيل أبو العباس أحمد ابن محمد فقصد يبشتر ، وحاصرها وخرب نواحيها ، وواصل أبان غزواته ضد ابن حفصون ، فخرج بالصائفة في سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) إلى يبشتر ، فاستعرض جيوشه هناك ثم قصد إلى حصن لك Luque من حصون ابن مستنة ، فتنازله ثم افتتحه . وفي سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) قاد أحمد بن أبي عبدة جيوش الأمير عبد الله إلى بلدة Belda ، فحاربها ، ثم اشتبك مع قوات ابن حفصون على نهر طلبيرة وهزمه ، ثم مضى إلى حصون البيرة ، ومنها سار إلى بجانة ، ثم عرج على جيان ، وبازل حصن المتلون ، فاجتمعت جيوش عمر بن حفصون وسعيد بن مستنة ، وسعيد بن هذيل ، في جيش واحد ، وأغار على جيان ، فاشتبك معه جيش ابن أبي عبدة ، فانهزمت جيوش ابن حفصون وأتباعه ، وقتل من قواده عدد كبير نخص بالذكر منهم تسريل العجمي^(٢) . وفي سنة ٢٩٨ هـ أغار عمر بن حفصون وابن مستنة على بسيط قبرة وقرى قرطبة فخرج إليهما عيسى بن أحمد بن أبي عبدة والتي يجيوشهما على نهر ألية Guadiela فانهزم ابن حفصون وابن مستنة . وفي هذا العام نفسه استرجع الأمير حصن

(١) ابن عذارى ص ٢١٣ . Lévi-Provençal, op. cit. p. 379 .

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٢١٩ .

ونستخلص من كل ما سبق ذكره أن عمر بن حفصون - في السنوات العشرة الأخيرة من عهد الأمير عبد الله - فقد كثيراً من قوته التي استترفها في حروبه السابقة ، ولم يعد يشن حرباً هجومية كما كان يفعل فيما مضى أيام الأمير محمد والمنتذر والسنوات العشر الأولى من حكم الأمير عبد الله . ولا شك أن ابن حفصون كان يكيّد للدولة بني أمية في قرطبة ، فقد كان على علاقة بالأغالبة والأدارسة ، ونجده يرحب بعبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) ، ويسرع في مخاطبته ومبايعته ، ولا نشك في أنه هو الذي جمل الأندلس في عيني المهدي ، وحرّضه على افتتاحها ، ولكن اعتلاء عبد الرحمن بن محمد عرش الإمارة بقرطبة سنة ٣٠٠ هـ يقضي على آمال ابن حفصون ، وسرى في الصفحات التالية كيف تمكن الأمير الشاب عبد الرحمن بن محمد من اقتلاع جذور ابن حفصون من الأندلس ، وكيف نجح في مواجهة الفاطميين .

• • •

ثالثاً : الفتنة بين العرب وبين المولدين في الأندلس :

١ - في كورة البيرة :

لم يمض عام واحد من حكم الأمير عبد الله حتى اشتعلت في كورة البيرة نيران فتنة حامية بين العرب وبين المولدين ، فقد ثار سوار بن حمدون القيسي بناحية البراجلة Parcella في طليعة سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) ، وانضمت إليه بيوتات العرب من كورة البيرة وأجيان ورية وغيرها ، وذلك « عندما تميزت الأحزاب بالعصية وشبوا نار الفتنة . »^(١) وقبل أن نعالج هذا الموضوع بشيء من التفصيل ينبغي أن نشير إلى حقيقة هامة هي أن مدينة قسطة Castella حاضرة كورة البيرة ، التي عرفت فيها بعد باسم غرناطة ، كانت تزخر بعدد هائل من النصاري واليهود ، أما سكانها المسلمون فكانوا قلة بالنسبة لمجموع عدد سكان هذه المدينة ، حتى أن المدينة سميت « بإغرناطة اليهود » ، وكانت تملأ النشز المجاور للضفة اليسرى من

وادی حدرة قلعة قرمزیه اللون عرفت بالحمراء . وقد كانت كورة البيرة من الكور التي تضم عدداً هائلاً من النصاری المعاهدين والمولدين المسلمين كما كانت تضم عدداً من جند دمشق ، وكان النصاری والمولدين يؤلفون فی عهد الأمير عبد الله رابطة قوية متآلفة ، متحدة المصالح والأهداف ، إذ كان يغمرهم شعور واحد من الكراهية للسكان العرب فی البراجلة الذين كانوا یسیئون إلیهم فی المعاملات ، واضطر العرب إلى تألیف جبهة قوية لمناهضة جبهة المعاهدين والمولدين ، وعرفت هذه الجبهة العربية « بالعصية » وكان أول من تزعم هذه الحركة رجل عربی من البراجلة اسمه یحیی بن صقاله ، وكان یحیی المذكور شدید التعصب للعرب ضد المولدين والعجم ، فصب على هؤلاء كثيراً من ضروب التعسف والجور . ثم حدث أنه وادع أهل قسطله حاضرة البيرة من المولدين والمسالمة ، وعقد بينه وبينهم أمناً مؤكداً ، فوثق بهم واطمأن إلیهم ، فجعل یأتی حاضرتهم ، وهم یترصدون منه غرة أصابوها فی بعض قدماته إلیهم ، فثاروا به بغة وقتلوه واستولوا على منت شاعر Montejicar ، فخلفه على رئاسة العصية العربية سوار بن حمدون القیسی الذي ذكرناه آنفاً ، « وكان فارساً شجاعاً محارباً ، فكثر أتباعه واشتدت شوکته واعتزت العرب به ^(١) » ، وكان سوار یهدف إلى إدراك ثأر العرب من المولدين والعجم واسترجاع حصن منت شاعر الذي اجتمع فيه من المولدين والنصارى أصحاب نابل والشمیس نحواً من ستة آلاف رجل ، فهاجمهم سوار فی منت شاعر واسترد الحصن ، وقتل من كان فيه من أعدائه ، ثم أخذ یفتح حصون المسالمة والنصارى حصناً حصناً ، ویقتل من یظفر فیها منهم « حتی استباح حصن المار منها واستأصل جمیع أهله ، فقطع التوارث بينهم ، لانقطاع نسلهم ، وعظم عتوه واستكباره ، حتی ضجج منه أهل قسطله وهي حاضرة البيرة ^(٢) » . فلاذوا یجمعون الغافر من آل خالد وكان عاملاً من قبل الأمير عبد الله ، فأغروه بسوار ، ودعوه إلى قتاله ، وكف أذاه ، عن طاعتهم للسلطان ، فأجابهم جعد ، وخرج على رأس جيش كثیف تضخم بمن انضم إلیهم من المولدين والعجم ، واشتبک مع سوار ورجاله ، فهزمه

(١) ابن حیان ص ٥٥ .

(٢) ابن حیان ص ٥٥ .

سوار ، وأذرع في المولدين السيف قتل منهم ما يقرب من سبعة آلاف ، وأسر سوار جعدا ، وأساء معاملته ، ثم أطلقه من عقاله^(١) ، وقيل أنه قادى بجعد بعض من كان في ارتهانه من أولاد سوار ، وعرفت هذه الموقعة بوقعة جعد^(٢) ، واشتد بأس سوار بعد هذا الانتصار الرائع ، وكاتبه العرب من حصن غرناطة حتى حدود قلعة رباح فصاروا إلبا على المولدين ، وازداد سوار عتواً على النصاري والمولدين بعد هذا الانتصار ، فخاطب هؤلاء الأمير ، ورجوه أن يعمل على كسر شوكته وكف أذاه ، فراسله الأمير حتى يستميله إليه ، فأظهر الامتثال إلى طاعة الأمير ، وعقد مع أهل قسطة السلم ، وساد لبيرة عهد من الهدوء ، ويبدو أن سوار كان قد اشترط على الأمير أن يخلع جعد بن عبد الغافر من ولاية لبيرة ، نظير أن يدخل في طاعة الأمير ، فقد عزل الأمير جعداً عن كورة البيرة إرضاء لسوار ، وولى مكانه شريكاً لسوار في الكفاح هو عمر بن عبد الله بن خالد ، وهنا عبر سوار عن إخلاصه وولائه للأمير ، بالإسهام في مقاتلة ابن حفصون زعيم المولدين الثائرين ، فخرج سوار إلى حصون ابن حفصون ، وأغار عليها سنة ٢٧٦ هـ ، فغضب أهل قسطة لذلك ، وجمعوا جموعهم لقتاله ، وخرجوا إليه في حصن غرناطة فيما يزيد على ٢٠ ألف مقاتل^(٣) ، فلقبهم سوار في عدد قليل من عرب البيرة وغيرها ، فهزمهم هزيمة نكراء وقتل منهم نحو ١١ ألفاً ، وسميت هذه الواقعة الثانية بوقعة المدينة ، لأن القتال دار في المأقط من غرناطة (سهل وادي شنيل) ، وأعمل سوار وأصحابه السيوف والرماح فيهم إلى باب البيرة^(٤) . ولما وجد المولدون أن سوار أذهم وأثنخ فيهم ، لاذوا بعمر بن حفصون وخلعوا طاعة الأمير عبد الله ، فقدم إليهم بجيش جرار ودخل قسطة ، ثم خرج بمن معه من رجاله ومن انضم إليه من أهل قسطة ، واشتبك مع سوار ، فانهزم ابن حفصون وأصيب بجراح كثيرة فاضطر إلى العودة إلى حصنه يبشتر ، بعد أن ترك قائده حفص بن المرة على البيرة ، وجهد حفص في النيل من سوار ، وكن له الكمائن مرة ، ثم استدرجه إلى قتاله وهو في نفر قليل

(١) ابن عذاري ص ٢٠٢ .

(٢) ابن حيان ص ٥٦ .

(٣) يذكر ابن عذاري أنهم خرجوا في ٢٣ ألفاً (البيان ص ٢٠٢) .

(٤) ابن حيان ص ٥٧ - Lévi-Provençal, op. cit. p. 347.

من رجاله سنة ٢٧٧ هـ. فخرجت على سوار جنود حفص التي كانت في الكمائن ، فقتل سوار وجيء بجثته إلى حاضرة البيرة « فلأثمهم شماتة وفرحة ، وذكر أن الثكال من نساءهم قطعن لحمه مرقاً ، وأكله كثير منهم حقاً عليه لما قد نالهن به المرة بعد المرة من الثكل في يعولتهن وأهليهن واليتم في أبنائهن^(١) » .

تصدعت جبهة العرب بعد مقتل سوار ، وضعفت ضعفاً واضحاً ، واختار العرب بعد سوار أحد أصحابه وهو سعيد بن سليمان بن جودي ، وعلى الرغم مما قام به ابن جودي من جمع شمل العرب بعد تفرقهم عقب مقتل سوار ، فإنه لم يتمكن من سد الفراغ الذي تركه سوار ، ولم يبلغ مبلغه في حسن السياسة^(٢) . وظل رئيساً للعصية العربية في البيرة زهاء سبع سنوات ، ثم تمكن منه أعداؤه فقتل غيلة في ذي القعدة ٢٨٤ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٧ م) ، وقيل إنه قتل في دار عشيقه ليهودية^(٣) غدرًا . وقام بأمر العرب بعده محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني ، فسار على سياسة سلفه ولكنه هزم في معركة مع ابن حفصون وأسر ابن حفصون ، ففداه العرب بمال كثير . ومنذ ذلك الحين ، تفرقت كلمة العرب ، وانحلت رابطتهم وتفرغوا للقتال فيما بينهم .

ب - في لبلة :

حدث في لبلة بغرب الأندلس مثل ما حدث في كورة البيرة . إذ ألفت العرب جبهة واحدة ضد المولدين والمسالمة في لبلة ، وتزعم هذه الجبهة رجل من العرب اسمه عثمان ويعرف بابن عمرو ، فثار هو وأتباعه من أهل لبلة على عمرو بن سعيد القرشي وإلى لبلة ، فاستولوا على دار الإمارة ، وأخرجوه من المدينة ، وانضم إلى ابن عمرو جماعة من العرب فأغار بهم على قرى إشبيلية . فبعث إليه عبد الله ، عثمان بن عبد الغافر من آل خالد ليستميله إليه ، فنجح ابن عبد الغافر في مهمته ، وعاد ابن عمرو إلى إظهار ولائه للأمير ، ففرق أتباعه وأخلد إلى السكون ، ولكنه السكون

(١) ابن حيان ص ٦٠ .

(٢) ذكروا أنه أسر في إحدى المارك بينه وبين ابن حفصون ، فأقام شهوراً ببشر حتى افتداه العرب بمال جزيل .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٠٤ .

الذى يسبق العاصفة ، إذ لم تلبث الفتنة أن اشتعلت من جديد ، واحتدمت نيران الفتنة في كورة لبلة بين العرب والمولدين ، ففضى ابن عمرو إلى حصن قرقة فاحتله وتحصن فيه ، وانضم إليه عثمان بن عبد الغافر ورجاله ، ثم خرج العرب بقيادة ابن عبد الغافر للملاقاة المولدين ، فاشتبك معهم ، وهزمهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً . وامتدت نيران الفتنة إلى منت ميور ، إذ ثار فيها ابن خصيب ، من المولدين ، وثار ابن عفير بجبل العيون من حصون لبلة . ولم تزل نيرانها تمتد حتى وصلت إلى إشبيلية^(١)

ج - في إشبيلية :

كانت إشبيلية العاصمة الثانية للأندلس ، إذ كانت تقع على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير قرب مصبه ، في خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحرياً في جنوب إسبانيا ، ثم أنها كانت مدينة عامرة بالأسواق والمتاجر والمرافق العامة ، وكان العدد الأكبر من سكانها من النصاري والمولدين ، إذ كانت المركز الديني المسيحي الأول في إسبانيا منذ عصر الرومان ، أما بقية سكانها فمن العرب أمثال بنى موسى من بيت خافق ، وبنى الحجاج ، وبنى الجند ، وبنى خلدون . وكانت هذه القبائل تؤلف العصبية العربية في إشبيلية . وقد كان للمعاملة الحسنة التي عومل بها العجم في إشبيلية أثر طيب في قيام روابط وثيقة بين المسلمين والمسيحيين تقوم على مصالحة المسلمين للأسيان ، فكثرت زواج العرب من الأسبانيات ، ونشأ من ذلك جيل من الإسيان المسلمين عرفوا بالمولدين ، وازداد عدد هؤلاء ، زيادة ملحوظة حتى أصبحوا يؤلفون أغلبية سكان إشبيلية^(٢) واحتفظ كثير منهم بأسمائهم الأسبانية مثل بنى أنجلين وبنى شبرقة .

وكان يمثل العصبية العربية الأخوان عبد الله وإبراهيم بن حجاج ، والأخوان كريب وخالد بن عثمان بن خلدون ، وكان يمثل المولدين بنو أنجلين وبنى شبرقة وكان يمثل فريق الحيايين نفر من العرب والبربر ممن آثروا الإبقاء على ولأهم

(١) ابن حيان ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) ذكر ابن حيان أن مولدى إشبيلية كانوا أغلظ أهلها شوكة وأوسعهم نعمة وأعزهم جانباً ، وأحضرهم عدة ، يعتدون في اثني عشر رئيساً لكل رئيس منهم عقدة يعقدها وعدة يعتد بها « انظر ابن حيان ص ٧٥ .

للأمير ، ولقد روى محمد بن عبد الله بن الأشعث القرشي في كتابه « أخبار إشبيلية »^(١) قصة الفتنة في شيء من الإسهاب ، ونحن نعتمد على روايته في تحقيقنا لهذا الموضوع .

كان كريب بن عثمان بن خلدون هو السبب في اشتعال نيران هذه الفتنة ، إذ كان امرئ سوء بطبيعته ، وكان يتحرق شوقاً لينال نصيبه من الحركات الانفصالية التي اشتهر بها هذا العصر . فتحالف من سليمان بن محمد بن عبد الملك الثائر بكورة شذونة ، وعثمان بن عمرو الثائر بكورة لبلة وكلاهما من العرب اليمنية ، وجنيد بن وهب القرموني من بربر البرانس ، وعندئذ كون الموالي والمولدون من أهل إشبيلية حلقاً مع المضربين من العرب ، والبتر من البربر من أهل كورة مورور وكان فريق الحيات يتألف من عرب قرشين أمثال عبد الله بن الأشعث ، ومن موالي الأمويين أمثال عثمان بن العمر بن أبي عبدة ، وهب بن بسيل ، ومن العرب عبد الله ابن ملحج الزيري ، وإبراهيم بن عمر عبد قيس البصري . لم يستطع كريب بن خلدون أن يحقق أهدافه أمام تكتل المولدين والمحايدين ، فخرج من إشبيلية واستوطن قرية بشرف إشبيلية تعرف بقرية البلاط ، وهناك حرص بربر ماردة ومدلين على مهاجمة إشبيلية لكثرة خيراتها ، فقدم البربر يجمعهم ، وأغاروا على قرية طلياطة ، فقتلوا كل من وجدوه فيها واستباحوا أموالهم وسبوا ذراريهم ، فخرج موسى ابن أبي العاص يجمعهم وراءهم ، فانهزم وتحصن بموضع من إقليم البر ، بينما انطلق البربر يشنون الغارات على جميع جهات الكورة . وبلغ الأمير ذلك فعزل موسى بن العاص وولى مكانه حسين بن محمد الموري ، وفي أيامه ظهر في الطريق الموصل ، ما بين قرطبة وإشبيلية قاطع للطريق اسمه الطماشكة ، بربري الأصل ، فأقام محمد بن غالب من أهل استجة من المولدين ، حصناً بقرية شنت طرش بموافقة الأمير عبد الله ، وأقام هو وبعض أتباعه من البربر البتر ، والموالي ، والمولدين ، يحرسون الطريق ، حتى سما شأنه وحسده بنو خلدون وبنو حجاج أعيان إشبيلية ، فعمدوا إلى مهاجمته ليلاً حتى يقضوا عليه ، وتكون لهم الكلمة في إشبيلية ، فاستعد ابن غالب لقدمهم إذ بلغه ذلك مقدماً ، فصدمهم صدمة عنيفة وهزمهم وقتل رجلاً من بني حجاج ،

فحملوه إلى حسين بن محمد وإلى إشبيلية وزعموا أنه اغتيل في طريق قرطبة واستدعوا عليه الشهادات المزورة ، فأرسلهم إلى الأمير بقرطبة ، حيث طالبوا الأمير بانصافهم من قتلة ابن عمهم ، عندئذ ذهب وفد من المولدين بإشبيلية برئاسة محمد بن عمر بن خطاب بن أنجلين لتأييد ابن غالب ومدحوا شهامته وكذبوا دعوى بني حجاج . وهنا تضاربت الأقوال ، والتبس على الأمير الحكم في قضيتهم ، ورأى إرجاءها إلى أن تقوى الأدلة ، ثم أخرج ولده محمد وأمره أن يجمع الفريقين ويسمع أقوال كل فريق وأدلتهم ثم يعرضها على أهل العلم ، فيعمل بما يسمونه له من إنصاف المظلوم . ثم عزل حسين بن محمد عن كورة إشبيلية ، وأقام مكانه محمد بن خالد الخالدي المعروف بالمعوج ، ثم عزل هذا الأخير بعد فترة قصيرة وأقام مكانه ابن عمه أمية ابن عبد الغافر الخالدي ، فاستقر مع «الولد محمد» أي ابن الأمير عبد الله في قصر إشبيلية ، واجتمع محمد بن عبد الله بالفريقين المتخاصمين فوجد تعاضداً في الأقوال وفي الشهادات ، وزاد تحزب الناس ، فاضطر محمد إلى إرجاء النظر في الحكم ، وأعاد محمد بن غالب إلى حصنه ، فغضب العرب لذلك ، وازدادت قلوبهم حقداً وتعصباً على المولدين ، وخرجوا من إشبيلية ، فذهب بنو حجاج إلى باديتهم بالسند المنسوب إليهم على بعد ١٥ ميلاً من الحاضرة في طريق لبلة ، وخرج كريب بن خلدون إلى قريته بالشرف ، وتبعه أهله وكثير من عرب اليمن الحضارمة ، وظاهرهم سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذوني ، وجنيد بن وهب القرموني ، وأجمعوا على شق عصا الطاعة على الأمير عبد الله ، ودبروا الفتك بعامل قرمونة من قبل الأمير عبد الله والاستيلاء على المدينة ، فأرسل كريب بن خلدون إلى سليمان بن محمد الشذوني في حصنه المعروف بنبريشة Lebrija فجمع له جماعة من المفسدين تمكن بفضلهم من الإغارة على جزيرة المنذر بن عبد الرحمن المعروفة بالأسلية ، وكان فيها ١٠٠ رمكة ، و ٢٠٠ بقرة ، فقتلوا الوكيل القائم بالجزيرة واستولوا على ما كان في الجزيرة ، ثم استولوا على حصن قورية Coria بآخر الشرف ، على بعد ١٠ أميال من إشبيلية ، وبينما كان كريب مشغولاً بشن الغارات على قورية ، تمكن عبد الله بن حجاج من الاستيلاء على قرمونة . وتوافقت هذه الأخبار السيئة إلى الأمير فأشار عليه وزراؤه بقتل محمد بن غالب المولد إرضاء للعرب ، فینصرفوا

بعد ذلك إلى الطاعة ، فكتب الأمير بذلك إلى ولده محمد ، فأقبل بذلك الأمر إلى جعد بن عبد الغافر الخالدي أخي أمية وإلى إشييلية ، وأمره بالذهاب إلى قرمونة بالجيش ، ثم يقبض على محمد بن غالب ويقتله إرضاء للعرب ، فإذا لم يعودوا إلى الدخول في طاعة الأمير يهاجمهم . ففعل جعد ، وقبض على محمد بن غالب بعد أن اختال على اجتذابه إلى أبواب قرمونة . ثم ضرب عنقه ، فسر عبد الله بن حجاج لذلك ، وخرج عن قرمونة وأسلمها إلى القائد جعد بن عبد الغافر ، فولى عليها بعض أتباعه ، ومضى جعد إلى حصن محمد بن غالب المعروف باسم Siete Torres فهدمه . وأثار مقتل ابن غالب غضب المولدين بإشييلية ، فاجتمع حزب الموالي والمولدين المتعصبين لابن غالب وأقبلوا على « الولد محمد » ، فشكوا إليه ما خامر نفوسهم من الشك وطلبوا منه أن يسلم إليهم مفاتيح أبواب المدينة حتى يشعروا بالأمان ، فلم يسع محمد إلا أن يجيبهم إلى طلبهم ، إذ لم يكن لديه من الرجال ما يني بمدافعهم ، فلما ظفر المولدون بالمفاتيح عمدوا إلى الوثوب بعاملهم أمية ابن عبد الغافر حتى يأخذوا ثأرهم لابن غالب الذي جره جعد أخو أمية إلى حتفه ، فاستنجدوا بأحد الثوار في كورة مورور ويدعى ابن مولود ، كانوا متحالفين معه ، فعاقده على حرب السلطان ، فأرسل إليهم جيشاً من فرسان العرب المضربين ، ومن حلفائهم بئر البربر ، فلما وصل هذا الجيش إلى إشييلية ، قويت عزائمهم ، فثاروا على أمية وأحاطوا بقصر الإمارة في ١١ جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ ، حيث فر إليه ليحتمي فيه بجانب محمد بن عبد الله ، فأرسل محمد يطلب محمد بن خطاب بن إنجلين زعيم المولدين في إشييلية ليتفاهم معه ويطنئ النائرة ، فدخل إليه في رفقة جماعة من أعلامهم مثل ابن شبرقة وابن الجريج بعد أن اتفق مع أصحابه المحاصرين للقصر على أنه إذا أذن الظهر ولم يخرجوا من القصر ، فعليهم الهجوم على القصر . فدخلوا إلى لقاء « الولد محمد » ، فأخذ يتلاطف معهم عسى أن يرجعوا عن عزيمتهم ، ومضى الوقت المحدد للهجوم ، فافتحم الثوار القصر ودخلوا دار دواب الولد محمد ، فأنهبوا خيله ومراكبه ، وهنا قبض أمية بن عبد الغافر على ابن خطاب ورفاقه ، ثم ضبط بنفسه باب الفصيل الذي يؤدي إلى مجلس محمد بن عبد الله ، وأمر غلمانه بالصعود إلى سقف الفصيل ، ووقف أمية بن عبد الغافر

يصد المهاجمين لباب الفصيل .

واستمر حصار المولدين للقصر إلى اليوم التالي ، فأخرج الأمويون أحد رجالهم وهو محمد بن زيد بن عبد الله إلى جعد بن عبد الغافر لاستقدمه هو وعسكره من قرمونة ، فركب جعد من هور و دخل إشبيلية من جهة الجنوب من موضع المصلى ، وأخذ يشق لنفسه طريقاً بين الثوار . قاتلا من اعترضه حتى وصل إلى القصر ودخله ، واشتد حماس الحراس فتدفقوا على الثوار وكسروا حدهم . وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فأمر الولد محمد بن عبد الله بن عبد الغافر بإشيبيلية ، وأمر بضرب أعناق ابن أنجلين ورفاقه ، وصادر أموالهم ، ثم أمر برفع النهب . وكتب إلى الأمير عبد الله بكل هذه الوقائع ، فأمره بالعودة إلى قرطبة ، وعاد أمية بن عبد الغافر بحكم إشبيلية ، ثم استقدم إلى المدينة ساداتها العرب وقرب منازلهم ، فبقى كريب بن خلدون وعبد الله بن حجاج في إشبيلية بعض الوقت . ثم دفعهم الحنين إلى الثورة إلى معاودة الثورة على الأمير ، فعاد عبد الله بن حجاج ، إلى قرمونة فاستولى عليها ، واستولى كريب على حصن قورية . ثم وقع جعد بن عبد الغافر في كمين أعده له الطمشكة ، فقتل هو وأخواه ، فحزن أمية بن عبد الغافر لذلك ، وثارت عصبية فأغار عرب إشبيلية وقومونة على المولدين من أهل إشبيلية ، فحملوا على المولدين والأعاجم بإشبيلية وما جاورها . وحصدوهم حصداً ، ثم لجأ أمية إلى التضريب بين عبد الله بن حجاج وبين ابن وهب القرموني صاحبه بقرمونة . فوثب ابن وهب على عبد الله فقتله واستولى على ماله ، وأرسل برأسه إلى أمية بن عبد الغافر ، فخافه إبراهيم بن حجاج ، وتظاهر أمية بأنه بريء من دم عبد الله بن حجاج ، فنافقه بنو حجاج وقبلوا عذره ، وهم يصمرون قتله ، ثم اتجه أمية بعد ذلك إلى الواقعة بين إبراهيم بن حجاج وبين كريب بن خلدون ، ولكن إبراهيم بن حجاج كشف خطته ، وعمد إلى الإيقاع به . فأقام قصبة بقصره ، فاحتج بنو خلدون وبنو حجاج على ذلك ، وهاجموه فرجده متأهباً لذلك ، فلاذوا بطاعته ، فوافق ، نظير أن يأخذ من وجوههم رهائن يحفظها عنده ، فلما أعطوه الرهائن طابت نفسه فواصل عمه في التحصن . فأنهروا فرصة وجوده وحده بالقصر ذات يوم وهاجموا القصر ، فأحتمى في رهائن بني خلدون وبني حجاج . وهدد بقتلهم ، فتوسلوا إليه أن يبتلى عليهم ، وأخبروه بعزمهم على الاستقلال بإشبيلية . وأقسموا له أنهم سيركوه بذهب

عنهم آمناً، فأجابهم إلى ذلك لعدم قدرته على المدافعة، وأطلق إليهم وهائنهم، فنكثوا إيمانهم، وغلبوا به، وقتلوه، وبعثوا إلى الأمير يبررون مقتل أمية بسوء سياسته. واستدعوا عاملاً من قبل الأمير فأرسل لهم أحد أقربائه اتخذه كريب وإبراهيم ابن حجاج العوبة، وأجريا عليه الأرزاق. ثم اعتقلاه في القصر بعد أن قتلا ولده المطرف، فاضطر عبد الله إلى إرسال ابنه المطرف لاستئصال أهل إشبيلية فانهزم بنو حجاج وبنو خلدون واعتقل المطرف إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون وابن عبد الملك الشنوني، وأوثقهم في الحديد وزج بهم في سجن قرطبة. فلما وصلت جباية إشبيلية، أطلق سراحهم، بعد أن أخذ من ابن حجاج ولده رهينة في قرطبة. عاد إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون إلى إشبيلية، فاقسما المدينة فيما بينهما، وأخذ الأمير عبد الله يوقع بينهما بالمكاتبات، فوقع أحد كتبه في يد إبراهيم بن خلدون، فاحتال إبراهيم في استقدام كريب بن خلدون، وخالده في قصره، فلما وصلا القصر أخرج لهما كتابهما إلى الأمير وبالح في عتابهما، واستقل بملك إشبيلية سنة ٢٨٦ هـ.

• • •

ونختم هذا الفصل بذكر أعمال الأمير عبد الله المعمارية والعمرانية، وأهمها بناء مدينة بجاعة، وكان يتزل موضعها بنو سراج القضاة الذين وكل إليهم بنو أمية حراسة هذا الإقليم وما يليه من البحر، فسمى المكان بأرش اليمن أي عطيتهم^(١)، ثم استقر ببجاعة سنة ٢٧١ هـ (٨٨٣ م) جماعة من البحرين، وذلك في أواخر أيام الأمير محمد، ونجح البحرينيون في التغلب على أصحاب أرش اليمن، وأصبح أمرها في أيديهم، فبنوا سور بجاعة، وامتلأوا في ذلك تخطيط مدينة قرطبة، وجعلوا على أحد أبواب بجاعة تمثالا للعداء يشبه التمثال المقام على باب قرطبة، فأماها الناس من كل مكان، وأقبلوا يسكنونها فراراً من الفتنة التي اجتاحت الأندلس في ذلك الوقت، فكانت آمناً لمن قصدها، وحرماً لمن لجأ إليها، وكانت الميرة تجلب إليها من العدو، وضروب المرافق والتجارات^(٢)، وكان ذلك سبباً من

(١) الحبيرى ص ٣٧ .

(٢) الحبيرى ص ٣٨ .

الأسباب التي دعت إلى استيطانها .

وفي سنة ٢٧٥ هـ كتب البحرينيون الذين اختطوا مدينة بجانة إلى الأمير عبد الله في بداية عهده يسألونه إقرار واليهم عليهم ، وإعفاءهم من غيره ، وإباحتهم البناء حول قصبة بجانة ، والتوسع في عمرانها ومراققتها لتكاثر الناس في المدينة ، فأجابهم إلى ذلك ، فتوسعوا في الاختطاط بأرض بجانة في بداية عهده وأقاموا حولها عشرين حصناً منها وادي بجانة والحامة Alhama ، والحاية Alhabia ، وبنى طارق Bentarique في الغرب ، وحصن ناشر Nijar في الشرق ، وحصن برشانة Purchana في الشمال بجوار جبال الرخام وحصن عاليه^(١) .

وعبد الله هو الذي أمر ببناء الساباط بين القصر والجامع بقرطبة رغبة في شهود صلاة الجمعة ، فكان يرتقى هذا الساباط من قصره ، فيصل إلى المسجد ويلتزم الصلاة مع الجماعة إلى جانب المنبر^(٢) .

(١) ابن حيان ص ٥٣ .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٣١ .

الفصل السادس

عصر الخلافة بقرطبة

- (١) عبد الرحمن الناصر وتوحيد الأندلس .
- (٢) الأخطار الخارجية في عهد الناصر .
- (٣) مواجهة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر للممالك النصرانية في شمال إسبانيا .
- (٤) قرطبة في عصر الخلافة .

الفصل السادس

عصر الخلافة بقرطبة

١

عبد الرحمن الناصر وتوحيد الأندلس

لما مات الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ظفر حفيده عبد الرحمن بن محمد بالإمارة دون أعمامه وأعمام أبيه ، وكانوا أحق منه بالإمارة شرعاً ، ولكنهم تخلوا له عنها زاهدين فيها لما يحيط بها من أخطار ، وكان اعتلاء الإمارة بقرطبة يعنى التعرض لهذه المكاره والأخطار ، وكان الظن أن مصيرها يؤول حتماً إلى الزوال ، فزهد فيها من هم أحق بها من البيت الأموي ، وتعلقت آمال الناس بهذا الشاب اليتيم — عبد الرحمن بن محمد^(١) — الذى يتوقد شباباً وعزماً ، ويتحرق شوقاً لتوطيد دولة الإسلام فى الأندلس . وهكذا تهيأت لهذا الفتي الإمارة من حيث لا يدرى ، وأصبح أمير قرطبة بلا منازع ، فى الوقت الذى كانت الأندلس فيه

(١) كان أبوه محمد بن عبد الله محبواً لدى أبيه ، فرشحه لولاية عهده باعتباره أكبر بنيه ثناً ، وآثروا على أخيه المطرف ، فعظم الأمر على المطرف ، وبدأ الخلاف يدب بين الآخرين لهذا السبب ، وأخذ الواحد منهما يقابل الآخر بالصد والإعراض ، وحدث أن اعتدى محمد على أحد فرمان المطرف ، فأغرى المطرف أباه به فزج بمحمد فى السجن وأوثقه ، واتصل أثناء وجوده بالسجن ببعض الأشرار والمفسدين ، فأغروه بالذهاب إلى ابن حفصون ، فأتاه لديه . ثم خاطبه الأمير محمد بالأمان ، فاستجاب إليه ، وعاد إلى قرطبة ، ولم يزل المطرف ينرى عبد الله ويضمر له السوء والحقد ويزعم أنه على اتصال بابن حفصون وأنه يعمل على الثورة على أبيه ، حتى أقتنع عبد الله بهذه الوشائيات وأمر بمحمد فسجن فى دار البقية ، ريثما يتحقق من الأمر . فلما اتضح له براءته ، عزم على إطلاق سراحه ، فدخل عليه أخوه المطرف وأجهز عليه ، وتركه متخبطاً فى دمه ، ملقاً على يده وفه ، وكان ذلك سنة ٢٧٧ هـ ، وهو نفس العام الذى ولد فيه عبد الرحمن بن محمد ، إذ ولد قبل قتل أبيه بواحد وعشرين يوماً وقد نال المطرف جزاء جريمته إذ قله أبوه عبد الله ، واحتضن عبد الرحمن بن محمد ، وخصه بمحبة ورعايته ، ويبدو أن الأمير عبد الله كان يستشعر الندم لتسببه فى قتل ابنه محمد ، فأراد أن يكفر عن إثمه ، فكرس حياته لتنشئة حفيده اليتيم ، فكان يحمله دوزن بنيه ، ويرى إليه ويرشحه لأمره .

جمرة تحتدم وناراً تضطرم .

وجد الأمير الشاب أرض الأندلس مضطربة بالثائرين ، مضطربة بنيران المتغلبين فعمد قبل كل شيء إلى إطفاء هذه النيران واستئزال أهل العصيان ، وكانت سياسته ترمي أولاً إلى تركيز السلطة في يده ، وتوحيد الأندلس إلى مثل ما كانت عليه في عهد أمراء بني أمية الأقوياء . وكان لازماً عليه والحال كذلك أن يصطنع سياسة تقوم على الترهيب والترغيب ، أو على الشدة واللين ، وشرع في تنفيذ خطته في عزم وإصرار ، فأنفذ الكتب إلى العمال في جميع كور الأندلس بطلب الطاعة والاستسلام ، فكان أول رد ورد عليه بذلك هو رد سعيد بن السليم عامل حصن مارتس من كورة جيان . ثم أرسل الأمير عبد الرحمن أمناه إلى البلاد لأخذ البيعة ، فبعث إلى الثغرين الأدنى والأقصى الفقيه أبا مروان غبيد الله بن يحيى ، ومحمد بن عبد الله بن نصر ، وإلى كور الغرب حفص بن عبد الرحمن وأحمد ابن عبد الملك ، وكان أول من بايع الأمير من أصحاب الأطراف محمد بن عبد الرحمن التجيبي أمير سرقسطة ، وتتابعت البيعة والاستسلام لعبد الرحمن من جميع مدن الأندلس ، وانتبش الناس بهذا الأمير الذي دخلت محبته في نفوسهم ، لما أبداه من ضروب التسامح للخارجين على السلطة المركزية بعد أن استسلموا له . فلما مضى شهر من توليه الإمارة أعد حملة كبيرة للقضاء على بقية الثوار ، وتسمى هذه الصائفة بغزوة المتثلون^(١) افتتح فيها سبعين حصناً * من أمهات الحصون سوى ما فتح بفتحها من بناتها وذواتها وقصاياها ومراتبها مما قارب الثلاثمائة بين حصن وبرج ، فلقد كان في يد عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية منها ما يجاوز المائة ، وهذا شيء لم يسمع بمثله لملك من الملوك في سالف الأزمنة ، وقد ذكر أحمد بن محمد بن عبد به ذلك في شعر له أو قاربه حيث يقول :

في غزوة مائتا حصن ظفرت بها في كل حصن غزاة للعناجيج
ما كاد منك سليمان ليدركه والمبثنى سد يا جورج وما جورج
وقال أيضاً في شعر آخر :

في نصف شهر تركت الأرض ساكنة من بعد ما كان منها الطير قد ماجا

(١) Lévi-Provençal & E. Garcia Gómez, Una Crònica Anònima de Abd al-

Rahman III al-Nasir, p. 38-39.

لما رأوا حومة الشاهين فوقهم كانوا رهاء جوالها ودراجا^(١).

أما بنو حجاج بإشبيلية فقد استطاع الأمير عبد الرحمن أن يجتذب منهم إليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج الذي ولى إشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج سنة ٣٠١ هـ ، فسلم إليه مدينة إشبيلية سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ثم أذن له محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة^(٢) ، وفي سقوط إشبيلية يقول صاحب المدونة المجهولة عن عبد الرحمن الناصر : « وفي سنة إحدى وثلاثمائة افتتحت مدينة إشبيلية وكان السبب في فتحها مهلك عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج المنتزى بها في صدر المحرم منها واجتماع أهلها بعده على تقديم أحمد بن محمد بن مسلمة ومخالفة محمد بن إبراهيم بن حجاج ومن معه بقرمونة لابن مسلمة ولياذه بالسلطان عند ما انتشر سلطان والده ، فوهن بذلك أمر ابن مسلمة^(٣) » .

وذكر الرازي أن الناصر افتتح بإشبيلية سنة ٣٠١ هـ . « فبعث الناصر عسكرياً إلى إشبيلية فجرت بينهم حروب عظيمة ، ثم بعث الأمير عبد الرحمن الناصر إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج وأمره بالتضييق على أهل إشبيلية وعقد له على ذلك وأشرك معه فيه قاسم بن الوليد صاحب شرطته في ذلك الوقت ، وكان بينه وبين محمد صداقة ، فخرجا معاً من قرطبة إلى قرمونة ، ومنها دنوا إلى إشبيلية ، فردد محمد وقاسم والجموع على إشبيلية وملكوا أقاليم الشرف وأقاليم طالقة وإقليم ألبه وغيرها ، وأخذ بمخنق ابن مسلمة صاحب إشبيلية . فاستجاش ابن مسلمة برأس النفاق اللعين ابن حفصون ، فأثاه بنفسه وخرج معه ، من مدينة إشبيلية وجازالهر ، وكان الجيش بحصن قبرة ، وفيه محمد بن إبراهيم بن حجاج وقاسم بن وليد ، فخرجا إليهما بمن معهما من حشم السلطات ، فانهزم ابن حفصون وفر على وجهه حتى لحق بقلعته ، فتأمل ابن مسلمة منتشبه مع ابن عمه محمد بن حجاج ودخله معه في وراثة أبيه وأنه لا طاقة له به ، فأخذ في إصلاح ما بينه وبين السلطان الناصر ، فراسله

(١) المصدر السابق ص ٣٨ ، ٣٩ - ابن عذاري ج ٢ ص ١٩٦ .

(٢) ابن حيان : المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، ص ٨٤ - ابن عذاري المراكشي ، البيان

المغرب ج ٢ ص ١٨٨ - ١٩٩ ، الحميري ص ٢٠ .

(٣) Levi-Provençal. Crónica, Ibid. p. 41.

بأن يعطيه إشبيلية، فوصله الحاجب بدر، وتملك السلطان إشبيلية دون إراقة دم ولا قتال^(١).

واستعمل عليها الناصر سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم، فهدم سور إشبيلية حتى لا يتمكن الثوار من التحصن بداخلها، وبني القصر القديم المعروف بدار الإمارة وحصنه بسور من الحجر^(٢).

وبعد أن استنزل عبد الرحمن بنى حجاج بإشبيلية، رأى أن يقضى أول كل شيء على رأس الأفعى وهو عمر بن حفصون وولده جعفر.. وكان عمر بن حفصون هذا قد تحصن بمدينة بيشتر من كورة رية وأطاعته أكبر مدن وسط الأندلس الواقعة بين رية والخزيرة الخضراء من جهة، والبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى، وقد حاول الأمير المنذر بن محمد أن يقضى على حركته ولكنه مات وهو يحاصر بيشتر، فتفرق جنده عند موته، ولم يستطع الأمير عبد الله أن يعيد جمعهم، واستطال عمر بن حفصون في المحلة وانتهى بالحملة. وعظم أمر ابن حفصون في عهد الأمير عبد الله، وقويت شوكته وجرت بينه وبين الأمير مناوشات لم تؤد إلى نتيجة. ثم استفحل أمره واشتد خطره، فأغار على موروروشذونة وقرمونة والبيرة، واتسعت رقعة مملكته، ثم ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية حتى يجتذب إليه الطوائف المستعربة في إسبانيا الإسلامية، فلما عاين المسلمون ما فعله ابن حفصون استقبحوا منه ذلك وانقضوا من حوله^(٣)، وكان ذلك بداية نهايته وضعف أمره، وتظاهر بالخضوع للأمير عبد الرحمن بن محمد، وقيل أنه اشترك معه في غزواته ضد إسبانيا المسيحية بعد أن لصفح عنه الأمير. وتوفي عمر بن حفصون في عام ٣٠٣ هـ (٩١٥ م)، وزعموا أنه مات على الدين المسيحي، إذ أن قبره نبش عند بيشتر سنة ٣١٦ (٩٢٨ م) فوجد أنه كان يتجه بوجهه نحو الشرق وذراعه موضوعة على صدره

(١) ابن عذاري، البيان ج ٢ ص ١٩٦، ١٩٧.

(٢) الحميري ص ٢٠.

(٣) يقول ابن عذاري في ذلك: «وفي سنة ٢٨٦ أظهر ابن حفصون النصرانية وكان قبل ذلك يصرها، واقفد مع أهل الشرك وناظمهم، ونفر عن أهل الإسلام وتابذهم، فترا منه خلق كثير، ونابذه عويجة بن الخليل، وبني حصن بنيط، وصار فيه موالياً للأمير عبد الله، محارباً لابن حفصون واتصلت عليه المغازي من ذلك الوقت ورأى جميع المساميين أن حربه جهاد، فتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواق» ج ٢ ص ٢١٠.

على الطريقة المسيحية ^(١) . تخلفه ابنه جعفر الذي ذهب مذهب أبيه في العناد والفساد ، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً سنة ٣٠٦ هـ ، واستولى في طريقه إليها على حصن دوس أمانتش (Dos Amantes ?) وحاصر حصن بلدة من حصون ربة في ذي الحجة ، ودخل المدينة . وفي عام ٣٠٧ هـ (١٩١٩ م) افتتح عبد الرحمن حصن طرش نخشين من أعمال ابن حفصون ، واستأمن صاحبه عبد الرحمن بن عمر ابن حفصون إلى الأمير ، فأمنه وصحبه معه إلى قرطبة وأوسع عليه . وفي جمادى الثاني سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر بن عمر بن حفصون داخل حصن يبشتر غيلة فدخله أخوه سليمان ، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير ، فسأله الأمير فلما قوى أمر سليمان ، نكث عهده ، وشن الغارات على قرطبة فدخل مدينة المنكب عنوة وقتل جميع سكانها ، وما زال كذلك في نكته وغدره حتى هزمته جيوش عبد الرحمن في أحواز شنت بنجنت ، فقتل سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) ، ثم خلفه أخوه حفص بقلعة يبشتر وخرج إليه الأمير عبد الرحمن سنة ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) فاستولى على حصن البلش وأمر بهدمه ، ثم وصل إلى قلعة يبشتر ، فحاصرها ، وأقام بجوارها حصناً سماه حصن طلجيرة ، حتى يش حفس بن عمر ، فأذعن إلى السلم ، وأسلم الحصن ، وهكذا قضى الأمير عبد الرحمن على بني حفصون أخطر الخارجين عليه . وقد تبقت بعض آثار حصن يبشتر ، منها الكنيسة التي أقامها ابن حفصون بين عامي ٨٩٨ ، ٩١٧ م بعد اعتناقه النصرانية ، ونلاحظ في آثارها وجود العقد المتجاوز الذي ظهر وصاد استعماله في المسجد الجامع بقرطبة وعمائر الخلافة الأموية في مدينة الزهراء وطليطلة ^(٢) ، أما الحصن نفسه فلم يبق منه شيء يذكر ^(٣) وقد أجريت فيه حفائر أثرية أسفرت عن كشف كميات كبيرة من الخزف الذي يشبه في زخارفه وطيبته

(١) Lévi-Provençal. Crónica anônima, p. 76.

ابن عذارى ، البيان ج ٢ ص ٢٩٤ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ص ٢٦٠ ، Crónica anônima, p. 58

(٣) Camps y Cazorla, Arquitectura califal y Mozarabe pp. 24-25.

أثر الفن الخلاقي بقرطبة في الفن المسيحي يابانيا وفرنسا للدكتور السيد عبد العزيز سالم المجلة العدد ١٤ ص ٧٩ .

(٤) Carlos Sarthou Carreres, Castillos de Espana, Madrid, 1952, p. 92.

خزف مدينة الزهراء^(١). وفي سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) توجه الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى مدينة بطليوس لمحاربة عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الجليقي الناصر بها، فحاصرتها جيوشه وضيقت عليها الحصار، وافتتحها سنة ٣١٨ هـ، كما حارب عبد الرحمن بن سعيد الناصر بمدينة باجة، ودخلها بعد أن هدم أبراجها، وقتل من عصاه من أهلها، وافتتح حصن اكشونية وغيره من الحصون^(٢).

وهكذا استطاع عبد الرحمن الناصر أن يقضي على أعداء الوحدة في داخل إسبانيا، فاجتمع شمل المسلمين تحت لوائه، وأصبحوا يؤلفون قوة كبرى كان لها أكبر الأثر في بث الرعب والهلع في نفوس نصارى إسبانيا المسيحية.

(١) H. Terrasse, l'Art Hispano-Mauresque p. 178.

(٢) ابن عذاري ص ٣٠١ - ٣٠٢.

الأنحطار الخارجية في عهد عبد الرحمن الناصر

تعرضت بلاد الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لأنحطار كثيرة كادت تطيح بملك المسلمين ، من هذه الأنحطار التي هددت الأندلس ، خطر النورمنديين ، وقد ذكرنا فيما سبق أخبار غزواتهم على سواحل الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ورأينا كيف نبهت غاراتهم أمير قرطبة إلى ضرورة اصطناع سياسة بحرية ، فأنشأ عبد الرحمن دار الصناعة بإشبيلية ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس ، فألحقهم ووسع عليهم ، وتأهب لاستقبال النورمنديين بالآلات والنفط ، فلما أعاد النورمنديون غارتهم على إشبيلية عام ٢٤٥ هـ في أيام الأمير محمد تلقاهم أسطول الأندلس ، وهزمهم ، وأحرق مراكبهم^(١). وكانت دار الصناعة بإشبيلية نواة لادور الصناعة في طركونة والمرية والبحزيرة ومالقة وميورقة ولقنت وشلب . والواقع أن عبد الرحمن الناصر هو الذي اهتم اهتماماً جدياً باصطناع هذه السياسة البحرية ، وعمل على إنشاء أسطول قوى يدفع عن الأندلس الأنحطار الناشئة من غارات المجوس والغزو الفاطمي على السواء ، ويذكر ابن خلدون أن أسطول الأندلس « انتهى في أيامه إلى مائتي مركب أو نحوها »^(٢) ، وأمر عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) ، بانفاذ هذا الأسطول إلى مضيق جبل طارق لمنع عن ابن حفصون وصول الإمدادات من ساحل إفريقيا الشمالية ، إذ كان قد تحالف مع الفاطميين^(٣) ، وكان لأسطوله الفضل الأكبر في استيلائه على مليلة سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م) ، وعلى سبتة سنة ٣١٨ هـ (٩٣١ م)^(٤).

(١) نفس المرجع ص ١٤٥ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٧٨ .

(٣) أحمد مختار العبادي : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، مجلة معهد الدراسات

الإسلامية في مدريد المجلد الخامس ١٩٥٧ ص ٢٠٦ .

(٤) Lévi-Provençal, La política africana de Abd al-Rahman III, Al-Andalus, (٤)

vol. XI fasc. 2, 1946.

وفي عهد الحكم المستنصر ظهر المجوس (النورمان) على الساحل الشرقى للأندلس، وحاصروا حصن القبضة من حصون المرية، فاضطر الخليفة الحكم المستنصر إلى الذهاب بشخصه إلى المرية سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) ليتفقد الأعمال الدفاعية ويشرف عليها، ويعاين ما استكمله بها من الحصانة، ويشاهد رابطة القبضة^(١)، ويذكر ابن الخطيب أنه أنشأ « الأسطول لغزوهم فكان عدده ستمائة جفن من غزوى وغيره^(٢) » .

وذكر ابن عذارى أنه ورد كتاب على المستنصر بالله في أول رجب سنة ٣٥٥ هـ من مدينة قصر أبي دانس بالبرتغال « يذكر فيه ظهور أسطول المجوس ببحر الغرب بقرب هذا المكان ، واضطراب أهل ذلك الساحل كله لذلك ، لتقدم عاداتهم بطروق الأندلس من قبله فيما سلف ، وكانوا في ثمانية وعشرين مركباً ، ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل بأنخبارهم ، وأنهم قد أضروا بها ووصلوا إلى بسط أشبونة ، فخرج إليهم المسلمون ، ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين ، وقتل فيها من الكافرين ، وخرج أسطول إشبيلية، فاقتحموا عليهم بوادى شلب، وحطموا عدة من مراكبهم، واستنقذوا من كان فيها من المسلمين ، وقتلوا جملة من المشركين ، وانهزموا أثر ذلك خاسرين ، ولم تزل أخبار المجوس تصل إلى قرطبة في كل وقت من سواحل الغرب إلى أن صرفهم الله تعالى^(٣) . ثم عاد النورمان لغزو سواحل الأندلس الغربية في رمضان سنة ٢٦٠ هـ في عهد الحكم المستنصر ، « فأزعج السلطان قائد البحر بالخروج إلى المرية والتأهب لركوب الأسطول منها إلى إشبيلية وجمع الأساطيل كلها للركوب إلى ناحية الغرب^(٤) » .

أما الخطر الثانى الذى كان يهدد دولة بنى أمية بالأندلس فهو خطر الفاطميين المقيمين ببلاد المغرب . والواقع أن الفاطميين منذ تأسيسهم للدولة الفاطمية كانوا يهدفون إلى غزو الأندلس لجعل المغرب الإسلامى كله خاضعاً للتشيع الفاطمى ،

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٢ ، عبد العزيز سالم ، المرية قاعدة ، مجلة الرابطة العدد ٨ ، ٩ ص ٧٧ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٦٠ .

« وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين : قسم شرقي تابع للخلافة العباسية البنية، وقسم غربي تابع للخلافة الفاطمية الشيعية^(١) . فأرسل خلفاؤهم العيون إلى الأندلس لكشف عوراتها والتجسس على أحوالها أمثال أبو اليسر الرياضي * وابن هارون البغدادي وابن حوقل النصيبي^(٢) . وقد لعب هؤلاء الجواسيس المشاركة في الأندلس دوراً هاماً في الدعاية للفاطميين في الأندلس، في نفس الوقت الذي أفادوا فيه خلفاء الفاطميين بمعلوماتهم عن أوضاع الأندلس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ولقد دخل هؤلاء الجواسيس الأندلس متسترين، أما بغرض العلم كابن هارون أوبالتجارة كابن حوقل . . . ونجح الفاطميون في اجتذاب أنصار لهم من الأندلس أمثال ابن أبي المنظور قاضي اسماعيل المنصور، ثالث أئمة الفاطميين، وابن هاني الشاعر الذي التحق بخدمة المعز . لذلك عمد عبد الرحمن بن محمد إلى محاربة الفاطميين بالطرق الآتية :

أولاً : تلقب باللقاب الخلافة في ٢٨ ذى القعدة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨) م ليوطد مركزه في داخل الأندلس وخارجه وتفرض هيئته في النفوس وأصدر منشوراً وزعه عماله في النواحي المختلفة^(٣) .

ثانياً : بث بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب، فانضم إليه بنو إدريس أمراء العدو، وملوك زناتة، فوالاه موسى بن أبي العافية صاحب المغرب، وأمدّه عبد الرحمن بالخلع والأموال، فظهر أمر موسى، واجتمع له أنصار كثيرون من البربر فتغلب على مدينة جراوة .

واستولى عبد الرحمن الناصر على معبري الأندلس سنة ٩٣١ م، ووطنجة سنة ٩٢٧ م، ومليلة في هذه السنة نفسها، واستطاع بذلك السيطرة على الملاحية في مضيق جبل طارق. واهتم عبد الرحمن بتحسين سبته، فبنى سورها بالحجر الكلدان^(٤) وأثبت أسطولاً بقيادة أحمد بن محمد بن الياس، ويونس بن سعيد، قائدیه في البحر

(١) مختار العبادي، سياسة الفاطميين ص ٢٠٥ .

(٢) محمود علي مكى، التشيع في الأندلس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطبعة المجلد الثاني ١٩٥٤ ص ١١٢ - ١١٥ .

(٣) راجع نص هذا المنشور في نهاية هذا الفصل .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠٧ .

في جملة مراكب وعدد كبير من البحريين والمقاتلين فجازا مرسى الجزيرة واحتلوا العدو وحاصروا محمد بن أبي العيش بن عمر بن إدريس ، وسجح قاسم بن محمد قائد عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٣ هـ في إخضاع بقايا الأدارسة ، وعقد الناصر الأمان لأبي العيش بن عمر الذي أرسل رسله الأدارسة إلى قرطبة .

وعمل الناصر على توطيد علاقته ببعض الدويلات المغربية حتى ما كان يخالفها في الناحية المذهبية كدولة بني رستم الخارجية في تاهرت^(١) وتشجيع الثائرين على الخليفة الفاطمي أمثال أبي يزيد محمد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار .

ثالثاً : أنشأ عبد الرحمن الناصر أسطولاً قوياً نازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط ، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أي هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميون ، وحدث أن هاجم الأسطول الفاطمي بقيادة الحسن بن علي مدينة المرية ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) ، وأحرق السفن الراسية بالميناء . وسلب رجاله المدينة ، وأسروا عدداً كبيراً من سكان المرية ، فعمد غالب قائد أسطول عبد الرحمن الناصر إلى الرد على هذه الحملة ، فأغار في ستين سفينة على سواحل إفريقية سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) وبالذات على مرسى الخرز ودمر كل منطقة سوسة^(٢) .

رابعاً : وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين ، فتحالف مع ملك إيطاليا Hugues de Provence الذي كان يحنق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة ، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرجاع صقلية من أيدي الفاطميين^(٣) ثم وطد علاقته بالآخشيديين في مصر ، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب الشيعي ، من أمثال هؤلاء أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي^(٤) .

وهكذا أدت سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى انصراف الفاطميين عن فتح الأندلس إلى فتح مصر .

(١) محمود علي مكي . التشيع في الأندلس ص ٢١

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣١٨ Levi Provencal Histoire . t III p ١٥٨

(٣) Dozy Histoire des Musulmans d'Espagne . t II p ١٥٩

(٤) محمود علي مكي : التشيع في الأندلس ص ١٢٤ .

النصرانية في شمال إسبانيا

ما كان عبد الرحمن الناصر يتم توحيد الأندلس حتى اتجه إلى الممالك المسيحية بشمال إسبانيا، وكان خطر أردون الثاني، ليون (٩١٤ - ٩٢٤)، وشانجه الأول ملك نبرة قد ازداد زيادة ملحوظة منذ اعتلاء الناصر للإمارة، فقد حشد أردون الثاني جيوشه سنة ٩١٤ م، وقصد مدينة يابرة فدخلها عنوة، وقتل عدداً كبيراً من سكانها، واستشهد في هذه الموقعة حاكم المدينة مروان بن عبد الملك، وفي سنة ٩٣٥ هـ (٩١٧ م) التحمت جيوش المسلمين بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدة مع جيوش القشتالين في واقعة قرب شنت اشتين انهزم فيها المسلمون واستشهد القائد^(١)، وعندئذ أحس الناصر بتطور الموقف إلى جانب نصارى الشمال، فقام بنفسه سنة ٩٣٨ هـ (٩٢٠ م) على رأس جيش كبير واتجه إلى جليقية ونبرة، فهدم حصن قاشرومورث وما جاوره من حصون، وكان أردون الثاني ملك ليون، وشانجه ملك نبرة قد استنجدا بملوك المسيحية، فلما التقت الجيوش انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً. ولما مات أردون الثاني سنة ٩٢٤ م خلفه أخوه فلورية الثاني (٩٢٤ - ٩٢٥ م) الذي مات بعد عام واحد، فولى مكانه أخوه أذفونش الرابع المعروف في المدونات الإسبانية باسم الفونسو الراهب (٩٢٥ - ٩٣١ م) الذي تنازل لأخيه ردميرة الثاني (٩٣١ - ٩٥١ م). وكان ردميرة ملكاً شجاعاً شديد الصلابة استمرت الحرب بينه وبين عبد الرحمن الناصر دائرة عهداً طويلاً، وكان أهم الوقائع الشهيرة موقعة الخندق التي انهزم فيها الناصر هزيمة شنعاء سنة ٩٣٨ م (٣٢٧ هـ) قرب مدينة شنت ماركش، ومنذ هذه الهزيمة لم يعد الناصر يباشر الغزو بنفسه، وأخذ يحتاط في حروبه، وسجلت له الوقائع التالية بينه وبين جيوش ليون ونبرة انتصارات هائلة اكتسح بعدها هاتين الدولتين حتى أذعن له أعداؤه بالطاعة وهادنوه، وبعثوا إليه السفارات والهدايا طالبين الصلح،

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٢٥٥.

ففي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) قدم إليه بقرطبة رسول الملك أردون الثالث بن ردمير يطلب السلم فعقده له ، كما وفدت إليه الملكة طوطة إلى قرطبة سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) في رفقة حفيدها شانجة المعروف بسانشو السمين الذي عزله نبلاء ليون وقشتالة عن عرش نبرة وليون ولوا مكانه أردون الرابع .

وأكرم الناصر وفادة الملكة طوطة وحفيدها . وكان من نتائج هذه السفارة أن عقدت محالفة ، كسب الناصر من ورثها حصوناً من مملكة شانجة مقابل مؤازرته لشانجة ، وعمله على استرجاع العرش له بدلاً من أردون الرابع ، ونفذ الناصر وعده وأرسل جيشاً استطاع أن يعيد به شانجة إلى عرشه سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ هـ) . غير أن شانجة لم يف بوعوده للناصر ، فاضطر ابنه الحكم فيما بعد إلى محاربته .

وكان الناصر قد توفي سنة ٣٥٠ هـ (٩٦٢ م) وخلفه ابنه الحكم المستنصر الذي تابع سياسة أبيه إزاء نصارى الشمال فعمل على الوقوف أمام سياستهم التوسعية . كان أردون الرابع المنافس القديم لشانجة قد التجأ إلى برغش ، وفي هذه الأثناء هاجم البشكنس فردلند قومس قشتالة وأسروه . وكان شانجة قد وعد الناصر أن يتنازل له عن عشرة حصون من مملكته نظير تأييده له ولكنه نكث بعهده له .

كذلك أفرج غرسية ملك بنبلونة عن فردلند قومس قشتالة ، فانضم هذا الأخير إلى أردون الرابع ببرغش ، وأخذوا يغيرون على أراضي الإسلام في إسبانيا ، وأعد الحكم حملة كبرى للقضاء على أردون ، فخاف أردون ، على مصيره ، والتمس من الحكم أن يساعده على إعادته إلى عرشه الذي اغتصبه شانجة ، وقدم على الحكم في قرطبة ومثل بين يديه في مدينة الزهراء سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) ، فلما علم شانجة بذلك خاف على ملكه ، وبادر بإرسال سفارة إلى الخليفة ، ثم تراجع عن وعده للحكم من تسليم الحصون ، وتحالف مع قومس قشتالة فردلند ، فاضطر الحكم إلى الخروج بنفسه لمحاربته ، فخرج في صائفة سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٢ م) ونازل شنت اشتين دى غرماج الواقعة على نهر دويرة وافتتحها عنوة .

كذلك أرسل الحكم عامله على سرقسطة يحيى بن محمد التجيبي على رأس جيش لمحاربة غرسية ملك البشكنس ، وافتتحت جيوش المسلمين مدينة قلجورة على يدى غالب القائد . وعاود الحكم الكرة مرة أخرى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) وهاجم بلدة ألبه .

وهكذا كان للتفوق الحربى بلجيش الحكم أثره الكبير فى إعادة الأمن إلى ثغور الأندلس ، وحالفه الحظ بوفاة شانجة سنة ٩٦٦ م ، إذ سمى أحد نبلاء جليقية واسمه القومس جنتالو ، فخلفه ابنه ردميره الثالث (٩٦٦ - ٩٨٢ م) ، وكان لا يتجاوز من العمر خمس سنوات ، فتولت عمته البيرة الوصاية عليه . وكان لتولية هذا الملك الصغير العرش سبباً فى انتشار الفوضى ، وخروج كثير من الأمراء عليه . وانقسمت مملكة ليون إلى إمارات صغيرة ، وأخذ كل أمير من أمرائها يتوجه إلى قرطبة للاستعانة بخليفتها ضد خصومه ، وتوالت السفارات المسيحية على بلاط الحكم منذ عام ٩٦٦ م .

قرطبة حاضرة الخلافة

كان عصر عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر عصر ازدهار في جميع نواحي الحضارة الإسلامية في الأندلس ، وكانت مدينة قرطبة هي المركز الذي تركز فيه حضارة الأندلس باعتبارها أم المدن ومقر الفنون والآداب . ولا بد لنا ، لكي نصور عظمة هذه الحضارة من دراسة مدينة قرطبة ، من الناحية التاريخية والحضارية .

تقع مدينة قرطبة على سفح جبل العروس^(١) من جبال « سيرامورنيا » أو الجبال السوداء ، وتحتل سهلاً فسيحاً يقع بين هذه الجبال والوادي الكبير ، وفي هذا الوادي يزرع الزيتون ويختلف أنواع الثمار والأشجار ، فكان نهر قرطبة وفقاً لما جاء في المسهب للجماي ، « مكتنفاً بدياج المروج ، مطرزاً بالأزهار ، تصدح في جنباته الأطيوار وتنعر النواخير وييسم النوار »^(٢) . وتمتد عمارة قرطبة على الضفة اليمنى لهذا الوادي الذي ينحني في مجراه انحناءة طفيفة نحو الغرب مؤلفاً أهم طريق طبيعي في جنوبي إسبانيا^(٣) . وتعتمد قرطبة في ثروتها على الزراعة ، خاصة في سهلها الجنوبي المعروف بالكنتانية^(٤) أو القنبانية^(٥) ، وأهم محاصيلها الزراعية الزيتون الذي تقوم عليه كثير من الصناعات كاستخراج الزيت ، وزراعة الفواكه وعلى الأخص الرمان السفري^(٦) .

(١) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ص ٥٣ .

(٢) المقرئ ، تقع الطيب ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) Lévi-Provençal, l'Espagne Musulmane au Xe. siècle, p. 199.

(٤) الشريف الإدريسي : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره دوزي ودي غويه ، ليدن ١٨٦٦ .

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٦) المقرئ ج ٢ ص ١٥ .

كذلك تشتهر قرطبة بمعادنها الكثيرة وأهمها الفضة والزئبق^(١) وحجر الشاذلة^(٢) الذي يستخدم في التذهيب، كما كانت تكثر في جبالها مقاطع الرخام الأبيض الناصع، والحمري اللون^(٣).

ومدينة قرطبة التي ذاع اسمها في العصور الوسطى وأصبح يقرن بالقسطنطينية العظمى، مدينة قديمة البناء، لا نعلم أوليتها على وجه التحقيق، وإن كنا نرجح أصلها الأيبيري، بدليل التماثل البرنزىة الأيبيرية التي كشف عنها البحث الأثري في أرضها، بالإضافة إلى أن اسمها محرف من كوردوبا Corduba، وهو اسم أيبيري بحث يتشابه في مقاطعه مع أسماء بعض مدن أخرى ثبت أنها أيبيرية مثل سلدوبا Salduba^(٤) وهو الاسم القديم الذي كانت تعرف به مدينة سرقسطة قبل أن يعيد أغسطس قيصر بناءها فيما يقرب من عام ٢٣ ق.م، ويسميا قيصر أوجستا، الذي عرب بلوره إلى سرقسطة. وورد اسم قرطبة في الحرب البونية الثانية إبان الصراع بين رومة وقرطاجنة، ثم دخلت قرطبة سنة ٢٠٦ ق.م في فلك الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت منذ عام ١٦٩ ق.م عاصمة لإسبانيا الجنوبية أو المغلى المعروفة بباطقة. وازدهرت قرطبة في عصر الحاكم الروماني مركوس كلوديوس مرسيلوس الذي أمهرها بالأبنية الرائعة، والأسوار المنبئة التي اشتهرت بها العمارة الحربية الرومانية^(٥). واتسعت قرطبة منذ ذلك الحين وأصبحت تعرف باسم Colonia Patricia لضخامة عمرائها، وازدهارها بالأسرات الرومانية النبيلة.

ثم انقسمت إسبانيا الجنوبية في عهد أغسطس قيصر إلى إقليمين: لشدانية وباطقة، واتخذت قرطبة عاصمة لإقليم باطقة، وما لبثت أن أصبحت بعد أمد قصير أحد مراكز قضائية أربعة في إسبانيا الجنوبية هي قادس وإشبيلية واستجة وقرطبة^(٦). وعندما غزا الوندال والسواف والألان شبه جزيرة أيبيريا عام ٤٠٩ م، استولى الوندال على إقليم باطقة، وامتلكوا إشبيلية وجعلوها عاصمة

(١) المقرئ ج ١ ص ١٨٦. (٢) نفس المرجع ج ١ ص ١٢٨.

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٧.

Abbad Rios, Zaragoza, Barcelona, 1952. p. 5.

Rafael Castejón, guía de Cordoba, p. 13.

J. Guichot : Historia general de Andalucia, t. I. p. 166 — Levi-Provençal, (٦)

l'Espagne Musulmane, p. 201.

الإقليم . أما قرطبة فقد ظلت خاضعة للبيزنطيين حتى نجح ليوفيلد في الاستيلاء عليها سنة ٥٦٨ م وجعلها مركزاً أسقفياً^(١) ثم أخذت قرطبة تفقد شيئاً فشيئاً من أهميتها أمام طليطلة التي تفوقت عليها منذ أواخر القرن السابع حتى طليعة القرن الثامن الميلادي عندما افتتحها المسلمون سنة ٧١٢ م .

أصبحت قرطبة منذ استقر فيها أيوب بن حبيب اللخمى سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) داراً للإمارة ، واستعادت عظمتها القديمة التي سلبتها إياها طليطلة . وإلى واليها السمع ابن مالك الحولاني (١٠٠ - ١٠٢ هـ ؛ ٧١٩ - ٧٢١ م) يرجع الفضل في رفع قرطبة إلى مصاف الحواضر الكبرى ، فقد كان السور الروماني الذي يحيط بها قد تثلّم في بعض أجزائه ، وتفتحت العاصمة للداخلين إليها والخارجين منها ، كما كانت القنطرة التي تربط ربض شقندة بمدينة قرطبة ما تزال مهدمة حتى ذلك الوقت فكتب السمع إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستشير في ذلك الأمر ، ويخبره بأن « مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرا ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة ، فإن أمرني أمير المؤمنين ببناء سور المدينة فعلت ، فإن قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد ، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال والله أعلم أن عمر رحمه الله أمر ببناء القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن إذ لا يجد له صخوراً »^(٢) فبنى السمع قنطرة قرطبة ، واستخدم في بنائها الأحجار الضخمة المتخلفة من الأجزاء المهدمة من السور الروماني غربي المدينة . أما السور فلم يتهيأ للسمع أن يقوم ببنائه ، إذ استشهد عام ١٠٢ هـ في طرسونة . وظل سور قرطبة مهدماً حتى ولي الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فأعاد بناء السور باللبن سنة ٧٦٦ م على أساس السور الروماني القديم . وكانت القنطرة تنهى بيرج يعرف ببرج الأسد^(٣) ويسمى اليوم بالقلعة الحرة .

وتألفت قرطبة منذ أن اتخذها الأمير عبد الرحمن الداخل حاضرة له ولأبنائه من بعده ، وأصبحت في عهده مهد الحياة الرفيعة ومصدر الحضارة السامية وموطن

(١) Ramirez de Arellano : Historia de Cordoba, t. I, pp. 184-185.

(٢) أخبار مجموعة ص ٢٤ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٢٠

الفلاسفة والشعراء ومركز الفنون والآداب . وكانت أكثر مدن أوروبا سكاناً ، فقد بلغت في عهد الخلافة الأموية تطوراً عمرانياً لا مثيل له في دول الغرب المعاصرة التي كانت تزرع في ظلمات الجهل والانحطاط ، وبلغ عدد سكان قرطبة في أزهى عصورها (في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر) نحو نصف مليون نسمة وفقاً للأحصائيات التي قام بها المستشرقون^(١) .

وبلغت قرطبة على الأخص في عهد الخليفة الحكم المستنصر مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل . وقد وصفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم أبدع وصف ، وأشادوا بعظمتها وتفوقها على سائر مدن الأندلس ، فيقول الحجاري في المسهب : « كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ، واجتمع أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وبها تمحضت خلاصة القبائل المعدية والبيانية ، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ، ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنف بدياج المروج ، مطرز بالأزهار ، تصدح في جنباته الأطيار ، وتنعر النواير ويسم النوار ، وقرطابها الزاهرة والزهرء ، حاضرتا الملك وافقاه النعماء والسراء ، وإن كان قد أخنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلك أعادته ، وسل الخورنق والسدير وغمدان^(٢) » . وقال الحجاري في موضع آخر : « حضرت قرطبة منذ افتتحت الجزيرة ، هي كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقرارة أولي الفضل والتقى ، ووطن أولي العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الإمام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبرز القوم حديثاً وقديماً على من سواها أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب^(٣) » . وكانت قرطبة وفقاً لما ذكره ابن سعيد أكثر بلاد الأندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب^(٤) . وهكذا أغرم أهل قرطبة باقتناء

(١) Torres Balbás : Extension y demografia de les ciudades hispano Musulmanas,

Studia Islamica, vol. III 1955, p. 53

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, éd. Lévi-Provençal, Leyde, 1932.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٤٦ . (٣) نفس المرجع ج ٢ ص ١٠ .

(٤) نفس المرجع ج ٢ ص ١١ .

الكتب حتى كانت الكتب من أروج متاجرها فقيل : « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية^(١) » . وذكر ابن غالب الأندلسي في فرحة الأتفس نقلا عن أحمد الرازي أن « قرطبة قاعدة الأندلس وأم المدائن ، وقرار الخلافة ، ودار الملك ، تجي إليها ثمرات كل جهة ، وخيرات كل ناجية ، واسطة من الكور ، وموفية على شاطئ النهر ، مشرفة رائقة موقفة ، نهرها ساكن في جريه ، لين في انصبابه ، بقلتها بطاح سهلة ، ويجوفها الجبل المنيف المسمى بالعروس ، المغروس بالكروم وسائر الأشجار وأنواع الأزهار^(٢) » .

وقد بلغت قرطبة من العمران والتمصير زمن الخلافة غاية ما بلغته ، ويذكر المقرئ نقلا عن بعض المؤرخين أن دور قرطبة بلغت في عهد ابن أبي عامر ٢١٣٠٧٧ داراً للعامة و ٦٣٠٠ داراً للأكابر والوزراء والكتاب والأجناد بالإضافة إلى مصارى الكراء والحمامات والخانات ، وبلغ عدد حوائط قرطبة ٨٠٥٥٥ حائوتاً ، وبلغ عدد حماماتها ٩١١ حماماً ، وقيل ٧٠٠ حمام ، وعدد مساجدها ٣٨٧٧ مسجداً^(٣) ، وقيل ١٨٣٦ مسجداً^(٤) ظلت قرطبة في ازدهار حتى سقطت الخلافة الأموية وتركت بعدئذ لمصيرها التعس ، ودخلها البربر عام ١٠١٠ م مع سليمان المستعين الأموي حين استولى عليها في بداية عهده الذي افتتحه بالقهر وسفك الدماء ، فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة هدموا آثارها ، وسلبوا محاسنها ، ومحووا كثيراً من رسومها ، وتتابعت عليها المحن والفتن حتى كانت أيام الإدريسي فوصفها قائلاً : « . . . وبعد ذلك طحنها النوايب ، واعتورتها المصائب وتوالت عليها الشدائد والأحداث ، فلم يبق من أهلها إلا البشر اليسير على كبر اسمها وضخامة حالها . . . »^(٥) ومنذ ذلك الحين انطفأت شعلة تفوقها وتخلت عن مكانتها السامية لمدينة إشبيلية .

(١) نفس المرجع ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) ابن غالب : فرحة الأتفس في تاريخ الأندلس ، نشره لطفى عبد البديع ١٩٥٦ ص ٢٧ ، ٢٦ .

(٣) فتح الطيب ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ .

(٤) ابن غالب ص ٢٧ .

(٥) الإدريسي ص ٢١٢ - الحيرى ص ١٥٨ .

وتوالت عليها المصائب، وهزت كيائها العواصف في العهود التالية ومع ذلك استطاعت أن تحتفظ ببعض عظمها وتفوقها في المجال الفني والصناعي والأدبي. حتى فتحها فرناندو الثالث في ٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦ م، ففي المجال الفني كان جامع قرطبة مركزاً للحج في الأندلس، يقد إليه المسلمون أيام الموحدين لزيارته والتبرك ببقعته والاحتفال فيه بليلة القدر، وليس أدل على ذلك من قول ابن صاحب الصلاة الولبي: «... وإني شخصت إلى حضرة قرطبة حرسها الله تعالى منشرح الصدر، لحضور ليلة القدر، والجامع قدس الله تعالى ببقعته ومكانه، وثبت أساسه وأركانها: قد كسى بيردة الازدهاء، وجلى في معرض البهاء، كأن شرفاته قلوب في سنان أو أشرف في أسنان...»^(١). وفي المجال الصناعي ظلت مدرستها في الحفر على الخشب مزدهرة في عصر الموحدين بدليل أن الخليفة الموحدي أمر صناعها بصناعة وزخرفة منبر جامع الكتبية بمراكش.

وفي المجال الأدبي نبغ من رجالها في الشعر أبو عبد الله محمد بن مسعود القرطبي في المائة الخامسة، وأبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي القرطبي، وأحمد بن مسعود بن محمد الخزرجي القرطبي، في المائة السابعة، كما اشتهر من شعرائها أبو الحسن علي بن يوسف بن خروف القرطبي في عهد الموحدين، وأبو جعفر أحمد بن شطرية القرطبي، واشتهر من قضائها أبو الوليد أحمد بن رشد المتوفى سنة ٥٦٣ هـ^(٢).

فلما عثر جدها، وخوى نجمها، وضعف أمر الإسلام، واختلقت بالجزيرة كلمته، تغلب عليها النصاري، فهاجمتها جيوش قشتالة في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ (٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦ م)، وأثار سقوطها في أيدي المسيحيين الحزن والهلوع في نفس المسلمين، وتحطمت أعواد إسبانيا الإسلامية بعد هذه الصدمة الكبرى، وتحول جامع قرطبة بعد استيلاء النصاري الإسبان عليها إلى كنيسة كبرى، وهجر المدينة عدد كبير من سكانها المسلمين، فاستبدل فرناندو بهم سكاناً آخرين من قشتالة وليون وقطالونيا وغيرها من أقاليم إسبانيا المسيحية^(٣). ومع أن إعادة تعمير قرطبة بعد

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٩٠.

(٢) ابن سديد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوق ضيف.

(٣) قال المؤرخ الإشبيلي دي ثونيجا عند سقوطها: «سقطت مدينة =

سقوطها بالعناصر الإسبانية الجديدة قد أزال كثيراً من مظهرها القديم، وأن التقاليد القشتالية التي حملها الغالبون معهم قد غيرت كثيراً من مظهرها العمراني، فإن قرطبة ظلت مدينة خلافة الطابع، ولم يتمكن الفن القوطي الذي أدخلوه في الأندلس أن يتغلغل في فنونها، بل إنه لم يقو هو نفسه على التخلص من تأثيرات الفن القرطبي، فإن لكنيسة سان ميغل التي بنيت في عهد سان فرناندو وفق الأسلوب الانتقالى بين الرومانى والقوطى باب أسلوبه يخضع للأسلوب الخلافي^(١) كذلك اتخذت قبة المقصورة الملكية بالمسجد الجامع على طراز قباب المسجد الجامع بقرطبة^(٢).

كانت قرطبة في القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى تنقسم إلى جانبين كبيرين: جانب شرقى كان يعرف بالشرقية، وما زال يطلق عليه حتى اليوم اسم Ajarquia، وجانب غربى^(٣)، وهو نفس التقسيم الرومانى القديم الذى ذكرناه من قبل. ويغلب على الظن أن المدينة عند اتساعها في القرن العاشر الميلادى تجاوزت نطاقها القديم جنوباً في الضفة اليسرى من نهر الوادى الكبير، وشرقاً فيما وراء باب عبد الجبار أو باب رومية. وكانت المدينة تشتمل على المسجد الجامع والقيسارية والفنادق والحمامات والأسواق وقصر الإمارة، ولذلك كانت تعتبر مركزاً للحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية. وكانت تنقسم إلى أحياء تعرف بالحومات منها حومة باب الفرج، وحومة الرقاقين قرب باب إشبيلية أو العطارين^(٤)، وحومة النجارين، وحومة عين فرقد^(٥) شرق قرطبة، وحومة غدير بنى ثعلبة^(٦)، وحير الزجالى خارج باب اليهود^(٧)، وكان من أبدع المواضع وأجملها.

= قرطبة وأكثرها عظمة بمد رومة والقسطنطينية وإشبيلية =

De Zuniga : Anales Ecclesiasticas y seculares, Madrid 1796 t. I, p. 131.

Torres Balbás : Ars Hispaniae, t. IV, p. 292. (١)

Torres Balbás, Ars Hispaniae, t. IV, p. 268. (٢)

Torres Balbás, La Medina, los Arrabales y los barrios, Al-Andalus, 1952, (٣)

fasc. I, p. 154 — Lévi-Provençal : Las ciudades y las instituciones urbanas, Tetuan, 1950, p. 17.

(٤) ابن بشكوال: كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ج ٢، مدريد، ١٨٨٣، ص ٧٣

(٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٨٨ .

(٦) نفس المرجع : ص ٢٥٤ .

(٧) الفتح بن خاقان : قلائد العتيان طبعة مصر ١٣٢٠ هـ . ص ١٥٩، نفح الطيب ج ٢ ص ١٦١ .

ويذكر ابن بشكوال أن عدد أرباض قرطبة أي ضواحيها عند انتهائها في التوسع والعمارة بلغ أحد وعشرين ريضاً : فالمدينة القبلية بعدوة النهر بها ربيض شقندة وربض منية عجب ، وأما الغربية فتسعة : ربيض حوائيت الريحان وربض الرقاقين ، وربض مسجد الكهف ، وربض بلاط مغيث ، وربض مسجد الشفاء ، وربض حمام الإلبيري ، وربض مسجد السرور ، وربض مسجد الروضة ، وربض السجن القديم . وأما الشمالية فتلاثة : ربيض باب اليهود ، وربض مسجد أم سلمة ، وربض الرصافة . وأما الشرقية فسبعة : ربيض شبلا^(١) وربض فرن بريل ، وربض البرج ، وربض منية عبد الله ، وربض منية المغيرة ، وربض الزاهرة ، وربض المدينة العتيقة .

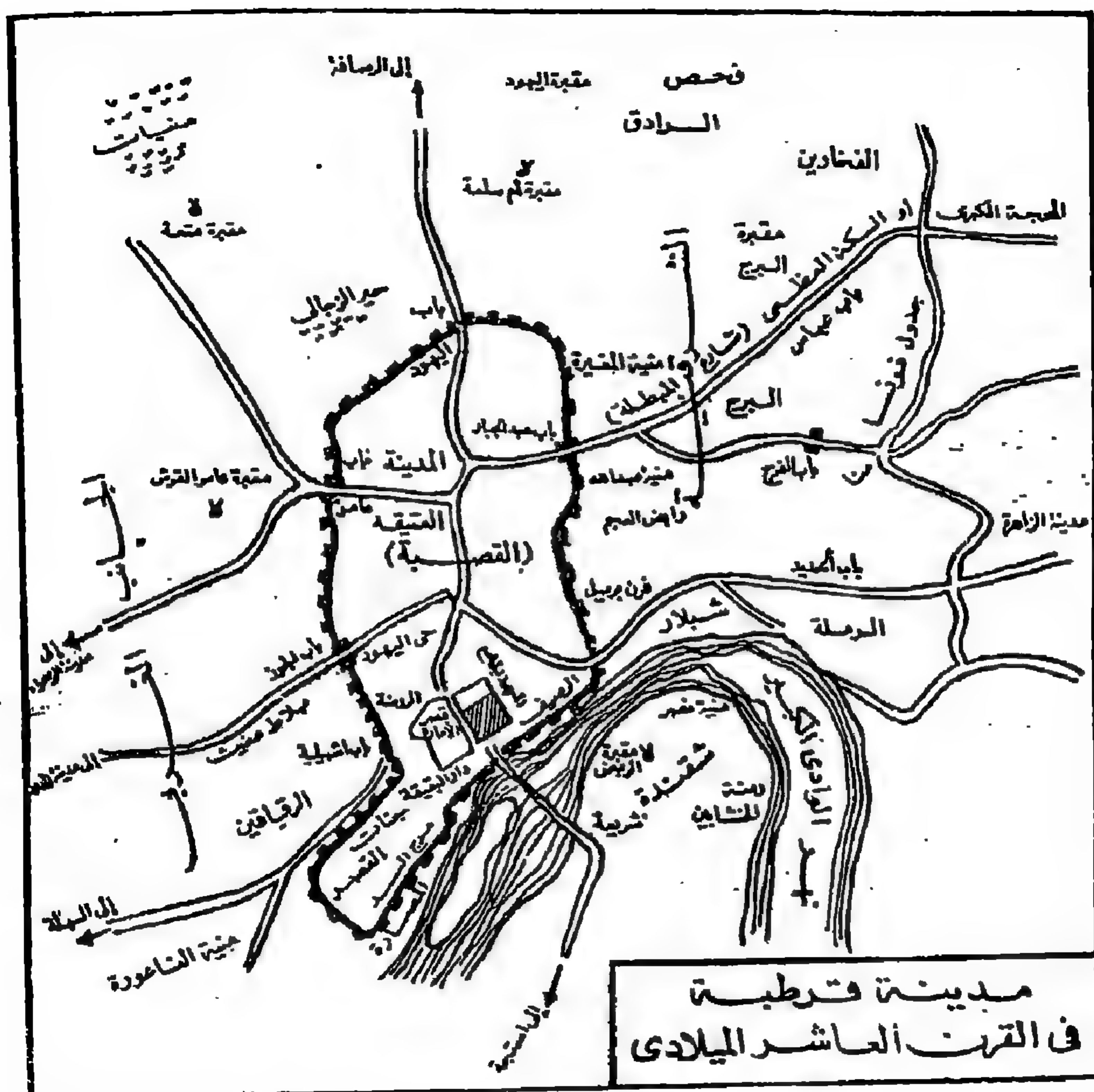
ونلاحظ أن بعض هذه الأرباض المحيطة بالمدينة الوسطى التي كانت تعرف بالقصبة كانت تبعد عنها كثيراً كريض الزاهرة وربض الرصافة وهما اسمان لقصرين ، كما أن كثيراً من هذه الأرباض كان يقع على امتداد نهر الوادي الكبير حيث كانت تقام المنيات والقصور ، فكان ربيض الروضة وربض الرصافة وربض منية عجب التي أقامتها السيدة عجب زوجة الحكم الربضي جنوبي قرطبة . وقد اختفت كل هذه الأرباض في وقتنا الحاضر وحلت محلها حدائق وبساتين ، ولكن أسماءها تثبت إثباتاً قاطعاً على أن اتساع مدينة قرطبة نحو الغرب بدأ منذ القرن التاسع في عهد الأمير الحكم الربضي وعبد الرحمن الأوسط^(٢) .

كذلك نلاحظ أن ربضين من أرباض الجانب الغربي للمدينة يتسميان بأسماء مساجد قامت بإنشائها إما جاريات أو فتيان لأمراء بني أمية . أحدهما مسجد الشفاء^١ ، وشفاء هذه هي أم ولد وجارية الأمير عبد الرحمن الأوسط ، والآخر مسجد مسرور أحد فتيانه الصقالبة ، وقد زود هذا الجانب الغربي من قرطبة بمساجد أخرى أقامتها جاريات للأمراء الأمويين مثل مسجد عجب ومسجد متعة ومسجد طروب .

(١) تسمية لاتينية وتعني الأرض الرملية Sablonneuse ، وهي منطقة تعرف اليوم باسم الرملة ، وقد ورد اسم شبلا^١ في كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ص ١٦٦ .

(٢) Torres Balbas; Los contornos de las ciudades hispanomusulmanas, Al-Andalus, (٢)

vol. XV, fasc. I, p. 450 — Lévi-Provençal : l'Espagne Musulmane, p. 203 — Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Mus. t. III, p. 376.



ويذكر ابن بشكوال أن هذه الأرباض جميعاً لم تكن محاطة بالأسوار ، فلما كانت أيام الفتنة وهو العهد المضطرب الذي تبع سقوط الخلافة حفر حولها خندق يدور بها جميعاً كما أقيم حولها سور مانع^(١).

وذكر ابن غالب أنه يدور بجميع أرباض قرطبة ومساكنها خندق مشهور لم تقدر أمة من الأمم على عمل مثله^(٢).

ولقد أجمعت المصادر العربية على أن الجزء الأوسط من قرطبة يتفق وموقع العاصمة القديمة (المدينة العتيقة) للإقليم الروماني المعروف باسم باطقة، وهي مدينة قرطبة ذاتها أو القصبة أو المدينة الوسطى وفقاً لتسمية الإدريسي^(٣)، باعتبارها واقعة وسط خمسة مدن أخرى . وكان يحيط بهذه المدينة في جميع العصور سور من الحجر الجيري ، وقد ذكرنا فيما سبق كيف تهدم هذا السور من جانبه الغربي عند الفتح الإسلامي وظل كذلك على هذه الحالة السيئة حتى شرع السمع بن مالك الخولاني في ترميمه ، ولكنه استشهد قبل إتمامه ، فأتمه عبد الرحمن الداخل عام ٧٧٦ م ، وظل هذا السور القرطبي موضع رعاية الأمراء والخلفاء حتى عصر الموحدين ، فاهتم خلفاؤهم بتجديده ، وأقاموا له « حزاماً برانياً » أو سوراً أمامياً ، مبالغة منهم في إحكام الدفاع عن قرطبة ، ولم يتبق من هذا السور إلا أجزاء متناثرة يسيرة . ومع ذلك فقد تبقى من السور الروماني قطاع يمتد على جانبي باب إشبيلية ، بل إن باب إشبيلية هذا يعتبر من أبواب قرطبة في العصر الروماني^(٤) . أو عصر القوط الغربيين^(٥).

وكان سور مدينة قرطبة الوسطى على شكل متوازي الأضلاع لا يتجاوز محيطه أربعة كيلو مترات ، وهو ما يتفق وتقدير ابن حوقل الذي يقول : « ودرت بقرطبة في غير يوم في قدر ساعة^(٦) » .

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٤ .

(٢) ابن غالب ص ٢٧ .

(٣) الإدريسي ص ٢٠٨ - ٢١٢ - الحميري ص ١٥٣ .

(٤) Gomez Moreno : Ars Hispaniac, t. III, p. ١٢ .

(٥) E. Camps Cazorla : Módulo, Proporciones y Composicion en la arquitectura

Califal Cordobesa, ١٩٥٣ Madrid, pp. ٢٢, ٦٨.

(٦) انظر المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٩ .

ويجمع مؤرخو العرب على أن عدد أبواب مدينة قرطبة سبعة أبواب^(١) أهمها : الباب الجنوبي المعروف بباب القنطرة ، لأنه يؤدي إلى قنطرة قرطبة المقامة فوق الوادي الكبير ، وكان يسمى لذلك أيضاً باب الوادي ، كما أطلق عليه كذلك اسم ثالث هو باب الجزيرة ، لاتجاهه نحو هذه المدينة ، أو باب الصورة^(٢) ، بسبب تمثال كلاسيكي كان يقوم فوق عقد هذا الباب وينسبه المسلمون إلى العذراء مريم . ويؤكد ابن عذاري أن العذراء كانت صاحبة قرطبة^(٣) . وكان هذا الباب ينتهي بالرصيف الأعظم الممتد على طول الضفة الشمالية للنهر . وقد وصف الحميري هذا الرصيف فقال : « وتحت القنطرة يعترض الوادي برصيف مصنوع من الأحجار والعمد الجافية من الرخام^(٤) » .

وكان يفتح في السور الشرقي بابان : الجنوبي منهما وهو الباب بالحديد^(٥) ، يقع قرب النهر ويعرف هذا الباب أيضاً باسم باب سرقسطة^(٦) . أما الثاني فيعرف بباب عبد الجبار نسبة لعبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة الأموي مروان بن الحكم . ويقع هذا الباب شمالى هذا السور الشرقي ، وكان يطلق عليه كذلك اسم باب طليطلة بسبب اتجاهه إلى هذه المدينة ، وسمى كذلك بباب رومية نسبة للمحجة العظمى أو السكة العظمى *Via Augusta* ، وهو الطريق الروماني المرصوف الذي كان يبدأ من قادس وينتهي بأربونة ماراً بقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وطركونة . وفيه يقول الحميري : « وكانت المحجة العظمى عليها من باب نربونة إلى

(١) المقرئ نقلا عن ابن بشكوال : ج ٢ ص ١٣ ، ابن غالب ص ٢٧ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٤ ص ٥٩ .
(٢) أخبار مجموعة ص ١١ ، ٢١ .

Lévi-Provençal : L'Islam d'Occident, Paris, 1948, p. 69, Note 21.

(٣) يقول ابن عذاري « وهي العذراء صاحبة قرطبة التي وضع أقدم حكامها صورتها فوق باب مدينتها القبلى وهو باب القنطرة » انظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي الجزء الثالث طعة ليث بروفنسال ، باريس ١٩٢٠ ، ص ١٤ . ونلاحظ أن المسلمين احتلوا حذر الرومان إذ نصب الخليفة عبد الرحمن الناصر تمثال الزهراء فوق باب مدينة الزهراء (انظر المقرئ : تفح الطيب ج ٢ ص ٦٥) .

(٤) الحميري ص ١٥٨ .

(٥) يخلط المؤرخون بينه وبين باب آخر من أبواب أرباض قرطبة وهو باب الحديد . انظر

Ocana Jimenez; Las puertas de la Medina de Córdoba, Al-Andalus, vol. III, p. 146.

(٦) المقرئ ج ٢ ص ١٣ .

باب بيارة إلى باب قرطبة^(١) . وأشار إليه ابن بشكوال بقوله : « و باب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة و باب رومية ، وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قانس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونة إلى أربونة مارة في الأرض الكبيرة^(٢) » .

أما السور الشمالي فكان يفتح فيه باب يعرف بباب ليون أو باب طليطلة أو باب اليهود ، وقد استقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا باب الهدى ، ويشرف هذا الباب على حير الزجالي ، وفيه يقول أبو عامر بن شهيد :

لقد أطلعوا عند باب اليهود د بداراً إلى الحسن أن تكسفا

تراه اليهود على بابها أميراً فتحسبه يوسف^(٣)

وظل هذا الباب يعرف حتى سنة ١٩٠٣ باسم باب أوساريو Ossario نسبة إلى مقبرة كان يؤدي إليها تعرف في العصر الإسلامي باسم مقبرة أم سلمة ، ثم تحولت بعد سقوط قرطبة في أيدي النصارى الإسبان إلى جبانة اليهود^(٤) .

أما الجانب الغربي من السور فكان مزوداً بثلاثة أبواب :

واحد شمالي يعرف بباب عامر القرشي وينسب هذا الباب إلى عامر بن عمرو القرشي الذي لعب دوراً هاماً في حوادث القرن الثامن الميلادي ، وكانت له مقبرة خارج هذا الباب^(٥) ، فأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بفتح هذا الباب في شعبان ٣٠٢ هـ . (فبراير ٩١٦ م) لتيسير الذهاب إلى المقبرة المذكورة^(٦) .

والباب الثاني ويتوسط هذا السور الغربي فيعرف بباب الجوز أو باب بطليوس

(١) الحميري ص ٥٦ .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ١٣ .

(٣) المقرئ ج ١ ص ١٤٨ ، ج ٢ ص ١٦١ .

(٤) Lévi-Provençal : Histoire, t. III, p. 369 .

(٥) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ١٣ ، Lévi-Provençal : Histoire, t. III, p. 368 .

(٦) انظر Una Crònica Anònima de Abd Al-Rahman III, pub. par Lévi-Provençal

& Garcia Gomez, p. 51 .

يقول صاحب هذه المدونة : « وفيها أمر الناصر لدين الله بفتح باب عامر من أبواب مدينة قرطبة في شهر شعبان منها » ولقد سمي هذا الباب بعد الاسترداد باسم باب الجلالة de los Gallegos وتهدم في سنة

ولا شك أنه يتفق وموضع الباب الحالي المسمى بباب المدور Almodovar الذي أقيم على أساس الباب الخلافي^(١).

والباب الثالث والأخير ويقع جنوبي السور الغربي فيعرف باسم باب إشبيلية، وكان يسمى أيضاً بباب العطارين . ويتساءل الأستاذ ليثي بروثنسال : هل الباب الحالي المعروف بباب إشبيلية هو نفس باب إشبيلية في عصر الخلافة ؟ أو أن الباب الخلافي كان مفتوحاً بالقرب من الوادي الكبير^(٢) ؟

ولقد عمل الخليفة عبد الرحمن الناصر على تحصين أبواب مدينة قرطبة فابتنى لها أبواباً داخلية توازيها سنة ٣٠١ هـ، لتيسير الدفاع عنها، وإتاحة الفرصة للحراس لمضاعفة الحراسة . ويذكر صاحب مدونة أخبار عبد الرحمن الناصر التي نشرها ليثي بروثنسال وغرسية جومث « ولم يك قبله كذلك، فكان ذلك حسناً من اختراعه^(٣) » .

وكانت تتفرع من هذه الأبواب شوارع تؤلف في الداخل شبكة من الدروب والحارات . وقد ذكرنا فيما سبق أنه كان يشق قرطبة طريق عظيم سمته المصادر العربية باسم المحجة العظمى ، وكان هذا الطريق الأعظم يمتد من باب القنطرة شمالاً ماراً بين المسجد الجامع وقصر الإمارة ثم يتثنى شرقاً نحو باب عبد الجبار الذي ذكرناه فيما سبق ، ويخرج من هذا الباب ويتجه نحو الشمال الشرقي ويخرج من باب عباس^(٤) أحد الأبواب الثلاثة التي كانت تفتح في سور الربض الشرقي المعروف بالشرقية . أما البابان الآخران فهما باب الفرج وباب الحديد .

وكان يلتقي بهذا الطريق الأعظم طريقان أحدهما غربي يمتد من باب عامر ، والثاني شمالي يمتد من باب اليهود، بحيث يتألف من تقابل هذه الطرق الثلاثة شكل

(١) Rafael Castejon : Còrdoba Califal Boletin de la Acad. de Còrdoba. 1929, (١)

p. 274.

(٢) Lévi-Provençal : Histoire de l'Esp. Mus., t. III, p. 363.

(٣) Una Crònica Anònima, p. 48.

(٤) انظر ابن الأبار : كتاب التكلة لكتاب الصلة نشره جنثالث بلنسية ص ٥٦١

صليبي كان هو النظام الرئيسي في تخطيط المدن الرومانية. وكان يتفرع من هذه هذه الطرق الرئيسية شبكة من الدروب والحارات والأزقة ، ويذكر ابن القوطية درباً بقرطبة زمن عبد الرحمن الأوسط أسماء بدرب ابن شراحيل ، نسبة إلى محمد بن شراحيل المعافري قاضي قرطبة^(١) . ويذكر الحشني أن جده عمر بن شراحيل المعافري كان يعيش في قرطبة بدرب الفضل بن كامل الواقع قبلي مسجد أبي هيثم ، وذلك في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل^(٢) . ويذكر ابن الفرضي اسم دربين آخرين بقرطبة أحدهما اسمه درب أبي الأشهب^(٣) والآخر درب بني فطيس^(٤) . وكان يقوم بحراسة كل درب من هذه الدروب حارس يسمى درب على نحو ما كان متبعاً في المشرق^(٥) .

ويذكر ابن سعيد المغربي أن « بلاد الأندلس لها دروب بإغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق باث فيه ، له سراج معلق ، وكلب يسهر ، وسلاح معد ، وذلك لشطارة عامتها ، وكثرة شرهم ، وإعيائهم في أمور التلصص ، إلى أن يظهروا على المباني المشيدة ، ويفتحوا الأغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوفاً أن يقر عليهم ، أو يطالبهم بعد ذلك^(٦) » . ومن هذا النص نستنتج أهمية الدروب ودورها الكبير في حماية السكان ، فإن من يسكن الدرب لا يخرج إلا من منفذ واحد ، ومن هنا يسهل عليهم الدفاع عن أنفسهم . وما زالت أسماء بعض شوارع قرطبة تذكرنا بالتسميات العربية القديمة مثل شارع الزنيقة ، Anaizocas ، وشارع المونة ، Almona أي الصابون ، وشارع القيسرية Alcaicria ، وشارع الحياطين Alfayates ، وشارع المغرة (أي الحبر الأحمر) Almagra ، كما أن بعض دروب قرطبة في الوقت الحاضر ما زالت تحتفظ بأقواسها التي كانت تعلق منها المصابيح .

ذكرنا فيما سبق كيف كانت قرطبة مكتظة بالعمران ، وكانت دورها تربو على

(١) ابن القوطية القرطبي : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٥٨ .

(٢) الحشني : تاريخ قضاة قرطبة ، ط . مدريد ص ٤٠ ، ٥٥ .

(٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٨١ .

(٤) ابن الفرضي : نفس المرجع ج ٢ ص ٧٩ .

(٥) تقابل خطة الطواف بالليل في الأندلس خطة أصحاب أرباع في المشرق وهم الدرايون أو العيس .

(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٤ .

٢١٣٠٧٧ داراً، وهو رقم ضخم يدل على اتساع المدينة وعظم دورها . وكانت مراكز انتشار هذه الدور في قلب المدينة نفسها، أى حول المسجد الجامع والمساجد الأخرى المتفرقة في سائر أنحاء المدينة .

أما القصور فقد كانت تقام عادة في الأرباض خارج المدينة، فيما عدا قصر الإمارة، وكان فيه البدائع الحسان والرياض الأنيقة ، وأجرى فيه الأمراء المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة في قنوات الرصاص التي تصب في البحيرات البديعة، والصهاريج ، وأحواض الرخام العجيبة^(١)، ومن مجالسه قصر الكامل والحائر والروضة والزاهر، ومن أبوابه باب الجنان وباب السطح المشرف، يطلان على الرصيف الأعظم، وباب الوادي . وكان له باب رابع يسمى باب الجامع، وهو الباب الذي كان يدخل منه الأمراء يوم الجمعة إلى المسجد على الساباط^(٢) .

ومن قصور قرطبة التي شيدها بنو أمية في القرن التاسع والعاشر الميلادى قصر الرصافة الذي بناه عبد الرحمن الداخل لترهه وسكنه ، وسماه باسم رصافة جده هشام ابن عبد الملك . ومن قصور قرطبة الأموية قصر دمشق ، وقصر الزهراء ، وقصر الزاهرة ، والقصر الفارسي ، وقصر حبر الزجالي^(٣) .

ومن قصور قرطبة في عصر الموحدين قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن ، « وهو على متن النهر الأعظم تحمله أقواس وقيل للسيد : كيف كيف تأنقت في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة ؟ فقال : علمت أنهم لا يذكرون والياً بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية فأحببت أن يبقى لي في بلادهم أثر أذكر به على رغمهم »^(٤) . ولقد بقيت من جميع هذه القصور آثار قليلة تذكر بما وصله فن البناء والزخرفة في عصر الخلافة الأموية كآثار قصور الزهراء، وقصر الرصافة، كما تذكر أيضاً بوثاقة البناء، وضخامته، في عصر

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ١٢ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٢ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ ، ١٩ ، ١٦١ ، انظر كتابنا المساجد والقصور بالأندلس سلسلة اقرأ عدد ١٩٠ أكتوبر ١٩٥٨ .

(٤) نفح الطيب ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ .

الموحدين، كآثار قصر السيد أبي يحيى الموحدى على شرف الوادى الكبير الذى بناه المهندس الحاج يعيش الذى (١).

ولكى تكمل الصورة الاجتماعية لقرطبة لا بد لنا أن نتحدث قليلا عن المنشآت العامة مثل الحمامات التى تعد من أهم الأبنية الإسلامية . وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية الحمامات العامة فى الفصل الأول من هذا الكتاب . اشتهرت قرطبة بكثرة حماماتها العامة ، وذكر ابن حيان أن عدد هذه الحمامات القرطبية بلغ فى عهد ابن أبي عامر نحو تسعمائة حمام (٢) . وكان العدد الأعظم من هذه الحمامات يقع قرب المسجد حتى يسهل للمصلين الاستحمام والتوجه رأساً للصلاة . ولم يتبق من حمامات قرطبة سوى بقايا حمامين :

أحدهما يقع فى شارع الحمام Calle del bano ، والآخر فى شارع لاس كوميدياس Las Comedias ، وكلاهما بالقرب من المسجد الجامع ، ويتألف هذا الحمام الأخير من قاعة وسطى ، بها عقود مفرطحة ومتجاوزة تحملها عشرة أعمدة . وكانت تعلو هذه العقود قبوة لم يبق لها وجود اليوم بعد أن تحولت القاعة إلى صحن ، بينما تحتفظ الغرف المجاورة بقبواتها . وبهذا الحمام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخللها مضامى لإنفاذ الضوء سدت جميعها اليوم (٣) .

أما جامع قرطبة الذى اشتهرت به حاضرة الأندلس فيعد من الوجهة الفنية أعظم وأروع أمثلة العمارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، كما يعد من الوجهة العلمية أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها علوم الدين واللغة ويفد إليها طلاب المسلمين والمسيحيين على السواء للدرس والتحصيل . ولقد وصفه مؤرخو العرب وصفاً رائعاً ، وأبرزوا عمارته ، وصوروه بقدر ما أمكنته بلاغتهم التعبير عنه . وأروع ما قيل فى ذلك ما ذكره الحميرى نقلاً عن الشريف الإدريس فى نزهة المشتاق : « وفيها المسجد الجامع المشهور أمره الشائع ذكره من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة وإحكام صنعة ، وجمال هيئة ، وإتقان بنية . تهتم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه

(١) Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, p. 30.

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩٦ .

(٣) Rafael Castejon : Cordoba, p. 84.

زيادة بعد زيادة، وتتميماً إثر تميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان ، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف^(١) .

ومعنى هذا أن أمراء بني أمية أقاموا فيه زيادات متتالية حتى أصبح مسطحة يضم أبنية من عصور مختلفة، وصار بحق متحفاً للفن الأندلسي منذ عهد عبدالرحمن الداخل الذي قام بتأسيسه سنة ١٦٩ هـ (٧٧٥ م) ، إلى أن أتم الحاجب محمد بن أبي عامر بناء زيادته في ٣٧٧ هـ . ومن الأوصاف الرائعة للجامع قرطبة وصف إبراهيم ابن صاحب الصلاة الوليبي الذي زار جامع قرطبة في عصر الموحدين فوصفه بقوله : « . . . وإلى شخصت إلى حضرة قرطبة حرسها الله منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر ، والجامع قدس الله بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه ، قد كسى ببردة الازدهاء ، وجلّى في معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول في ستان ، أو أشرف في أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حلل ، وكأن الشمس خلقت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهراً قد أحرق به ليل ، كما أحرق بربوه سيل ، ليل دامس ، ونهار شامس ، وللذبال تألق كنضضة الحيات ، أو إشارة السبابات في التحيات . . . والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود ، وعرضت عليها عرض الجنود ، ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد ، ويستوى في هداية ضيائها الشقي والسعيد . . . »^(٢) .

وأروع ما جاء في وصفه الفقرة الخاصة بقباب الجامع ومحاربه ونصها : « وظهر القباب مؤللة وبطونها مهللة ، كأنها تيجاناً ، رصع فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس محاربها أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالحجرة مقرطق وبقوس قزح ممنطق ، وكان اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام » .

وكان شروع عبدالرحمن الداخل في بناء هذا الجامع عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م)

(١) الحيرى ص ١٥٣

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٩١٤

فأتمه في عام واحد^(١).

ولما تولى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الإمارة سنة ٢٠٦ هـ (٨٢٢ م)، أضاف إلى الجامع بلاطين جانبيين عام ٨٣٤ م، ثم مد بلاطات الجامع كلها جنوباً مسافة ٢٦ متراً، وذلك عام ٨٤٨ م. وسأيرت هذه الزيادة أسلوب المسجد الأول في البناء والزخرفة، ولم تشذ عنها إلا في زخرفة المساند الملفوفة. أما الزيادة الثالثة فتحت في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، إذ وسع فناء الجامع، وأقام له مثدنة، ضخمة من الحجر سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م). ولما كانت خلافة الحكم المستنصر تضاعف عدد سكان قرطبة، وضاقَت المدينة بمن وفد إليها من بربر العدو من زناتة، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الفقيرة، فاضطر الحكم إلى توسيع المسجد من جهة القبلة عام ٩٦١ م، وعهد إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلي بمهمة الإشراف على إحضار الأحجار من جبال قرطبة. وبهذه الزيادة كملت بحاسن الجامع، وصار في حد يقصر الوصف عنه، وفي ٩٨٧ م كانت الزيادة الأخيرة في جامع قرطبة على يد المنصور بن أبي عامر، وبها اكتملت لجامع قرطبة صورته الأخيرة. فلما سقطت قرطبة عام ١٢٣٦ م، تحول المسجد الجامع إلى كاتدرائية، وهدم جزء من إضافة عبد الرحمن الأوسط وإضافة المنصور عام ١٥٢٣ وأقيم مكانهما كنيسة وهي التي عبر عنها شارل كان بقوله: «لو كنت قد علمت بما وصل إليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم، لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان، وما هدمتموه فريد في العالم أجمع».

وكان بقرطبة سوى هذا الجامع مساجد أخرى ثانوية بلغ عددها وفقاً لما ذكره المؤرخون العرب نحو ٣٨٧٧ مسجداً، وقيل ١٦٠٠ مسجد^(٢)، ولم يتبق من جميع

(١) انظر ما كتب عن جامع قرطبة في مقالتي التالية:

- ١ - كتاب المساجد والقصور في الأندلس من سلسلة أقرأ عدد ١٩٠ (١٩٥٨).
- ب - أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا، المجلة العدد ١٤ ص ٧٣-٨٨.
- ج - دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ص ١٠٦-١١٠. وأرجع إلى ما كتبه الأستاذ الدكتور أحمد فكري عن جامع قرطبة في بحثيه الآتيين:

- ١ - العمارة في الأندلس، مقال في مجلة الكاتب المصري فبراير ١٩٤٦ ص ١٠٩-١١٧.
- ٢ - كتاب «مساجد القاهرة ومدارسها» الإسكندرية ١٩٦١ ص ٢٤٢-٢٤٨.

(٢) نفع الطيب ج ٢ ص ٧٩.

هذه المساجد اليوم سوى ثلاث مآذن، هي اليوم أبراج كنائس سان خوان وسانتا كلارا وسانت ياغو. ويغلب على الظن أنها ترجع جميعاً إلى عصر عبدالرحمن الأوسط الذي ذكر المؤرخون أنه أقام هو وجواريه عدداً كبيراً من المساجد في قرطبة والأندلس^(١). وقد قورنت تيجان الأعمدة بمئذنة سان خوان بتيجان أعمدة زيادة عبد الرحمن الأوسط في جامع قرطبة، فوجد أنها ترجع إلى مصنع واحد^(٢). كما قورنت المئذنة من الداخل بمئذنة جامع عمر بن عبدس بإشبيلية الذي بنى في عهده، فوجد أنها متشابهان للغاية، إذ أن بداخل المئذنتين درج حلزوني يدور حول دعيمة وسطى مربعة الشكل^(٣).

هذه عجالة سريعة لتاريخ قرطبة وذكر عمراتها في عصر بني أمية، وستناول آثارها بالتفصيل في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

الحركة العلمية في قرطبة في عصر بني أمية :

وإذا انتقلنا إلى الحركة العلمية في قرطبة في عصر بني أمية، وجدنا أنها نشطت نشاطاً لم تشهد قرطبة نظيراً له من قبل، حتى لقد أصبح اسم قرطبة في حد ذاته يقترن بالعلم والعلماء، وأولى الفضل والأدباء، وفي ذلك يقول الشاعر :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهاء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها
وإذا استعرضنا الناحية الدينية التي اتسمت بها قرطبة^(٤)، نجد أن المذهب

(١) ابن سعيد المغربي، المغرب في حل المغرب ص ٤٦.

(٢) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t. III, Madrid 1951.

(٣) Torres Balbás, La Primitiva Mezquita mayor de Sevilla, Al-Andalus, 1946,

p. 438.

(٤) يشير الحميري إلى أن أهل قرطبة « اشتهروا بسعة المذهب » (ص ١٥٣) والواقع أن أهل قرطبة كانوا أكثر سكان الأندلس تديناً وتقوى، ففي قرطبة ظهر دعاة المذهب المالكي، وبرز كثير من الفقهاء الذين كان لهم شأن بثورة الرِّبض المعروفة، وذكر الشقندي أنه سمع تعظيم أهل قرطبة للشريعة، وذكر أحد المؤرخين أنها مستقر السنة والجماعة وأنه نزلها جملة من التابعين وتابعي التابعين. وذكر ابن سعيد أن من محاسنها ظرف اللباس والتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة وتعظيم أهلها بجامعها الأعظم وكسر أواني الخمر حيثما وقع حين أحد من أهلها عليها (انظر المقرئ ج ٢ ص ١٠).

المالكي كان المذهب السائد فيها ويرجع الفضل في انتشاره وسيادته إلى شخصيتين كبيرتين : الأول شخصية زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشيطون .

والثانية شخصية يحيى بن يحيى الليثي ، وقد سبق أن تحدثنا عنهما . ويجانب هذا المذهب نجد أن المذهب الشافعي يتسرب إلى قرطبة ، على يد قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار وابنه محمد من بعده ، وكان قاسم هذا يؤمن بضرورة الرجوع إلى الاجتهاد في الفقه وذلك بدراسة القرآن والسنة ، والاستناد إلى الاجماع والقياس ، وقد قلده الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط منصباً هاماً إذ جعله كاتبه الخاص حتى يحنبه احتكاك فقهاء قرطبة به وهم أصحاب الرأي والتقليد ، وظل قائماً بوظيفته حتى توفي سنة ٢٧٧ هـ (٨٩٠ م) ، وكذلك فعل الأمير محمد عند ما وفد بقى بن مخلد إلى قرطبة قادماً من المشرق بعد رحلة طويلة ، جمع فيها من العلوم والروايات الكثيرة والاختلافات الفقهية ما أثار عليه فقهاء قرطبة المالكية ، الزاهدين في الحديث ، والمقصرين عن التوسع في المعرفة ، فحسدوه ووضعوا فيه القول القبيح ، حتى ألزموه البدعة ، وشثروه إلى العامة ، وتخطى كثير منهم برميته إلى الإلحاد والزندقة ، ونادوا بسفك دمه ، فأمنه الأمير ورفع شأنه وأدنى منزلته ، حتى توفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) . وإلى جانب المذهب الشافعي الذي انتشر بوجه خاص في أيام الخليفة الحكم المستنصر ، تسلل المذهب الظاهري إلى قرطبة ، وكان قد ظهر بادىء ذي بدء في العراق على يد داود بن علي (المتوفى سنة ٢٧٠ هـ) ، وقد اعتنق هذا المذهب عدد من مفكري الأندلس ، منهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي الذي « غلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري ، فكان منذر يؤثر مذهبه ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به في نفسه وذويه ^(١) .

ولكنه كان يقضي في أحكامه بمذهب مالك وأصحابه ، وهو المذهب الرسمي في الأندلس ، خشية أن يتعرض لغضب فقهاء المالكية عليه . وحمل لواء هذا المذهب بعد ذلك الفقيه أبو محمد بن حزم القرطبي ^(٢) ، ثم أبو الخطاب عمر بن

(١) المقرئ ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) كان ابن حزم في بداية أمره شافعي المذهب ثم انقلب إلى الظاهرية ، فوضع الكتب في هذا =

الحسن بن دحية الظاهري .

ولقد أنجبت قرطبة عدد كبيراً من العلماء في الفلسفة والطب والأدب ، ففي الفلسفة ظهر فيلسوف قرطبة الأول محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي (٢٦٩ - ٣١٩ هـ / ٨٨١ - ٩٣١ م) ، وهو الذي أحرقت كتبه ومصنفاته بأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر خارج باب جامع قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منازل الملحددين ، وكان مذهبه يجمع بين التصوف وبين الاعتزال ، ففي الاعتزال كان يقول بالاستطاعة والوعد والوعيد ورؤية الله ، وهي آراء تتفق مع آراء ابن حزم وسعيد الطليطلي والشهرزوري والشهرستاني ، وأما آراؤه الفلسفية فقد بناها على آراء لفيلون السكندري ، وأفلوطين نسبت لابن دوقليس Empédocle ، ومنها اجمع بين معاني صفات الله ، ومنها القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات فيما عدا الذات الإلهية^(١) . ومن تلاميذه الياس بن يوسف الطليطلي وتحليل بن عبد الملك^(٢) .

وفي الطب ظهر أحمد بن إياس القرطبي في عهد الأمير محمد ، وأبو عبد الله محمد بن عبدون العذري القرطبي ، وحسداى بن شبروط اليهودي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأبو القاسم الزهراوي في عهد الحكم المستنصر . وكان الزهراوي هذا معروفاً في إسبانيا المسيحية باسم Alsaharavius ، وقد ترجم جيراردودي كرىمونا كتابه Liber Servitoris ، وترجم جيلودي كاولياك كتابه عن الجراحة إلى اللاتينية تحت عنوان Chirurgia Parva سنة ١٤٧٩ م .

وفي الشعر نبغ الرمادي القرطبي وكان رقيقاً في شعره ، ومحمد بن يحيى القلقاط ، وأحمد بن محمد بن عبد ربه .

ولقد شجع أمراء بني أمية الثقافة والأدب واحتضنوا الشعراء والكتاب واهتموا

= المذهب وثبت عليه حتى مات ، وقد طعن فيه الفقهاء ، وشنعوا عليه ، وأقصاه الملوك ، وأبعدوه عن وطنه ، وذكروا أنه صنف نحو ٤٠ مجلد تشتمل على ثمانين ألف ورقة (انظر المرجع السابق ص ٢٨٣ وما يليها) .
(١) انظر جونثال بلثية ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ،
١٩٥٥ ص ٣٢٠ - ٤٨٦ .

(٢) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية ، بيروت ١٩٦٠ ص ٥٢ - ٥٨ .

باقتناء الكتب النادرة ، فلقد بعث الأمير عبد الرحمن الأوسط عباس بن قاصح الحريري إلى المشرق للبحث عن الكتب القديمة النادرة ، فأتى له بالسند هند وغيره ، ويعتبر عباس بن قاصح المذكور أول من أدخلها الأندلس ، وعرف أهلها بها ونظر هو فيها^(١) . غير أن الحركة الأدبية والثقافية لم تصل إلى ذروتها إلا في عصر الخليفة الحكم المستنصر . وكان أكثر الخلفاء حبا للكتب حتى قيل : إنه جمع من الكتب ما لا يحصى ولا يوصف كثرة ونفاة ، حتى قيل إنها أربعمائة ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ، وكان عالماً نبياً ، صافي السيرة سمع من قاسم بن إصبيغ ، وأحمد بن دحيم ، ومحمد بن عبد السلام الحشني ، وزكريا بن خطاب ، وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي ، باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضباقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد أثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته^(٢) . ويذكر ابن بشكوال أنه قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق ، مهما كان موضوع هذا الكتاب ، وكان يعتنى بكتابة نسب المؤلف ومولده وتاريخ وفاته ، ولذلك كان في معرفته برجال العلم والأدب والأخبار والأنساب أحوزياً نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله^(٣) . وكان الحكم محباً للعلماء ، مكرماً لهم ، فكان يبعث في استقدامهم من المشرق ويرحب بهم ويكرم مثواهم ويرفع منازلهم عنده ، ومن بين العلماء المشاركة الذين وفدوا إلى قرطبة أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي اللغوي ، صاحب كتاب « الأمل » واتفق أن وصل قرطبة في أيام الناصر (سنة ٣٣٠ هـ) ، فأمر الناصر ابنه الحكم باستقباله ، عند نزوله بالأندلس ، وباصطحابه معه إلى قرطبة ، تكريماً للقالي ، فسار معه نحو قرطبة في مركب جليل . واختص أبو علي القالي بالحكم المستنصر ، وباسمه طرز القالي كتاب الأمل ، وكان الحكم يعينه على التأليف بوسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام^(٤) . وكان قدوم القالي إلى قرطبة يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية ، فعنه تلقى الأندلسيون

(١) ابن سعيد المغربي ص ٤٥ . (٢) المقرئ ، تفح الطيب ج ١ ص ٢٧١ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٦ - المقرئ ج ١ ص ٣٦٢ .

واتخذوه حجة وإماماً ، ولم يكن لديهم قبله إلا ابن القوطية وثابت وابنه القاسم والزبيدي^(١) . وكان الحكم يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويزودهم بالأموال الطائلة لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه من قبل ، وبعث في طلب كتاب « الأغاني » إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ، ودفع إليه فيه ألف دينار ، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يصدر في بغداد ، وكذلك ألف له كتاباً في أنساب قومه بني أمية .

وقد فعل المستنصر ذلك أيضاً مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه المختصر ابن عبد الحكم^(٢) ، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر ، ومحمد بن يوسف الوراق الذي صنف له كتاباً ضخماً في مسالك إفريقية وممالكها ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج^(٣) .

وكان يعين هؤلاء الكتاب بالمال على كتابة مؤلفاتهم ، كما كان لا يتردد في مساعدتهم من الناحية العلمية بإعادتهم ما يحتاجون إليه من مصادر ، فقد أرسل إلى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب « تاريخ مصر والمغرب » كتاباً استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه فيما يختص بالأندلس^(٤) .

واعنى الحكم بهذه الكتب عناية فائقة ، فجمع في قصره الخذاق في النسخ ، والمهرة في الضبط ، والمحجدين لفن تجليد الكتب ، فاجتمعت له في قصره بقرطبة خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء بالله ، وكان عدد فهارس عناوين الكتب فقط أربعاً وأربعين فهرسة ، تشتمل كل فهرسة على عشرين ورقة^(٥) .

(١) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٤ .

(٢) المقرئ ج ١ ص ٣٧١ .

(٣) المقرئ ج ٢ ص ٤١٨ .

(٤) P. Melchor M. Antuña : La corte literaria de Alhaquém II en Cordoba, (٤)

el-Escorial, 1929, p. 42.

(٥) ابن سعيد المنزلي ، المغرب ص ١٨١ - المقرئ ص ٣٦٢ .

كان مصير هذه المكتبة الإحراق ، فقد قام المنصور بحرق ما كان في خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بمحض من العلماء أمثال الأصيلي وابن ذكوان والزبيدي وغيرهم ، وضاعت البقية الباقية من الكتب في غمار الفتنة .

كذلك اهتم الحكم بكتب الطب والعقاقير والتنجيم ، منذ أن أهدى الامبراطور البيزنطى أباه كتاب ديستوريدس فى النباتات والعقاقير ، وكتاب هيرسييس . وقد قام بترجمة هذا الكتاب للحكم قاضى النصارى بقرطبة وقاسم بن إصبيغ^(١) . أما قاضى النصارى المذكور فأغلب الظن أنه وليد بن حيزون الذى قام بدور الترجمان للملك أردون عند ما قدم إلى قرطبة لزيارة المستنصر بالله سنة ٣٥١ هـ^(٢) . ولا ينبغي أن نترك هذا الموضوع دون أن نشير إلى ما ذكره الرحالة ابن حوقل فى وصف قرطبة إذ يقول : « وهى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق^(٣) »

السفارات السياسية بين ملوك أوروبا وبين أمراء وخلفاء بنى أمية فى الأندلس : شهدت قرطبة فى أيام بنى أمية ازدهاراً لم تشهده من قبل ، واكتسبت شهرة عالمية فى هذا العصر ، فأصبحت مركزاً حضارياً هامة يقصده الطلاب والعلماء ، كما أصبحت مركزاً سياسياً مثاقفاً ، إذ أخذ ملوك أوروبا المسيحية وعلى الأخص إمبراطور بيزنطة وملوك إسبانيا المسيحية يتوددون إلى أمراء وخلفاء بنى أمية بالسفارات . وأولى السفارات البيزنطية التى قدمت إلى قرطبة سفارة من قبل الامبراطور توفلس Théophile برثاسة قراطيوس الرومى ، وذلك فى سنة ٢٢٥ هـ (٨٢٩ م) فى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط . وقد وردت تفاصيل هذه السفارة فى كتاب المقتبس لابن حيان ، وقد حمل رسول توفلس إلى عبد الرحمن هدية ورسالة يطلب منه فيها مواصلته ويرغب فى استرجاع الشام انتقاماً من المأمون والمعتصم اللذين هاجما بلاده ،

(١) الحميرى ، جذوة المقتبس ص ٢١٢ ، ويستبعد الدكتور إحسان عباس اشتراك قاسم بن إصبيغ فى ترجمة كتاب هيرسييس إذ توفى قاسم فى سنة ٣٤٠ هـ (انظر تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧) . والواقع أن قاسم هذا كان متصلاً بالأمير الحكم المستنصر منذ أن كان ولياً للمهد ، إذ اختصر له كتاب السنن لأبى داود وسماه « المجتبى » وذلك فى محرم سنة ٣٢٤ وجمعه باسم الحكم المستنصر (المرقى ج ٢ ص ٢٥٤) فلا نستبعد إذن أن يكون قد ترجم كتاب هيرسييس قبل أن يتولى الحكم الخلافة .

(٢) المرقى ج ١ ص ٣٦٦ وما يليه .

(٣) المرقى ج ٢ ص ٨ .

وقد عبر عنهما بأبني مراحيل وباردة^(١). وقد رد الأمير على هذه السفارة بسفارة أخرى وبعث مع سفيره إلى الإمبراطور هدية لطيفة ، كما بعث معه رسالة ناقش فيها ما جاء في رسالة الإمبراطور فقرة فقرة^(٢).

ثم كانت السفارة البيزنطية الثانية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، إذ وفد رسل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع في صفر سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) حاملة هدية رائعة إلى الخليفة العظيم. واحتفل الناصر لقدم الرسل كل الاحتفال ، وركبت العساكر في ذلك اليوم بالسلاح في أكمل شكة ، وزين القصر الخلاب بأنواع الزينة وصنوف الستور ، وعهد الخليفة إلى أحد قواده وهو يحيى بن محمد بن الليث باستقبالهم ومراقبتهم من الميناء إلى العاصمة . فلما اقترب موكب الرسل الروم من قرطبة ، خرج القواد للقائهم واستقبالهم في العدد والعدة ، كما تفعل الدول الكبرى المتحضرة في وقتنا الحاضر عند استقبال عظيم من العظماء ، واصطف القواد وتلقوهم قائداً بعد قائد ، ثم استقبلهم أخيراً الفتيان الكيران ياسر وتمام ، أعظم قواد الخليفة وأصحاب خلوته ، وذلك مبالغة في الاحتفال بهم ، ورافقهم إلى أحد قصور قرطبة التي اختيرت لمقامهم ، وهو منية الحكم بعدوة قرطبة ، في الربض ، وأحيط هذا القصر بالحراسة المشددة ، ومنع الناس من الاقتراب منه . ورتب الناصر لحجابه الرسل وخدمتهم ستة عشر رجلاً اختيروا من الموالى ووجوه الحشم . وكان الخليفة الناصر مقيماً وقتئذ بقصر الزهراء ، فلما مضى نحو شهر من تاريخ وفود هؤلاء الرسل وحان موعد مقابلته لهم ، رحل من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة ، وجلس لهم في ١١ ربيع الأول سنة ٣٣٨ هـ في بهو المجلس الزاهر الذي يعتبر أروع قاعات قصر الخلافة بقرطبة ، وكان مخصصاً للاستقبالات الرسمية ، وجلس إلى يمينه الحكم المستنصر ولي العهد ، ويليّه عبد الله فعبد العزيز فالأصبع فروان ، وجلس إلى يساره المنذر ثم عبد الحبار فسلیمان ، من أبناء الخليفة .

وتوزع الوزراء حسب مراتبهم إلى اليمين واليسار ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى وراءهم . وفرشت أبهاء القصر بعناق البسط وكراشم

(١) المقري ج ١ ص ٢٢٤ .

(٢) ليث بروفشال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ص ١٠١ .

الدرايك أى الأبطة وظللت أبواب القصر وحنياه وعقوده بظل الدياج ورفيع السور ، وهكذا ازدان القصر الحلافى أبهى زينة ، وبدت قاعة المجلس الزاهر متألقه بستر الدياج ، وبريق الثريات ، وسادها سكون يبعث على الرهبة والهيبة ، ووصل رسل الإمبراطور مبهورين ، حاثرين ، إلى باب القاعة بعد أن مروا بين صفوف القواد رافعين الأسلحة على شكل أقواس ، ثم اقربوا من الخليفة وقدموا له الهدية . وتفصيل ما حدث بعد ذلك موجود فى كتب التاريخ^(١) . وقد عاد الرسل إلى القسطنطينية ، وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة .

هذا مثل واحد للسفارات التى وفدت إلى قرطبة حاضرة الخلافة ، مهادنة للناصر ، أو مودة له ، وتوالت السفارات على قرطبة تتزلف إلى الخليفة الناصر ، ثم المستنصر من بعده ، وأهم هذه السفارات سفارات ملوك إسبانيا الذين كانوا يفدون إلى قرطبة تزلفاً إلى الخليفة أو رغبة فى إعادتهم إلى عروشهم أو طلباً لتجديد الصلح بينهم وبينه ، فمنها سفارة الملك أردون الرابع على الحكم المستنصر سنة ٣٥١ هـ ، وسفارة ملك قطلونية للحكم يسألانه تجديد الصلح ، وسفارة غرسية بن شانجة إلى الحكم لطلب الصلح معه ، ووفود أم لذريق بن بلاشك القومسى إلى الحكم .

لقد بلغت قرطبة حاضرة الخلافة درجة رفيعة من الحضارة ، وأخذت تشع تأثيراتها إلى سائر أنحاء الأندلس ، بل إلى مجالات بعيدة خارج الأندلس ، ويكنى لبيان ذلك أن نشير إلى تقدم أهل الأندلس فى العلوم المختلفة من فلك ورياضة وطب وكيمياء وأدب وفنون ، على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، مما كان له أكبر الأثر فى تفوق الأندلس على غيرها من الأقطار الأوربية المجاورة .

وينبغى أن نشير إلى فضل خلفاء قرطبة فى هذا التقدم الذى أحرزته الأندلس ، فمنها خرجت أولى المحاولات فى الطيران^(٢) ، ومنها خرج أوائل المكتشفين فيما وراء

(١) ارجع إلى نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٧ فيه وصف تفصيلي للهدية والمجلس وذكر للخطب التى ألقاها مثل الخليفة .

(٢) صاحب هذه المحارة عباس بن فرناس الذى احتال فى تطير جثمانه ، وكسا نفسه بالريش ، وبه له جناحين ، وطار فى الجومسات بعيدة (انظر مقال عن الحياة العلمية والأدبية فى الأندلس بكتاب الشعب عدد ٦٤ ص ١٩٦ .

بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) المعروف بالأوقيانوس أو البحر الأخضر للتأكد من وجود أرض تقع غربى هذا المحيط^(١) إذ كان الظن أن الساحل الغربى للأندلس هو آخر المعمور من الأرض وأن البحر المحيط لا أرض وراءه^(٢).

(١) أولى هذه المغامرات ما رواه الأندلسى فى نزعة المشتاق وقتله الحميرى فى البروض المطار ، خاصاً بجماعة المغرورين أو المخرورين الذين خرجوا من مدينة الأشبونة فى العصر الأموى وهم ثمانية أبناءهم ركبوا مركباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم ركبوا بحر الظلمات « ليرفلاً ما فيه وإلى أين انتهوا » (انظر الحميرى ص ١٦) فساروا فيه ١١ يوماً ثم اتجهوا جنوباً ووصلوا بعد ٢٣ يوماً إلى جزيرة سموها بجزيرة النعم ، تمتاز بكثرة أغنامها ووجود رجال شقر الوجوه شعورهم مبطلة . والمغامرة الثانية هى التى قام بها خشخاش من الأندلس ، « وكان من فتیان قرطبة فى جماعة من أحداثها فركبوا مراكب استعملوها ، ودخلوا هذا البحر ، وغابوا فيه مدة ، ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة » (انظر الحميرى ص ٢٨ وما يليها .) ويبدو أن خشخاش هذا من جماعة البحريين الذين أقاموا ببيجاة (انظر Lévi Provénçal Histoire I.p.354) .

ولا شك أن المغامرين فى كلتا المحاولتين وصلوا إلى جزر فى المحيط الأطلسى ، غير جزر الأزور القريبة من ساحل المغرب والمعروفة بالجزائر الخالدات .

(٢) المسعودى ، كتاب التنبيه والإشراف ، ط . ليدن ١٨٩٣ ص ٦٨ - الحميرى ص ١ ، ٢ ، ٢٨ . يقول الحميرى عن هذا البحر « ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ولا وقف منه بشر على خبر مصير عبوره وإطلاعه ، وتعاضم موجه وكثرة أمواجه ، وتسلب دوابه وهيجان رياحه . » .

ملحق

نص الكتاب الذى تلىقب فيه عبد الرحمن بن محمد بألقاب الخلافة

من كتاب : Una Cronica Anonima de Abd al-Rahman III al Nasir,
ed. par Lévi-Provençal y Emilio Garcia Gomez, Madrid-Granada
1950, p. 79.

« بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد : فإن أحق
من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، وليس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ،
فنحن ، للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على
أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أساد في الآفاق من ذكرنا ، وأعلى في
البلاد من أمرنا ، وأعلق من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم
بما أظلمهم من دولتنا — إن شاء الله ، فالحمد لله ، وليّ الإنعام بما أنعم به ، وأهل
الفضل بما تفضل علينا فيه — ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج
الكتب عنا وورودها علينا كذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا متحل له ،
ودخيل فيه ، ومنسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا أن التماذى على ترك الواجب لنا من
ذلك حق لنا أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه . فر الخطيب بموضعك أن يقول به ،
واجر مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله . »

الفصل السابع

بنو عامر وسقوط الخلافة بقرطبة

- (١) دولة المنصور بن أبي عامر
- (٢) عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور
- (٣) عبد الرحمن بن المنصور وسقوط دولة بني عامر
- (٤) الفتنة
- (٥) عهد سليمان المستعين والخرب الأهلية
- (٦) بنو حمود وسقوط الخلافة
- (٧) عوامل سقوط الخلافة

الفصل السابع

بنو عامر وسقوط الخلافة بقرطبة

١

دولة المنصور بن أبي عامر

لما توفي الحكم المستنصر بالله في ٤ صفر سنة ٣٦٦ هـ، ببيع ابنه وولي عهده هشام بالخلافة، وتلقب بالملوك بالله، وكان هشام صبيا لا يتجاوز عمره عشر سنوات فتمت مبايعته بقرطبة بفضل تدبير وزير أبيه محمد بن أبي عامر والحاجب جعفر ابن عثمان المصحفي، وغالب مولى الحكم وصاحب مدينة سالم، فقد قام هؤلاء بقتل المغيرة أخى الحكم المستنصر والمرشح للخلافة من بعده^(١) وتفصيل ذلك أنه لما مات الحكم بعد طول مرضه بالفالج، أخفى خادماه وفتياه فائق المعروف بالنظامي صاحب البرد والطرار، وجوذر صاحب الصاغة والبيازرة، خبر وفاته على وزيره جعفر وسائر أهل الدولة، واستظهرها بكتمان ذلك، وعزما على رد الأمر للمغيرة بن الناصر أخى الحكم ومبايعته خشية أن تؤول الخلافة لهشام بن الحكم لصغر سنه وإنكار الناس لتقدمه على أن يقر المغيرة ابن أخيه هشاماً على العهد من بعده، وبذلك يضمن هذان الفتيان بقاء السلطة في أيديهما باعتبارهما أكبر فتيان القصر ومدبري هذه الحطة^(٢). وكان جوذر يرى ضرورة قتل الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي حتى يتم تنصيب المغيرة، بينما كان فائق لا يرى هذا الرأي، لأنه لم يرض أن يفتح عهد المغيرة بسفك الدماء. فأرسلا يستقدمان جعفر بن عثمان، فقدم، ونعيا إليه الحكم، وعرضا عليه ما أجمعا عليه من الرأي، فوافقهما عليه، وخرج عنهما، واجتمع بأصحابه من أنصار هشام، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم، وقاسم بن محمد، ومحمد بن أبي عامر، واستدعى بني

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢) ابن عذاري : البيان ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

برزال إذ كانوا بطانته من سائر الجند ، واستحضر سائر قواد الأجناد الأحرار ، فاجتمع له من هذه الطوائف ما شد أزره وقوى أمره ، فنعى لهم الخليفة وأبلغهم ما دبره الصقالبة من نكث يبعة هشام وتنصيب المغيرة ، ثم اتفق معهم على قتل المغيرة ، ولكنهم جبنوا عن ذلك ، فتطوع ابن أبي عامر بقتل المغيرة . فركب محمد بن أبي عامر إلى المغيرة من ساعته ، وركب معه بدر القائد ، مولى الناصر ، في مائة غلام من غلمان السلطان ، ووقف بهم خارج باب دار المغيرة ، وأحاط سواه من أصحاب محمد بجهاثها ، واقتحم محمد بن أبي عامر عليه ، وقتله خنقاً في مجلسه ، وعلق أصحابه جسد المغيرة في مخدع يتصل بمجلسه ، كهيئة المنتحر وأشاعوا أنه خنق نفسه لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه .

وهكذا استقر الأمر لهشام وتولى الحاجب محمد بن أبي عامر الوصاية عليه (١) بعد أن تألق نجمه وتفوق على زميله جعفر .

وابن أبي عامر من أسرة عربية يمنية ، وكان جده عبد الملك المعافى من بين رجالات العرب الذين اشتركوا في طليعة طارق بن زياد ، وأبدى شجاعة وبسالة في الاستيلاء على قرطاجنة . ثم استقر بنو عامر في مدينة طرش بعد الفتح . وخدم من بني عامر محمد أبو عامر بن الوليد وابنه عامر في عهد الدولة الأموية ، وكان عبد الله ابن عامر والد المنصور رجلاً فاضلاً ، انصرف إلى الحياة الدينية ، ومات عند عودته من الحج بمدينة طرابلس الغرب . ونشأ ابنه محمد ظاهر النجابة والذكاء ، تنفّس فيه مخايل الرياسة والطموح . وسلّك محمد بن أبي عامر سبيل القضاة في أول أمره مقتدياً بأعمامه وأخواله ، فدرس الحديث ، وقرأ الأدب واللغة على أبي علي البغدادى ، وعلى أبي بكر بن القوطية ، وقرأ الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشى راوية النسائي ، وغيره من رؤساء أهل المشرق . ثم اقتعد ابن أبي عامر دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم والمرافقين للخليفة الحكم إلى أن طلبت السيدة صبح البشكنسية

(١) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ص ٥٨ ، وذكر ابن بسام أن الحكم تخطى ثلاثة رجال هم إخوته عبد العزيز والأصمغ والمغيرة ، وكلهم أقرباء ، وآثر أن يولى عهده إلى ابنته هشام وكان طفلاً لم يبلغ الحلم بعد ، وذكروا أن السبب في ذلك أن رجلاً يتكلم في الحديثان قال : « لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودرام ما توارثه الأبناء عن الآباء فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه بينهم فقد أدبر وانصرف » ابن بسام مجلد ١ ص ٤٠ .

أم المؤيد هشام وزوجة الحكم من يكتب عنها ، فعرفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر ، فترقى إلى أن كتب عنها فاستحسنته ، وذكرته عند الحكم وطلبت منه أن يقوم ابن أبي عامر بخدمته ، فولاه قضاء بعض المواضع بكورة رية ، فظهرت منه نجابة ، فترقى إلى الزكاة والمواريث بإشيلية وتمكن من قلب السيدة صبيح بما استمالها به من التحف والخدمة ما لم يتمكن لغيره ^(١) . وذكروا أنه صنع يومئذ قصراً من فضة لصبيح أم هشام وحمله على رؤوس الرجال ، فجلب حبها بذلك وقامت بأمره عند سيدها الحكم ، وحدث الحكم خواصه بذلك وقال : « إن هذا الفتى قد جلب عقول حرمنا بما يتحفهم به » ، قالوا : وكان الحكم لشدة نظره في علم الحدثان يتخيل في ابن أبي عامر أنه المذكور في الحدثان ، ويقول لأصحابه : أما تنظرون إلى صفرة كفيه ^(٢) .

ويذكر ابن بسام في الذخيرة : « فعلت حاله ، وعرض جاهه ، وعمر بابه في حياة الحكم ، وهمته ترمى به وراء ما يناله من الدنيا أبعد مرمى ، وهو في كل ذلك يغدو إلى باب جعفر ويروح ، ويختص به ويتحقق نصيحته ، إلى أن أسخطاه الجدد ، وساعده القضاء » ^(٣) .

ولما مات عبد الرحمن الابن الأصغر للخليفة ، قلده الخليفة وظيفة جديدة : أن يكون وكيلاً لهشام ولي العهد ، فزاد مقدار ابن أبي عامر ، لخاصته بولي العهد ، ومكانه من السيدة والدته ، فاحتاج الناس إليه ، وغشوا بابه ، فأنساهم من سلف من أصحاب السلطان سعة إسعاف ، وكرم لقاء ، وسهولة حجاب ، وحسن أخلاق ، فعرض جاهه ، وعمر بابه واتسع في بناء داره بالرصافة ، واتخذ الكتاب الجللة ، واستصحب سراة الصحابة ، وكانت مائدته موضوعة لمن يتاب داره وهمته ترمى إلى ما وراء ما يناله وهو في هذا كله يغدو إلى دار جعفر بن عثمان المصحفي ، ويروح ويصبح ببابه ، ويختص به ^(٤) . وكانت سياسة خلفاء بني أمية ترمى إلى القضاء على نفوذ الفاطميين في المغرب الأقصى ، فتحالفوا مع بني خزر أمراء زناتة ، واستقدم الحكم المستنصر بالله منهم يحيى

(١) قفح الطيب ج ١ ص ٣٧٦ ، ابن بسام المجلد الأول ص ٤٣ .

(٢) نفس المرجع ج ٤ ص ٨٧ ، ابن مغازي ج ٢ ص ٢٨٤ .

(٣) ابن بسام م ٤ ص ٤٣ .

(٤) ابن مغازي ، البيان ج ٢ ص ٢٨٥ .

ابن علي بن حمدون وعدد كبيراً من أمراء زناتة سنة ٣٦٠ هـ ، فأمر رؤساء دولته في الأندلس بالخروج لاستقبالهم ، وكان محمد بن أبي عامر على رأس هؤلاء المستقبليين . وارتفع نجم ابن أبي عامر بعد ذلك إذ أصبح صاحباً للشرطة الوسطى سنة ٣٦١ هـ ثم قاضى القضاة بالمغرب من العدو بعد ذلك بعهد قصير ، وجعله الخليفة هناك عيناً على الجند ، فأدى مهمته على خير وجه ، وخطى بإعجاب الخليفة فقربه إليه وزاد في منزلته^(١) . وعهد إليه الخليفة بأخذ البيعة لهشام بن الحكم سنة ٣٦٥ هـ . فتم ذلك وقام ابن أبي عامر بتوزيع البيعة على الناس على اختلاف مراتبهم . ولما ازدادت علة الخليفة وتوقع الناس موته ، أشار محمد بن أبي عامر على جعفر المصحفي باستركاب ولي العهد في الجيش إرهاباً لأهل الخلاف ، « ففعل وركب في الناس ركبته المشهورة ومحمد بن أبي عامر بين يديه ، قد كساه الخز ، ونقله إلى أكابر أهل الخدمة ، وأمر ولي العهد هشام في ذلك اليوم وهو العاشر لصفر من سنة ٣٦٦ هـ بإسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة في الزيت بقرطبة ، وكانت إلى الناس مستكرهة ، فسروا بذلك أعظم السرور ، ونسب شأنها إلى محمد بن أبي عامر ، فأحبوه لذلك^(٢) » .

وذكر ابن عذارى في أسباب ظهوره استمالته للسيدة صبيح « بحسن الخدمة وموافقة المسرة وسعة البذل في باب الإتحاف والمهاداة ، حتى استهواها وغلب على قلبها ، وكانت الغالبة على مولاها ، وابن أبي عامر يجتهد في برها والمثابرة على ملاطفها ، فيدع في ذلك ، ويأتيها بأشياء لم يعهد مثلها... وقال الحكم يوماً لبعض ثقاته : ما الذي استلطف به هذا الفتى حرماناً حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضيهن إلا ما أتاه ، إنه لساحر عليم أو خادم لبيب ، وإني لخائف على ما بيده^(٣) » .

ولما مات الحكم المستنصر ، ودعا فائق وجوذر للمغيرة بن الناصر ، ولم يقر جعفر المصحفي ذلك ، عهد إلى ابن أبي عامر بمهمة قتل المغيرة ، فقام ابن أبي عامر كما رأينا بهذه المهمة وقتل المغيرة ختقاً ، وأعجب المصحفي به فأجلسه إلى جانبه تعبيراً عن

(١) نفس المرجع ص ٣٧٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٨٦ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٧٥ .

تقديره له . ثم بويج لهشام المؤيد في ٤ صفر سنة ٣٦٦ بعهد أبيه ، وتولى ابن أبي عامر دعوة الناس لذلك ، فلم يختلف على البيعة أحد ، وقد كان لذلك أثر كبير في إعلان شأنه ، وبعد صيته . ولم يمض يومان على بيعة هشام حتى قلد الخليفة الجديد أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي حاجباً لدولته ، كما نصب محمد بن أبي عامر وزيراً وجعله رسيلاً لحاجبه جعفر في تدبير شؤون دولته ، ثم التزم جعفر سياسة تقوم على الاستئثار بالأعمال ، واحتجان الأموال^(١) . وعارضه ابن أبي عامر في تلك السياسة فكانا على طرفي نقيض : فقد استبدل بالبخل جوداً وبالاستبداد أثره ، وباقتناء الضياع اصطناع الرجال ، ثم إن ابن أبي عامر قام بالنظر في الوكالة ، وخدمة السيدة صبيح أم هشام ، وكان جعفر يثق بابن أبي عامر ويسكن إليه ، فغافله ابن عامر وحظى برضاء الخليفة ، وأمه ونال محبة الشعب ، كل ذلك وجعفر يشركه في سره وجهره ، ويستريح إلى كفايته « وابن أبي عامر يكر به ويضرب بين حسدته ، ويناقضه في أكثر ما يعامل به الناس ويستعمل إليهم بالبذل وقضاء الحوائج ، ويتقدم من المعالي إلى ما يحجم جعفر عنه ، يستنضم الرجال وجعفر يدفعهم »^(٢) .

وحدث أن أغار القشتاليون على قلعة رباح بعد وفاة الحكم بعهد قصير ، واضطرب الأمر ، واستغاث أهل الثغور ، وجاء صراخهم إلى قرطبة ، فلم يجدوا عند جعفر بن عثمان المصحفي غناء ولا نصرة ، فقد جبن عن لقاء النصاري والدفاع عن المدينة بجيوش قرطبة ، وأشار بإزالة القنطرة القائمة على نهر آة « لعنفه وسوء دجلته » ولم تتسع حيلته لأكثر من ذلك مع كثرة عساكر السلطان وجموم المال ، فكان ذلك من سقطات جعفر الماثورة . وأنف ابن أبي عامر من تلك الدنية ، وأشار على جعفر بتجريد الجيش للجهاد ، وخوفه سوء العاقبة في تركه ، فأجمع الوزراء على ذلك إلا من شذ منهم ، وتبرع ابن أبي عامر بقيادة هذا الجيش ، وأعد السلاح والعدة ، وخرج في أول رجب سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) قاصداً الثغر الجوفي إلى جليقية ، وجاز وادي آة ثم عبر نهر تاجو ، ونازل حصن الحامة^(٣) من أعمال ردميرة ملك جليقية ، وافتتح ربضة ، وغنم

(١) ابن بسام القسم الرابع من المجلد الأول ص ٤٢ .

(٢) ابن بسام ص ٤٣ .

(٣) يقع هذا الحصن في مديرية سلمنقة ويقابل اليوم بلدة بانيس Banos على حدود إقليم ليون وإسترامادور وعلى السفح الغربي لسيرا جريديوس Sierra Gredos حيث يطلق على قبتها اسم Plaza del =

غنائم كثيرة ، ثم قفل بالغنائم والسبي إلى قرطبة ، حيث استقبله الناس بما يستقبلون به الأبطال من حفاوة وتكريم ، وأخلص له الجند لما رأوا من شجاعته وكرم عشيرته ، فأحبوه والتفوا حوله (١) .

وأخذ نجم جعفر يأفل شيئاً فشيئاً ، فرأى ابن أبي عامر أن يستغل نجاحه في حملته الأولى للقضاء على جعفر المصحفي ، والتخلص منه هو وغيره ممن يقفون عقبة في سبيل انفراده بشؤون الدولة . وكان لابد لابن أبي عامر من البدء في إسقاط جعفر الذي كان يحتجن الأموال ، ويوزع مناصب الدولة على ذوى قرباه ، وقد ترجم له الفتح ابن خاقان في كتابه « مطمح الأنفس ومسرح الأنس في ملح أهل الأندلس » ، وفيه يقول : « تجرد للعليا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى ، وتسوغ ذلك الجنى ، فسما دون سابقة ، وارتقى إلى رتبة لم تكن للبيته بمطابقة ، فالتاح في أفياء الخلافة ، وارتاح إليها بعطفه كنشوان السلافة ، واستوزره المستنصر ، وعنه قد كان يسمع وبه يبصر ، فأدرك بذلك ما أدرك ، ونصب لأمانيه الحباثل والشرك ، واقتنى وادخر ، وزرى بمن سواه وسخر . . . » (٢)

عمد المنصور بن أبي عامر إلى التخلص من جعفر ، وكان بين المصحفي وأبي تمام غالب الناصري صاحب مدينة سالم ، وفارس الأندلس الذي لا يبارى (٣) ، أشد ما كان بين اثنين من العداوة والمباينة ، فرأى محمد بن أبي عامر أن يتقرب إلى غالب ويستعين به على إسقاط المصحفي ، فإذا ما تخلص من منافسه الأول ، انقلب على غالب ، وقضى عليه بدوره . هذه السياسة إن دلت على شيء فعلى عظم دهاء ابن أبي عامر ، وعلى اعتماده على الحيلة والمكر والخديعة في تحقيق مآربه ، تمهيداً للوصول إلى أرفع مناصب الدولة . وسنحت الفرصة للمنصور بن أبي عامر ، فقد كان غالب قد أظهر التقصير في مداقة النصارى ، فأهم المصحفي شأنه ، وناظر الوزراء فيما بدا

Moro Almanzor = أو مكان المنصور العربي ، انظر Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane t. II, p. 211)

(١) ابن بسم : الذخيرة المجلد الأول القسم الرابع ص ٤٥ ، ابن عذارى البيان ج ٢ ص ٣٩٤ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٦٨ ، المقرئ ج ٤ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) الفتح بن خاقان : كتاب مطمح الأنفس ومسرح الأنس في ملح أهل الأندلس ، قسطنطينية ١٣٠٢ هـ ص ٤ .

(٣) كان غالب هذا يعرف بذي السيفين (انظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٦٩)

من تناقله عن الذب عن الثغر . فأشار عليه ابن أبي عامر وسائر الوزراء باستصلاح غالب ، ورعى ذمامه خشية أن يصل أمره إلى الخلاف والمعصية . وعمد ابن أبي عامر منذ ذلك الحين إلى مصانعة غالب ومظاهرتة ، وتأيينه ، والتقرب إليه ، واكتساب محبته وثقته ، للاستعانة به على إسقاط المصحفي ، وإن كان ينوى في قرارة نفسه أن يسقط الاثنين . ولم يزل ابن أبي عامر يقوم بشأن غالب ويمتدحه عند السيدة صبح أم هشام وسائر الحرم حتى تم مراده فيه ، فقلده هشام خطة الوزارتين ، وأمره بالاجتماع مع ابن أبي عامر على التدبير على الصوائف ، على أن يدبر ابن أبي عامر جيش الحضرة (قرطبة) ، ويدبر غالب جيش الثغر ^(١) .

ولما خرج ابن أبي عامر بالصائفة الثانية يوم الفطر من سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) اجتمع مع غالب بمدينة مجريط ، وتعاقدا معاً على الإيقاع بالمصحفي ، وسار جيشاهما نحو سيرا وادي الرمة ، وافتتحا حصن مولة Mola ، وغنم المسلمون أوسع غنيمة ، وكان الفضل في انتصار المسلمين يرجع قبل كل شيء إلى غالب ، ولكنه تجرد من فخره ونسبه إلى محمد بن أبي عامر ، وقال له غالب وهو يودعه : « سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فلياك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه » ^(٢) .

وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة وهو يحرق وراءه الغنائم والسبايا ، فاستمال قلوب العامة ، والخاصة ، وبعد صيته وهان عليه أمر جعفر وغيره ، وشرع في هدمه . وصدر أمر الخليفة بعزل ابن المصحفي عن رئاسة الشرطة والمدينة وتقليدها ابن أبي عامر . وكان هذا المنصب الكبير قد احتكره جعفر المصحفي منذ عهد بعيد لابنه محمد ^(٣) . وكان لكفاءة ابن أبي عامر ونزاهته وحسن إدارته للشرطة والمدينة ، وما بذله من جهود في ضبطها أثر كبير في محبة الشعب له ، فلقد سد باب الشفاعات « وقمع أهل

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩٥ - ذمخ الطيب ج ٤ ص ٨٨ - Lévi-Provençal, histoire de

l'Espagne Musulmane t. II, p. 213.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٩٦ ، Lévi-Provençal, op. cit. p. 214

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, t. II, p. 212.

(٣) Lévi-Provençal : Op. cit. p. 214 — Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne,

t. II, p. 213.

الفسس والزعارات حتى ارتفع البأس، وأمن الناس، وأمنت عادية المتجرمين من حاشية السلطان، حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلداً مبرحاً كان فيه حمامه، فانتقم الشر في أيامه جملة^(١) .

وتنبه المصحفي أخيراً إلى خطة ابن أبي عامر، وفطن إلى نيته السيئة نحوه، فبادر إلى مصالحة غالب، وخطب أسماء بنته لابنه عثمان، وكادت هذه السياسة تؤتي ثمرتها، ولكن ابن أبي عامر حال دون تحقيق هذه المصاهرة، فقد دفع أهل القصر إلى الطعن في هذه الخطوبة، ونجح أخيراً في صرف غالب عن مصاهرة المصحفي، وتم فسخ المصاهرة في حين وافق غالب على خطبة ابن أبي عامر لابنته، وتم له العقد في محرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٨ م^(٢))، وبذلك ظهر أمره وعز جانبه. وخرج بعد ذلك في غزاته الثالثة في غرة صفر سنة ٣٦٧ هـ، والتقى مع صهره غالب في طليطلة، وافتتحا معاً حصن رنيق، واستوليا على أرباض سلمنقة، وغاد ابن أبي عامر إلى قرطبة، فنال رضا الخليفة، وقلده منصب ذي الوزارتين، بينما قلده غالب الحجابة بالاشتراك مع جعفر المصحفي. وبالع الخليفة في الاحتفال بابن أبي عامر فأمر بزفاف أسماء إليه في قصر الخلافة. وأيقن المصحفي بالنكبة، وكف عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء من التدبير، وابن أبي عامر يسايره ولا يظاهره، وانفض عنه الناس وأقبلوا على ابن أبي عامر. وما زال ابن أبي عامر ينصب الشباك على المصحفي في الخفاء حتى أفسد ما بينه وبين الخليفة، وسخط عليه الخليفة فعزله عن الحجابة في ١٣ شعبان سنة ٣٦٧ هـ (٢٦ مارس ٩٧٨ م)، وأمر بالقبض عليه وعلى ولده، وحبسهما في المطبق بالزهراء، وطالبهم بالأموال التي تصرفوا فيها. وعهد الخليفة إلى ابن أبي عامر بحسابتهم فأخذ يستصني أموالهم، ويشك حرماتهم، حتى مزقهم كل ممزق، وقتل هشام ابن أخي جعفر في المطبق، وباع ابن أبي عامر قصر المصحفي في الرصافة، وكانت من أعظم قصور قرطبة، واستمرت نكبة المصحفي ستين يفرج عنه حيناً ويحبس حيناً، وينقله المنصور معه في غزواته حيناً، آخر. ثم زج به أخيراً في سجن المطبق بالزهراء. ويذكر ابن حيان أن المنصور حين أمر بسجن المصحفي

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٩٧ - ابن بام : الذخيرة، المجلد الأول - القسم الرابع ص ٤٧ .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٩٨ ، ٢١٥. — Lévi-Provençal, op. cit. p. 215. — Dozy : op. cit. t. II, p. 216.

« ودع أهله ، وودعه وداع الفرقة ، وقال لهم : لستم ترونني بعدها حياً » . وكتب إليه المصحفي في سجنه :

هني أسأت فأين العفو والكرم إذ قادتني نحرك الإذعان والندم
وقال وهو يعاني السجن :

صبرت على الأيام لما تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اضطباره وللنفس بعد العز كيف استذلت
وقوله :

لا تأمن من الزمان تقلباً إن الزمان بأهله يتقلب
ولقد أراني والليوث تهابني وأخافني من بعد ذاك الثعلب

ولبت المصحفي في سجنه للمرة الأخيرة عدة أيام ثم أخرج ميتاً، وسلم إلى أهله، وليس على جسده شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوايين^(١) .

وتولى ابن أبي عامر الحجابة بالاشتراك مع ضهره غالب ، ثم أخذ يتفرد بالسلطة ، ويسيطر على الخليفة ، فحجر عليه ، واستبد بالدولة ، واعتمد على بربر العدو في توطيد سلطانه ، فرتب منهم جنوده ، واصطنع أوليائه ، واتخذ فريقاً من الفتيان الصقالبة عرفوا بالخلفاء . وآخر ابن أبي عامر رجال العرب ، وأسقطهم عن مراتبهم فقم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر^(٢) . ولم تشغله أمور الدولة عن الجهاد فكانت له في كل غزوة من غزواته التي تزيد على الخمسين مفخرة من المفاخر الإسلامية ، فتوغل في بلاد جليقية ، وغرس في قلوب أعدائه الرعب والهلع ، فلعجثوا إلى الفرار ، والتحصن في المعاقل والقلاع . وكان لا يعود من غزوة إلا واستعد لأخرى ، فلم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة ، ومن أهم غزواته غزوته الرابعة وفيها وصل مدينة سمورة Zamora سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وهزم ردميرة الثالث ، وهدمها ، واستباحها^(٣) . وعلم المنصور بعد ذلك أن ملوك المسيحية عقدوا حلفاً ضد الإسلام في الأندلس ، وأن هذا الحلف يتألف من ردميرة

(١) الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ص ٤ - ٨ ، الذخيرة المجلد الأول القسم الرابع ص ٥٠ - ٥٣ ، ابن عذاري المراكشي ج ٢ ص ٤٠٠ - ٤٠٦ - نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٢) ابن خلدون : كتاب البرج ج ٤ ص ١٤٧ ، ١٤٨ طبة مصر .
(٣) ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام ص ٤٦ .

الثالث ، وقومس قشتالة غرسية Garcia Fernandez ، وملك بنبلونة شانجة Sanch oAbarca ، فأسرع ابن أبي عامر بالسير إلى طليطلة ، ووصل إلى وادي دويرة الأوسط حيث كانت تتجمع القوات المسيحية . والتحم الجيشان في رويدة في أغسطس سنة ٩٨١ م في مقاطعة بلد الوليد ، على بعد ٢٥ ك . م جنوب غربى شنت مانكش Simancas ، ودارت الدائرة على قوات إسبانيا المسيحية مجتمعة ، وفي هذه الغزوة سبي بضعة عشر ألفاً من مختار السبي^(١) ، وعندما عاد إلى قرطبة عقب هذه الغزوة تلقب بالمنصور^(٢) .

وفي غزوته الثالثة والعشرين أغار على برشلونة ، وكان يحكمها بوريل الثاني منذ عام ٩٥٤ م ، وخرج المنصور من قرطبة في ١٢ ذى الحجة سنة ٣٧٤ (٥ مايو سنة ٩٨٥ م) ، ومنز باليرة وبسطة ومرسية ، ثم اتجه المنصور شمالاً ، وسار بجذاء الساحل الشرقى ، وهزم بوريل الثاني في عدة مواقع ، وواصل زحفه حتى وصل إلى أسوار برشلونة ، وخربها ، وأضرم النيران في المدينة ، واستولى عليها^(٣) . وفي غزوته الثامنة والأربعين استخدم أسطوله ، وعبر به نهر دويرة بالبرتغال ، ونزل بشت ياقوب في ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، وهدم المدينة وجعلها قاعاً صفصفاً ، وعاد إلى قرطبة ، وقد غنم غنائم هائلة . وكانت غزوته المعروفة بغزوة جرييرة سنة ٣٩٠ هـ (٩٩٩ م) ، أشد غزواته واغليظها ، كريمة ، فلقد تقاطرت عليه جيوش النصارى ، وتجمعت إليه من كل مكان ، فاقبح المنصور قشتالة من جهة مدينة سالم ، واشتبك مع ملوك الجلالقة من بنبلونة إلى استرقة ، ومعهم شانجة ملك قشتالة ، في موقعة جرييرة ، وهزمهم هزيمة نكراء^(٤) .

ولما تكامل أمر المنصور ، وكثر حسابه وأنداده بعد نكبه للمصحفى ، خاف على نفسه من الدخول إلى قصر الخليفة ، فأراد أن يقيم لنفسه قصرأ يتزل فيه ، ويجمع فيه فتياه وغلماناه ، فأقام قصر الزاهرة في سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) على نهر قرطبة ، وحشد الصناع والفعلة وجلب إليها الآلات الخلية ، وتوسع في اختطاطها ، وبالع في رفع أسوارها ، وانتقل إليها سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) ، ونزلها بنجاسته وعامته ، وشحنها بأسلحته

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٦ .

(٢) Lévi-Provençal : op. cit. t. II, p. 235 .

(٣) Lévi-Provençal, op. cit. t. II, p. 238 — Aguado Bleye, Manuel de Historia

de España, t. I, p. 506.

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٩ ، ٨٠ .

وأمواله، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل في داخلها الأهراء الواسعة، وأطلق بساحتها الأرجاء الفسيحة، وأقطع ما حولها لوزرائه وقواده وحجابه، فابتنوا بها كبار الدور وعظيم القصور، وتناهى فيها البناء حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة. وكتب إلى أقطار الأندلس والعدوة بأن يحمل إليها أموال الجبايات^(١)، « وعطل قصر الخلافة، وسد بابه، ونصب رسم الشرطة تلقاءه، وأدار عليه السور الحرير الوثيق، وأشاع أن السلطان فوض إليه النظر في أمر الملك، وتخلي لعبادة ربه، وبث ذلك في الرعية »^(٢).

ولم يبق أمام ابن أبي عامر من منافس له بعد جعفر المصحفي سوى صهره غالب الذي حنق عليه لحجره على الخليفة، واستيلائه على كل شؤون الدولة. وغضب عليه « لما رآه يطوى الدولة طياً وينشئها خلقاً جديداً منسوباً إليه معروفاً باصطناعه، فأضمر له الخديعة ورجا منه الإراحة »^(٣)، ولكنه تظاهر بموافقة لسلوكه ودعاه في إحدى غزواته إلى ولية فلما قدم المنصور على قلعة مدينة بانتيسة من الثغر حيث يقيم غالب، للاجتماع به، انفرد به غالب وشرع في عتابه، ثم كر عليه بسيفه، فجرحه وكاد يجهز عليه لولا أن فر المنصور أمامه وهبط بفرسه من أعلى القلعة ونجا من الموت.

ومنذ ذلك الحين أخذ المنصور يعمل على التخلص منه، فرماه بند له من أصحاب السيوف والحراية المشهورين، فاستعان في ذلك بجعفر بن علي بن حميدون المعروف بابن الأندلسي، واستوزر واستكثر من أجناد البربر، وجعلهم بطانته. وأدرك غالب ما يرميه ابن أبي عامر، فاستجاش من ملوك النصارى ضد ابن أبي عامر. وقامت بينهما المعارك، وانتهى الأمر بمقتل غالب، وبذلك تخلص من أعظم منافسيه، ثم استعان بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبي على جعفر بن علي بن حميدون سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م).

وأصبح ابن أبي عامر سيد البلاد، وأمر بالدعاء له (عقب الدعاء للخليفة) على المنابر، وجلس على سرير الملك، ومحا رسوم الخلافة، ولم يبق للخليفة هشام

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٤١٠، ٤١١.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٧٠.

(٣) أعمال الأعلام ص ٧١.

المؤيد من هذه الرسوم الخلافية سوى الدعاء على المنابر، وكتب اسمه في السكة والطرز .
وأراد ابن أبي عامر في الوقت نفسه أن يقضى على الشائعات التي روجها أعداؤه، وأن
يسترد عبة الشعب له ، فقام بالزيادة في جامع قرطبة سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) بشرق
الجامع بعد أن انترع ملكية الدور المجاورة للمسجد من الجهة الشرقية، وعوض أصحابها
عنها مالا وعقاراً ، كذلك قام ببناء قنطرة ثانية بقرطبة على نهر الوادي الكبير في عام
٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) وأنفق في بنائها أموالاً كثيرة، فعظم ثقلها . كما أمر ببناء قنطرة
على نهر شنيل باستجة، وسهل بذلك الطرق الوعرة والشعاب الصعبة . واختتم المنصور
حياته غازياً في أرض جليقية . ويذكر ابن حيان : أنه « اقتحم أرض جليقية من
تلقاء مدينة طليطلة ، ومرضه يخف وقتاً ويثقل وقتاً ، ونفذ على عمل بني غومس إلى
أرض قشتيلة بلد شانجة بن غرسية ، وهو كان مطلوبه الذي ألف عليه الجماعة ،
فأحل الغارات بأقطاره ، فقويت عليه العلة هنالك ، فاتخذ له سرير خشب وضع
عليه أعضائه ، وسوى مهاده متناول الشكل يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت
قواه ، وكان يحمل سريره على أعناق الرجال وسجفه منسدل عليه ، وعساكره تحف
به وتطيع أمره^(١) . وظل كذلك حتى وصل إلى مدينة سالم ، واشتد عليه المرض
وأيقن بالموت ، فخلا بولده عبد الملك الذي كان يؤثره على بقية أولاده ، يوصيه
ويودعه ويقبض على يده ، وكلما ذهب عنه استرده مستدركاً بوصيته ، وعبد الملك يبكي ،
فينكر عليه ذلك . ومن جملة ما نصحه به قوله : « يا بني لست تجد أنصح لك
منى فلا تعدلن مشورتى ، فقد جردت لك رأى ورويتى على حين اجتماع من ذهنى
فاجعلها مثالا بين يديك ، قد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها
وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت
جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك . فلا تطلق يدك في الإنفاق ولا تقبض
لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً . . . والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم
مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين الجنبية ، وصاحب القصر قد علمت مذهبه ،
وأنه لا يأتبك من قبله شيء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ، ويلتمس الوثوب باسمه ،
فلاتنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته

(١) ابن بسام : الذخيرة المجلد الأول القسم الرابع ص ٥٥ - ابن سميذ المغربي : المغرب ص

على أقل بادرة ، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في عین البيعة إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه فلإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة^(١) ويتضح لنا من هذه الوصية أن المنصور لم يطمع في الخلافة رغم ما بلغه من سلطان ، وقد خالف هذه الوصية ابنه عبد الرحمن الملقب بشنجل ، وادعى ما ليس له فتلقب بالخلافة . وكانت النتيجة قيام الفتنة واشتعال الثورة .

ومات المنصور في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) ودفن في صحن قصره بمدينة سالم .

(١) ابن بسام : الذخيرة المجلد الأول ، القسم الرابع ص ٥٦ ، ٥٧ .

عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور

وبموت المنصور تنفس ملوك إسبانيا المسيحية الصعداء، وغمرتهم موجة من الفرح والاعتباط فلقد دمر المنصور بلادهم، واكتسح سهولهم، وهدم حصونهم ومعقلهم، ونثر الذعر والهلع في قلوبهم، وشرذ جيوشهم، وأزال سيادتهم، وأذلهم بانتصاراته العديدة، وغزواته المتكررة. فلما مات كتب مؤرخ لاتيني في حوлиاته: « مات المنصور سنة ١٠٠٢، ودفن في النار^(١) ».

ولما علم هشام بموت ابن أبي عامر استقدم أبا مروان عبد الملك بن المنصور، وأمره بقمع حركة الفتيان الصقلية الذين استغلوا هذه الفرصة لاسترجاع نفوذهم القديم، وحذره الخليفة الواقعة الدماء، ونخلع عليه، وأخرج معه كتابه بولاية الحجابة مكان أبيه^(٢). وهكذا قام عبد الملك بالحجابة، وتلقب بالمظفر سيف الدولة في ٣ رمضان سنة ٣٩٢ هـ، وقضى على حركة الفتيان الصقلية، ونفى بعضهم إلى سبتة. وكان عبد الملك قد ورث كثيراً من صفات أبيه، فاستوسق له الأمر واجتمع الناس على حبه لعدله وإنسانيته^(٣) وحمايته للشرع، وسهره على رعيته، ونصرته للمظلومين، وجهاده في سبيل الدين « حتى أيس الأعداء من دولة بني عامر، وعلموا أنها وراثته^(٤) ». وذكروا أنه كان يزور الصالحين والأولياء في المقابر، ويستهدى أدعيته. ويذكر

(١) Dozy : Op. cit. t. II, p. 265 — Lévi-Provençal : op. cit. t. II p. 283

عبد الحميد الببدي : المجلد في تاريخ الأندلس ص ١٥٣ - P.283

(٢) ابن بسام : المجلد الأول القسم الرابع ص ٥٩ . يذكر بن الأبار في التكلة لكتاب الصلة أن الخطاب الذي عذر الخليفة هشام المؤيد المظفر عبد الملك بن المنصور عن أبيه وجدد له العهد بولايت، كتبته كاتبة القصر الخلاق بقرطبة (نظام) في شوال سنة ٣٩٢ (انظر شخصية رقم ٢٨٦٥ من Miscelanea de Estudios Arabes, por Gonzalez Palencia, p. 403.)

(٣) كان مما تقرب به إلى قلوب الناس أن أسقط سدس الجباية عن جميع البلاد (أعمال الأعلام ص ٩٧).

(٤) ابن بسام : ص ٥٩ .

ابن الخطيب زيارته لأبي أيوب الفريشي^(١) . كذلك كان يزور السجون ويتفقد حال المسجونين ، ويكشف عن طال سجنهم فيطلقه^(٢) . ويذكر ابن بسام نقلاً عن أبي مروان بن حيان في المتن فقرات فيها وصف لحالة البلاد في عهده منها : راقى أيامه ، وأحبه الناس سرّاً وعلانية ، وانصب الإقبال والتأييد عليه انصباباً لم يسمع بمثله ، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان ، حتى سميت أثمان هذه الأشياء في مدته ، وبلغت الأندلس في أيامه إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال ، في كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تنافس فيه وعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه ، ونجا من الفتن^(٣) . ويضيف ابن حيان في ذكر حسناته وما ثره فيذكر أنه كان من أكثر الناس حياء ولكن هذا الحياء كان ينقلب في ساحة الوغى شجاعة وصلابة وعنفاً ، ويذكر أنه كان عاطلاً من المعرفة والعلم والأدب ، وكان لا يجالس غير جفأة البربر والأعاجم « ممن لا يهش لسماع ، ولا يطرب لإيقاع » ، ومع ذلك فقد تمسك بمن « كان استخلصه أبوه من طبقات أهل المعرفة من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجى ومعدل وتاريخى وغيرهم حفظاً لصنائع والده ، وقياماً برسومه ، فقرّهم على مراتبهم ، ولم ينقصهم سوى الفوز بخصوصيته . . . ثم أغرق عبد الملك التزع في دولته ، وأنهمك في طلب الآلات الملوكية حتى جلب إليه من ذلك كل خلق خطير ، وتأنق في مراكبه هو وأصحابه بالحلية التامة بخالص اللجين^(٤) .

واتبع عبد الملك خطة أبيه في اصطناع البربر من العدو واستخدامهم في جيشه ، فكان أعظم من قدم منهم زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي ، ومن صحبه من إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك أعظم استقبال ، ووصلهم بصلاته الجليّة « فاستقلوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته وما استقروا الدار إلا على قلعة ، ولا حمدوا معروفهم ولا لبسوا أعلى المراتب السلطانية إلا على ابتذال ومحقرة ، ولا قطعوا أن المقام بالأندلس إلا بذكر الرحلة والتماس التسريح بكرة وعشية ، جهلاً وفرط

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٣) ابن بسام : اللخيرة المجلد الأول القسم الرابع ص ٥٩ .

(٤) نفس المرجع ص ٦٠ .

أنفة^(١) . وكان عبد الملك يرغب في رفع منزلة زاوي وعشيرته، فولاه الوزارة، فرفضها زيري محتجاً بأن خطته لا تعدو الحرب، وأن أقلامه الرماح، وصحائفه الأجساد . وعرف عبد الملك أيضاً كيف يكتسب ثقة الخليفة فلم يحجر عليه كما فعل أبوه وإنما تركه على سجيته فأثر هشام أن يحتجب عن الناس من تلقاء نفسه ، واحتجب في نزهة الخاصة كما كان يفعل أيام المنصور^(٢) . وجعل عبد الملك يخرج به إلى هذه التزهة مستخفياً عن أعين الناس ، ودعاه لزيارة قصره بالزاهرة سنة ٣٩٨هـ، فركب إلى القصر على سبيله المعهود من الاستخفاء عن أعين الناس^(٣) ، وقد سر هشام من هذه التزهة فأرسل إلى عبد الملك رقعة بخطه كتب فيها : « من الخليفة هشام المؤيد بالله بسمه أتم الله عليك نعمه، وهنالك قسمه، وألبسك عفوه وعافيته، لما رأيناك سلمك الله . . . استخرنا الله تعالى في أن مميناك المظفر ، فنسأل الله سؤال إلحاف وضراعة وإبتهال إليه أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم، ويمليك معناه، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين فضل ما حملت منه . . . وكذلك ما شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر تلامذنا أسعده الله بالإنهاض إلى خطة الوزارتين . . . » وهكذا نال عبد الملك وابنه محمد - ظوة الخليفة ورضاه عنهما، فظفر بلقب المظفر، وظفر ابنه بلقب ذي الوزارتين . ولكن لم يتح لعبد الملك أن يتمتع طويلاً بهذا اللقب ، إذ اعتل أثناء عودته من صائفته إلى قلونية Clunia من بلاد شانجة بن غرسية Sancho Garcia سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٨ م) ، وزاد به مرض الذبحة الصدرية، وتوفي في دير أرملاط Guadamellato من أحواز قرطبة في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ (٢٠ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) .

وفي عهد عبد الملك ظهرت عدة شخصيات كان لها أثر كبير في الأحداث السياسية أهمها:

الفتى الكبير طرفة: والوزير عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بالقطاع: وواضح الفتى: وكان قائد آفي الثغر الأعلى: وزهير الفتى: وواضح، وبشير، ونظيف، ونجا، وشعلة، ومظفر، وخيران، ونصر، ونصير، وواتق، وبشرى، ونليق، وكوثور، وخلف، وجعفر^(٤).

(١) ابن بام: الذخيرة مجلد ١ قسم ٤ ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٢ - Izvi-Provençal: op. cit. p. 276.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٠٢ .

(٤) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

ومن الشخصيات الهامة في عصره شخصية مقدم بن الأصفر الذي اختص به اختصاصاً شديداً، واتصل برأبته وأهله^(١). وذكروا أن عبد الملك فوض إلى وزيره عيسى بن سعيد أمره، فصار قيم الدولة، فحسده الفتيان الصقالبة، وحملوا طرقة فتي عبد الملك على مناوآته، فتآمر طرقة مع الشاعر أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري، على اغتصاب الحكم، ولكن الوزير عيسى بن سعيد كشف المؤامرة، فقبض عبد الملك على فتاه طرقة، ونقاه إلى الجزائر الشرقية حيث سجن وقتل هناك، كما أمر بسجن الجزيري في مطبق الزاهرة، وهناك قتله قوم من السودان^(٢)، وكذلك حاول الوزير عيسى بن سعيد القطاع أن يعزل الخليفة هشام، ويقضى على عبد الملك ويقيم هشام بن عبد الجبار خليفة مكانه. وكادت المؤامرة تنجح لولا أن كشفها الفتي الكبير نظيف، وأبلغ عبد الملك بكل تفاصيلها، فبطش عبد الملك بصهره ووزيره عيسى^(٣).

واصل عبد الملك سياسة أبيه في الغزو والإغارة على إمارات إسبانيا المسيحية، فقد اتفقت حجابته في الوقت الذي انتقضت فيه جميع هذه الدول على المسلمين وزادت أطماعها بموت المنصور، ويذكر ابن بسام أن «الافرنجة في آخر وقت المنصور قد تمسكت بالمسألة فلما سمعت بموته طمعت»^(٤). والواقع أن وفاة المنصور أتاحت فرصة إحياء التحالف القديم الذي أقامه شانجة غربية قومن قشتالة لغزو الأراضى الإسلامية، إلا أنه كان لشهرة عبد الملك أثر كبير في تخاذل أعدائه عن مهاجمته، ويذكر ابن بسام أن الفتي واضح مولى عبد الله، وصاحب مدينة سالم، التقى بشانجة فصالحه واضح سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) ولاطفه حتى تمهدت قواعد الدولة^(٥). غير أن قومن برشلونة الذي كان قد عقد صلحاً مع المنصور، حاول مهاجمة الأراضى الإسلامية المجاورة، فأوغل عبد الملك في أراضى برشلونة صيف عام ٣٩٣ هـ، وعاد سالماً. وذكر ابن الخطيب أنه افتتح حصن منغص من ثغر برشلونة، ويظن الأستاذ ليثى بروفسال أن هذا الحصن هو الموضع المعروف

(١) ابن حزم القرطبي: طوق الهامة ص ١١٢. (٢) الذخيرة ص ٣٥، ٣٦.

(٣) ابن بسام الذخيرة: المجلد الأول - القسم الأول ص ١٠٢ - ١٠٧.

(٤) نفس المرجع مجلد أول - قسم رابع ص ٦٤.

(٥) نفس المرجع ص ٦٤.

اليوم باسم Monmagastre^(١). وفي هذه الغزوة توفي عبد الله بن عبد العزيز القرشي ، الوزير المعروف بالحجر ، طليق المظفر بن عبد الملك من المطبق ، وكانت وفاته بمدينة لاردة سنة ٣٩٣ هـ^(٢). وذكر ابن حبان أن كونت برشلونة كان قد جنح للسلم في بداية عهد عبد الملك قبل أن يتنقض عليه بعد ذلك ، وجاء رسوله إلى قرطبة ، وأعد عبد الملك لوروده أكل العدة ، وازدانت قرطبة^(٣).

وفي العام التالي سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ، احتكمت إليه ملوك النصارى فيما شجر بينهم من خلاف ، فتوسط عبد الملك بين قومس قشتالة شانجة بن غرسية وبين قومس غليسية مندرس بن غندشلب Menendo Gonzalez ، الوصى على ألفونسو الخامس ملك ليون الصغير ، الذى كان لا يتجاوز من العمر عشر سنوات .

وكان شانجة خال ألفونسو ، يود إزاحة مندرس عن الوصاية ، فأرسل عبد الملك بعض نصارى قرطبة ، ومنهم إصبع بن عبد الله بن نبيل الذى احتكم لصالح مندرس ابن غندشلب^(٤). وهكذا ظفر مندرس بالوصاية ، فظل يقوم بها حتى مصرعه ، سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) . وذكر ابن حبان قيام عبد الملك بصائفة ضد شانجة عام ٣٩٤ هـ (١٠١٤ م) ، ويبدو أن شانجة غضب من هذا التحكيم فنقض العهد بينه وبين عبد الملك . فخرج إليه عبد الملك ، وأوغل في أرضه ، ونجام عنه شانجة ولم يظهر له ، فقفل عبد الملك عائداً إلى قرطبة ، فاضطر شانجة إلى التماس السلم ، ووفد بنفسه إلى قرطبة ، فأعظم عبد الملك مورده ، ورضى شانجة أن يشترك مع عبد الملك في الغزو ضد وطنه (مملكة ليون) وضد أعدائه بنى غومس بقريون . ففى عام ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) خرج عبد الملك غازياً ومعه شانجة ، واقتحم مملكة جليقية وشانجة يهديه إلى عورات قومه ، ثم غادر أعمال بنى غومس مصحلاً ، واتجه نحو الشمال الغربى ، وأمر واضح الفتى بتخريب سمورة ، ووصل عبد الملك أخيراً إلى حصن. منيع يقال له ليونة Luna ، وطمع عبد الملك فيه ، ونازله فلم يقو على الاستيلاء

(١) Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 285. (يسميه ابن عذارى حصن مقصر) .

(٢) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج ٢ ص ٤٤١ رقم ١٢٦٥ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ص ٦٤ - ٦٥ .

(٤) البيان ج ٢ ص ٣٩٤ ، القلقتنى ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٦٦ ،

عليه ، فقفل عائداً إلى قرطبة . وذكر ابن عذارى أن عبد الملك قام بغزو بنبلونة عام ٣٨٦ هـ (١٠٠٦ م) ، ولكنه بدلاً من أن يسير إلى بلاد البشكنس ، سار إلى سرقسطة ، ثم وشقة ، وبربشتر ، وتوغل من هذه المدينة في بلاد الأعداء ، وهناك خرب حصن شنت يوانش^(١) (San Juan) . وفي سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) ، خرج عبد الملك غازياً إلى بلاد قشتالة غزوته الكبرى المعروفة بغزوة قلونية التي تلقب بعدها بالمظفر ، وتعرف هذه الغزوة أيضاً بغزوة النصر ، لأنه هزم شانجة بن غرسية بجموع النصرانية على اختلافها^(٢) وهدم عبد الملك حصن قلونية^(٣) . وعندما عاد إلى قرطبة من غزوته التي فض فيها جموع المشركين وجيوش النصرانية أجمعين طلب من الخليفة هشام المؤيد ترشيح ابنه الغلام محمد إلى المراتب العالية ، وسأل الخليفة أيضاً أن يتسمى بالمظفر ، وأن يكنى في جميع ما يجري به ذكره بأبي مروان ، وأن يقلد ابنه محمداً منصب الوزراء ، ويلقب بذي الوزارتين ، فأجابته الخليفة إلى ملتمسه ، وأصدر كتبه إلى آفاق الأندلس بذلك^(٤) . وفي ذلك يقول الشاعر عبد الله بن زياد :

تسميت لما أن ظفرت المظفرا وصرت على الأعداء ليثاً غضنفرا

ولم تنته حروب عبد الملك بعد تلك الغزوة المظفرة ، فقد اضطر إلى غزو قشتالة مرة ثانية في العام التالي ، ففي صفر سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) خرج المظفر بالشاتية وهاجم حصن شنت مرتين على نهر دويرة وافتتحه . ثم كانت غزاته الأخيرة المعروفة

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ — Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 288. يقول ابن عذارى : « وفي سنة ست وتسعين وثلاثمائة خرج الحاجب عبد الملك غازياً إلى بنبلونة وهي الرابعة من غزواته في دولته في يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال ورحل سائراً إلى مدينة سرقسطة ثم إلى وشقة ثم إلى بربشتر فنها أمر عبد الملك بالدخول إلى أرض العدو ، فدخل أرض العدو لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة ، وأبتدأ بالغارة من بسط حضر ابنيوش وقد فر أهلوه وخلوه فهدمه فرحل عنه إلى شنت يوانش ، فجالت الخيل في بساطه فبلغت من انتسافها أبعد غاية . . » انظر ابن عذارى ج ٣ ص ١٢ ، (١٣) .

(٢) ابن عذارى ج ٣ ص ١٤ .

(٣) Aguado Bleye, op. cit. p. 494 — Lévi-Provençal. op. cit., p. 288. (٣)

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٦ - ١٧ ذكر ابن عذارى نسخة هذا الكتاب كاملة وفيها يقول : . . . فاستخرنا الله سبحانه في أن سميناك المظفر فنسأل الله تعالى إلحاف وضراعة وإبتهال إليه أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم ويحليك معناه ويعطينا وإياك وكافة المسلمين فضل ما حملت منه . . . وكذلك ما شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر تلامذتنا أسعده الله بالإفحاض إلى خطة الوزارتين . . . » .

بغزاة العلة، وهي الغزوة التي مات بعدها . ولم يفصل مؤرخو العرب في رواية نتائج هذه الغزوة وإنما أفاضوا في ذكر موته . ومع ذلك فقد ذكر ابن عذارى نصاً نقله عن ابن حيان قال فيه : « ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الإسلام ومؤذنتها بما جرى عليه بعد من الانثلام، علته الشديدة بمدينة سالم ، مخرجه إليها سنة ثمان وتسعين محتفلاً لقصد عدو الله شانجة بن غرسية بن فرذلند ، فصدته عن الدخول إليه يجمع المسلمين ، واشتدت به مدة تفرق عنه فيها أكثر المطوعة ، وصارت على الإسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده ، ونقصت من حفيل عديده (١) » ، ويبدو أن الأمر لم يقتصر على تفرق غالبية المطوعة في جيشه ، بل تجاوز ذلك إلى حد الهزيمة ، وهو ما تذكره المصادر الإسبانية (٢) .

وحاول المظفر بعد قفوله من غزوته المذكورة أن يجمع صفوفه ، ويفاجئ العدو بشاتية ، فأمر بالتأهب لذلك ولكنه كان مريضاً ، فازداد مرضه في الطريق . وذكر ابن عذارى أنه كان مصاباً بذبحة أخذت « تقوى مع الساعات حتى خنقته (٣) » . ومات عبد الملك وهو في طريق عودته إلى قرطبة بعد أن اشتدت به العلة . وأحصى ابن الخطيب غزواته فذكر أنه غزا سبع غزوات وأنه ما رثى في أمراء الجيوش أبسط يداً في الحركات الجهادية ولا أرغد معونة من المظفر (٤) .

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) Aguado Bleye, op. cit. p 494, Lévi-Provençal, op. cit., p.269.

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ٢٧ .

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

عبد الرحمن بن المنصور وسقوط دولة بني عامر

لما مات عبد الملك المظفر خلفه أخوه أبو المطرف عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجول ، وشنجول تصغير لشانجة ، وقد لقب عبد الرحمن بهذا اللقب بسبب أمه عبدة بنت شانجة النصراني ملك بنبلوة Sancho Garcés Abarca . فقد كان هذا الملك قد أهدي ابنته للمنصور فتزوجها وحسن إسلامها ، وكانت من خيرات نسائه ديناً متيناً ، وحسباً أصيلاً ، وأولادتها ولده عبد الرحمن^(١) . وذكر ابن عذاري أن أمه كانت تدعوه في صغره بشنجول Sanchuelo تذكراً منها لاسم أبيها شانجة خاصة وأنه كان أشبه الناس به^(٢) .

ركب شنجول إلى قصر الخلافة غداة وفاة المظفر، فعزاه الخليفة في أخيه وخلع عليه خلعاً سلطانية، وقلده الحجابة، وأصدر له بخطه تسميته بالمأمون، ، فتلقب للحين بالناصر، ثم بالمأمون ، فكان يدعى بالحاجب الأعلى، المأمون ، ناصر الدولة .

وكان شنجول مغروراً بنفسه فساء تصرفه، وأنفق الأموال في غير وجهها، ونسبت إليه أباطيل من القول والفعل، حتى كرهه الناس . ثم أنه سلك خلاف مسلك أبيه المنصور وأخيه المظفر في مداخلته الخليفة والوقوف في أمره عند ضرورة السياسة^(٣) .

والواقع أن سياسته الهوجاء وغروره وادعاءه كان سبباً في القضاء على الدولة العامرية وسبباً في الفتنة العظمى التي تبعت هذه الأحداث، فقد سولت له نفسه أن

(١) ابن الخطيب ص ١٠٣ .

(٢) ابن عذاري ج ٣ ص ٣٨ .

(٣) ابن الخطيب ص ١٠٤ ذكر إبراهيم بن القاسم أن شنجول افتتح عهده بالخلافة والحجامة فكان يخرج من منية إلى منية ومن منية إلى منية مع الخياليين والمنين والمضحكين ، مجاهراً بالفتك وشرب الخمر . (انظر ابن عذاري ص ٣٩) وذكر ابن سعيد المغربي : أنه كان « نحساً على نفسه وعلى أهل الأندلس » فنه انفتح باب الفتنة العظمى وفقد الناموس « المغرب ص ٢٠٨ .

يلتمس ولاية العهد من الخليفة هشام المؤيد ويقوم بأمر المسلمين من بعده ، وذكر أبو مروان بن حبان : « وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجزية من غير ريل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان ، إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر في عاقبة ، بل جبرها بالعجلة ^(١) » . وتفصيل ذلك أنه خرج في ١١ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ مع الخليفة هشام إلى قصر الزهراء ، فأقاما هناك يومين ، ثم تحرك الخليفة في اليوم الثالث إلى منية جعفر في رفقة حاجبه شنجول الذي اشتد به عجه . وأخذ شنجول يتقرب من الخليفة ويختلي به ، فأطال به الخلوة هذه الليلة حتى استدفى نسيبه منه بالخلوة ، إذ كانت أمهما بشكنسيتين ^(٢) . ثم خرج شنجول عشى هذا اليوم ، يزعم أن الخليفة نص على توليه عهده صراحة ، وأنه اختاره للخلافة دون بني عمه وذويه ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وفي اليوم التالي استدعى طبقات أهل قرطبة وأجلس لهم هشاماً وأشهدهم فيما أمضاه من الولاية ، وأخرج كتاباً قرئ بمحضرة من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن برد ^(٣) .

وبهذا الكتاب ظن عبد الرحمن شنجول أنه أصبح وارثاً للخلافة ، فأمر بإفقاد الكتب عنه إلى سائر أنحاء الأندلس والعدوة بنجر ولايته للعهد ، ويأمرهم فيها بالدعاء له على المنابر بالعهد بعد الدعاء للخليفة . ثم ولي ابنه عبد العزيز خطة الحجابة ولقبه بسيف الدولة . وذكروا أنه لما حقق رغبته من ولاية العهد ، واستبد بالسلطان ، أقبل على طلب لذته ، ومواصلة شربه ، وأخذ في التخليط والفسوق والانتهاك والزنا ^(٤) ، وأحاط نفسه ببطانة من إخوان السوء وأدنياء القوم . وقيل إنه اصطحب معه في غزوته إلى جليقية رجالاً « من سفال أهل قرطبة يقال له ابن الرسان جعله صاحب شرطته وأدناه منه ^(٥) » .

وهكذا حفر شنجول قبره بنفسه ، إذ أن فكرة اغتصاب الخلافة من أسرة بني

(١) ابن الخطيب ص ١٠٥ .

(٢) ابن عذاري ص ٤٢ .

(٣) انظر نص هذا الكتاب في نهاية هذا الفصل .

(٤) ابن عذاري ج ٣ ص ٤٧ - ٤٨ .

(٥) نفس المرجع ص ٤٩ .

أمية في حد ذاتها كانت وحدها كفيلا بإثارة أهل الأندلس عليه ، ولم يتوارد إلى ذهنه أن أباه المنصور بن أبي عامر أو أخاه المظفر عبد الملك لم يفكر أحدهما قط في اغتصاب الخلافة ، رغم أعمالهما العظيمة ومآثرهما العديدة ، وإمكاناتهما المتوفرة في المظفر بها . وكانت النتيجة وبالا عليه ، إذ ثار أهل الحاضرة وراء أمراء بني أمية عليه أثناء غيابه في غزوته ، ولما يتجاوز في زحفه مدينة طليطلة ، وذلك في ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ^(١) . فقد اتصل به أن المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، قد أعلن الثورة في قرطبة ، وهدم بالش والزاهرة ، ودخل القصر بقرطبة ، وحين بلغه ذلك قرر العودة إلى قرطبة لمواجهة الثورة . وسار عبد الرحمن إلى قرطبة وهو مع كل ما حدث سادر في غلوائه ، حتى وصل منزل هاني أدنى محلاته إلى قرطبة في آخر جمادى الثانية سنة ٣٩٩ هـ (فبراير ١٠٠٩ م) ، وكان جنده البربر قد أجمعوا على خذلانه ، فلما نزل في هذه المحلة وبات فيها ليلته تفرق جنده عنه ، وتركوه مع نفر من غلمانهم عندما أيقنوا نفاذ ماله الذي كان يغدقه عليهم ، بعد أن بلغهم سيطرة عدوه الأموي على مدينة الزاهرة ، واستيلائه على أموال الدولة . وذكروا أن عبد الرحمن شنجول حين لمس تخلي جنده عنه عندما نزل بقلعة رباح في طريق عودته إلى قرطبة تبرا من ولاية العهد وأعلن اقتصاره على الحجابة ، فلم يصنع أحد إلى كتابه^(٢) . ونصحه قومس قرنيون ابن غرسية غومس Garcia Gomez^(٣) بالفرار بعد أن رأى اضطراب حاله ، ولكنه أصر على السير إلى قرطبة^(٤) ، على الرغم

(١) ذكر ابن الخطيب أنه لما تحرك إلى الغزو شاتية عام ٣٩٩ نصحه فتاه الأكبر في ترك الغزو وخوفه من اضطراب الناس عايه ، ونقل إليه عن بعض المرابطين بصيحة في محاولة رجل منهم القيام عليه واستجابة عدد كبير من الجند إليه ، فأعرض عبد الرحمن عما ذكره فتاه واستهان به وقال : « والله لو اجتمع بنو مروان إلى مرقدي وأنا نائم ما أيقظوني . » أعمال الأعلام ص ١١٢ .

(٢) ابن عذاري ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) هو أحد النصارى المنوسلين إليه بقربى أمه من عمومة الملك شانجه غرسية .

(٤) قال له ابن غومس : « أرى أحوالك متقصة ، وأمورك مديرة ، وجندك مغالفين لك ، فأخبرني عن هذا الرجل الذي بقرطبة ، أنت أشرف أم هو ؟ قال يل هو . قال : الناس أميل إليك أم إليه ؟ قال : ما أراهم إلا إليه أميل . فقال هذا دليل ردى . قال شنجول : فما الرأي عندك . قال : الرأي عندي أن ترحل وأرحل معك بأصحابي الليلة فان شئت قصدنا واضعاً فكنا معه يداً واحدة . . . ثم قال القومس : « خذ باليقين وضع الظن فأمرك والله مختل وجندك عليك لا لك . فقال لابد من الإشراف على قرطبة . فقال له : أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطتك ، فان عشت عشت معك ، وإن مت مت معك . » انظر ابن عذاري ج ٣ ص ٧٠ .

من تفرق جنده . وما زال سائراً في صحبة حرمه حتى شارف منزل أرملاط الأدنى
Guadamellato إلى قرطبة ، فلم يجد معه أحداً من رجاله ، وهناك قبض عليه
الحاجب بن ذري مولى الحكم هو وصاحبه ابن غومس وقتلها ، وسمرت رأساهما
على خشبة طويلة على باب السدة من قصر قرطبة .

الفتنة

ذكر ابن عذارى أن السبب في قيام محمد بن هشام بن عبد الجبار بثورته أن الذلفاء أم عبد الملك المظفر بن أبي عامر وحظية المنصور ، آتت أخاه عبد الرحمن شنجول بالتدبير عليها ، وقتله أخيه المظفر ، فحققت عليه اغتياله له ، وسعت في حقه عند بني مروان عداة قومها ، بوساطة بشر الصقلي من الفتيان العامرية المنحرفين عن عبد الرحمن شنجول . فأرشده هؤلاء إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي كان يتسم بالقوة والبأس ، ففتح معه باب التدبير ، ووعدته عن الذلفاء الإعانة بالمال^(١) . وبويع محمد بن هشام سرّاً ، واستمال إليه خلقاً كثيراً كانوا يبايعونه بأطراف قرطبة ، ثم واثته الفرصة عند سفر عبد الرحمن شنجول في غزوته المشؤومة ، وفي ١٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، تمكن محمد بن هشام من الوثوب ، يؤيده أقاربه من بني مروان ، وأنصاره من العامة والغوغاء وسفلة القوم ممن وجدوا في ذلك فرصة للسلب والنهب ، ونجح رجاله في اقتناص صاحب المدينة عبد الله بن عمر ، فأمر محمد بن هشام بضرب عنقه^(٢) . ثم أرسل بعض رجاله إلى سجن العامة فأطلقوا سراح من فيه من اللصوص المجرمين . وفي تلك الليلة تنازل هشام المؤيد عن الخلافة لمحمد ابن عبد الجبار الذي تلقب منذ ذلك الحين بالمهدى . وعلى أثر ذلك أنفذ محمد ابن هشام ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة مع فرقة من رجاله إلى الزاهرة لمخاطبة أهلها في الاستسلام ، وانضم إليه من العامة النهاية حشود لا عد لها ولا حصر ، تدفقت على المدينة كالسيل الجارف ، واجتاحوا سورها فخرّبوه^(٣) ، وانتشروا في قصر المظفر

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ٥٢ ، ابن الخطيب ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) Lévi-Provençal Histoire, t. II, p. 298.

(٣) يذكر التويرى أن قصر الزاهرة فتحت فيه ثغرات من جانب باب السباع باب الجنان ، وعجز حراسه عن الدفاع منه ، ثم دخله محمد من باب السدة (Sanchez Albornos, t. I, p. 379)

ينهبون تحفه ويسلبون روائحه ، واستولوا على المال والجوهر وفاخر الأمتعة ، ودمرت العامة أكثر خزائن الكسوة والفرش والأمتعة والطيب والحلية والذخائر والسلاح والعدة. ثم أمر محمد بن هشام بهدم المدينة ، وتدمير أسوارها ، واقتلاع أبوابها ، وتشيعت قصورها ، وطمس آثارها^(١) ، فخربت الزاهرة ، ومضت كأس الدابرة ، وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر^(٢) .

اعتمد الخليفة المهدي على قوته الجديدة التي تتألف من أراذل العامة وأسافلهم ، وعارض بهم أجناد الدولة ، أهل الدربة والحنكة ، واستوزر رجالاً من الطبقة الدنيا ، وعلى هذا النحو اعتبر العامة من أهل قرطبة تولية المهدي الخلافة انتصاراً لهم ، فأقاموا الأفراح والولائم والأعراس ، « وداموا على ذلك أياماً تباعاً يتنقلون من موضع إلى موضع بالمزامر والملاحم^(٣) » . واستبد هؤلاء العوام ، وركبهم الغرور ، فأساءوا إلى قواد الجند ووجوه الناس ولم يميزوا بين أعلاهم وأدناهم^(٤) . وهاجمت طائفة منهم دور بني ماكسن بن زيري ، ودوراً لبني زاوي بن زيري وغيرها من دور زعماء البربر بالرصافة ، وانتهبها ، وهنا بدأت النفوس تنحرف عن طاعته ، وازداد الأمر سوءاً عقب كتابة واضح العامري إليه بالطاعة من طليطلة ، فزاد هذا من جبروته ، وأخرج الخليفة المؤيد من قصره ، وأسكنه ببعض دور الملك ، وأحضر للناس رجلاً ميتاً قيل إنه يهودي أو نصراني ، وزعم أنه هشام المؤيد . وشهد الوزراء والعدول على ذلك . ثم أنه اكتسب عدااء العامريين له إذ أسقط منهم نحواً من سبعة آلاف ، فاتجهوا إلى شرق الأندلس واستقام لهم الأمر هناك . وكذلك أعلن محمد بن هشام بغضه للبربر ، وعلى هذا النحو تألف من هؤلاء جميعاً حزب معاد لمحمد بن هشام ،

(١) ابن عذاري ج ٣ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ابن الخطيب كتاب أعمال الأعلام ص ١٢٩ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٢ .

(٣) ابن عذاري ج ٣ ص ٧٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٣٠ .

(٤) يذكر ابن عذاري في هذا الصدد أن زاوي بن زيري (أحد أمراء بني زيري الصنهاجين) ،

الذين استقدمهم المظفر عبد الملك إلى الأندلس وهم زاوي وحجاسة وحبوس ابنا أخيه ماكسن ، واستخدمهم في جيشه وأصبحوا يؤلفون له قوة هائلة : انظر

Lévi-Provençal : Les mémoires du Roi Ziride Abdallah, al-Andalus, 1935, p. 241.)

زعيم صنهاجة أصحاب أفريقية ، احتبسه النوغاء بالباب للإزدحام مدة لا يفرج له ، ولا يعرف مكانه ، وكلما هم بالاستقدام ردوه ، وقرعوا رأس فرسه (ابن عذاري ج ٣ ص ٧٥) .

انضم إلى هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي أقام له معسكراً بفحص السراشق^(١) خارج قرطبة ، وتلقب بالرشيد ، وحاول الرشيد أن يقضى على دولة المهدي ، ولكنه منى بهزيمة نكراء وقبض عليه المهدي وقتله . واشتعلت بذلك نيران الفتنة بقرطبة بين البربر والعامة وشجع المهدي بن عبد الجبار العامة على تقتيل البربر أينما وجدوا ، فقامت مذبحة بشعة ، قتل فيها عدد كبير من البربر ، واضطروا إلى الخروج من قرطبة إلى الثغر^(٢) ، وانضم إليهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ، ولذلك سمى سليمان عند أهل قرطبة بإمام البربر ، فاجتمعوا إليه وولوه عليهم ، وعقدوا له الخلافة في شعبان ٣٩٩ ، في موضع يعرف بصلب الكلب^(٣) ، وتسمى بالمستعين بالله ، وكان البربر ينوون بذلك شراً ، فقد عقدوا العزم على فتح قرطبة وإسقاط المهدي . وفي سبيل ذلك عمدوا إلى الاستعانة بشانجة بن غرسية بن فرذلند ، قومس قشتالة . ولما وصل البربر إلى قلعة رباح في طريقهم إلى الثغر الأوسط ، أرسل إليهم المهدي رسولا من قبله يؤمنهم ويدعوهم للعودة إلى قرطبة ، هو عباس البرزالي ، ولكنهم لم يجيبوه ، وقالوا لرسوله : « لولا أنك رسول وتاجر لقتلناك وسيجازيه الله بما فعل^(٤) » . ثم وصلوا إلى وادي الحجارة وهزموا جيش واضح الفتي صاحب طليطلة والثغر الأوسط ، ودخلوها عنوة ، واستباحوا أهلها . ثم وصلوا بعد ذلك إلى مدينة سالم ، ولكن واضحا أبعدهم عنها وكتب إلى سائر الثغور إعلانا جاء فيه : « من حمل شيئا من الطعام إلى محلة البربر فقد حل ماله ودمه^(٥) » . فأقام البربر زهاء خمسة عشر يوماً يقتاتون بحشيش الأرض ، فلما اشتد عليهم الأمر أرسلوا رسلهم إلى شانجة بن غرسية ابن فرذلند قومس قشتالة Sancho Garcia المعروف لدى المؤرخين العرب باسم ابن مامة دونة^(٦) ، يطلبون منه مساعدتهم ومساعدتهم على أعدائهم . وكان شانجة يتابع عن

(١) هو أحد مشرقات قرطبة المشهورة ، يذهب إليه الناس للتنزه والتسرية عن النفس .

(٢) ابن عذاري ج ٣ ص ٨١ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٣١ .

Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 307.

(٣) ابن عذاري ج ٣ ص ٨٤ .

(٤) نفس المرجع ص ٨٢ .

(٥) نفس المرجع ص ٨٦ .

(٦) هذا الاسم تحريف من اسم جدة شانجة وأم فرذلند عند شلب التي كانت تسمى موما دونا

Mumma Domna (انظر ليث بروثسال II, Histoire, t. II ص ٣٠٨ ملحوظة رقم ١) .

كتب ما يجري في أراضى جيرانه المسلمين من أحداث حتى يتدخل في اللحظة المواتية، ولم يطل انتظاره فقد وصلته رسل المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار مع رسل واضح يحملون إليه الهدايا والتحف الجليلة، ويسألونه الصلح معهم على أن يعطوه ما أحب من مدائن الثغر^(١). ثم وصلته رسل البربر. وثبات له الفرصة للقضاء على قوة المسلمين، وذلك بمؤازرة البربر على أعدائهم، فأجابهم إلى ملتصمهم على أن يعطيه البربر إذا ظفروا ما يختار من مدائن الثغر. فوافقوه على ذلك، فأرسل إليهم ألف عجلة من الدقيق والعتاقير وأنواع المأكول، وألف ثور، وخمسة آلاف شاة. ثم سار إليهم بنفسه على رأس جيش كثيف، واشتبك جيش البربر وحلفائهم مع جيش واضح وابن عبد الجبار بالقرب من قلعة يقال لها قلعة عبد السلام، في وادي شربة، في محرم سنة ٤٠٠، وفيها هزم جيش واضح، وتقدم جيش البربر وراء جيش واضح نحو العاصمة، ووصل إلى أرملاط في ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠^(٢) هـ.

وفي هذه الأثناء كان ابن عبد الجبار يحصن أبواب قرطبة وأفواه الأرباض والأسوار، ووزع أجناده وقواده على مراكزهم، وأمر بحفر الخنادق حول الأرباض. ثم كان اللقاء بين الجيشين في ١٣ ربيع الأول في جبل يعرف بجبل قنطش^(٣)، بالقرب من التقاء الوادي الكبير بوادي أرملاط، وانتهت الموقعة بهزيمة جيش قرطبة هزيمة نكراء فر واضح على أثرها إلى الثغر، ووضع البربر السيف على أهل قرطبة^(٤) وذكروا أن عدد القتلى من أهل قرطبة تجاوز عشرة آلاف^(٥)، وقيل ثلاثين ألفا^(٦).

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٨٦.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٨٧.

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٤٢ . يسميها ابن حيان قنتيش، انظر ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٣٠. وفي هذه الموقعة يقول الشاعر أبو عمر أحمد بن دراج التسطلي :

واستردعوا جبي شربة . وقعة هز الجبال الراسيات رعوها
دلغوا إلى شهباء حان حصادها وطلى رموس الدارعين حصيدها
وشعاب قنتيش وقد حشرت لهم أم بغاة لا يكف عديدها

(٤) ابن عذاري ص ٨٩.

(٥) نفس المرجع ص ٩٠ ، ابن بسام القسم الأول ص ٣٠.

(٦) ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ١٣٢ . الأغلب أنهم ثلاثة آلاف كما ذكر ابن حيان

(انظر ابن بسام ص ٣٠) .

وقد هلك في هذه الواقعة أخلاط من الناس . وذكر ابن حيان أن من كل طبقة أخذت وقعة قتيش حتى من أهل الباطل ، فإنها ألصقت بالصميم في قتل قنبوط الملهي وزربوط المغني ونمطهما^(١) . وحاول ابن عبد الجبار غداة موقعة قتيش أن يستميل البربر ، فأظهر لهم هشاماً المؤيد لما كانوا يكثرون من الترحم عليه والمطالبة بدمه^(٢) ، وأجلسه حيث يراه الناس في منظره تشرف على باب القنطرة . ولكن ذلك لم يخفنه شيئاً ، إذ تمسك البربر بسليمان المستعين بالله ، بل أساء إليه ، فقد ذكر ابن عذارى أن البربر قالوا لابن ذكوان رسول المهدي إليهم ؛ « سبحان الله يا قاضي ، يموت هشام بالأمس وتصلي عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه ، وجعلوا يتضاحكون منه »^(٣) . عندئذ تحايل ابن عبد الجبار على الفرار ، فخرج من قصر قطبة ليلاً ، واختفى في المدينة أياماً ، ثم رحل متنكراً إلى طليطلة في أول جمادى الأولى سنة ٤٠٠ هـ ، حيث أقام في كنف واضح الفتي الذي تمسك هو وأهل طليطلة بطاعته .

(١) ابن يمام : الفخيرة للقسم الأول ص ٣١

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابن عذارى ج ٣ ص ٨٩

عهد سليمان المستعين والحرب الأهلية

دخل سليمان المستعين قصر قرطبة في ١٦ ربيع الأول ، وبايعه أهل قرطبة في المسجد الجامع في ١٧ ربيع الأول . وأنفذ كتبه إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة بغير فتح قرطبة ، وبالع في وصف قهره لأهلها ، واستباحته دماهم ، إرهاباً للناس وإنذاراً لهم . غير أن هذا التصرف أثار عليه حفيظة الناس « فكان أجلب لنفار القلوب ، وقرف الندوب ، وبعد الشرود ، ونش الحقد ، لما وتر جميعهم بالحادثة في قرطبتهم ، فاستشعروا بعضه ، وانقادوا لكل من عانده ، ورد أمره من عبد أوفر ، فرعاً إليهم منه ، وبأساً من خير يجيئهم من برابرة ، فكان ذلك سبباً في تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف (١) » .

وكان سليمان يعتمد على قوة البربر ، فانتقل بجملته جيشه البربري إلى مدينة الزهراء ، حتى يبعدهم عن أهل قرطبة المتورين على نحو ما فعل الخليفة المعتصم بالله العباسي عندما انتقل بجملته عساكره الأتراك إلى سامراء التي اتخذها قاعدة لخلافته . ولا استقرت دعائم ملكه ، رحل إلى طليطلة في ١١ جمادى الآخرة سنة ٤٠٠ هـ (آخر يناير سنة ١٠١٠ م) ، ليزيل الخلاف بينه وبين أهلها ، تمهيداً لدخولهم في طاعته ، ولكنه لم ينجح في مهمته لتمسك أهل الثغر بطاعة المهدي وواضح الفتى . وكان واضح قد خرج من مدينة سالم ومضى إلى طرطوشة قريباً من الحدود الفاصلة بين الثغر وإقليم قطالونية ، واتفق مع قومن برشلونة ويموند بوريل الثالث ، وأخيه أرمنجول (يسميه العرب أرمقند) Armengol de Urgel ، Raimond Borrell ، على أن

(١) ابن بسام : الذخيرة . القسم الأول ص ٢٥ . يذكر ابن حيان أن أيامه « كانت كلها شداداً ذكداً ، صاباً مشؤمات ، كربات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا فرق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تغير السيرة وخرق الهيبة ، واشتغال الفتنة ، واعتلاء المعصية ، وطعن الأمن وحلول المخافة : دولة كفاها ذماً أن أنشأها شائخة فقتلها أرمقند ، وثبتها الجلالقة ، ومزقتها الإفريجة ، ودبرها قاجرش ، ووزر لها خب دنى . . . » انظر المرجع السابق .

يساعده حريباً نظير تخليه لهم عن مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، فدخلها الإفرنج ، وحولوا مسجدتها الجامع إلى كنيسة ، وشرطوا على واضح شروطاً قاسية منها : أن يلتزم لكل رجل منهم دينارين في كل يوم بالإضافة إلى ما يقوم به من الشراب واللحم وغير ذلك ، وأن يجري على القومس في كل يوم مائة دينار وما يقوم به من الطعام والشراب ، وأن يستولوا على كل ما في معسكر البربر من سلاح ومال غنيمة لهم ، وأن يستحلوا نساء البربر ودماءهم وأموالهم^(١) .

وتقدم جيش واضح مع جيش حلفائه النصاري إلى سرقسطة ، ثم سار بهم واضح إلى طليطلة حتى ينضم إليهم ابن عبد الجبار ، ومن هناك زحفت جيوشه نحو قرطبة . وذكر ابن عذارى نقلاً عن كتاب الاقتضاب أن جيش ابن عبد الجبار كان يبلغ وقتئذ نحواً من ٣٩ ألف فارس ، منهم تسعة آلاف من النصاري^(٢) . وخرج سليمان المستعين للقائهم على رأس جيشه البربري بعد أن تخلى أهل قرطبة عن نجدته . والتقى الفريقان في موضع يقع على بعد ٢٠ ك . م شمال قرطبة يعرف بدار البقر^(٣) أو عقبة البقر^(٤) ، وفيها انهزم سليمان وجيشه البربري بعد أن كبده البربر أعداءهم خسائر جسيمة ، إذ قتلوا من النصاري عدداً كبيراً ، من بينهم الملك أرمقند Armengol^(٥) . وتراجعت حشود البربر إلى الجزيرة الخضراء ، بعد أن مروا بمدينة الزهراء ، وأجلوا عنها أولادهم ونساءهم ، وكانوا يزمعون العودة إلى العدو إذا ساءت

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ٩٤

Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 313. — Aguado Bleye, p. 506-507

(٢) ابن عذارى المراكشي : ج ٣ ص ٩٦ .

(٣) عبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٤٢ .

(٤) Dozy, Histoire, t. II, p. 297 — Lévi-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xe.

siècle, p. 149. — Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 313.

هذا المرقع يعرف الروم باسم El Gastille del Bacar

(٥) في هذا الانتصار يقول الشاعر ابن دراج القسطل في مدحه للمستعين :

وكتاب الإفرنج إذ كادتك في أشياها والله عنك يميدها

بسوايح في أج بحر سوايح فاضت على الأرض القضاء مدودها

واقعد أضافوا نرحا وغرابها وقوامها طاغوتها وعميدها

شلو لأرمقودها حشدت به للزحف ثم إلى الجحيم حشودها

(انظر ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٥٢) .

الأمور بالنسبة لهم . أما سليمان فقد نجا بنفسه وفر إلى شاطبة . وانتهز عامة قرطبة فرصة خروج البربر عن مدينة الزهراء ، فدخلوها ، ونهبوا ما وجدوه فيها من تحف ، ودخلوا المسجد الجامع ، وجردوه من حصره وقناديله ومصاحفه وصفائح أبوابه (١) . أما المهدي محمد بن عبد الجبار فقد دخل قرطبة وأخذ لنفسه البيعة ، ثم أقسم ألا يستقر حتى ينهي من أمر البربر ، وأقرضه أهل قرطبة مالا استعان به في الخروج لمطاردة فلول البربر ، وانضمت إليه حشود هائلة من العبيد والفتيان العامرية أمثال عنبر وخيران قدموا من شاطبة ، لمساعدته في الظاهر . وإن كانوا يضمرون له سوء لما فعله بهشام المؤيد وبعيد الرحمن شنجول . وزحفت جيوشه مع من انضم إليها من أهل قرطبة والبادي والإفرنج ، والتقوا مع قوات البربر في وادي آره Guadiaro (٢) بالقرب من الرندة ، في ٦ ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ (٢١ يونيو سنة ١٠١٠ م) . وانتهت الواقعة بهزيمة جيوش واضح وابن عبد الجبار والإفرنج مجتمعة ، هزيمة شنعاء ، وقتل من الإفرنج ما يزيد على ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد كبير (٣) . واحتوى البربر على ما في معسكرهم من مال وسلاح ودواب . وكان بين القتلى من الإفرنج وزير يهودي لملك الإفرنج ريموند بورييل . وبالرغم من تلك الهزيمة حاول ابن عبد الجبار وواضح إعادة الكرة ، فسألا قواد الإفرنج في معاودة القتال ، ولكنهم امتنعوا عن إجابتهم ، ثم رحلوا إلى بلادهم . وعدل ابن عبد الجبار وواضح عن معاودة السير لقتال البربر تهيأ من لقائهم ، واكتفى بإعادة حفر خندق يدور حول قرطبة ، كما أمر بإقامة سور خلف هذا الخندق (٤) .

أما البربر فقد أحسوا بقوتهم بعد غلبتهم لأعدائهم ، فاستولوا على جبل يشتر ، وأخذوا يغيرون كل يوم على نواحي قرطبة . وبدأت النفوس تنقلب على ابن عبد الجبار بسبب فشله المتواصل أمام البربر ، واستغراقه في الفسق والجور ، ودبر حاجبه واضح قتله ، ولعل السبب في هذا يرجع إلى طمعه في أن يقوم بدور المنصور .

(١) ابن عذاري ج ٣ ص ٩٥ .

(٢) ليس هذا الوادي هو وادي أيرة Guadaira الذي حسب دوزي أنه المكان الذي وقعت فيه الواقعة ، وإنما هو وادي آرو من أحواز مرتبة ويعرف بوادي البتائين (انظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٢٥ - Dozy : Histoire, op. cit. p. 293.) .

(٣) ابن عذاري ج ٣ ص ٩٨ .

(٤) ابن عذاري ج ٣ ص ٩٩ - ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ص ١٣٥ .

ابن أبي عامر بالنسبة لهشام المؤيد الضعيف^(١) ، فأوعز إلى طائفة العبيد العامرية بالقبض عليه ، وقتله في ٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليو سنة ١٠١٠ م) ، وأعاد الخلافة إلى هشام المؤيد ، وبعث برأس ابن عبد الجبار إلى سليمان المستعين^(٢) إرضاء له ولحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعويهم إلى الدخول في طاعة الخليفة هشام المؤيد باعتباره الخليفة الشرعي . ولكن ذلك لم يجده نفعاً ، إذ تألم سليمان وأصحابه البربر للمصير التعس الذي لقيه ابن عبد الجبار من أتباعه الخونة ، وسخطوا على واضح لغدره وخيائته .

وعلى هذا النحو ازداد البربر عزماً على دخول قرطبة ، فأخذوا يغيرون على أرباضها ، يقتلون ويقتلون بأهلها ، ثم دخلوا مدينة الزهراء في ٢٣ ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (٤ نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، وقتلوا من بها من الجند والحراس . ثم ضربوا الحصار على قرطبة نفسها ، وقطعوا عنها المؤن والأقوات ، وتوجه فريق منهم إلى جيان ومالقة والبيرة والجزيرة ، فأدخلوها في طاعة المستعين .

وكانت الأمور في قرطبة قد ساءت إلى درجة كبيرة ، فاشتدت الأزمة ، وانعدمت الأقوات ، وهدمت السيول جوانب كثيرة من قرطبة ، وإزاء هذا كله لم يجد واضح مفرّاً سوى الهروب إلى الثغر ، ولكنه فشل في خطته ، إذ فطن له الجند وقبضوا عليه ، فاحتز ابن وداعة القرطبي رأسه في ١٥ ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٠١١ م) . ولم يجد مقتله شيئاً في علاج الموقف ، فقد ازداد حال أهل قرطبة سوءاً ، وتوالت هزائمهم ، وفي ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (٩ مايو سنة ١٠١٣ م) اقتحم البربر أرباض المدينة عنوة ، وأعملوا السيف في الرقاب ، ونثروا الخراب والدمار في كل شيء ، فاضطر أهل قرطبة إلى طلب الأمان ، وخرج القاضي ابن ذكوان مع بعض الفقهاء إلى سليمان المستعين ورؤساء القبائل البربرية ، وطلبوا منهم الأمان ، فأمنوهم وطلبوا منهم أموالاً كثيرة^(٣) . ثم دخل سليمان قصر قرطبة في ٢٧ شوال سنة ٤٠٣ هـ واستحضر هشاماً المؤيد بالله ، وربنجه على نكته العهد . فاعتذر هشام ، وخلع له نفسه . وذكرت جمهرة من مؤرخي العرب أن محمد بن سليمان المستعين اغتاله خنقاً في

(١) Lévi-Provençal, Histoire t. II, p. 315.

(٢) كان سليمان المستعين قد عاد إلى معسكر البربر بعد أن بلغه انتصارهم على ابن عبد الجبار .

(٣) ابن عذاري ص ١١٢ ، ابن الخطيب ص ١٣٨ .

هـ ذى القعدة سنة ٤٠٤ هـ ، وأشاع أنه فر لوجهه ، وعمل سقاء بالمرية ^(١) . وقال آخرون إن ابن عباد استحضر شيخاً مأفوناً حجبه عن الناس ، وزعم أنه هشام المؤيد حتى يستميل قلوب الناس إليه ، ويكتسب بذلك سنداً شرعياً .

وانتقل سليمان مع جملة جيشه البربرى إلى مدينة الزهراء ، بينما أقام بنو حمود العلويون في شقندة . ثم إنه قسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية إرضاء لهم ، فأعطى ألبيرة حبوس بن ماكسن الصنهاجى وذريته ، وأعطى جو فى البلاد لغراوة ، وأعطى سرقسطة لمنذر بن يحيى التجيبى ، الذى ساعد سليمان فى فتح قرطبة ، وأعطى جيان لبنى برزال وبنى يفرن ، وشذونة ومورور لبنى دمر وأزداجة ، ثم إنه منح علياً بن حمود ولاية سبتة ، والقاسم بن حمود ولاية طنجة وأصيلا والجزيرة الخضراء ^(٢) . وبذلك غلب العنصر البربرى على دولة سليمان المستعين ، مما حمل الفتيان العامرين على الهرب إلى شرق الأندلس ، خوفاً على أنفسهم من البربر ، حيث أقاموا لهم دولا فى بلنسية ، وشاطبة ، ودانية ، ولورقة ، وميورقة ، والمرية ، على نحو ما ستراه فيما بعد ، وأخذوا يكيّدون لسليمان المستعين ، ويدبرون له المؤامرات . ويذكر ابن الخطيب أن بعض العامرين الموالى والصنائع الهاشميين أرسلوا إلى على بن حمود أمير سبتة وثيقة منسوبة إلى هشام المؤيد وبخطه عهد فيها بالأمر بعده إلى على بن حمود ^(٣) . ثم أنهم

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ١١٣ ، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حل المغرب ص ١٨٩ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٤٠ ، فتح الطيب : ج ١ ص ٤٠٤ .
(٢) ابن عذارى ص ١١٣ ، ابن الخطيب ص ١٣٩ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٤١ . بينما يذكر ابن عذارى أن هشاماً المؤيد « عندما رآه من اضطراب أمره ، وتيقن من انصرام دولته ، صير إلى على بن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده » ، ورأسله إلى سبتة بذلك سرّاً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السرفيه إلى أزارنه وبلغ زمانه » (انظر ابن عذارى ص ١١٤ وابن بتمام الذخيرة القسم الأول ص ٢٦) . غير أن هذه الرواية تبدو غير منطقية لأن سليمان المستعين تخلص من هشام المؤيد عقب دخوله قصر قرطبة ، ثم إنه لم يبق على بن حمود على سبتة إلا بعد أن استرق له الأمر بعد فراغه من أمر هشام . ويغلب على الظن أن على بن حمود وهو فى سبتة كان يزعج الخروج على سليمان ، وإن كان يعد لذلك العدة سرّاً بدليل استبداده بالأمر فيها ، واستقلاله بها سنة ٤٠٤ هـ ، وبدليل أنه قتل محمداً بن عيسى قاضى سبتة والنقيب ابن يربوع وكلاهما من أنصار سليمان . ثم إنه خاطب أخاه القاسم باحتلال الجزيرة الخضراء ، وتعلل فى خروجه على طاعة سليمان بالنصبة المذكورة . وما يثبت هذا رأى أنه عندما خرج عن طاعة المستعين أظهر كتاباً نسبته إلى هشام يقول فيه : « أتقضى من أسر البربر ، والمستعين وأنت ول عهدي » ووجه به إلى حبوس الصنهاجى وإلى خيران العامرى ، فنصحا به بالتهوض إلى مملكة والامتيلاء عليها (انظر ابن عذارى ص ١١٦ ، ابن الخطيب ص ١٤١) .

تعهدوا له بتدليل الصعاب ، وهونوا له أمر الاستيلاء على الخلافة ، وأشار عليه حبوس الصنهاجى صاحب البيرة ، وخيران العامرى صاحب المرية ، بالتوجه إلى مالقة والاستيلاء عليها . ولم يتوان على عن المجاز إلى الأندلس بحجة الإفراج عن هشام المؤيد فى الظاهر ، مع أنه كان يعلم تماماً أن هشام قد مات مقتولا ، أما غرضه الأساسى الذى كان يضمرة فى الباطن فهو تقويض خلافة سليمان المستعين والظفر بها لنفسه . ثم اتجه إلى المرية حيث اجتمع مع خيران العامرى وغيره من الفتيان العامريين ؛ ومن هناك زحفت جيوشهما نحو قرطبة ، بينما تأهب أخوه القاسم لتقديم المساعدات إليه عند الضرورة^(١) .

وأبلغ سليمان نبأ تحالف على بن حمود وخيران العامرى عليه ؛ وعلم بمسير جيوشهما إليه ، فعظم عليه الأمر ، وخرج بمن تبنى من رجاله للقاء جيوش ابن حمود وخيران مجتمعة ، واشتبك الفريقان فى محرم سنة ٤٠٧ ، ولكنهم هزموه ، وتبصروا عليه وعلى أخيه . ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى ٢٢ محرم سنة ٤٠٧ هـ (يوليو سنة ١٠١٦ م) . تظاهر على بعدم معرفته موت هشام المؤيد حتى يبرر عدوانه على سليمان . وذكر ابن عذارى أنه طمع أن يجد هشاماً المؤيد بالله حياً ، فلم يوجد ، وذكر له أنه قتل ، وعرض عليه قبره ، فأخرجه وتعرف على جثته ، ثم أعاد دفنه . وأمر باحضار سليمان ، فضرب عنقه بيده ، ثم ضرب عنق أخيه عبد الرحمن ، ثم عنق أبيهما الشيخ ، وجعل رؤوس ثلاثتهم فى طست ، وأخرجت من القصر إلى المحلة ينادى عليها : هذا جزاء من قتل هشاماً المؤيد^(٢) .

(١) ابن بام : الذخيرة القسم الأول ص ٢٨ .

(٢) ابن بام : الذخيرة قسم أول ص ٢٩ ، ابن عذارى ج ٣ ص ١١٧ .

بنو حمود وسقوط الخلافة

بويج لعل بن حمود في باب السدة من قصر قرطبة وذلك في ٢٣ محرم سنة ٤٠٧هـ، وتلقب بالناصر لدين الله. وكان على موقفاً في بداية عهده، إذ كان حكمه يقوم على إرهاب البربر وتشدده في معاملته لهم، حتى أطاعه كل عصبى، وفي ذلك يقول ابن حيان: «وكان يجلس بنفسه لمظالم الناس وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب للوارد والصادر، يقيم الحدود مباشرة بنفسه، لا يحاشى أحداً من أكابر قومه. فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض، وسلكت السبل، ورنخا السعر...»^(١) وهكذا افتتح عهده بإقامة العدل وإنصاف المظلومين، فافتتن به أهل قرطبة وأحبوه^(٢).

ولكنهم سرعان ما كرهوه لما عاينوه من سرعة تحوله عنهم، وانصرافه إلى حزبه البربري، وتفضيله عليهم، ويرجع السبب في هذا التقلب إلى قيام المرتضى عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر سنة ٤٠٧هـ بشرق الأندلس بإيعاز من خيران العامري، وبيل أهل قرطبة إلى هذا الخليفة الجديد، فألزمهم المغارم وصب عليهم كل ضروب نكاله، وانتزع منهم السلام، وهدم دورهم، وقبض أبدي الحكام عن إنصافهم، وعزم على إخلاء قرطبة، وإبادة أهلها^(٣). فاشتد سخط الناس عليه وتبرم به خدمه وفتيان من صقالبة بنى مروان، فوثب عليه منهم

(١) ابن بسام: القسم الأول ص ٧٩-٨٠، ابن عذاري ج ٣ ص ١٢٢.

(٢) يروي ابن حيان أنه كان يقيم الحدود بنفسه، وضرب لذلك مثلاً فقال إنه «قدم إليه مصابة من البرابر الأكابر في جرائم تجاوزت حد النكال، فأمر بضرب أعناقهم وعشائرهم ينظرون خفوة، لا ينبسون ولا يحسرون عليه في شفاعته...» انظر ابن بسام ص ٨٠، ابن عذاري ص ١٢٢.

(٣) ابن بسام: الزخيرة القسم الأول ص ٨١، ٨٢ - ابن عذاري: ج ٣ ص ١٢١، ١٢٣.

ثلاثة هم منجح وليب وعجيب، وقتلوه في حمام قصره في غرة ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ^(١).

وخلفه أخوه القاسم بن حمود في ٤ ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ، وبدأ عهده بداية طيبة إذ اهتم بنشر الأمن في ربوع البلاد، وحاكم قتلة أخيه، فأقروا بجريمتهم، وأنكروا مواطاة أحد معهم في تديرها، فأمر بقتلهم^(٢). وعلى هذا النحو اطمأن الناس في حياتهم، وتنسموا روح الرفق. غير أن هذا الاطمئنان لم يطل أمد، فسرعان ما وقع القاسم تحت سيطرة البربر والفتيان العامرية القائمين بشرق الأندلس، فضعف أمره وتلاشى سلطانه، وكرهه أهل قرطبة لذلك، وندموا على خذلانهم لآل مروان. وكان أمراء شرق الأندلس ونخص بالذكر منهم زهيراً ونيران قد بايعوا المرتضى بالخلافة، وأعدوا له جيشاً كثيفاً لفتح قرطبة، وإعادة الخلافة لأصحابها الشرعيين من المروانيين.

وعرج هذا الجيش على غرناطة لمحاربة بني زيري الصنهاجيين، وكان يتولى غرناطة وقتئذ زعيم من أبناء زيري بن مناد هو زاوي بن زيري. فلما اشتبك الفريقان سنة ٤٠٩ هـ، أجمع أمراء شرق الأندلس على خذل المرتضى والغدر به، لما رأوه من صرامته وحدة نفسه، وخافوا من عاقبة تمكنه من البربر^(٣)، فانهزموا عنه رغم كثافة عددهم، ووفرة عدتهم، ولما وجد المرتضى نفسه وحيداً، فر بنفسه، ولكنه قتل بالقرب من وادي آش.

وعلى الرغم من انتصار زاوي بن زيري، فقد آثر الخروج من الأندلس، والعودة إلى المغرب، استنكاراً لما رآه من غدر أهل الأندلس، وما عاينه من خستهم ونذالتهم، فرحل إلى إفريقية هو وأولاده بعد أن رفض أتباعه الرحيل معه^(٤).

(١) انتهز هؤلاء فرصة دخوله حمام قصره وانشغاله بالاستحمام فهوى منجح على رأسه بكوب من النحاس غاية في الثقل، شجه به فقتل عليه، ثم أجهز الآخرون عليه بخناجرهم، وأغلقوا عليه باب الحمام، وتسللوا هاربين، فلما استطال نساؤه بقاءه بالحمام، دخلن عليه، فشهدنه قتيلاً. انظر ابن بسام: الذخيرة قسم أول ص ٨٢ وابن عذاري ج ٣ ص ١٢٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٥٦.

(٢) ابن بسام: الذخيرة: المجلد الثاني ص ١٢، ابن عذاري ص ١٣٠، وابن الخطيب ص ١٥١.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ٥٠.

(٤) ابن عذاري ج ٣ ص ١٢٨.

أحدث انهزام المرتضى وقتله صدى أليماً في نفوس أهل الأندلس، لأنه سجل تفوق العنصر البربري عليهم ، وازداد نفوذ البربر بعد قضائهم على المرتضى ، وتسلطوا على دولة القاسم بن حمود ، وانهز يحيى وإدريس ابنا أخيه المقتول فرصة ضعفه ، وعملا على خلع عمهما . فاتفقا على أن يتولى يحيى أمر مالقة ويتولى إدريس أمر سبتة . وما كاد يحيى ينتقل إلى مالقة حتى جمع جيشاً من جيرانه البربر زحف به إلى قرطبة . ولم يقو القاسم على مواجهة هذا الجيش ، ففر إلى إشبيلية في ٢٢ ربيع آخر سنة ٤١٢ هـ ، ودخل يحيى قرطبة ، وبايعه البربر وأهل قرطبة بالخلافة في أول جمادى الأولى سنة ٤١٢ هـ ، وتلقب بالمعتلى بالله ، والتزم يحيى سياسة تقوم على تجنب العصبية ، واتباع العدل والإنصاف ، لكن سرعان ما ركبه الغرور ، وداخله الإعجاب بنفسه فساءت حاله^(١) وخلعه البربر بقرطبة في ١٢ ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، واستدعوا القاسم من إشبيلية . ففر يحيى إلى مالقة ، ودخل القاسم قرطبة ، وجددت له فيها البيعة للمرة الثانية في ١٨ ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يطل به العهد في قرطبة ، إذ خلعه أهلها بسبب تسلط البربر على شؤون دولته ، واستبدادهم بالسلطان فثاروا عليه ، وأجمعوا على خلعه في ٢١ جمادى الآخرة سنة ٤١٤ هـ ، وحاصروه في قصره أياماً حتى أرغموه على مغادرته إلى الریض الغربى منها في جيشه البربرى . وأغلقوا عليه أبواب المدينة كلها طوال خمسين يوماً ، ثم اضطروا إلى مقاتلة البربر قتالاً الموت ، ففتحوا الأبواب ، وحطوا على البربر كالبواشق ، وهزموهم هزيمة شنعاء^(٢) ففر القاسم هو وأصحابه إلى إشبيلية ، وكان بها والداه محمد والحسن ، فأغلق أهل إشبيلية ، أبواب مدينتهم في وجهه في ١٢ شعبان سنة ٤١٤ هـ ، وذلك لكراهيتهم للبربر ، ثم أخرجوا ولديه ، وعهدوا بأمرهم إلى القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ، ولم يجد القاسم بداً من الرحيل ، فانصرف طريداً إلى شريش . ولما علم يحيى بن حمود بذلك زحف إلى شريش ، واستولى عليها ، وقبض على عمه ، وحمله معه مقيداً إلى مالقة .

أما أهل قرطبة فقد كانت نفوسهم قد ضاقت بالبربر ، وندموا على ما فعلوه ببني مروان ، وأجمعوا على رد الخلافة إليهم ، فاختاروا من أمراء المروانية ثلاثة هم سليمان بن المرتضى ومحمد بن العراقى وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار . واجتمع

(١) ابن بسام : الذخيرة ، المجلد الثاني ص ١٤

(٢) ابن عذارى ج ٣ ص ١٣٤ - عبد الواحد المراكشى ٥١ - ابن الخطيب ص ١٥٥ .

الناس في جامع قرطبة في ٤ رمضان سنة ٤١٤ على اختلاف طبقاتهم لانتخاب واحد منهم ومبايعته ، وعقدت البيعة بادي ذي بدء لسليمان بن المرتضى ، ولكن قدوم عبد الرحمن ، بن هشام بن عبد الجبار في شذمة من رجاله ، شاهرين سيوفهم ، حال دون إتمامها ، فبيع لعبد الرحمن ، وكشط شيوخ قرطبة الذين كانوا يسعون لخلافة سليمان اسم سليمان من الرق ، وكتبوا مكانه اسم عبد الرحمن بن هشام^(١) ، بعد أن استأمنوه على أنفسهم . فلما تم له الأمر وتلقب بالمستظهر بالله ، نكث عهده ، وسجنهم في المطبق بقرطبة ، فسعوا عليه من المطبق ، وكتبوا صاحب المدينة ، فاستجاب لدعوتهم هو وطائفة من أهل قرطبة ، وهاجموا المطبق وأفرجوا عنهم^(٢) . وتركز سخطهم على المستظهر ، فهاجموا القصر . وقيل إن أهل قرطبة ثاروا عليه لإكرامه وقدأ من البربر قدموا عليهم ، فصاح الناس : عاد شر البرابر جدعاً ، وهاج الناس وماجوا ، وقتلوا الضيوف البربر ، وحاصروا القصر .

وتسلق الثوار سور القصر ودخلوا على المستظهر ، فتخلى عنه وزراؤه وتركوه وحيداً أمام سيل جارف . فتجرد من ثيابه « حتى بنى في قميصه ، واستخفى في أذن الحمام » ، وفي هذه الأثناء أجلس الناس محمداً بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصر مجلس الخلافة ، وبايعوه في ٣ ذي القعدة سنة ٤١٤ . ثم عثر على المستظهر فيما بعد ، فحمل إلى محمد بن عبد الرحمن الذي تلقب بالمستكني بالله وقتل أمامه .

وهكذا افتتح المستكني بالله خلافته بجريرة شنعاء ، وواصل اجترامه بقتل ابن عمه محمد بن العراقي خنقاً سنة ٤١٥ هـ^(٣) ، وأعلن ولاية العهد من بعده لابن عمه سليمان ابن هشام بن عبيد الله . وكان المستكني بالله على تقيض المستظهر بالله سيئ الخلق عاهراً ، عاطلاً من الحصال والفضائل^(٤) ، ويشبهونه بالمستكني بالله العباسي لاشتراكهما في التوثب في الفتنة « واستظهارهما بالفسقة ، واعتداء كل واحد منهما على ابن عمه . . . ومن العجب أنهما اتفقا في الأخلاق والعهر واللعب ، وأن كل واحد منهما عاش اثنين وخمسين سنة ، وكل واحد منهما ملك سنة ونحو خمسة أشهر ،

(١) ابن بسام : القسم الأول ص ٣٥ ، وابن عذاري ج ٣ ص ١٢٥ ، ابن الخطيب ص ١٥٦ .

(٢) ابن بسام : القسم الأول ص ٣٧ ، ابن عذاري ص ١٣٧ ، ابن الخطيب ص ١٥٧ .

(٣) ابن عذاري ج ٣ ص ١٤٢ ، ابن الخطيب ص ١٥٨ .

(٤) يقول ابن حيان معداً مآثر المستظهر : « كان على حداثة سنة ذكياً يتغلباً لبياً أديباً =

وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً ، وتوافقا في اللقب . وبالحملة فهما رذلي قومهما^(١) ،
وفي أيامه امتد الدمار إلى قصور عبد الرحمن الناصر في قرطبة وقصور الزاهرة^(٢) .
وفي ٢٥ من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ ، دخل عليه وزراؤه وأمروه بأن يخرج
معهم لمقاتلة يحيى بن علي بن حمود الذي زحف من مالقة بقصد الاستيلاء على
قرطبة . فتظاهر بالقبول ، وهو يضم في قرارة نفسه النجاة بحياته ، فتسلل من
قصره بقرطبة في زى غانية بين امرأتين لم يميز منهما ، وخرج من قرطبة مع بعض
رجالها ، ويبدو أنه اختلف معهم على مال أثناء الطريق ، فقتلوه في بلدة أقليمج^(٣) .
واستعاد يحيى بن علي المعتلى بالله دولته بقرطبة في ١٦ رمضان سنة ٤١٦ هـ ،
وأقام بقرطبة ما يقرب من أربعة أشهر ، ثم رحل إلى مالقة في ٨ محرم سنة ٤١٧ هـ ،
وترك وزيره أبا جعفر أحمد بن موسى على قرطبة ، وانتهز حبوس بن ماكسن صاحب
غرناطة هذه الفرصة ، وأوعز إلى الموفق مجاهد وخيران بدخول قرطبة ، فلما تأكد
أهل قرطبة من وصولهما إليهم ، وثبوا على البربر وأعملوا فيهم السيف . وقيل إنهم قتلوا
منهم يومئذ نحو ألف رجل ، وفر الوزير أحمد بن موسى إلى مالقة ، وخاف يحيى
أن يعود قرطبة فيبطش به أهلها ، فأثر البقاء بمالقة . وظل كذلك حتى قتل
بخارج أبواب قرمونة في محرم سنة ٤٢٧ هـ على أيدي رجال إسماعيل بن عباد^(٤) .
أما خيران ومجاهد العامريان ، فقد أقاما بقرطبة ما يقرب من شهر ، ثم شجر بينهما

حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة يتصرف فيما شاء من الخطابة بديهة وروية ، ويصوغ
قطعا من الشعر مستجادة . . وقد اقتضب بحضرة الوزراء في أيامه عدة رسائل وتوقيعات لم يقصر فيها عن
الغاية ، يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة ، وبراعة من شرب النبيذ سرا وعلانية ، وكان في وقته نسيج وحده ،
ختم به فضلاء أهل بيته الناصريين ، فلم يأت بعده مثله . انظر ابن بسام الذخيرة القسم الأول ص ٤٠ ،
ابن عذارى ص ١٤٠ . أما المستكن بالله فيذكر عنه ابن القطان أنه : « لم يجلس للإمارة مدة الفتنة
أنقص منه ، إذ لم يزل معروفا بالخلف والبطالة ، أسير الشهوة عامر الخلوة ، ضداً لتثيله المستظهر
بالله في الطهارة والمرقة والذكاء » انظر ابن عذارى ص ١٤١ .

(١) ابن عذارى ص ١٤١ .

(٢) ابن عذارى ص ١٤٢ ، ابن الخطيب ص ١٥٨ . ذكر ابن بسام عن ابن حيان أن الذي
تولى هدم قصور قرطبة والزهاء رجل اسمه ابن باشة (انظر ابن بسام : الذخيرة المجلد الثاني ص ١١٢) .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ١٤٢ - ١٤٣ ، ابن الخطيب ص ١٥٩ . وقد ذكر عبد الواحد
المراكشي أنه فر إلى قرية بالشعر يقال لها شمنت تقع بالقرب من مدينة سالم (ص ٥٦) ويتفق المقرئ
معه في ذلك إذ يقول : « وفر المستكن إلى ناحية الشعر ومات في مقبره » ج ١ ص ٤١٣ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة القسم الأول ص ٢٧٢ ، ابن عذارى ص ١٨٨ .

خلاف ، وأخذ كل منهما يشك في نية الآخر . ويخاف منه ، فانسحب خيران من قرطبة في أواخر ربيع الآخر سنة ٤١٧ هـ ، بينما بقي مجاهد بها فترة من الوقت ، ثم غادرها إلى دانية^(١) .

أجمع أهل قرطبة بعد رحيل الفتيين العامريين على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الملك أخى المرتضى ، الذى غدر به العامريون وقتلوه فى وادى آش . فبايعوه وهو بحصن البنت^(٢) ، فى ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتد بالله . وظلوا يخطبون باسمه عامين وسبعة أشهر حتى قدم إليهم سنة ٤٢٠ هـ . ولم يطل عهده بقرطبة إذ استوزر رجلا يعرف بحكم ابن سعيد القزاز ، ويكنى بأبى العاص ، كان يكرهه أهل قرطبة لاستبداده برأيه وتعسفه ، ومخالفته لآراء الوزراء السابقين ، وإكراهه للبربر وإجزاله لهم العطاء ، فبطشوا به وقتلوه^(٣) . وانهز أمية بن عبد الرحمن بن هشام ابن سليمان ، أحد أمراء بنى مروان ، فرصة مقتل الوزير المذكور ، ليحرض العامة على المعتد سعيًا لإسقاطه . واعتلاء كرسى الخلافة مكانه . وثار أهل قرطبة وراء أمية فى ١٢ ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ ، وحاصر العامة قصر الخلافة ، وأخرج هشام من قصره هو ونساؤه وولده ، وأنزل إلى ساباط المسجد الجامع المؤدى إلى المقصورة ، وظل هناك أسيرًا ذليلاً ، يتوقع الموت فى كل لحظة^(٤) . وفى هذه الأثناء اجتمع شيوخ قرطبة والوزراء برئاسة أبى الحزم بن جهور ، واتفقوا على خلع المعتد بالله ، وإبطال رسم الخلافة جملة ، ولكن أمية بن عبد الرحمن كان حريصاً كل الحرص على الظفر بها^(٥) ، ولم يكن يخطر بباله أن تنتهى الأمور كذلك . ونودى فى الأسواق والأرباض ألا يبنى بقرطبة أحد من بنى أمية وألا يكفهم أحد من أهل المدينة . وانتهى بذلك أمر بنى أمية فى الأندلس وزالت خلافتهم وانقطعت الدعوة لهم .

(١) ابن عذارى ص ١٤٥ .

(٢) كان هشام بن محمد المذكور قد فر بنفسه بعد هزيمة أخيه المرتضى بالمقرب من غرناطة وأقام عند صاحبه عبد الله بن قاسم الفهرى صاحب حصن البنت (انظر ابن سعيد ص ٥٥) . وقيل إنه كان مقيماً بالثغر فى لاردة عند ابن هود (انظر المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٤١٣) .

(٣) قتله رجل يعرف بابن الحصار . (٤) ذكر ابن عذارى أن أول ما طلبه من السدنة الداخلين عليه إحضار كسيرة خبز يسد بها جوع طفلة له كان قد احتضنها سائراً لها بكه من قر ليلته . (ابن عذارى ص ١٥١) . وذكر المراكشى أنه لحق ومن معه بالثغور وأقام عند ابن هود فى لاردة حتى مات سنة ٤٢٧ هـ (المراكشى : المعجب ص ٥٨) .

(٥) ذكر ابن عذارى أن أهل قرطبة نصروه بعدم التطاع إلى الخلافة خشية أن يقتله الناس لانقلابهم على بنى أمية فقال لهم أمية : « يايعرف أنتم اليوم واقتلوني غدا » انظر ابن عذارى ص ١٥٠ ، ١٥١ .

عوامل سقوط الخلافة

كان أهل الأندلس يؤلفون أخلاطاً متنافرة من السكان بعضهم عرب ، وبعضهم بربر ، وبعضهم صقلابة ، وبعضهم مولدون ، وبعضهم مستعربون أو يهود^(١) . وكانت كل من هذه العناصر البشرية تميل إلى التكتل في بؤرات عمرانية خاصة بها ، فرى أن العنصر الغالب على قرطبة من العرب ، والعنصر الغالب على إشبيلية وطليطلة من المولدين ، والعنصر الغالب على غرناطة وقرمونة ومالقة من البربر . وكان لهذا أثره الكبير في ميل أهل الأندلس إلى الاستقلال ، والخروج عن السلطة المركزية^(٢) ، مما كان يقضى باستعمال القوة كوسيلة لازمة للوحدة السياسية . ومع ذلك فقد كانت القوة وحدها لا تكفل للأمير الحاكم السيطرة على سائر البلاد ، وكان لزاماً على الحاكم أن يصطنع الحزم ، لأن الرغبة في الاستقلال والانسلاخ عن جسم الدولة كانت تجعل هناك نوعاً من الحساسية عند الرعية إزاء الحاكم ، ثم إنها كانت تدفعهم إلى الثورة عليه كلما لمسوا منه استبداداً بشؤون الدولة أو تعسفاً في معاملته لهم . وقد أثبتت الحوادث التاريخية في الفترة التي عالجناها (من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية) أن القوة والعنف يدفعان إلى الفتنة . فقد شاهدنا كيف ثارت اليمنية وانقلبت على عبد الرحمن الداخل عندما أساء إلى زعيمها أبي الصباح

(١) لطن عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ١٧ - ٣٨ .

(٢) يرى الدكتور حسين مؤنس أن أهل الأندلس كانت تعوزهم روح الترابط والوحدة بسبب تفرقهم في شبه الجزيرة وأن هذا قد أدى إلى سهولة تمزيق البلاد (انظر La Chûte du Califat Umayyade p. 169) والحقيقة أن تفرق السكان في شبه الجزيرة لا دخل له بالوحدة السياسية التي تتوقف عادة على قوة الحكومة المركزية أو ضعفها ، وكل ما في الأمر أن امتداد سلاسل الجبال من الشرق أو الشمال الشرق إلى الغرب أو الجنوب الغربي قد ألّف حواجز ودروباً من الصعب اجتيازها في تلك العصور ، وقم الأندلس بذلك إلى أقاليم تكاد تكون منفصلة . وقد ساعد هذا الانقسام بطبيعة الحال على ميل أهل البلاد إلى النزعة الانفصالية .

ابن يحيى اليحصبي ، وكيف خذل القواد العرب خليفهم عبد الرحمن الناصر في موقعة شانت مانكش المعروفة بالحنديق سنة ٣٢٧ هـ لتقريبه صقالبته وفتيانهم عليهم (١) . ولا شك أن سياسة التغلب على البلاد بقوة السيف كانت تكفل خضوع الرعية واستكانتهم طوال عهد الحاكم الذي يصطنع هذه السياسة ، ولكنها كانت تدفعهم إلى الثورة من بعده ، وعلى هذا النحو نجد أن الحاكم الناجح هو من اتبع سياسة الترغيب والترهيب في آن واحد .

فبعد الرحمن الداخل بشهادة عدوه أبي جعفر المنصور استمال قلوب رعيته في الأندلس « بقضية سياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل له أيهم ، فاستولى فيها على أريكته ، ملكاً على قطيعته ، قاهراً لأعدائه ، حامياً لذماره ، مانعاً لحوزته ، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه ، إن ذلك هو الفتي كل الفتي لا يكذب مادحه (٢) » . ولذلك نجح عبد الرحمن في تأسيس دولة قوية الأركان . وكذلك اتبع عبد الرحمن الناصر سياسة تقوم على الإرخاء والجذب ، والشدة واللين ، وآتت هذه السياسة الحازمة الحكيمة

(١) يقول صاحب أخبار مجموعة في خبر هذه الواقعة : « ولكنه عفا الله عنه ما مال إلى اللهو ، واستولى عليه الدجب ، قول للهوى لا للنهـاء ، واستمد بغير الكفاة ، وأغاظ الأحرار بإقامة الأندال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره ، وفوض إليه جليل أموره ، وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه ، وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله ، فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ٣٢٦ هـ وسماها غزاة القدرة ، لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها ، فهزم فيها أتبع مزينة ، وأتبعهم العدو أياماً يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة ، فلم يكذ ينجو منهم إلا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا إلى بلدانهم ... » انظر أخبار مجموعة ص ١٥٥ - ١٥٦ . ويؤيد ذلك ما ذكره المسعودى في مروج الذهب من أن عبد الرحمن الناصر خرج لمحاربة الجلالقة سنة ٣٢٧ ولكنه هزم وقتل من رجاله نحو ٥٠ ألفاً منهم (مروج الذهب ومبادئ الجوهر ج ١ ص ٧٦ ، ١٠٨٣ هـ مصر) . وذكر ابن الخطيب أن طائفة من جند الناصر لدين الله حسدته ما هيا الله له من الصنع ولم تناصحه الحرب حق النصيح ، فجالت ثائرة للأعنة واختل مصاف القتال فانهزم الناصر . وقد قبض الناصر على ما يناهز ٣٠٠ من قرصانه فضليهم ونادي في قرطبة : هذا جزاء من غش الإسلام وكاد أهله وأهل بمصاف الجهاد (ص ٤٢) ويؤيد هذا الرأي من مؤرخى الأندلس المحدثين جتالث بلنسية فيذكر أن أشرف قواد الناصر ثاروا منه بأن تركوه يهزم أمام قواد ودميرة وطوطة . (انظر Gonzalez Palencia, historia . P. 45 . ويشكر الدكتور حسين مؤنس ما ينسبه صاحب أخبار مجموعة إلى الناصر ، ويرى أن العلاقة بين الناصر ووجوه رجاله لم تكن سوى علاقة مؤدة وتقدير (انظر

Hussain Monés : Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue en 1009, le Caire,

1948, p. 198.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

ثمرتها ، فكان عهده من أزهى عهود الإسلام في الأندلس . وبذلك أثبتت سياسة الاعتدال^(١) جدواها في تاريخ بني أمية في الأندلس .

والواقع أن سياسة الرفق بالرعية هي أصلح سياسة لدوام الملك واستمالة الرعية ، وقد ذكر ابن خلدون أن حسن الإمارة يعود إلى الرفق « فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منتقياً عن عورات الناس ، وتعدد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ، ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة ، فتخلقوا بها ، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم ، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات ، وربما أجمعوا على قتله لذلك ، فتنفسد الدولة ويخرب السياج ، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية^(٢) لما قلناه أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية ، وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم ، استناموا إليه ، ولاذوا به ، وأشربوا محبته ، واستناموا دونه في محاسبة أعدائه ، فاستقام الأمر من كل جانب^(٣) » .

وعلى هذا فإن انحراف الخلفاء الأمويين عن هذا المبدأ ، مبدأ التوسط والاعتدال سواء بالتفريط أو الإفراط ، يعتبر العامل الأساسي الذي أدى إلى سقوط الخلافة بقرطبة . ويتبع هذا العامل الأساسي عامل آخر لا يقل عنه في الأهمية وهو سياسة الخلفاء الأمويين منذ عبد الرحمن الناصر نحو إضعاف العصبية العربية . لقد نجح الناصر في إعادة وحدة الأندلس بعد تفككها ، وذلك باستنزاله الثوار والمتهزئين في الأندلس بالعنف حيناً وبالسلم أحياناً ، ولكنه وجد أن جيشه بنظامه القائم لا يمكن الاعتماد عليه لأن العنصر العربي كان العنصر المتفوق فيه ، وكانت العساكر المجندة في جيشه من سائر الكور والأقاليم توزع فيه وفقاً وقبائلهم وأقاليمهم ، ولذلك كانت

(١) التزم بهذه السياسة من أمراء بني أمية وخلفائهم عبد الرحمن الأوسط والحكم المستنصر ، ولذلك سادت الطمأنينة والرخاء في أيامهما والواقع أن الإفراط والتفريط في كل صفة من صفات صاحب السياسة أمران مذمومان . ويرى ابن خلدون أن المحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والبخل ، وكما في الشجاعة مع الهوج واللين وغير ذلك من الصفات الإنسانية (انظر المقدمة ص ١٨٩ المكتبة التجارية بمصر) .

(٢) كما فعل المتصور محمد بن أبي عامر إذ تعامل على العصبية العربية في الأندلس لاستبداده بالعرب دون الصقلية والإبربر ، ففسدت العصبية العربية لذلك وتحولت بعد وفاته بثمانية أعوام إلى بركان قذف البلاد بحممه .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ١٨٩ .

هذه الأجناد لا تخلص للأمير بقدر إخلاصها لولاها في الأقاليم ، لأنها كانت تنصب هؤلاء الولاة^(١) ، لذلك عمد الخليفة إلى إضعاف العصبية العربية في جيشه ، وتطعيم الجيش بعناصر جديدة ؛ فاستكثر من الصقالبة ، واصطنعهم في جيشه وحكومته واعتمد عليهم في سائر شؤون الدولة^(٢) . وعلى هذا النحو ضعفت العصبية العربية خاصة بعد هزيمة الناصر في موقعة شانت مانكش ، وكادت هذه العصبية تتلاشى في عهد الخليفة هشام المؤيد على يدي حاجبه المنصور محمد بن أبي عامر . إذ اعتمد في جيشه على عنصرين هما البربر والصقالبة ، ونظم الجيش إلى فرق تمثل القبائل في كل منها ، وكان يرى من وراء ذلك إلى إزالة العصبية الجنسية فيه ، ثم قضى على النظام الإقطاعي للجند وبدله بنظام المرتبات^(٣) . غير أن الخطأ الذي وقع فيه ابن أبي عامر هو استكثاره من البربر ، فقد جلب إلى قرطبة من بربر العدو وإفريقية عدداً كبيراً ضاقت بهم قرطبة وأرباضها^(٤) ، كما جلب كثيراً من الصقالبة وجعلهم فتياناً له . وذكر ابن الخطيب نقلاً عن التيجاني « أن المنصور هلك عن سبعة خلفاء من فتياه الأكابر ، وكان شأنهم في تلك الدولة الأموية كبيراً وهو ينوء بثقل كلفتهم الباهظة ، فلما تولى ولده عبد الملك بعده الأمر ، بلغ بهم ستة وعشرين خليفة ، فصاعف مؤونتهم أضعافاً كثيرة وكان من مشاهيرهم واضح ، وبشير ، ونظيف ، ونجا ، وشعلة ، ومظفر ، وزهير ، وخيران ، ونصر ، ونصير ، وطرفة ، وشفيق ، ويمن ، وواثق ،

(١) Lévi-Provençal, l'Espagne Musulmane au Xe. siècle, p. 136.

(٢) يذكر ابن عذاري أن عدد الفتيان الصقالبة الذين سكنوا مدينة الزهراء أيام الناصر بلغ ٣٧٥٠ قى (انظر البيان ج ٢ ص ٢٤٦) . وذكر المقرئ عن بعض المؤرخين أن عددهم بالزهراء قد بلغ ١٣٧٥٠ قى وقيل ١٠٨٧ (انظر المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣ - أزهار الرياض في أخبار عياض ج ٢ القاهرة ١٩٤٠ ص ٢٦٨) وإن كان يستصوب أن عددهم ٣٧٥٠ قى . وقد برز من فتيان الناصر عدد كبير منهم خلف الفتي صاحب الطراز ، وألفح الفتي صاحب الخيل ، ودرى صاحب الشرطة .

(٣) يقول المقرئ : « وكان عرب الأندلس متميزين بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم ، وتنعصهم في الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل ، فانحست مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس (انظر نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤) .

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢٨ ، ويقول ابن الخطيب إن عدة الفرسان من البربر الغرباء في ديوان ابن أبي عامر بلغ ثلاثة آلاف فارس ، يضاف إليهم ألفا راجل من الرقاصة السودان (انظر أعمال الأعلام ص ١١٩) .

وبشرى، والزاب، وبلق، وكوثر، وجعفر^(١). واعتمد المنصور في جيشه على هذين العنصرين : البربري والصقلبي ، وأهمل رجال العرب^(٢) . وقد أفسح هذا مجالا للأحقاد في نفوس العرب، وظلت هذه الأحقاد كامنة في حياته وحياة ابنه المظفر ولكنها ظهرت بعد ذلك ظهوراً مدمراً في عهد ابنه عبد الرحمن شنجول، فكانت سبباً في اشتعال نار الفتنة بين أهل قرطبة والبربر، وهي الفتنة التي أفضت إلى سقوط الخلافة الأموية، وانقراط عقدها .

فالمغالبة والممانعة لا تستند على حد قول ابن خلدون إلا على النعرة والعصبية ، فتى فسدت العصبية انهارت السلطة المركزية ، وعلى هذا كان فساد العصبية العربية وانقراضها بعد زوال الدولة العامرية سبباً في الإطاحة بالخلافة الأموية ، وقيام دويلات الطوائف^(٣) .

ولم يقتصر الفساد على تطاحن العناصر البشرية في الأندلس فيما بينها فحسب ، بل تجاوز ذلك إلى الاستعانة بخصوم الإسلام في الأندلس ونعنى بهم نصارى الشمال ، فقد أخذ كل فريق يستعين على جاره بالنصارى نظير إعطائهم بعض الحصون ، وكان ذلك كله على حساب دولة الإسلام ، وسرى في الكتاب القادم كيف تغلغل نفوذ قشتالة وليون في السياسة الداخلية لملوك الطوائف .

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٢١ .

(٢) يقول ابن خلدون : « إنه استدعى أهل العدو من رجال زنادة والبرابرة فرتب منهم جنداً واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهجة ومفراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم . . . وقدم رجال البرابرة وزنادة وآخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم » ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ - المقري ج ١ ص ٢٧٤ .

(٣) يقول ابن خلدون في المقدمة : « وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها ، واقتسموا خطتها ، وتنافسوا بينهم ، وتوزعوا بمالك الدولة ، وانترى كل واحد منهم على ما كان في ولايته، وشيخ بأنفه، وبلغتهم شأن العجم مع الدولة العباسية ، فتلقبوا بالقباب الملك ، وابسوا شارته . . . فاستظهروا مع أمرهم بالموال والمصطنعين والعراء على الأندلس من أهل العدو منذ قبائل البربر وزنادة وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين ضعف عصبية العرب واستبد ابن أبي عامر بالدولة ، فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس . . . المقدمة ص ١٥٥ - ١٥٦ .

ملحق (١)

نص إعلان ولاية عهد المسلمين لشنجول سنة ٣٩٩ هـ
من كتاب البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب^(١)
من إنشاء كاتب الرسائل أبو حفص أحمد بن برد

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أطلال الله بقاءه إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر، وأطلال الاستخارة، وأهمه ما جعل الله إليه من إمامة المسلمين ، واتقى حلول الأجل ، بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، أن يكون بقاء الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها ، ونظر عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، بعد أطراح الهوادة والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والتلف إلى الله جل جلاله بما يرضيه وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب ، عاملاً بالأشفاقة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً ألا وسيلة إليه أزكى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً هو أجدر أن يقلده الخلافة في فضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرث موكبه ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه وحزمه وثقافته من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد ابن أبي عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً إلى الخيرات (سابقاً في الحلبات^(٢)) مستولياً على الغايات ، جامعاً للمآثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعه إلى أرفع منازل الطاعة ، ويسمو بعينيه إلى أعلى درج النصيحة ، (أب منقطع القرين وصنو معدوم الغريم^(٣)) ومن

(١) ابن عذارى المراكشي ، البيان ، ج ٢ ، ص ٤٤ - ٤٦ .

(٢) فراغ أكملناه من كتاب أعمال الأعلام ص ١٠٧ .

(٣) جملة ناقصة أكلناها من نقح الطيب ج ١ ص ٤٠١ .

كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه ، ويحوى من خلائ الخير ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أبقاه الله لكثرة ما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أقل أن يكون ولي عهده القحطاني الذي جاء فيه الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه ، فلما استولى عنده الاختيار ، وتقابلت فيه الآثار ، لم يجد عنه مذهباً ولا إلى غيره مرجحاً ، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته ، وفوض إليه النظر في أمور الخلافة بعد وفاته ، طائعاً ، راضياً ، مجتهداً ، متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل بهوادة إليه ، ولا شرك نصيح الإسلام وأهله فيه ، وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة ، بولاية عهده فيها ، أن رأى ذلك في بقاء أمير المؤمنين أعزه الله وبعده ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله عهده هذا ، وأنفذه وأجازه وبثله ، لم يشترط فيه مشوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه ، وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمة الخلفاء الراشدين من آل له وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ، ولا يغير ولا يحول ولا يتأول ، وأشهد الله على ذلك وملائكته ، وكفى بالله شهيداً ، وأشهد من أوقع اسمه في هذا الكتاب ، وهو — أبقاه الله — جائر الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحض من ولي عهده المأمون ، ناصر الدولة ، أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور ، وفقه الله وقبوله لما قلده ، والتزامه لما التزمه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلاثمائة .

ملحق (ب)

نص إعلان ولاية عهد المسلمين من سليمان المستعين

إلى ابنه محمد سنة ٤٠٠ هـ

من « كتاب أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام »^(١)
من إنشاء كاتب الرسائل أبو حفص أحمد بن برد

« أما بعد فإن أمير المؤمنين لما جيله الله عليه وحيه إليه من الاجتهاد للمسلمين والنظر لهم والفكر في عواقبهم ، والحرص على مصالحهم ، والإشفاق من اختلافهم ، وإفراق كلمتهم ، رأى أن يجتهد لهم لماته ، كما اجتهد لهم في حياته ، بأن يرفع لهم علماً يهتدون به ، وينصب لهم وزراً يلجؤون إليه ، وموثلاً يتعطفون عليه ، يؤلف شملهم ، ويجمع كلمتهم ، ويلهم شعنتهم ، ويسكن فقرتهم ، ويؤمن روعتهم ، مقتدياً في ذلك بالأئمة المهتدين والخلفاء الرشدين ، الذين نظروا للأمة من بعدهم ، وأشفقوا من اختلاف كلمتهم ، وتفرق مذاهبهم ، عندما يفجئهم ما لا يحيد لهم عنه ، ولا بد منه من بغتات الأقدار ، وتقاد الأعمار ، الليل والنهار ، فأطال استخارة الله عز وجهه والرغبة إليه في إمداده ، بتوفيقه ومعاوضته بتسديده ، وحمله على ما فيه الخير له ولجميع المسلمين ، وجميل العاقبة في الدنيا والآخرة ، فآلى الله في روعه وثبت في خلده ، وقرر في نفسه أن محمداً بن أمير المؤمنين أولى أهل بيت الخلافة بولاية عهد المسلمين ، غير محاب له ولا آخذ بهوادة فيه ، بل لما قد علمته الخاصة والعامة من تكامل خلال الخير له واجتماع أدوات الفضل فيه ، وما هو عليه في دينه ، وهديه ، ورعيه ، وفضله ، وطهارة أثوابه ، وعفاف مذهبه ، وصلب نفسه ، واكتمال حلمه ، وسعة علمه ، وكمال أدبه ، واضطلاعه بأعباء الخلافة ، ومعرفته بمعاني السياسة ، ونفاذه في التدبير والإدارة ، فأمضى أمير المؤمنين ما استخار الله تعالى فيه ، وعزم عليه ، وجعل ولاية عهد المسلمين إلى محمد بن المستعين بالله

(١) ابن الخطيب . كتاب أعمال الأعلام ص ١٤٦ - ١٤٨ .

أمير المؤمنين، وهو يعتقد أنه قد خرج لجماعة المسلمين عما ألزمه الله من حقهم، وتبرأ إلى الله عما كلفه من أمرهم، وأدى الأمانة التي حملة الله في الاجتهاد لجماعتهم، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لإمامتهم، مبتغياً بذلك ثواب الله العظيم، وفضله الجسيم، ونظراً لأمة محمد عليه السلام، وتحصيئاً عليها واحتياطاً لها وهروباً من التقصير في حقها، والله يريه وجماعة المسلمين الخير والخيرة واليمن والبركة والسعادة والغبطة فيما وفق أمير المؤمنين له، وألهمه إليه فأعلم ذلك من عقد أمير المؤمنين وعهده وما أنقذه من فعله، وتقدم إلى أصحاب الصلوات في جوامع عمك بالدعاء له في خطب الجمع بما أدرجناه على كتابنا هذا، والله يسأل أمير المؤمنين أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير لهم وجميل العاقبة في دينهم ودنياهم، وأن يقارضه بجميل نيته لهم وكريم مذهبه فيهم، إنه ولي المجازاة بالإحسان عن الإحسان، والممتن بالفضل والامتنان، إن شاء الله. وكتب في النصف من جمادى الآخرة سنة ٤٠٠ هـ.

الفصل الثامن

الآثار الباقية من العصر الأموي

- (١) آثار المساجد
- (٢) آثار القصور
- (٣) آثار الأسوار والحصون والأبنية ذات المنافع العامة

الفصل الثامن

الآثار الباقية من العصر الأموي

١

آثار المساجد

يقترن عصر الفتوحات الإسلامية بإنشاء مراكز عمرانية إسلامية ، كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز للجيش من جهة ، وصبغ البلاد المفتوحة بالصبغة العربية الإسلامية من جهة ثانية ، وأولى هذه المدن التي أنشأها العرب بعد فتح العراق مدينة البصرة التي أسست على يدى أبي موسى الأشعري سنة ١٥ هـ ، والكوفة التي اختطها سعد بن أبي وقاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ (١) ، كما أتبع لمصر بعد أن امتدت إليها أشعة الإسلام سنة ٢١ هـ أن تشهد عاصمة جديدة هي القسطنطينية بدلا من الإسكندرية العاصمة القديمة . ولما تولى عقبة بن نافع الفهري قيادة جيوش المسلمين على برقة وطرابلس وإفريقية ، اختط سنة ٥٠ هـ قاعدة إسلامية هي مدينة القيروان . وهكذا تميز عصر الفتوحات بإنشاء المدن الإسلامية في سائر أنحاء العالم الإسلامي باستثناء الشام الذي كان يزخر بأخائذه ، وهي الدور المهجورة التي تركها أصحابها من الروم فراراً من جيوش العرب ، فأصبحت أخاخذ للعرب . ونزل العرب في مدنها التي اختطوها وفي المدن القديمة التي افتتحوها ، وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، وذلك بإقامة المساجد الجامعة التي كانت تتحكم في تخطيط المدينة وفي عمرانها ، على نحو ما فعلوه في دمشق والإسكندرية وقرطبة . وبذلك كانت المساجد هي الأساس الذي يعتمد عليه العرب في صبغ المدن المفتوحة بالصبغة الإسلامية ، إذ أن المسجد الجامع يصبح بمرور الزمن مركز المدينة وقلبها النابض ، فمنه تتفرع الطرق الكبرى المؤدية إلى أبواب المدينة ، وحول ساحته تقام الأسواق

(١) عبد العزيز سالم : « جامع الكوفة » مقال في الجزء الثاني من كتاب مساجد ومعاهد ، كتاب الشعب عدد ٧٨ القاهرة ١٩٦٠ ص ٢١٩ وما يليها

والحمامات والفنادق والقيساريات ، وفيه تعقد الاجتماعات السياسية ، وتوزع ألوية الجيش ، وتدرس العلوم الدينية وغير الدينية ، فليس غريباً إذن أن يسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المدينة الإسلامية^(١) ، وليس غريباً أن تتحول هذه المدن التي افتتحها العرب إلى مدن إسلامية قلباً وقالباً ، لا تختلف عن المدن التي اختطها العرب إلا بكثرة أبنيتها القديمة الدالة على الحضارات الدارسة القديمة ، كالجسور الرومانية ، وأقواس النصر ، والحمامات ، والملاعب ، والأسوار .

وهكذا كان بناء المسجد الجامع في الإسلام أساس العمران في المدن الإسلامية البناء أو التي يراد طبعها بالطابع الإسلامي ، فكان المسلمون منذ فجر الإسلام ، وفي زمن الفتوحات الكبرى ، يشيدون المسجد الجامع بادئ ذي بدء رغبة في إضفاء المصبغة الإسلامية على المدينة ، كما كانوا يبدأون بإنشائه قبل أى بناء آخر عند تأسيسهم للمدن الإسلامية ، وما يلبث العمران أن ينمو حول المسجد بالدور ومختلف الأبنية ، ويشد الناس الرحال إلى المدينة . أما بالنسبة للمدن المفتوحة ، فقد كان المسلمون يكتفون بمشاركة النصارى في كنائسهم ، كما فعلوا في الشام حين شاطروا نصارى دمشق في كنيسة يوحنا المعمدان ، وحدث في الأندلس ما حدث في الشام إذ امثل المسلمون الفاتحون لقرطبة ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر بن الخطاب من مشاطرة النصارى في كنائسهم ، فشاطروا نصارى قرطبة كنائسهم العظمى التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها بالقرب من السور الجنوبي الذي يحيط بالمدينة ، قبالة باب القنطرة ، وابتنوا في هذا الشطر جامعاً بسيط البناء غير منتظم التخطيط ، أسس حنش الصنعاني وأبو عبد الرحمن الحيلي التابعان قبلته بأيديهما ، وتركوا النصف الآخر للنصارى يقيمون فيه شعائهم الدينية^(٢) . كذلك أقيم جامع الجزيرة الخضراء على يدي عبد الله بن خالد على أنقاض كنيسة ، كما أسس جامع طليطلة هو الآخر على أساس كنيسة قديمة .

كل ذلك يدل دلالة واضحة على الدور الذي لعبه المسجد الجامع في المدينة

(١) انظر مقال « التخطيط ومظاهر العمران في العصور الإسلامية الوسطى » بمجلة المجلة ؛ العدد

التاسع سبتمبر سنة ١٩٥٧

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٤١ وما يليها - المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ص ٩٦ (عن الرازي) .

الإسلامية ، وعلى أهميته بالنسبة للمراكز العمرانية الأخرى في المدينة^(١) ، فكانت الأسواق العامة بالثياب والدياج ، والخوانيت الزاخرة بالعمود وأنواع الطيب ، والصاغة والعطارين تقام في ساحة المسجد ورجته المحيطة به ، وكانت تتفرع من هذه الساحة طرق المدينة الرئيسية ودروبها وشوارعها التي تفضى إلى الأبواب الخارجية ، وهكذا صار المسجد نقطة التحول في دراسة الطبوغرافية التاريخية للمدينة الإسلامية .

وإذا تحدثنا عن المساجد الأموية في الأندلس فإننا نقصد بذلك ما أقامه أمراء بني أمية في قرطبة وغيرها ولكننا سنقصر الحديث على أهم هذه المساجد بالنسبة لما يحتفظ به من آثار أى أننا سنتحدث عن المساجد التي بقيت منها آثارها وأولها المسجد الجامع بقرطبة ، وجامع إشبيلية وجامع طليطلة .

أولا : المسجد الجامع بقرطبة :

كان جامع قرطبة من الوجهة الفنية أروع أمثلة العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصر الوسيط ، ومن الوجهة العلمية ، أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية ، ويفد إليها طلاب المسلمين والعجم للدرس والتحصيل ، لذلك اشتهرت مدينة قرطبة لاشتهالها على المسجد الجامع « الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه^(٢) » . ويقول عنه الحميري إنه الجامع « المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع الدنيا كبر مساحة ، وإحكام صنعة ، وجمال هيئة ، وإتقان بنية ، تهتم به الخلفاء المرابطون ، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة ، وتتميا إثر تتميم ، حتى بلغ الغاية في الإتقان ، فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن حسنه الوصف ، فليس في مساجد المسلمين مثله تنميقاً وطولاً وعرضاً^(٣) » ، ويقول عنه الشريف الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » : « . . . وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً^(٤) » ، وهكذا

(١) Torres Balbás, los Edificios Hispánico-Musulmanes, Revista del Instituto

Egiptio, No. I, 1953, p. 92-98.

(٢) المقرئ نقلا عن الرازي ، نفح الطيب ج ٢ ص ٨ .

(٣) الحميري ، ص ١٥٣ .

(٤) Ach-Charif al-Idrisi, Waqf al-Masjid al-Jâmi bi-Qurt'uba, description de la

Grande Mosquée de Cordoue, éd. Dessus Lamare, Alger, 1949, p. 2.

أصبح يضرب بهذا المسجد الجامع المثل في العظمة والانتساع وفي كثرة الزخارف والجمال ، وقد بالغ مؤرخو العرب في المغرب والأندلس في وصفهم له ، فصوروه تصويراً أقرب إلى الخيال ، واختصوه بعنايتهم ، وعظموه وأجلوه ، وكتبوا في تاريخه ووصفه قصولا طوالاً^(١) تعد من أهم المصادر عن هذا الأثر الخالد الجليل .

ويرجع هذا التعظيم والإجلال لجامع قرطبة إلى أن حنش بن عبد الله الصنعاني ، وأبا عبد الرحمن الحبلي التابعين قد توليا تأسيسه بأيديهما ، وقوما محرابه . وقد احتفظ الأمير عبد الرحمن الأوسط بهذا المحراب النفيس عند زيادته لبيت الصلاة ، فنقله من موضعه القديم ، وركزه في مكانه من القبلة الجديدة^(٢) ، كذلك احتفظ المسجد الجامع في سائر زياداته باتجاه القبلة الذي حدده حنش الصنعاني ، رغم انحراف هذا الاتجاه عن الاتجاه الصحيح .

ولما شاور الخليفة الحكم المستنصر العلماء في رغبته في تصحيح اتجاه القبلة نحو الشرق ، عندما شرع في النظر في زيادته الكبرى بالجامع ، كما فعل أبوه الناصر في قبلة جامع الزهراء ، قال له الفقيه أبو إبراهيم : « يا أمير المؤمنين ، إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة ، وصلحاء المسلمين وعلمائهم ، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت ، متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم رحمهم الله تعالى . وإنما فضل من فضل بالاتباع ، وهلك من هلك بالابتداع . فأخذ الخليفة برأيه وقال : نعم ما قلت ! وإنما مذهبنا الاتباع^(٣) . »

ومن مظاهر إجلال المسلمين وتعظيمهم لهذا الجامع ما نعت به مؤرخو العرب ، فقد سماه عبد الواحد المراكشي بالجامع الأعظم^(٤) ، وكذلك وصفه ابن بشكوال^(٥)

(١) كرس له الإدريسي فصلاهما ، كما جعل له المقرئ في كتابه نفح الطيب فصلا خاصا ، وكذلك فعل غيره من المؤرخين العرب .

(٢) الرسالة الشريفة في الأقطار الأندلسية ص ١١٦ - ١١٧ ، يقول : « ورد في الأثر أنها (القبلة التي ركنها حنش) روضة من رياض الجنة ، وبقيت إلى بني أمية وبني بنيانا آخر لم يهدم المحراب ومشي على حيز خشب إلى أن وقف في موضعه اليوم تبركا به . »

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٨ .

(٤) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٧٢ .

(٥) المقرئ ج ٢ ص ٩٩ .

ولسان الدين بن الخطيب^(١) ، وقد بلغ من إجلال أهل الأندلس وتعظيمهم لمسجدهم بقرطبة أن جعلوه مركزاً دينياً هاماً يحج الناس إليه ، وفي ذلك يقول ابن المثنى شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط من قصيدة :

بنيت لله خير بيت ينخرس عن وصفه الأنام
حج إليه بكل أدب كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه إذا ما حُفَّ به السركن والمقام^(٢)

وكان تعظيم جامع قرطبة عند المسلمين سبباً في قدومهم إلى قرطبة لزيارته ، والاحتفال في بيت الصلاة فيه بالمناسبات الدينية الهامة ، باعتباره أكبر مساجد المغرب والأندلس قاطبة ، وأعظمها . وقد حفظ لنا المقرئ نصاً لأبي محمد بن صاحب الصلاة الولبي يصف فيه المسجد ، عندما جاء إلى قرطبة لحضور الاحتفال بليلة القدر في جامعها ، فيقول : « وإني شخصت إلى حضرة قرطبة — حرمها الله — منشرح الصدر لحضور ليلة القدر ، والجامع — قدس الله بقعته ومكانه ، وثبت أساسه وأركانه قد كسى ببردة الازدهاء ، وجلى في معرض البهاء ، كأن شرفاته^(٣) فلول في سنان أو أشرف أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حلل ، وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فترى نهراً قد أحرق به ليل ، كما أحرق بربوة سيل ، ليل دامس ، ونهار شامس » . ثم يتحدث عن الثريات النحاسية التي تتعلق فيها الكؤوس التي بداخلها المصابيح فيقول :

« ولذبال تألق كنضنضة الحيات ، أو إشارة السبابات في التحيات ، قد أترعت من السليط^(٤) كؤوسها ، ووصلت بمحاجن الحديد رؤوسها ، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة ، أو كالشعابين العائمة ، عصبت بها تفاح^(٥) من الصفر^(٦) ،

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٤٣ ، ٤٨ .

(٢) المقرئ ج ١ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٣) يقصد الشرفات الهرمية التي تشبه أمتة المنتشر ، والتي تعلو جدران الجامع .

(٤) السليط نوع من الزيوت التي تستخدم في المصابيح .

(٥) يقصد بالتفاح : الكرات النحاسية الصفراء .

(٦) الصفر نوع من النحاس .

كالحقاح الصففر ، بولغ في صقلها وجلالها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها
جليلت باللهب ، وأشربت ماء الذهب ، إن سميتها (١) طولا رأيت منها سبائك عسجد ،
أو قلائد زبرجد ، وإن أتيتها عرضاً رأيت أفلاكاً ولكنها غير دائرة ، ونجوماً ولكنها
ليست بسائرة ، تتعلق تعلق القرط من الذفرى (٢) ، وتبسط شعاعها بسط الأديم
حين يفري . ثم يصف الولبى مثذنة الجامع وقد زينت بالشموع ، فيقول : « والشمع
قد رفعت على المنار رفع البنود ، وعرضت عليها عرض الجنود ، ليجتلى طلاقة رواثها
القريب والبعيد ، ويستوى في هداية ضيائها الشقى والسعيد ، وقد قوبل منها مبيض
بمحمر ، وعورض بمخضر بمصفر ، تضحك بيكائها ، وتبكي بضحكها ، وتهلك
بجياتها ، وتحى بهلكها » . ثم ينتقل هذا الأديب إلى وصف رائحة البخور وهو
يتصاعد من الحجامر والمباخر المكعبة الشكل فيقول : « والطيب تفغم أفواجه ، وتنسم
أرواحه ، وتثار الألنجوج والند (٣) ، يسترجع من الحياة مائد (٤) ، وكلما تصاعد
وهو محاصر ، أطال من العمر ما كان قد تقاصر ، في صفوف مجامر ، ككعوب
مقامر » . ثم يصف قباب المسجد من الداخل والخارج ويصف زخارفها التي تكسو
الضلوع البارزة وما بين هذه الضلوع ، كما يصف المحراب وما يحيط به من نقوش
وزخارف ، فيقول : « وظهور القباب مؤلة (٥) ، وبطونها مهللة (٦) ، كأنها تيجان ،
رصع فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس محرابها أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش
الطواويس ، حتى كأنه بالهجرة مقرطق ، وبقوس قزح بمنطق ، وكأن اللازورد حول
وشومه وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام » (٧) ...
هذا الوصف الرائع البليغ الذي سجله قلم أحد كتاب الأندلس في عصر
الموحدين ، يصور لنا المكانة التي كان يشغلها جامع قرطبة عند المسلمين ، ومدى
تعظيمهم لبنائه ، وإعجابهم بزخارفه ونقوشه ، وإقبالهم على الدروس الدينية التي

(١) قصدها .

(٢) الذرى شمة الأذن .

(٣) البخور .

(٤) ما ذهب وول .

(٥) مسنة الشكل أو هرمية .

(٦) تشبه الأهلة ويقصد هنا الأتراس والعقود أو الضلوع المتقاطعة في داخل القبة أو باطنها .

(٧) المقرئ ج ٢ ص ٩٠ .

كانت تعقد بين بلاطاته وحول أساطينه . كذلك وصف هذا الجامع جمهرة من مؤرخي العرب وجغرافيتهم ، وأصبح ذكر الجامع لا يخلو من جميع تواريخهم ، ولولا أن هذا الأثر العظيم لا يزال راسخاً في مكانه اليوم ، تشهد عناصره بصدق أقوالهم ، لكننا قد اعتبرنا هذه الأوصاف ضرباً من الخرافة ، أو نوعاً من المبالغة الخيالية . وليس معنى هذا أن كل ما جاء في أقوالهم حقيقة يجب الأخذ بها ، فكثيراً ما تختلط في أقوال بعض المؤرخين العرب قصص خيالية ، وذلك تفخيماً للجامع أو تعظيماً له ، مثال ذلك ما ذكره عبد الواحد المراكشي ، من أنه لما دخل ألفونسو الأول ملك أرغون مدينة قرطبة سنة ٥٠٣ هـ « دخل النصراني في هذا المسجد بنحيلهم ، فأقاموا به يومين لم تبل دوابهم ، ولم تثر حتى خرجوا منه »^(١) ، وروى ابن القوطية أن النورمنديين لما أرادوا إحراق جامع إشبيلية « جمعوا الخشب والحصر في أحد البلاطات ليدخلوا النار ويتصل بالسقف ، فخرج إليهم من جانب المحراب فني ، فأخرجهم عن المسجد ، ومنعهم دخوله ثلاثة أيام حتى حدثت الواقعة بينهم »^(٢) . وذكر ابن بشكوال في رواية استشهد بها للدلالة على بقعة جامع قرطبة المقدسة فقال إن « موضع الجامع الأعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وغيرها ، فلما قدم سليمان بن داود - صلى الله عليهما - ودخل قرطبة ، قال للجن : ارموا هذا الموضع وعدلوا مكانه ، فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه . ففعلوا ما أمرهم به وبني فيه بعد ذلك الجامع المذكور »^(٣) .

وذكر المقرئ : « قد شاع وذاع على ألسنة الجمل الغفير من الناس في هذه البلاد الشرقية وغيرها ، أن في جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقاً على عدد أيام السنة ، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود »^(٤) .

وذكر أبو حامد الغرناطي الأندلسي في كتابه « عجائب المخلوقات »^(٥) أن « بهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر ، مكتوب على الواحد اسم محمد ، صلى الله عليه

(١) عبد الواحد المراكشي ص ٣٧٢ .

(٢) ابن القوطية ص ٦٦ .

(٣) المقرئ ج ٢ ص ٩٩ .

(٤) المقرئ ج ٢ ص ٦٠ .

(٥) مخطوطة محفوظة اليوم بمكتبة أكسفورد تحت رقم Hunt 565

وسلم ، وعلى الثاني صفة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الآخر صورة غراب نوح ، الثلاثة خلقة ربانية ، ويستبعد المقرئ هذا القول^(١) .

هذا كله يؤلف موضوعاً من موضوعات القصصى الشعبى الأندلسى الذى تواتر على مر العصور ، فأورده المؤرخون نقلاً عن السنة العامة ، ومع ذلك فقد أوضحوا فى كثير من الأحيان ، أنه مما يشاع بين الناس ، حتى يميزوا بين ما يقولونه هم أنفسهم طبقاً لما شاهدوه فى رحلاتهم ، وبين ما قاله عامة الناس .

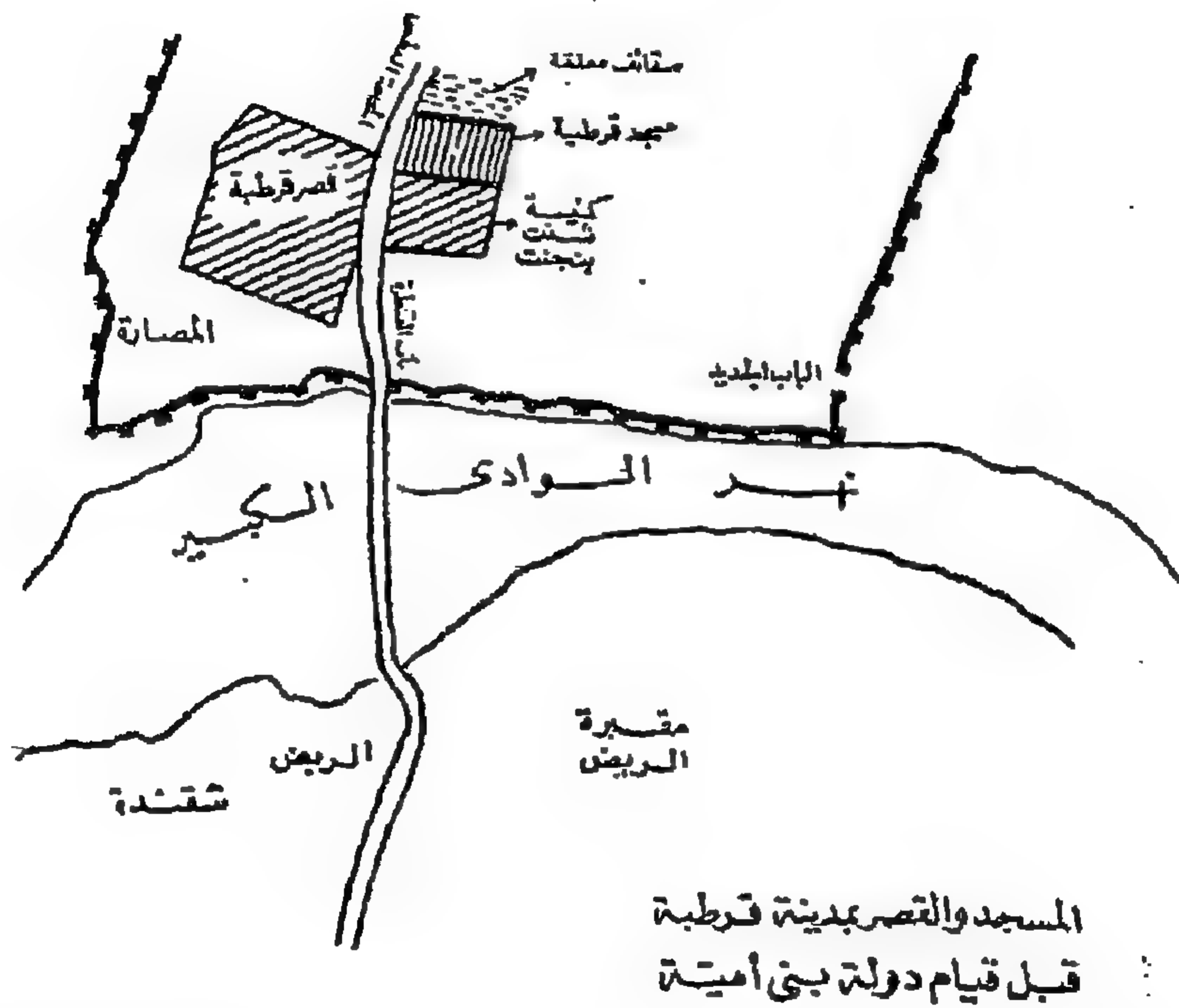
وكان جامع قرطبة موضع إجلال المسلمين والمسيحيين على السواء ، إذ كان ينظر إليه على أنه من الآثار الجلية ، التى تزدان بها الأندلس ، ثم إنه كان يعد أعظم جامعة غربية فى أوروبا فى العصر الوسيط ، وقد قيل إن البراهب جيرير الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى ، أتم دراسته فى جامع قرطبة ، ولا نشك فى أن كثيرين من نصارى الأندلس من أهل الذمة قد تعلموا فيه علوم العربية ، واستعربوا ، أى تنقفوا بالثقافة العربية — إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين فى حياتهم ، رغبة فى تقلد المناصب الكبرى فى الإدارة ودواوين الحكومة ، وقد نبغ منهم كثيرون فى آداب اللغة العربية ، وظهر منهم الشعراء والكتاب .

المسجد الجامع فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل :

لما افتتح المسلمون بقيادة مغيث الرومى مدينة قرطبة ، اختاروا كنيسة الكبرى المعروفة بشت بنجنت St. Vincent التى كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها بالقرب من السور الجنوبى الذى يحيط بها ، قبالة باب القنطرة ، لإقامة مسجدهم الجامع ، فشاطروا نصارى قرطبة فى هذه الكنيسة ، وأقاموا فى شطرهم مسجداً بسيطاً ساذج البناء ، أسس حنش الصنعانى قبلته يديه ، وكان من الطبيعى أن يقنع الفاتحون بهذا المسجد البسيط ، إذ كانوا مجرد محاربين وافدين ، حديثى عهد بالبلاد ، وليس منهم من كان عارفاً بفن البناء ، ثم إنهم كانوا يجهلون مواطن الحجر ومصادر استخراج الرخام وغيره من مواد البناء ، وتمضى الأيام ، ويتكاثر عدد المسلمين الوافدين إلى حاضرة الأندلس بوصول الطلائع العربية المتابعة إلى الأندلس ، ونزول جند الشام

(١) المقرئ ج ٢ ص ٦١ .

في قرطبة ، وضييق مسطح بيت الصلاة عن الاتساع لجموعهم الكثيفة ، وأصبح الجامع لا يتسع لأعدادهم الجاثلة ، فجعلوا يعلقون فيه سقيفة إثر سقيفة أو ظلة بعد ظلة يستكنون تحها كلما تزايد عددهم ، وكان ارتفاع هذه السقائف يقل تدريجياً لارتفاع مستوى سطح الأرض كلما اتجهنا شمالاً ، لأن أرضية الجزء القبلي من المسجد كانت منحدره نحو النهر ولما كان المسجد يحتل الجزء الشمالي من الكنيسة ، فقد كان طبيعياً أن يكون تعليق السقائف من الجهة الشمالية وليس من الجهة القبلية حيث يوجد المحراب ، وعلى هذا ، فقد سبب نظام السقائف وانخفاضها مضايقات



كثيرة للمصلين ، حتى كان أغلبهم لا يمكنه النهوض في اعتدال لتقارب السقف من الأرض . ثارت هذه المشكلة في الوقت الذي دخل فيه الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، وأسس دولة بني أمية ، وجعل قرطبة دار إمارته ، فقد شاهد ما يعانيه المصلون من متاعب بسبب قلة ارتفاع السقائف المقامة في جوف المسجد ، وضييق بيت الصلاة ، وعزم على حل هذه المشكلة ، وذلك بضم الأرض التي تشغلها الكنيسة إلى الجامع ، وبناء مسجد جامع جديد يتسع لجميع المصلين ، ويتناسب في عظمته وروعته مع فخامة دولته ، فدعا رؤساء النصارى بقرطبة إلى مقابلته ، وسأهمهم في بيع نصيبهم من الكنيسة ليدخله في المسجد ، وأوسع لهم البذل وفاء

بالعهد الذي صولحوا عليه ، فأبوا في بادئ الأمر بيع ما بأيديهم ، وطلبوا منه بعد إلحاحه المتواصل أن يبيع لهم بناء كنيستهم شنت أجلاح^(١) خارج الأسوار San Asciclo التي خربها المسلمون عند الفتح ، فوافق الأمير على طلبهم ، وتم الأمر على ذلك في عام ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، فخرجوا له عن كنيستهم ، فأدخل أرضها في الجامع الأعظم . وكان شروع عبد الرحمن الداخل في هدم الكنيسة والمسجد القديم ، وبناء جامع قرطبة بأسلوبه الجديد ، عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) ، فتم بناؤه واكتملت أسواره في عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) ، وأنفق عبد الرحمن في بناء هذا المسجد نحو ثمانين ألف دينار ، وفي ذلك يقول الشاعر دحية بن محمد البلوي من قصيدة :

وأنفق في ذات الإله ووجهه ثمانين ألفاً من بلجين وعسجد
توزعها في مسجد أسه التقى ومنهجه دين النبي محمد
ترى الذهب الناري فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقد^(٢)

وينقسم الجامع الجديد الذي بناه الأمير الداخل — شأنه في ذلك شأن المساجد الجامعة الأولى — قسمين : قسم مسقوف هو بيت الصلاة ، وقسم مكشوف هو الفناء أو الصحن^(٣) . وكان بيت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على تسعة بلاطات تتجه عمودياً على جدار القبلة ، ممتدة على اثني عشر عقداً (قوساً) في كل بلاط ، وتقوم هذه العقود على عمد من الرخام اتخذت من الكنائس الخربة ، وكان اتساع البلاط الواحد ٦,٨٦ متراً ، غير أن البلاط الأوسط يزيد اتساعه عن ذلك بقليل إذ يبلغ ٧,٨٥ متراً . وكان سقف المسجد كله يتألف من لوحات خشبية مسطحة مصفوفة عرضاً (سماوات) ، ومثبتة في عوارض خشبية طولية وعرضية (جوائز)^(٤) ، وتكسو هذه اللوحات والعوارض زخارف هندسية ملونة ومنقوشة من

(١) فتح الأندلس ص ٩ - ١٠ ، انظر مقالنا .

Cronologia de la mezquita de Córdoba, op. cit.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤٢ - المقرئ ج ٢ ص ٩٧ .

(٣) الإدريسي ص ٢ - الحيزي ص ١٥٣ .

(٤) انظر مقالنا : بعض المصطلحات العربية للمساحة المغربية في مجلة معهد الدراسات الإسلامية

بمدريد سنة ١٩٥٧ .

دوائر وفصوص ومسدسات ومشمعات^(١) . وكان يعلو هذا السقف المسطح هياكل مستممة هرمية الشكل ، تمتد على امتداد البلاطات ، تاركة فيما بينها قنوات مقعرة لتجرى فيها مياه الأمطار . ويحيط بالأسقف من الداخل إزار خشبي منقوش بالآيات القرآنية . وقد عثر المهندس الأثري بوسكو Bosco على بعض هذه اللوحات الخشبية المسطحة والعوارض الطولية والعرضية بين الهياكل الهرمية ، وبين القنوات الحصية التي أقيمت بدلا من الأسقف المسطحة في القرن السابع عشر ، ونجح بوسكو في إعادة تركيب جزء منها في سقف البلاط الأوسط بالمسجد ، كما كان في عهده الأول .

وعقدت بين العمود الرخامية على أعلى رؤوسها قسي أو عقود متجاوزة على شكل حدوة الفرس ، تقوم مقام الأوتار الخشبية ، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها ، كما أقيمت فوقها عقود نصف دائرية تحمل الجدران التي تتكىء عليها السقف ، وتزيد في الوقت نفسه من ارتفاع السقف ، وتستند العقود على كوابيل ملفوفة مؤلفة من ثلاثة أو أربعة فصوص متراكبة الواحد فوق الآخر ، ويتناوب في جميع العقود العليا والسفلى اللونان الأصفر الشاحب والأحمر ، نتيجة لتناوب الحجارة والآجر ، بحيث يتألف من هذا التعاقب سنجة حجرية ، وثلاثة صفوف متلاحمة من الآجر الأحمر تؤلف سنجة أخرى ، وهكذا تمكن مهندس الجامع من إحداث تأثير جمالي من هذه الخلقة المعمارية البسيطة . ويتكون العمود من رأس رخامي (تاج) ، وبدن ، وقاعدة من الرخام ، وكان بعض هذه القواعد مدفونا في أرضية المسجد ، والبعض الآخر ظاهرا فوق مستوى سطحها على نحو غير مستقيم ، وجميع أعمدة المسجد الذي أقامه عبد الرحمن الداخل القديمة ، قوطية أو رومانية ، استغلها بناء المسجد من الكنائس الخربة ، وأعادوا استخدامها في المسجد الجامع . ويتوج الجدران الخارجية

(١) في ذلك يقول الإدريسي : « وسقفه كاه سماوات مسمرة في جوائز سقفه . . . والسماوات التي ذكرناها هي كلها مسطحة ، فيها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمؤرب ، وهي صنع الفص وصنع الدوائر ، والمداهن ، لا يشبه بعضها بعضا بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفورية والبياضر الإسفيداجي والزرقة اللازوردية ، والزرقون الباروقي ، والخضرة الزنجارية والتكحيل النقي ، تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومخلفات ألوانها وتقسيمها » ص ٤ .

للمسجد إفرير من الشرفات المثلثة المستنة ، وتسند الجدران ركائز قوية وظيفتها إكساب المسجد صفة القلاع ، إذ أن صفوف العقود ترتكز مباشرة على جدار القبلة .
 وحين يتخذ المرء طريقه داخل بيت الصلاة ماراً بين صفوف الأعمدة الممتدة إلى ما لا نهاية بعقودها المزدوجة ، توحى إليه هذه العمدة والعقود المتكررة بالطبيعة الحية تحت ظلال في لون الشفق بحيث تمثل غابة من النخيل ، ويتسلل الضوء من شبكات النوافذ الخارجية باهتاً داخل مسطح بيت الصلاة ، ويحدث تأثيراً عميقاً في النفس ، فيستشعر المرء نفسه في هذا المسجد بعيداً عن نطاق الحقيقة ، ويظل مستغرقاً مهيباً للتطلع إلى ما وراء الحس ، في صلاة خاشعة ، مؤدياً لله فرضه ، مقراً لعبوديته حياله ، ولا سبيل إلى أن يكون الخلق المعماري أكثر كمالاً مما يوحى به هذا المثل الديني في بساطته وتجرده (١) .

وقد بحث مؤرخو الفن الإسباني في أصل فكرة ازدواج العقود بجامع عبد الرحمن الداخل وأرجعوها إلى عقود الجسور الرومانية التي تقوم على طابقين ، وقارنوا نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الروماني بمادة ، وهو الجسر المعروف بلوس ميلاجروس أو جسر المعجزات (٢) ، وإذا بحثنا عن وظيفة كل من هذين النوعين من العقود ، وجدنا أنهما يختلفان ، ولا شك أن عقود قرطبة ابتكرها مهندس عبد الرحمن ، وأملت صورتها عناصر البناء ومواده التي كانت في متناول يده ، وبخاصة الأعمدة القصيرة التي جمعها من الخرائب .

وكان صحن الجامع مغروساً بالأشجار ، فقد عهد عبد الرحمن الداخل إلى عبد الله بن صمصمة بن سلام (توفي سنة ١٩٢ هـ) ، صاحب الصلاة بالمسجد ، بأن يغرس صحن المسجد بالأشجار ، ففعل ، واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك ، فطبق في بقية مساجد الأندلس .

وتوفي الأمير عبد الرحمن سنة ١٧٣ هـ قبل أن يتم بناء مسجده ، فلم يكن

(١) Gomez Moreno, *Ars Hispaniae*, t. III, Madrid 1951, p. 12

عبد المزيز سالم : المساجد والقصور في الأندلس ص ١٩ وما يليها .

(٢) Georges Marçais, *Manuel d'art Musulman*, t. I, *L'architecture en Tunisie*,

Algérie, Maroc, Espagne et Sicile. Paris 1926, p. 231—Marçais,

L'architecture musulmane d'Occident, Paris. 1954, p. 147 — Creswell,

Early Muslim architecture, t. II, p. 157.

للمسجد مثذنة ولم تكن فيه سقائف لصلاة النساء ، فأتمه ابنه هشام من بعده ، وأقام مثذنة من خمس في أربوطة ، بلغ ارتفاعها إلى موضع الأذان نحو ٢٠ متراً ، كما أقام بنهاية المسجد مما يلي الجوف سقائف لصلاة النساء ، وأمر ببناء ميضأة بشرق الجامع^(١) . ولكن مثذنة هشام لم يكتب لها أن تبقى طويلاً ، إذ تصدعت في أواخر عهد الأمير عبد الله ، فهدمها الخليفة عبد الرحمن بن محمد وأقام صومعة أخرى جليلة بدلا عنها . وقد تمكن المهندس الأثري دون فيلث هرناندث من الاهتداء إلى أسسها ، وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار .

المسجد الجامع في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ومن خلفه من أمراء بني أمية :

لما تولى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الإمارة بعد وفاة أبيه الحكم بن هشام (٨٢٢ - ٨٥٢ م) ، رفع من شأن قرطبة وجعلها عاصمة تليق بالإمارة ، وفي عهده تكاثرت الناس في قرطبة وتوافدوا إليها من كل أوب حتى ضاق عنهم بيت الصلاة بالمسجد ، وكانت بلاطات المسجد الذي بناه عبد الرحمن الداخل تسعاً ، فأنشأ عبد الرحمن الأوسط حفافها من ابتدائها شرقاً وغرباً ببلاطين زائدين عليها ، ممتدين معها ، سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) فأكمل عدد بلاطات المسجد أحد عشر بلاطاً استوسع به المسجد ، ورفه عن حاضريه ، ووصل هذين البلاطين في سقيفتين ، ووصلهما بالسقائف التي كانت معدة يحوف المسجد الأقدم لصلاة النساء ، عقد على كل سقيفة منها على ١٩ سارية ، وابتنى الأمير عبد الرحمن في مؤخر الصحن سقيفة جوفية ، نظمها بالسقيفتين اللتين ابتدأهما حفافاً في صحنه بشريه وغريه^(٢) . وفي سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) زاد الأمير عبد الرحمن بن الحكم في بيت الصلاة بجامع قرطبة أول زيادة في عمقه

(١) ابن القوطية ص ٤٣ - ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤٢ - نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧

Marçais L'architecture musulmane d'occident, Paris 1954, p. 147— Creswell, Early Muslim architecture, t. II, p. 157.

Lévi-Provençal, Documents et notules, les citations du Muqtabis d'Ibn Hayyan, Arabica, t. I, fasc. 1, Janvier 1954 — E. Lambert; Histoire de la grande Mosquée de Cordoue au VIII et IX siècles, Annales de l'Institut d'études orientales de l'Université d'Alger, Alger, t. II, 1936, pp. 165-179

ولقد أشار ابن خلدون إلى زيادة هذين البلاطين الجانبين فيقول : « وزاد في جامع قرطبة

دواوين » ج ٤ ص ١٣٠ ، المقرئ ج ١ ص ٣٢٥ .

أو اتساعه أجريت فيه، وهي الزيادة الأولى البارزة من بين البنية الأولى التي ابتناها أبو جده عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس ، ورسم أن يكون ذلك من قبل قبلته في الفضاء ما بينها وبين باب المدينة الراكب للقنطرة بحيث تكون محدودة من الأرجل الحجرية الضخام المائلة اليوم في وسط أبهاء المسجد ، والمتخلفة من جدار محراب جامع عبد الرحمن الداخل إلى نهاية المسجد في منتهى المحراب الثاني ، وجمع فاخر الآلات لبنائه ، واستكثر من عدد حذاق الفعلة لإحكامه ، ووكّل بنيانه أكبر فتيانه الخصبين الأثيرين لديه نصرا وصاحبه مسروراً ، رغبة في إشراك التمام مع إحكام الصنعة، وأشرف له على ذلك أيضاً محمد بن زياد قاضي قرطبة وصاحب الصلاة بها . ويبلغ طول زيادة عبد الرحمن الأوسط ٥٠ ذراعاً ، وعرضها مائة وخمسين ، وعدد سواريتها ثمانين سارية^(١) ، ذلك أن الأمير مد جميع بلاطات الجامع نحو الجنوب ما يقرب من ستة وعشرين متراً ، أي أنه مد الصفوف العشرة للعقود على ثمانية عقود جوفية ، ثم نقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة بالحديد الذي وصلت إليه زيادته . ولقد سابت زيادة عبد الرحمن الأوسط أسلوب عبد الرحمن الداخل في البناء والزخرفة ، ولم تشرعنه إلا في الكواويل التي اقتصرت هذه المرة على بروز محذب ، وفتح في بيت الصلاة بابان في جانبي المسجد الشرقي والغربي ، بالإضافة إلى البابين القديمين ، فأصبح للجامع أربعة أبواب : اثنان منها في الجهة الغربية ، واثنان في الجهة الشرقية ، ولم يتبق منها سوى بابا الجدار الغربي المواجه للقصر ، وهما باب سان استبان San Esteban^(٢) وكان يعرف بباب الوزراء ، وباب دى لوس ديانيس de los Deanes وكان يطلق عليه اسم باب الأمير . أما البابان الآخران فقد هُدمتا عند شروع المنصور أبي عامر في زيادتها شرق بيت الصلاة ثم مات الأمير عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، وخلفه ابنه محمد ، فأمر سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) بإتقان طرر^(٣) الجامع ، وتنميق نقوشه ، ثم أقام سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م) مقصورة خشبية حول المحراب وجعل لها ثلاثة أبواب ، فلما كمل

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢) Torres Balbas, Portada de San Estaban, Al-Andalus, vol. XII, 1947, p. 127

et sqq.

(٣) الطرة ما يحيط بالمقد أو الإطار المربع البارز الذي يحيط بالعقد تاركاً في خاصرتيه بنيةتين .

ما أمر به دخله وصلى فيه ركعات خشع فيها ، فقال في ذلك موسى بن سعيد :

لعمري لقد أبدى الإمام التواضعا فأصبح للدنيا وللدين جامعا
بنى مسجداً لم يبن في الأرض مثله وصلى به شكراً لذي العرش راكعا
فطوبى لمن كان الأمير محمد له إذ دعا فيه إلى الله شافعاً^(١)

وما زالت ترين عقد باب سان استبان كتابة كوفية تسجل أعمال الأمير محمد في الجامع نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم . أمر الأمير ، أكرمه الله ، محمد ابن عبد الرحمن بينيان ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه ، رجاء ثواب الله عليه ودخره به ، فتم ذلك في سنة إحدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه ، سرور ونصر فتياه^(٢) .

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال ، فأقامه في صحن الجامع على غرار بيوت المال في مساجد عمرو بن العاص بالفسطاط ، والجامع الأموي بدمشق ، وجامع حماة ، وجامع حمص ، وأمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف^(٣) . ثم زاد أخوه الأمير عبد الله بن محمد ساباطاً معقوداً على حنايا ، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب ، وفتح إلى المقصورة باباً كان يخرج منه إلى الصلاة ، وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بني أمية بالأندلس ، وتابعه في ذلك من خلفه منهم^(٤) .

المسجد الجامع في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر :

كانت المئذنة التي أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل قد تصدعت ، كما كان بيت الصلاة قد ازداد اتساعاً منذ زيادة عبد الرحمن الأوسط ، وأصبح الصحن بالنسبة لبيت الصلاة ضيقاً للغاية ، لا يتناسب مع تخطيط الجامع . وكان في مقدرة الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يقوم بإصلاح ما تصدع من المئذنة ، ويعدل بناءها ، كما فعل بالنسبة لواجهة بيت الصلاة المطل على الصحن ، غير أنه

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, t. I p. a et sq. Leiden-Paris, 1931 .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٤) نفس المرجع .

رأى صغر حجمها بالنسبة لمسجد فسيح المساحة ، ثم إنه كان قد تلقب منذ عام ٣١٩ هـ بالقباب الخلافة ، وشرع في تنفيذ برنامج حافل لتجميل عاصمة خلافته بالأبنية العظيمة ، والقصور الفخمة ، والمنشآت الجليلية التي تليق بجلال الخلافة ، لذلك رأى الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يقيم مثناة جديدة تسمو على سائر العمران بقرطبة ، ويراهها القادمون من بعيد كأنها المنار يهدي السفن الضالة في مياه البحر . وأمر عام ٣٤٠ هـ (٩٥٠ م) ببناء مثناة جديدة ، فجمع لها عرفاء المهندسين من كل مكان ، وأحضر لها الأحجار الضخمة على عجل ، وشرع المهندسون في بنائها بعد أن هدموا مثناة هشام إلى قواعدها ، وهدموا السور الشمالي للمسجد ، وحفروا أساسها حتى بلغ الماء ، وأتموا بناءها في ثلاثة عشر شهرا ، فجاءت رائعة البناء . وكانت مثناة هشام ذات مطلع واحد ، فجعل لمثناة الناصر مطلعين ، وفصلوا بينهما بالبناء ، فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها وكان لكل مطلع منها مائة وسبع درجات ، وبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً حتى مكان المؤذن أي ضعف ارتفاع المثناة الأولى ، ومن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذراعاً ، ثم نصب بأعلى المثناة سفود بارز ، ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة (١) .

وكان طول كل جانب من جوانب مثناة الناصر ثمانية أمتار ونصف متر ، وجدرانها مبطنة جميعها بنوع من الحجر الجيري يعرف باسم الكذان اللكي ، ومنقوشة من أسفلها إلى أعلاها بنقوش متنوعة وزخارف ملونة .

وكانت الأوجه الأربعة للمثناة تزدهان بثلاثة صفوف من النواقد المزدوجة ، تحيط بها عقود تشبه حدوة الفرس ، قائمة على عمد من الرخام ، ويعطو الإفريز شرفات مسننة تشبه شرفات الجامع نفسه ، وقد اتخذت مثناة الناصر أنموذجاً للمآذن الأندلسية ، مثل مثناة جامع إشبيلية ، ومثناة جامع الكتبية بمراكش ، ومثناة جامع حسن بالرباط . ولقد أصيبت هذه المثناة - أعني مثناة الناصر - عام ١٥٨٩ بأضرار جسيمة إثر زلزال عنيف سبب تصدعاً في جزئها الأعلى المعروف ببيت المؤذن ، وأوشكت المثناة على الانهيار ، فقام المهندس القرطبي هرنان رويث فيما بين عامي ١٥٩٣ - ١٦٥٣ م بملا الفراغ الداخلي بالبناء ، ثم أحاط الجدران الخارجية للمثناة بغلاف من الحجارة

(١) الادريسي ص ١١٠ - الحيرى ص ١٥٥ - ابن عذاري ص ٣٤٤ - المقرئ ج ٢ ص ٩٨

لتقوى القاعدة على حمل الجسم العلوى الذى توجهها به^(١) . وقد نجح مهندس الجامع دون فيلت هرناندث فى الكشف عن بقايا جدران مثناة عبد الرحمن الناصر حتى ارتفاع ما يقرب من ٢٢ مترا ، كما اكتشف من الدعامتين المركزيتين ما يبلغ ارتفاعه ٢٦ مترا ، وعثر بفضل أبحاثه على بعض النوافذ التى كانت تطل على فناء المسجد يعقودها المتجاوزة وسنجاتها الملونة .

ولم تقف أعمال عبد الرحمن الناصر عند هذا الحد ، فقد قام بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن وكانت قد تصدعت بسبب الدفع المستمر للعقود الداخلية ، ثم أصلح باب سان استبان ، وأقام عليه ظلة تستند على كوابيل على نمط كوابيل واجهة بيت الصلاة . وقد سجل عبد الرحمن الناصر أعماله هذه على لوحة يجوار المدخل إلى البلاط الأوسط نقرأ فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم . . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله — أطال الله بقاءه — بينان هذا الوجه وإحكام إتقانه ، تعظيماً لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التى أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبادئه عبد الله بن بدر . عمل سعيد ابن أيوب^(٢) .

زيارة الخليفة الحكم المستنصر :

افتتح الخليفة الحكم المستنصر بالله خلافته بالنظر فى زيادة المسجد الجامع بقرطبة ، إذ تضاعف عدد سكان قرطبة فى ذلك الوقت ، وضافت المدينة بمن وفد إليها من بربر العدو من قبيلة زنانة الذين حالفوا الأمويين فى الأندلس ضد الفاطميين ، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الغفيرة ، ونال الناس ضرر كبير من جراء ازدحامهم ، فاضطر الحكم إلى توسيع المسجد ، وعهد إلى حاجبه جعفر بن

R. Castejón, Córdoba, p. 38-42 — Gomez Moreno, op. cit. p. 77. — Torres (١)

Balbas, La Mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra, Collection de

“Monuments Cardinales de Espana”, t. XIII, Madrid, 1952, p. 97.

Levi-Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, Textes, p. 3.

(٢)

عبدالرحمن الصقلي ، في اليوم الثاني من خلافته بمهمة الإشراف على إحضار الأحجار من جبال قرطبة . وخرج الحكم بنفسه لتقدير الزيادة وتفصيل بنائها ، وأحضر لهذا الغرض الأشياخ والمهندسين ، فحدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء^(١) ورسموا أن تكون بمد بلاطات المسجد جنوباً على اثني عشر عقداً . وقال ابن سعيد في هذه الزيادة : « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار في حد يقصر الوصف عنه^(٢) » ، واستمر بناء الزيادة أربع سنوات أنفق فيها مائتان وواحد وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون ديناراً^(٣) .

وفي جمادى الآخرة عام ٣٥٤ هـ أتم بناء قبة المحراب^(٤) ، وقد سجل ذلك في نقش يدور بعقد المحراب نصه (. . . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين . الحمد لله رب العالمين ، موفق الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكيم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، لهذه البنية المكرمة ، ومعينه على بنيتها الخالدة في التوسع لرعيته ، ما إليه وإليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فيهم ، وصلى الله على محمد وسلم . أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكيم أمير المؤمنين ، وفقه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بتشريك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر محمد بن تميم ، وأحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم ، أصحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب^(٥) . ثم أحاط هذه القبة بقبتين جانبيتين ، وأقام على مدخل زيادته بالجامع ، تجاه قبة المحراب ، قبة أخرى تشبه قبة باب البهو بجامع الزيتونة بتونس وقبة جامع القيروان^(٦) .

ثم شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد ، وكان ملك الروم قد بعث بها إليه مع صانع يتقن صناعتها ، فأجرى الصانع الفسيفساء على جدار المحراب وفي باطن القبة

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٣٥٢ .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ٩٧ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٥٩ المقرئ ج ٢ ص ٨٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

(٥) Lévi-Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, textes, p. 15.

(٦) Lambert, L'architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède, pp. 141-161 - Les Mosquées de type andalou, p. 281 - La mosquée de Cordoue et l'art byzantin, pp. 331-332.

الكبرى ، ومنه تعلم الصناع المسلمون طريقة تنزِيل الفسيفساء وحذقوها ، وفاقوه في صنْعته (١) . وفي أعلى عقد المحراب نقش كوفي تقرأ فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله الحكيم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ، رحمه الله ، بعمل هذه الفسيفساء في البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلثمائة (٢) . وفي عام ٣٥٥ هـ أمر الحكيم بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب ، ونصب في قبلة زيادته مقصورة من الخشب ، منقوشة الظاهر والباطن ، مشرفة الذروة ، طولها خمسة وسبعون ذراعاً ، وعرضها اثنتان وعشرون ذراعاً ، وارتفاعها إلى الشرفات ثمانى أذرع . وأحاط بها خمس بلاطات من زيادته ، وأطلق أطرافها على الستة الباقية ، وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة ، عجيبة النقش (٣) وصنع الحكيم لزيادته منبراً « ليس على معمور الأرض أتقن منه ، ولا مثله في حسن صنْعته ، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاقلى . ويذكر في تاريخ بنى أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع (٤) » وكان عدد درجاته تسعاً وعدد حشواته ستة وثلاثين ألف حشوة ، سمرت بمسامير الذهب والفضة ورصعت بنفس الأحجار . وكان هذا المنبر يسير على عجل ، وكان يوضع بعد صلوات الجمع في غرفة تقع خلف المحراب ، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك في المغرب . وفي عام ٣٥٦ هـ هدم الحكيم الميضأة القديمة التي كان قد أسسها هشام بن عبد الرحمن في فناء الجامع ، وبنى موضعها أربع ميضآت في كل جانب من جانبي الفناء : الشرق والغربي ، وأجرى إليها الماء من عين يجبل قرطبة في قناة حجرية متقنة البناء ، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس ، وصبت ماءها في أحواض من الرخام . ثم أجرى ما يزيد على حاجة المسجد إلى سقايات اتخذها على أبواب الجامع بجهاته الثلاث : الشرقية والغربية والشمالية . ويقول الشاعر محمد بن شخيص في وصف هذه القنوات :

(١) نفس المرجع .

(٢) Lévi-Provençal, Inscriptions, p. 18

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٥٥ - المقرئ ج ٢ ص ٨٨ ، ويذكر ابن غالب الأندلسي أن باب هذه المقصورة كان من الذهب المضروب وكانت عفاذاته من الأبنوس بينما كان طوله وأوصاله من الفضة . (انظر ابن غالب ، نص أندلسي جديد من فرجة الأنفس ، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع ص ٢٨) .

(٤) المقرئ ج ٢ ص ٩٥ - الادريس ص ٨ - الحيرى ص ١٥٥ .

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف من أعذب الماء نحو البيت تجريها
 طهر الجسوم إذا زالت طهارتها رى القلوب إذا حرت صواديها
 قرنت فخراً بأجر قل ما اقترنا في أمة أنت راعيا وحاميا^(١)
 واختتم الحكم أعمال البناء ببناء دار للصدقة غربي الجامع ، لتكون معهداً
 لتوزيع صدقاته ، كما أقام في ساحة الجامع مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين
 وفي ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتباً للبناء من نواحيها
 لمو مكنت سور القرآن من كلم نادتك : يا خير تاليها وواعيها^(٢)
 وزيادة الحكم المستنصر أعظم ما أضيف إلى جامع قرطبة من حيث البناء
 والزخرفة ، وقد زودت المسجد بتناسقه وتعادل أجزائه . وأهم ما في عمارته القباب التي
 تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة في أشكال هندسية رائعة ، تؤلف نجوماً
 تتوسطها قبيبات مفصصة ، وكسيت الفراغات بين العقود البارزة بزخارف نباتية آية
 في الروعة والجمال ، وأجرى فيها الفسيفساء المذهبة ، وقد أوحى قباب الحكم إلى الفنانين
 الفرنسيين ابتكار القباب القوطية الشهيرة^(٣) .

أما المحراب الجديد الذي أقامه الحكم فهو أجمل عنصر معماري في الجامع
 إذ عني به المهندسون باعتباره أنبل مكان بالمسجد ، فأقاموا القباب على بلاطه الأوسط
 ورواقه الأمامي ، ونقش هذا المحراب من الداخل والخارج بالتوريقات ، وزينت

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٥٨ . (٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٥٩ .

(٣) ارجع إلى كتاب : المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ ٣٦ ففيه وصف مطول للقباب
 القرطبية وداسة حول أصلها
 وارجع أيضا إلى :

E. Lambert, Les coupoles des Grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne au IX et Xe.
 siècle, Hesperis, t. XXII, fasc. II. 1936.

وارجع إلى بحثه عن العمارة الإسلامية في القرن العاشر :

L'architecture Musulmane du Xe. Siècle, Gazette des Beaux-arts t. XII, 1925 pp. 142-147.

وعن بحثه عن أصل القباب القوطية :

Les origines de la Croisée d'ogives dans Office des Instituts d'archeologie et d'histoire
 d'art, No. 8-9, Novembre 1936 — Mars 1937 vols. 3, Paris pp. 131-146.

ومقال : أثر الفن الخلاقي بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا ، المجلد العدد ١٤ ص ٨٨ .

عضاداته بلوحدات رخامية حفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفرًا غائرًا على الأسلوب البيزنطي^(١). والمحراب على هيئة حنية عميقة الغور، مثمثة الشكل، مكسوة جوانبه بثمانية ألواح من الرخام طول كل لوح منها ثمانى أذرع تامة، وتنتهى هذه الألواح الرخامية من أعلى برف مستدير من الرخام، وتزدان لوحاته بنقوش بديعة، كما يزدان الرف الرخامى بزخارف متنوعة، ويعلو هذا الرف البارز ستة عقود محفورة فى الجص يتألف كل منها من ثلاثة فصوص، تقوم على أعمدة صغيرة من الرخام فى قاعها توريقات مطلية. وبأعلى المحراب قبة على شكل محارة يسميها الحميرى خصة، والأصل فى الخصة أنها حوض كروى الشكل مقصص. ويضيف محمد بن أيوب ابن غالب الغرناطى الأندلسى فى كتابه « فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس » أن سقف القبو « من رخامية بيضاء منقورة بالحديد على صفة المحارة، قد أحكمت وأنزلت فى موضعها بأتقن صناعة^(٢)، وتنتهى واجهة المحراب بسلسلة من ستة عقود صغيرة كالتى ذكرناها من قبل، تقوم أيضاً على عمد حيث تظهر بينها توريقات من القسيفساء على أرضية مذهبة، ونلاحظ هنا أن الحميرى عندما نقل عن الإدريسي أخطأ فى نقل بعض العبارات فمثلاً يقول « وكل هذه القسي موجهة صناعة القوط^(٣) » بينما نراها فى نص الإدريسي ما يلى : « وكل هذه القسي مزججة، وصناعة القوط قد أعيت الروم والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها^(٤) ». ومعنى هذه العبارة الأخيرة أن الأقواس أو العقود الصغيرة التى تزين الجزء الأعلى من واجهة المحراب مزججة، وأنها تتخذ شكل القوط، والقوط هو الفصوص التى تتألف منها العقود المذكورة وهو معنى أصح، وينطبق على الحقيقة.

ولقد فتح الحكم إلى يمين المحراب باباً يؤدي إلى الساباط الحديد الذى يصل بين قصره ومقصورة الجامع^(٥). ويتصل هذا الباب بمخزن تحفظ فيه العدد والطسوت والحسك الخاص بوقيد الشموع فى كل ليلة ٢٧ من شهر رمضان، كما كان يحفظ فيه

(١) ارجع إلى كتابى المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) ابن غالب الغرناطى الأندلسى، فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس، قطعة نشرها الدكتور

أحمد لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد ١ ج ٤، ص ٢٨

(٣) الحميرى ص ١٥٤ .

(٤) الإدريسي ص ٦ تحقيق ديسيه لمار

(٥) ارجع إلى كتابى « المساجد والقصور بالأندلس » ص ٣٨، ففيه وصف للساباط .

« مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه يمينته رضى ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ويتولى إخراج رجلا من قومة المسجد وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه^(١) » ، وظل هذا المصحف بموضعه في جامع قرطبة ، ثم آل أمره إلى الموحدين إذ أخرج منها في ١١ شوال سنة ٥٥٢ هـ أيام عبد المؤمن ابن علي ، فاعتنى به وتبركوا به ، ثم إلى بني مرين ، وكان السلطان أبو الحسن المريني لا يسافر موضعاً إلا ويحمله معه ، إلى أن انهزم أبو الحسن في واقعة طريف ، فوقع المصحف في أيدي البرتغاليين ، ثم تحايل المسلمون على استرداده فوصل إلى فاس سنة ٧٤٥ هـ على يد أحد تجار أزمو ، واستمر بقاؤه في الخزانة^(٢) السلطانية .

الزيادة الأخيرة في عهد المنصور بن أبي عامر :

شرع المنصور محمد بن أبي عامر عام ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) في زيادة المسجد حين ضاق بيت الصلاة فيه عن المصلين . ولما كان قصر الخلافة يجاور الجانب الغربي وكان جدار القبلة قريباً من نهر الوادي الكبير ، بدأ زيادته بشرقيه على بلاطات تمتد بطول المسجد من أوله إلى آخره ، وقصد منها المبالغة في الإتقان ، وإحكام البنية دون الزخرفة ، وإن كانت لا تقل عن سائر الزخارف روعة وجمالاً^(٣) . وكان أول ما قام به المنصور ، هو نزع ملكية الدور القائمة شرقي الجامع والتي أدخلها في زيادته ، وتعويض أصحابها عنها بالمال والعقار^(٤) . ودام العمل في زيادة المنصور

(١) الإدريسي ص ٨ ، ١٠ . ويشك المقرئ في نسبه إلى عثمان إذ يقول « وما توه موه أنه خطه يمينه فليس بصحيح ، فلم يخط عثمان واحداً منها ، وإنما جمع عليها بعضاً من الصحابة » (نفع الطيب ج ٢ ص ١٢٥) .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ . (٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ . (٤) ذكر ابن عذاري أن أول ما عمله ابن أبي عامر قبل قيامه بأعمال البناء في الزيادة المذكورة « تطيب نفوس أرباب الدور والمستغلات الذين اشترت منهم للهدم هذه الزيادة بانصافهم من الثمن أو بمعارضته » (البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢٩) . وذكر ابن بشكوال أنه « لما عزم على زيادة هذه جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه ، فكان يثني بصاحب المنزل فيقول له : إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم ومن فيهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم ، =

عامين ونصف عام وكان يعمل في هذه الزيادة بنفسه ، واستخدم الأسرى المسيحيين في بناء الجامع ^(١) ، كما أنه جعل من نواقيس النصارى التي غنمها من غزوته لشيئ ياقب عام ٣٨٧ هـ ثريات في زيادته بجامع قرطبة ^(٢) .

وأصبح المسجد يتألف بعد زيادة ابن أبي عامر من ١٩ بلاطاً ، ففقد المسجد الجامع تناسقه واتزانته وتعادل أجزائه ، وأصبح المحراب متطرفاً عن وسط جدار القبلة بعد أن كان يقع في محور الجامع ^(٣) . وكذلك هدم المنصور أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل أن يشرع في زيادته ، وفتح في الجدار الشرقي بيت الصلاة القديم ثغرات واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم ، وقد تخلف من هذا الجدار الشرقي لجامع الحكم بقايا على جانب كبير من الأهمية ، أما الجدار الشرقي الجديد للجامع فقد فتح فيه المنصور ثمانية أبواب ، فأصبح عدد الأبواب الشارعة إلى بيت الصلاة ستة عشر باباً ، يضاف إليها خمسة تنفتح على مجنبات الصحن ، فيكون مجموع أبواب الجامع بصورته النهائية ٢١ باباً ، كانت جميعها ملبسة بالنحاس الأصفر ومخرمة وتخريماً رائعاً .

الجامع بصورته الحاضرة :

احتفظ المسجد الجامع بقرطبة بصورته تلك طوال العصر الإسلامي ، دون أن يطرأ عليه أى تغيير في نظام بنائه ، ولم تضاف إليه أية إضافات ، إذا استثنينا أعمال الترميم والإصلاح اللازمة للمسجد والتي لا بد أن تكون قد أجريت فيه في عصرى المرابطين والموحدين .

= قشطط واطلب ما شئت ، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له ، وأن تشتري له بعد ذلك دار عوضاً منها ، حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة ، فقالت لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة ، فقال تباع لها دار بنخلة ولر ذهب فيها مال بيت المال ، فاشتريت لها دار بنخلة ، وبراغ في الثمن » .
المقرى ج ٢ ص ٨٤ .

(١) ذكر بشكوال أنه « من أحسن ما عاينه الناس في بتيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مصفدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها ، وهم كانوا يتصرفون في البتيان عوضاً من رجال المسلمين إذلالاً للشرك وعزة للإسلام » المقرى ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) المساجد والقصور بالأندلس ص ٤٠ .

(٣) يقع محور الجامع من القبلة جنوباً إلى باب الففران شمالاً ، ماراً بالبلاط السادس ابتداء من غرب الجامع .

وظل المسجد كذلك حتى سقطت قرطبة في يدي فرناندو الثالث ملك قشتالة عام ١٢٣٦ م، فتحول هذا البناء الشامخ إلى كنيسة عرفت بسانتا ماريا العظمى^(١)، وأقيم فيه عام ١٣٧١ م أي في عهد دون أنريكي الثاني ملك قشتالة المصلي المعروف بسان فرناندو، وذلك لصق القبة الكبرى التي تعلو مدخل البلاط الأوسط في زيادة الحكم المستنصر. وقد كسيت جدران هذا المصلي بزخارف من الطراز المدجن محفورة في الجص، تشبه كل الشبه زخارف قصر الحمراء والقصر بإشبيلية. وتعلو هذا المصلي قبة تقوم على تشابك العقود البارزة، وتختلف عن قباب المسجد في أنها مكسوة بالمقرنصات الزخرفية الدقيقة. على أن كل ما طرأ على الجامع حتى ذلك الحين، لم يكن يعدو إضافات طفيفة لا تمس جوهر البناء ولم تغير في نظامه، ولم تشوه من عمارته، ولكن الإسبان منذ أواخر القرن الخامس عشر، بدأوا يشوهون في بنية هذا الأثر الإسلامي المجيد بإضافات وتغييرات أساسية، ففي عام ١٤٨٩، هدم الأسقف إنيغو مانريكي عقود البلاطات الخمسة الممتدة طولاً من مصلى سان فرناندو - المعروف بمصلى فيلافسيوسا - حتى جدار الجامع الغربي، وأقام جدارين طوليين رغبة في عمل مجاز يغطيه سقف خشبي قائم على عقود قوطية. ثم شرع الأسقف دون ألونسو مانريكي Alonso Manrique عام ١٥٢٣ م في هدم جانب كبير من زيادة عبد الرحمن الأوسط وزيادة المنصور لإقامة كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع شوهت البناء القديم، وقضت على الوحدة المعمارية للمسجد، وقد أبدى شارل كان Carlos Quinto أسفه حين شاهد هذا التشويه، وندم على موافقته على إجرائه في أثر فريد بين آثار الأندلس بل العالم أجمع. ثم أشرف على بناء هذه الكاتدرائية المهندس المعماري هرنان رويث Hernan Ruiz إلى أن توفي عام ١٥٤٧، فخلفه في بناء الكاتدرائية ابنه هرنان رويث حتى وفاته عام ١٥٨٣. ولم يتم بناء الكاتدرائية إلا عام ١٥٩٩ على يدي هرنان رويث الحفيد. ثم أقيمت على جدران الجامع من الداخل مصليات عديدة ذات طابع يتبع طراز عصر النهضة، مثل مصلى لوس سيمونيكاس ومصلى سان بابلو. وفي عام ١٦٨٢ م أقام الأسقف فرانسيسكو ألونسو

(١) ارجع في ذكر ما طرأ على الجامع من تغييرات بعد تحويله إلى كنيسة إلى الكتب التالية :

Torres Balbás; Nuevos datos sobre la Mezquita de cordoba christianizada, Al-Andalus, vol. XIV, 1949, P. 455

R. Castejon, quia de cordoba, p. 62 — Torres Balbás, la Mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra, p. 100-106.

دى مدينة المصلى المعروف بلا كونثييون La Concepcion ، وزينه بتماثيل رائعة ، قام بعملها المثال الغرناطى بدرو دى مينا Pedro de Mena ، وفى عام ١٧٠٥ أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تريزا Santa Teresa ، أو بمصلى الكاردينال سالازار . وفى القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشبية ، بعد أن تآكلت بفعل الزمن ، وأقيم بدلا عنها قبوات جصية فى جميع بلاطات الجامع .

وفى خلال القرن التاسع عشر أجريت فى الجامع عدة إصلاحات أولها ما قام به دون بدرو تريفييا Don Pedro Trevia عام ١٨٢٦ من ترميم المحراب . ثم أعلن المسجد الجامع عام ١٨٨٢ أثراً قومياً ، وعهد بالمحافظة عليه إلى مدير مدرسة العمارة بمدير يد ريكاردو بلاسكث بوسكو Ricardo Velasquez Bosco ، وقد قام هذا المهندس بإصلاح مصلى فيلا فيوسا ، وأعاد وضع أسقف جامع قرطبة فى البلاط الأوسط واستبدل ببلاط الجامع القديم المصنوع من الآجر بلاطاً من الرخام ، ثم رمم جميع واجهات الجامع من الخارج بأبوابها عام ١٩٠٩ . وما زالت الحكومة الإسبانية تولى هذا الأثر الإسلامى الجليل نصيباً وافراً من عنايتها ، فعهدت إلى مهندسه الحالى دون فيلث هرناندث خيمينث D. Felix Hernandez بالعناية به وترميم أجزائه ، وقد قام هذا المهندس الأثرى بأعمال جلية فى مثناة الجامع يزمع نشرها قريباً .

• • •

وقبل أن ننهى من الحديث عن هذا الجامع العظيم ينبغى أن نشير إلى تأثيراته فى العمارة الإسلامية والمسيحية فى العمارة الإسلامية نلاحظ أن هذا الجامع الأعظم كان « أستاذ » المساجد التى أقيمت بعد ذلك فى الأندلس فى العصور التالية ، فمنه أخذت نظام القباب ذات الضلوع ، ومنه اشتقت نظام البلاطات المتجهة عمودياً على جدار القبلة ، ومن تخطيطه اشتقت تخطيطاتها . فجاءع الباب المردوم بطليطلة الذى سنشير إليه فى الصفحات التالية يضم تسعة قباب وقبوات تقوم جميعاً على الضلوع المتقاطعة وجامع إشبيلية الموحدى أخذ من جامع قرطبة مظهره الخارجى ، واتساع صحنه بعقوده السبعة فى أروقة مجنباته ، ونظام عقوده وأسلوب زخارفه (١) . وليس أدل على عظم هذا الجامع القرطبى ونفاذ تأثيراته الفنية إلى مجالات بعيدة من

(١) انظر المساجد والقصور بالأندلس ص ٦٣ .

ذكر أثر مصري إسلامي ، وصلته تأثيرات جامع قرطبة ، هو جامع ابن طولون ،
فثدثة هذا الجامع تجلو علينا عقوداً قرطبية من النوع الشائع في جامع قرطبة ، ثم
إن القنطرة التي تصل بين الجامع تستند على عقدتين متجاوزين على الطراز القرطبي ،
وبأسفل القنطرة كوابيل من نفس نظام كوابيل عقود جامع قرطبة^(١) .

أما تأثيراته في العمارة المسيحية ، فقد تغلغلت في إسبانيا المسيحية^(٢) ، ومنها
انطلقت إلى مقاطعات فرنسا الجنوبية حيث تتجلى بحق في كنائس جاسكونيا ولا نجرورك
وأكيتانيا وأنجر وأوفرني ونورماندى .

ثانياً : جامع عمر بن عبدس بإشبيلية :

هذا المسجد لم يتبق منه في الوقت الحاضر سوى جزء من الصحن والجزء الأدنى
من المئذنة ، ومع ذلك فهذه الآثار القليلة أهمية بالغة إذ توقفنا على جانب هام من
جوانب فن العمارة الأموية في عهد الإمارة .

فقد أمر الأمير عبد الرحمن الأوسط قاضيه عمر بن عبدس بتشييد هذا الجامع
سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ - ٨٣٠ م) .

وقد سجل تاريخ الإنشاء في نقش كوفي على بدن عمود من الرخام محفوظ اليوم
بمتحف الآثار الأهلى بإشبيلية نصه « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل
المهتدى الأمر بيتان هذا المسجد على يدى عمر بن عبدس قاضى إشبيلية في سنة

(١) انظر بحثي المأذن المصرية : نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩ - ومقالى عن
التأثيرات المعمارية في الأندلس ، بدائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ص ١٧٢ . وقد اتضح لى من دراساتى
الأثرية في لبنان أن التأثيرات الأندلسية القرطبية وصلت إل مدينة طرابلس حيث تظهر جلية في بعض
الآثار مثل عقود المدرسة البريطانية .

(٢) حيث ترى في الكنائس المسيحية مثل كنيسة المزان بقشتالة وقبة مصلى توريس ديل ريوبنبرة .
وفي الكنائس المستغربة بمجلىقية مثل سانتياجو دى بنيالبا وسان مرمينيو دى باتو وكنائس ليون مثل سان
ميان دى لاكوجريا ، وسان ثيريان دى ماثورق التي بناها القس القرطبي خوان سنة ٩٢١ م انظر مقالى :
أثر الفن الخلافى بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا ، المجلة العدد ١٤ - ومقالى بعض التأثيرات
الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية مقال بمجلة المجلة العدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٧ - والأبحاث الإسبانية الآتية :

Gomez Moreno, Iglesias Mozarabes, Madrid 1919 — Torres Balbas, el intercambio artistico
entre Espana y Egipto, Al-Andalus, 1934.

أربع عشرة وميتين ، وكتب عبد البر بن هرون^(١) .
 ويتميز هذا الجامع عن جامع عبد الرحمن الداخل في أنه لم يضاف إليه
 إضافات بل ظل يحتفظ بمساحته الأولى حتى ضاق بعد مضي ثلاثة قرون من إنشائه
 وأصبح لا يتسع لجميع المصلين ، فأقام الموحدون جامع القصبة الكبير بإشبيلية
 بالإضافة إلى جامع ابن عدبس المذكور . وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة في
 نظامه العام وفي عدد بلاطاته ، فقد كان يشتمل على أحد عشر بلاطاً تتجه عمودية
 على جدار القبلة ، وكان البلاط الأوسط أكثر هذه البلاطات اتساعاً وارتفاعاً ،
 وكان طول جدار القبلة يتراوح ما بين ٤٨ ، ٥٠ متراً . وكانت لهذا المسجد مثناة
 تنتصب في منتصف الجدار الشمالى . وكانت هذه المثناة مربعة من الخارج ومستديرة
 من الداخل ، وكان يبلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة ٥,٨٨ متر ، وعلى
 هذا فنظامها يشبه نظام المآذن القرطبية التي ترجع إلى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط
 مثل مثناة سان خوان ومثناة سانتا كلارا ، إذ يفصل بين المركز الأسطوانى والجدران
 الخارجية درج يبلغ عرضه ٨٠ سم ، وأقيمت مثناة الجامع من الأحجار التي تعلفت
 من السور الرومانى القديم الذى تخرب عند الفتح الإسلامى للمدينة ، بدليل أنه عثر
 بين أحجار المثناة المذكورة على حجر عليه نقوش لاتينية مما يقطع بأن هذه
 الأحجار اتخذت من آثار رومانية قديمة .

وكان صحن الجامع مغروساً بأشجار البرتقال والنارنج ، ولذلك فالصحن يعرف
 اليوم باسم Patio de los Naranjos ، وكانت تتوسطه خصة من الرخام تنبثق منها نافورة
 وقد أصيب جامع ابن عدبس ببعض الأضرار أثناء غارة النورمنديين على إشبيلية
 سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) . ثم أصيب المسجد سنة ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) بزلزال
 عنيف هدم الجزء الأعلى من المثناة ، فجدد المعتمد بن عباد بناءها في شهر واحد ،

(١) Ocana Jimenez, La inscripcion fundacional de la Mezquita de Ibn Adabbas

en Sevilla, Al-Andalus, Vol XII fasc. I, 1947 pp. 145-151.

Torres Balbas; La primitiva Mezquita Mayor de Sevilla, Al-Andalus, vol. XI, 1946,

pp. 425-436.

وقد ورد النص المذكور أعلاه فيما ذكره ابن صاحب الصلاة (انظر

Ibn Sahib al Sala Sevilla y sus monumentos arabes, texto y traduccion por Melchor

Antuna, El-Escorial, 1930.

وتاريخ البناء مسجل على لوحة اكتشفت في الجدار القبلي بقاعدة المئذنة . ويبدو أن بناء المسجد قد تأثر بهذا الزلزال ، فتصدعت جدرانه الغربية ومالت ، وتآكلت جوائز سقفه ، فظل كذلك حتى كانت أيام أبي يوسف يعقوب المنصور الذي أمر في جمادى الأولى سنة ٥٩٢ هـ (مايو سنة ١١٩٥ م) بترميمه ، وإقامة ركائز قوية تسند جدرانه الغربية من الميل^(١) ، وأعاد إليه الصلاة بعد أن كانت قد انقطعت منه منذ سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) .

ولقد تحول جامع ابن عديس إلى كنيسة سان سلفادور San Salvador عقب سقوط مدينة إشبيلية على يدى فرناندو الثالث سنة ١٢٤٦ م . ثم أصيبت المئذنة للمرة الثانية في ٢٤ أغسطس سنة ١٣٥٦ بأضرار جسيمة بسبب زلزال عنيف هدم جزءها العلوى ، فأقيم مكانه طابق للنواقيس . ولم يبق من المئذنة الإسلامية سوى جزء يبلغ ارتفاعه ٩,٥٠ متر . أما المسجد فقد هدم برمته سنة ١٦٧١ م وأقيمت مكانه كنيسة سان سلفادور التي تم بناؤها سنة ١٧١٢ م .

ثالثاً : مسجد الباب المردوم بطليطلة :

على الرغم من صغر مساحة هذا المسجد فإنه يعتبر أهم مسجد في الأندلس بعد جامع قرطبة لاحتفاظه بقباب تسعة ، قائمة على الضلوع المتقاطعة ، تمثل أولى مراحل التطور التي مرت بها قباب جامع قرطبة^(٢) ، ويعرف هذا الجامع اليوم

(١) يذكر ابن صاحب الصلاة ، أن المريد أبا العباس المرى كتب إل الخليفة الموحدي المنصور بأن « جامع أشبيلية القديم قد اختل واعتل من داخله وخارجه ، وأن جوائز المسقف منه قد عفت أطرافها الثابتة على بلاطاته في الحيطان وأن حيطانه من جهته الغربية قد مالت ويخاف على الجامع الهدم » فتأثر الخليفة بذلك وأمر البنائين والفعلة بتلافى ذلك ، « فحضر العرفاء له ، وأدخلوا تحت أطراف الجوائز ركائن وكعوبا من الخشب ، وطبقوا عليها بالزجاج الخشب حتى قويت أصول الجوائز المذكورة ، وبنوا له أبراجا من الحجر العادي من جهة حائطه الغربي وقاية له من الميل المرى فيه من الاندفاع وتكون له أنفع انتفاع ، وسطحوا صحنه بالآجر المحكوك الحسن الصنعة ، وتابعوا أقواسه بالجبس والجيار ، وكشفوا عن سقفه ، وبنوا ما وهى منها حتى ظهر للعيان الصلاح في أحواله وجميع أعماله ، وكان هذا النظر القاضل من أمير المؤمنين رضى الله عنه في شهر جمادى الأولى من عام اثنين وتسعين وخمسمائة » ابن صاحب الصلاة ص ١٣٤ وما يليها .

(٢) ارجع إل : Lambert, Les coupôles des Grandes Mosquées de Tunisie et d'Espagne :

aux IXe et Xe siècles, Hesperis, 3e trimestre, t. XXII, fasc. II, 1936 — L'architecture =

باسم باب مردوم Bib Mardom نسبة إلى باب مجاور له ما زال قائماً ويعرف باسم الباب المردوم . ويعلو واجهة الجامع نقش كتابي تاريخي من قطع آجرية بارزة في إفريز يقع بين صفين من الأسنة البارزة من نفس هذه المادة ونصه : (بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله ، فم بعون الله على يدي موسى بن علي البناء وسعادة . فم في المحرم سنة تسعين وثلاثمائة) .
وأحمد بن حديدي هذا كان قاضي طليطلة في ذلك الوقت ، وهو من أسرة معروفة في هذه المدينة ، وتولى الوزارة أيام إسماعيل بن ذي النون ملك طليطلة وقد انتهى أمر ابن حديدي المذكور بالقتل على يدي القادر بالله يحيى بن ذي النون بطليطلة (٤٦٧ - ٤٧٢ هـ ^(١)) .

والمسجد مربع الشكل على نظام الكنائس البيزنطية لا يتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار ، وقد شيدت جدرانها من الحجر الجرانيتي والآجر وفقاً للأسلوب الذي اختصت به طليطلة ، وقد حول هذا المسجد إلى كنيسة بعد استرداد قشتالة لطليطلة بقليل ، وأضيفت إليه في الجانب الشرقي حنية مدججة ، وأطلق عليه اسم سانتا كروز Santa Cruz ، ووهبه ألفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية ، ويعرف اليوم باسم El Cristo de la Luz . ويتكون المسجد من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية بحيث يحدث من ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منها اثنا عشر قوساً على شكل حدوة الفرس ، ويعلو كل أسطوان من الأساطين التسعة قبة تتقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأيناه في قباب قرطبة ، والقبة الوسطى أكثر من القباب الأخرى ارتفاعاً . ونظام التقيب يقوم على تقاطع الضلوع المتجاوزة في صور مختلفة ، منها ما يمثل شكلاً رباعياً منحرفاً ، ذا أقطار ، بحيث يبدو كما لو كان قبوتين من الطراز القوطي إحداهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو على شكل مشن ، ومنها ما يقلد تقاطع القبة المحرمة الكبرى بجامع

Musulmane du Xe siècle, Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925, pp. 142-147. =

وبحثي عن المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ - ٥٣ .

ومقال عن مسجد المسلمين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ .

(١) ابن بسام الشتريني ، الذخيرة ، المجلد الأول قسم رابع ص ١١٨ - ابن الخطيب ، أعمال

الأعلام ص ٢٠٧ .

قرطبة : وتعرض قباب جامع باب المردوم تطوراً لقياب قرطبة نحو الزخرفة . أما واجهة المسجد الرئيسية وهي الواجهة الجنوبية الغربية ، فتطل على الطريق المؤدى إلى باب مردوم بثلاثة عقود ، وفي أعلاها النقش الكوفي الذى أشرنا إليه . والقوس الأيمن من هذه الأقواس متجاوز على شكل حدوة الفرس ، على مثال عقود جامع قرطبة . والقوس الأيسر مفصص أما الأوسط فمجدد ، ويعلو الأقواس الثلاثة التى تعتبر أبواباً لبيت الصلاة ، بائكة صماء من أقواس متقاطعة ويتوج هذه البائكة الزخرفية إفريز بداخله شبكة مخرمة من المعينات . أما الواجهة التى تطل على صحن المسجد فتألف من ثلاثة عقود متجاوزة بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاوزة صماء يتناوب فيها اللونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أقواس جامع قرطبة .

• • •

وبجانب هذه المساجد الثلاثة تبقت آثار المسجد الجامع بتطيلة Tudela ، وهي آثار ضئيلة لا تعدو مساند أو كوابيل ذات لفائف ، وعقود مزدوجة على شكل حدوة الفرس ، وتيجان مزودة بتوريقات غاية فى الروعة والجمال ، ولوحة من الحجر أشبه بعمادة الباب تكسوها زخارف هندسية من خطوط معقوفة (١) .

(١) ارجع إلى :

Gomez Moreno, La Mezquita Mayor de Tudela, Revista Principe Viana, No. ١8, Pamplona,

1945, pp. 1-21.

ومقال عن هذا المسجد فى كتاب المساجد والقصور بالأندلس ص ٤٩ .

آثار القصور

لم يشرع المسلمون في الأندلس في بناء قصورهم إلا منذ عصر بني أمية ، وهو العصر الذي نبت فيه بذور الفن الإسلامي الأندلسي ، ففي هذا العصر حرص الأمراء على إحاطة دولتهم بكل مظاهر الفخامة والترف ، وأبهة الأمراء وعظمة الملوك ، فاتجهوا إلى تشجيع البناء ، وعملوا على تعمير المدن ، وعندئذ نهض فن البناء في البلاد ، ونشطت حركة التشييد والعمران خاصة في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الذي كان يقول :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم ملك عناه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعظم قدره أضحى يدل على عظيم الشأن
وعلى يدي هذا الخليفة العظيم نالت الأندلس ما نالته من مجد رفيع وازدهار ، وبلغت حضارتها مستوى لم تبلغه الأمم الأخرى ، وعلى الرغم من كثرة المنشآت العظيمة والقصور التي أسسها أمراء بني أمية وخلفائهم ، لم يبق إلا آثار قصور الزهراء ، التي قفص الأثريون الإسبان عن أكفائها ، بعد أن ظلت قروناً طويلة مطمورة في جوف الأرض ، ذلك أن حياة هذه القصور الخلافية كانت موقوتة ، فما أسرع ما نهبت وسلبت على أثر سقوط الخلافة ، ويبدو أن السبب في تخريب هذه القصور يرجع إلى عوامل دينية ، فالإسلام يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء ، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدين ، ثم إن الفقهاء كانوا لا يقرون الخلفاء فيما يذهبون إليه من الكلف بعمارة الأرض وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة ، ففضوا في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته والإسراف في الإتفاق عليه ، لأن « متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهي دار القرار ومكان الجزاء »^(١) . ولقد وعظ القاضي منذر بن سعيد الخليفة عبد الرحمن الناصر

(١) المقرئ ، نفع الطيب ج ٢ ص ١٠٦ .

بعد أن ابنتى مدينة الزهراء ، واستقرغ جهده فى تنسيقها ، وإتقان قصورها ، وزخرفة مبانيها ، وانهمك فى ذلك كله حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متواليات ، وحلده من مغبة الاستغراق فى أمور الدنيا الزائلة ، وخوفه من الموت ودعاه إلى الزهد فى هذه الدار القانية ، وحثه على اعتزالها والرفض لها ، والندب إلى الإعراض عنها ، والإقصار فى طلب اللذات ، ونهى النفس عن اتباع هواها ، حتى أبكى الخليفة .

وذكر النباهى أن الناصر اتخذ قبية قراميدها ذهب وفضة أنفق عليها مالا كثيراً وجعل سقفها صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة تستلب الأبصار بأشعة نورها ، وجلس فيها إثر تمامها يوماً مفتخراً بما صنعه ، وقال لمن حوله : « هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا : لا يا أمير المؤمنين ، وإنك لأوحد فى شأنك كله ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ، ولا انتهى إلينا خبره ، فأبهجه قولهم وسره ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس ، فلما أخذ مجلسه قال له كالذى قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه ، فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته ، وقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تتمكن من قيادك هذا التمكين ، مع ما آناك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين ، حتى يتزل منازل الكافرين ، قال : فاتفعل عبد الرحمن لقوله ، وقال له : انظر ما تقول : وكيف أنزلنى منزلهم ، قال نعم ، أليس الله تعالى يقول : (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوثهم سفكاً من فضة ومعارض عليها يظهرن) فوجم الخليفة وأطرق ملياً ودموع تتساقط خشوعاً لله تعالى ، ثم أقبل على منذر وقال له : جازاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجل جزائه ، وكثر فى الناس أمثالك ، فالذى قلت هو الحق ، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى ، وأمر بنقض سقف القبية ، وأعاد قرمدها تراباً على صفة غيرها^(١) .

وذكروا أنه حضر معه يوماً فى الزهراء ، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصر قصيدة منها :

«يشهد ما أبقيت أنك لم تكن مضيعاً وقد مكنت للدين والدنيا
في الجامع المعمور للعلم والتقى وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتر. الناصر وابتهج ، وأطرق منذر بن سعيد ساعة ثم أنشد :

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقا لو لم تكن زهرتها تذبل^(١)

كذلك اهتم المنصور بن أبي عامر ببناء القصور فأسس مدينة الزاهرة ذات
القصور السامقة مثل منية السرور والعامرية وغيرها ، ولم يمض عهد طويل حتى
خرجت الزاهرة بقصورها واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح ،
وتلاشى أمرها وصارت قاعاً صفصفاً وعم الحراب سائرها ، وذكروا أن بعض ما نهب
منها بيع في بغداد وغيرها من البلاد الشرقية^(٢) .

آثار قصور الزهراء :

إن تاريخ بناء مدينة الزهراء أقرب إلى القصص والأساطير ، فقد ذكر المؤرخون
« أن الناصر ماتت له سرية ، وتركت مالا كثيراً ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى
المسلمين ، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد ، فشكر الله تعالى على ذلك ،
فقال له جاريته الزهراء - وكان يحبها حباً شديداً - اشتيت لو بنيت لي به مدينة
تسميها باسمي وتكون خاصة لي ، فبناها تحت جبل العروس من قبة الجبل وشمال
قرطبة ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة أميال أو نحو ذلك^(٣) . والواقع أن الخليفة
عبد الرحمن الناصر ، كان بطبعه كلفاً بالبناء فرأى أن يؤسس ضاحية خلافة يقيم فيها
قصرأ يليق بجلال الخلافة وبهاؤها ، فبنى المدينة على بعد خمسة أميال تقريباً إلى الشمال
الغربي من قرطبة ، أما قصة جاريته الزهراء فهي قصة من ابتكار المؤرخين ، فهم
ينسجون من الحقائق التاريخية قصصاً خيالية ويحبكونها حتى تكاد تبدو حقيقية ،

(١) نفس المرجع .

(٢) نفس المرجع ص ١٢٢ وذكر ابن بسام نقلاً عن ابن حيان أن قصور بني أمية الرفيعة
تهدمت على يد رجل يدعى ابن باشة ، فقد باع آلات هذه القصور من المرمر والعمد الرخامية والأخشاب
والنحاس والحديد والرصاص (انظر ابن بسام ، القسم الأول المجلد الثاني ص ١١١ - ١١٢) .

(٣) المقرئ ، نفع الطيب ج ٢ ص ٦٥ .

فيذكرون أنه نقش صورة الزهراء على باب المدينة مبالغة في حبه لها ، وحقيقة الأمر أن التمثال المذكور لا يعلم أن يكون تمثالا رومانياً قديماً نصب على أحد أبواب المدينة تقليداً للتمثال الذي يمثل امرأة على باب القنطرة بقرطبة والذي كان يعرف باب الصورة أو باب العذراء ^(١). أما اسم المدينة فقد سمي بالزهراء نسبة للقصور الزاهرة التي أسسها الخليفة في هذه المدينة أو بسبب غرسه لحبل قرطبة الذي تقع المدينة على سفحه ، تينا ولوزا ، وتفتح الأشجار زمان الأزهار ^(٢) ، وسرى المنصور بن أبي عامر يؤسس بدوره مدينة الزاهرة ، دون أن يكون لهذا التأسيس قصة مماثلة لقصة الزهراء .

شرع الناصر في بناء المدينة المذكورة في محرم عام ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) ، وجلب إليها عبد الله بن يونس عريف البنائين ، وحسن القرطبي ، وعلى بن جعفر الإسكندراني ، الرخام الأبيض من المرية ، والرخام المجزع من رية ، والرخام الوردى والأخضر من إفريقية : من إسفاقس وقرطاجنة ، وأسس قصره الخلافي وكان يشتمل على مجالس منها المجلس الشرقى المعروف بالمرئوس وقد زينه الخليفة بحوض منقوش مذهب جلبيه أحمد الفيلسوف وربيع الأسقف من القسطنطينية ، وكان يزدان بنقوش آدمية محفورة ، ولما نصبه في وسط هذا المجلس ، نصب عليه اثني عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما عمل بدار الصناعة بقرطبة وهي تماثيل لأسد بجانبه غزال ثم تمساح ويقابل هذه التماثيل الثلاثة تماثيل لثعبان وآخر لعقاب وثالث لفيل ، وفي المجنبتين تماثيل لحمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكان الماء يخرج من أفواهها ^(٣) .

وذكروا أنه كان يعمل في بناء الزهراء كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة . أما المجلس الثاني المسمى بقصر الخلافة فكان سمك جدرانه من القراميد المذهبة والرخام الغليظ في جرمه ، الصافي لونه ، وكانت جدران هذا المجلس مثل ذلك ، وكان يتوسط هذا المجلس البيتة التي أتحف بها ليون ملك القسطنطينية الخليفة الناصر ، نصبت في بركة مملوءة بالزئبق ، وكان ينفث في كل

(١) ليث بروثسال : الإسلام في المغرب والأندلس ص ٦١ .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٤٤ ، المقرئ ج ٢ ص ١٠٤ .

جانب من جوانب هذا المجلس ثمانية أبواب انفتحت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تتسلل من هذه الأبواب فينعكس شعاعها على جدران المجلس فيحدث من ذلك بريق يأخذ بالآبصار^(١) .

ولما « بنى الناصر قصر الزهراء المتناهى فى الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يكن مثله فى الإسلام البتة ، وما دخل إليه قط أحد من سائر البلاد والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وجهبذ ، وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة ، إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيها ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس فى تلك العصور النظر إليه ، والتحدث عنه »^(٢) . وكانت مصاريع أبواب القصر كلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه ، وكان للقصر حمام وللعمامة حمام . وأقام الناصر لمدينته مسجداً كان يعمل فى بنائه كل يوم ألف رجل منهم ٣٠٠ بناء و ٢٠٠ نجار و ٥٠٠ من الأجراء وسائر الصناع ، فتم بناؤه فى مدة ثمانية وأربعين يوماً وكان يتكون من خمسة بلاطات كان البلاط الأوسط منها أكثر هذه البلاطات اتساعاً ، وكان صحن المسجد مفروشاً بالرخام الحمرى اللون وتتوسطه فوارة يجرى فيها الماء ، وكان ارتفاع المئذنة أربعين ذراعاً وهى تشبه مئذنة الأمير هشام بجامع قرطبة . أما منبر هذا الجامع فقد جاء فى نهاية الحسن ، وحظرت حوله مقصورة من الخشب^(٣) . واتخذ الناصر فى الزهراء محلات للوحش متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك^(٤) ، واتخذ فى المدينة دوراً لصناعة الآلات : من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن^(٥) .

(١) المقرئ ج ٢ ص ٦٨ . (٢) نفس المرجع ص ١٠١ .

(٣) المقرئ ج ٢ ص ١٠٠ .

(٤) أول من أثاره أنه أقام محلات للوحش أو حدائق للحيوانات هو خمارويه بن أحمد بن طولون الذى بنى للطيور برجاً من خشب الساج وأطلق فيه جميع أنواع الطيور واتخذ فى القصر داراً للباع وجعل لكل صنف من الدواب إصطبلًا ، للجمال والفهود والنمور والفيلة والزرافات ، كما اتخذ حوضاً فى قصره ملء بالزئبق (انظر حسن أحمد محمود ، مصر فى عصر الطولونيين ص ٩٢ من كتاب مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ، القاهرة ١٩٦٠) .

(٥) المقرئ ج ٢ ص ١١٢ . ليس أدل على وجود هذه الدور الخاصة بصناعة الحلى من ذكر =

ولم يتم بناء الزهراء في حياة الخليفة عبد الرحمن الناصر وإنما استمر البناء في عهد الخليفة الحكم المستنصر من بعده فأتمها الحكم سنة ٣٦٥ هـ . ولم يتح لهذه المدينة الخلافة أن تنعم بالحياة طويلاً ، إذ انحدرت إلى قبرها وهي في مقتبل عمرها ، وذلك عقب سقوط الخلافة بقرطبة ، على نحو ما فصلناه في الفصل الأخير من التاريخ وأصبحت الزهراء أثراً بعد عين ، وفيها يقول الشاعر السميسر : —

وقفت بالزهراء مستعيراً معتبراً أنذب أشأتانا

فقلت : يا زهرا ألا فارجعي قالت : وهل يرجع من ماتا ؟

فلم أزل أبكى وأبكي بها هيهات يغني الدمع هيهات

ظلت أطلال الزهراء تتخذ حتى مطلع القرن الماضي محاجر غنية تستخرج منها الأحجار والرخام ومواد البناء حتى تنبت الحكومة الإسبانية إلى أهمية هذه المدينة ، وفي عام ١٩١٠ أجرى السنيور فيلاسكث بوسكو في خرائبها أول حفائر علمية كشفت عن كميات هائلة من الخزف ذي البريق المعدني وقطع كثيرة من الرخام ، وأدت إلى الاهتمام إلى قصر الحكم المستنصر ، وقد نشر هذا المهندس الأثرى نتائج أبحاثه الأثرية في كتاب ، وضع فيه بالرسوم واللوحات بعض ما اكتشفه فيها^(١) . ثم أجرى في أطلال المدينة أبحاثاً أخرى نشر نتائجها عام ١٩٢٣^(٢) . ثم تابعت الأبحاث الأثرية في بطاء شديد على أيدي كبار الأثريين أمثال السنيور كاستخون والسنيور هرناندت^(٣) فكشفوا عن آثار قصر الناصر سنة ١٩٤٣ ، وتمكنوا من قراءة اسمه منقوشاً على بعض التيجان ، كما تمكنوا من قراءة أسماء مهندسي القصر وهم : أفلح ورشيق ونصر من صقالبة الخليفة عبد الرحمن الناصر وفتيانه ، وما زالت

= إحدى التحف التي كشف عنها البحث الأثرى في مدينة الزهراء وهي تمثال لوعل أرغزال أو أسد من البرنز محفوظ اليوم في المتحف الأهل للآثار بقرطبة ولعله أحد التماثيل العديدة التي نصبها الناصر حول الحوض الروماني بمجلس قصر المزنس (انظر مقال عن الفنون والصناعات بالأندلس ، دائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ص ١٨٥) كذلك كشف البحث عن علة عاجية منقوش عليها كتابة تنص على أن العلة صنعت في مدينة الزهراء بأمر الحكم المستنصر على يدى درى الصغير سنة ٣٥٢ هـ (نفس المرجع) .

(١) R. Velazquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiriya, Madrid 1912.

(٢) R. Velazquez Bosco, Excavaciones en Medina Azahara, Madrid 1923.

(٣) R. Castejón : Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara. انظر

campana 1943, Madrid, 1945 — Nuevas excavaciones en Medina al-zahara, El Salon

de Abder Rahman III, Al-Andalus, 1945, pp. 147-154-

الأبحاث الأثرية جارية في وقتنا هذا ، وما زال السنيور هرناندث يواصل ترميماته لقصر الناصر في أناة وصبر ، فاستطاع أخيراً أن يكسو جدرانها بآلاف القطع الحجرية الزخرفية التي كانت مطمورة في جوف الأرض ، بعد أن جمع المتناسق منها وألصقها بعضها ببعض ، ونجح في إعادة تنظيم هذا القصر بمثل الصورة التي كان عليها أيام الخلافة الأموية في الأندلس .

ويمكننا أن نستنتج من الاكتشافات الأثرية بالزهراء أن قصورها نوعان : الأول يتبع نظام القصر الربيعي الذي تدور غرفه حول بهو مركزي ، والثاني يتألف من بلاطات متوازية يفصل بعضها عن بعض صفوف من الأعمدة تقوم عليها عقود وحنايا كما هو الحال في المساجد الأندلسية^(١) .

وكانت أرضيات مجالس هذه القصور وقاعاتها مكسوة جميعاً بقراميد الآجر المرصعة بالأحجار البيضاء بحيث تكون أشكالاً هندسية غاية في الروعة والجمال ، وتكشف لنا تيجان الأعمدة وطونوها وقواعدها وبعض اللوحات عن فن رفيع في الحفر الغائر ، متأثر كل التأثير بالتقاليد البيزنطية التي أخذت تتغلل في الفن الخلافي ، منذ أن توطدت العلاقات بين أباطرة بيزنطة وبين خلفاء قرطبة من الناحية السياسية ، فبادلوا الهدايا والرسائل والسفارات ، وبعث إمبراطور بيزنطة إلى قرطبة بعض صناع الفسيفساء علموا الفنانين المسلمين أسرار صناعتهم ، فأرّب عليهم صناع المسلمين وفاقوهم^(٢) .

(١) Elie Lambert, Les Mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du

Nord, al-Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1949 pp. 273-291.

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٥٤ .

آثار الأسوار والحصون والأبنية ذات المنافع العامة

١ - الأسوار :

اهتم الأمويون بتحسين مدن الأندلس اهتماماً كبيراً ، فأقاموا الأسوار والحصون في مائتين منها ، وأول هذه المدن قرطبة الرومانية التي فتحت أسوارها عند الفتح الإسلامي في بعض أجزائها خاصة في سورها القبلي والغربي ، وأصبحت على هذا النحو مدينة مفتوحة للداخلين إليها والخارجين منها . ولا تولى السمع بن مالك أمر الأندلس وهم قنطرة قرطبة المهلعة بحجارة السور الروماني المهلم من الناحية الغربية ، ثم عزم السمع على ترميم السور وبناء الثغرة المفتوحة فيه من الجهة الغربية باللين ، ولكن لم يتيأ له بناء السور إذ استشهد في طرسوة قبل أن يشرع في بناء السور ، فظل السور الغربي دون ترميم حتى قام بترميمه الأمير عبد الرحمن الداخل سنة ١٥٠ هـ (١) . وما زالت بقايا سور عبد الرحمن الداخل قائمة ابتداء من المستشفى العسكري بقرطبة ، وترتكز هذه الأسوار على أسس من قطع الحجارة المهدبة المقطع ، وظل سور قرطبة الروماني موضع رعاية الأمراء والخلفاء وكانت المدينة قد اتسعت بسكانها ، فعمرت فواحي قرطبة بالمباني ، وتكونت أرياض خارج المدينة ، وأصبحت قرطبة تتكون من خمسة جوانب أو خمس مدن هي المدينة المركزية أو الوسطى أو القصبة ، ثم الشرقية ، والغربية ، ثم الجانب الشمالي ، والجانب الجنوبي ، وهو الرقبض الواقع جنوبي قرطبة على الضفة الأخرى من الوادي الكبير ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك عند دراستنا لقرطبة

(١) يقول صاحب فتح الأندلس : « وفي سنة خمسين ومائة أمر الإمام ابن معاوية ببناء سور قرطبة ، فبنى ما كان جبر من بالين ، إذ بنيت القنطرة من صخره ، فأكمل بناؤه حسب ما أمر به . . . كذلك يشير ابن القوطية وصاحب أخبار عجمية إلى أن السمع تمكن من ترميم القنطرة سنة ١٠١ هـ ، ولم يشر أصحها بأنه قام بترميم السور (انظر ابن القوطية ص ١٢ - أخبار عجمية ص ٢٤) ويؤكد ابن خلدون أن عبد الرحمن الداخل هو الذي قام ببناء سور قرطبة سنة ١٥٠ هـ (الجزء الرابع ص ١٢١) كذلك يذكر المقرئ أن عبد الرحمن أدار السور بقرطبة (المقرئ ج ١ ص ٢١٢) .

حاضرة الخلافة . وكانت هذه الأرباض الأربعة المحيطة بالمدينة قبل الفتنة بدون أسوار ، فلما اشتعلت نيران الفتنة ، أقيم لكل جانب منها خندق يدور بها سور مانع يفصلها عن غيرها .

وكان سور المدينة الوسطى أو القصبة على شكل متوازي أضلاع لا يتجاوز محيطه أربعة كيلومترات ، وتفتتح في هذه الأسوار سبعة أبواب ذكرناها فيما سبق . وقد جددت هذه الأسوار في عصر الموحدين وأحيطت بأسوار أمامية مبالغة في تحصين المدينة ، وقد بقيت أجزاء من هذا السور الموحدى قائمة حتى وقتنا هذا على الأخص في الجانب الغربى من المدينة .

وكما تفتحت الأسوار الرومانية بقرطبة عند الفتح ، تفتحت أسوار إشبيلية بسبب نمو العمران والتوسع فيه ، وعندما أغار النورمنديون على إشبيلية تمكنوا من الدخول في المدينة دون أن تعترضهم أسوار منيعة ، فقد دخلوا المدينة وهي عورة^(١) ، واستباحوها سبعة أيام ، فاضطر الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى تحصين إشبيلية ، فأسس سورها بالحجارة ،^(٢) ثم تهدم هذا السور مرة ثانية بأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) على يدى ابن السليم . ولا يهمننا ما لحق بهذه الأسوار من تغيرات بعد ذلك لأن أسوار إشبيلية الباقية في الوقت الحاضر ترجع إلى عصر المرابطين والموحدين . كذلك أسس عبد الرحمن الداخل حصن المدور بالقرب من قرطبة سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) الذى بقيت آثاره حتى وقتنا هذا . ولقد اهتم عبد الرحمن الناصر بتحصين المدن الساحلية أمام الخطر الفاطمى ، فأسس مدينة المرية ، وأحاطها بالأسوار المنيعة ، كما أنشأ برجاً بقلعة طريف سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) ، وما زالت هذه القلعة تحتفظ اليوم بمظهرها الخلافى القديم ، كما تحتفظ باللوحة التاريخية التى تسجل تاريخ البناء . وفى عهد المستنصر بالله أقيمت أبراج وحصون بنواحى الأندلس المختلفة فى الجنوب وفى الشمال ، على المرتفعات المطلة على الطرق الموصلة بين المدن ، فقد زود حصن بانيوس دى إينثينا Banos de Encina سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) ببرج ، وسجل ذلك فى لوحة محفوظة اليوم بمتحف الآثار الأهل

(١) انظر ابن سعيد المغربى ، المغرب ص ٤٦ .

(٢) ابن القوطية ص ٦٥ - الحميرى ص ٢٠ .

بمليد . كذلك تبقى من عصر الحكم حصن يقال له حصن عقبة البقر ، في الطريق الموصل بين قرطبة وفحص البلوط^(١) . كذلك ابنتى قواد الحكم المستنصر غالب ويحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذى النون حصن غرماج Gormaz سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥ م) ، على نشر يبلغ ارتفاعه فوق مستوى وادى دويرة Duero نحو ١٣٠ متراً ، ويقول عنه الأستاذ ليثى بروثنسال : « وكان حصن غرماج المذكور مفتاحاً دفاعياً حقيقياً للخط الإستراتيجى الدفاعى بين أوسما وبرلانجا ، وما زال يقف اليوم مرتفعاً إلى عنان السماء كما لو كان حارساً لا يغفل ، لفحص مخضر ، بقطاعه الفسيح ، ونطاقه الضيق ، ممتداً على مسافة تبلغ نحو كيلومتر واحد ، والحصن مزود بنقش كتابى يؤكد الحقائق التاريخية^(٢) . ولقد قام الأستاذ جايا نونو Gaya Nuno بدراسة هذا الحصن دراسة أثرية^(٣) أشار فيها إلى أن المسلمين فى الأندلس فى القرن العاشر الميلادى قد وصلوا فى فن العمارة الحربية إلى درجة من التقدم لا يمكن مقارنتها ببقية بلاد غرب أوروبا .

القناطر :

اهتم أمراء بنى أمية بتأسيس القناطر وجسور المياه ، وأهم القناطر الباقية قنطرة قرطبة التى تصل بين مدينة قرطبة وربضها شقندة ، وهى من بناء الإمبراطور أغسطس ، ووجدها الفاتحون العرب عند الفتح الإسلامى لقرطبة مهدمة ، قد سقطت حناياها ولم يبق منها سوى دعائمها الراكبة فى النهر^(٤) ، فجدد السمع ابن مالك الحولاني بناءها بأحجار السور المهدم سنة ١٠١ هـ . ثم تعرضت القنطرة سنة ١٦١ هـ لسيل جارف سد حناياها وهدم بعضها وزلزلها^(٥) ، ولم يتهيأ للأمير عبد الرحمن الداخل أن يرممها لانشغاله بقمع الثورات المشتعلة فى سائر أنحاء الأندلس ، فرممها ابنه هشام من بعده وتولى بناءها بنفسه ، ولكن القنطرة تعرضت مرة ثانية لسيل

(١) Lévi-Provençal, l'Espagne Mus. au Xe. siècle p. 149.

(٢) المقرئ ج ١ ص ٣٦٠ .

(٣) Lévi-Provençal, Histoire de l'Esp. Mus. t. III, p. 64.

(٤) Gaya Nuno, Gormaz, Castillo Califal, Al-Andalus, vol. VIII, p. 431-450.

(٥) المقرئ ج ٢ ص ٢٦ .

(٦) ابن عذارى ج ٢ ص ٨٣ .

ذهب بربض القنطرة سنة ١٨٢ هـ ، وتبعه سيل آخر سنة ٢٨٨ هـ هدم دعامة من دعائمها ، ولكنها استمرت بالرغم من ذلك تؤدي وظيفتها في وصل قرطبة بشقندة ، ثم تثلثت القنطرة سنة ٣٣١ هـ في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر بسبب المد الهائل الذي اجتاح الوادي الكبير^(١) ، ويبدو أن الخليفة قام بترميم هذه القنطرة ، ولكنها تعرضت سنة ٣٣٤ هـ لسيل عظيم . وبلغ الماء البرج المعروف ببرج الأسد ، فهدم الجزء الأخير من القنطرة، وثلم الرصيف^(٢) ، فأصلح الناصر ما تهدم من القنطرة . وهكذا ظلت القنطرة موضع رعاية أمراء بني أمية، وعمل المنصور بن أبي عامر على تخفيف الضغط عن قنطرة قرطبة ، فأمر بينان قنطرة أخرى على نهر قرطبة سنة ٣٧٨ هـ تم بناؤها سنة ٣٧٩ هـ ، فعظمت بها المنفعة^(٣) ، ثم أعيد بناء قنطرة قرطبة في عهد الملك دون بدرو الأول ، ثم جددت في عهد الملكين الكاثوليكين ، وفي سنة ١٨٨٠ م أعيد رصفها من جديد ، ثم كسيت سنة ١٩١٢ بكسوة من الأسمنت غطت معالمها الأثرية .

أما برج الأسد الذي أقيم في العصر الإسلامي في نهاية ممشي القنطرة ، فقد جددته هنري الثاني سنة ١٣٩٩ م . وعدد أقواس هذه القنطرة اليوم ستة عشر قوساً تحملها سبع عشرة دعامة ولكنها كانت تشتمل في العصر الإسلامي على عدد أكبر ، فقد ذكر الرازي أن عدد أقواسها سبعة عشر قوساً^(٤) ، بينما ذكر صاحب مناهج الفكر أن عدد حناياها ثمان عشرة حنية ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً^(٥) ، أما الحميري فيضيف إلى عدد حناياها حنية فيذكر أن « عدد أقواسها تسعة عشر قوساً بين القوس والقوس خمسون شبراً ، ولها ستائر من كل جهة تستر القائمة ، وارتفاعها من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفاف الماء وقلته ثلاثون ذراعاً »^(٦) .

أما قنطرة طليطلة فقد كانت تربط بين المدينة وبين ربضها الواقع على الضفة المقابلة للمدينة من نهر تاجة ، وكانت تتألف من قوس واحد تكتنفه فرجتان من

(١) ابن عذاري ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٢٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٣٠ .

(٤) المقرئ ج ٢ ص ٢٦ .

(٥) نفس المرجع ص ٢٦ .

(٦) الحميري ص ١٥٨ .

كل جانب ، وطولها ثلثمائة باع وعرضها ثمانون باعاً^(١) ، ويضيف الحميرى أنه أقيمت في نهاية القنطرة ناعورة ارتفاعها في البحر تسعون ذراعاً ، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة^(٢) . وقد تهدم الجسر الذى كان يصل المدينة بالمياه من النهر في الوقت الحاضر ولكننا نحفظ بصورة قديمة للقنطرة وفيها هذا الجسر . وقد خربت القنطرة أيام الأمير محمد إذ أمر بهدمها سنة ٢٤٤ هـ^(٣) حتى ينتقم من أهلها النافرين عليه ، وفي ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس :
أضحت طليطة معطلة من أهلها في قبضة الصقر
ما كان يبق الله قنطرة نصبت لحمل كئيب الكفر^(٤)

وظلت قنطرة طليطة مهدمة حتى أعاد بناءها خلف بن محمد العامرى قائد طليطة بأمر المنصور بن أبى عامر سنة ٣٨٧ هـ (٥٩٧ م) ، ثم خربت بعد سقوط طليطة في أيدي القشتاليين ، ولم يبق منها سوى الكتف الكبير للجانب المقابل للمدينة ، فرمت سنة ١٢٥٩ م وظلت على حالتها إلى يومنا هذا .

وعمل أمراء بنى أمية وخلفاؤها على تقليد الرومان في تشييد الجسور التي تحمل المياه من الجبال في أنابيب دقيقة إلى المدن ، ويذكر ابن بشكوال أن عبد الرحمن الناصر أكمل سنة ٣٢٩ هـ « بتيان القناة الغربية الصنعة التي أجراها وأجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة في المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة ، عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر ، مطلى بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد ، فيمجه في تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاهه جنان هذا القصر على سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجناباته ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر ، لبعد

(١) المرقى ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) الحميرى ص ١٣٠ .

(٣) ابن عذارى ج ٢ ص ١٤٤ .

(٤) المرقى ج ١ ص ١٥٢ .

مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوب من أعاليها ^(١) .

وكذلك أجرى الحكم المستنصر المياه من عين مجبل قرطبة ، سنة ٣٥٦ هـ ، خرق له الأرض وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة ، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس ^(٢) . غير أنه لم يتبق للأسف من هذه الجسور آثار مادية تذكر .

الحمامات :

تبقى من الحمامات الكثيرة التي كانت تكتظ بها قرطبة آثار حمامين أشرنا إليهما عند دراستنا لمدينة قرطبة : أحدهما يقع في شارع الحمام Calle del Baño والآخر في شارع لاسي كوميدياس Las Comedias بجوار الجامع ، وهذا الحمام الأخير ما زال يحتفظ بقاعته الوسطى ، وبها عقود مفرطة وأخرى متجاوزة على شكل حدوة الفرس تحملها عشرة أعمدة تيجانها من نوع التيجان الخلافة ، وكانت تعلو هذه العقود قبوة لم يبق منها أى أثر في الوقت الحاضر ، إذ تحولت هذه القاعة إلى صحن مكشوف للهواء ، بينما احتفظت الغرف المجاورة بقبواتها ، ولهذا الحمام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخللها مضاربي لإنفاذ الضوء ، سدت جميعها اليوم . كذلك تبقى من طليطلة حمامان يغلب على الظن أنهما يرجعان إلى عصر الخلافة .

(تم بعون الله تعالى)

(١) المقرئ ج ٢ ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ٣٥٨ .

مراجع الكتاب

مراجع الكتاب

أولا - المصادر العربية القديمة

- ١ - ابن أبي دينار القيرواني : المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، طبعة تونس ، ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) .
- ٢ - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي) : كتاب التكملة لكتاب الصلة ، ملحق نشره جثالث بنسبة Gonzalez Palencia في "Miscelanea de estudios y textos árabes" ، مدريد ، ١٩١٥ .
- ٣ - ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) : كتاب الكامل في التاريخ ، الجزء الثالث طبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) .
- ٤ - ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، الجزء الرابع ، القاهرة ، ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) .
- ٥ - ابن الخطيب (لسان الدين) : كتاب أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام ، نشره الأستاذ ليثي بروقنسال Lévi-Provençal الرباط ، ١٩٣٤ .
- ٦ - ابن الخطيب : كتاب اللوحة البدرية في أخبار الدولة النصرية ، القاهرة ١٩٢٨ .
- ٧ - ابن الخطيب : كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، الجزء الأول ، طبعة القاهرة ، ١٩٠١ .
- ٨ - ابن الزبير : صلة الصلة ، تراجم لعلماء الأندلس في القرن الثالث عشر الميلادي ، نشره الأستاذ ليثي بروقنسال ، تحت عنوان Répertoire biographique andalou du XIIIe siècle ، الرباط ، سنة ١٩٣٨ .
- ٩ - ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله) : تاريخ علماء الأندلس ، جزآن ، نشره كوديرة تحت عنوان Historia Vitorum Doctorum Andalusiae ، مدريد ١٨٩١ .

١٠ - ابن القزطية القرطبي (أبو بكر محمد) : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره دون

خوليان ريبيرا Julian Ribera ، تحت عنوان Historia de la conquista

de España : مدريد ١٩٢٦ .

١١ - ابن بسام (أبو الحسن علي الشتريني) : كتاب الذخيرة في محاسن أهل

الجزيرة . الجزء الأول المجلد الأول ، القاهرة ١٩٣٩ ، والجزء الأول

القسم الثاني ، القاهرة ١٩٤٢ والجزء الرابع القسم الأول ، القاهرة ١٩٤٥ .

١٢ - ابن بشكوال : كتاب الصلة ، نشره دون فرنسيسكو كوديرة ، الجزء الأول

والثاني مدريد سنة ١٨٨٣ .

١٣ - ابن حبيب (عبد الملك) : نص نشره الدكتور محمود علي مكى في صحيفة

معهد الدراسات الإسلامية بمadrid ، العدد الخامس ١٩٥٧ .

١٤ - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ،

تحقيق الأستاذ ليثي بروفنسال طبعة دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٤٨ .

١٥ - للمؤلف نفسه ، ابن حزم : كتاب طرق الحمامة في الألفة والآلاف نشره

وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ ليون برشيه Léon Bercher ، الجزائر ١٩٤٩ .

١٦ - ابن حيان (أبو مروان بن خلف) : كتاب المقتبس في تاريخ رجال

الأندلس ، الجزء الثالث وهو الجزء الخاص بعهد الأمير عبد الله بن

محمد ، نشره الأب ملشور أنطونيا P. Melchor Antuña ، باريس

١٩٣٧ .

١٧ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة ، المكتبة التجارية بمصر .

١٨ - ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، سبعة أجزاء ، (الجزء

الرابع والسادس) طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ (١٨٧٠ م) .

١٩ - ابن خاقان (الفتح) : قلائد العقيان ، طبعة القاهرة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) .

٢٠ - ابن خلدون : كتاب مطمح الأنفس ومسرح الأنس في ملح أهل

الأندلس ، قسطنطينة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) .

٢١ - ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) : المغرب في حلى المغرب ، جزآن

(الجزء الأول) تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف
بمصر - القاهرة ١٩٥٣ .

٢٢ - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) ؛ فتوح إفريقية والأندلس ، نشره مع
الترجمة الفرنسية اليزر جاتو Albert Gateau تحت عنوان "Conquête
de l'Afrique du Nord et de l'Espagne" ، الجزائر ١٩٤٧ .

٢٣ - ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، ترجمة الأستاذ ليثى بروفسال تحت
عنوان "Séville musulmane au début du XIIe. siècle" في سلسلة
"Islam d'hier et d'aujourd'hui" ، الجزء الثاني ، باريس ١٩٤٧ .

٢٤ - ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، النص العربي نشره ليثى بروفسال
تحت عنوان "Un document sur la vie urbaine et les corps de métiers à Séville au début du XIIe. siècle, dans Journal
Asiatique."

عدد أبريل - يونيو ١٩٣٤ .

٢٥ - ابن عذارى المراكشي (أبو عبد الله محمد) : كتاب البيان المغرب في
أخبار الأندلس والمغرب ، نشره الأستاذ ليثى بروفسال وكولان Colin
الجزء الأول ، لندن ١٩٤٨ مع الاستعانة بالجزء الثاني من هذا الكتاب
طبعة بيروت ١٩٥٠ .

٢٦ - ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ، الجزء الثالث ، نشره الأستاذ
ليثى بروفسال ، القاهرة ١٩٣٠ .

٢٧ - ابن غالب الأندلسي : كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، قطعة
نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات العربية ١٩٥٦ .

٢٨ - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : النص الخاص بفتح الأندلس
من كتابه «الإمامة والسياسة» الوارد في كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس
لابن القوطية القرطبي» ، نشره دون خوليان ريبيرا ، مدريد ١٩٢٦ .

٢٩ - أبو حامد الغرناطي الأندلسي : كتاب عجائب المخلوقات ، مخطوطة مخنونة
بمكتبة أكسفورد تحت رقم ٥٦٥ Hunt .

٣٠ - الإدريسي (الشريف) : وصف المغرب والأندلس من كتاب «نزهة

المشتاق في اختراق الآفاق» نشره دوزي R. Dozy ودي جوجة De Goeje
ليدن ١٨٦٦ .

٣١ - الإدريسي وصف المسجد الجامع بقرطبة ، من كتاب نزهة المشتاق ،
نشره الفريد ديسيه لامار Alfred Dessus Lamare ، الجزائر ١٩٤٩ .

٣٢ - البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) : كتاب المغرب في ذكر بلاد
إفريقية والمغرب ، نشره دي سلان de Slane ، الجزائر ١٩١١ .

٣٣ - البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر) : « كتاب فتوح البلدان »
القسم الأول نشره الدكتور صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ .

٣٤ - الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) : « جذوة المقتبس في ذكر رجال
الأندلس » ، حققه الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧١ هـ
(١٩٥١ م) .

٣٥ - الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري) : صفة جزيرة
الأندلس ، منتخبة من كتاب « الروض المعطار في خبر الأقطار » ،
نشره الأستاذ ليثي بروقنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

٣٦ - الخشني (أبو عبد الله محمد) : « كتاب القضاة بقرطبة » نشره دون خوليان
ريبيرا تحت عنوان : " Historia de los Jueces de Cordoba " ،
مدريد ١٩١٤ .

٣٧ - الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري) : معالم الإيمان
لمعرفة أهل القيروان ، تونس ١٩٠١ .

٣٨ - السلاوي (أحمد بن خالد الناصري) : كتاب الاستقصا لأخبار دول
المغرب الأقصى ، الجزء الأول ، القاهرة سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢) .

٣٩ - الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة مصر (١١ جزءاً) ،
القاهرة ١٣٥٦ هـ .

٤٠ - عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ
ليثي بروقنسال ، وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، في مجلة المعهد
المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٤ .

- ٤١ — القلقشندي (أبو العباس أحمد) : « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ،
١٤ جزءاً ، الجزء الخامس ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة
١٩١٣ - ١٩١٩ .
- ٤٢ — مجهول : « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » ، نشره دون لافونتي القنطرة
Don Lafuente Alcantara في مجموعة Obras Arabigas التي تصدرها
« الأكاديمية التاريخية الملكية » الجزء الأول ، مدريد ١٨٦٧ .
- ٤٣ — مجهول « فتح الأندلس » ، نشره دون خواكين دي جنتالث Don Joaquin
de Gonzalez ، الجزائر ١٨٨٩ .
- ٤٤ — مجهول : مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله "Una Cronica
Anonima de Abd al-Rahman III al-Nasir" نشرها وقام بدراستها
وترجمتها إلى الإسبانية الأستاذان: ليثي بروفنسال وإميليو جرثية جومث
Emilio Garcia Gomez ، مدريد — غرناطة ١٩٥٠ .
- ٤٥ — المراكشي (عبد الواحد بن علي) : « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ،
نشره الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة
١٩٤٩ .
- ٤٦ — المسعودي (أبو الحسن علي) : « كتاب التنبية والإشراف » ، طبعة ليدن
١٨٩٣ .
- ٤٧ — المسعودي : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الجزء الأول ، مصر ١٢٨٣ هـ
(١٨٦٦ م)
- ٤٨ — المقرئ (أحمد بن محمد) : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » تحقيق الأستاذ محمد محي
الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ٤٩ — المقرئ ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٠ .
- ٥٠ — المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي) : « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط
والآثار » ، جزآن ، طبعة القاهرة سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) .
- ٥١ — النباهي (أبو الحسن بن عبد الله) : « تاريخ قضاة الأندلس » ، المسمى

المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره الأستاذ ليثى بروفنسال ،
القاهرة ، ١٩٤٨ .

٥٢ — ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان ، طبعة بيروت
الجزء الأول ١٩٦٠ .

ثانياً — المراجع العربية الحديثة^١

٥٣ — أرسلان (الأمير شكيب) : تاريخ غزوات العرب ، مصر ١٣٥٢ هـ
(١٩٣٣) .

٥٤ — بثر (الفريد) : فتح العرب لمصر تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد
القاهرة ١٩٣٣ .

٥٥ — بلنثية (جنثال) : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين
مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .

٥٦ — ديفز (كارلس) : شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، القاهرة
١٩٥٩ .

٥٧ — زيدان (الأستاذ جورجى) : العرب قبل الإسلام ، طبعة دار الهلال ،
القاهرة ١٩٥٧ .

٥٨ — سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : بعض المصطلحات العربية للعمارة
المغربية الأندلسية ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدير ،
مدير ١٩٥٧ .

٥٩ — : التخطيط ومظاهر العمران فى القصور الإسلامية الوسطى ،
المجلة ، العدد التاسع ، سبتمبر ١٩٥٧ .

٦٠ — : بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الإسلامية ،
المجلة العدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٧ .

(١) بما فيها المراجع الأوربية المترجمة إلى العربية .

- ٦١ — سالم : أثر الفن الخلافي بقرطبة في الفن المسيحي بإسبانيا وفرنسا ، المجلة ، العدد ١٤ ، فبراير ١٩٥٨ .
- ٦٢ — : المرية قاعدة الأسطول الإسلامي في الأندلس ، مجلة الرابطة التي يصدرها المركز الثقافي الإسباني بالقاهرة ، العدد ٨ ، ٩ ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٦٣ — : مسجد المسلمين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٨ .
- ٦٤ — : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، المطبعة الأميرية بيولاقي ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ٦٥ — : المساجد والقصور في الأندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ ، أكتوبر ١٩٥٨ .
- ٦٦ — : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٦١ .
- ٦٧ — : مقالات في كتب الشعب عن :
الأندلس — طليطلة — إشبيلية — ماردة — سرقسطة — غرناطة — مرسية — قرطبة — فن الغناء والموسيقى بالأندلس — العمارة الدينية بالأندلس (دائرة معارف الشعب عدد ٦١ ، القاهرة ١٩٥٨) .
العمارة المدنية بالأندلس — العمارة الحربية بالأندلس — الفنون والصناعات — الحركة العلمية والأدبية بالأندلس . (دائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ، القاهرة ١٩٥٩) .
طارق بن زياد — عبد الرحمن الأوسط — عبد الرحمن الناصر (دائرة معارف الشعب عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩) .
جامع الكوفة ، (الجزء الثاني من كتاب مساجد ومعاهد عدد ٧٨ من كتب الشعب ، القاهرة ١٩٦٠) .
- ٦٨ — الشرقاوي (الدكتور محمد عبد المنعم) ، الصياد (الدكتور محمد محمود) : ملامح المغرب العربي ، الإسكندرية ١٩٥٩ .

- ٦٩ — شيبوب (الأستاذ صديق) : جمهورية أندلسية بالإسكندرية ، مقال
بمجلة الكتاب ، فبراير ١٩٤٩ .
- ٧٠ — طرخان (الدكتور إبراهيم على) : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٧١ — عاشور (الدكتور سعيد عبد الفتاح) : أوروبا في العصور الوسطى ،
جزآن ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦١ .
- ٧٢ — العبادى (الأستاذ عبد الحميد) : المجلد في تاريخ الأندلس ، العدد الأول
من سلسلة المكتبة التاريخية ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٧٣ — : (الدكتور أحمد مختار) : سياسة الفاطميين نحو المغرب
والأندلس ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد
الخامس ، مدريد ١٩٥٧ .
- ٧٤ — عباس (الدكتور إحسان) : تاريخ الأدب الأندلسي ، الجزء الثاني من
المكتبة الأندلسية ، بيروت ١٩٦٠ .
- ٧٥ — عبد البديع (الدكتور أحمد لطفي) : الإسلام في إسبانيا ، العدد الثاني
من سلسلة المكتبة التاريخية القاهرة ١٩٥٨ .
- ٧٦ — العدوى (الدكتور إبراهيم أحمد) : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ،
القاهرة ١٩٥٨ .
- ٧٧ — عكوش (الأستاذ محمود) : مصر في عهد الإسلام ، طبعة دار الكتب
المصرية ، القاهرة ١٩٤١ .
- ٧٨ — على (الأستاذ سيد أمير) : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكي ،
بيروت ١٩٦١ .
- ٧٩ — عنان (الأستاذ محمد عبد الله) : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة
١٩٤٧ .
- ٨٠ — فكرى (الدكتور أحمد) : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ،
الإسكندرية ١٩٦١ .
- ٨١ — فلهوزن (يوليوس) : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية
الدولة الأموية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة

- ٨٢ - ليلى بروفسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، الأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٨٣ - محمود (الدكتور حسن أحمد) : مصر في عهد الطولبيين ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٨٤ - المشرقي (الأستاذ محمد محي الدين) : إفريقيا الشمالية ، الرباط ١٩٥٠ .
- ٨٥ - مكي (الدكتور محمود علي) : التشيع في الأندلس ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الثاني ١٩٥٤ .
- ٨٦ - مؤنس (الدكتور حسين) : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .
- ٨٧ - : غارات النورمانين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ ، ٢٤٥ هـ ، العدد الأول من المجلد الثاني من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٠ .
- ٨٨ - : أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية في البحر الأبيض المتوسط مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .
- ٨٩ - : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

ثالثاً - المراجع الأوربية

- ٩٠ - أجوادو بلي : المجلد في تاريخ إسبانيا ، الجزء الأول ، مدريد ١٩٤٧ (بالإسبانية)
Aguado Bleye : Manuel de la historia de España, t. I, Madrid 1947.
- ٩١ - أندريه جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية (حتى الفتح العربي) ، باريس ١٩٥١ (بالفرنسية)
André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, (jusqu'à la conquête arabe), Paris 1951.
- ٩٢ - : تاريخ إفريقيا الشمالية (منذ الفتح العربي حتى إعلان الحماية) باريس ١٩٥٢ (بالفرنسية) .
..... Histoire de l'Afrique des Nord, (depuis la conquête arabe), Paris 1952.

٩٣ — أنطونيا (ملشور) : البلاط الأدبي في قرطبة في عصر الحكم المستنصر ،
الاسكوريال ١٩٢٩ (بالإسبانية) .

Antuñā (P. Melchor) : La Corte literaria de Alhaquem II en
Cordoba, el Escorial, 1929.

٩٤ — : إشبيلية وآثارها العربية ، نص من مدونة ابن صاحب الصلاة ،
الاسكوريال ١٩٣٠ (بالعربية والإسبانية)

... : Sevilla y sus monumentos arabes, texto de la crónica
de Ibn Sahib al-Sala, el Escorial, 1930.

٩٥ — آريانو (رافيل راميريث دي) : تاريخ قرطبة ، الجزء الأول ، ثيودادريال
١٩١٥ (بالإسبانية) .

Arellano (R. Ramirez de) : Historia de Córdoba, t. I, ciudad
Real, 1915.

٩٦ — بوسكو (ريكاردو بلاسكت) : مدينة الزهراء والعامرية ، مدريد ١٩١٢
(بالإسبانية) .

Bosco (Ricardo Velasquez) : Medina Azzahra, y Alamiriya,
Madrid 1912.

٩٧ — : حفائر في مدينة الزهراء مدريد ١٩٢٣ (بالإسبانية)
... : Excavaciones en Madina Azahara, Madrid 1923.

٩٨ — كاخيجاس (إيزيدرو دي لاس) : المستعربون ، الجزء الأول مدريد
١٩٤٧ (بالإسبانية) .

Cagigas, (Isidro de Las) : Los Mozarabes, t. I, Madrid 1947.

٩٩ — كامبس إي كاثورلا : العمارة الخلافية والمستعربة ، مدريد ١٩٢٩
(بالإسبانية) .

Camps y Cazorla : Arquitectura califal y Mozàrabe, Colección.
"Cartillas de arquitectura española", Madrid 1929.

١٠٠ — النظام والنسب والتكوين في العمارة الخلافية بقرطبة ، مدريد ١٩٥٣
(بالإسبانية) .

... : Modulo, proporciones y composición en la arquitectura
califal cordobesa, Madrid 1953.

١٠١ — كاريلاس (كارلوس سارثو) : قلاع إسبانيا ، مدريد ١٩٥٢ (بالإسبانية)

Carreras, (Carlos Sarthou) : Castillos de España, Madrid 1952.

- ١٠٣ - كاستيخون (رافاييل) دليل قرطبة ، مدريد ١٩٣٠ (بالإسبانية) .
Castéjón (Rafaél y Martinez) : Guia de Cordoba, Madrid 1930.
- ١٠٤ - : قرطبة الخلافة ، مجلة الأكاديمية القرطية ، قرطبة ١٩٢٩
(بالإسبانية) .
... : Córdoba Califal, Boletín de la Academia de Córdoba,
Cordoba 1929.
- ١٠٤ - : حفريات البرنامج الوطني بمدينة الزهراء ، حملة ١٩٤٣ ،
مدريد ١٩٤٥ (بالإسبانية) .
... : Excavaciones de plan nacional en Medina Azahra,
Campana 1943, Madrid, 1945.
- ١٠٥ - : حفريات جديدة في مدينة الزهراء ، الأندلس ١٩٤٥ (بالإسبانية)
... : Nuevas excavaciones en Medina al-Zahra, al-Andalus
1945.
- ١٠٦ - كوديرا (فرنسيسكو) : اضمحلال المرابطين وزوال دولتهم من إسبانيا
مقسطة ١٨٩٩ (بالإسبانية) .
Codera (Francisco) : Decadencia y desaparicion de los Almora-
vides en España, Zaragoza, 1899.
- ١٠٧ - : الحدود المحتملة للفتح الإسلامي فيما وراء البرت ، مدريد ١٩١٧
(بالإسبانية) .
... : Limites probables de la conquista arabe en la cordillera
Pirenaica, pp. 97-235, en Estudios Criticos de Historia
arabe española, VIII." Madrid 1917.
- ١٠٨ - : أربونة وجريدة وبرشلونة في ظل الإسلام ، مدريد ١٩١٧
(بالإسبانية) .
... : Narbona, Gerona y Barcelona bajo la dominacion
musulmana, en Estudios Criticos de la historia arabe
española, VIII." Madrid 1917.
- ١٠٩ - كرزول : العمارة الإسلامية الأولى ؛ أكسفورد ١٩٣٨ (بالإنجليزية) .
Creswell (K.A.C.), Early Muslim architecture : Umayyads, Early
Abbasids and Tulunids, vol. II, part II, Oxford 1938.

١١٠ — دوزى (رينهارت) : تاريخ المسلمين في إسبانيا ، نشره الأستاذ ليثى بروفتسال ، ليدن ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 vols. éd. Lévi-Provençal, Leyde 1932.

١١١ — جيشوت (خواكين) : تاريخ الأندلس العام ، مدريد ١٨٦٩ (بالإسبانية)

Guichot (Joaquin) : Historia General de Andalucia .t. I., Madrid 1869.

١١٢ — خيمث (مانويل أوكانية) : بازيليكية شنت بنجنت والمسجد الجامع بقرطبة ، مجلة الأندلس ، ١٩٤٢ (بالإسبانية)

Jimenez (Manuel Ocaña) : La Basilica de San Vicente y la gran mezquita de Córdoba, Al-Andalus 1942 (pp. 347-366).

١١٣ — : أبواب مدينة قرطبة ، الأندلس ، المجلد الثالث ١٩٣٥ ص ١٤٣ — ١٥١ (بالإسبانية)

: Las Puertas de la Médina de Córdoba, vol. III de Al- Andalus, 1935, fasc. I, (pp. 143-151).

١١٤ — : الكتابة التأسيسية بمسجد ابن عبدس بإشبيلية ، مجلة الأندلس مجلد ١٢ ، ١٩٤٧ (بالإسبانية)

: La inscripcion fundacional de la mezquita de Ibn Adabbas en Sevilla, al-Andalus, vol XII, fasc. I, 1947.

١١٥ — إلى لامير : تاريخ المسجد الجامع بقرطبة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين في حويات معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر ، الجزائر ، ج ٢ ، ١٩٣٦ (بالفرنسية)

Lambert (Elie) : Histoire de la grande mosquée de Cordoue au VIII et IXe. siècles, Annales de l'Institut d'études Orientales de l'Université d'Alger, vol. II, Alger, 1936.

١١٦ — : العمارة الإسلامية في القرن العاشر الميلادى ، مجلة الفنون الجميلة الجزء ١٢ ، ١٩٢٥ (بالفرنسية)

: L'architecture Musulmane au Xe. siècle, Gazette des Beaux arts t. XII, 1925.

١١٧ - : أصول القبوات القوطية ، مجلة معاهد الفنون والآثار ، رقم ٨ -

٩ ، نوفمبر ١٩٣٦ - مارس ١٩٣٧ ، باريس (بالفرنسية)

..... : Les origines de la croisée d'ogives, Offices des Instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, No. 8-9, Novembre 1936 - Mars 1937.

١١٨ - لامبير : قباب المساجد الجامعة بتونس وإسبانيا في القرنين التاسع والعاشر

الميلاديين ، هسبريس ، عدد ٢٢ ، جزء ٢ ، ١٩٣٦ (بالفرنسية)

Lambert : Les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne, au IXe. et Xe. siècles, Hesperis t. XXII, fasc II, 1936.

١١٩ - : المساجد ذات الطابع الأندلسي في إسبانيا والمغرب ، الأندلس

المجلد ١٤ ، الجزء الثاني ١٩٤٩ (بالفرنسية)

..... : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1949.

١٢٠ - : المسجد الجامع بقرطبة والفن البيزنطي ، باريس ١٩٥١

(بالفرنسية)

..... : La grande mosquée de cordoue et l'art byzantin Actes du VI C.I.E.B. paris 1951.

١٢١ - ليبي پروفنسال : النقوش الكتابية العربية في إسبانيا ، (الجزء الخاص

بالنصوص) ، لندن - باريس ١٩٣١ (بالعربية والفرنسية)

Lévi-Provençal. (E.) : Inscriptions Arabes d'Espagne, (Textes). Leiden - Paris, 1931.

١٢٢ - : مذكرات الملك عبد الله الزيري ، الأندلس ١٩٣٥ (بالعربية

والترجمة الفرنسية)

..... : Les Memoires du Roi ziride Abdallah, al-Andalus, 1935.

١٢٣ - : السياسة الإفريقية للخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر) ،

الأندلس العدد ١١ ، الجزء الثاني ١٩٤٦ (بالإسبانية)

..... : La Politica Africana de Abd al-Rahman III, Al-Andalus, vol. XI, fasc. 2, 1946.

١٢٤ - : إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر الميلادي ، باريس

١٩٣٢ (بالفرنسية)

..... : L'Espagne musulmane au Xe. siècle, Paris 1932.

١٢٥ - : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ثلاثة أجزاء ، ليدن ، ١٩٥٠ ،
(بالفرنسية)

..... : Histoire de l'Espagne musulmane, 3 vols., Leiden, 1950.

١٢٦ - : المدن والمؤسسات العمرانية ، تطوان ١٩٥٠ (بالإسبانية).

..... : Las ciudades y las instituciones urbanas, Tetuan 1950.

١٢٧ - : نصوص مقتبسة من المقتبس لابن حيان ، في مجلة أرايكا ، الجزء الأول ، يناير ١٩٥٤ (النصوص بالعربية مع الترجمة الفرنسية)

..... : Documents et notules : Les citations du Muqtabis d'Ibn Hayyan, dans la revue Arabica, t. I, fasc. I, Janvier 1945.

١٢٨ - مارسيه (جورج) : الفن الإسلامي : العمارة في تونس والجزائر ومراكش وإسبانيا وصقلية ، باريس ١٩٢٦ (بالفرنسية)

Marçais (Georges) : Manuel d'art musulman, t. II; L'architecture en Tunisie, Algerie, Maroc, Espagne et Sicile, Paris 1926.

١٢٩ - مارسيه : العمارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، باريس ١٩٥٤
(بالفرنسية)

..... : L'architecture musulmane d'Occident, Paris 1954.

١٣٠ - ميليدا (خوسيه رامون) : كتالوج الآثار في إسبانيا ، مديرية بطليوس ، مدريد ١٩٢٥ (بالإسبانية)

Melida (José Ramón) : Catálogo Monumental de España, Provincia de Badajoz, Madrid 1925.

١٣١ - مورينو (منويل جومث) : الكنائس المستعربة ، جزآن ، مدريد ١٩١٩
(بالإسبانية)

Moreno (Manuel Gomez) : Iglesias Mozárabes, Madrid 1919.

١٣٢ - : المسجد الجامع بتطيلة ، مجلة أمير يانا ، رقم ١٨ ، بنبلونة ١٩٤٥ (بالإسبانية)

..... : La Mezquita Mayor de Tudela, Revista Principe Viana, No. 18, Pamplona, 1945.

١٣٣ - : الفن الإسباني ، الجزء الثالث ، (منذ الفتح العربي حتى عصر المولدين) ، مدريد ١٩٥١ (بالإسبانية والترجمة العربية)

للمؤلف بالاشتراك مع الدكتور لطفي عبد البديع تحت الطبع (

..... : Ars Hispaniae, t. III, el arte arabe hasta los Almohades, madrid 1951.

١٣٤ - مؤنس (دكتور حسين) : بحث عن سقوط الخلافة بقرطبة سنة ١٠٠٩ م ،
القاهرة ١٩٤٨ (بالفرنسية)

Munes (H.) : Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue en 1009, le Caire, 1948.

١٣٥ - نونيو (جايا) : غرماج ، حصن خلافي ، مجلة الأندلس المجلد ١٣ ،
١٩٤٨

Nuño (Gaya) : Gormaz, Castillo Califal al-Andalus 1948.

١٣٦ - بالاثويلوس (الشيكونت دي) : دليل فني عملي لطليطلة ، طليطلة ١٨٩٠
(بالإسبانية)

Palazuelos (el vizconde de) : Guia artistico - práctico de Toledo, Toledo 1890.

١٣٧ - بلنثية (جنثال) : تاريخ إسبانيا الإسلامية (مجموعة لابور) مدريد
١٩٤٥ (بالإسبانية) .

Palencia (González) : Historia de España Musulmana, Colección Labor, Madrid 1945.

١٣٨ - ريوس (فرنسيسكو أباد) : سرقسطة (في مجموعة دلائل فنية لإسبانيا)
برشلونة ١٩٥٢ (بالإسبانية)

Rios (Francisco Abbad) : Zaragoza, colección de Guias artisticas de España, Barcelona 1952.

١٣٩ - ريفيرو (كاستوماريا دل) : العملة الأندلسية ، مدريد ١٩٣٣ (بالإسبانية)

Rivero (Casto Maria del) : La moneda arabigo - española, Madrid 1933.

١٤٠ - روبيانو (بابلو ألقاريث) : نظام وثقافة إسبانيا القوطية ، بحث في كتاب
« تاريخ إسبانيا » الجزء الثاني ، برشلونة ١٩٣٢ (بالإسبانية)

Rubiano (Pablo Alvarez) Organizacion y cultura de la España visigoda, en "Historia de España" t. II, Barcelona, 1932.

١٤١ — رويو (خوليان ماريا) : تاريخ إسبانيا القوطية ، بحث في كتاب « تاريخ إسبانيا » الجزء الثاني ، برشلونة ١٩٣٢ (بالإسبانية)

Rubio (Julian Maria) : La España Visigoda, en "Historia de Espana", t. II, Barcelona. 1932.

١٤٢ — سافدرا (إدواردو) : دراسة عن فتح العرب لإسبانيا ، مدريد ١٧٩٢ (بالإسبانية)

Saavedra (Edouardo) : Estudio sobre la invasion de los Arabes en España, Madrid 1892.

١٤٣ — سالم (السيد عبد العزيز) : تاريخ جامع قرطبة ، مجلة الأندلس العدد ١٩ ، الجزء الثاني ١٩٥٤ (بالإسبانية)

Salem (A. Abdel Aziz) : Cronologia de la Mezquita Mayor de Cordoba, al-Andalus vol. XIX, fasc. 2, 1954.

١٤٤ — سانشث البرنس : تاريخ إسبانيا الإسلامية ، (مجموعة وثائق تاريخية عربية مترجمة إلى الإسبانية) في جزأين ، بونيس أيرس ١٩٤٦

Sánchez-Albornoz : Historia de la España Musulmana. 2 tomos., Buenos Aires, 1946.

١٤٦ — سيمونيت (فرنسيسكو خافيير) : تاريخ المستعربين في إسبانيا ، مدريد ١٨٩٧ (بالإسبانية)

Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de España, Madrid 1897.

١٤٧ — تراس (هنري) : الفن الإسباني المغربي ، باريس ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Terrasse (Henri) : L'art Hispano-Mauresque, des origines au XIIIe. siècle, Paris 1932.

١٤٨ — : تاريخ المغرب الأقصى منذ أقدم العصور حتى إعلان الحماية الفرنسية ، جزآن ، الدار البيضاء ١٩٤٩ (بالفرنسية)

..... : Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français, 2 tomes, Casablanca, 1949.

١٤٩ — توريس بلباس (ليوبولدو) : التبادل الفني بين مصر وإسبانيا ، مجلة الأندلس ١٩٣٤ (بالإسبانية)

Torres Balbàs, (Leopoldo) : el intercambio artistico entre Espanay Egipto, al-Andalus, 1934.

١٥٠ - : المسجد الجامع الأول بإشبيلية ، الأندلس ، عدد ١١ ،
١٩٤٦ (بالإسبانية)

.....: La primitiva mezquita Mayor de Sevilla, al-Andalus,
Vol. XI, 1946.

١٥١ - : بوابة سان استييان بجامع قرطبة ، الأندلس ، عدد ١٢ ،
١٩٤٧ (بالإسبانية)

.....: La Portada de San Estaban, Al-Andalus, vol. XII,
pp. 127-144, 1947.

١٥٢ - : حقائق تاريخية جديدة عن جامع قرطبة المتنصر ، مجلة
الأندلس عدد ١٤ ، ١٩٤٩ (بالإسبانية)

.....: Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba cristianizada,
Al-Andalus, vol. XIV, 1949.

١٥٣ - : المدينة والأرباض والأحياء في الأندلس ، مجلة الأندلس ،
عدد ١٧ ، جزء أول ١٩٥٢ (بالإسبانية)

.....: La Medina, los Arrabales y los barrios, al-Andalus vol.
XVII, fasc. I, 1952.

١٥٤ - توريس بلباس : المسجد الجامع بقرطبة وآثار مدينة الزهراء ، مدريد
١٩٥٢ (بالإسبانية)

..... : La mezquita de Cordoba y las ruinas de
Madinat al-Zahra, coleccion de Monumentos cardinales
de España, t. XIII, Madrid 1952.

١٥٥ - : ظواهر المدن الأندلسية ، الأندلس ، العدد ١٥ ، ج ٢
ص ٤٣٧ - ٤٨٦ ، ١٩٥٠ (بالإسبانية)

.....: Los contornos de las ciudades hispano Musulmanas.
al-Andalus, vol XV, pp. 437-486, 1950.

١٥٦ - : الأبنية الأندلسية ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمadrid ،
عدد ١ مدريد ١٩٥٣ (بالإسبانية)

.....: Los Edificios Hispano-Musulmanes, revista del Instituto
egipcio de estudios islámicos, No. I, Madrid 1953.

١٥٧- : تاريخ الفن الإسباني ج ٤ ، الفن الموحدى والفن النصرى

وفن المدجنين ، مطبعة بلوس الترا ، مدريد ١٩٤٩ (بالإسبانية)

..... : Ars Hispaniae, t. IV, arte almohade, arte nasari, arte mudejar, Madrid, Plus-Ultra, 1949.

١٥٨- : الاتساع وعدد السكان فى المدن الأندلسية ، مجلة ستوديا

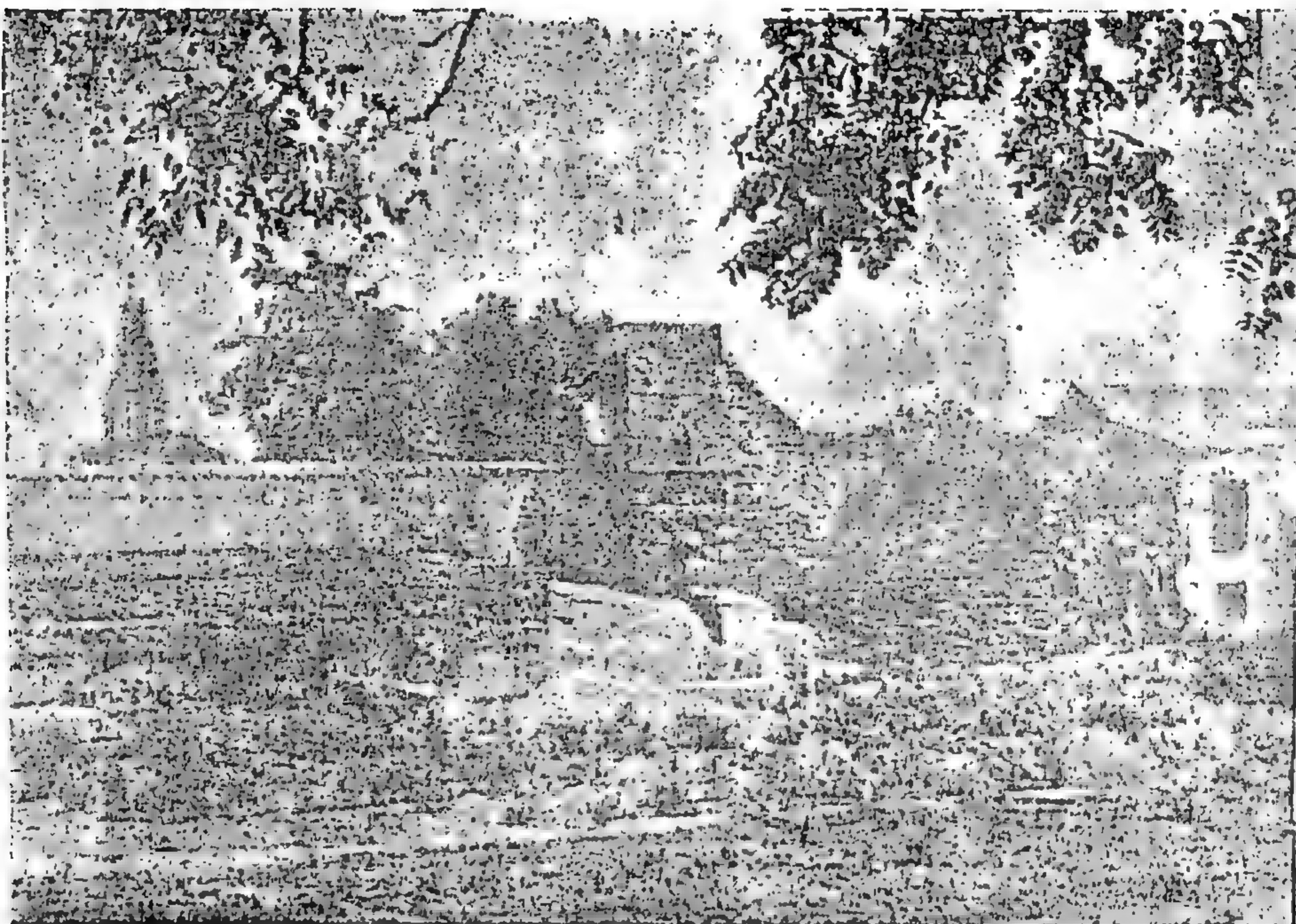
إسلاميكا ، عدد ٣ ، ١٩٥٥ (بالإسبانية)

..... : Extension y demografia de las ciudades hispanomusulmanas, studia Islamica, vol. III, 1955.

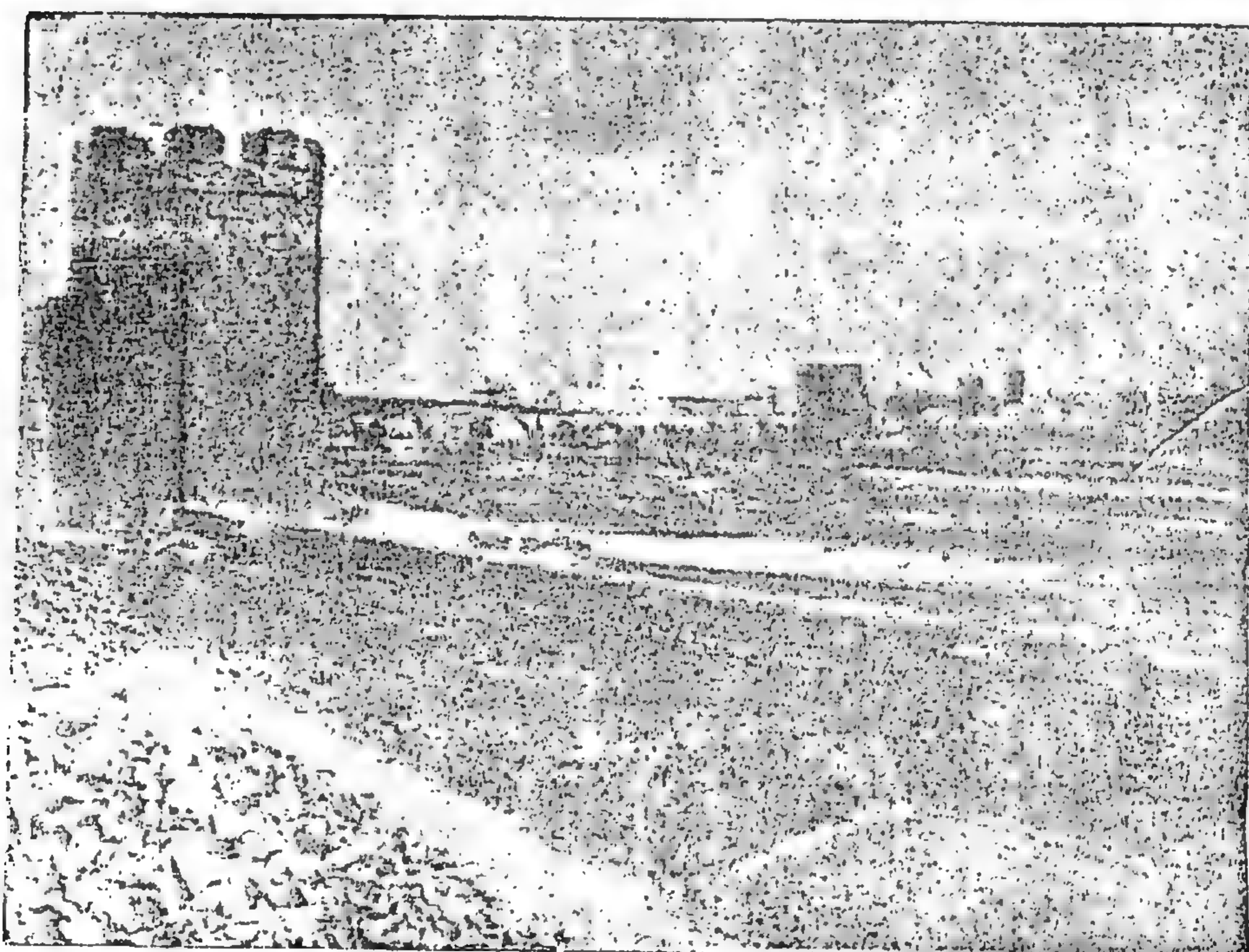
١٥٩- ثونيغا (ديجو أورث دى) : حليات ، ٣ أجزاء ، مدريد ١٧٩٦

(بالإسبانية)

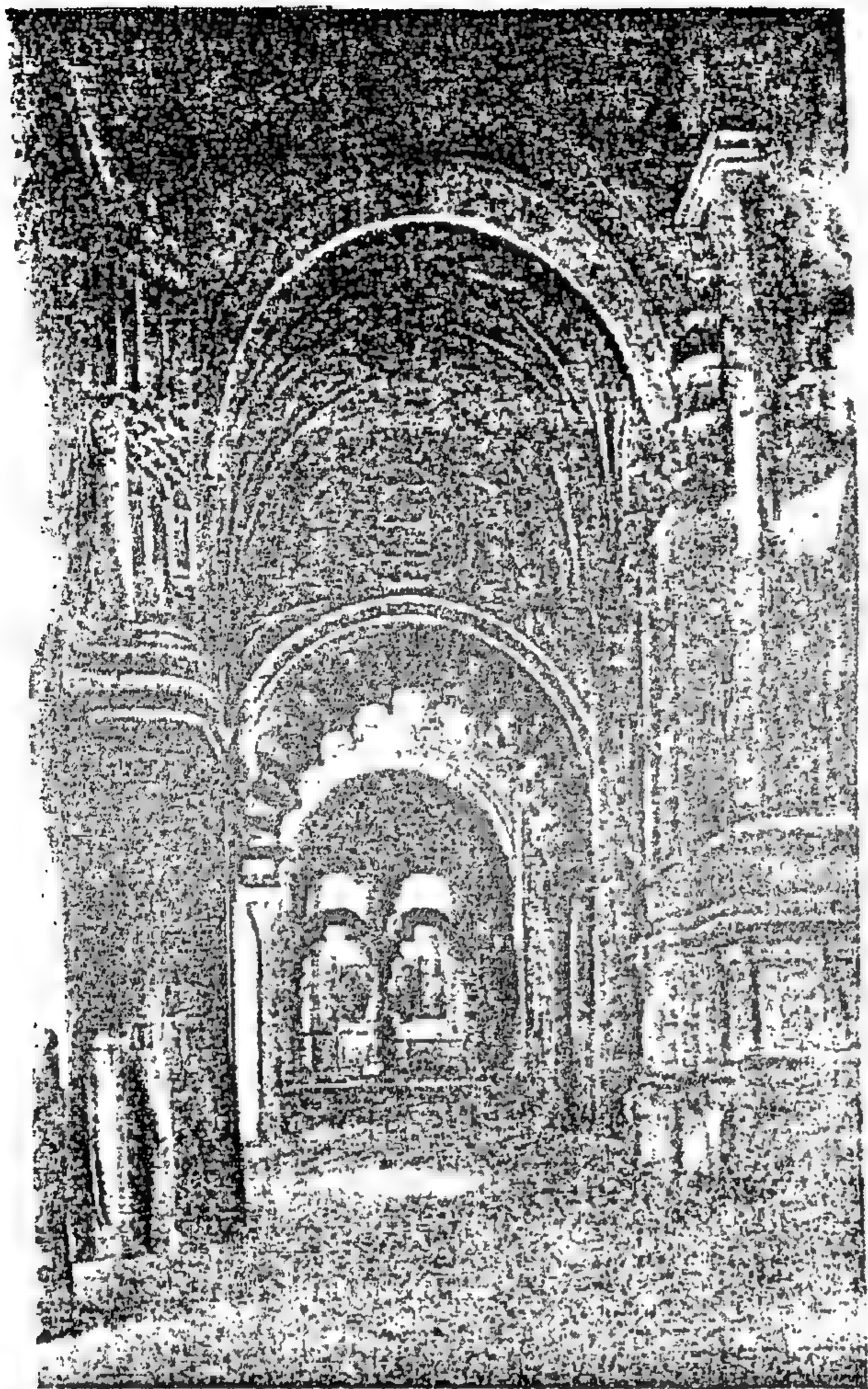
Zuñiga (Diego Ortiz de) : Anales Ecclesiasticas y seculares, 3 tomos, Madrid 1796.



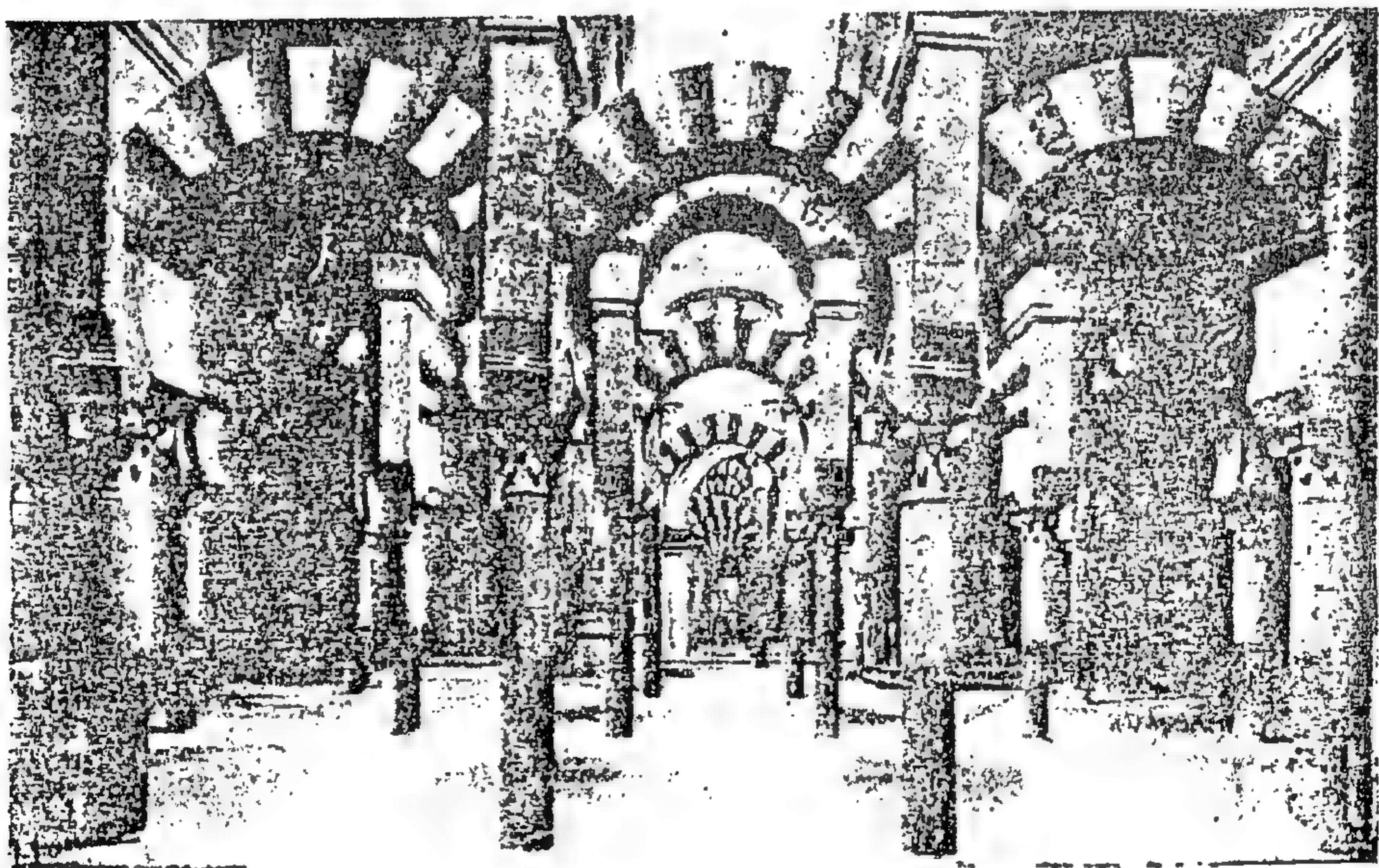
جانب من بقايا السور الروماني بقربة



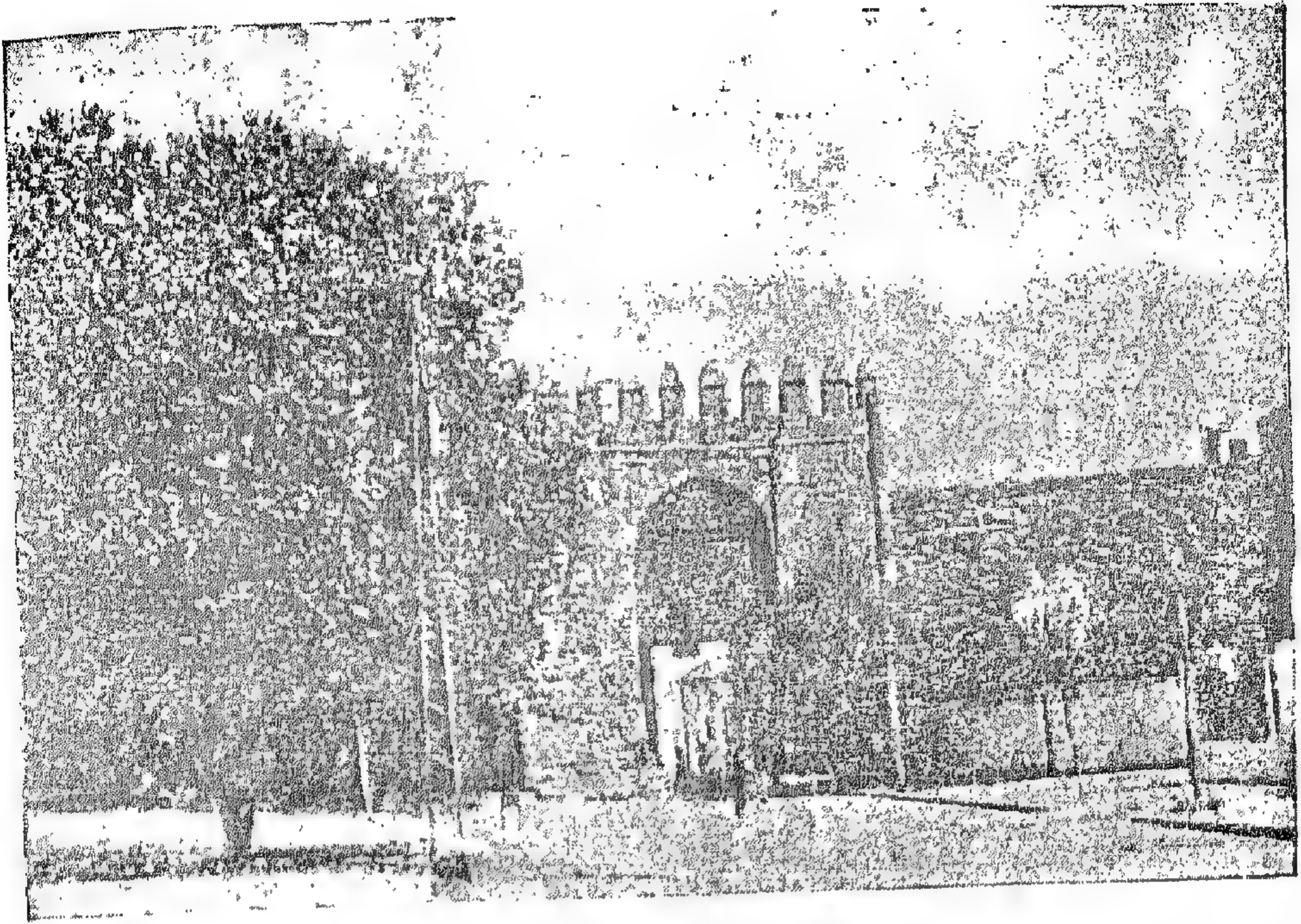
برج مشر الشكل من عمال الموحدين بقربة



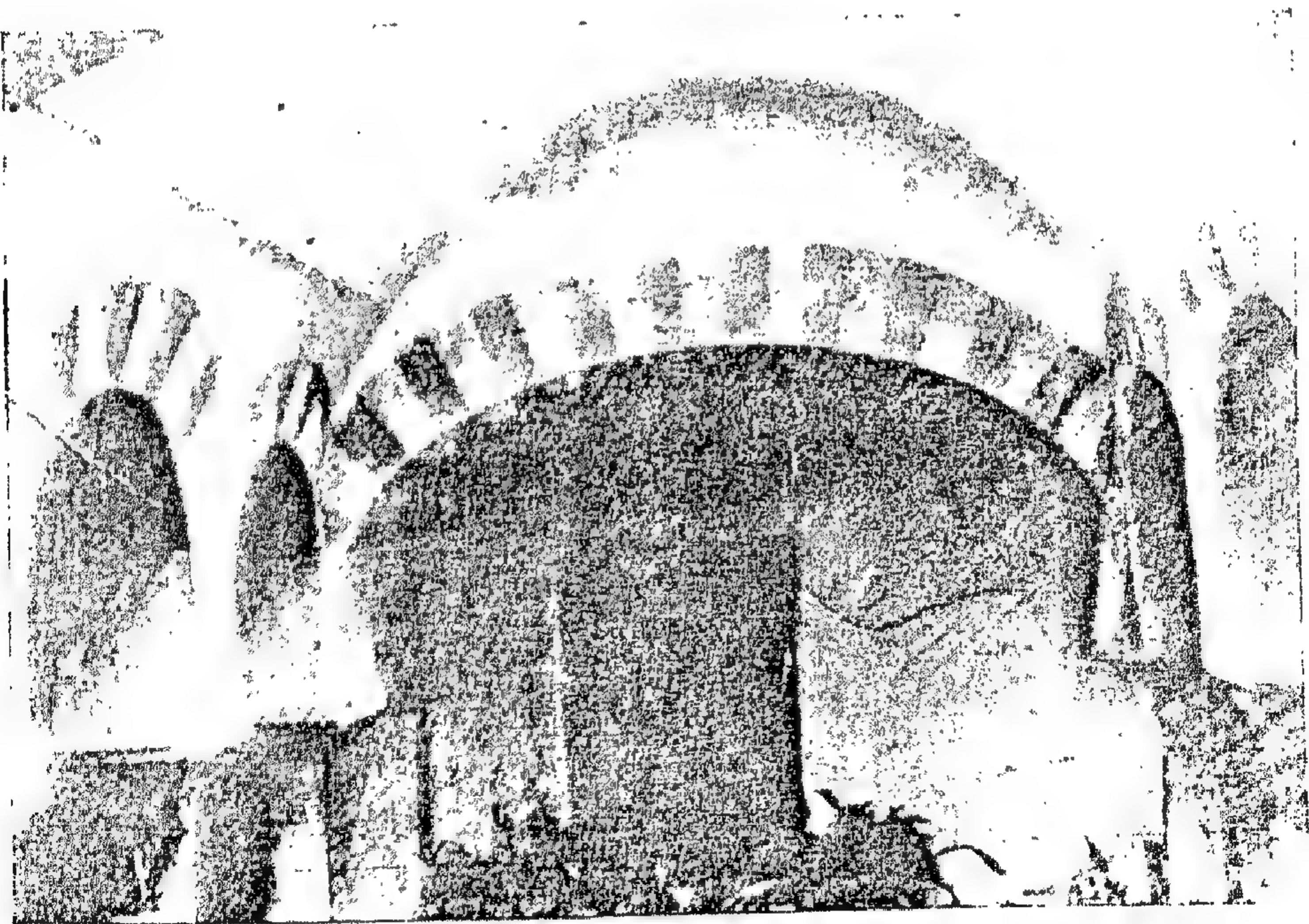
جانب من الكنيسة التي أقيمت
و قلب جامع قرطبة



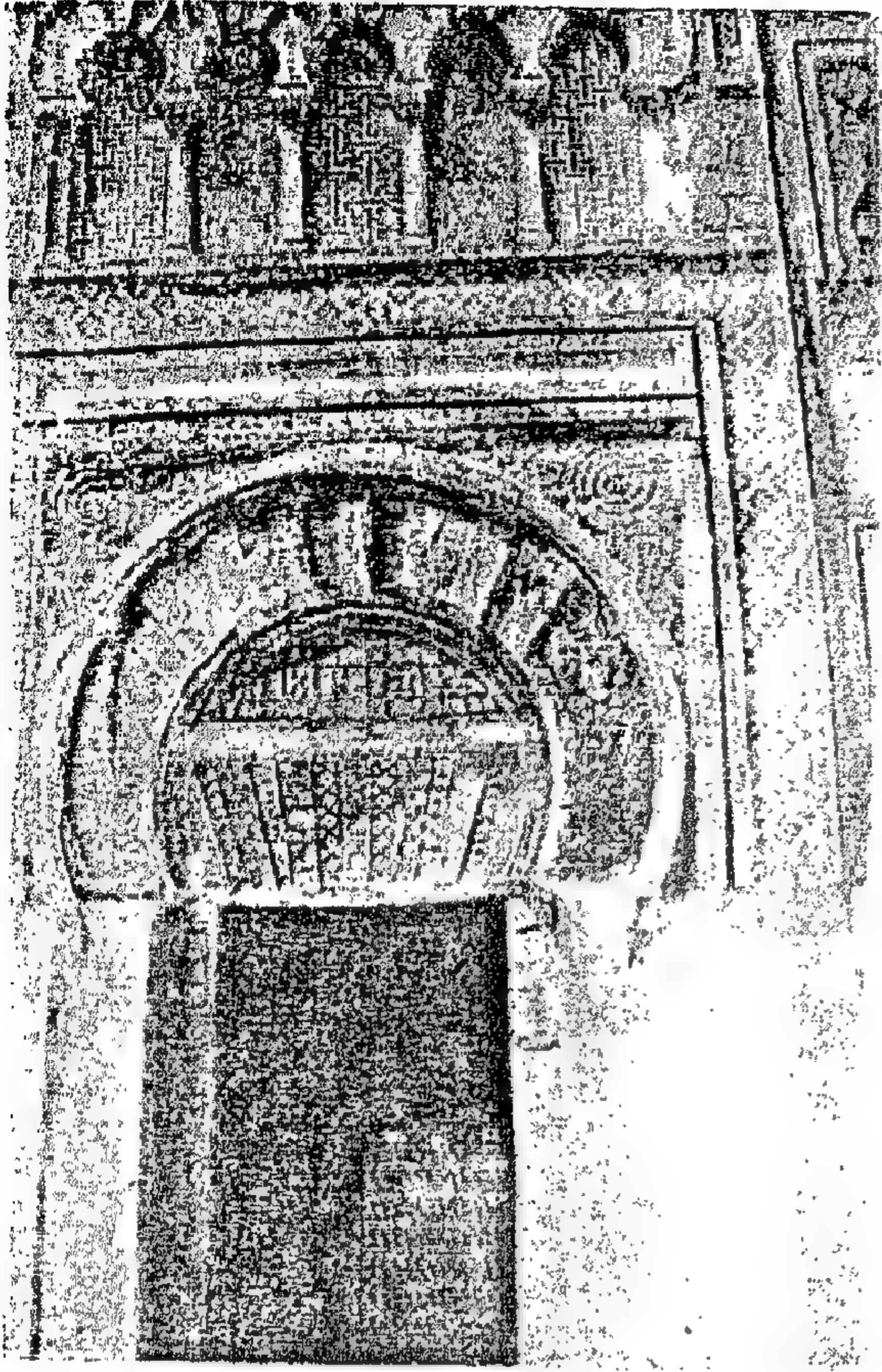
عمود الأعمدة من حيز الصحن الكبير



باب المدور من أبواب مدينة قرطبة



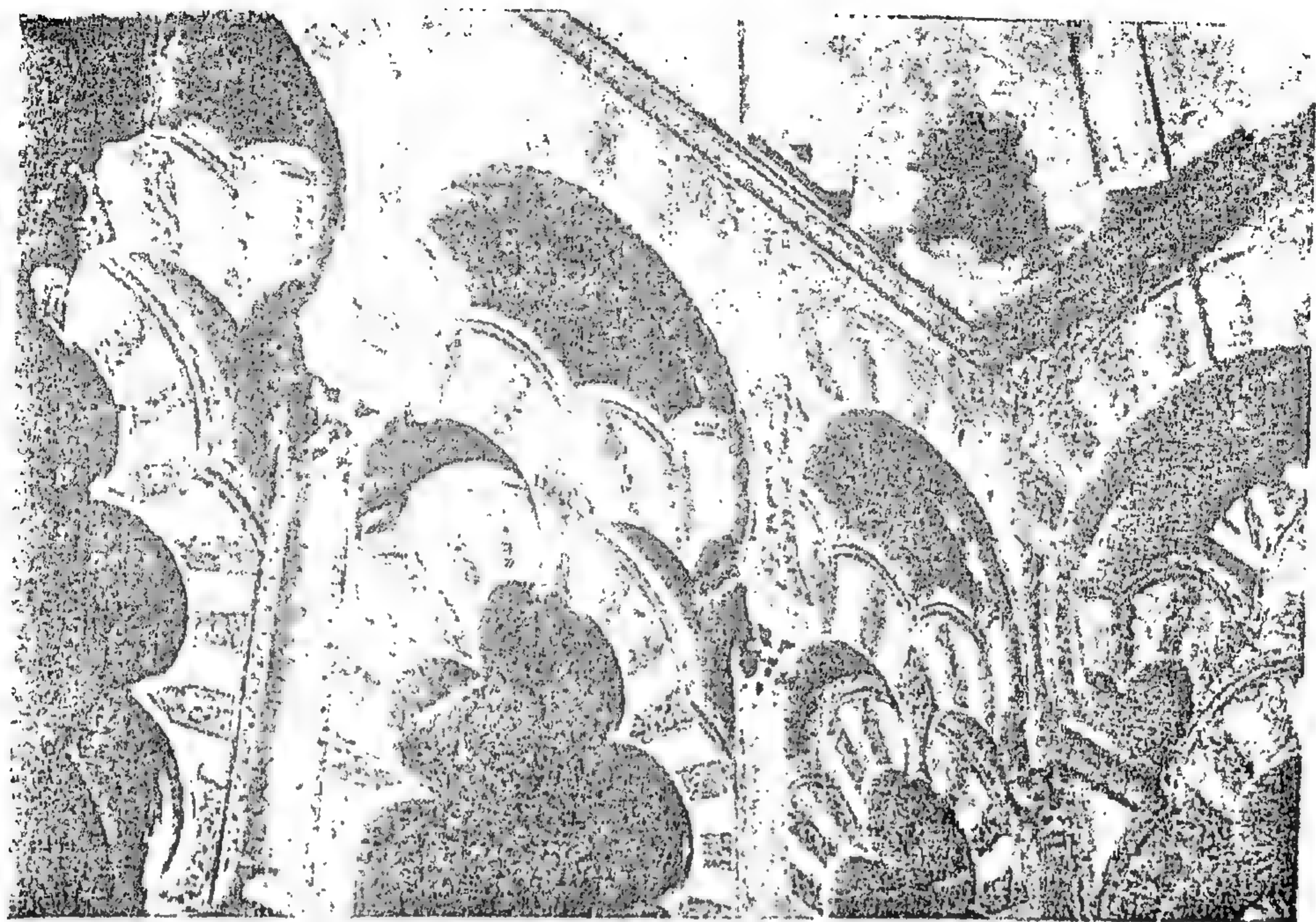
قاعة بدو حن حمام من غصه الحلاقة بمدينة قرطبة



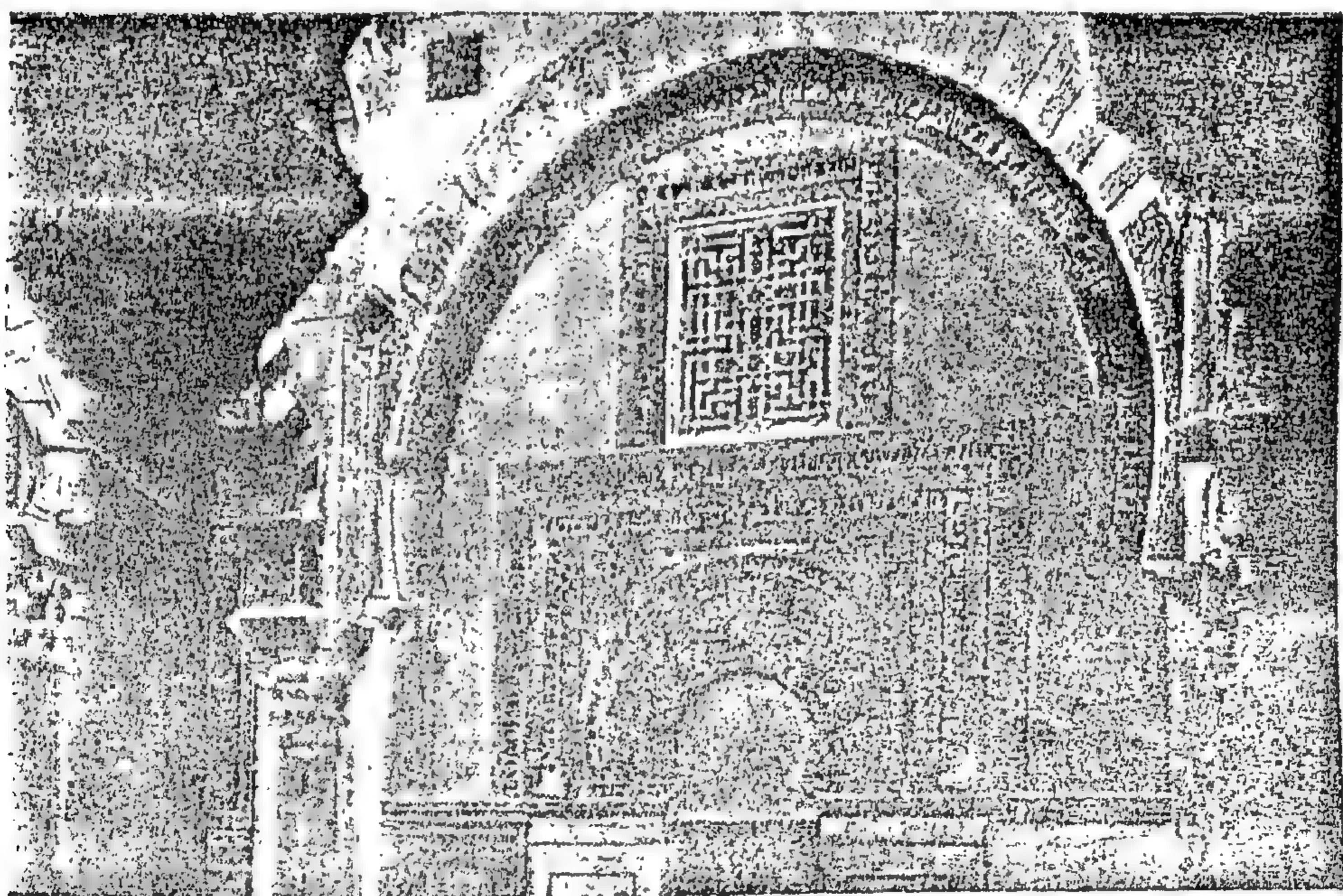
باب بالحداد الشرقى لجامع قرطبة



الحداد الشرقى لجامع قرطبة



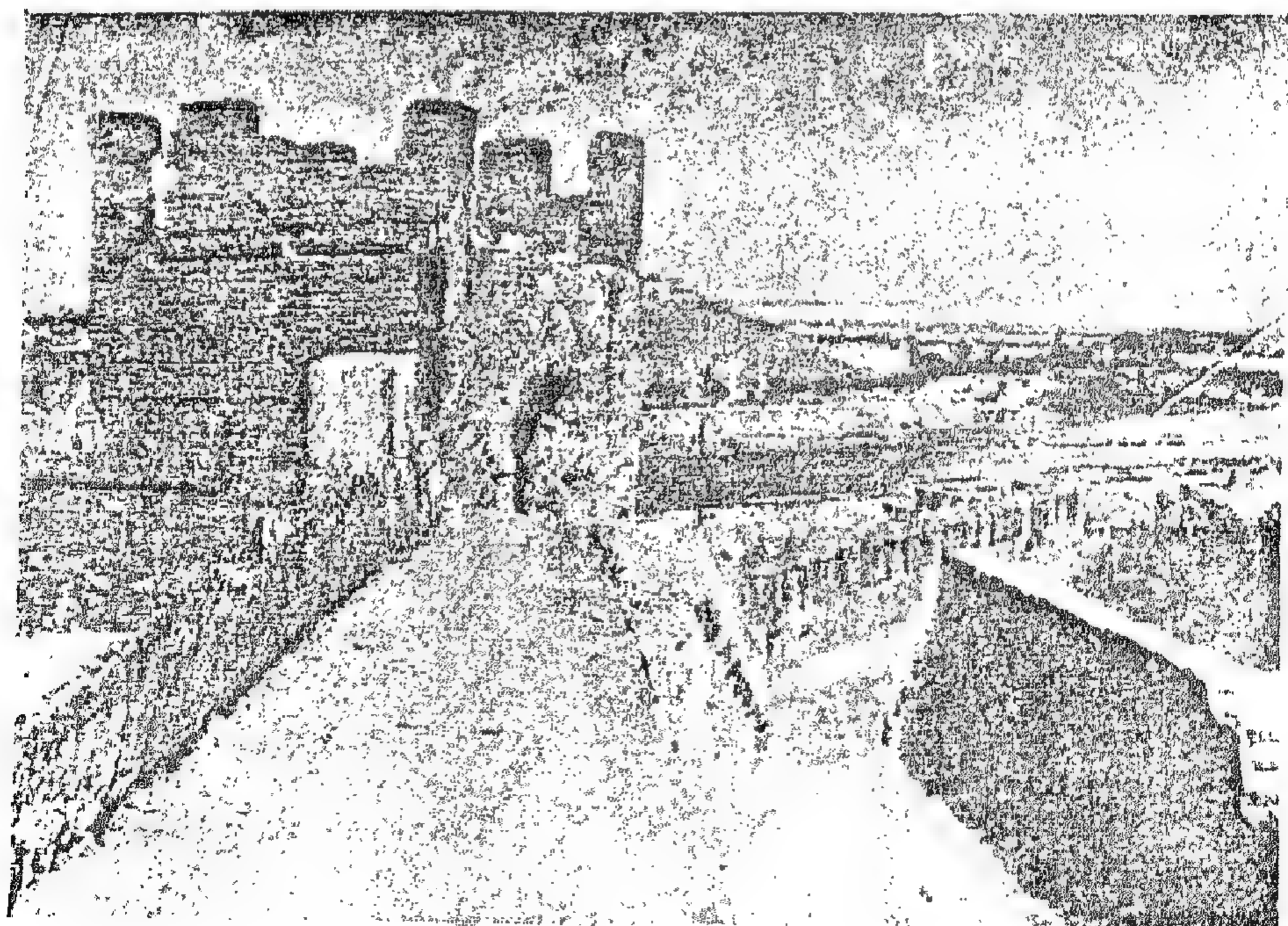
تشابك العقود تحت قبة المهراب بجامع قرطبة



المشروع للسابط بجامع قرطبة

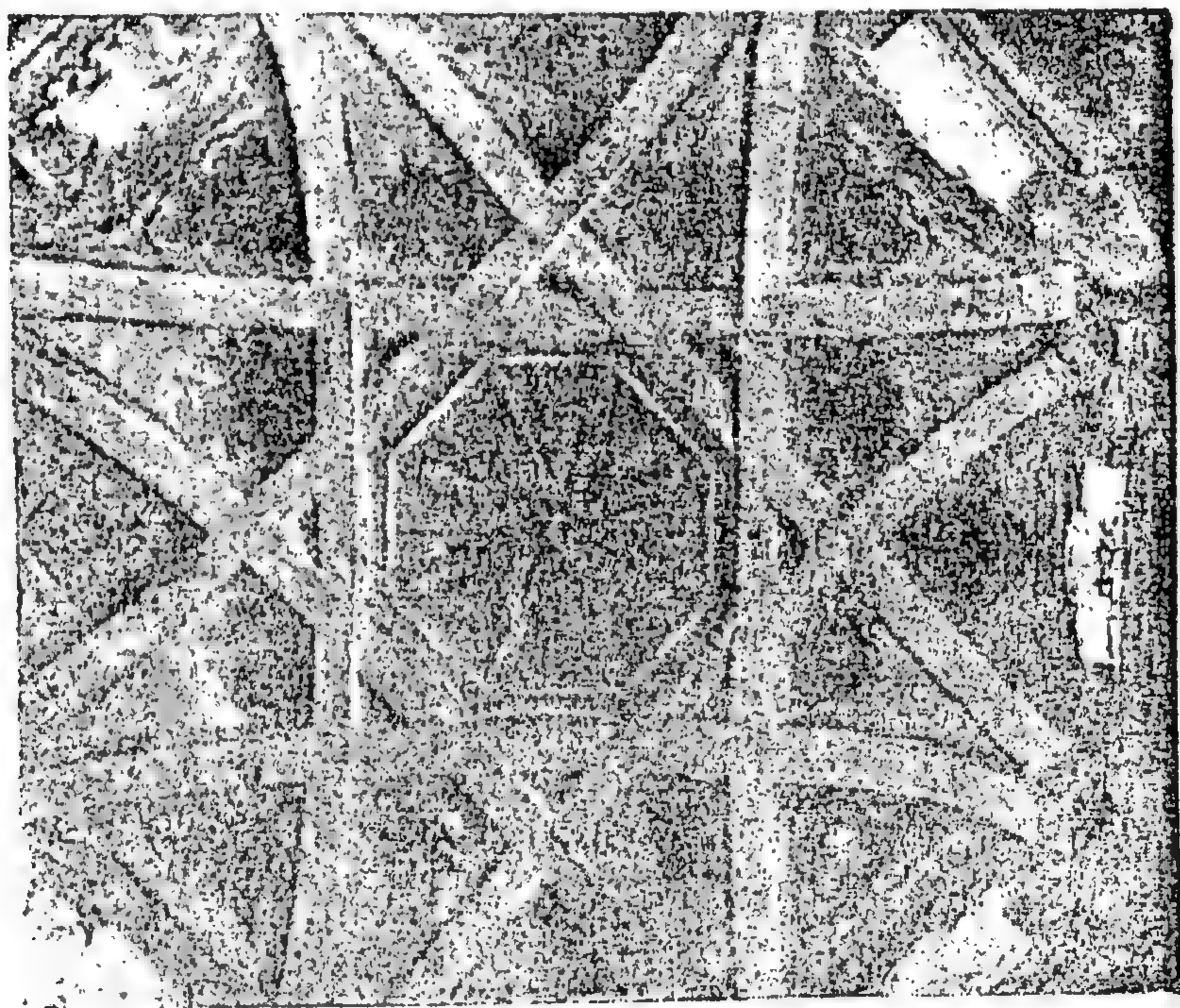
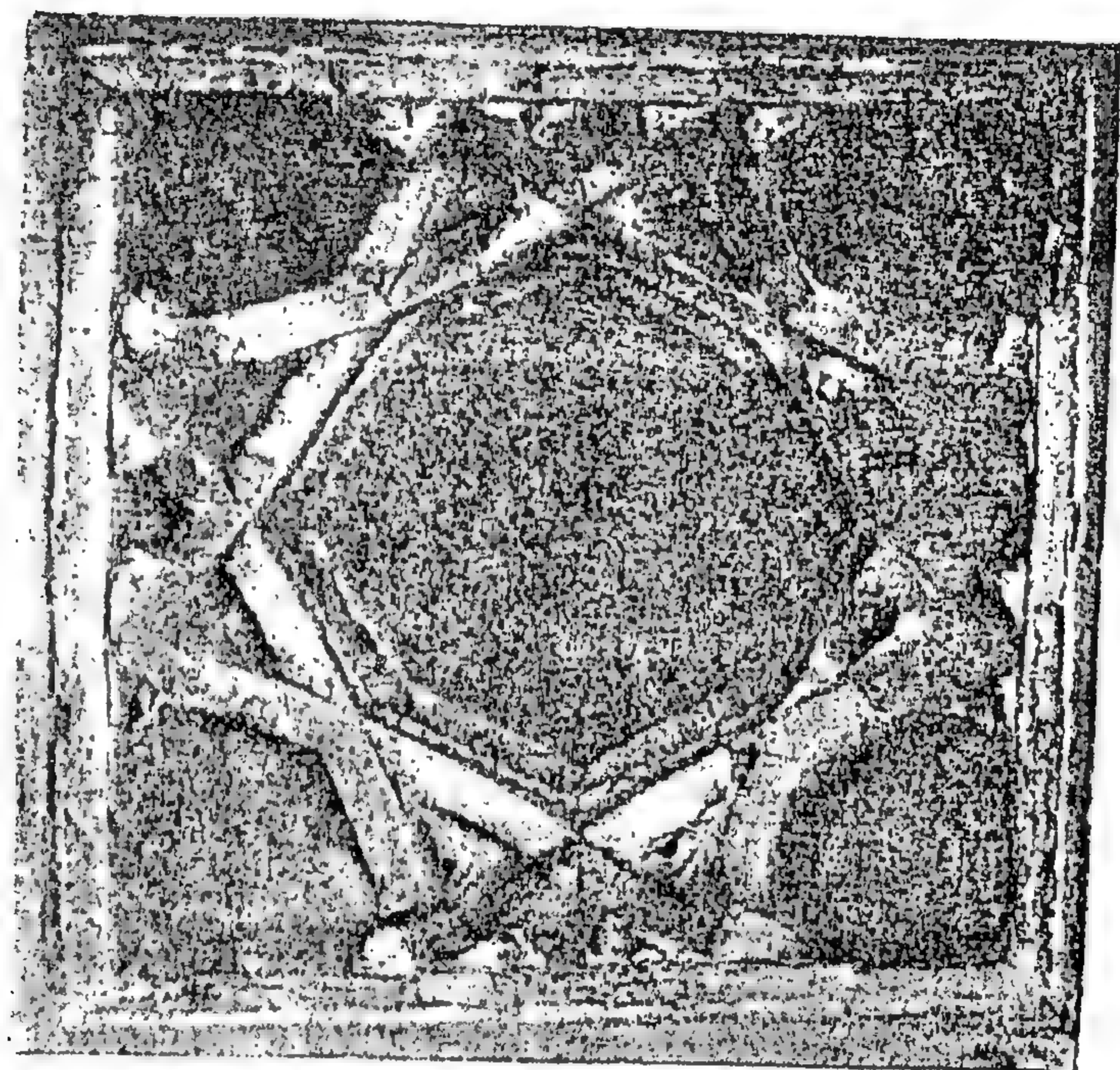


مئذنة المسجد الجامع باشيلية
(مسجد عمر بن عبد بنس)
وترى المقود المحيطة بصحن البرتقال

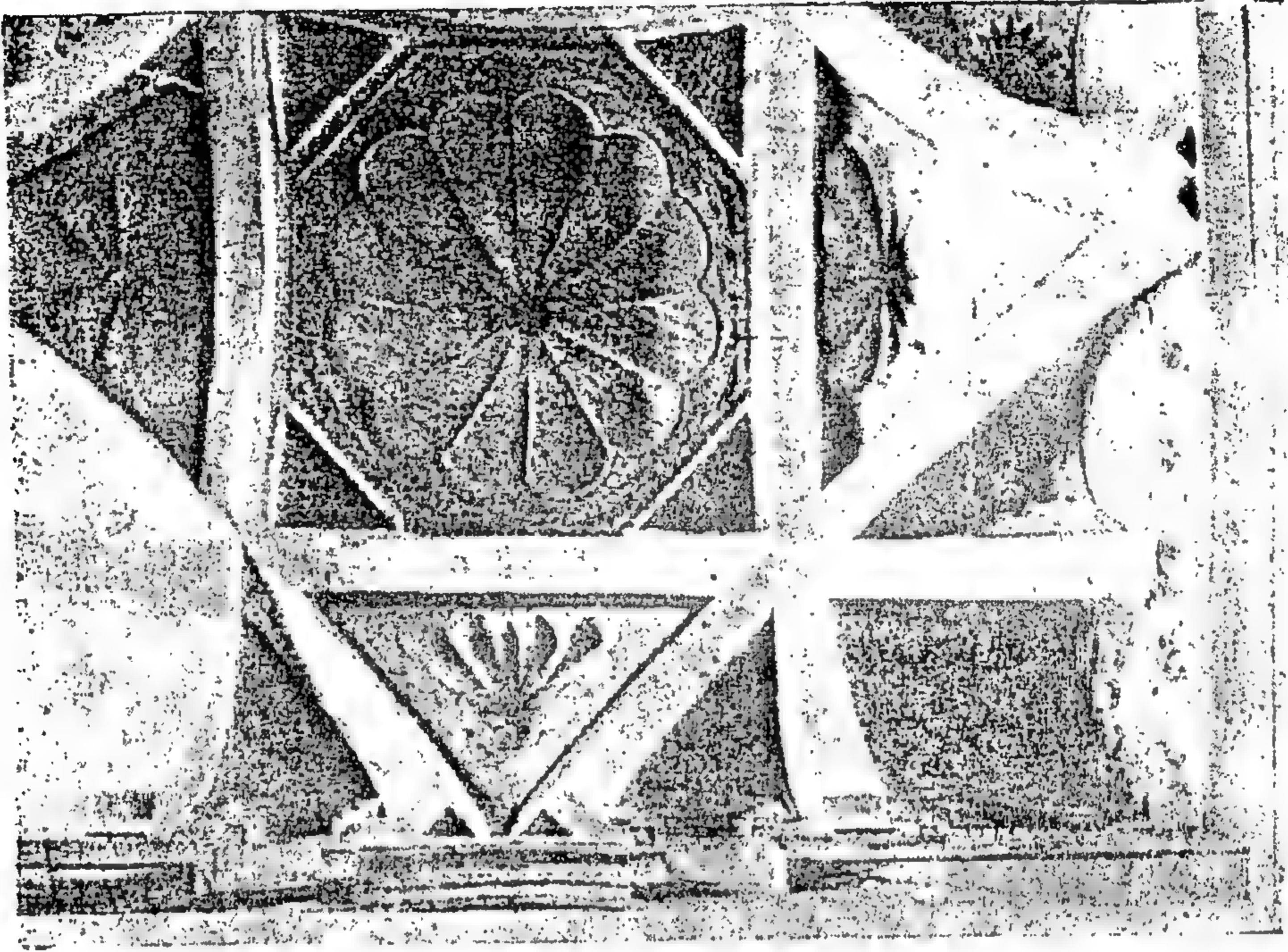


بعض أسوار مدينة بطليوس

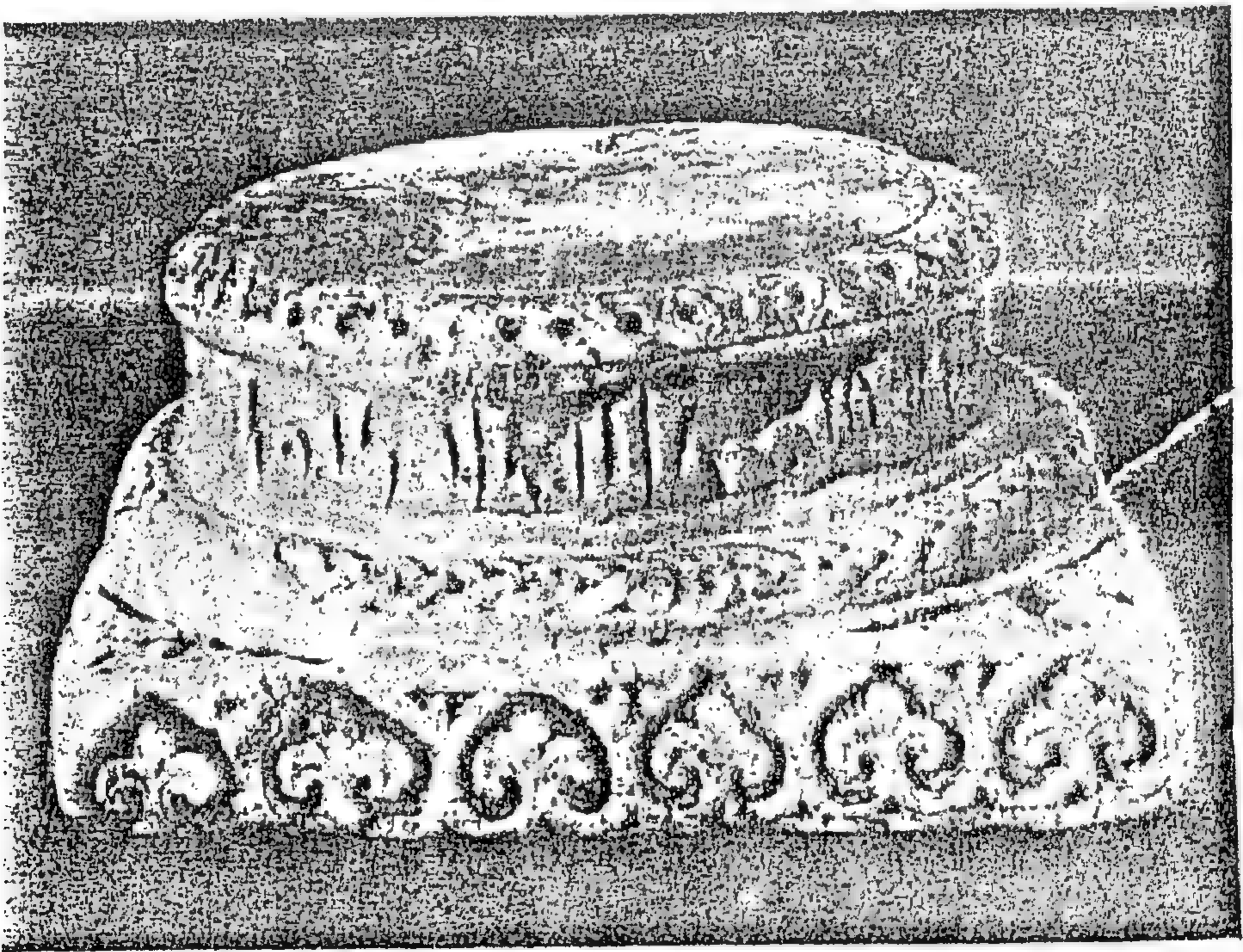
قبة بمسجد
الباب المردوم بعليةطة



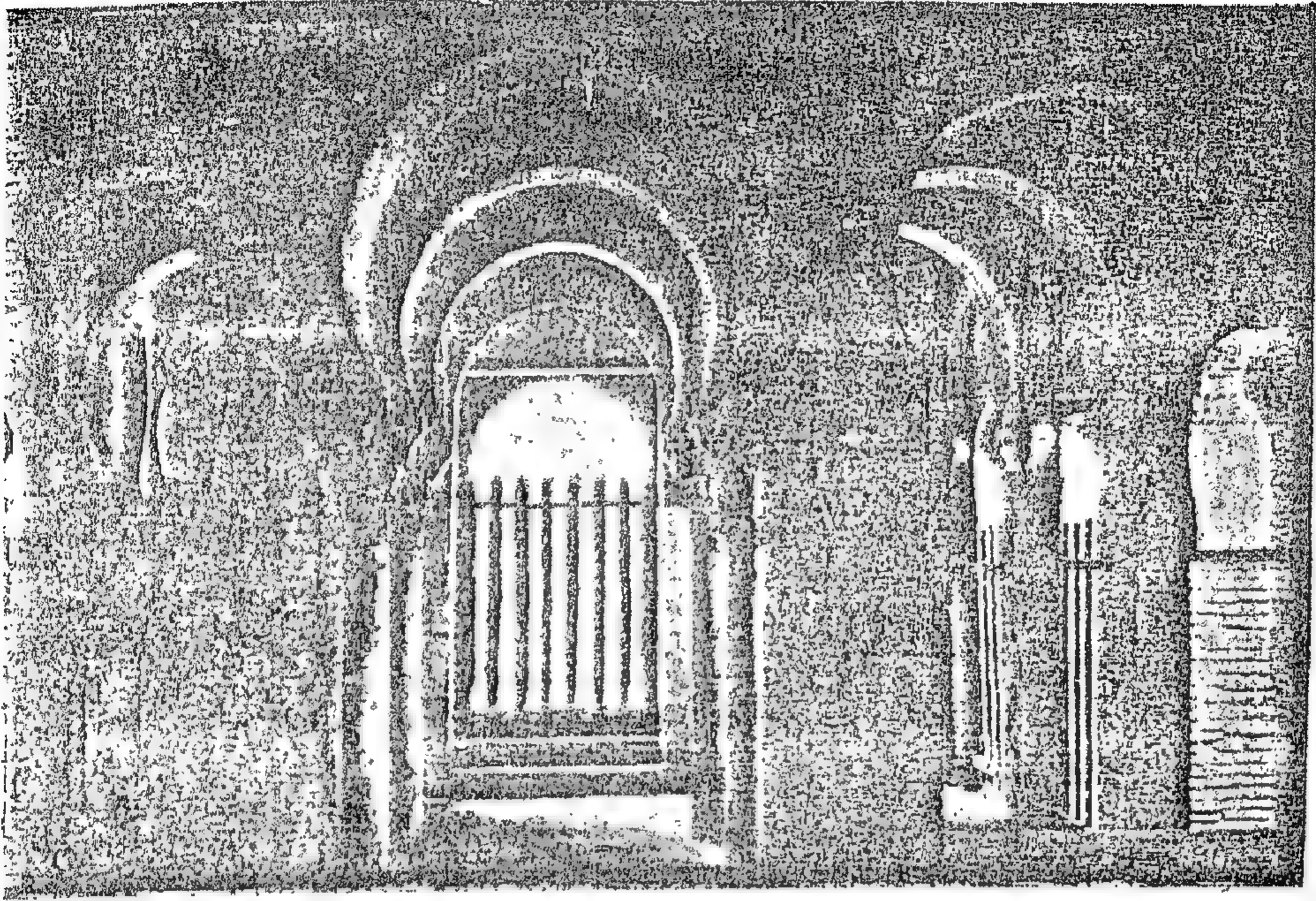
إحدى القبتين المجاورتين لقبة المحراب بجامع قرطبة



جانب من قبة الضوء بأعلى أسطوان المدخل إلى زيادة الحكم المستنصر



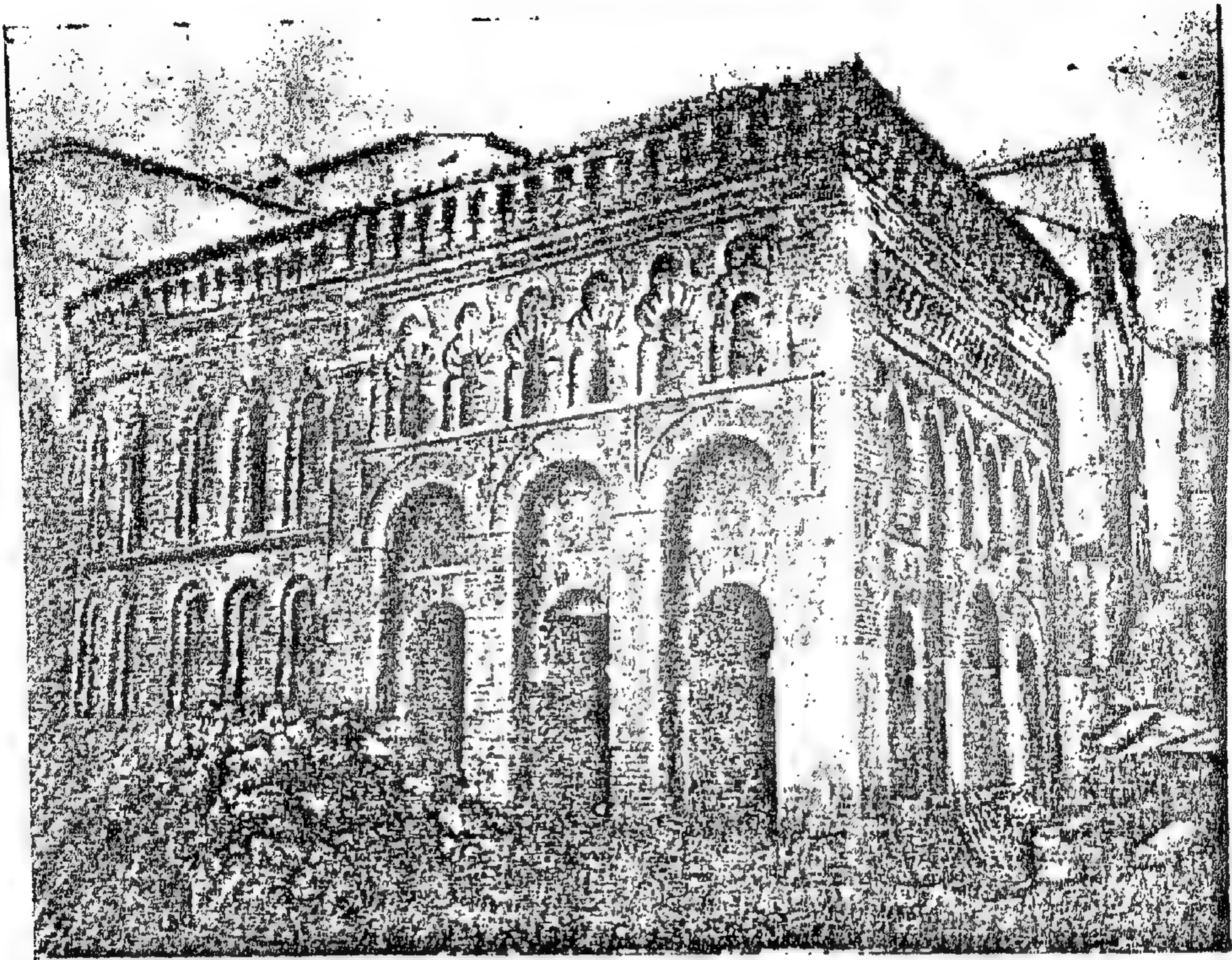
قاعدة عمود من مدينة الزهراء وعليها نقش كتابي بالخط الكوفي نصه (بسم الله الرحمن الرحيم)



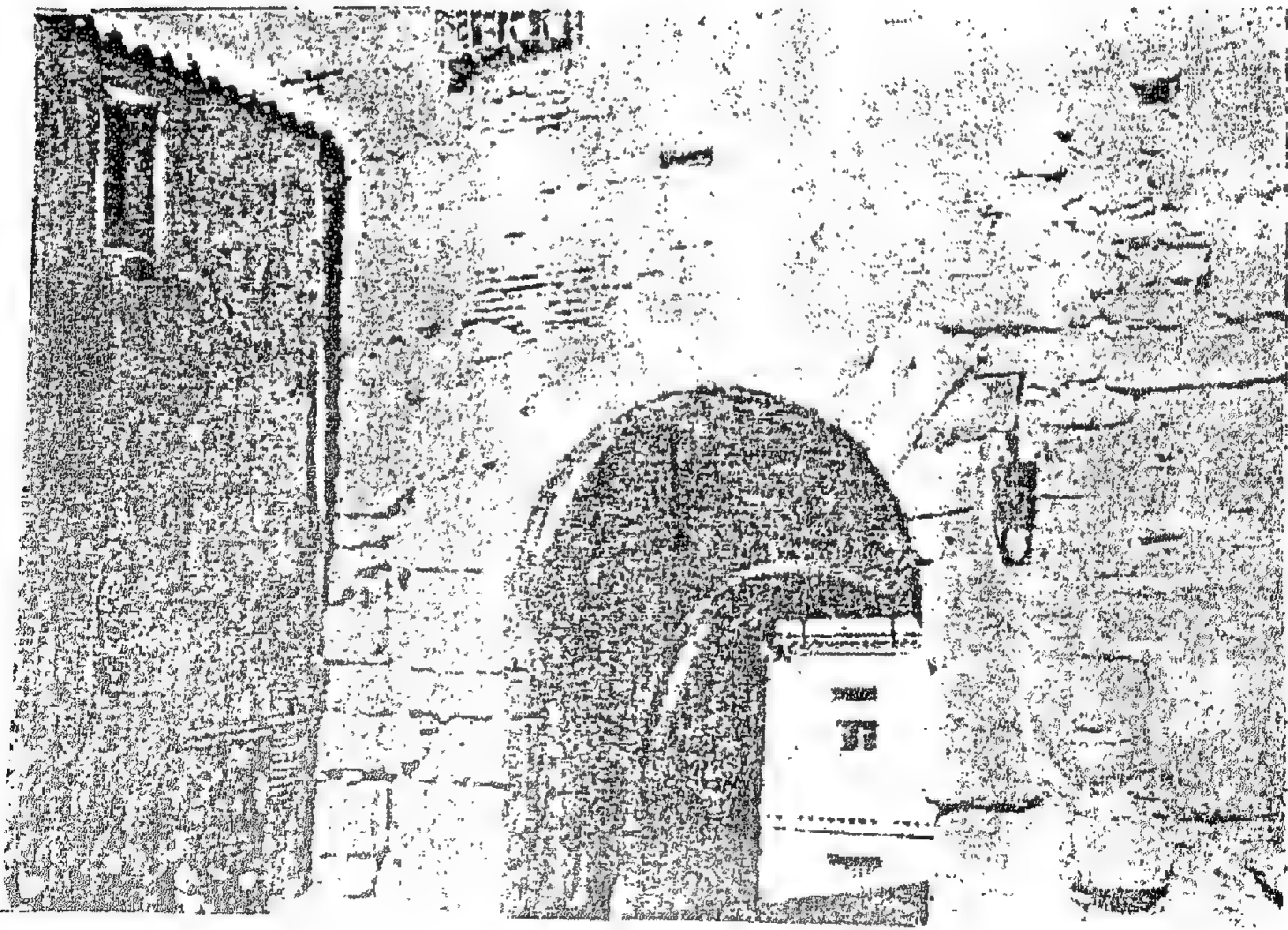
عقود بيت الصلاة بمسجد باب مردوم بطليطلة



قوة بشر من العصر الحلافي
بمدينة طليطلة



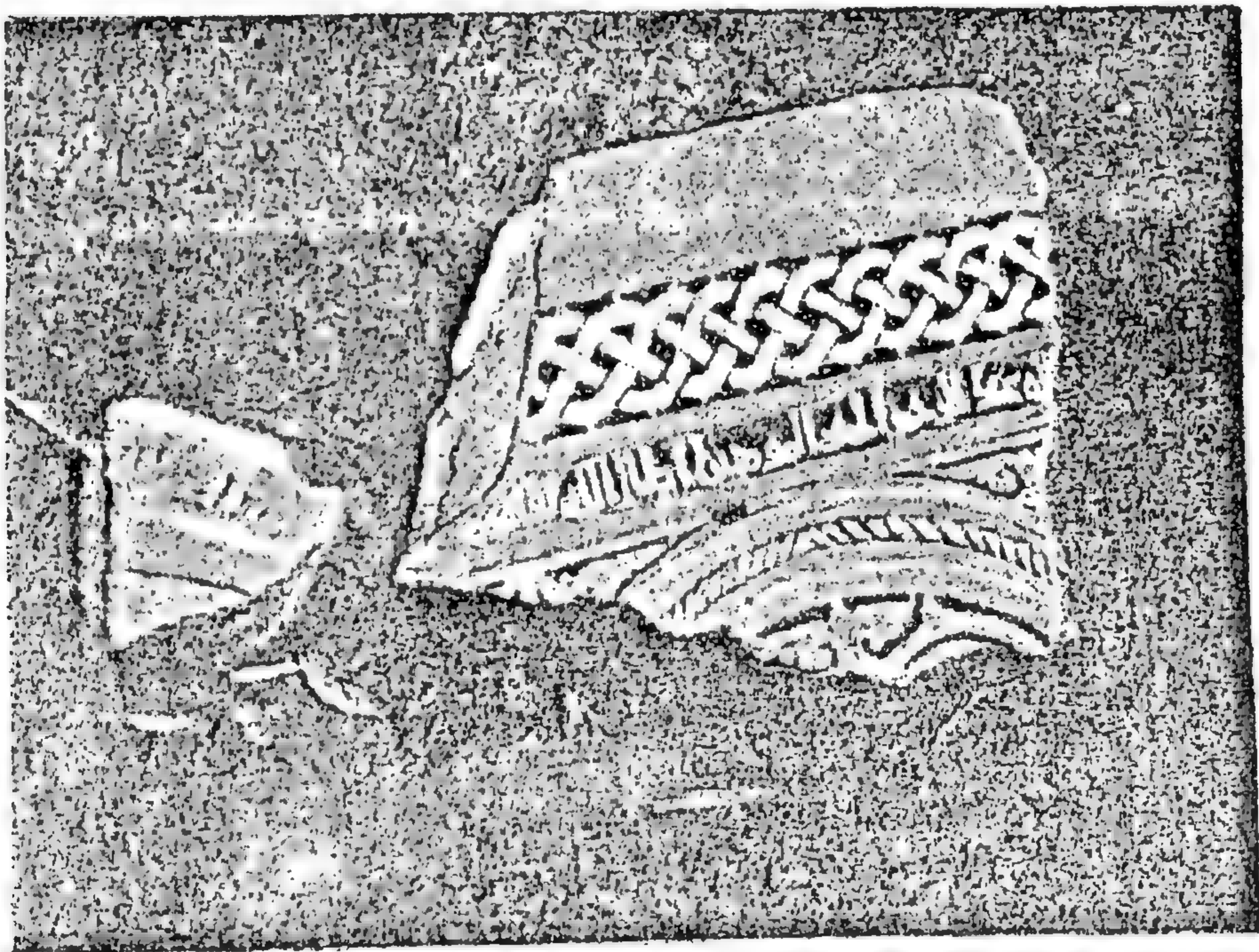
مسجد باب مردوم بعليلة



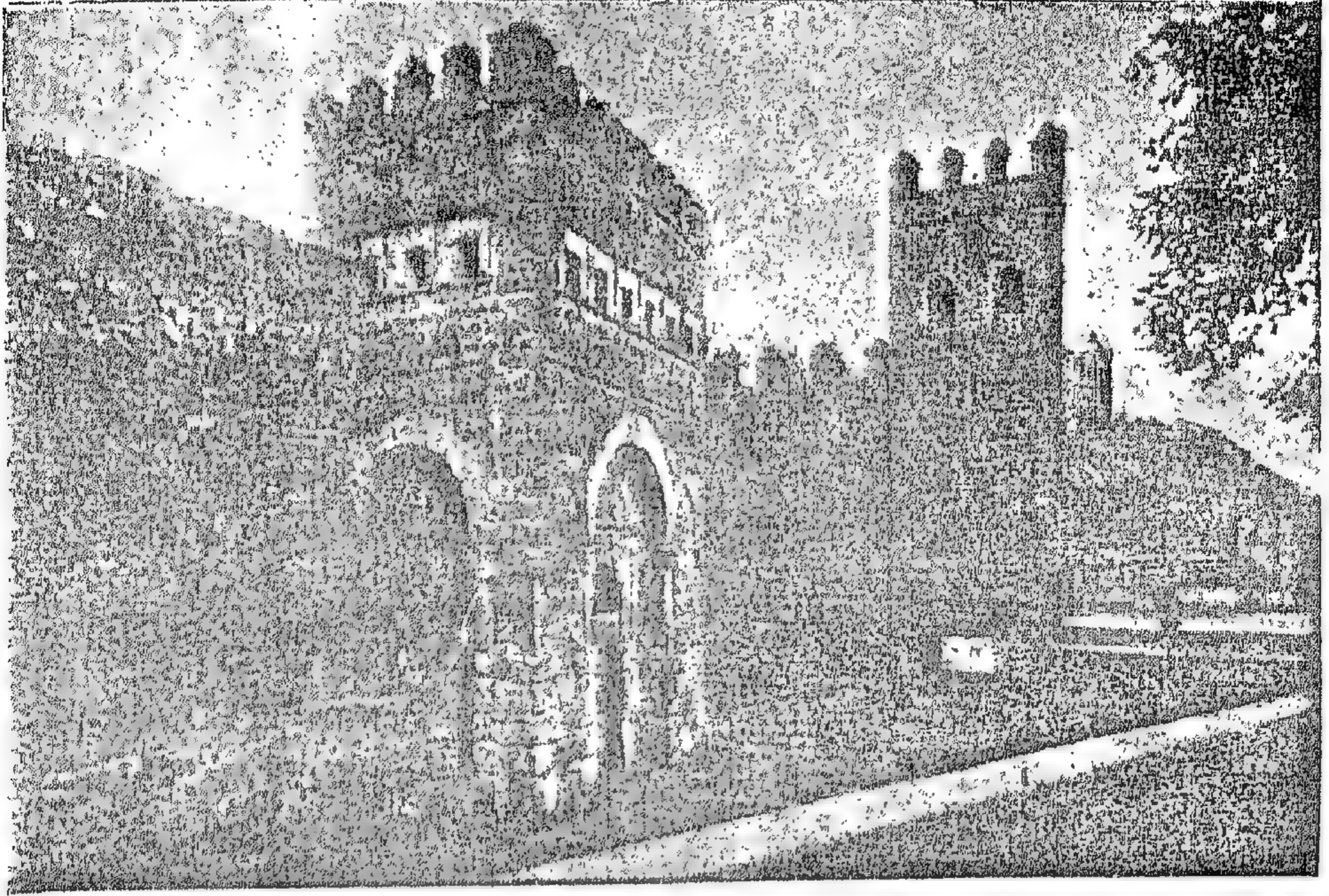
قصر دد بن شاه الامار عبد حمير الأوسط



آثار أعمدة من الطراز الخلفي بمدينة الزهراء

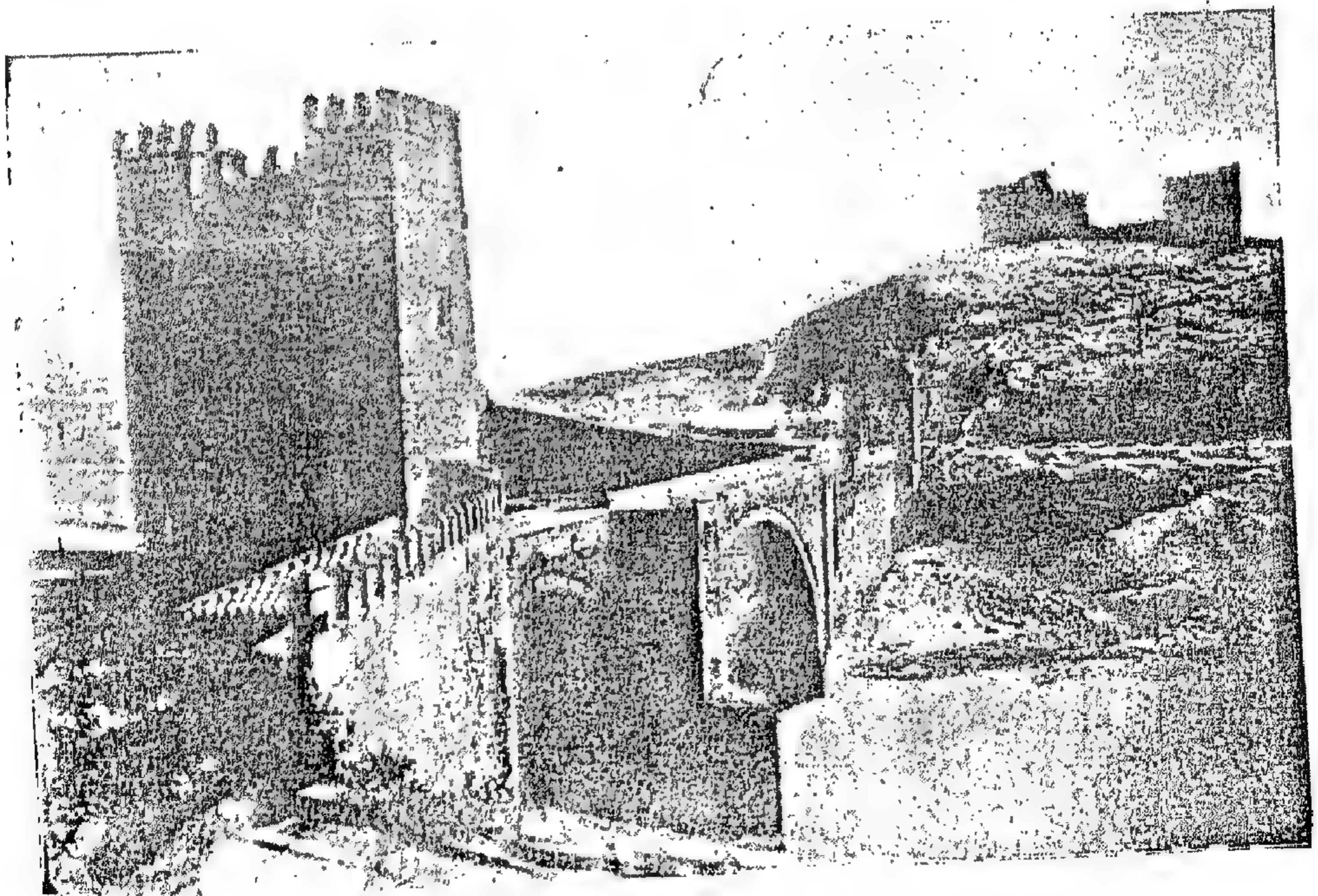


قطعة من الرخام محفون عليها كتابة كوفية باسم عبد الرحمن الناصر



باب شاقرة من أبواب طليطلة

باب شاقرة من أبواب طليطلة



قنطرة طليطلة على نهر تاجة

فهرس بموضوعات الكتاب

الصفحة

المقدمة

٥

الباب الأول

التاريخ السياسى للمسلمين فى الأندلس

الفصل الأول

فتح العرب للمغرب

- ١ — جغرافية بلاد المغرب ١٣
- ٢ — سكان المغرب ١٧
- ٣ — بلاد المغرب قبل الفتح العربى ٢٢
- ٤ — مراحل الفتح العربى للمغرب ٢٥
- المرحلة الأولى (٢٠ — ٢٨ هـ) ٢٦
- المرحلة الثانية (٢٨ — ٨٤ هـ) ٣١
- المرحلة الثالثة (٤٩ — ٥٥ هـ) ٣٣
- المرحلة الرابعة (٦٠ — ٦٤ هـ) ٣٧
- المرحلة الخامسة (٦٩ — ٧١ هـ) ٤٠
- المرحلة السادسة (٨١ — ٨٥ هـ) ٤٤
- المرحلة السابعة (٨٦ — ٩٠ هـ) ٤٥

الفصل الثاني

فتح المسلمين للأندلس

الصفحة

٥١	١ - إسبانيا قبل الفتح الإسلامي
٥١	(أ) دولة القوط الغربيين
٥٧	(ب) مظاهر الاضطراب في أواخر عصر الدولة القوطية
٦٢	(ح) المجتمع الإسباني في ظل القوط
٦٦	٢ - حملة طارق بن زياد
٦٦	(أ) مقدمات الفتح
٧٠	(ب) انتصار طارق في موقعة وادي لكّة
٨١	(ح) زحف طارق إلى طليطلة عاصمة القوط
٨٤	(د) فتح قرطبة
٩١	٣ - حملة موسى بن نصير
٩١	(أ) افتتاح جنوب الأندلس وغربه
٩٧	(ب) موقعة السواقي ومقتل لنريق
١٠٠	(ح) فتح شمال إسبانيا
١٠٩	٤ - عبد العزيز بن موسى واستكمال فتح الأندلس
١١٦	ملحق نصر كتاب الصلح الذي صالح المسلمون عليه تدمير

الفصل الثالث

عصر الولاة

١١٩	١ - عناصر السكان
١١٩	أولا : المسلمون

١١٩	(ا) العرب
١٢٢	(ب) البربر
١٢٥	(ح) الموالي
١٢٧	(د) المسألة
١٢٨	(هـ) المولدون
١٣٠	ثانياً : العجم أو المستعربون
١٣٣	ثالثاً : اليهود
١٣٤	٢ - عصر الولاة والتوسع الإسلامى فيما وراء البرقات
١٥٣	٣ - النزاع بين العرب والبربر
١٦٠	٤ - تحول النزاع بين البلديين والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمانية
١٦٨	٥ - بدء حركة الاسترداد المسيحى

الفصل الرابع

قيام دولة بنى أمية فى الأندلس

١٧٣	١ - الأمير المغامر : عبد الرحمن بن معاوية
١٧٩	٢ - مفاوضات بدر مع موالى بنى أمية لاستقدام عبد الرحمن
١٨٣	٣ - دخول عبد الرحمن الأندلس وبداية الصراع مع يوسف الفهرى
١٩١	٤ - ثورة يوسف الفهرى على ابن معاوية ومقتله هو والصميل
١٩٧	٥ - ثورات عربية ومؤامرات إفريقية
٢٠٦	٦ - حضارة الأندلس فى عهد عبد الرحمن

الفصل الخامس

أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل

الصفحة

٢١٣	١ - عهد الأمير هشام الرضا
٢٢٠	٢ - الحكم الربضي والثورات في عهده
٢٢٨	٣ - ذروة عصر الإمارة أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط
٢٤٣	٤ - عصر الاضمحلال الأول أودويلات الطوائف الأولى
٢٥٣	أولاً : المترون في الأندلس
٢٥٣	(أ) الثوار المولدون
٢٥٦	(ب) الثوار البربر
٢٥٧	(ح) الثوار من العرب
٢٥٩	ثانياً : محاربة الأمير عبد الله لعمر بن حفصون
٢٦٥	ثالثاً : الفتنة بين العرب وبين المولدين في الأندلس
٢٦٥	(أ) في كورة إلبيرة
٢٦٨	(ب) في لبلة
٢٦٩	(ح) في إشبيلية

الفصل السادس

عصر الخلافة بقرطبة

٢٧٩	١ - عبد الرحمن الناصر وتوحيد الأندلس
٢٨٥	٢ - الأخطار الخارجية في عهد عبد الرحمن الناصر
٢٨٩	٣ - مواجهة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر للممالك النصرانية في شمال إسبانيا

- ٤ - قرطبة حاضرة الخلافة ٢٩٢
ملحق نص الكتاب الذي تلقب فيه عبد الرحمن بن محمد بالخلافة ٣١٩

الفصل السابع

بنو عامر وسقوط الخلافة بقرطبة

- ١ - دولة المنصور بن أبي عامر ٣٢٣
٢ - عهد الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور ٣٣٦
٣ - عبد الرحمن بن المنصور سقوط دولة بني عامر ٣٤٣
٤ - الفتنة ٣٤٧
٥ - عهد سليمان المستعين والحرب الأهلية ٣٥٢
٦ - بنو حمود وسقوط الخلافة ٣٥٨
٧ - عوامل سقوط الخلافة ٣٦٤
ملحق (أ) نص إعلان ولاية عهد المسلمين لشنجل ٣٦٩
ملحق (ب) نص إعلان ولاية عهد المسلمين إلى محمد بن سليمان المستعين ٣٧١

الفصل الثامن

الآثار الباقية من العصر الأموي

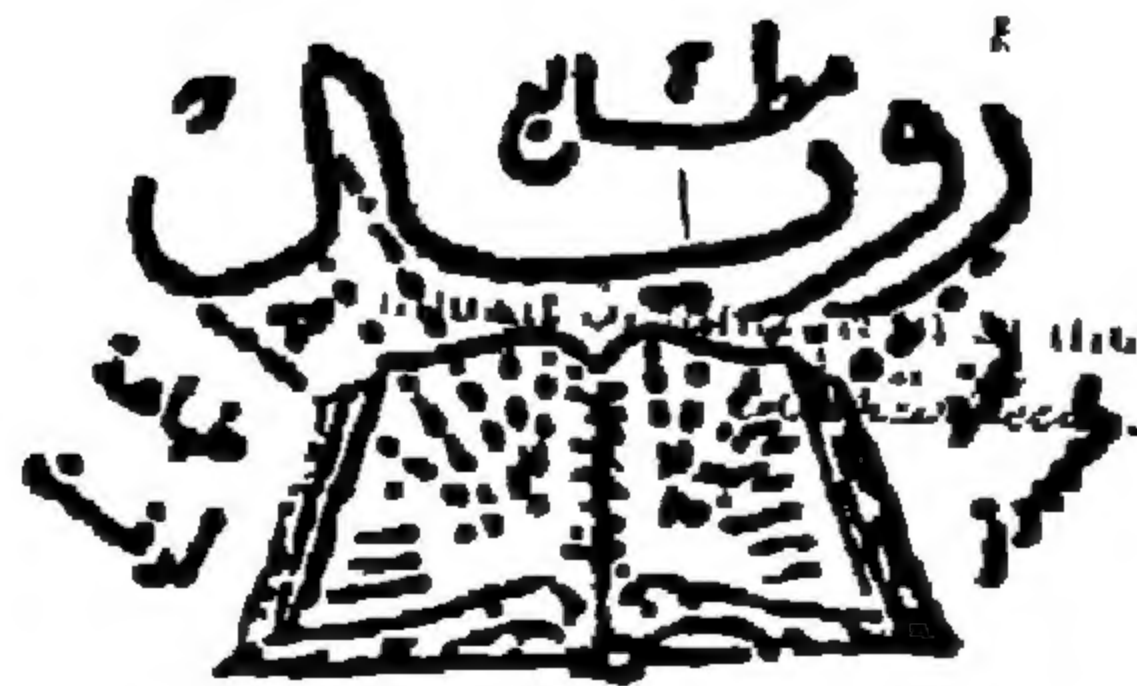
- ١ - آثار المساجد ٣٧٥
أولاً : المسجد والجامع بقرطبة ٣٧٧
ثانياً : جامع عمر بن عبدس بإشبيلية ٤٠٠
ثالثاً : مسجد الباب المردوم بطليطلة ٤٠٢

الصفحة

٤٠٥	٢ - آثار القصور
٤١٢	٣ - آثار الأبنية والحصون والأبنية ذات المنافع العامة
٤٢١	٤ - ملحق الكتاب

فهرس الخرائط

١٤	بلاد المغرب
٧٤	موقعة وادي لكة
٩٣	خريطة الأندلس في العصر الإسلامي
١٣٦	بلاد غالة
٣٠٠	مدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي
٣٨٣	المسجد والقصر بمدينة قرطبة قبل قيام دولة بني أمية



صاحبها ومديرها : محمد بسيوني
تلف ١٦١ ش. فرنسا ت : ٨٠٩٠٠٥ - ١٨٠٥
الاسكندرية

